الرحلة

إلى مصر والسودان والحبشة

تصنيف الرحالة العثماني

أوليا چلبي

إشراف وتقديم

الدكتور محمد حرب

نقلها إلى العربية

الدكتور حسين مجيب المصري وآخرون

راجعها وأكمل مواقعها

الدكتورة ماجدة مخلوف

المجلد الثاني




منتدى إقراء الثقافي

الرحلة

إلى مصر والسودان والحبشة

تصنيف الرحّالة العثمانى

أوليا چلبى

إشراف وتقديم

الدكتور محمّد حرب

نقلها إلى العربية

الدكتور حسين مجيب المصرى وآخرون

راجعها وأكمل مواقفها

الدكتورة ماجدة مخلوف

المجلّد الثّانى

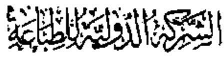




دار الآفاق العربية
نشر - توزيع - طباعة
٥٥ ش محمود طلعت من ش الطيران
مدينة نصر - القاهرة
تليفون : ٢٦١٧٣٣٩
تليفاكس : ٢٦١٠١٦٤
EMAIL:Daralafk@yahoo.com

رقم الإيداع : ٢٠٠٥/١٥٨٤١
الترقيم الدولى : 1- 126 - 344 -944

الطبعة الأولى
٢٠٠٦ م

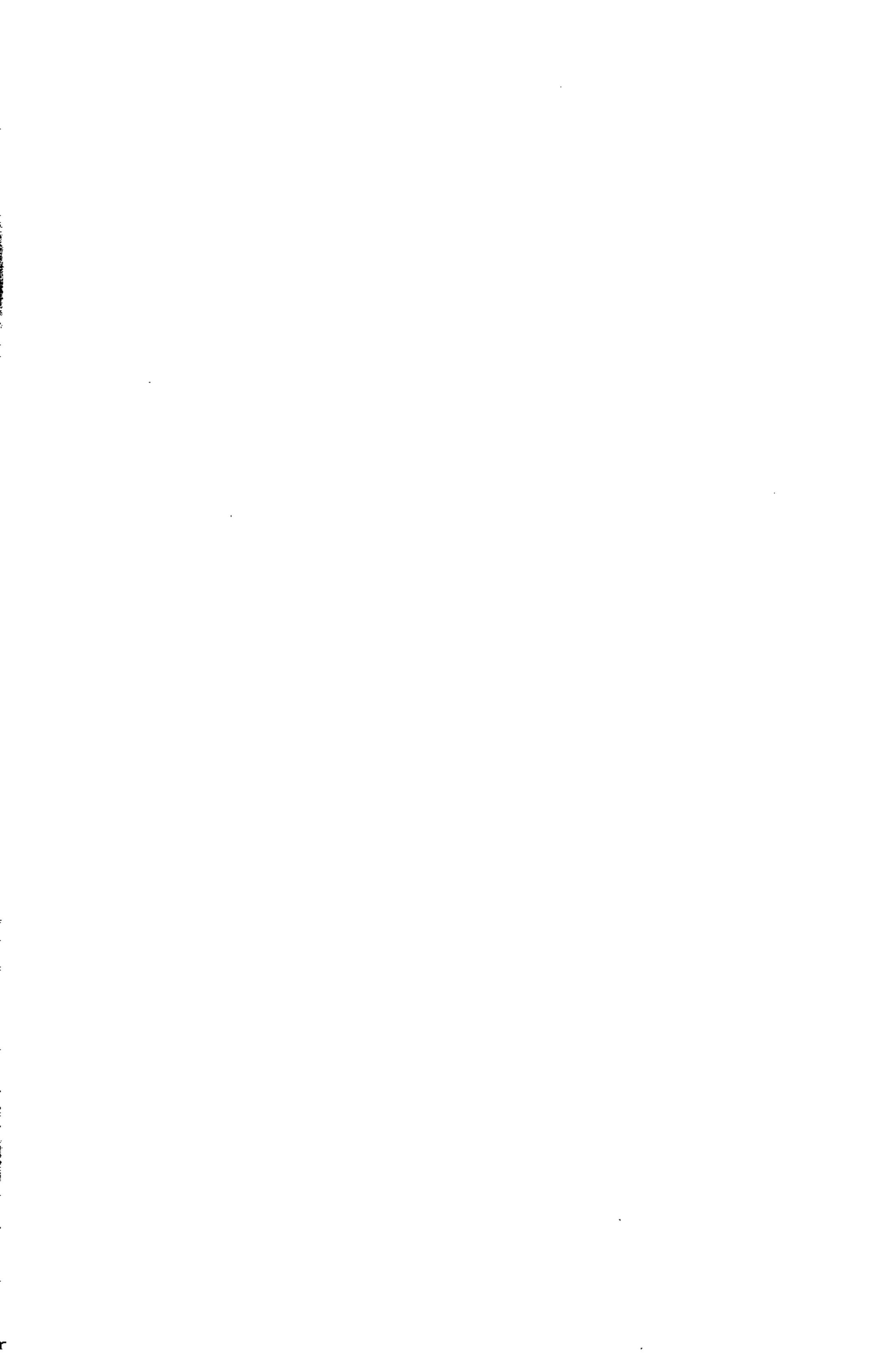


المنطقة الصناعية الثانية - قطعة ١٣٩ - شارع ٣٩ - مدينة ٦ أكتوبر
٨٣٣٨٢٤٤ - ٨٣٣٨٢٤٢ - ٨٣٣٨٢٤٠ :
e-mail: pic@6oct.ie-eg.com

الإهـــــــداء

إلى الصديق البحرينى
الدكتور سمير فخرو
أحد الأعمدة الأساسى
فى النهضة العربية المعاصرة

محمد حرب



الفصل الثالث والخمسين
فى بيان مواكب مشايخ منبع الأسرار
وقطب الأبرار القطب العلوى السيد أحمد البدوى

لأننا كنا فى بداية السنة القبطية وبقى على قطع النيل ستون يوم، وفى اليوم الذى تسقط فيه أول نقطة فى النيل يكون هذا متوافقًا مع ميلاد عالم الفقراء السيد أحمد البدوى، ويقوم أتباعه من الفقراء بالتجول فى الأسواق يعلنون عن قدوم مولد السيد البدوى (بالدفوف والطبول) ويقرأون القصائد ويوحدون وبعد ذلك يتبقى على قطع النيل خمسة وخمسين يومًا، ويتم إخبار كافة مشايخ ودراويش مصر فى ثلاثة أيامٍ وثلاث ليالٍ بميلاد مشهور الآفاق القطب على الإطلاق السيد أحمد البدوى، ويتجول فى بداية الشهر المذكور ما يقرب من خمسة عشر ألف أو عشرين ألف من فقراء ومشايخ مصر بآلاف الرايات والسناجق فى الأسواق وهم يطبلون على الدفوف والنقارات والطبول وينفخون فى الصور وحينئذ ينشغل سبعمائة شيخ بالتوحيد، حيث يسير موكب عظيم من الفقراء والمشايخ فى جماعات وصفوف إلى قصر الباشا الوالى وهم يرددون «يا رزاق» وعندما يصلوا إلى قصر الباشا يقوموا بالتهليل، ويظل المنكرون لذلك فى حيرة وتعجب من هذا المشهد.

بعد ذلك يخرج كافة المشايخ لمقابلة جان بولاد زاده حسين باشا أمين الديوان العالى، يرجونه استصدار فرمان ببدء مولد أحمد البدوى، وبعد الدعاء والثناء، يصدر الفرمان لخليفة البدوى بأن يقوم هو وكافة المشايخ بالتوجه بالسفن مع كافة الفقراء من بولاق فى موكب عظيم، حيث يتجهون إلى الغربية ويُخطر حاكم الغربية حسن بك وحاكم المنوفية ميرزا كاشف بأن يقوم الجنود بحراسة كافة المشايخ والفقراء الحاضرين فى الموكب لمولد السيد أحمد البدوى وينبه عليهم بأن تكون جنودهم فى حراسة خيام هؤلاء القادمين للمولد، وإذا ما صادف أحد الجنود أى مشقة من أشقياء العربان يحمل نبوت أو عصا أو سلاح فيقوم الجنود على الفور بقتله، ويحرر الأمر الشريف ويعطى للمشايخ ويقوم كبار المشايخ بالدعاء بالخير للباشا الوالى، ويقوم الباشا الوالى بإعطائهم خمسين سفينة

يركبها الفقراء الذاهبين لحضور مولد السيد أحمد البدوى، ويأخذون من المحتسب خمسين قنطارًا من البقسماط والبصل والجبن الحلوم، ويقوم الباشا الوالى بالإحسان على قبر أحمد البدوى بقطعتين من القماش الأخضر وكيلتين من العود وسجادة من الإبريشم، وشمعتان من شمع العسل تَزن الواحدة خمسين أوقية، وخمسون عملة ذهبية لختم القرآن الكريم خمسين مرة.

وبناءًا على قانون التشريفات يقوم الوالى بتوديع كافة المشايخ وينزل إلى ميدان القصر ويقوم شيخ الجلادين بقراءة المولد أمام جميع أهل الديوان فى ميدان القصر، ثم بعد ذلك يذهب كافة العاشقين الصادقين مع جملة الفقراء المجازيب من المدينة وهم يقولون «حى هو»، ثم يسير الخليفة (خليفة البدوى) فوق الجواد محييًا عن يمينه وشماله، ويكون شيخ المشايخ الشيخ مصطفى الروملى خليفة حضرة الشيخ مرزوق الكفافى قائدًا لكافة المشايخ، ويعبر الموكب حيث ينادى الدلالون أن مولد البدوى يوم كذا القادم، وينزل موكب الشيخ الخليفة عند تكية الشيخ مرزوق الكفافى، وهنا يذهب كل العاشقين إلى ديارهم، وبهذا تُعلن بداية مولد الشيخ البدوى، وبعد ذلك بعشرين يوم.

أوصاف موكب مولد الشيخ إبراهيم الدسوقى

هذا أيضًا موكب عظيم، حيث يسير عدة آلاف من الفقراء والمشايخ على دقات الطبول، ويرفعون الرايات، حفاة الأقدام عراة الرأس يقولون: «يا رزاق» ويعبر موكبهم بالذكر والتهليل وهم فى خشوع وخضوع متأدبين بآداب رسول الله ﷺ، ولا يوجد فيهم ملاميون أو مجاذيب، حيث أن تلك الطريقة هى الطريقة البرهانية الطريقة السلطانية، ويكون هذا الموكب على نفس نسق الموكب السابق، حيث يذهبون إلى قصر الباشا الوالى ويستأذنون منه، ويعبر موكبهم وهم يوحدون، وليس لهذا الموكب عطايا مثل الموكب السابق ولكن وزير مصر يقوم على سبيل المرحمة بتقديم قطعتين من القماش الأخضر وأوقية من عود البخور، هبة من وزير مصر حيث أن قانون التشريفات فى مصر ليس به منح أو عطايا لهذا الموكب، وشيخ هذا الموكب هو الشيخ شرف الدين ويسير بموكب عظيم، ثم يسير المشايخ إلى منازلهم ويذهب كل شخص إلى داره، وبعد

تلك المواكب الخاصة بالموالد تكون كل ليلة فى مـصر مولدًا للنبى وبذلك يكون ثلاثمائة وخمسـة وستون مولد نـبى، ومن تلك الـليالى ليلـة الإسراء وليلة الـقدر وليلة الـعيد الأكبر، وتكون كل تلـك الموالد بفرمانات من الوزير، حيث يصل عـدد تلك الفرمانات إلى اثنى عشر، ويـنادى الدلالون بها. من تلك اللـيالى ليلة مولد أحمد الـبدوى وليلة مولد إبراهيم الدسوقى ولـيلة موكب أمير الحج وليلة السابع من شهـر صفر وليلة مولد الجانبولاديه عند باب النصر، وقد تحرر هـذا فى مواكب الحج، وهذا أيضًا يكون بفرمان من الوزير، ورابع تلك الموالد.

أوصاف مولد حضرة الشيخ البكرى

فى ليلة الإثنين المـوافق الثانى عشر من شهر ربيع الأول تُزيـن مآذن مصر بمائة ألف قنديل لعدة مرات، حتى أن المدينة تصبح مضيئة تمامًا، ويُقام فى تلك الليلة على جانب بركة الأزبكية مولد الشيخ البكرى، حيث تُقام الموائـد قبلها باثنى عشر يومًا وليلة لجملة أعيان مصر، وتكون تلك الموائد لكل طبقة من الأعيان على حدة، فليلة للأئمة والخطباء وليلة للعلماء والصـلحاء، وليلة للمشايخ الشرفاء وليلة لأعيـان الأشراف، وليلة لنقيب الأشراف وليلـة مشايخ المذاهب الأربـعة وليلة للـمدرسين وليلة لـلقضاة وليلـة لقاضى مصر، وليلة لوزير مصر، وفى حالة ما إذا كان لا يقوى على السير يأتون هم إليه محبة منهم، لا سيما وأنها تكية عظيمة، وليلة لكافة الأمراء المحمديين، وينسحب الشيـخ أبا بكـر ويأتـى بالإحسان والهدايا الكثيرة الوافـرة ويأخذ منها الخاص والعام، ولا تبقى مياه فى بركة الأزبكية، حـيث يمكث كافة المشايخ والأعيان فى الخيـام فى مساحة ألف فدان فى الصحراء الشـاسعة، ويجتمع فقراء مائة وأربـعين طريقة وينشغلوا بالـذكر والتوحيد كما يُؤسس سوقًا فى جهة منها، وتُباع الأطعمة والمشروبات، وتكون أسواقًا كثيرة.

ويقوم أصحاب المنازل الـواقعة على الجوانب الأربعة لبركة الأزبكـية بإنارة مائة ألف قنديل عـدة مرات، وتُطلق الأعيـرة والألعاب النارية والفـشنك وتقرع الطـبول وتعزف الموسيقى، بما تعجز الألـسنة عن وصفه، كما تُزين التكايا بالقـناديل وتموج كل النواحى بالبشر وكأنها الـبحر، ويأخذ بنى آدم الذوق والصفا من هذا المشـهد، وفى تلك الأثناء

يستعد الشيخ لقراءة المولد النبوى فى حضور العلماء والصلحاء والمشايخ على ضفاف حوض القاضى الأعظم، ثم يقوم بتلاوة التواشيح الدينية بنغمة حزينة، ويقرأ كافة الحضور المولد النبوى، ويقوم سبعون أو ثمانون خادم يرتدون البناطيل الحمراء بإشعال أعواد العنبر الخام، وتتعطر رءوس العاشقين من رائحة المسك والعنبر، ويُوزع عليهم سكر النبات والمشاريب ذات المسك والمعطرة فى أوانى مزينة، ويُقرأ المولد الشريف ثلاث مرات ويُحسن على الموشحين والقارئين بالهدايا فى الصباح، ثم يتوجه كل شخص إلى وجهته، والحاصل أن اللسان يعجز عن وصفه، وفى تلك الليلة أيضًا يكون مولد:

مولد تكية الشيخ إبراهيم الكُلْشَنِى

يقام هذا المولد ليلة الثانى عشر من شهر ربيع الأول ومن الصوفية من يذهبون إلى مولد سيدى الشيخ البكْرِى ويمضى البعض الآخر إلى مولد سيدى إبراهيم الكُلْشَنِى وهناك من يذهب إلى مولد البكْرى، ثم يأتى إلى مولد إبراهيم الكَلْشنى.

إلا أن مولد الكُلْشنى هذا ليس مولدا للفلاحين ولا العوام من الناس بل هو لخواص الخواص، ويحضره جميع الأتراك وطوائف الجند وأرباب المعرفة والمتصوفة والظرفاء والشعراء. ولا يحضره الغرباء ولا الجهال.

وبعد العشاء يبسطون السجاجيد الحريرية الخضراء النفيسة فى الحرم المجلو والمصقول أمام الضريح المنير والمعطر لسيدى الشيخ العزيز، ويأتى الصوفية زرافات زرافات وبعد أن يؤدى جمع حاشد من الناس صلاة العشاء يشكل جميع المتصوفة حلقة طبق المراسم الكُلْشَنِيّة وتتلى سورة «المُلك»، ويتلو جميع الصوفية الأوراد والأذكار فى صوت واحد وبقلب واحد وبينما ينشغل عشرون بالذكر فى جانب وعشرون آخرون فى جانب آخر يقع بعض الصوفية فى حال الوجد فينهضون ويبدأون فيما يعرف بالسماع، ويدور جميع المتصوفة حول أنفسهم، وتصدر عن الذاكرين أشعار وأنغام شتى مختلفة المقامات الموسيقية، وهى كثيرة يصعب حصرها، وتختلط اثنتا عشرة حلقة من حلقات المتصوفة بعضها ببعض متصادمين وقد امتلأت قلوبهم بصفاء المحبة فيقعون فى حال الجذب كما

يقعون فى حال الوله وهم فى دورانهم، ويتغنون بالمنظومات الدينية فى صوت حزين والتى تسمى الواحدة منها «إلهى» ويداوم الذاكرون على ترديد كلمة «اللهم» فى ارتفاع وانخفاض من سمعها وكان مكدودًا مهمومًا كاسف البال ـ دب فيه دبيب الحيوية والتفاؤل، والله أعلم.

وجملة القول أنه على هذا النحو ينشد اثنى عشر فصلا من التوحيد السلطانى فى اثنى عشر مقامًا ليست لواحدة من الطرق الصوفية المائة وأربعين، وربما كانت للطريقة المطاوعية أو الطريقة البرهانية.

وبعد هذه الفصول يخرج «جلبى أفندى» من خلوته فيحيه جميع الصوفية ويتقدمون لتقبيل يده، فلا يأذن بذلك إلا لمن بايعه وتشرب تعاليمه، وأصبح موضع سره ومن أهل طريقته؛ ولذا يقبل كف يده اليمنى.

و«جلبى افندى» هذا لا يغادر حجرته قط ولا يختلط بأحد من عوام الناس. إلا أنه يخرج مرة واحدة فى العام هى ليلة المولد. وهو يمتنع دوما عن الكلام صوام النهار قوام الليل دائمًا فى طاعة وعبادة منقطع لتلاوة القرآن الكريم.

ولكى يتعيش يشتغل بالخطاطة فهو جميل الخط، إنه يخط بعض الرسائل يرسلها إلى بعض المتصوفة تبركا على سبيل الهدية.

وسبب خروجه يوم المولد هو أن بعض المتصوفة يبايعونه ويدخلون فى طريقته وبعضهم ممن لديه الاستعداد للإقامة فى التكية طيلة أربعين أو خمسين سنة يتلقون على يده كيف يصبحون أصحاب سجادة فى بلد آخر. كما أن بعض المتصوفة يشرفون بلقائه مرة فى العام ويظفرون منه بخير الدعاء.

يجلس المتصوفة على السجادة الموجودة على يمنة المحراب فى سكون وخشوع وبعد أن يفرغوا من التوحيد والذكر يصعد المنبر عالم فاضل لتلاوة الأوراد ويردد الموشحات فى صوت واحد، ثم يبدأ ذلك الشيخ الفاضل فى قراءة «مولد سليمان جلبى»[1] فى صوت رخيم فى اثنى عشر مقاما، ويحيون الليلة حتى مطلع الفجر وهم على تلك الحال.

وعندما تحل لحظة ولادة النبى وتذكر مولد خير الأنـام ينهض المتصوفة جميعا إعظامًا وإجلالا وينشدون هذه الأبيات فى صوت حزين:

ألم يكشف جـمالك الدُّجَى يا رسول الـلـه

ألـم يـبلـغ كـلام حـبـيـبك ذروة الـعـلـى

ثم يبدأ خدام المتصوفـة الكَلشنيين فى توزيع أنواع الحلوى عـلى الحضور من الأعيان والأشراف، وبعضهم يوزع لفائف النُّقْل والأشـربة المعطرة، وفى أثر ذلك توزع فناجين القهوة والشاى واللبن والفالوذج والسحلب هنا وهناك.

وبعد ذلك ينثر الصـوفية ماء الورد وما أشبه على الحضور، ويحرقـون العنبر والعود فى المباخر فينتشى الصوفية من شذاها.

وبذلك نكون قـد انتهينا من ذكر مولـد آخر، ويذهب من يذهب ويبقـى من يبقى، ويبدأ الصـوفية فى تلاوة التوحيـد ثانية وبعد الفراغ مـن تلاوته يتلون العشـر الشريف: «بسم الله الرحمن الرحيم» ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧٣].

وبعد الدعاء يـتوجه بعض الصوفية لزيـارة سيدى الشيخ العزيز فـى داره ثم يذهبون إلى منازلهم.

وجملة القول أنها تكية طريقة طاهرة يعجز اللسان عن امتداحها والسلام.

وفى ليالـى هذا الشـهر يزين فاعلو الخير المنارات بالعمائم والمـناديل والأقمشة لقراءة المولد، ويعلم مـن ذلك أن ثمة مولد سوف يتلى تـلك الليلة فى ذلك الجامع فـيحتشد الناس جميعًا فيه. وفى تلك الليلـة توصل الحبال من دار إلى دار فى الحارة وتعلق فيها القناديل، كـما تزين المقاهى والحوانيـت بالقناديل كذلك. وهـذا ما لا وجود له إلا فى القاهرة.

---

(١) منظومة تركية هى الأشهر عند الترك فى مدح الرسـول محمد ﷺ، تعرف بـ «وسيلة النجاة» وقد نقلها نظمًا وشرحها وعلق عليها الأستاذ الدكتور حسين مجيب المصرى، ونشرت بالقاهرة ١٩٨١.

ومن الحق قولنا أن مصر نادرة الزمان.

ومن الناس من يتلو الموالد فى المنارات وأيًا كـان عدد من يتلون المولد فإنهم يأخذون العمائم الحريرية الموجودة فى المنارات. وثمة منارات تتسع الواحدة منها لاكثر من أربعين رجلاً، لأن كلا منهـا بنى طبقة فوق طبـقة كأنها البرج وكل طـبقة منها تتسـع لخمسين رجلاً.

ويردد أكثر من أربعين من البدو المولد حتى مطـلع الفجر للحصول على صرة وتبلغ أصواتهم عنان السماء.

أوصاف مولد سيدى أحمد الرفاعى

إنه برهانى الطريقة، يقام هذا المولد فى لـيلة الجمعة الأولى من شهر رجب، والتكية الرفاعية تكية عـظيمة عند جامع السلطان حسن فى حارة «صـانعى الرماح»، وقد سبق وصفها ضمن حديثنا عن التكايا فى القاهرة.

وهذا المولد ليس مزدحما إلى حد ما، ويحضره حشد من أهل التقوى والصلاح من ذوى الكرامات. يا له من ملتقى لخواص الخواص.

أوصاف مولد سيدى عمر بن الفارض

تكية عظيمة فـى سفح جبل الجوشى الواقع جنوب القاهرة، يقـام فيها المولد مرة فى العام يحضره مائتا ألف من الناس.

وتجتمع كلمة علماء مصر على أنه فى ذلـك اليوم تحضر روح النبى (صلى الله عليه وسلم) لأنه وقت إقامة هذا المولد يعم الضـياء، ويخطف البرق فى داخل الجامع، وهذا ما لا حدوث له فى جامع آخر.

وما أن يصل متكبر أو متـجبر إلى هذا المولد حتى يتعلق قلبه بـهذه التكية. و يتوافد على هذه التكية جميع المتصوفة والمساكيـن والغرباء وفى ليلة المولد تلك تتجلى كرامات بعض المتصوفة.

كرامات الشيخ محمد اللبنانى

بينمـا كنت أجلس مع إمام الـدفتردار أحمد باشـا داخل محفل المؤذن نهـض الشيخ

محمد اللبنانى وهو من أصحاب الكرامات واتجه بالخطاب إلى إمام الباشا وسط حشد من الناس قائلاً: «يا إمام الوزير إنزل بالعَجَل إلى مصر، روح إلى الروم بالسلامة» ثم انزوى هذا الدرويش أسفل العمود الذى اعتكف تحته منذ سبع وأربعين سنة وكل من سمع هذا من قوله قال: انزل يا إمام انزل.

فمنهم من ظن أن الإمام سيموت، ومنهم من ظن أن المحفل الذى يجلس فيه سوف ينهار.

فخاف الإمام ونزل أما أنا فلم أحرك ساكنا قط ولبثت فى مكانى رابط الجأش.

وفى اليوم السابع خُلع أحمد باشا الدفتردار وإمامه وعمت الثورة القاهرة. ولعل هذا كانت نبوءة الشيخ اللبنانى.

أى أن تكية عمر بن الفارض تلك بها العديد من أصحاب الكرامات ممن لا سبيل إلى امتداحهم أو وصفهم. و هذه التكية زاوية اعتكاف أهل الحال ممن يتحدثون بالتخاطر ويصلون إلى هذه المرتبة بالرياضات والمجاهدات. إنهم صوامون يفطرون مرة فى الأسبوع وهم أناس أطهار أبرار.

وأثناء مقامى فى القاهرة (فى كل يوم جمعة عقب الصلاة رأيتهم يقيمون شعائرهم) ويحتشد آلاف من الناس وكنت فى ذلك اليوم بالذات ألتقى بهذه الطائفة الخاصة وكم شاهدت لبعضهم من كرامات. وطيلة إقامتى فى القاهرة لم أتخلف عنهم قط فى يوم جمعة، لأنى كنت أكتسب من ذلك صفاء الروح وأقف على مختلف أسرار أحوالهم.

وفى يوم الجمعة فى تلك التكية تنشد القصيدة «التائية» لعمر بن الفارض، وعندئذ يغيب المتصوفة فى نشوة الوجد ويضربون الأعمدة برءوسهم فلا يصيبهم من ذلك أذى بإذن الله. ويتبارى العديد من أصحاب الصوت الرخيم فى تلاوة العشر الشريف وقصائد مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم).

إنها تكية يستجاب فيها الدعاء والمولد المقام فيها مولد يحضره جميع المتصوفة.

مولد أبى السعود الجارحى

ثمة بلدة تقع بين مصر العتيقة ومصر الحديثة يقام فيها المولد فى يوم الأربعاء من كل أسبوع إلا أنه يزدان بمئات الآلاف من القناديل، وتهتز السماء والأرض من دوى التوحيد طيلة ثلاثة أيام بلياليها حتى مطلع الفجر.

ولأن هذه البلدة تبعد عن جنوب القاهرة بثلاثة آلاف خطوة يمضى إليها مائتا ألف على ظهور الحمر، فيمتلء ذلك الوادى بالحمر ويتزاحم الناس فيه وكأنهم في موسم الحج. ولأن سيدى الشيخ أبى السعود الجارحى قريب عهد بهم فهم يذكرون عنه الكرامات ويحتفون احتفاء لا مزيد عليه بمولده.

لقد عاش الشيخ أبو السعود فى عهد السلطان سليم وهو القائل: «تعال يا سليم اجلس على تخت مصر».

مناقب الشيخ الفانى

وثمة من عمر وشرف بصحبة الشيخ أبى السعود الجارحى واتفق أن أتوا به إلى مجلس جان بولاد زاده حسين باشا وقبل الباشا يده الشريفة، ونال منه خير الدعاء إنه الشيخ الفانى (بير فانى)، وهو ليس من أهل القاهرة بل هو من المنوفية، وبما أنها تمتاز بجو لطيف فقد عمر طويلاً، ولقد ظفر بدعاء سيدى الشيخ أبى السعود فنبتت أسنانه اللبنية فى فمه وكف بصره، وصارت عيناه وكأنها قديد، وكان يبكى كالأطفال قائلاً: إننى جائع منذ ساعة.

ها هو من يعمر ببركة دعاء سيدى الشيخ أبي السعود له. ولله الحمد أنى شرفت بتقبيل يد هذا الشيخ الهرم الذى شرف برؤية صباحة وجه الشيخ أبى السعود الجارحى وبلغ السبعين بعد المائة من سنيه، وظفرت منه بخير الدعاء.

ولأن الشيخ أبى السعود أحد أقطاب الصوفية العظام يقام له مولد عظيم.

مولد الإمام الشافعي . رحمة الله عليه

يمضى آلاف الناس لزيارته كل ليلة سبت ويختمون القرآن الكريم مئات المرات حتى مطلع الفجر شريطة أن يقوم بذلك شيوخ المذهب الشافعى. وهناك من لم ينقطعوا عن حضور هذا المولد منذ أكثر من أربعين سنة وهم كثرة.

وفى كل عام تقام سوق عظيمة ثلاثة أيام بلياليها فتصبح بليدة الإمام الشافعى بحرا زاخراً من البشر. وكم من أناس دفنوا تحت الضريح العالى ممن استشهدوا فى شدة الزحام ولا حاجة لنا للإسهاب فى هذا الباب.

وليعلم إخوان الصفا أنه ليلة إقامة المولد فى أيامنا تلك يختم القرآن الكريم أربعمائة وثلاث وعشرون مرة لأنه فى تلك الليالى يجتمع الآلاف من حفاظ القرآن الكريم ويقال إنه فى إحدى السنوات على عهد إبراهيم باشا ختم القرآن سبعمائة وأربعين مرة، كما يقال إن أرواح جميع الأقطاب والأولياء تحضر فى تلك الليلة داخل الجامع لذا وقبل بدء المولد بخمسة أيام أو أكثر يستأجر أشراف القاهرة وأعيانها المنازل فى بليدة الإمام الشافعى بخمسة أو عشرة قروش، ويأتون بأهلهم وعيالهم وأطعمتهم وأشربتهم ويمرحون وينعمون. ويأتى التجار بمئات من خيامهم لبيع الأطعمة والأشربة وبذلك تقام سوق عظيمة. تزين مئات الخيام من خيام الزوار بالقناديل كما تزين جميع المنارات وأسطح المنازل بمئات الآلاف من القناديل فتبدو المدينة فى كامل زينتها. وبذلك ينتهى حديثنا عن مولد الإمام الشافعى.

وقبل أن ينفض جمع المجتمعين ينطلقون إلى مولد سيدى أبى الليث على مقربة من الإمام الشافعى.

مولد تكية سيدى الشيخ أبى الليث

وهو يشبه مولد الإمام الشافعى إلى حد بعيد، يحضره المؤلفون والمصنفون ومعهم آثار عبقريتهم ويلتقى فيه شيوخ الإسلام على المذاهب الثلاثة وتعرض جميع المؤلفات والرسائل على أهل العلم والفضلاء لقراءتها، وإذا رأوا مؤلفا قيما ختموه ووقعوا على صفحات الكتاب مجيزين بذلك تلاوته وتداوله.

ويضعون هـذه المؤلفات ليلـة أو أكثر فى الصنـدوق الذى يعلو ضريـح سيدى «أبى الليث» واتفق أكثر من مرة أن أخرجت تلك المؤلفات من موضعها فى الصندوق ولوحظ أن بعض مواضع فيـها قد شطب وبعض مواضعها الأخرى صُـوِّب، كما وجدت رسالة فى العقائـد لأحد المؤلفين محترقة داخـل الصندوق ووجدت النسخة الأخـرى منها فى الصباح ـ محـترقة ـ وقد حدث ذلك فى عهد أبـى النور محمد باشا. فأبـو الليث إمام همام يحتشد فى تـكيته العلماء والصلحاء والحفاظ يختـمون القرآن الكريم آلاف المرات طيلة ثلاثة أيام بلياليها حتى مطلع الـفجر. وهكذا تكون موالد أعاظم العلماء. وهذا ما يعجز عنه الوصف.

بعد ذلك يمضى المتصوفة إلى الشيخ عقبة.

مولد سيدى الشيخ عقبة الجهينى - رحمة الله عليه -

لحق بهذه التكية الخراب على نحو ما أسلفنا ذكره، لذا تعذر إقامة مولده لفترة، وفى عام ١٠٦٣ رأى خاصكى مـحمد باشا المشهور بأبى الـنور محمد باشا الشيـخ عقبة فى منامه؛ فجدد هذه التكية وبنى بها جامعًا شامخًا وسبيلاً وساقيتين ومطبخًا ومهبطا للنور فوق ضريـح الشيخ، وأنـفق على بـناء ذلك مائتـى كيس مصـرى، وجعل لهـا أوقافًا عظيمة، وأوقـف على إقامة مولده ألف قـرش فى كل عام، وعين لها نـاظرًا من فرقة الإنكشارية.

وهذا المولد مولد سلطانى كغيره من الموالد السالف ذكرها يقام فتطيب به روح سيدى الشيخ عقبـة الجهينى العامرى. ولكثرة ما لـهذه التكية من أطعمة وأشربـة ترد إليها من أوقافها توزع على العلماء والصلحاء والمتصوفة.

وفى سفح جبل الجوشى:

مولد الشيخ شاهين (قدس سره العزيز)

موضع نزه يستحق المشاهدة يقام فيه كذلك المـولد يوما وليلة، ولأنها تكية واقعة على ربوة قائمة فهى ضيقة، لذا فهى ليست كثيرة الزحام إلا أن المولد الذى يقام فيها مولد عجب.

مولد الشيخ الجوشى

تكية عالية قائمة على قمة جبل المقطم، تبدو مدينة القاهرة من هذا الجبل تحت القدم، تضرب الخيام على قمة هذا الجبل يوما وليلة لإقامة مولد عظيم، وقد شيد هذا الجامع وأوقف عليه أمير الجيوش أبو النجم بدر الجمالى وزير المستنصر بالله العباسى وسمى الجبل الجوشى نسبة إليه أما اسمه فهو «جبل المقطم».

مولد أثر قدم النبى

إنها تكية واسعة بها جامع كبير وقبة عالية أسفلها أثر قدم النبى، وكل هذه الأبنية من إنشاء إبراهيم باشا الدفتردار. وقد سبق لنا أن وصفناها. ويقام فيها كذلك مولد عظيم يدوم يوما وليلة وفيه تتعالى الأصوات بالدعاء لصاحب الخيرات - إبراهيم باشا الدفتردار.

مولد الشيخ السادات

يقام هذا المولد فى التكية التى دفن فيها أجداده العظام فى الموضع الذى يسمى (   )[1] فى القرافة الكبرى وذلك فى منتصف شهر شعبان، وتقام الخيام والسرادقات فيها ثلاثة أيام بلياليها، ويتوافد عليها البكوات من مريديه، ويزينون منارة الجامع وجدران التكية وأبوابها، وجميع الخيام بمئات الآلاف من القناديل، ويأتى جمع غفير من الناس وتوزع الأطعمة على الغادى والرائح. إنه مولد عظيم وهو واحد كألف، يحتشد فيه مئات الآلاف من الرجال والنساء والكبار والصغار، وذلك فى صحراء مترامية الأطراف، ويمضون هنا وهناك للزيارة، ذلك أن ثمة أضرحة لكثير من الصحابة الكرام والأولياء فى تلك النواحى.

كما دفن فى هذه الجهات من أبناء الأنبياء «بنيامين ابن سيدنا يعقوب عليه السلام» و«افرايم» بن يوسف الصديق الذى ولد فى مدينة الفيوم. وغيرهم الكثير. وسوف توصف هذه المزارات فى حينه.

(١) بياض فى الأصل.

ذكر مناقب الشيخ السادات (أبو التخصيص)

وسيدى الشيخ السادات أبو التخصيص شيخ رفيع المنزلة، لذا لا يتخلف أحد من العلماء والصلحاء والأعيان والأشراف عن زيارته قط، فهم منجذبون إليه إلا أنهم عندما يحضر إلى تكية أجداده ليلة المولد يأتى وفى معيته ألف أو وألفين من المشايخ الكرام ويستوى الشيخ أبو التخصيص على سرير خلافته، وقد أصبح الضريح نورا على نور من مئات الآلاف من القناديل وشمع الكافور، وعندما يتلو ألفان من المشايخ أوراد السادات فى صوت واحد يغيب المرء فى نشوة الوجد، وينصرف عن الدنيا وما فيها، ويغمر النور وجهه وقلبه، وفى تلك اللحظة يسأل الشيخ عن اسم أو من قبل يديه فيكنيه بكنية ويلف عمامة الرضا ـ التى يبلغ طولها أكثر من ذراعين ـ حول عنقه وبذلك يمنحه الإجازة ويعتبره فى عداد المتصوفة.

وفى كل مولد يقام يلف الشيخ عمامة الرضا حول عنق أكثر من ثلاثة آلاف رجل ويخلع على كل واحد منهم لقبا. يا لها من حكمة عجيبة. وليس لأحد أن يتنازل عن كنيته التى منحها الشيخ له، وفى عهد خلافته لم يخلع لقبا واحداً على شخصين وهذا سر إلهى عجيب وكان يخلع هذه الألقاب على مريده بإلهام ربانى، وقد منحنى كنية هى «أبو الصفا» وببركة نفسه المبارك أنعم بالصفاء والطمأنينة، وقد لف حول عنقى شالا كشميريا ومنح بعض الأشراف كذلك الشال اللاهورى والشال الكيلانى ودعا لنا بكل خير.

وكان الشيخ إذا ما رأى شخصا كناه بكنية منذ عشرة أعوام ناداه بكنيته قائلاً:

يا أبا الوفا أو يا أبا العال. فما أقوى حافظته التى لها مرتبة القداسة، وكان إذا خلع عمامة الرضا على شخص وجاء إليه هذا الشخص ثانية خلع عليه أخرى وهذا بذل عظيم للمال كذلك.

وجملة القول أنه لا يمكن الوقوف على حقيقة أمر هذا الشيخ بأى حال من الأحوال.

وفى كل عام يمضى كل من هؤلاء السادات بثلاثمائة من الجمال وأكثر من خمسمائة خادم إلى الكعبة الشريفة ويتصدقون بجزيل الأموال ويعودون بسلام.

إنها طائفة مؤدبة وعظيمة الثراء وليس فى طبعها التباهى، إلا أنهم يقيمون مولدا عظيما مرة فى العام يشرف بحضوره كثير من المريدين والأحباب.

مولد الشيخ البكرى

فى يوم الخماسين من شهر يوليو يقام مولد عظيم فى تكية أجداد الشيخ البكرى الواقعة أسفل ضريح الإمام الشافعى. ويواكب هذا المولد مولد الشيخ السادات وتوزع فيه الصدقات ويغنى جميع أهل القاهرة عن السؤال وتضرب فيها كذلك الخيام والسرادقات وتقام الأسواق ويضاء الجامع ومنائره وقاعاته بمئات الآلآف من القناديل مما يجعل الليل نهارا، ويحيون المولد حتى مطلع الفجر ويتلى مرات ثلاثا. إنه مولد عظيم.

مولد أم القياس

سبق أن أشرنا أثناء الحديث عن أوصاف أم القياس إلى أنه عندما تقوم كتيبة من الإنكشارية بتطهير حوض أم القياس تعم البهجة سبعة أيام وسبع ليال، وفى الليلة الثامنة يمضى العسكر وفى ليلة الجمعة يقام مولد عظيم وفى الصباح ينتهى رئيس الجاويشية من إقامة المآدب.

المولد الثانى لأم القياس

بعد ذلك فى ليلة سقوط النقطة إلى النيل (ليلة وفاء النيل) يقام المولد الثانى لأم القياس، ويحضره جميع أشراف وعلماء وصلحاء القاهرة ويقيم وكيل مصروفات الباشا السماط ثلاث مرات من صلب مال الباشا احتفالا بالمولد الشريف، وينتظر جميع العلماء زيادة ماء النيل. وتعهد مهمة إقامة هذا المولد إلى رئيس التراجمة إلا أن نفقاته من صلب مال الباشا.

مولد المحمودية

يقام هذا المولد فى جامع المحمودية وهو على مقربة من السلطان حسن.
وبالقرب منه:

مولد أمير اخورية

يقام فى جامع أمير آخورية.

مولد السادات

ثمة مولد آخر لشيوخ السادات ويقام هذا المولد داخل الأزهر.

مولد السلطان قايتباى

يقام هذا المولد خارج القاهرة وهو كذلك مولد عظيم وتوزع من مبرته الأطعمة على الفقراء والمحتاجين والمقتدرين كذلك، ويقام هذا المولد مرة فى العام ويحتشد فيه خلق كثير.

مولد إبراهيم الكلشنى

يقام فى تكية الكلشنية فى بولاق وسوف نذكرها فى حينها.

مولد الشيخ الطشطوشى

وهو مولد آخر لأتباع الطريقة البكرية، وهو كذلك مولد عظيم بالقرب من السلطان الشعراوى.

مولد الشيخ الشعراوى

إنه كذلك مولد عظيم لجميع العلماء الكبار. وجامعه ضيق، لذا لا يتسع لخلق كثير إلا أنه فى هذا المولد تغمر الجامع روحانية عجيبة.

مولد الشيخ الحنفى

وفيه كذلك يحتشد خلق كثير

مولد الشيخ الخلوتى

بالقرب من قنطرة السنقور، إنه كذلك مولد المشايخ إلا أنه ليس عظيم الزحام كغيره من الموالد.

مولد النبى المقام فى تكية سيدنا الحسين

قبل سبعين عاما عطلت إقامة هذا المولد بإيعاز وإغواء من المنكرين، بعد ذلك فى عام ١٠٨٩ ذهب جميع الأشراف إلى مجلس عبد الرحمن باشا وبسطوا إليه الرجاء بإقامة المولد الشريف فى المشهد الحسينى فى هذه السنة المباركة. فوقع ذلك موقع القبول لديه وأصدر أوامره إلى الصوباشى والمحتسب وقاضى العسكر فى صورة مرسوم وجاء فيه:

(لتُضَاءُ القناديل فى جميع المنائر ليلة عاشوراء (أى الليلة الثانية عشرة من شهر المحرم ولتزين جميع الأسواق والحوانيت ليل نهار بالقناديل كذلك) وأمر الدلالين أن ينادوا بذلك ولإقامة المولد داخل المشهد الحسينى قدم عبد الرحمن باشا ستة آلاف پاره وعمامة خضراء وأوقية من العود وقنطارا من شمع الكافور.

وإلى الآن يقام هذا المولد من أوقاف عبد الرحمن باشا وجميع الأشراف وأهل القاهرة يدعون له بالخير.

قاعدة حسنيات القاهرة

بحلول اليوم الحادى عشر من شهر محرم ليلة مولد الإمام الحسين يجتمع عدة آلاف من يهود القاهرة، كل ثلاثة فى مكان وفى أيديهم زنابيل، وأثناء بيعهم ما فيها من عطور وبخور يصيح الثلاثة فى صوت واحد وتبلغ صيحاتهم عنان السماء وتتردد داخل الأسواق والحوانيت. وهذه عادة قديمة، ويعطر بخورهم وعطورهم القاهرة حتى الثانى عشر من شهر محرم. إنها ظاهرة ذات مغزى.

وعلاوة على هذه الموالد يقيم أصحاب الخيرات عدة آلاف من الموالد فى بيوتهم ومساجدهم وزواياهم. وإقامة المولد الشريف فى جميع البلاد فى شهر ربيع الأول ولكن فى القاهرة يقام آلاف الموالد فى جميع شهور السنة ويحتشد فيها كثرة من الناس.

وفى بعض الأحياء يقام فى الليلة الواحدة أكثر من خمسة موالد. ويبذل أهل القاهرة المال الجزيل لفرط محبتهم للنبى ﷺ، لذا أصبح لهم ذائع الصيت بإقامة المولد الشريف.

وبعض الموالد سالفة الذكر يقام بمرسوم من الباشا وبعضها الآخر يقام حسب مراسم الشيوخ ولقد عرفت مئات الموالد غير التى تحدثت عنها ولكن تعذر على الحديث عنها كلها، لذا اكتفيت بما ذكرت منها. وحضرت معظم الموالد الشريفة المقامة خارج القرى والقصبات والتى تقام طبقا لمرسوم الباشا وسوف نذكر كل منها على قدر طاقتى فى موضعه.

الفصل الرابع والخمسون

الأماكن النزهة التى يرتادها أهل القاهرة العام منها والخاص

ـ بلدة البساتين:

بلدة عامرة تقع جنوب القاهرة على بعد ساعتين، وهى تحت إدارة نقباء الأشراف وبها حديقة قريبة من ساحل النيل كأنها الجنة. يتوسط هذه الحديقة قصر شامخ كأنه قصر الخورنق، وفى وسط هذا القصر حوض لطيف. إنه موضع نزه جميل به عدة قاعات علوية ومطبخ وسواق. إنه موضع تنشرح الصدور لرؤيته.

ـ مُتنَزَّه قدم النبى:

من خيرات إبراهيم باشا الدفتردار، وهو أثر جد عظيم ينتشر به القصور والقاعات، وبه مطبخ وتكية عظيمة الاتساع وزوايا وسواق. وهذا كله من إنشاء إبراهيم باشا وقد ذكرنا تواريخ كل هذا سلفا.

ـ مخازن يوسف (أنبار يوسف):

مكان عجيب غريب

ـ متنزه أم القياس: سبق وصفه.

ـ متنزه الروضة:

فى جزيرة أم القياس كذلك، وهى حديقة انتقلت ملكيتها من يد حاكم إلى حاكم آخر وبداخلها حوض عظيم ويتوسط هذه الجزيرة قصر جميل شامخ يعبر إليه على جسر وبه قاعات متصلة جديرة بالمشاهدة.

ـ مصاد جبل الهرمين:

يسميه الناس «جبل الأهرام» ويسميه عوامهم «جبال فرعون»، أما فى اللغة القبطية فتسمى هذه الأهرام «أهرام برابى» وجاء فى تاريخ «ابن جلال» أن أول من بنى هذه الأهرام «برابى بن درمشيل بن مخويل بن خنوخ بن قاين» ولذا تسمى «بأهرام برابى» وتقع هذه الأهرام فى الجانب الغربى من النيل وهى جبلان كبيران وجبل صغير، وعلى مقربة منها يصاد الغزال والثور الوحشى والذئب والأرانب وما أشبه.

وسوف نبين فيما بعد من بنى هذا الطلسم ولأى سبب بناه.

ـ مراعى أمير آخور:

تقع فى منطقة الجيزة عند حدود امبابة. إنها واد ذو زرع ترعى فيه خيول أهالى القاهرة ووزيرها. إنها موضع مخضوضر ينشرح له صدر من يراه. ولكن ما فيها من زرع من غرس الإنسان. فبذور العشب المسمى «بالبرسيم» إذا بذرت فى ليلة نمت فى صبيحة اليوم التالى فبلغت فى الطول إصبعين وفى اليوم الثالث يمكن للدواب أن ترعاها وجميع خيول القاهرة ترعى هذا العشب والذى يعرف فى بلاد الترك بـ «يونجه»، وتضرب طائفة الجند وأمير آخور خيامهم فى هذه البقعة لرعى خيولهم ثلاثة أشهر بتمامها، وهناك ينعمون كذلك بالراحة والمتعة.

إنه سهل فيه مروج ورياض وأمير آخور الباشا حاكم مطلق عليه بتفويض من الباشا ومهمته تتبع اللصوص والضرب على أيديهم وإعمال السيف فيهم.

ولأن هذه المنطقة تدخل فى حدود أولاد خبير يأتى منهم كل ليلة ألف من فرسان البدو ـ بخيولهم لحراسة جياد الباشا وغيرها من جياد طائفة الجند.

ويتعين على الأمير آخور أن يقيم للباشا سماطا عظيما، وأن يهدى إليه ثلاثة أكياس وثلاثة من الطواشية وثلاثة جياد أحدها ذا سرج مرصع بالجواهر، فيخلع الباشا عليه خلعة من فرو السمور. كما يقدم الأمير آخور جوادا إلى كل من كتخدا الباشا والخزينة دار ويوزع الهدايا كذلك على سائر رجال الباشا. ولأن عوائد وضرائب أمير آخور القاهرة والكتخدا معا ينص القانون على تعيين « أمير أمراء» الشام من بين أمراء آخور القاهرة.

ويتحصل لأمير آخور مائتا كيس من بيع العشب بالإضافة إلى دخل آخر من مصادر أخرى يقدر بمائتى كيس كذلك.

ويُهدى الباشا ألفا من الجياد فى العام يلزم بأن يمنح الأميرآخور قماشا من صوف على كل جواد من هذه الجياد الألفين.

وقياسا على ذلك فإنه بقدر ما تكون الأموال المتحصلة لأمير آخور وبقدر ما يكون شخصًا ذا وقار فإنه يتقاسم الربح مع الكتخدا.

متنزه قصر أبى العين الظاهر بيبرس

تكية بكتاشية على ضفة النيل وهى متنزه طيب النسيم وقد سبق أن وصفناها ضمن وصفنا للتكايا إلا أنه عندما شيد إبراهيم باشا قصرا شامخًا فى أحد أركان هذه الحديقة أرخت له بهذا البيت:

يا أوليا نظمت هذا التاريخ وقلت داعيا
ليبق هذا القصر عاليا
سنة ١٠٨٢

ويتصل بهذا القصر قصر آخر شيده عبد الرحمن باشا وأرخ له زكى خليل أفندى فقال:

قال تاريخه زكى الداعى بالبركات
هذا القصر ما يسمى بقصر الجنات
سنة ١٠٨٨

وقال آخر:

قال فى تاريخ هذا القصر العظيم
يا له من قصر فريد تنشرح له الصدور فى الصميم
سنة ١٠٨٨

وعلى ضفة النيل أربعون موضعا لأشجار الجميز فى ظلالها مصاطب وكل منها موضع ظليل يشرح الصدور.

ـ متنزه طوب آتان (أى مطلق المدفع) وحديقة العجم، وحديقة الفرنجة، وحديقة رمضان بك فى طريق بولاق، وحديقة محمد چلبى صاحب العيار، وحديقة حسن بك.

وإضافة إلى تلك الحدائق سالفة الذكر هناك ١٧٠ حديقة أخرى مفتوحة للعوام والخواص وكأن كلا منها حديقة إرم ذات العماد.

ـ متنزه «جميز العبد»:

على ضفتى الطرف الشمالى للخليج الذى يخترق مدينة القاهرة بقعة مكسوة بأشجار الجميز، يتسع ظل كل منها لألف كبش. وكل منها موضع ينشرح له الصدر وكل من

هـذه الأشـجـار تمد أغصانها على النيل وظلالها لا يجعل لقيظ الشمس أى تأثير وظلال هـذه الأشـجـار ملتقـى لإخـوان الصفاء والأحـبة ذوى الوفاء، يجـتمعون فيه لـلراحة والاستجمام.

ـ متنزه قصر السبتية ببولاق:

متنزه به كثيـر من القاعات والظلات والحجرات الخاصة بالـباشاوات وبعض الأعيان وإذا ما قدم الباشاوات من الأسـتانة إلى القاهرة بحراً أو أقيم موكـب أم القياس احتفالا بقطع النيل فإن هذه المواكب كانت تخرج من قصر السبتية هذا.

وفى أحد أطراف سـقف هذا القصر تاريخ الـسلطان (   )[1] مشيده وهو: (إنه من بناء االمعز الكريم العالى السيد محمد البدرى بن أبى البقا ولد المعز المرحوم سيد يحيى الجيعانى سنة ٦٨٧).

ـ حديقة رضوان بك:

تسمى بحديقة الرضوانية وهى حديقة كجنة رضوان، وليس لها من نظير فى مصر.

ـ متنزه التورلجية:

يقع هذا المتنزه خارج قنطرة الليمون على ضفة خليج الشيخ البكرى.

ـ متنزه الطوبخانه:

إنها زاوية لا وجود لمثلها فى القاهرة ولا فى المدائـن بناها وزير السلطان قايتباى عند خروج سيده إلى الحـج وعودته. ولهذه الزاوية قبـة منقوشة تناطح الجـوزاء وترتفع عن الأرض بمقدار اثـنتى عشـرة درجة من الحجر وأبـواب هذه القبـة وجدرانها مـن الرخام الطبيعى والأحجار الصماقية الملونة وأحـجار اليشم والحرقانى واليرقانى وأحجار أخرى. وكأنها الأحجار التى فى قبة الصخرة بالقدس.

والخـط الكوفـى الذى بداخلها وأعمال النحت والزخرفة الرائعة على الرخام والتى لا يخلو منها موضع فى القبة يعجز عنها مانى وحسان وبهزاد وارزنك.

ومن الحق قولنا إن ثمة أساتذة عظام عاشوا فيما مضى من الأيام الخوالى.

(١) بياض فى الأصل.

وعلى يسرة هذه القبة العالية مرعى وكأنه الجنة وعلى يمنتها قاعات ودور للضيافة. توزع الأطعمة على الغادى والرائح.

جملة القول أنها موضع نزه تنشرح له الصدور.

ـ متنزه البشبكية:

إنها ساحة للفروسية والرماية بالسهام، وفيها عدة قاعات ومطابخ وأحواض.

وفى الجانب الجنوبى منها فى الجبال على بعد ساعة.

ـ مصاد عين موسى:

إنها العين الواقعة فى جبل بجاميم والتى كانت موضع عبادة موسى ـ عليه السلام ـ إلا أن ماءها أميل إلى الملوحة وليس ماءً عذبًا كماء النيل. ويزور البدو هذا الموضع قاطبة. كما يأتى إليه بعض جند مصر بأسلحتهم وخيولهم لصيد الغزلان واللصوص من البدو.

ـ متنزه عين شمس:

ذكر آنفا وكان يتصل بمدينة عين شمس مدينة تسمى «الفرما» وكان لها قلاعا مبنية باللبن من ثلاثة طوابق، تمتد إلى البئر التى حفرها المسيح ـ عليه السلام ـ فى المطرية. ولقد تخربت هذه المدينة بأكملها ولم يبق منها إلا مسلة من الحجر.

وعن سبب خراب هذه المدينة يحدثنا مؤرخو العرب فيقولون: إنه عندما قدم سيدنا يعقوب ـ عليه السلام ـ للقاء ابنه يوسف الصديق نزل ضيفا فى عين شمس ومدينة الفرما على سبعين من أشرافها الأثرياء لم يكرم وفادته أحد منهم، لذا دعا يعقوب الله على هذه المدينة فلحق بها الخراب.

وفى النهاية التقى سيدنا يعقوب بيوسف الصديق فى مدينة الفيوم بعد فراق دام ستة عشر عاما فارتد إليه بصره. وأوصى يوسف أن ينقل جثمانه بعد وفاته ليدفن فى جبل حبرون بجبل الخليل.

ـ متنزه قصر الغورية:

شيده السلطان الغورى وهو يبعد عن النيل. ووقت الفيضان يصبح هذا القصر وسط الماء. وأسفل هذا القصر قاعة عظيمة وفيه عدة غرف ولكن ليست له آثار أخرى.

ولكن على مقربة من هذا القصر حدائق كحدائق الجنة بها قبة عالية ذات زخارف مثل قبة الطوبخانه إلا أنها لجامع، إلا أنها تشبه قبة الطوبخانة تمام الشبه.

- متنزه ومزار «بئر المطرية»:

إنه مكان تعبد المسيح - عليه السلام - فى حدائق فى الجانب الشمالى من القاهرة على بعد ساعتين منها. وعندما كانت مصر فى حوزة اليونان كان فى هذه البقعة الكثير من الأبنية العظيمة. ولم يبق منها الآن إلا قاعة وزاوية. وفيها حوض من نزل فيه وكان به علة تم له الشفاء منها.

وجاء فى التواريخ وتواريخ اليونان أنه عندما هاجرت السيدة مريم مع ابنها المسيح عيسى من مدينة نابلس هبطت هذا المكان فطاب لها مستقرا ومقاما.

ويزعم النصارى أن المسيح عيسى وأمه السيدة مريم هما اللذان حفرا هذه البئر ليغتسلا وأنهما أقاما هذا الحوض. وهذا القول صحيح لا يتجافى عن الصواب، إذ إن جميع آبار القاهرة ماؤها أميل إلى الملوحة إلا أن ماء هذه البئر عذب بفضل معجزة المسيح - عليه السلام -.

وتسحب الثيران الماء العذب من هذ البئر بالدواليب لرى الحدائق المحيطة به من كل جانب. وكانت أشجار البلسم والبَلَسَان[1] تملأ هذه الحدائق وكانت هذه الأشجار من غرس يد المسيح - عليه السلام -، ولم يكن لها من وجود فى بلد آخر. وكانت يستخرج منها الزيوت ويحتفظ بها الملوك فى خزائنهم تبركا.

وإذا ما تسمم أحد وتناول من هذا الزيت مقدار قيراط نجى من الموت. وإذا لدغت أحد عقرب أو أفعى أو حية ودهن موضع اللدغ بزيت البلسان هذا أو لعقه نجى كذلك من الموت المحقق. وإذا دهن بهذا الزيت موضع ألم سكن هذا الألم.

(١) البَلْسَمُ: جنس شجر من القرنيات الفراشية، يسيل من فروعها وسوقها إذا جُرِحتْ عُصَارَةٌ راتنجيّة، تستعمل فى الطب.
والبَلَسَانُ: شَجَرٌ له زهر أبيض صغير كهيئة العناقيد يستخرج من بعض أنواعه عطر.

وهذا الزيت معروف لدى النصارى فى القرى، وإذا لم يتناول منه النصرانى أو لم يدهن به جسمه لا يعد نصرانيا حقا. ويأتى النصارى من كل فج عميق إلى المطرية لزيارة هذه البئر والاغتسال فى حوضها، وهم يقطفون أوراق شجرة مريم ويقدمها البعض إلى البعض هدية فى مختلف الولايات، كما يحتفظون بهذه الأوراق بين صفحات الكتب.

إلا أنى لم أشاهد بها أشجار البلسم والبلسان تلك فسألت سدنتها فأجابونى بقولهم إنها جفت وتيبست منذ أن دخلت مصر فى حوزة العثمانيين.

ولكن أشجار البلسان منتشرة على طرق الكعبة الآن ويستخرج منها الأهالى زيوتها ويبيعونها فى جرار للحجيج.

ـ فوائد ماء بئر المطرية:

عندما يفيض النيل وتجرى مياهه خضراء اللون، ثم يحمر ماؤه عندئذ يمتنع الباشاوات والذواقة عن شرب ماء النيل. وسبب ذلك أن الماء الأخضر الذى ركد فى الترع والخلجان منذ العام الماضى يظهر فيه السم الزعاف وعندما يأتى فيضان النيل يدفع هذه المياه من الخلجان فتمر من القاهرة.

والتى إذا ما شرب أحد منها ابتلى بالمرض، لذا يمتنع الباشاوات والأعيان من شرب ماء النيل هذا طيلة شهر، ويشربون من بئر المطرية ذات الماء الزلال. إنها بقعة طيبة النسيم.

ـ متنزه البئر المعظمة:

حفرها موسى ـ عليه السلام ـ، وإن كان بعض الأطباء يصفون ماء بئر المطرية بعذوبته وفوائده إلا أننى لم أشرب منها.

ـ متنزه بركة الحج:

بقعة يقيم فيها حجيج مصر ثلاثة أيام وثلاث ليال عند خروجهم للحج يتزودون منها بمئات الآلاف من القرب المملوءة بمياه النيل. إنها خيرات عظيمة عجيبة، فقد شقوا بركة الحج هذه من النيل فكأنها بحيرة عظيمة. وهى تبعد عن القاهرة بمقدار أربع ساعات. وبعض وزراء مصر وأعيانها يسافرون عبر هذا الطريق ومنه يعودون إليها.

ـ متنزه قلعة سبيل علام:

يتناوب عليها أحد أمراء مصر فى خمسمائة من جنوده مرة فى الشهر لحراسة المترددين عليها. إنها مصاد وميدان للرماية وميدان للتحطيب، أما للبدو فهى مكان للسطو على الناس. وقد جردوا من يسمى «پيريار ولى» من ملابسه وجعلوه مثل بهلوان تكية (كولشنجيلر) أى تكية المضحكين.

إلا أنه سهل طيب النسيم وشهرته فى القاهرة باسم «سهل سبيل علام»،

فبينما كان السلطان سليم فى طريقه إلى القاهرة دارت رحى الحرب السادسة بينه وبين السلطان طومانباى فى سهل سبيل علام هذا. وقد استشهد فى هذه المعركة سنان باشا الطواشى الصدر الأعظم، كما استشهد سبعة آلاف من جند العثمانيين وثلاثة وعشرون ألفا من جند المصريين.

والآن ما يسمونه مقابر الشهداء فى سبيل علام مزار يزوره عوام الناس وخواصهم وثمة غرف وقاعات عدة وسواق فى قلعة سبيل علام يسكنها من يتولى الحراسة عليها من أمراء الجند. وفى جانبها الشمالى حدائق ومروج. وبها كذلك جامع ذو قبة ومنارة تركية الطراز وسبيل ومصاطب. والجامع بنى بتمامه من الحجر ويصعد إليه بسلم من ست درجات.

وعلى يسرة محرابه تاريخ مكتوب بخط جلى هو:

أقام هذا الجامع الشريف
وهو مثل كتاب كارنامى كله حسنات
مير أكرم حسن بك
رفعه الله رافع الدرجات
وهذا التاريخ لهذا الجامع المنور
جامع الحسنات باهر النور
سنة ١٠٦٣

إنه جامع مزين يشتمل على ستة أعمدة ولكن لا حرم له.

ـ متنزه العادلية:

واد يقع بين القاهرة وسبيل علام، يبعد ساعتين عن القاهرة، كان فى الزمان الخالى مستقرا لقبائل «السعادلية»، أقام به طومانباى جوسقا كان يعقد فيه الديوان لإقامة العدل والميزان بين الناس، لذا سمى هذا الوادى بـ «العادلية».

إنها بقعة طيبة النسيم تنشرح بها الصدور. إذا ما زارها عليل وجد الشفاء.

سبق الحديث فى عدة مواضع عن المعارك التى دارت رحاها بين السلطان طومانباى والسلطان سليم والتى على أثرها قبض سليم على طومانباى وصلبه على باب زويلة فوضع بذلك حدا للفتن والاضطرابات فى مصر. ثم أنزل سليم طومانباى من المشنقة وصلى عليه صلاة الجنازة وأمر بدفنه فى ضريحه بالعادلية.

ولما كان طومانباى سلطانا من أهل التقوى والصلاح، حافظا لكلام الله لم يصادر السلطان سليم أوقافه بل زين ضريحه بالأنوار وكان يزوره فى كل مرة يأتى فيها إلى العادلية.

وطومانباى مدفون فى تابوت من الرخام تحت قبة عالية ترتفع إلى عنان السماء وعلى الجوانب الأربعة لتابوته الرخامى نقشت آية الكرسى وتاريخ هو:

(تحريرا فى سنة ستة وتسعمائة).

وبوفاة طومانباى دالت دولة الشراكسة. ولقد كان سلطانا صاحب خيرات له الكثير من المؤسسات الخيرية، فالخان والزاوية والتكية والمبرة والسبيلان والساقية والمطبخ والغرف والقاعات المتعددة الخاصة بالباشاوات والقصور والأبهاء التى تشبه القلاع وما حولها من دور للضيافة كلها من خيراته رحمة الله عليه.

وهناك العديد من المتنزهات فى مختلف أنحاء القاهرة، إلا أن ما ذكرته هو ما زرته وشاهدته بعينى، لا ما سمعت عنه واجترأت على وصفه والله المستعان. إلا أن ألطف وأجمل هذه المتنزهات كان تكية «أثر قدم النبى».

الفصل الخامس والخمسون

فى أغرب غرائب مصر وطلاسمها وعجائبها وحِرَفِ أهلها

سوف أتحدث عن لون بشرة شعب مصر، أم الدنيا، وحرفه بقدر وقوفى على حقيقة أمرها.

ومصر التى تحدثت عنها آنفا على وجه التفصيل هى «مصر القديمة» أى مدينة «الفسطاط» التى كانت عامرة فى الزمان الخالى. ومصر الحديثة ليست أحد أحيائها.

فقد أرخ علماء العالم بقولهم: إن حدود مصر تمتد من رشيد ودمياط والإسكندرية إلى إبريم وقلعة الصاى فى مسافة غاية فى عمرانها تقطع فى ثلاثة أشهر على ضفاف النيل حتى إن الرسائل كانت تسلم من يد إلى يد فتصل من رشيد إلى أسوان وأسنا والمنيا والصعيد العالى. فكانت مصر العتيقة مدينة مستبحرة العمران تتقارب قصورها العالية على ضفتى النيل بحيث يستطيع الديك أن ينتقل من سقف إلى سقف ويصل من مدينة بولاق ومصر العتيقة إلى مدينة «مقدونية» وهى موضع أثر قدم النبى ﷺ.

وكان أحد فروع نهر النيل يمتد من شمال مدينة القاهرة إلى عين شمس بمسيرة ست ساعات مستبحرة العمران على ضفتى النيل، كما أن أحد فروعه كان يبلغ مرحلتين من القاهرة حتى الفيوم وما بين ذلك حدائق وبساتين ولا يخلو موضع فيها من زرع. وهذا مما يجعله فى النظر أحسن وأجود الأقاليم، كما أنه أكثر الأقاليم خيرات وأكثرها قرى.

وفى جوف هذه الأراضى من أرض مصر كنوز عظيمة ودفائن جسيمة. يقول مؤرخ العالم الشيخ المقريزى: إنه لا يخلو ذراع من أرض مصر من كنز قديم.

وفى أيامنا تلك يعثر على أكثر من كنزين فى كل عام. وهذا ما يبين إلى أى حد بعيد كانت ضفة النيل معمورة.

وقد نزلت فى شأن مصر آيات قرآنية على الرسول صلى الله عليه وسلم، يقول عز من قائل: ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) ﴾ [الدخان: ٢٥ ـ ٢٦]، وقد فسر المفسرون هذه الآية بقولهم أن المقصود منها أرض مصر ونهر النيل.

وقد دعا موسى ـ عليه السلام ـ على مصر وشعبها بسبب ظلم فرعون وسوء ما صنع فتبدلت من عمرانها بخراب ومن بساتينها بتراب. وفى ذلك يقول عز من قائل: ﴿ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧) ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

وعلاوة على خراب مصر بعد عهد فرعون يقول الحكماء: إن مصر وإن كانت قد تخربت سبع مرات فلا شك فى أنها عمرت كذلك سبع مرات.

أما محيى الدين بن عربى فيقول فى كتابه «الفتوحات المكية»:

«إن مصر بعد عام ١١٠٠ سوف تعمر إلى حد أن ذراعا من أرضها فى منطقة صحراوية أو منطقة تعلوها القمامة سوف يباع بألف دينار من ذهب، وسيأتى إليها «ابن كعب» من سلاطين آل عثمان فتطيب له مستقرا ومقاما ويتخذها حاضرة لملكه، وسيدور الفلك بما يحدث بها من أثر فيشيد شعبها المدن فى الصحراء حتى حدود مكة والمدينة ويجعلونها مروجا وحدائقا، وسيظهر بها أنهار كأن مياهها ماء الحياة فتصبح كل أكنافها رياضا وغابات وتظهر فيها الضوارى. وسيجرى بحر السويس من مدينة (بلبيس) ويصب فى البحر الأبيض، وسيفتح طريق بين غزة وقبرص تسير فيه القوافل، وسيجرى بعض الملوك ذوى الهمم ماء النيل إلى جبل الجوشى فى مصر، وسيتفجر الماء الحار فى ثلاث آبار فى القاهرة».

هذا ما ذكره ابن عربى فى كتابه «اللهم يسر يا ميسر».

ـ عجيبة:

والواقع أن ذوى السن من أهل القاهرة يقولون: إننا منذ سبعين عاما لم نكن نعرف فى مصر الحدائق ولم نشاهد إلا حديقة قايتباى فى «قره ميدان» وأشجار النبق والجميز هنا وهناك خارج القاهرة. ولم نعرف غيرهما فاكهة، والآن ينمو فى مصر عشرون نوعا منها ويهطل المطر فى العام وكأن قطراته الجوز وقد لا يهطل قط.

ولم نعرف فى مصر أحد يلبس الفرو فكان لبسه عيبا إلا للبكوات. ولم يكن يحل موسم الشتاء. أما الآن فيشتد برد الشتاء ويغزر المطر فصرنا نرتدى الفرو ليقينا شدة البرد.

وفى عهد كتخدا إبراهيم باشا اتفق أن نزل الثلج فى الصباح على مجرى العادة فجعل الأرض بيضاء وفى تلك الأوقات كذلك كان البَرَد ينزل وكانت الحبة منه تزن أكثر من ثلاثين درهما وعندما كان أبناء العرب يرون الثلج يسأل بعضهم البعض قائلا: إش هذا؟

وكان بعضهم يقول: «إن القطن نزل من السماء»، أما الترك فكانوا يحمدون الله ويأكلونه. وعندما كان العرب يمسكون الثلج بأيديهم كان يحرقها كأنه النار فكانوا يقولون: «هذا مثل القطن ولكن ناره قوية».

وعندما كانوا يشاهدون البَرَد يقولون: «وقع من السماء بيض الدجاج».

وحمدا لله فقد اعتدل جو مصر يوما بعد يوم ومضت شدة الحر وهطل غيث الرحمة مما غمر مصر بالخير فما وجد مثلها على وجه الأرض. وأصبحت «أم الدنيا» كأنها العروس فى زينتها، وبدأ المفتونون بها الاحتيال لصيدها.

أصل تسمية مصر «بأم الدنيا»

تضم مصر ما فى أنحاء الدنيا من جميع المخلوقات والملل الاثنتين والسبعين، واللغات المائة والأربعين، والله يبسط الرزق لهذا القدر من المخلوقات كرامة لمصر ولذلك تسمى بأم الدنيا.

وإذا ما ذهبت إلى أى مدينة فى مصر ونظرت فيها نظرة تأمل فلن تجد أحدًا يتجاوز الآخر من شدة الزحام، وفى الطريق العام لا يمكن أن تسمع إلا عبارات مثل: «ظهرك وجنبك، ووِشّك ويمينك، ويسارك» ولا يمكنك المرور بسهولة من داخل الأسواق من شدة ازدحامها بالخيول والبغال والجمال والحمير والسائقين.

وأهل مصر جميعا من الفلاحين الكادحين، لذا يعملون مثل «فرهاد» مما يعود بالنفع على مصر. ويسمونها أم الدنيا لأنها تطعم هذه الدواب والمخلوقات كافة وتطعم الدنيا بأسرها وكأنها أمها وتصدر كل سلعها إلى جميع أرجاء الدنيا.

وإذا ما قحطت الدنيا بأسرها والعياذ بالله فإن مصر تطعمها كأنها أم.

أما إذا قحطت مصر ـ حفظها الله ـ فإن جميع بلدان الدنيا تعجز عن إطعامها، ففى مصر أكثر مما فى الدنيا بأسرها من دواب ومخلوقات، كما أن أهلها كذلك لا يقعون تحت حصر. ومن ظلم وعسف جندها أصبح أهلها كقوم فرعون، ولأنهم بالغوا فى إظهار اسم «يا قهار» فقد حقر أهلها وذلوا واستحوذ جند السلطان على كل خيراتها وبقى الفلاح ذليلاً.

وفى شأن مصر وشعبها قال «كعب الأحبار» ـ رضى الله عنه ـ مصراعا على لسان مصر هو: «خلق الله الغنى بمصر فقال الذل أنا معك».

والواقع أن الضعاف والفقراء والأذلاء من أهل مصر كثرة كاثرة، حتى إنه فى عام (   )[1] على عهد عبد الرحمن باشا على الرغم من كثرة الغلال لسوء تصرف الحكومة احتكرها الأغنياء فقحطت مصر قحطا عظيما لدرجة أن بعض الفقراء أكلوا الميتة، والبعض كان له قميص واحد يشترك فى لبسه مع زوجته، فكانت تلبسه نهارًا ويلبسه هو ليلاً.

وكانوا يعيشون على عشرين حبة من الفول فى اليوم. إلى هذا الحد كان الفقر وكانت كثرة الفقراء. لأنه عندما تحصل الخزائن من الرعايا والبرايا وهى إحدى وثمانون خزانة كان مئات الآلاف من الناس يفلسون ويخلو وفاضهم. وهذه الخزائن المذكورة كانت تحصل بعد خمسة وسبعين يومًا من الحصاد. وباستثناء الماعز والأوز والحطب كانت ضريبة الجمرك تحصل على كل ما يطير فى السماء ومايدب على الأرض وما يسبح فى الماء وكل الأشياء «مقاطعة» حتى إن الفقراء المعدمين ممن هم فى أمس الحاجة إلى الفلس الأحمر يؤدون الضرائب للحكومة وهم مقاطعة.

ـ عجيبة أخرى:

ومن عجب أن بعض الفلاحين كانوا يسوقون أسرابا من الأوز فى شوارع القاهرة لبيعها وفى هذا الزحام كان الناس يدهمون بأقدامهم أسراب الأوز هذه فيجعلونها وكأنها رمال، ولكن لم تكن تفرض عليها ضريبة، وما عدا ذلك كانت تفرض عليه الضرائب والعُشر السلطانى.

---

(١) بياض فى الأصل.

- إحدى العجائب المضحكة ممن تحصل منهم الضرائب:

وكثير من الفلاحين يقيمون لهم أكواخا على ضفة الخلجان ويسكنونها، وإذا ما أراد أحد أن يشترى أوزة أو بطة كان يمضى إلى سكان هذه الأكواخ وإذا ما قالوا لأحدهم يا حاج أعطنا أوزة أو بطة. كان العربى يلبس القرعة التى بجانبه على رأسه ويمسك فى يده أربعين باعا من خيط الكتان ويقفز فى الماء ويبقى من يطلب البطة على الشاطئ ويسبح العربى فى الماء ويقترب من الأوز والبط ويندس بينهم ويربط أقدامهم بالخيط الكتانى الذى فى يده فلا تشعر به هذه الطيور لأن ما يطفو بجانبها قرعة والعربى يراقب الطيور من ثقب القرعة ويقيد أرجلها ثم يخرج إلى الشاطئ ويسلم طرف الخيط إلى من يطلب الأوزة فيقبض هذا الشخص على الخيط بيده ولا يجعله ينفلت منه ويجذبه رويدا رويدا حتى تقترب الطيور من الشاطئ، وعندئذ تدرك الطيور المسكينة ما وقع لها، فترفرف بأجنحتها. وتأخذ منها ما تريد من الطيور السمينة وتدفع باره واحدة ثمنا لكل أوزة منها وتطلق النحيل منها.

وهذا العربى المذكور يلتزم بهذه الطيور ويؤدى ما عليه من ضرائب، وإذا ما صاد هذه الطيور غيره غرم. وكل ما يهرب من هذه الطيور المطلوقة يعود حتما إلى هؤلاء الفلاحين وكأنهم سحروا من قبل هؤلاء الفلاحين. وكم لهم من حيل وألاعيب شيطانية.

- من عجائب الغرائب:

وعجيبة أخرى من عجائب الزمان هى أنهم يدفنون عشرة آلاف بيضة فى روث الخيل وبعد عشرين يوما يخرج منها عشرة آلاف فرخ تبدأ فى السير فيحار لذلك عقل الإنسان وهذا أمر غريب عجيب. إلا أن هذا العمل لا يقتدر على القيام به كل أحد، فهناك قرية تسمى «برمة» وهى إحدى قرى سليمان بك أحد قادة الجند فى مصر فى قضاء «أبيار» بها من توارثوا هذه الحرفة أبا عن جد وتفريخ الأفراخ فى روث الخيل عمل اختصوا به دون غيرهم.

ومن يريد أن يفرخ الأفراخ بهذه الطريقة اصطحب منهم رجلاً يذهب معه حيثما أراد وهناك يشرع فى بناء فرن خاص بتفريخ البيض، وهذا الفرن فرن كبير يشبه فرن الخبز، تعلوه قبة وأسفله فراغ، وداخله مقسم إلى خانات، تفرش الواحدة منها بطبقة من الروث الناعم غير المحترق بسمك إصبعين ثم يضع فى كل خانة خمسين بيضة وينظر فى كل بيضة خلال نور الشمس، فإن كانت البيضة طازجة وضعها فى الفرن، أما إذا كانت فاسدة استبعدها، إذ إنها تنفجر من حرارة الروث وتفسد بقية البيض فلا تخرج منه أفراخ. لذا يضع البيض الطازج وهو يعرف أى بيضة تفرخ ديكًا وأيها تفرخ دجاجة، ثم يغطى هذا البيض كذلك بطبقة من الروث بسمك إصبعين ويضرم تحته نارا هادئة خفيفة تكفى لحرق الروث ولا تحرق الحطب وتدوم الحال على ذلك ثلاثة أيام وفى اليوم الرابع يتجرد الرجل من ثيابه ويدخل الفرن وهو يقوق كالدجاجة ويقلب البيض بأكمله وفى يده قفاز من ريش الدجاج وبه يقلب الخمسين بيضة التى فى كل خانة ويضع بينهما ريش الدجاج ويحرق أنواعا من البخور يبخر بها البيض، ثم يخرج ويغلق فوهة الفرن.

ولم يطلع أحد على هذا العمل، إلا أننى بقيت فى هذه البلدة اثنين وعشرين يوما واطلعت على ذلك بعينى رأسى. وفى خلال العشرين يوما دخل الرجل القائم بتفريخ البيض الفرن ثلاث مرات وقلب جميع البيض.

وقبل أن تتم الأيام العشرون بدأت الأفراخ فى الخروج من البيض كأنها الجند وأخذت تنبش الروث الموجود داخل الفرن وفى التو أخرجها الرجل من الفرن، إذ إن فى الروث بيض لم يفرخ بعد ولكيلا يفسدونه أخرج الأفراخ التى خرجت لتوها من البيض.

وتسير الدجاجات التى ـ احتضنت بيضها حتى أفرخ، وخرج منه صغارها ـ وراء الأفراخ التى خرجت من البيض بالطريقة المذكورة أعلاه.

ولحكمة لا يعلمها إلا الله فإن لحم هذا الدجاج الذى خرج من الروث ليس له من لذة الطعم ما للذة لحم الدجاج الذى حضن بيضه الدجاج. وهى ثقيلة اللحم والشحم

والحدأة عدو لدود للأفراخ ولهذا يقوم الصبيان على حراستها وإلا اختطفتها الحدأة جميعًا فى يوم واحد. وليس فى مصر طائر فى سمائها يؤذى إلا الحدأة.

- بيع الدجاج بالكيلة فى مصر:

وتعبأ هذه الأفراخ فى الكيلة وتباع الكيلة منها بخمس أو عشر پارات. ولله الحمد فقد شاهدت الدجاج وهو يباع ويشترى بالكيلة فى مصر. والكثرة الكاثرة من الدجاج الذى يباع بالكلية حكومى، حيث يعهد (الكلارجى باشى) أى القائم على مخازن الطعام الخاصة بقصر الباشا - على أحد الأغوات بتفريخ عدة آلاف من الأفراخ ويذبح منها خمسمائة دجاجة يوميًا فى مطبخ الباشا لتقديمها إلى أتباعه وحاشيته.

ومن لا يرى هذا القدر من الأفراخ التى أفرخت لا يعرف إلى أى حد كانت براعة هؤلاء الفلاحين فى مصر، وهذا فى الواقع ما لا يدركه عقل. يا له من سر عجيب.

مما ينهض دليلا قاطعا على أن الله يخلق ما يشاء بقدرته ويحكم ما يريد بعزته.

- أمارة على إعجاز الخلق:

فى المنطقة المسماه «بسبيل علام» أنواع من الحجارة الملونة، ولحجر سبيل علام ذائع الشهرة فى مدينة القاهرة، وفى تلك الصحراء أنواع من أحجار الياقوت والماس التى يصل ثمن الحجر منها مائة قرش وخمسمائة قرش. كما تكثر بها الأحجار التى تسمى بعين السمك وعين الهر والتى يباع الواحد منها بخمسة أو عشرة قروش.

وفى بعض الأوقات التى تشتد فيها الرياح فتتشتت الرمال فتتكشف عما لا يحصى كثرة من هذه الأحجار.

ويقوم الحكاكون بحك هذه الأحجار الخام ويصقلونها ويشكلونها فتباع بباهظ الأثمان بعد أن كانت بلا قيمة. ويعثر على أحجار أثمن من الماس ومن ياقوت «بدخشان»[1].

ومؤرخو مصر وعلماءها يزعمون أن «شداد بن عاد» بانى إرم ذات العماد هو مشيد سبيل علام، وهذا ما اجتمعت عليه كلمتهم.

والواقع أنه فى سبيل علام هذه أسس لأبنية عظيمة هنا وهناك. وعندما خُلع إبراهيم

(١) بدخشان: ويقال بذخشان الآن فى أفغانستان، وهى بلاد خصيبة مشهورة منذ القدم بأحجارها الكريمة لا سيما معدن الياقوت واللازورد. انظر: بلدان الخلافة الشرقية تأليف لسترنج ص٤٨٠ وما قبلها.

باشا مكث فى صحراء سبيل علام سبعة وسبعين يومًا. وكان خدامه يجمعون الأحجار من سبيل علام لكى يلعبوا لعبة «المنقلة»، وكان بعضهم يقدم ما يعثر عليه من أحجار إلى الحكاكين ليصنعوا منها فصوصا لخواتمهم، حتى أصبح جميع الخدام - يلبسون الخاتم فى أصابعهم.

إلى هذا الحد كانت توجد أحجار كريمة ثمينة فى صحراء سبيل علام.

- تأثير أحد الأحجار العجيبة:

وفى سبيل علام هذه حجر ثمين أصفر اللون، يأتى أطباء الفرنجة على الدوام فى هذا القيظ للبحث عنه. ومن خواص هذا الحجر أنه:

إذا أمسك أحد هذا الحجر بكلتا يديه شعر بالغثيان وقاء ما فى بطنه وطالما لم يطرح هذا الحجر من يديه لا ينقطع عنه الشعور بالغثيان. إلا أنه يخلصه من جميع ما فى جوفه من أخلاط مثل الصفراء والسوداء ولا يبقى فى معدته شىء وبذلك تنظف.

- من خواص أحد هذه الأحجار:

ثمة حجر ملون مثل الخرز يوجد فى المناطق الفضاء من سبيل علام، وهذا الحجر إذا ما ربطته المرأة فى خصرها وقت الجماع لم تحمل من أى شخص، ولذا يكثر هذا الحجر لدى بغايا «باب اللوق» فى القاهرة. حتى إن والدتى حينما ولدتنى تمزق فرجها بسبب كبر رأسى وخروج هذا الرأس بصعوبة، لذا كانت تستعمل هذا الحجر الموجود فى سبيل علام خوفا من أن تحمل ثانية فكانت تعلقه فى خصرها أثناء الجماع مع والدى. وهذا الحجر غير المبارك كان لدى والدى.

أرض مصر التى تثير العبرة

كان البدو فى مصر يأكلون الفئران وهذه حقيقة. ولكن أى نوع من الفئران كانوا يأكلون سنوضح:

فى مصر نوع من الفئران يسمى «فأرة الغيط». إنها مخلوق منظره يثير الضحك، تخرج هذه الفئران من جحورها عندما يغمر فيضان النيل أرض مصر كلها وعندئذ تخرج جميع النساء والغلمان إلى الصحارى لصيد الفئران على الشواطئ التى غمرها ماء

الفيضان ويملئون بها الـغرائر ويذبحونها فى منازلهم ويتناولون لحمـها ويبيعون جلودها، وهى غاية فى سمنها. وذيلها قصير ونوع منها ذيله طويل، وشفتها العلوية مشقوقة مثل شفة الأرنب. إنها فأرة غبراء، زنة الواحدة منها مائة درهم، ومنها ما يزن رطلاً.

وهذا الحيوان يتكاثر فى الأرض بأمر الله ولا يربيه أحد. حتى إنه يكوم أرضه أكواما أكواما، فيعرف الصيادون من ذلك أن ثمة فأر بـها فيحفرون جحره ويخرجون ما به من فئران ويأكلونها.

ولحكمة لا يـعلمها إلا اللـه فإن بعض هذه الفئـران فئران إلى وسطهـم أما ما تحت وسطهم لا يـفترق عن التراب، بـل هو تراب مخلوط بالـدم. وهناك فئران علـى هيئة تراب تنفخ فيها الـروح فيما بعد وتصبح لحما، أما إذا أخرجت قـبل ذلك من جحورها وتعرضت للهواء نفقت، إذ إنها لم تكتمل نموا.

سالت عنها العرب، فقالوا: إنها تتولد من الماء فى أربعين يوما.

وسألت قائلاً: هـل تتزاوج هذه الفئران؟ فقـالوا: نعم إنها تتزاوج، إلا أنـها لا تلد وذلك بأمر الله.

ثم سألتهـم عن نفعها، فقالوا: إن لحمـها سريع الهضم ومن أكلـه سمن، وهو جد مقو للباه.

وتلك حكمة عجيـبة كذلك، بيد أن طائفة المعتزلة من ضعافـى العقول ينكرون هذا من خلق الله، ولكنى رأيت ذلك بعينى راسى وقد دفعت خمس پارات ثم عشر للعربان الذين يخرجون هـذه الفئران من جحورها، فرأيت أن نصفـها ذو روح والنصف الآخر من تراب وبعضها ممـا نصفها دم ونصفها تراب ليس لها روح. وهـذا من عجيب صنع الله. أوليس هـذا عبرة لمن يعتبر من بـنى الإنسان؟ ، وحسبنا قولـه عز من قائل ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً...﴾ [المؤمنون: ١٤].

دليلا قاطعا على ذلك. ومن لم يسلم بآراء ومعتقدات المعتزلة ويقر آراء أهل الشريعة يقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠].

ويقصر عن القول.

ذكر أصرة القربى بين الإنسان والنخل وشجر الجوز الهندى الأسود

فى كل عام فى قرى مصر يضعون سعفة من نخلة ذكر فى قلب النخلة الأنثى وذلك لإتمام عملية التلقيح بين النخلتين. وفى هذا العام تثمر النخلة الأنثى أكثر من خمسة عشر عرجونا[1].

وإذا لم يصنعوا ذلك لا تثمر النخلة الأنثى.

والنخلة الأنثى تحيض مرة فى الشهر وهى كالإنسان لها قلب فإذا ما قطعته جفت، أما إذا قطعت سعفها نمى غيره وازدادت النخلة طولاً.

ويسمون قلب النخلة «قلب البلح» وهو شىء لذيذ الطعم مقو للباه، ويستعمله الرجال فى مصر الذين عجزوا عن الباه، إنه فى لون الجبن وطعم اللبن، وتوجد هذه المادة بين ألياف السعف فى رأس النخلة.

ويقولون إن ثمة قربى بين الإنسان وهذه النخلة، فعندما خلق البارى آدم عليه السلام من قبضة من تراب خلق مما تبقى من التراب النخل وشجر الجوز الأسود الهندى وشجر الوقواق، وما تبقى من التراب خلق منه «يبروح الصنم» أى عبد السلام وهو عشب له شعر ولحية كالإنسان، ومنه الذكر والأنثى، فهو عشب له صفات بنى الإنسان. ويقولون إن هذا العشب خلق كذلك من التراب، «يفعل الله ما يشاء».

ـ أكلة الثعابين الحية:

ومن عجب أن فى مصر قوما يأكلون الثعابين وهى حية، وإذا ما ظهر ثعبان فى منزل أحد جاءوا بأحد من أكلة الثعابين هؤلاء ونفخ فى مزماره، فتتجمع حوله جميع الثعابين فيصارعها ويقبض عليها كلها، ويضعها فى مخلاته ويمضى بها، وبذلك تكون النجاة من هذه الثعابين.

ويقترب هؤلاء من أحد الأشخاص ودون أن يدرى هذا الشخص يخرجون من جيبه وحصنه العقارب والأفاعى وقد يخرجون من جنب أحد الأشخاص التفاح والخوخ والعنب فى غير موسم هذه الفاكهة. وفى بعض الأحايين يخرجون من حضن بعض

(١) العُرْجُون: العِذْق. وهو من النخلة كالعنقود من العنب. والجمع عراجين. المعجم الوجيز ص٤١٢.

الناس نارا أو ماء، كما يطلبون على أحد أن يظهر لهم عمامته وعندما يرفع هذا الشخص العمامة عن رأسه يتدفق الماء من عمامته أو يخرج منها عقرب أو أفعى، فيطرح الرجل عمامته أرضا ويولى مدبرا حاسر الرأس بلا عمامة.

وكان إبراهيم باشا رحمه الله تروق له مثل هذه الدعابات، إلا أنها فى الحقيقة مهارة تصل إلى درجة الإعجاز.

- جماع فلاحى مصر للتماسيح:

سلف الحديث عن جماع فلاحى مصر فى أسوان للتماسيح فى حديثنا عن المخلوقات التى تعيش فى النيل.

- شجرة الجميز العجيبة:

شجرة الجميز فى مصر شجرة ضخمة لا وجود لشجرة أضخم منها وهى تشبه شجرة «الدلب» فى بلاد الترك. وتمتاز شجرة الجميز بضخامتها وظلها الظليل ونسيمه العليل. وأثمارها وطلاسمها على النحو التالى:

إذا ما ظهرت هذه الشجرة فى بستان أحد، اتفق صاحب الحديقة هذا مع بعض الأشخاص ويحمل فأسا ويدخل حديقته ويتسلق شجرة الجميز ويضربها مئات الضربات بفأسه وإذا ما تجرحت الشجرة يأتى الأشخاص الذين اتفق معهم، ويقولون له لماذا أقدمت على قطع شجرة حية غضة مثل هذه. فيقول الرجل: إنها ملكى وإن أقطعها وهى بداخل حديقتى وهى لا تؤتى أكلا والمرج لا ينبت فى ظلها ويجب علىّ أن أحرقها.

فيقول الرجال تحت الشجرة: أتقطع شجرة فى هذا الجمال، ما أجمل غصونها وأوراقها، ويبسطون إليه الرجاء ألا يقطعها حتى تؤتى ثمارها وعندئذ يجرى ما يشبه الدم من الثقوب التى أوجدها الرجل فيها بفأسه، فيكرر الرجال الرجاء إليه ويقسمون له أنهم يضمنون أن تثمر هذه الشجرة سبع مرات فى العام ويأخذون الفأس من يده ويطرحونه جانبًا ويحيطون جميعا بالشجرة ويحتضنوها ويحضر أناس آخرون ليشهدوا على ذلك. ومن بعد تخرج هذه الشجرة الثمار من تلك الثقوب التى أحدثها الفأس فيها سبع مرات أو أكثر فى العام.

وثمار الجميز تشبه التين، ولكنها تختلف عنه بعدم وجود جلد داخلها فداخلها فارغ، وتزن الثمرة منه عشرين أو ثلاثين درهما. إنه فاكهة لذيذة الطعم، سهلة الهضم، ومنها الأحمر والأصفر والأبيض.

ومن عجب أن أغلب الثمار تنمو على غصون رقاق، ولكن ثمار الجميز تنمو فى جذع فى غلظ ثلاثة رجال ضخام. والجميز يثمر بهذه الطريقة بحيث لا يخلو موضع فى جذعه من الثمار. إنها شجرة موفورة المحصول.

ـ فوائد ثمار الجميز:

وفى الطب يعد الجميز ذو طبيعة معتدلة، فإذا ما تناولت ثلاث ثمرات من ثماره وشربت عليها الماء قوى نظرك. وإذا ما أصيب أحد بالإسهال وعصر أوراقه الخضر وشرب عصيرها، زال عنه الإسهال، وكم لقشور جذعها الخضر من خواص، والأطباء يعرفون من خواصه الطبيعية أكثر مما ذكرنا.

إنها شجرة تستحق المشاهدة.

خاصية أرض مصر

فى مصر يدفنون قرن الماعز فى الأرض ويروونه وبعد عدة أيام تنبت منها غصون خضر.

صناعة النشادر

تصنع النُّشَادر فى مصر من فضلات الإنسان، وله مصانع عجيبة سبق وصفها فيما تقدم.

عملية إنضاج العنب

عندما يكون العنب حُصْرُمًا يشعل فلاحو مصر الكبريت ويبخرون به هذا الحُصْرُم فينضج قبل أوانه بشهر. وهذه حيلة شيطانية عجيبة.

عملية إنضاج الشمام والبطيخ

يسمى الفلاحون زبل الحمام «برأس المال» وكانوا يضعونه فى جذور البطيخ والشمام فتنضج قبل الأوان بشهر وتمتلء ماء.

ـ ميزات أحد الحيوانات العجيبة ـ

ثمة حيوان صغير يشبه ابن عرس يعيش فى مناطق زراعة قصب السكر فى مصر، منظره يبعث على الضحك. حتى إنه يربى فى بعض المنازل، وهو حيوان أليف يكثر فى حدائق الفيوم. والمكان الذى يعيش فيه هذا الحيوان لا تقربه الأفعى ولا الحية وتهرب من رائحته. فهذه الرائحة التى تصدر عن هذا الحيوان تهلك الأفاعى، إلا أنها تفيد الإنسان. يا لها من حكمة عجيبة.

ذكر معدن الذهب

على بعد ساعتين من القاهرة وفى الجهة القبلية لها خلف جبل الجيوشى تقع جبال عين موسى والتى تسمى «بجبل بجاميم»، وبها تكوينات جيرية حمراء اللون وإذا ما أحرق هذا الخام استخرج منه الذهب. إلا أنه لندرة الحطب فإن نفقات عملية استخراج الذهب تكون باهظة فلا يتحصل للقائمين بهذا العمل أى ربح.

وفى خلافة الحاكم بأمر الله استخرج الذهب طيلة سبع سنين، ثم سدت هذه المناجم وآثارها لازالت موجودة إلى يومنا هذا.

وتوجد مناجم الفضة فى جبل جالوت غرب القاهرة، وتوجد كذلك مناجم للذهب فى شرق مصر فى جبل المقطم المعروف بجبل الجوشى. وتوجد مناجم «الزمرد» فى ولاية الصعيد، ويوجد معدن النطرون فى أرض البحيرة، ويوجد ملح البارود فى كل قراها، كما يستخرج الملح من جميع بحيراتها.

مدينة عين شمس

كانت مدينة عظيمة فى شمال القاهرة بالقرب من المطرية، تبعد ساعتين عن القاهرة وهى الآن منطقةخربة، وكانت هذه المدينة حاضرة البلاد فى الزمان الخالى ولا تزال بعض آثار أبنيتها العظيمة ماثلة للعيان إلى يومنا هذا. وفيها «مسلة» سامقة كالتى فى «آت ميدانى» أى ميدان الفروسية فى اسطنبول. يبلغ طول هذه المسلة مائة ذراع، وعلى

جوانبها الأربعة نقوش باللغة القبطية، وفى ذروتها صورة فارس يمتطى جوادًا وعلى رأسه العمامة المجوزة وفى ذلك إشارة إلى مقدم السلطان سليم إلى مصر.

وعلى الجوانب الأربعة لهذه المسلة نقوش وزخارف كنظيرتها الموجودة فى ميدان الفروسية باسطنبول.

وفى مدينة عين شمس هذه كثير من الطلاسم المعقدة والتى لا وجود لها فى أى بلد آخر، ولم تفك رموز هذه الطلاسم إلى يومنا هذا، وكل من بذلوا الجهد الجهيد لفك رموزها والوقوف على أسرارها دفنوا فيها.

وفى مجمل حديث مؤرخى مصر عن مدينة عين شمس امتدحوا قصرا كان بها فقالوا:

إن لهذا القصر مائة وثمانون نافذة وكانت الشمس إذا ما دخلته من إحدى نوافذه تجعل داخله منيرا ولذلك سموه «قصر عين شمس».

وفى رواية أخرى أن ثمة ملكة كانت تسمى «عين شمس» هى التى أقامت هذا القصر.

وعلى هذا القصر كانت تكمل الشمس مائة وثمانين منزلاً وعندما تأتى إلى منزلها الأول تعود. وآثار أبنية هذا القصر ظاهرة إلى الآن، وكان بها كذلك قلعة عظيمة لا تزال أسس جدرانها ماثلة إلى يومنا هذا.

جبال الأهرام وهى من عجائب الغرائب

تقع جبال الأهرام فى قصبة الجيزة على بعد ساعتين من الساحل الغربى للنيل.

وهى ثلاثة جبال، لا وجود لبناء أقدم منها على وجه الأرض، ولا وجود لما هو أعلى منها فكأنها «جبال قاف».

إنها جبال غاية فى عظم أبنيتها، وكل هرم منها صنم، ويسمى الهرم الأول «جبل بلبهث»، ويسمى الأوسط «جبل مهلوية»، أما الأخير فيسمى «بجبل أبى الهول» وكم من آلاف الروايات والأقوال وردت فى شأن هذه الجبال التى هى من صنع بنى الإنسان، فبعض المؤرخين يذهب إلى أن مشيدها هو «عاد بن شداد»، والبعض الآخر يذهب إلى أن الملك «سوريد» هو الذى أقامها بإيعاز من الكهنة لتكون مقبرة له. وبعد الانتهاء من

بناء هذه الأهرام الثلاثة ملأها بكنوزه وخزائنه، كما نـقل إليها جميع كتب تعاليم سيدنا إدريس، وجميـع الأسلحـة ووكل بها إلـى بعض من يـصنعون الـطلاسم، وغطـاهـا بالحريـر، كما شيـد كذلك مدينـة عظيمـة على شاطئ النيل ليسكنها سدنة هذه الأهرام.

وفى فصل الربيع من كل عام يأتى النـاس من كل فج عميق ويطوفون حول الأهرام كطواف المسلمين حول الكعبة.

أما ابن جلال فيقول: إن هذه الأهرام كانت تسمى فى اللغة القبطية «برابى» لأن أول من بناها هو «برابى بن درمشيل بن مخويل بن خنوخ بن قاين» لذلك سميت باسمه.

ومن الناس من يقول: إن ثـمة ملكة كانت تسمى «دلوكه» كانـت تحكم قبل فرعون وهى التى بنت الأهرام، ولأن هذه الملكة كانت مـن الفراعنة سميت هذه الأهرام «جبال فرعون»، ومع مرور الأزمان جاء ملوك من نسل هـذه الملكة رمموا هذه الأهرام باعتبارها أبنية شـيدتها جدتهم. ونـفهم من ذلك أنه ربما تـكون هذه الأهرام من بناء هـذه الملكة المسماة «دلوكة».

والبعـض يقول إنها من بـناء «تدوره جادو» ودفن كـهنة أشمون وأتريـب وصاى مع تواريخهم داخل هذه الأهرام.

أما على ضوء ما ورد فـى تاريخ «الشهابى» فإن أول من بنـى هذه الأهرام هو الملك سوريد بن شهلوق بن شرباق بن توميدون بن تدرسان بن هوصال.

وثمة باب مطل على النـاحية الشمالية للهرم الواقع فى الجهة الـشمالية وبداخل هذا الباب وعلى الأحجار فى الناحية اليمنى نقوش باللغة العبرية جاء فيها:

(أنا بانى الأهرام وقد أتممـت بناءها فى ستة أعوام، أيستطيع من يـجيئون من بعدى هدمها فى ستمائة عام والهدم أيسر من البناء. وقد غطيتها بالديباج، أيستطيع الملوك من بعدى أن يكسوها بالحصير).

وعندما هبط الخليفة المأمون مصر قادمًا من بغداد عقد عزمه على أن يكشف عن كنز الأهرام وبذل الهمة طيلة سبعة أشهر، فكوم حولها الحطب وأضرم فيه النار وسكب عليها الخل وضربها بأحجار المنجنيق الضخمة فهدم قدر عشرين ذراعا منها فعثر على جرة مرصعة بالزمرد بها ألف دينار من ذهب، وكل دينار يزن أوقية، كما عثر على حجر يضم نقوشا جاء فيها:

«يا من تتوق نفسك إلى فتح هذا القبر للكشف عما به من دفائن، مهما بذلت من جهد جهيد وأنفقت من مالك الكثير لتحصل على المال الجزيل ومهما ازددت طمعًا فسوف ترحل عن تلك الدنيا الفانية».

وحينما شاهد جند المأمون هذا الكلام (أصيبوا بخيبة الأمل)، إذ إنهم بعد أن كابدوا شتى صنوف العناء طيلة سبعة أشهر فى هذه الصحراء المترامية الأطراف وأنفقوا من المال ما أنفقوا لم يعثروا إلا على ألف دينار من ذهب.

سبق أن أشرنا إلى باب فى الناحية الشمالية بداخله حجر كتب عليه:

«أيستطيع ملوك الأجيال التى تأتى من بعدى أن يكسوا الأهرام بالحصير» فخالها المأمون رموزا وأمر بها فكسوا نصفها بالحصير المصرى وعندئذ عصفت ريح صرصر عاتية أذرت برجاله وحصيرهم فى الهواء، فوقع الجزع والهلع فى القلوب.

ونزولا على سداد رأى «حسين بن سهيل» وزير المأمون نفضوا أيديهم من هذا العمل ومضوا إلى حال سبيلهم.

وإلى الآن تبدو المواضع التى انهدمت فى عهد الخليفة المأمون. وعندما شرع يوسف صلاح الدين يجدد بناء قلعة القاهرة نزع الأحجار من جبال الأهرام وشيد بها قلعة مصر الداخلية والقلعة القبلية. وجاء من الحجارة التى نزعها من جبال الأهرام ومواضع الحجارة التى انتزعها ظاهرة للعيان إلى يومنا هذا.

ذكرت أن بانى الأهرام هو الملك «سوريد» وهو القائل «لقد بنيت هذه الأهرام فى ستة أعوام فهل يستطيع من يجىء بعدى من الملوك هدمها فى ستمائة عام» وإنى أفند زعمه فأقول إننى لو لغمت هذه الأهرام بمائة قنطار من البارود الأسود وستة صناديق من

لغم قلعة قباندية فسوف تنسفها جميعا وتجعلها رأسا على عقب وفى تلك الساعة لن يبقى لها من قرار على وجه الأرض.

لكن فى الواقع إننى ما رأيت على وجه الأرض أبنية عظيمة مثلها، ولله الحمد إنه فى عهد إبراهيم باشا بينما كنا نرعى خيولنا بجوار الأهرام لبثنا أكثر من خمسة أيام للراحة والاستحمام ثم مضينا إلى هناك عدة مرات للفرجة فبلغ منى العجب مبلغه وفى إحدى المرات اتفق أن كان معنا خمسة وأربعون رجلا من رجال الأمير أخور (أى بك الأصطبل) وبهلول أغا وغيرهم وأحضرنا معنا المشاعل والقناديل وقمنا بإزالة ما على الباب الشرقى للهرم الأكبر من رمال تراكمت وعندما دخلناه متعوذين باسم الله نظرت فى البوصلة والساعة ومشينا فى داخله سبعة أقدام ناحية الجنوب فى ممر واسع يعلوه عقود حجرية ترتفع عشرين ذراعا وكان اتساع الممر عشرة أذرع.

وعلى جانبيه عدة كهوف وقاعات وقباب من الحجر مزدانة بنقوش ذهبية وكأنها خرجت لتوها من يد «بهزاد»، وكانت كل حجرة تغص بعظام وجماجم الآدميين وكل جمجمة منها تتسع لمائة كيلة من القمح، وكم كان هناك من جماجم مختلفة الأحجام بين كبيرة وصغيرة لا يعلم عددها إلى الله.

وثمة عظمة رفيعة مكسوة بالجلد وهى بمقياس شبرى سبعون شبرا وغير ذلك عظام كثيرة وفى أحد هذه الكهوف العظيمة دفنت كثير من الجثث المحنطة وعدة مئات من الطيور المحنطة بطول سبعين قدما أو أكثر تنبعث منها رائحة كريهة قاتلة كرائحة زبل الغراب وجميعها معلقة من مناقيرها على الصخور. واصطدمت قناديل بعض الرجال بها فاحترقت أجنحتها وريشها فأصاب بعضها وجوهنا، وفى تلك اللحظة تقهقر بعض رفاقنا بقناديلهم خوفا من أن ينالهم أذى، ولكنى بقيت مع الخمسة والثلاثين رجلاً وسرنا ساعة بكاملها ناحية القبلى بالاستعانة بالبوصلة فوصلنا إلى قاعات ـ غاية فى الفخامة والزخرف، وفى كل منها جثث محنطة لآدميين منها الراقد ومنها الجالس وأطول هذه الجثث لأناس من رجال يوم القيامة وإلى جانب هذه الجثث حصير بال وليف النخيل المغطى بالرمال وتقدمنا من ذلك الموضع ما يقرب من خمسين قدما فى

ارتفاع وانخفاض فوجدنا حوضا كبيرا ممتلئًا بالماء الصافى وعلى الجوانب الأربعة لهذا الحوض جلست طيور مخيفة تخلع القلوب ببشاعتها تشبه العقبان والأوز وعندما رأتنا بسطت أجنحتها فسمعنا ما يشبه الرعد وكأنما سالت أدمغتنا من آذاننا وعرت الخفافيش ملابسنا وقال حملة المشاعل: إن المشاعل على وشك الإنطفاء وجملة القول أننا عندما شاهدنا أجنحة العقبان خلعت قلوبنا من الهول والفزع وما استطعنا أن نحرك أقدامنا بخطوة واتفقنا على العودة فهبت ريح عقيم من جانب هذه الطيور لها إيذاء ريح الشتاء قارصة البرد، وقلنا كيف يكون مصيرنا إذا ما انطفأت مصابيحنا ومشاعلنا، ولدى خروجنا إذا بنا نرى أن لكل خفاش من تلك الخفافيش فراشة فى حجم الحمامة كانت أجنحتها تصطدم بمشاعلنا ووجوهنا.

وعلى أية حال خرجنا ولدى عودتنا التقينا برفاقنا الذين فروا من قبل وجعلوا يهزأون بنا ويضحكون من وجوهنا الملطخة. ويعلم الله أننا خرجنا سالمين وقد بلغ بنا الجهد مبلغه وأنهكنا التعب والإعياء، إلا أننا شاهدنا أشياء عجبًا ولا يعلم أحد ما وراء هذا الحوض إلا الله. وهكذا شاهدنا الهرم الأكبر فما رأينا خزانة ولا كنزًا وإنما رأينا جثثًا محنطة دفينة.

إلا أن هذا الهرم طلسم ما فى ذلك شك أو ريب لأننا بهتنا عندما بلغنا هذا الحوض المذكور وعندما خرجنا من الهرم كان قد بلغ منا الإعياء مبلغه ولما تنسمنا الهواء دبت الروح فينا ـ لا يسر الله لنا دخوله ثانية ـ، بعد ذلك تناولنا الفطور وشربنا القهوة فى خيامنا وطوفنا حول الأهرام الثلاثة.

ويبلغ كل هرم من الهرمين مائتى قدم طولاً وعرضًا وعلى هذا الحساب يكون محيط كل واحد منها ثمانمائة قدم وبعض الأحجار فى قمته يصل حجمها إلى مائتى باع.

وفى الجانب الشمالى من الهرم الأكبر الباب الذى دخلنا منه، أما أبواب الأهرام الأخرى فغير ظاهرة. إلا أن هرم أبى الهول غاية فى صغر حجمه إلا أن كلا من الهرمين الآخرين يناطح الفلك. إنها جبال مخروطية الرأس وقد تسلقت الهرم الذى دخلته إلى قمته فكانت ميدانا يتسع لإقامة خيمة ذات عشرة خزائن. وفى بعض الثقوب

الموجودة فى الأحجار عثرت على أوكار الشواهين والصقور والحمام والحدأة، وبدت القاهرة كلها تحتى. إنها جبال عالية إلى هذا الحد البعيد.

وحول هذه الأهرام العديد من الأبنية المطلسمة مبنية بالحجر الأسود وإذا ما ذكرت أوصافها لَمَسَّت الحَاجَةُ إلى كتابة مجلد بتمامه.

تتمة الحديث عن الأهرام

عندما ذهب المبعوث الذى أرسله المقوقس إلى الرسول صلى الله عليه وسلم شرف بالدخول فى الإسلام وهذا المبعوث هو «ذو النون المصرى» الذى ولد فى شرق إخميم بالصعيد العالى وكان فريد دهره فى فصاحته وإبانته، وبعد أن فتحت مصر دخل ذو النون هذا الأهرام بإذن من عمرو بن العاص وقرأ ما بداخلها من نقوش عجيبة وترجمها إلى اللغة العربية وهذه النقوش هى:

احذر العبيد المعتقين
والأحداث والجند المتعبدين
والنبط المستعربين

ونص آخر جاء فيه:

يقدر المقدور
والقضاء يضحك

أما الهرم الأصغر الذى بناه «قليمون الحكيم» قبل الطوفان ففيه بيت مكتوب هو:

تدبر بالنجوم ولست تدرى ∴ ورب النجم يفعل ما يريد

ذكر عجائب الأشكال الطلسمية لأبى الهول
والذى يسمى فى العبرية «بلميب»

رأس كبير من حجر أبيض فى حجم قبة الحمام، يقع كذلك فى الناحية الشرقية من الهرم الأصغر. ولا وجود لمعالم أخرى لجسم التمثال بخلاف الرأس والجزء الذى خلف الرقبة. فهذا التمثال عبارة عن رأس ليس إلا، ولهذه الرأس وجه متجه نحو الشرق وحاجب وعين وأسنان وأذن وشفتان وعنق. وهى تتسع لمجلس مائة رجل.

وقد صنع هــذا التمثال أحد عـباقرة السلف، وقـد صنع بضربات فـأسه هذا الرأس وكأن له روحا وكان هذا الـرأس يبتسم، وأظهر الصانع ذوائب هــذا الرأس وكأنه عمل السحر المعجز واستعرض مهارته وبراعته فى ذلك.

وفى الزمان الخالى كان هذا الرأس يتجاذب أطراف الحديث مع الغادى والرائح، فقد كان طلسما. فكان يستنبط الأسرار والغيبـيات فيتنبأ بمن سوف يعتلى عرش مصر ووقوع القحط والـغلاء وتفشى الطاعـون وسقوط المطر واحتبـاسه ومقدار فيضان الـنيل وعدم فيضانه وما يحدث وما لا يحدث وكل الغيبيات الخمس.

وعندما ترامت إلى سيدنا موسى الأخبار عن مكاشفة أبى الهول للأسرار الغيبية جاء إليه ـ عليه الـسلام ـ وبعد حوار طويل قال سيدنا موسى عليه الـسلام لأبى الهول:

إنك قادر على نطق كل الكلام، فأمن بحق رسول الله، فقال أبو الهول:

إننى لا أومن إلا بإدريس ـ عليه الـسلام ـ وعنـدئذ دخل موسى غَضَبٌ لا مزيد عليه فانهال عليه ضربا بعصا فى يده محطـما أنفه وفاه، وقال له: اسكت يا ملعون. ومضى وإلى الآن منذ عهد سيدنـا موسى لم يتكلم أبو الهول، كما أن أنفـه وفمه محطمان من ضربات عصاه.

إنه أثر عجيب من صنع الإنسان، وفى رواية أخرى أنه من صنع السحرة.

لكن الـناس يقولون: إن امـرأة سرق منها مـال كثير، فـسألت هذه المرأة أبـا الهول قائلـة: مـن سرق مالـى؟ فقال: إن فلانـا هو الذى سرقه، فانطلقت المرأة فى الحال إلى القاضى وكبس بيت الرجل؛ فوجدوا أموالها غـير منقوصة، فمضى الرجل السارق إلى أبى الهول وصعـد رأسه وتغوط عليها، فبطـل أثر الطلسم منذ ذلك الحـين وسكت عن الكلام.

إلا أن رواية موسـى ـ عليه الـسلام ـ صحيـحة، إذ كان من أولـى العزم وبمعـجزة ضرباته أصابه البكم والصمم. وأبو الهول الآن رأس يأتى الناس لمشاهدتها.

وعلى مقربة من رأس أبى الهول موضع آخر يـستحق المشاهدة. إنه باب دير قد سد بالرمال والغثاء، ولكن فى العقد الذى يعلو يـمنة بابه العديد من النقوش المحفورة على

الرخام. وعلى الرغم من براعتى فى قراءة شتى الخطوط إلا أننى لم أر خطا يشبه هذا فكان من المحال قراءة حرف من حروفها.

طلسم أبى الهول

جاء فى تاريخ ابن جلال أنه عام ٧٨١ كان هناك من يسمى «محمد الصوفى» يسكن خانقاه الصلاحية وكان شخصا متعصبا إلى حد جد بعيد، زاد فى تحطيم أنف وفم أبى الهول مدعيا أنه صنم وقد فعل ذلك دون مراجعة القاضى والاستئذان منه واتفق أن عصفت ريح شديدة فى هذا اليوم فغمرت مزارع الجيزة بالرمال واستحال زراعة الغلال والبرسيم، فمضى أهل الجيزة بمحمد الصوفى هذا إلى القاضى، وصاحوا قائلين: إنه غمر مدينتنا بالرمال، وعندما استجوب محمد الصوفى قال: لقد نهيت عن المنكر.

وما أن سمع الأهالى ذلك منه حتى مزقوه كل ممزق ودفنوه إلى جوار أبى الهول.

وإلى يومنا هذا من أتى لمشاهدة أبى الهول رجم قبر هذا الصوفى الضال.

نعم الله على مصر

لا وجود للجراد قط فى أرض مصر، وإذا ما جاءها من بلد آخر هلك، حتى إنه فى عهده (صلى الله عليه وسلم) أصاب الجراد مكة والمدينة، وأخطر الصحابة النبى (صلى الله عليه وسلم) بما أصابهم ورغبوا إليه بأن يدفع عنهم شرّ هذا الجراد، فبسط صلى الله عليه وسلم يده ودعا الله قائلاً: اللهم ادفع هذا الجراد إلى كنانتك مصر. فقال الصحابة (رضوان الله عليهم): يا رسول الله إن خيرات مكة والمدينة تأتى من مصر، فإذا بلغ الجراد مصر وأتى على محاصيلها وقع القحط والغلاء. فقال صلى الله عليه وسلم: إن مصر فى حمى الله فإذا ما نظر إليها أحد بعين الازدراء والتحقير وظلمها وعاث فيها فسادا هلك.

وهذا واقع لا مراء فيه، فإلى الآن لا وجود للجراد فى مصر لأنه إذا بلغها هلك وللجامع الأزهر طلاسم تمنع دخول الحمام والذباب والأفاعى والحيات وغيرها من الهوام، ومفعول تلك الطلاسم مستمر إلى الآن.

ـ طلسم آخر (السفينة الحجرية):

ثمة قلعة عتيقة تقع داخل قلعة الكبش بمدينة القاهرة، بالقرب منها زاوية السلطان «جاولى» وأسفل سلم هذه التكية حوض من الرخام الأخضر قطعة واحدة وهو مستطيل الشكل يشبه السفينة. وفى الزمان الخالى كان يركب هذه السفينة الحجرية أربعة أشخاص يعبرون فيها النيل ذهابا وإيابا، وإذا ما ركب فيها خمسة غرقت وقد جعل لها الكهنة القدماء طلاسما على هذا الأساس، وقد عرف الناس طبيعة هذه السفينة فكانوا يخافون ركوب أكثر من أربعة فيها، وكان من يركبونها يمضون فى سرعة البرق الخاطف.

وإلى عهد «كافور الإخشيدى» كانت تلك السفينة تغدو وتروح فى النيل فى طرفة العين. وذات يوم عندما علم كافور الإخشيدى أن هذه السفينة من الحجر والحجر من طبيعته أن يرسب فى الماء فصاح قائلاً: كيف إذن لسفينة من الحجر أن تغدو وتروح منذ مئات السنين فى النيل وهى تحمل أربعة رجال ما السر فى ذلك يا ترى؟

فأمر رجاله بشد السفينة من النيل إلى اليابسة فشاهد طلسما أسفل هذه السفينة وكان عبارة عن سطر باللغة العبرية وصورة سمكة وصورة شعير ولا شىء سوى هذا فاستدعى جميع علماء مصر فما استطاعوا فك رموز هذا الخط. ثم أعادوا السفينة الحجرية إلى شاطئ النيل وركب فيها أربعة أشخاص ودفعوا بها فى النيل فغرقت بمن بها. وربما تكون غرقت بسبب بطلان تأثير طلسمها عندما أخرجوها إلى اليابسة أو أن يكون أحد قد تعلق نظره بها فحسدها.

وهذه السفينة الحجرية المذكورة موجودة إلى الآن أسفل سلم زاوية السلطان الجاولى وهى حوض مملوء بالماء الزلال ليل نهار وتشرب منه دواب الغادى والرائح، ومع ذلك يظل ممتلئًا، ولا يعلم من أين يأتى ماؤه. ولوقوع هذا الحوش على الطريق الرئيسى لبولاق فهو يسترعى نظر المارة. وعلى الجوانب الأربعة لهذا القارب كتب ترتيب ديوان سيدنا سليمان ـ عليه السلام ـ وكتب أسماء كل ذى روح من إنس وجن وحيوان وطير وكأن هذا الخط خط بهزاد وشاه قولى. إنه ديوان يستحق المشاهدة يخلب لب من

يشاهده، ويتسع لعقد مائة ديوان فى آن واحد. وحكم الإنس والجن والوحش والطير لم يدم لسليمان. تلك هى الدنيا التى لا تدع شيئًا إلا ما سوى الله. اللهم يسر.

من خواص أحجار مصر

ثمة حجر لامع يضرب لونه إلى الحُمرة يوجد فى الجبل الأخضر بمصر، إذا ما وضع هذا الحجر فى أفران الخبز أكسب الخبز حمرة وعجل بنضجه. إلا أننى لم أشاهد ذلك ولكن نقلت ذلك عن بدو البهيجة وحنادى عندما ذهبت لتسجيل أسماء حجاج المغرب بتكليف من إبراهيم باشا فى حوش عيسى، كما قالوا إنه يوجد كذلك لدينا فى «عز الدين».

طلاسم أم القياس

على الجوانب الأربعة لحوض أم القياس خط غريب عجيب بتأثيره ما إن يحل شهر «توت» القبطى إلا وتسقط النقطة فى بداية هذا الشهر ويفيض النيل.

ـ طلسم آخر:

أقام سيدى الشيخ البطرانى هيكل تمساح فى حوض أم القياس ورسم على صدر هذا التمثال طلسما، ومنذئذ لا تمر التماسيح من أم القياس، وإذا ما مر تمساح مع فيضان النيل انقلب على ظهره ونفق. وفى تلك الأماكن يبتلع التمساح من خوفه الحجارة فيثقل إلى أن يمضى فيضان النيل وتصفو مياهه ويهبط التمساح إلى قاع النيل ويعيش على الطين طيلة ثلاثة أشهر ثم يعود من أم القياس وينجو بذلك من الطلسم.

من تنبؤات المنجمين

ثمة دير عظيم عند باب القصر بمدينة القاهرة، وهو الآن مدرسة، وصنع كهنة السلف فى هذا الدير وجها من النحاس عليه نقاب مذهب، ونبى آخر الزمان يكون صاحب هذا الوجه وسيكون لأمته ملك مصر يقيمون فيها العدل، ومن سيفتحها من الرجال بعده ﷺ عام ١٨ هو عمرو بن العاص وزير الفاروق عمر بن الخطاب هذا ما ورد ذكره على الرخام الأبيض لصورة شخص ذى خرقة صفراء فوق جمل أبيض وعلى صورة سيدنا محمد ﷺ كتب على الرخام الأبيض آية من الإنجيل باللغة اليونانية معناها هو :

أن هذا الرجل من أبناء آزر وهو نبى واسمه محمد يملك الدنيا والآخرة.

ولكن عندما حاصر عمرو بن العاص مصر طمس النصارى صورة سيدنا عمر المنقوشة على الرخام.

طلاسم القلعة الداخلية

فى قاعة ديوان قلاوون بالقلعة الداخلية ثمانية وأربعون عمودا ينتهى كل منها بطلسم عظيم وقد سبق ذكر ذلك فى مجمل حديثنا عن أوصاف القلعة الداخلية.

وفى مصر مئات الآلاف من العجائب والغرائب رأيت منها مئات تخلب لب من يشاهدها والله أعلم.

ذكر ما فى مصر من أطعمة وأشربة ونباتات وثمار لا وجود لها فى بلاد الترك

فى مصر سبعة عشر نوعا من التمر لا وجود لها فى بغداد ولا البصرة ولا الإحساء فهى لا وجود لها إلا فى مصر وحدها وهى غاية فى لذة الطعم.

النوع الأول: وهو التمر الأبيض ومنه ثلاثة أنواع، منها نوع مستطيل يشبه تمر بغداد ذى النواة وهو كالسكر وهو كذلك رطب يذوب فى حنك الإنسان.

النوع الثانى: وهو أقصر منه ونواته فى حجم حبة القمح وهو كذلك رطب مثل ثمار المشمش.

والنوع الثالث: أبيض عادى تنبعث منه رائحة المسك.

إلا أن هذه الأنواع الثلاثة من التمر تجف من شدة الحر، ولا تحتمل النقل من بلد إلى آخر لأنها طارجة رطبة، تباع رطبة طارجة ولكن لا تباع على النطاق الأوسع.

وهناك «**التمر الأصفر**» وهو كذلك له أنواع وهو غاية فى لذة طعمه وهو لا يجف طالما كان نظيفا ويباع طارجا.

وهناك كذلك «**التمر الأحمر**» وله أنواع خمسة منها نوع بلدى وهو تمر نظيف لطيف يرتوى بماء النيل فى مدينة القاهرة ومنه ما يسمى السلوانى والمدنى والحموى والشامى والبستانى والرطب منه غاية فى اللذة وهو مقو. وعلاوة على هذه الأنواع هناك نوع

بنفسجى اللون ينضج فوق نخيله فيصبح مثل «المصطكا» وهو غاية فى اللذة.

و«**التمر الأسود**» ثلاثة أنواع، منها نوع جاف ثماره كالحصى، يضعونه فى جلود الإبل ليحمل إلى القاهرة وغيرها من البلاد، ولو ترك فى موضع خمس سنوات لما فسد ولا تستطيع الفأرة أن تأكله. وفى البلاد الأخرى ينقع فى الماء ويؤكل فهو غاية فى اليبوسة.

وهناك نوع من التمر هو «التمر الصعيدى» ومنه نحو عشرة أنواع. كما أن التمر الأسوانى لذيذ الطعم. وفى مناطق أسوان والشلال هناك «تمر العاص» ونخلاته تنمو من نواة واحدة حتى تناطح السحاب، وتمر العاص هذا ينفرق عذقا عذقا، وأوراقه مفلطحة وثمرته تزن سبعين درهما أو مائة وهى فى حجم قبضة اليد، ونواته مفرغة يضعون فيها الفلفل، وثماره ليست لذيذة الطعم يأكلها الفلاحون، ويملأون زنابيلهم بتمر «الطين» ويحملونها من ولاية إلى ولاية.

وهناك «التمر القدرى» وهو نوع من التمر يشبه التمر «العقيق اليمنى» وهذا النوع صغير الحجم، لذيذ الطعم إل أبعد حد، ويصدر بكميات ضخمة فى زنابيل إلى اسطنبول وسلانيك وغيرها من البلاد.

ونوع آخر من التمر يسمى «التمر البرلسى» وهو تمر أحمر اللون كبير الحجم مستدير الشكل لا يقبل الناس على أكله، وهو رطب يضعونه فى الجرار ويصنع منه «الكامخ» فيصبح غاية فى لذة الطعم، ويفصلون حامضه عن طارجه ويصنعون منه الخل.

والخل يصنع كذلك من جميع التمور إلا أن الخل المصنوع من هذا النوع غاية فى الجودة.

كامخ البصل

ورائحة كامخ البصل فى مصر تكاد تقضى على الإنسان، إلا أنه يفيد الفلاحين كثيراً فهو طارد للبلغم.

الجبن القديم

يضعون الجبن فى الملح ويظل فى الجرة خمسة أشهر أو أكثر وعندما تفتح هذه الجرة تنبعث منها رائحة إذا ما شمها تركى تعلق بأذيال الفرار فهى رائحة تكاد تكون قاتلة. أما العرب فيحضرون جرار الجبن القديم ويقطعون الخبز ويضعونه فى ماء الجبن وفيه الديدان وكأنها «خشاف» ويضعون فيه الديدان المسلوقة ويأكلونه ويدعو بعضهم بعض إلى هذا الطعام.

الليمون (ترياق السموم)

إنه ليمون صغير مستدير أصفر، إلا أنه مملوء بالماء الصافى، وتباع المائة ليمونة منه بياره واحدة، إلا أنه ترياق للسم وينقذ حياة المسموم.

الليمون الحامض

وهو كذلك موفور فى مصر، ويأتى على مصر أحد العاملين فى مصنع الحلوى بالأستانة لعصر كميات من هذا الليمون وصنع مئات الزجاجات من الشراب المسك للسلطان.

وهناك «النارنج» إلا أنه حامض، والليمون الحلو كثير، وهناك التين والرمان وسبعة أنواع من العنب والخوخ والمشمش، ولا وجود للمشمش «اللوزى» وهناك البرقوق والزيتون إلا أنهما قليلان، وتأتى الكمثرى والسفرجل بكميات ضخمة من الفيوم. وتأتى السفن من طور سيناء إلى السويس محملة بالتفاح والكمثرى والسفرجل وتحملها الجمال إلى القاهرة لأن التفاح فيها قليل، أما الموز فموفور، أما الجميز فهو وفير جدا ولا تنمو ثمرته على الأغصان وإنما على الجذع الضخم، إنها شجرة عجيبة، لها ثمرة تشبه ثمرة التين، والأبيض والأصفر والأحمر منها غاية فى لذة الطعم، وإن كانت تبدو فى هيئتها كأنها ثمرة تين إلا أن داخلها مفرغ ولا بذرة فيها. وتنمو المائتان والثلاثمائة من شجرة فى موضع واحد، ويباع محصول مائة شجرة بياره واحدة. وهو فى جَنْبِه مشقة يصعد الناس شجره بسلم قبل أن ينضج ويختنون كل ثمرة بسكين فتنضج الثمرة لذيذة الطعم وإذا لم تختن الثمرة فهى لن تكون لذيذة. إنها ثمرة لها رائحة المسك، سهلة الهضم ومقوية.

ولكى لا يأكل العصفور هذه الثمار يحيطون الجذوع المثمرة بشبكة صيد فتأمن من الطيور، وظل هذه الشجرة بقعة طيبة النسيم لا تنفذ إليها حرارة الشمس ومن استراح فى ظلها شعر بالنشاط وكأنه لم ينم.

فاكهة النبق

فى حجم ولذة ثمرة الـ «الج» فى تركيا، إلا أن الثانية داخلها ست بذور فى حين أن فى النبق بذرة واحدة، وهى تنمو فى موسم الشتاء وثمرة فى حجم ثمرة الجوز، ومنها الأحمر والأصفر والوردى، وهى شجرة مرتفعة تعمر طويلاً وفى تكية «منصور الأنصارى» بمصر القديمة شجرة نبق سامقة عمرت ألف عام وتؤتى أكلها فى كل وقت نواة النبق كنواة الكرز ولذلك يسمون كرزنا النبق وطبيعته قابضة.

فاكهة (   )[1]

إنها فاكهة عجيبة فى لذة تمر طرابيزون فى بلاد الترك ولكنها لزجة فى فم الإنسان كأنها الغراء، إلا أنه لذيذ مقو وأشجاره سامقة.

الخيارشنبه

أشجارها تشبه شجر الجوز وأوراقها كذلك تشبه أوراقه، وله أزهار صفراء.

ثمارها طويلة كالسوط يبلغ طولها ذراعا أو ذراعين، وهى تشبه الثعبان فى طولها وفى أول نموها تكون خضراء وعند نضجها يسود لونها وبداخلها عقد من العسل الأسود.

يضيفها الأطباء إلى المعاجين، فهى ملينة، كما يصنع منها المربى وبعض الأدوية الجيدة. وعندما تكون الثمرة ما زالت زهرة صفراء يصنعون منها الخميرة والمربى. إنها فاكهة مفضلة لدى العوام من الناس وخواصهم. إلا أن كل أشجارها تحتكرها الحكومة وأصحابها لا يستطيعون قطف ثمرة من ثمارها فهى أمانة عندهم للحكومة وتدفع لأصحابها أقجة واحدة على السبعة عشر حملاً منها، وثمارها تحت تصرف الحكومة، وتصدرها للملوك الأبستانة، وتحصى ثمارها ثمرة ثمرة وهى ما زالت فوق أشجارها ويقيد ذلك فى دفاتر حتى إذا ما نقصت منها ثمرة غُرِّم صاحب البستان.

---

(١) بياض فى الأصل.

شجرة السرو

وهو فى مصر كثير ، كما توجد شجرة «دلب الفسدق» وهى موجودة فى حديقة «نقيب الأشراف»، وشجرة «الصنوبر» وهى كذلك موجودة فى حديقة نقيب الأشراف ولا وجود لسواها.

شجرة الجوز

شجرة فى حقل نذير أغا فى عمق قلعة الكبش ولا وجود لسواها ولكنها تكثر فى مدينة الفيوم.

شجرة السبحة

قريبة الشبه من شجرة الجوز إلا أن أوراقها صغيرة، تنمو على غصونها التى تشبه السبحة. وتثقب ثمارها عندما تنضج وتصنع منها السبح، ومن يشاهدها يعجب لإبداع الخالق قائلاً: سبحان الله الذى خلق هذه الشجرة المستديرة التى تصنع منها السبح لذكر اسمه.

شجرة السنط

أشجار سامقة فى غلظ رَجُلين، أوراقها كأوراق شجرة الكرز إلا أنها لا تؤتى ثماراً. تصنع السفن من خشبها وتحرق وقودا، ولا رماد لها، وجمارها حمر. إنها شجرة صلبة، تستخدم أوراقها لعلاج الإسهال، فتدق فى الهاون وتخلط بالعسل وإذا ما تناول شخص خمسة دراهم من هذا الخليط على الريق شفى من الإسهال.

وأخشابها غاية فى الصلابة حيث تصنع منها سفن تعمر مائة عام فى البحار. وبعض الأبنية العتيقة التى مضى على بنائها ألف عام أو أكثر أسسها من هذا الخشب. ومن ثم لا وجود لأشجار فى صلابة السنط والبقس، ومن الناس من يسميها «أشجار العالم الجديد»، إلا أن جو مصر يغير لونها.

شجرة الساج

ليست شجرة كبيرة، أوراقها كأوراق شجرة الكرز وهى دائمة الخضرة، تكثر على ضفاف النيل وهو شجر يقبل أهل مصر على زراعته، إلا أنه لا يؤتى ثمارا.

شجرة الحناء

شجرة فى حجم شجرة البرقوق التى فى بلاد الترك، ولها نوع خاص من النَّوْرِ زكىٌّ الرائحة، ويقدمها البستانيون هدية إلى الأعيان، ولكن ليس لها ثمار، إلا أن رائحتها تهب الروح. وهى ليست الحناء التى تستعملها النساء.

شجرة الحناء (حناء يد وقدم النساء)

تكثر فى مدينتى بلبيس والقرين، إنها أشجار قصار، ترتوى على الدوام بماء السواقى ويجمعها النساء والأطفال فى موسم حصادها يقطفون أوراقها وتطحنها الطواحين وتصنع منها الحناء فتصبح فى لون الياقوت الأحمر. وكنت أُسَرُّ عندما أشاهدها فى كعب العجائز من نسائنا.

شجرة الصفصاف

وهى كثيرة، وأوراقها مفيدة لمرضى اليرقان، فتسحق أوراقها فى هواوين خشبية لاستخلاص مائها، وإذا شرب مريض منه كأسا فى ليلة مقمرة شفى من اليرقان فى الصباح.

شجر الحور

يوجد فى البساتين هنا وهناك.

وشجر «العُلْكِ الأسود» منتشر هنا وهناك كذلك.

شجر التوت

وثماره منها الأبيض والبنفسجى والأسود الحامض، إلا أن أشجار التوت المحيطة بقصر ذى الفقار بك أمير الحج على ضفة بِركة الفيل لا نظير لها فى الدنيا، بأسرها وجذعها فى غلظ أربعة أشخاص وأغصانها تظل ما حول القصر وتحت جميع أغصانها أكثر من أربعين عموداً وظِلالُها كأنها قاعة ديوان عظيمة. وعلى مصطبة تلك الحديقة مكان يتسع لتناول ألفين طعامهم. وثمارها لذيذة الطعم كأنها اللؤلؤ، وهى غزيرة العصير.

ومجمل القول أنه لا وجود لمثل ثمار هذه الحديقة فى الدنيا.

شجر الآس

إنه كثير إلا أنه لا يثمر كآس حلب.

شجر (اتله)

أوراقها كأوراق شجـرة السرو إلا أن خشبها ليس مـثقوبا كخشب الســرو، كما أنها كذلك لا تثمر، ويستخدم خشبها فى أعمال البناء، كما تستخدم حطبًا.

شجر التمر الهندى

ينتشر هنا وهناك فى الحدائق، وهو يثمر.

شجر الجميز

ذكر آنفًا.

شجرة السيسبان

إنه نوع من الأشجار الصغيرة التى لا تعمر طويلاً، يزرع حول حقول قصب السكر، ولِنَوّرته رائحة إذا ما شمها الفأر أو ابن عرس لـم يدخل حقل القصب ليأكله، ويضاف فحم هذه الشجرة إلى البارود.

وكم من أشجار أخرى توجد فى مصر إلا أن الكلام بذكرها يطول، لذا اكتفينا بذكر ما سلف من أشجار.

***

الفصل السابع والخمسين
ذكر النباتات المأكولة فى أرض مصر

ـ الموز:

شجر عجيب، إذا قلت إنه شجر فليس بشجر، لكن طوله كطول الشجر، يطول فى كل عام بمقدار قامة شخصين، وجذعه فى غلظ الرجل، وداخله مملوء بالماء، وهو يطرد ماء الاستسقاء على نحو ما قيل عنه. وأوراقه فى حجم اللحف والبسط وتشبه الأعلام الخضر وبين أوراقه إلى ذروته عناقيد الموز، وفى كل عنقود ما يقرب من مائتى ثمرة منضدة بعضها فوق بعض وعندما ينضج يصبح وكأنه قطعة من الماس وعندئذ يقطف للأكل ويكون الموز أخضر فى بداية نموه. وعلى الرغم من أنه قريب الشبه من الباذنجان إلا أن ليس به بذور، بل إن ثمرته ممتلئة بالمعجون وهو مقو، وقشرته تسلخ من أعلى، وإذا ما أكل مع السكر كان أكثر لذة فى طعمه. وإذا ما تناول منه الإنسان خمس ثمرات أصبح فى غنى عن أكل اللحم وهو مشبع سهل الهضم، وثمرته غنية بمنافعها فهى تقوى البدن وتزيد من المنى وتقوى الإبصار.

ويقال إنها خلقت كرامة لسيدنا أويس[1] رضى الله عنه فعندما استشهد السِّنَّة الشريفة للرسول ﷺ فى غزوة أحد، وتناهى إلى سمع أويس ذلك الخبر قام بخلع أسنانه الاثنين والثلاثين محبة فى رسول الله ﷺ وهو يقول: أهذه السِّنَّة التى استشهدت أم تلك وعندما طرح أسنانه على الأرض نبتت هذه الأسنان موزا بقدرة الله تعالى وانتشر الموز من اليمن إلى سائر البُلْدَانِ الأُخْرَى.

---

(١) هو أويس القرنى خير التابعين كان براً بأمه، مؤثرا للعزلة وخمول الذكر يستخفى من الناس حتى لا يعرفوا حاله مع الله وكان ـ رحمه الله ـ مجاب الدعوة، أمر النبى ﷺ ـ عمر ـ رضى الله عنه ـ إذا لقيه أن يستغفر له، فلما لقيه عمر فى خلافته ذكر له ما كان من قوله صلى الله عليه وسلم فاستغفر له. والخبر فى صحيح مسلم، كتاب الفضائل(١٠١) باب من فضائل أويس القرنى رضى الله عنه. والحكاية الواردة هنا عن أويس وإن لم تكن مستبعدة فى حق من يأخذه الحزن لفقد عزيز؛ فقد حلقت الخنساء شعرها حزنًا وكمدًا على أخيها، فما بالنا والأمر متعلق بالحبيب ﷺ إلا أن هذا قد يكون من قبيل كلام القصاص؛ فإنه لم يلق النبى ﷺ، وهو فى عداد التابعين ولم يدرك أحدًا.

هذا ما رواه علماء اليمن وأجمعوا عليه.

إلا أن شجرة الموز تنبت من الأرض كقصب السكر وتثمر مرة واحدة ثم تقطع، هكذا خلقت. وتكثر أشجار الموز فى بيروت، تحتكرها الحكومة ولها ناظر خاص، كما أنه يكثر فى دمياط والقاهرة.

ـ الخيار:

يزرع بكثرة ولكن تمس الحاجة إلى استيراد بذوره من الشام كل عام، لأن بذور الخيار التى نمت فى مصر السنة الماضية أثمرت عجورا، ولذلك تستورد بذور الخيار من الشام فى كل عام.

ـ العَجّور:

يشبه الخيار كذلك ولكن ثمرته عوجاء.

ـ القثاء:

وهى كذلك أحد أنواع الخيار، وهى مرطبة، وقد ورد ذكرها فى القرآن الكريم.

ـ البطيخ الأصفر:

أى الشمام، هناك سبعة أنواع منه فى مصر وهو يزرع ويحصد ثلاث مرات فى العام، وهناك الشمام الأخضر والذى كان فى بدايته يسمونه «دوميرى»، وهو مستدير ولذيذ الطعم وثمة نوع آخر يسمى «الشلابة» يزرع فى أراضى الخانكة وهو لذيذ الطعم غاية فى امتلائه بالماء.

ـ البطيخ:

يزرع بكثرة فى جميع المدن، إلا أنه صغير الحجم، ولكن بطيخ البرلس كبير وقشرته رقيقة وداخله نسيج أحمر ياقوتى ممتلئ بالماء.

ـ البطيخ الأزرق:

وهو كذلك أحد أنواع البطيخ، إلا أنه فارغ الداخل ويطرحونه فى البرية فى بلاد الترك غير أنه يباع بدينار ذهبى فى بعض أحياء مصر، إذ إن جو مصر يجعله يهب الحياة فإذا ما أصابت إنسان حمى محرقة وشرب فنجانين من ماء هذا البطيخ الأزرق أصبح

جسمه كأنه قطعة من ثلج، يا لها من حكمة عجيبة. وفى تذكرة داود ذكر لفوائده التى يعجز الوصف عنها، ولا وجود لهذا البطيخ إلا فى مصر.

- البطيخ (عبد اللاوى):

وما يعرف بعبد اللاوى يشبه الشمام فى طعمه. إنه شىء عجيب عندما يستدير ينقسم رأسه إلى جزئين أو ثلاثة ويصبح كل جزء منها كأنه ثعبان أرقط، وفيه بذور تشبه بذور الشمام، إلا أن طعمه يميل إلى الحموضة قليلاً وطبيعته مرطبة وهو مدر للبول وبما أن له هيئة الثعبان يأكله الإنسان متكرها.

وقد جاء فى كتب الطب إنه خلق بفضل معجزة الرسول ﷺ والسبب هو:

حكاية

يحكى أن كفار قريش ذَهِلُوا عند ظهور النبى صلى الله عليه وسلم فبالغوا فى مهانته إلا أنهم عجزوا عن الانتقام منه، فلجأوا إلى الحيلة والمكيدة فأحضروا صندوقا فيه عقارب «كاشان» من بلاد الفرس وهى عقارب تنفذ إبرتها فى الحجر، والعقرب الكاشانى فى أيامنا تلك له واسع الشهرة فى شتى أنحاء الدنيا.

ثم أحضر ملاعين قريش هذا الصندوق وبعض الهدايا إلى الرسول ﷺ حتى تلدغه العقارب عند فتحه للصندوق. فقال ﷺ : ما هداياكم تلك. فقالوا: يا محمد إن هدايانا نوع من الشمام ظهر حديثًا لا علم لنا باسمه.

فقال الرسول ﷺ : سموه «عبد اللاوى» فقد كان ﷺ يحب الشمام كثيرا، وهم الرسول ﷺ بفتح الصندوق أمام رهط قريش ذاكرا اسم الله تعالى فأصبحت العقارب الموجودة فى الصندوق «عبد اللاوى» فأكل منها ﷺ قائلا: بسم الله ووزع منها على صحابته ورأى كفار قريش هذا فآمن منهم سبعون فى التو، أما بقيتهم فقالوا: يا محمد إنك لساحر. ومضوا وبقوا على ضلالتهم. ﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ [الإسراء: ٩٧].

وتلك هى معجزة «عبد اللاوى» وهذا هو السبب فى أنه على هيئة الأفعى والعقرب. ولا وجود له إلا فى مصر.

ـ العجور الأخضر:

وهو كذلك مثل عبد اللاوى إلا أنه أخضر وأشكاله معوجة مثله كذلك، وفيه بذور، وطبيعته مرطبة، وطعمه لا يشبهه طعام آخر. يسمى فى بلاد الترك «القرع المصرى» ويسمى فى مصر «القرع التركى». إنه قرع مستدير ينتشر بين فقرائنا، ومنه قرع الماء والقرع الأفرنجى وقرع الألواح وهى كثيرة.

ـ حب اللذيذ[1]:

ينمو على ضفاف النيل وهو يشبه الحمص ويميل لونه إلى الصفرة وهو بقل لذيذ ومقو.

ـ قصب السكر:

يزرع بكميات ضخمة فى جميع القرى وهو محصول عظيم.

ـ القلقاس:

نبات أسود يشبه فجل بروسه يأكله الفقراء وطعمه لذيذ مثل «أبى فروة»[2].

ـ القنابيط:

يشبه الكرنب، لكن له أزهار صفر.

ـ التين الأفرنجى (الشوكى):

أشجاره خضراء والواحدة منها طول رجلين وهى تشبه الكف يلتصق بعضها ببعضها وأوراقها سميكة كالكف وعلى أطراف أوراقها الخضر تنمو عشرات من ثمار التين ومنه الأصفر والأحمر وتكون مغطاة بالأشواك. ويستخدم دواء كالتين، إلا أن طعمه لا يشبه طعم الفاكهة وهو مقو للغاية.

ـ لوز النبى:

شجر قصير كشجر السمر وفى كل شجرة لوزتان أو ثلاث، وهو يشبه اللوز فى طعمه. وقد خلق هذا النبات كرامة للرسول ﷺ عندما قدم إلى الشام للتجارة، وهو يكثر فى أرض مصر. إنه مقو ولذيذ.

---

(١) يقال له حب العزيز.

(٢) أى الكستناء.

ـ الملوخية:

عشب أخضر يشبه النعناع، يطهى كالسبانخ، يسميها بعض الظرفاء «ملوكية» لشدة حبهم لها أى أنها طعام الملوك. إنها سريعة الهضم مقوية وهى طعام الزنوج وهى مفيدة للطواشية.

ـ البامية :

نبات فى حجم رصاصة البندقية، وجلد ثمرتها شائك ولكن إذا طبخت زالت أشواكها. عندما تطهى مع اللحم ويضاف إليها عصير الليمون كانت طعامًا عظيم الفائدة. وبداخل ثمرتها بذور تشبه بذور العدس، والبعض يطبخها بالثوم والماست، إنها طعام عجيب لذيذ.

ـ الثوم:

نبات ضار وسم زعاف، لذا لا يقبل عليه الناس والكل يستخدم الثوم التركى ولا وجود لشىء أرخص من البصل والملح.

ـ الكتان:

يزرع بكثرة، إلا أن أجود أنواعه التى تزرع فى الفيوم والنهارية، وتباع الكرة من خيطه بخمس عشرة پاره. إلا أن قماشه لا يتحمل، ويلبس قميص الكتان شهرين فقط.

ـ النيلة:

عشب لونه بين الزرقة والخضرة، عندما يكتمل نموه يطهى فى أوان كبيرة، ثم يدق بالمطارق الخشبية فينضح ماؤه فيؤخذ ماؤه ثم يوضع على النار حتى يغلى وترسب زبدته فى قاع الإناء ثم يحول إلى أقراص ويباع لبائعى الأصباغ. وتباع الأوقية منه بأربعة قروش، ويقال إن هذا العشب لا وجود له فى بلاد الهند.

ـ البرسيم:

عشب ينبت فى اليوم التالى من زراعته بمقدار شبر، وهو مرعى جميع المواشى ولولاه لما كان فى مصر مرعى.

ـ القصب الريحانى:

قصب طويل، رقيق فيه عقد، يصنع منه غليون التبغ.

ـ الحصير المصرى:

وهو من شتى الألوان، ويصنع منه حصير الفيوم والبحيرة وتباع الواحدة بأربعين قرشا أو أكثر، وهذا الحصير لا وجود له إلا فى مصر وحدها دون غيرها من البلاد، وبعض الصناع المهرة يصنعون حصيرا وكأنه سحر معجز.

ـ الترمس:

نبات مستدير مفلطح يشبه الفول، ينقع فى الماء المملح ويؤكل، والبعض يطبخه والبعض يطحنه ويصنع منه دقيقا يمسحون يديهم به بعد الفراغ من تناول الطعام ويغسلونها بالماء فهو يزيل الزهمة من اليد. وتستعمله جميع عائلات مصر بديلا عن الصابون فى غسل أيديهم بعد الطعام فهو ذو رائحة زكية. وبعض السمان يدخلون إلى الحمام ويمسحون جسمهم كله بهذا الترمس فيزيل ما علق بأجسامهم من أوساخ ويجعل أجسامهم ناعمة وكأنها الفالوذج، ولذا فإن جميع حسان مصر يمسحن أجسامهن به فى الحمام إلا أنه ليس من أدوات الاغتسال.

ـ الغاسول:

أحد أنواع الصابون وهو نبات ينمو على ضفاف ترعة «الناصرية» المؤدية إلى الإسكندرية، يكوم هذا النبات تلالاً تلالاً فى مكان واحد وتضرم فيه النار فيتحصل من ذلك رماد يصنع منه الزجاج بمشيئة الله.

وقد لا يحرق فى النار ويسحق فى هواوين، ثم يخلط بالطين ويشكل على هيئة أقراص تغسل بها الملابس فتبدو لها رغوة كالصابون تنظف الملابس وتجعلها ناصعة البياض، إلا أنه لا يصلح لغسيل العمائم والقمصان الرقيقة.

والسر العجيب أنه عشب يحرق فى النار فيصير زجاجًا ويخلط العشب بالتراب فيصبح صابونًا. إنه ما يعرف «بالغاسول» يفعل الله ما يشاء.

ـ الحِلبة:

حبة مثل حبة العدس، توضع فى صرر من البَز وتنقع فى الماء فتنمو كأنها شعر العرب وتصبح بيض الأفنان يأكلها الصبيان، كما يصنعون منها حساء. وطعمها لذيذ للغاية.

وفى مصر القمح والشعير والفول والحمص والعدس والقطن والأرز والسمسم أكثر منه فى البلاد الأخرى وأرز مصر ألذ من أرز الهند، وروان وبيلان وحبته أكبر، ويقال إن أرز المنزلة وفراسكور لا نظير لمثله على وجه الأرض وليس فيه حصى، وأجود أنواع الأرز فى مصر هو الأرز السلطانى الأبيض.

ـ النطرون:

شىء يشبه الملح، لندرة الحطب في مصر يضعون هذا النطرون إلى الطعام فينضج اللحم وغيره فى طرفة العين، إلا أن أعيان مصر لا يقبلونه، وعلى الرغم من أنه ينضج الطعام بسرعة إلا أنه يسبب تورم الخصية لمن يستعمله فيمشى يتبختر وكأنه صاحب الدولة، ولذا فأغلب أهل مصر مصابون بتورم الخصية ويسميهم الظرفاء أصحاب الدولة، وأثناء الكلام إذا قلت لأحد المصريين «بخ بخ يا صاحب الدولة» دخله شديد الغضب لأن ذلك يعنى ـ بأسلوب مهذب ـ أنه متورم الخصية.

ثمة ثلاثة أديرة للقبط تقع على صخور قائمة فى الجانب الغربى من كشوفية طَرَّانَة بالبحيرة، أمام تلك الأديرة الثلاثة بحيرة عظيمة يأتى كل النطرون منها محملا على الجمال، وهو الآن تحتكره الحكومة. وقد بقى هذا النطرون من أموال قارون على وجه الأرض. والنطرون شىء عجيب، وإذا سقط الفرس أو البغل أو أى شىء آخر فيه ابتلعه النطرون، ولا وجود له إلا فى مصر دون غيرها من البلاد، ويصدر منها إلى جميع أنحاء العالم، ويستخدم فى بلاد الترك فى مصانع الزجاجات فهو يصهر الزجاج فيجعله كالماء.

وفى مصر تلد الشاة ثلاث مرات فى العام، ولا تقل الخضروات فيها قط فى صيف أو شتاء.

ذكر الأشربة المصرية

ـ السوبيا:

أى بوزة الأرز التى سبق وصفها فيما تقدم.

ـ المارة:

بوزة تصنع من القمح إلا أنها مشروب لعين مسكر للغاية.

ـ البريريس:

شراب يصنع من الزبيب الأسود يضاف إليه السكر والتوابل.

وعرق التمر وماء العسل ليسا كمثلهما فى بلاد الترك، وهما مسكران للغاية لعنهما الله.

ـ خمر البالجو:

ينقع الحشيش مع العسل التركى ويتخمر ليلة ويصفى فى الصباح بمنخل فيصبح خمرا خضراء اللون من شربها لم يميز رأسه من قدمه.

ـ ماء الأسرار:

خليط من الحشيش مع حلوى خليل الرحمن، ينقع فى ماء الورد يومين فيصبح براقا ويخرج منه غثاؤه ويباع فى كؤوس فى ميدان الروملى، ومن شرب منه كأسا أفشى ما فى طويته من أسرار.

ـ عصير العرقسوس:

تستورد جذوره من بلاد الترك وتسحق فى هواوين وتنقع فى الماء ليلة ثم تصفى فى مخلاة خيل جديدة فتقطر قطرات حمراء صافية تشرب. إنه مشروب غير مُسْكِر.

وقد ذكر داود فى تذكرته سبعين فائدة له ومن أعظم فوائده أنه يطهر المثانة ويدر البول، كما أنه طارد للبلغم، فالبلغم فى جسم أهل مصر كثير كماء النيل، كما أنه خافض لدرجة حرارة الجسم ويقول داود فى تذكرته كذلك: إنه لولا شرب المصريين

للعرقسوس لأصابهم الجذام من شدة الحر، فالمصريون جميعا يشربون العرقسوس فى الغدو والآصال.

فى الواقع أنه مشروب عظيم الفائدة حقا.

- عصير التمر هندى:

إنه كذلك مشروب لا وجود له إلا بمصر لا وجود له فى غيرها، وهو غير مسكر إلا أنه منشط للكبد ومدر للصفراء وطعمه يميل إلى الحموضة.

والأشربة فى مصر كثيرة، أما ما ذكرناه منها فهو مبلغ علمنا بأنواعها.

***

الفصل الثامن والخمسون

ذكر ما لا وجود له فى مصر من حرف وأطعمة ونباتات وغلال

إن عدد المصابين بالرمد فى مصر ما لا يعلمه إلا الله فى حين أنه لا وجود لكحال ماهر فيها، وجيادها كثيرة فى حين أن لا وجود فيها لبيطار، ومرضاها كثير فى حين أنه لا وجود لطبيب يعالجهم، وكثير منهم تورمت خصيته حتى تمزقت ولا يجد له جراحًا، ورجالها كثير فى حين أنه لا وجود لحاكم يحكمها، وما أكثر المعاندين فيها فى حين أنه لا وجود لمن يتفوه بكلمة طيبة، وجندها كثرة فى حين أنه ليس لهم ضابط ويتملقون جندهم، وما أكثر القائمين على جباية الضرائب فى حين أنه لا وجود لمحاسب ذى ضمير. وهذه العبارات أصبحت أمثالا تضرب فى مصر وهى تدور على ألسنة الناس.

ـ ما لا وجود له فى مصر من مأكولات وحبوب:

ومما لا وجود له فى مصر من المأكولات والحبوب هو الدوسر والمعلس واللازوط والجلبان والعليق والزعفران والبندق والفستق والكرز، والكرز الحامض والبشملة والفاكهة الجافة والفراولة والقرانيا والمشمش والقسطل.

ـ ما لا وجود له فى مصر من أشجار:

ولا وجود فى مصر لشجرة واحدة من أشجار الأرغون والدلب والحور وشجر الشذا والغضا والبقس والقرانيا والعرعر والزيزفون البرى والسندر والأرز وشجر الملح والبلوط واللبلاب والبندق والصفصاف، وتمس حاجة مصر إلى ما يأتى من بلاد الترك من أخشاب البناء فى السفن. ولقلة الحطب فى مصر يباع الحمل منه الذى يزن ثمانين أوقية بأكثر من عشرين باره، وفى بعض أحياء مصر تباع الأوقية بپارة فى دكاكين العطارين وكأنها توتيا. ويستورد التجار الحطب من تركيا ولا يدفعون عليه المكوس. ولذلك فإن جميع أعيان مصر وأثريائها يحرقون روث الماشية وجميع أهلها يحتاجون إلى البراز.

ـ بيان ما لا وجود له فى مصر من معادن:

فالحديد والنحاس والرصاص والقصدير والفضة والزئبق لا وجود لها فى مصر.

ـ أما المعادن الموجودة بها فهى:

الذهب ويوجد فى جبل «بجاميم» بعيون موسى، إلا أنه قليل الفائدة، والزمرد وهو متوفـر فى ولاية الصعـيد العالى ويقـوم باستخراجـه «على بك الجرجـوى»، والذهب الخالص فى أرض النوبة. وعلى ضوء ما أورده العلماء والمؤرخون إن ثمة سبعمائة منجم للذهـب فى ولايات الجبل الأخـضر وأوجله وجزيـرة مصر، والكـثرة المطلقـة من هذه المناجم توجد فى ولايـة الزنوج بين أناس من الناس كالبهـائم، وفى ولاية «ماى بورنو» يبادلون حمل بغل من الذهب بمثله من حمل الخرز. وقياسا على ذلك إن الذهب لديهم شىء لا يرغب فيه.

ويوجد فى مصر كذلك الجبس، وقد أسلفنا ذكرا لكثير من المعادن، بيد أنه فى مصر آلاف من المعادن التى لم تكتشف بعد.

ـ أنواع الأزهار فى مصر:

إن أول حديقة أنشأت فى مصر للتى فى جزيرة الروضة قبالة مصر العتيقة ثم أنشأت بعد ذلـك الحدائق العـامرة حتى أنشـأت حديقة «طوب اتـان» أى مطلق المـدفع، وهى حديقـة كأنها جنة إرم ذات الـعماد ثم توالى إنـشاء كثير مـن الحدائق وفيها الآن تـكثر الورود والرياحين والبلابل، ويستخلص ماء الورد من وردها وهو ذكى الرائحة.

وأزهار القرنفل والبنفسج والياسمين الفـل والريحان والريحان المكى والريحان اليمنى والريحان الحنـائى والصدف والنرجس والخيرى والـنمام والحناء والزنبق والـسنبل وزهرة قرن الغزال والمسك التركى والورد الأبيض كلها أزهار حديثة عهد بزراعتها فى مصر.

والشقائق والزرين (زهر أصفر طيب الرائحة) أكثر الزهور انتشارا فى مصر.

وما نعلـمه فهو تلك الزهـور فكل من أراد أن يزرع نوعا مـن الزهور زرعه، إلا أن أهل مصر ينقصـهم الذوق والنظافة فهم لا يهتمون قـط بهذه الأزهار. وهم لا يزرعون أرض النيل أزهارا بل يزرعونها بما يعرف بـعشب الروح وهو القمح الذى ورد فى شأنه

آيات كريمة، وهم الآن يزرعونه مما يعود بالرخاء على مصر.

بدع حكام مصر

إذا ما توفى يهودى فى القاهرة يصطحب جميع اليهود بعض جند الصوباشى ويحملون آلاف المشاعل ويحمل جند الصوباشى كامل أسلحتهم ومع دخول الليل يمضى أهل اليهودى المتوفى بجثمانه لدفنه فى مقابر اليهود بالقرب من البساتين وينفقون فى ذلك ثلاثمائة قرش.

ودفن اليهود نهارا ممنوع منعا باتا، ولليهود عذاب أليم اللهم زده.

وهناك العديد من جبانات النصارى منها جبانة بالقرب من مصر العتيقة، وتشييع جنائزهم فى أى وقت.

***

الفصل التاسع والخمسون

ذكر اعتدال جو مصر وبدع ومحاسن شعبها قدر المستطاع

إن ماء أم الدنيا مصر وهى شوق الملوك من ماء النيل، وليس بها نهر آخر، وقد أسهبنا فى وصفه وإحصاء محامده فيما سبق. وجوها معتدل لطيف إلى حد جدّ بعيد، فلا يصاب أهل مصر بالحمى. سيما وقد ذكرنا آنفا أن جو القلعة الداخلية يشرح الصدور، وتنتشر بها الحدائق والرياض والأحواض والشادروانات، ويتردد فيها تغريد البلابل مما يبهج النفوس وهذا ما لا وجود له فى القلعة العليا. إلا أن جوها طيب فإذا ما مرض جنوب المدينة صعدوا به إلى القلعة العليا (أو إلى أعلى القلعة).

والقلعة العليا مصحة للمدينة، والأبنية فى الجهة القبلية للمدينة متلاصقة، لذا فطرقها ضيقة مظلمة ولذلك فعلى سطح كل بيت «عبَّار هوائى» لإنفاذ الهواء إلى داخل البيت ومنافذ الهواء هذه من اختراع ابن سينا على ما يقال. وقد صنع ابن سينا هذه المنافذ بعلم السميا وكان يبيع كلا منهما بدينار من ذهب على قدر استطاعة كل أحد، وكان كل منهم يضع هذا العبار فوق سطح بيته ليدخل منه الهواء فيتنسمه أهالى القاهرة.

ولهذا السبب فإن جو الجهة القبلية للمدينة غير متقلب فى اليوم الواحد تهب عشر رياح.

- ريح (تياب):

ولكن ريح (تياب) تهب من جهة (   )[1] وتسمى (   )[2] فى بلاد الترك.

إنها فى مصر راحة للأرواح، وهذه الرياح لا تبرد جرار وقلل الماء فى مصر.

- ريح المليس:

وتسمى فى بلاد الترك «الودس» وهى وإن كانت حارة التأثير إلا أنها تجعل الماء كأنه قطعة من ثلج.

- ريح «مزكب»:

وهى رياح مثيرة للرمال والأتربة، تملأ القاهرة غبارا وترفع ثياب جميع الناس، ومن شدتها تأتى بجميع سفن الحجاج من جدة إلى مصر مما يعود بالخير على البلاد.

(١، ٢) بياض فى الأصل.

والجهات الخارجية للقاهرة طيبة النسيم، وإذا ما هبت رياح «بويراز» ورياح «لودوس» خمسة أشهر جاءت السفن من بلاد الترك مما يعود بالرخاء على مصر.

كما أن الرياح التي تسمى «بويراز» تأتي بالحجاج من السويس، وتحمل الحجيج إلى جدة وينبع مما يعود بالنفع والخير على مكة والمدينة. وإذا ما هبت الريح المعروفة بلودوس خمسة اشهر وهي أشهر الشتاء جاءت سفن الحجاج والتوابل من جدة وينبع إلى السويس مما يعود بالخير والرخاء على مصر، وتمضي هذه الرياح ثانية بالسفن إلى بلاد الترك. ولهاتين الريحين عظيم الفائدة لمصر وشعبها.

وفي وسط القاهرة يطيب الجو، كما أن أجواء جبل المقطم أي الجوشي ومصيف قايتباي وسهل العادلية وسبيل علام والمطرية وبركة الحاج غاية في اعتدالها.

أما الجهات القبلية للمدينة فتوجد البرك وعلى حوافها صور سلاطين وملوك السلف، وجوها كذلك يشرح الصدر. ولكن داخل المدينة وكالات وربوع وهي منازل من خمسة طوابق أو أكثر، وفي أيام هبوب «رياح الخماسين» والعياذ بالله فإن لون وجوه الفلاحين، من ألم البَّق والبراغيث والقمل والبعوض والذباب والرائحة الكريهة، تصبح وكأنها وجوه أناس مصابين بالصرع، والسبب في ذلك هو أنه لا وجود في مصر لقنوات الصرف، بل آبار وفي أيام هبوب الخماسين على الخصوص تكسح المراحيض وهذه القنوات فتفوح الروائح الكريهة والعفنة، إلا أنهم يخبرون أهالي الأحياء بذلك ليهرب الأشخاص ذوو الحساسية بأطفالهم ممن هم في سن خمسة أو ستة أشهر إلى حي قايتباي أو داخل القلعة أو غير ذلك من القرى.

وبسبب هذه الروائح الكريهة في تلك الأحياء ينتفخ أعلى مخ الطفل وينفتح فيه ثقب يخرج منه مخ الطفل وقد أحمض كالبوزة فيموت الطفل.

وجملة القول أن رياح الخماسين تلك ضارة للغاية، وسميت هذه الرياح بهذا الاسم لأن الله ابتلى بها بني إسرائيل بخمس مصائب في خمسة أسابيع.

وبعد أن تفشى الطاعون وعم القحط وانتشرت الأفاعي والعقبان طيلة خمسين يومًا ثم دفع هذا البلاء بفضل دعاء موسى - عليه السلام -. وعندما تحين الأسابيع الخمسة تلك يسارع أهل مصر إلى توزيع الصدقات، في حين أن الدنيا تنهدم فوق رءوس

المسنين وتستولى عليهم الكآبة، أما الباشاوات فيسرون سرورا لا مزيد عليه إذْ إن بعض القرى تصبح محلولة فتكون من نصيبهم.

وفى جو الخماسين السيء لا يلامس ذوو الحساسية نساءهم، ففى تلك الأيام تضعف أجسامهم وتقل قوة نطفتهم. أما إذا عيل صبرهم ولامسوهن ولدت لهم أطفالا عمى مجذومين وذوى نمو غير مكتمل وعرج.

وهذه الأيام المنحوسة فى مصر توافق أيام الربيع فى بلاد الترك، بيد أنها فى مصر أيام الجحيم. ولا يهب نسيم الصبا فى العريش نحو القاهرة ولا يهب منها كذلك ريح سام.

وإذا ما هبط مصر شخص من بلد آخر طابت له مستقرا ومقاما وتعود على جوها وصح جسمه، فبركة دعاء يوسف الصديق ـ عليه السلام ـ يصبح الغريب موفور العافية عظيم الثراء إلا أنه لحكمة لا يعلمها إلا المولى ـ سبحانه وتعالى ـ فإن أعين أبناء الغرباء الذين يتوافدون على مصر تصاب بالرمد وكأنها عين ابن العبد وهذا ما يتحتم حدوثه. يا لها من حكمة عجيبة. وبأمر الله عندما يولد أطفالهم يولدون ضعاف البصر.

والكثرة الكاثرة من أهل مصر يضعون ملح النطرون فى طعامهم، لذا يصابون بتورم الخصية وهنا تبدو نساؤهم وكأنها حوامل. وتتورم أرجل فلاحيهم كأنها القرب.

يحكى علماء مصر أنه عندما أرسل يزيد رأس الإمام الحسين ـ رضى الله عنه ـ إلى دمشق، ثم أرسله إلى عامله على مصر والذى كان يدين له بالولاء، فوضعه فى جامع السلطان حسن بميدان الروملى، وجعل اليزيديون ـ الذين كانوا ينتشرون فى مصر آنئذ ـ يركلون الرأس الشريف بأرجلهم، وكان كل من ركل رأس الحسين برجله تورمت وأصيبت وكأنها القربة ومن فى مصر الآن من ذوى الأرجل المتورمة كالقربة من سلالة هؤلاء اليزيديين.

وهذا ما رواه علماء مصر.

ـ تفشى مرض الجذام بين المصريين:

وفضلا عن تورم أرجل هؤلاء تورمت وجوههم وأجسامهم، وأغلب فقرائهم وغيرهم مصابون «بالجذام» فى وجوههم وعيونهم وأجسامهم. ويسمى هذا المرض فى بلاد الترك «بالجرب الأفرنجى» وهو مرض متفش فى مصر ولا يسبب أى حرج لمن يصاب به، ويخالط فلاحو مصر المصابين به ممن تآكلت أطرافهم قائلين لهم: أهذا جذام. حتى إنهم يتناولون معهم طعامهم ولا يخافون قط من هذا المرض لأنه أكثر الأمراض انتشارا فى مصر إذ إنه لا وجود فيها لمستعمرات لهؤلاء المجذومين على حين أنها توجد فى سائر البلدان الأخرى حتى لا يقيمون فى داخل المدينة. ويتصدق أهالى الولايات بأموال زكاتهم على هؤلاء المرضى وذلك امتثالا لقوله تعالى ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠]، أما فى مصر فلا يجدون من يتصدق عليهم بحبة قمح.

ـ سبب تفشى الجذام فى مصر:

والسبب فى انتشار الجذام فى مصر هو إباحة الدعارة فيها، فبغاياهم يسرن فى الطرقات أسرابا أسرابا.

والمصريون قوم سمر البشرة، متوسطو الطول، أما فلاحو القرى فمنهم أشخاص ضخام الجثة وكأنهم دابة الأرض. ولسانهم عربى إلا أن كلامهم ليس فى بلاغة فلاحى مكة والمدينة وبغداد ودمشق، ولأنهم قوم فرعون الجبابرة فهم يحرفون الكلام فبدلا من أن يقول أحدهم للآخر «تعال اقعد» يقول «تعقعد» وذلك من قبيل تخفيف الكلام، وهم يسمون الخبز «رغيفا» و «شيلواقا» ويسمون الماء «موى»، ويقولون «دى» بدلا من هذا. ولهم غير ذلك من ألفاظ مهملة محرفة.

ومن فصيح أشعارهم هذه الأبيات:

ياسين ياسين يا غزال ياسين ∴ أنت الورد وأنت النسرين

بالله قل من هجرانك وارحم أنا ∴ الغريب المسكين

يا روحى يا قلبى يا بعدى ∴ يا قمرا يحيى لعندنا المحبوبين

إلا أنهم على المذهب الشافعى القويم.

أسماء فلاحى مصر

ولفلاحى مصر أسماء منها: جاد الله ، حيا الله، عبد الخالق، عبد الصمد، عبد الغفور، حمى الله، هاشم، طه، ياسين، مرزوق، حمد الله، حمد، شرابى، طاهر، عبد الحى.

وهذه الأسماء المذكورة أسماء العوام، أما أسماء الخواص فسوف نذكرها فى حينها.

ـ طوائف أهل القاهرة:

وينقسم أهل القاهرة إلى طوائف منهم طائفة «التجار» وهم قوم ثراة، والكثرة الكاثرة من أهلها من الحضر، وهم يعيشون فى رغد وسعة، ومنهم طائفة «الحرفيين» وهؤلاء يعيشون فى كفاف. وطائفة منهم هى «الترك» يشكلون طائفة الجند وأغلبهم من مماليك من الأبخاز والجراكسة والجورجيين والروس وزنوج العرب وهم جند أتراك غاية فى بهاء ثيابهم واكتمال أسلحتهم.

وطبقا لما جاء فى قانون السلطان سليم لم يكن يسمح بتجنيد «مستوى القدم» من فلاحى مصر.

ويرتدى كل ثيابا قدر ما يستطيع ويلبسون الصوف الحورانى والسراويل الحمر، أما الحرفيون إذا ما ارتدى أحدهم هذه الثياب وقع تحت طائلة العقاب. والصناع يرتدون فاخر الثياب وأنواع الحرير إلا أنهم لا يرتدون السراويل وصيفا وشتاء يتجولون عراة السيقان وكم من مئات الآلاف من فلاحى مصر يمشون عراة.

وجميع أهل القاهرة لا يلبسون السراويل، أما علماؤها فيلبسون العباءة.

ذكر نساء مصر

وجميع نساء القاهرة لا يلبسون السراويل، أما النساء التركيات هن اللاتى يلبسنها ويلبسن على شعورهن قلانس مخيطة بالذهب والفضة وعليها ريشات، ويلبسن الأطواق والقرطة والخلخال والمعاضد والمناطق المرصعة، ويلبسن القباء الحريرى المزركش وفوقه قباء من قماش مموج أبيض وإزار أسود. ونساء الأعيان يلبسن القلانس التى تسمى «سلامية» وفى أقدامهن الخفاف الصفر والنعال المزركشة الخفيفة ويركبن

حمرهـــن ويتجـولـن فـــى الطرقات فيـنضح منـهن شذا المسـك والعنبـر فى الأسواق السلطانية.

وفى كل بلاد الدنيا ثمة حسان لا نظير لهـن فى حسنهن وجمالهن، ومن عجب أنه ليس بين نساء القـاهرة حسان، وبعض الأثرياء يتزوجون من بنات قـبائل بهجة وحنادى والحضرى، ومنهــم من يستقدم العذارى الحـسان من بنات الترك والتــى تساوى الواحدة منهن خزانـة مصرية، فهن حسناوات فاتـنات ينطبق عليهن قـوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، كما أن الغلمان الصباح يأتون من خارج مصر، أما ما فيها منهم فهم لا يعمرون طويلاً. وإذا ولدت إحدى الجميلات فى مصر رمدت عينها، وللحضر بنات رشيقات القوام كأنهن أمهاتنا.

أسماء نساء مصر

اسماؤهـن: مريم، حواء، عذراء، صفـاء، ورقاء، وردة، امهان، كلثـوم، رابعة، رقيـة، زينب، ستيتة، زلـيخا، زالحة، صـالحة، دمريـة، عجيـبة، شناس، طـاهرة، وسامعة، ماهية وأسماء أخرى مستطرفة وحسبنا هذا القدر.

وللجوارى الحـبشيات أسماء تـثير العجب منـها: خسيسة، قسـيسة، نفيســة، فتنة، أشمينة، شمسيــة، شمونة، ريحانة، هدية، وردية، حمراء، قمراء، عـمبرية، جميلة، وأسماء كثيرة من هذا القبيل إذا ذكرناها ألقى علينا اللوم.

أما خارج القاهرة فى الـقرى والبليدات فثمة حسان صعيديـات وبدويات لهن عيون الظباء ووجوه منيرة يقصر اللسان عن وصف جمالهن.

ـ طقوس ومراسم زواج الفلاحين فى مصر ـ

للفلاحين تقاليد مرعية توارثوها عن أسلافهم، فإذا ما شاء واحد منهم أن يزوج ابنته مسلما فهذه الزيجة تتم وفق أصول وطقوس مرعية.

اتفق أن كانت هناك ليلة زفاف فاجتمع ما يقرب من ألفى شخص من أهل العروسين وأقاربهم وعقب وليمة عظيمة طعموا فيـها الملوخية والقلقاس والجبن خرج فتى من أحد جوانب الساحة وعلى رأسه شال الإنكشارية وفـى وسطه منطقة وفى إحدى يديه سكين

وفى يده الأخرى فأس وأخذ يصيح ويضرب الحاضرين فجرح كثير منهم وحطم بعض ما لديهم وكان هذا الشاب وكأنه ثمل وكان إذا ما تكلم أو أقدم على عمل شىء يقوم بعض الحضور ويقبلونه ويجلسونه فى ركن، ولعله كان ابنا لأحد المجرمين، ثم قام ثانية وصاح قائلا: «أين سيدنا» وبحث عمن يتزوج ليقتله فتقدم إليه من يتقدمون بالرجاء وقالوا له: «ما فى بالى يا عينى».

وقبله من فى المجلس وأغمدوا سكاكينهم ومضى.

وعندما ذهبت العروس الجميلة تلك لتلتقى بزوجها جلست فى ركن بين مظاهر الأبهة وأقبلت بعض صديقاتها قائلات: «الحمد لله فقد جاء معشوقك» لقد غضب وبحث عنك فلم يجدك، ولابد أنه قد بسط لسانه بالسوء وعندئذ وقفت العروس هى الأخرى وقالت: عجبا إن معشوقى إذا ما أراد أن يقتلنى فأى ذنب كان منى، قال إنه سيقدم عشرة أكياس صداقا واطلع الحضور على ما أنفق منذ شهر أو أكثر من دفتر فى يده. وكل منهم كان يتباهى بما قدم إلى ابنته من صداق.

وأمسك من يريد الزواج بسكين معقوف ومشى غاضبا بين جموع الحاضرين وقال إنه أنفق مالاً كثيرا وإذا ما وجد من يحبها فسوف يقتلها، ثم ظهرت العروس من أحد أطراف تلك الساحة ففر طالب الزواج هذا واختفى فى ركن ولم يعد له من أثر وجاءت العروس فى زى آخر وقد لبست ثوبا أحمر فخرج بعض الناس لاستقبالها وقالت العروس:

إن بينى وبين فلان عداء وشاء أن يقتلنى وقد قدم إليه أبى وأمى هذا القدر من أكياس الجوهر والأوانى الذهبية وعرضت ذلك على جميع الحضور فعرفوا من ذلك أن فلانا قدم كل ذلك لهذه العذراء، وكانت الفتاة إذا ما سكتت لقنها أقاربها، ثم أخرجت العروس سكينها ومضت وجاء من يريد الزواج فى ثوب آخر وزعم أنه قدم مالا جما لوالديها وعمتها وخالتها وهدايا أخرى كثيرة، ثم جاءت العروس فى سروالها الأحمر والخنجر معلق فى خصرها وكأنها جندى فأمسكت الخنجر وبحثت عنه ثم جلست فى خيلاء وتكلمت كلاما تقدم فيه النصح ومضت، ثم قدم طالب الزواج وفى إحدى يديه

عصا وفى الأخرى سبحة وهز رأسه ووحد الله كثيرا ثم مضى وحاصل الكلام أنه فى تلك الليلة الطويلة حتى مطلع الفجر غير العروسان ثيابهما عشر مرات ومضيا وقدما واشتجر بينهما الخلاف غير مرة وفى النهاية انحنت العروس على ركبة من تريده زوجا وتبادلا القبلات ثم رفعت مئات المشاعل وقرعت الطبول كما أضيئت القناديل فى تلك الساحة وغمرت البهجة الجميع وارتفعت الأصوات من كل جانب بإنشاد القصائد والتغنى بالمواويل وفى هذه الأثناء ظهرت المشاكل من جهة أخرى. مضت العروس على صهوة جواد مرصع السرج وهى فى قباء من السمور وهى فى كامل زينتها وفوق رأسها تاج فرعونى عليه ثلاث ريشات متفرعة وهى مكشوفة الوجه وهى تلوح بالسلام إلى من اصطفوا على جانبيها ووقف الفلاحون جميعا وردوا عليها السلام وعلى جانبى العروس اصطف مئات من النساء والصبيان يحملون الشموع ويصيحون قائلين: «الله ينصر السلطان» ومضوا بالعروس وفى يديها منديل وعلى رأسها التاج الفرعونى ويقف جميع الفلاحين إذا ما لوحت العروس لهم بمنديلها.

وصف تاج العروس الفرعونى

قلنسوة من جلد الجمل المدبوغ فى حجم القدر وكل زاوية من زواياه الثمانية مخيطة بالذهب وفى سالف الزمان كان بين زواياه مرصعًا بالدر والآن مواضع هذا الدر ظاهرة، وداخله مكسو بمخمل صفيق وهو وردى اللون وحتى قمته حجر سيلانى فى حجم التفاحة وأطرافه مزدانة بالعقيق والحجر اليمنى، إنه تاج عجيب.

نزلت العروس عن جوادها فى تلك الساحة ونادت من يطلب الزواج منها قائلة: أين من يطلب صاحبة المقام العالى. فجاء وكر وفر أمامها فحملت العروس الخنجر المعقوف وأمسكت بلحيته وجذبتها إلى أسفل وعندما همت بذبحه جاء من أصلح ذات بينهما وأصلحوا بينهما مع الاتفاق أن يبنى الزوج لها بيتا أو ينشىء لها بستانا أو يبتاع لها عدة جوار أو يقدم لها عدة أكياس وشهد جميع الحضور على ذلك وعندما قرأت الفاتحة خطف الزوج زوجته من بين الحاضرين وفى التو خلع التاج عن رأسها فى حجرة ثم افتضها، فسال الدم منها، وأطْلَعَ دمها على والديها وقومها فعرضت العروس شكواها

ببعض كلمات وهذه فخر لوالديها على أن بنتهما ظلت عفيفة لم يلمسها أحد من قبل قط، ففى العرب وخصوصا لدى فلاحى قبيلة الحضر يصعب وجود فتاة عذراء، فعمر قلب والديها وأقاربها بالطمأنينة ورفعوا عن رأسها التاج الفرعونى، كما أطلع أبوها وأمها هذا الدم على الحاضرين ودعوا الزوج إليهم وسألوه لماذا سفك كل هذا الدم فأنكر أن يكون فعل ذلك فقالت العروس: انظروا إلى ملابسه تجدونها ملطخة بدماء بكارتى، وعندئذ نظر جميع الحضور فى ثياب الزوج فرأوا آثار الدماء عليها، فتعلقت العروس بعضو زوجها وتعلق الأب والأم بوسط الزوج وطالبوه بأن يدفع دية ذلك الدم المسفوك، ثم أصلح المصلحون بينهم وقدم الزوج هداياه إلى أبيها وأمها دية لهذا الدم المراق، وعندما طالبا بالمزيد حضر والد الزوج وأمه وأقرباؤه واحتدم الخلاف بينهم، وقالوا سلبتم ابننا كل ما يملك دون حق وشهد على ذلك الحاضرون وتدخل من أصلح ذات بينهم وقدمت الهدايا إلى والدى العروسين وأقربائهم ليلزما الصمت وتم الصلح بينهم وتراضوا جميعا وجلسوا فى مكان واحد وعمت البهجة والسرور نفوسهم حتى مطلع الفجر وأطلقوا البنادق وغنى المطربون وعزف العازفون بما أدخل البهجة حتى على روح فرعون الخبيثة وكان الحاضرون يتجاذبون أطراف الحديث عن الجماع.

هذه هى عادات الفلاحين الحضريين وطقوس الزواج عندهم.

إلا أنهم لا يسمحون بتزويج بناتهم من الغرباء ويحافظون على ذلك التاج الفرعونى.

أوصاف الاحتفال بختان البنات

يعتاد الفلاحون على الاحتفال بختان بناتهم، فيقيمون حفلا بهيجا عند ختانهن وكأنه عرس عظيم، وتركب آلاف النساء الحمر فى موكب عظيم ويمضون بالبنت إلى الحمام ثم يمضين بها ثانية إلى بيتها وفى تلك الليلة تحضر النساء الخافضات وعندما يقطعون بَظْرَ البنت يقام حفل وكأنه العرس.

وقد بقى هذا الختان من عهد سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ، فعندما كان فى مكة أرسل إليه الملك طوطيس ملك مصر جارية وهى أمنا هاجر. فغارت منها أمنا سارة فقطعت الشحمة الزائدة فى فرج أمنا هاجر، ولكن لحكمة لا يعلمها إلا الله أصبح جماعها لذيذا. ومنذ ذلك الزمان وعادة ختان البنات عند العرب وهى مأخوذة عن أمنا هاجر وقد ولد إسماعيل عليه السلام لهاجر.

وصف الاحتفال بختان الصبيان

إنها أجمل العادات فى مصر لأن الناس جميعًا من فقراء وأغنياء إذا ما ختنوا أولادهم اتباعا لسنة المصطفى ـ عليه الصلاة والسلام ـ يعاون بعضهم بعضا فيجمعون عشرة أو خمسة عشر أو عشرين طفلا ليذهبوا بهم إلى الحمام فى جوقة موسيقية وقد حملوا عليهم الذهب والفضة وأركبوهم الخيل وعلى رءوسهم جميعًا ريشات سلطانية يتقدمه جنائب عليها السروج المرصعة ويتقدمه كذلك مسنو الحى والأحياء المجاورة وقد حملوا السلاح وازينوا ويمضون صفا صفا وهم يتبادلون الفكاهات، كما يمضى بينهم من يحملون القناديل والأعلام ثم يركب الجراح جواده يتقدمه صندوق به جميع آلات الختان يحملها رجل على رأسه ويمضى مساعد الجراح وعليهم مناشف من الحرير سيرا على الأقدام، وقد ركب الصبيان الذين سيختنون العجول والحمر والخيل ويستعرض المضحكون المضحكات ويطوفون الأسواق بهؤلاء الأطفال على هذا النحو على نغمات الموسيقى العسكرية والأغنياء والفقراء على تلك الحال. ويدوم هذا الاحتفال ثلاثة أيام بلياليها فى صخب وجلبة وتقام الولائم وفى كل ليلة فى مدينة القاهرة تعم البهجة فى مائة مكان وتقام الاحتفالات وتتلى الموالد، وتزدان شوارع القاهرة وأزقتها بآلاف القناديل وتوزع الأطعمة وينادى المنادون من قبل الصوباشى طوال ثلاثة أيام بأن تظل المقاهى وما حولها من حوانيت الأطعمة والأشربة مفتوحة حتى مطلع الفجر، ويستمر البيع والشراء.

وخيرا يفعل الناس علما بحديث رسول الله ﷺ وهو: «أعلنوا الزفاف ولو بالدفاف»[1].

فما فى مصر من هذه الأبهة لا وجود له فى ديار أخرى.

فضائل أهل القاهرة

إذا ما مرض أحد فى القاهرة قدم عليه جميع أهل الحى لزيارته وتقديم الهدايا إليه، وإذا توفاه الله أخطروا أمين بيت المال وجهزوه وكفنوه ووقف جميع أهل الحى عند بابه وغسلوه وهم يسبحون ويوحدون، ويضعونه فى النعش ويزينونه بماء الورد والريحان ويقوم جميع العلماء والصلحاء والمشايخ بالتوحيد والتسبيح ويدخلون نعشه فى الجامع الأزهر ويصلى عليه جمع غفير ثم يمضون به إلى القرافة أو إلى الموضع الذى يسمى «زاوية الجنازة» أى سبيل المؤمنين بميدان الروملى وهناك يصلون عليه ويذهبون به إلى مقابر الإمام الشافعى أو مقبرة من المقابر الاثنتى عشرة. وأفضل هذه المقابر مقابر أخى يوسف فى سفح جبل الجوشى أو مقبرة الشيخ عقبة. أما الفلاحون فيدفنون بالقرب من مصر العتيقة فى القرافة العتيقة. ولما كان فرعون صوباشيا أحاط هذه القرافة بسور وكان يحصل ضريبة على كل ميت يأتون به لدفنه فيها.

ويمضى الفلاحون فى جنائزهم رافعين الأعلام، ويتبعهم نساؤهم وهن على الحمر وفى أيديهن مناديل يلوحن بها وقد كشفن عن وجوههن ونشرن شعورهن نائحات باكيات.

ونعوش هؤلاء الفلاحين مسنمة كنعوش النصارى يحملونها على سلالم متحركة إلا أنهم يمعنون فى تزيينها وبذلك يكرمون موتاهم ويقيمون عليهم صلاة الجنازة على الأصول الشرعية.

---

(١) أخرجه الترمذى فى كتاب النكاح، باب ما جاء فى إعلان النكاح حديث رقم ١٠٨٩، وابن ماجة فيه حديث (١٨٩٥) ورواه البيهقى فى السنن الكبرى ٧/ ٢٩٠ عن عائشة - رضى الله عنها - ولفظة: «اظهروا النكاح واضربوا عليه بالغربال».

فضيلة أخرى لأهل القاهرة

ولأهل القاهرة عادة أخرى مستطرفة ففى ليلة جمعة يمضى مئات الآلاف من النساء والرجال إلى الاثنتى عشرة قرافة فتصبح وكأنها بحر من الناس وهناك من يختمون القرآن الكريم ويتلون سورة «يس»، ويوزعون الصدقات على الفقراء.

وجميع الأضرحة مبنية بالحجر وتحتها مخازن يسمى الواحد منها «فسقية» ويسمى الواحد من هذه الأضرحة «بيت الحزن» ولها نوع خاص من الأبواب وهى موصدة بالتراب، تفتح عند الدفن. وتتسع الفسقية الواحدة لدفن مائة أو مائتين إلا أن الجثث لا تغطى بالتراب وإنما توضع فى أكفانها بعضها يتعفن وبعضها يتيبس ثم يسدون الباب بالجصّ الخرسانى. ففى مصر كثير من لصوص المقابر الذين يسرقون الأكفان. حتي إنه فى عهد جان بولاد زاده حسين باشا وضع بعض لصوص المقابر على الخاذوق فى ميدان الروملى وخنقوا بالأكفان التى سرقوها وذلك لتطهير الدنيا من شرورهم.

وعلى كل قبر يحفرون تاريخا بماء الذهب يصففون قبابا مكشوفة وينثرون فوقها الحب ويضعون الماء للطيور. ويضعون كذلك على قمة كل قبر الآس والريحان وفى تلك الأيام تمضى النساء إلى القرافات دون إذن من أزواجهن، كما أنه لا يحق لزوج أن يسأل زوجته إلى أين أنت ذاهبة، إذ إن زواجهما انعقد شريطة ذلك.

وفى غير ذلك لا يستطيع زوج فى القاهرة أن يسأل امرأته أين كنت، إذ إن عزيز مصر وقع تحت سطوة «زليخا» ومنذ ذلك الحين والرجال فى مصر مغلوبون على أمرهم تحت تسلط زوجاتهم. وهذا هو عرف مصر وما جرى فيها مجرى العادة.

وما من قوم يحبون موتاهم ويخلصون لهم إلى هذا الحد إلا فى مصر.

مصدر رزق فقراء القاهرة

يستطيع المصريون أن يفيدو من كل ما فى الوجود ويصنعونه للكسب منه.

- حرفة مستطرفة -

وفى ليلة مولد الإمام الحسين فى شهر المحرم بمدينة القاهرة يجتمع آلاف من يهود القاهرة كل ثلاثة منهم فى موضع وفى أيديهم زنابيل كبيرة يحرقون أنواعا من البخور ويبيعونها وأثناء ذلك يرفعون أصواتهم الرخيمة بالغناء، وثمة نوع من البخور يبيعونه لا مثيل له. ويقال إن هذه العادة بقيت فى القاهرة منذ نقل رأس الحسين إلى مصر وعهد السيدة نفيسة.

ـ متسولو القاهرة:

ولكن المتسولين الذين لا عمل لهم فكثير فى القاهرة، ففى القرافات المذكورة ليلة الجمعة وليلة الإثنين لا يسلم أحد من هؤلاء المتسولين الجبابرة. وبعضهم يقترب من أحد الأعيان وبعد أن يلقى السلام عليه يتملقه بمعسول الكلام إلى أن يصل معه إلى بابه.

وهنا وبأسلوب لا يخلو من القحة والوقاحة يقول له المتسول: «أعطنى يا سيدى نفقة أهل بيتى»، أما إذا كان المار فقيرا فلا يسمح له الشحاذون بالسير فى السوق.

حادثة ـ

اتفق لى ذات يوم أن أردت قضاء حاجتى فدخلت مرحاض جامع السلطان حسن وأغلقت على بابى ولا شعور لى بأحد وبينما كنت أقضى حاجتى فتح على الباب متسول ومد إلى يده قائلا: «أعطنى صدقتى يا سيدى» وعلى الرغم من أننى لم أكن قد تطهرت بعد سارعت إلى إعطائه فقال لى المتسول: «زادك الله نجاسة» وانصرف؛ بعد ذلك تطهرت وخرجت وتوضأت وصليت فى جامع السلطان حسن ثم التقيت بصديق حميم وقصصت عليه ما وقع لى. فقال لى ذلك الصديق: بالله أمجنون أنت؟ أصلحك الله، أيلطخ أحد يده بالنجاسة هكذا فقلت له: إذا ما فتح أحد باب المرحاض هكذا وعورتك مكشوفة فذلك أمر الله، أكان يطلب نقودا؟ فقال هذا الصديق: أكان هذا الرجل أصفر اللحية، متوسط القامة، مسطح الجبهة، مستدير الوجه، تترى السحنة يشع من وجهه النور؟. قلت: نعم، إنه تترى السحنة، أصفر اللحية. فقال لى أيها الظالم إنه قطب من أقطاب صوفية القاهرة وقد ظهر لك فى بيت الخلاء ليختبرك فلما نظرت إليه نظرة ازدراء واحتقار ومسحت يدك بالنجاسة، ولذلك دعا الله عليك بأن يزيدك نجاسة. ولما قال لى هذا شرد عقلى وطاش صوابى وبعد مرور شهرين على تلك الواقعة أصبت بمرض «الزحار» وتحققت دعوته على بقوله: «زادك الله نجاسة». ولكنى ولله الحمد تصدقت فشفانى الله من هذا المرض.

فكم من فقراء مصر من المغمورين من لهم عظيم المنزلة عند الله.

لا تحسبن أن كل غابة خالية ∴ فربما استتر نمر فيها

وصف الملاميين

فى القاهرة آلاف من حاسرى الرءوس من المجاذيب، منهم من يأخذ النقود ومنهم من لا يأخذ، ومنهم من يأخذ الخبز ومن لا يأخذ، ومنهم مَنْ لا يتكلم البتة ويمضى صامتا ولكن إذا تَلاَ القرآن الكريم أذاب أكباد من سمعه، وبعضهم يأخذ الكسوة وكل منهم له أطوار وحركات خاصة، وبعضهم يعتم بعمامة من الصوف وكأنها وعاء الماء المغربى التى لا يستطيع شاب أن يحملها فهى عمائم تزن الواحدة منها ثمانين أو تسعين أو مائة أوقية. ومنهم من يتخذ عمامة من ليف النخيل وهى كذلك فى حجم قبة الحمام إلا أنها خفيفة الوزن ويسمون من يلبسها «أبا الليف»، ومنهم من يتجول عاريا تمامًا كمن ولدته أمه.

وهؤلاء الدراويش لا يحصون كثرة كما أن الفقراء والمجاذيب والملاميون كثير لا يقعون تحت حصر، وهم إذا ما دخلوا الحمام تستروا بالمناشف وإذا ما خرجوا مشوا عراة بين الناس. وثمة حديث قدسى ورد فى شأن هؤلاء يقول عز من قائل: «أوليائى تحت قبابى لا يعرفهم غيرى». أى إنه لا يجوز التعرض لهم، لأنهم اختاروا الفقر والفاقة ولا علم لأحد بحالهم إلا الله، ويقول صلى الله عليه وسلم: «الفقر فخرى». لذا فهم يرددون قولهم:

تالله إننا لنفخر بالفقر ∴ لذلك نمضى فى هيئة الفقراء

إلا أن معدميهم كثير لا حَبَّةَ لهم ولا جُبَّة.

المجاذيب الإلهيون

ومن أعظم هؤلاء الشيخ «إسماعيل الصنافيرى» فى حى (   )[1]على طريق بولاق، وكم من كرامات له أظهرها. اتفق ذات مرة أن ذهبنا أنا وصهر أحمد باشا

(١) بياض فى الأصل.

الدفتردار وأحمد أغا المهردار والجاشنكير الرئيس وبعض الإخوان والأصدقاء واشترينا عدة أوقيات من الرمان لتقديمها هدية له وكان يسكن فى إحدى وكالات الحُمُر، ولما قدمناه عليه وجدناه يفترش التراب وعلى ظهره خرقة بيضاء تغطى أكمامه أما ما تحت عورته فكان عاريا. ومن بجانبه من الدراويش دعونا لنجلس بجانب الشيخ فجلسنا دون أن نقرأ عليه السلام وكل منا جذب انتباهه خاص من شأنه ووضعنا الرمان أمامه فتناول منها رمانة وهو راقد فى مكانه، ثم قدم إلى كل منا رمانة كما قدم إلى دراويشه، ولكن ما أتيناه كان تسع رمانات فى حين أنه وزع منها ثمانى عشرة رمانة. ثم أعطى كلا منا قطعة من حجر، كما أعطانا حجراً كبيراً وقال لنا: «أعطوا هذا الحجر للباشا وليعطيه إلى جنده وليرحل من مصر إلى بلاد الترك، وليأت من بغداد وليأت من بغداد» ولم يقل غير ذلك ولا دعا ولا أثنى، فنهضنا ومضينا إلى قصر الباشا، وقدمنا إليه الحجر المذكور وأخبرناه بما قاله الشيخ الصنافيرى. فقال الباشا: سبحان الله. ووضع الحجر بجانب كتبه، وفى اليوم التاسع عمَّت الثورة والتمرد، وأسقط الجند أحمد باشا وقدم عبد الرحمن باشا من بغداد، وأصبح واليا على مصر. ولعل قول الشيخ «ليأت من بغداد ليأت من بغداد» إشارة إلى مجئ عبد الرحمن باشا من بغداد. والله سبحانه وتعالى أعلم. فهذا ما وقع.

***

الفصل الستون

العلماء المستجابة دعوتهم فى مصر وشيوخها وفضلاء الدهر فيها وأئمتها وخطباؤها

ـ الشيخ على الشمرلسى:

قطب علماء وصلحاء ومشايخ القاهرة وشيخ شيوخها وأعقلهم. إنه أهل ورع وأهل حال وهو من بليدة فى مصر تسمى «شمرلس». إلا أنه ولد أكْمَه[1] بأمر الله، ولكنه كان يلقى دروسه فى الجامع الأزهر فى أربعة مواضع وكان له اثنا عشر ألفا من التلاميذ وكان فريد دهره فى علمه، كما كان يدرس مرتين فى داره وهو من العلماء العظام المتبحرين الذين تحل على يديهم المعضلات. وهو ولى من أولياء الله ما فى ذلك شك، وقد اطلع على مسائل الشرع فى الكتب الأمهات وكان يشير إلى المسألة من المسائل ويعين موضعها فى الصحيفة والسطر. وأحمد الله أنى شَرُفْتُ بصحبته فهو فريد دهره فى فضائله وكراماته.

ومن كراماته أنه:

إذا سلم عليه أحد مرة واحدة فى عمره وأراد التعرف عليه كان يسأله عن اسمه وقريته واسم أبيه، حتى إذا ما قدم هذا الرجل عليه بعد خمس أو عشر سنوات وسلم عليه رد عليه قائلاً: وعليك السلام يا ابن فلان. ومن باب أولى إذا ما سلم عليه أحد من تلامذته رد عليه السلام قائلا: وعليك السلام يا ابن فلان. فهو يعرف أسماء تلامذته أجمعين.

ـ الشيخ أحمد العجمى:

كان فريد دهره فى علم الحديث، إلا أنه ليس ضريرا، وجاء على لسانه أنه كان يحفظ سبعين ألف حديث مما فى الكتب الأمهات القيمة مثل البخارى ومسلم، فقد كان أعجوبة دهره فى قوة حافظته.

---

(١) الأكمه: الأعمى. كَمِهَ من باب تَعِبَ كَمَهًا : عَمِيَ.

ـ شيخ الإسلام بولوى مصطفى افندى:

كان شيخ الإسلام فى الدولة العثمانية، وطلب الصدر الأعظم كوپرلى منه استصدار فتوى بقتل دلـى حسين باشا لفشله فى فتح قلعة «قندة» فى جزيرة كـريت فقال بولوى افندى: أأفتى يا سيدى الوزير بقتل دلى حسين باشا؟ ولو كنت أنت قائدًا ضعيف الشأن مثله ومضيت إلى جزيـرة كريت ووفقت إلى فتحها وثبت تقصير حسين باشا حينئذ لا أستطيع كذلك أن أفتى بقتله، لأن الفتح والنصر من عند الله.

فقـال الوزيـر كوپرلـى: أنـت لـم تـقطـع برأى وقُـلْتَ الله أعلم، إنـك صاحب سجادة الآن.

فقال بولوى أفـندى: حبذا أن أعزل نفسى مـن التصدر للفتوى وخـرج من مجلس كوپرلى فأرسل بعض الأشخاص فى أثره إلا أنه لـم يعد، ولم يصدِّق بعدها على فتوى قط. وعندما أسندت الفـتيا إلى «أسيرى محمد أفندى» أصدر فى التـو فتوى بقتل دلى حسين بـاشا فسجنوه فى قلـعة «يدى قلة» وقتلوه فـيها. ونفى بولوى أفنـدى إلى مصر وأسند إليه قضاء الجيزة ليعيش منه، وقد أذاع علم الفقه فى القاهرة وأصبح جميع علماء القاهـرة من زمرة الفقـهاء. وكأنما كانـت داره مدرسة وكان حاتمـى الكرم يقدم الـطعام مرتين لجميع تلامذته، كما كان صالحا صاحب وقار.

ـ الشيخ عبد القادر افندى:

من بغداد وهو تقى ورع متضلع من شتى العلـوم والفنون، بينما كان كتخدا إبراهيم باشا واليا على مصر قـرأ عليه بين شواغله الكثيرة صحيح مسلـم والبخارى وتفسير ابن جرير الطبـرى. وكان فى زمانه بحر المعارف بل الـنعمان الثانى، وله أشعار بـالفارسية والتركية تخلص فيها بـ «قادرى».

ـ الشيخ عبد القادر المغربى:

وإن لم يكن واعظ منبر إلا أنه حينما كان يعظ تلاميذه فى الأزهر كان جميع تلامذته يفيدون كثيرا مما يقول، إذ كان لكلامه عميق أثر فى النفوس.

ـ الشيخ أحمد المرحومى:

وهو من محلة المرحوم فى المنوفية، وهو من تلاميذ أستاذنا الشيخ «على الشمرلسى»، بيد أنه سلك طريق التصوف وكان له العلم اللدنى، أطال الله فى عمره.

ـ الشيخ يحيى المغربى:

كان يناظر «وانى[1] افندى» فى مجلس السلطان محمد الرابع[2] وأفحمه فى علم الحديث وعلم التفسير، وكان يتقاضى من خزانة مصر مائة أقچة يوميا منحة من السلطان وكان يلقى دروسا عامة فى الأزهر، وكان صاحب دعابة.

ـ الشيخ السادات أبو التخصيص:

سبق ذكره عند الكلام على مولده الشريف. لم يكن عالما ولا فاضلا، إلا أنه كان عاملا وثريا، عُرف بصلاحه وتقواه واشتهر بكرمه.

ـ الشيخ السادات على أفندى:

هو الأخر الأكبر للشيخ أبى التخصيص.

ـ الشيخ محمد البكرى:

من النسل الطاهر لأبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ، إنه مرشد كامل، عامل فاضل للسجادة البكرية. وكان صاحب حال فى علم الأسماء، وكان كريما زاده الله كرما.

ـ ابن الشيخ چلبى أبى المواهب:

كان زاهدا عابدا وهو الابن الأكبر للشيخ العزيز.

ـ الشيخ چلبى زين العابدين:

أصغر أبناء الشيخ العزيز إلا أنه كان ألْمَعِىَّ الذهن معروفا بالدعابة والظرف، وأهل القاهرة جميعا يحبونه.

---

(١) عالم عرف عنه تصلبه فى التعصب على أهل الأديان الأخرى وعلى المتصوفة. وهو غير وانى المعروف المولوى الفقيه الذى نقل صحاح الجوهرى إلى التركية. معجم الدولة العثمانية ص١٥٤.

(٢) السلطان العثمانى، حكم أربعين عامًا، وكانت وفاته سنة ١٦٩٢.

ـ الشيخ سيد برهان الدين:

وهو من قصبة فى لواء حميد ببلاد الترك، يسكن القاهرة منذ ثمانين عاما، وهو نقيب الأشراف، وعلاوة على أنه يوزع الصدقات والأطعمة على الغادى والرائح كان يوزع على الدوام خرقة على كل ضيف وكل فقير. إنه شيخ عظيم حاتمى الكرم.

ـ الشيخ سيد إبراهيم چلبى أفندى:

وهو ابن سيد على ابن الشيخ على الصفوتى بن سيد حسن ابن سيدى الشيخ إبراهيم الكُلْشنَى. وحسبه هذا شرفا فى نسبه وحسبه، ومن رأى وجهه الشريف مرة أحبه وتعلق به تعلقا شديدا وتلقى عنه تعاليم التصوف وأصبح من دراويش الكلشنية، لأن وجهه الشريف منور كمذهبه. إلا أنه كان على الدوام معتزلا، وهو صالحٌ كالصالحين من السلف. وكان على الدوام قابعا فى ركن العزلة، يخرج مرة فى العام ويمضى إلى تكيته ويخرج إلى المولد، وهو لا يغادر داره قط ولا يختلط بأحد من الناس والنفوس تنجذب إليه.

ـ الشيخ محمد كيسودار:

كان من قبل على الطريقة القادرية وكان يعرف بصاچلى محمد افندى (أى محمد افندى ذو الغدائر)، وفى ليلة مولد الكُلشنى عندما نظر إليه لم يتحمل جاذبيته فتطايرت غدائرهُ وخرج عن الطريقة القادرية ودخل الطريقة الكُلشنية وزوّجه الكُلشنى من كريمته فأصبح صهرًا له.

إنه درويش (إباحى المشرب) له التبحر فى شتى العلوم، له أشعار كثيرة بالعربية والتركية، كما كان وفير المؤلفات ومليح الخط، حسن العشرة لين الجانب، لبقا فى الحوار، كما كان أهل كرم وسخاء، يحج بيت الله الحرام مرة كل ثلاثة أعوام، وغالبا ما كان يمضى إلى مكة سيرا على قدمه.

ـ الشيخ على الخراشى:

من بلدة تسمى «خراش» نسب إليها، أما اسمه الحقيقى فهو (   )[1]، وهو محدث ومفسر مرموق المنزلة بين المحدثين والمفسرين، وهو يحفظ عن ظهر قلب صحيح

(١) بياض فى الأصل.

مسلم وصحيح البخارى والقاموس للأخترى والصحاح للجوهرى، وفصوص الحكم لمحيى الدين بن عربى، وعلاوة على ذلك كان يدرس شتى العلوم فى الأزهر وله تلاميذ يربون على الألف. وكان واسع المحفوظ، وهو شيخ القراء فى الجامع الأزهر.

وتلاميذه الذين يَرْبُونَ على الألف يقرأون القرآن الكريم بالقراءات المختلفة. إلا أنه حينما كان يلقى دروسه يكون منفعلا كالشرارة فياضًا، وكل من يلقى السمع إلى دروسه تنقش فى ذهنه، كما ينقش فى الحجر، ولا تمس حاجته إلى أن يسمع الدرس ثانية.

ـ الشيخ العياشى:

تتلمذ للشيخ على الشمرلسى، وكان يلقى الدرس العام فى جامع السلطان المؤيد، وكان صاحب فصاحة وإبانة، كما كان كريما بكلامه، تقيا ورعا. ولأنه كان يتكلم اللغة التركية انعقدت أواصر الصلة بينه وبين العلماء العثمانيين مما أثار عليه حسد الحاسدين، إلاأنه كان حليما صبورا هادئ الطبع.

ـ الشيخ (   )[1] العبارى:

أهل تقوى وورع، عالم عامل فاضل، اعتكف فى عقر داره بزاوية (   )[2] بالقرب من سوق الصليبة[3]، وقد تنبأ بإسقاط أحمد باشا. وهو لا نظير له فى مصر.

ـ الشيخ أحمد الأسكندرانى:

وهو من أكمل الكمل فى مصر، رخيم الصوت وليس بد من وجوده عند إقامة مولد النبى فى شهر صفر، فهو عندما ينشد الآلاف من القصائد فى مدح الرسول ﷺ وتائية عمر بن الفارض بصوت مرتفع جهورى يدخل الصوفية فى نشوة الوجد كأنما أصابهم الصرع. إن فى أنفاسه شيئًا عجيبًا يوقع من يلقى السمع إليه فى الوله والحيرة. لقد نال الفيض من الشيخ «على العريانى» وهو صالح من صلحاء الأمة ويزور بيت الله الحرام مرة كل عامين أو ثلاثة، وقد ذهب ذات مرة فى قافلة من عشرة أو خمسة عشر جملا، وبعد الطواف مضى إلى قبر المصطفى ﷺ فى المدينة المنورة، وبينما كان يقف قبالة المقصورة الشريفة صاح بأعلى صوته قائلاً: الغوث يا ملاذ العاجزين، وكنت حاضراً

(١، ٢) بياض بالأصل.

(٣) أحد أحياء القاهرة ولا يزال قائمًا إلى الآن بقسم الخليفة.

آنذاك فدخلتنى الدهشة والوله والحيرة. وفى طريق عودتنا إلى مصر كنت معه رفيق الطريق وكان معنا أمير الحج أوزبك بك فكنا نطيب نفسا بالاستماع إليه وهو ينشد القصائد فى مدح النبى ﷺ، وكان إذا ما تسلل السأم إلى نفوس الناس من مشقة الطريق كان سرعان ما يزول حينما يستمعون إلى قصائد الشيخ الأسكندرانى فى مدح خير الأنام ﷺ، فكان كل منهم يدعو له بالخير ويقبل يده. إنه عالم نحرير.

ـ الشيخ بكرى زاده أفندى:

إنه سليل أسرة عريقة، فهو من نسل أبى بكر الصديق رضى الله عنه. كان راسخ القدم فى علم القصائد والمدائح النبوية، حتى إنه نظم قصيدة فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم كانت تتلى فى ليالى رمضان بين صلاة التراويح بدلا من التسبيح. وكان من أعاظم العلماء والفضلاء ذوى الاحترام.

ـ نقيب الأشراف السيد محمد أفندى ابن السيد برهان الدين افندى:

وهو ابن المرحوم برهان الدين افندى نقيب الأشراف، إنه عالم فاضل من تلاميذ المدرسة السليمانية[1]، وكان مليح الخط، انتقل والده برهان الدين من دار الفناء إلى دار البقاء وهو فى المائة وأربعين من سنيه. وعندما آلت إليه أملاك أبيه على ضفاف بركة الفيل وجدت الحُجج والوصايا لدى الشيخ، وفى ذلك الوقت كان جان بولاد زاده واليًا على مصر، وطعن فى صحة هذه الوثائق وأسند مدارسهم وقضاء تكيتهم إلى شخص آخر، واضطر الشيخ إلى التنازل عن ملكيته لبلدتى البساتين والفرزدق؛ لأن الاحتفاظ بهما يكلفه ضرائب باهظة لا قبل له بسدادها، ونزلت به كثير من الشدائد وفى النهاية عندما عزل جان بولاد زاده حسين باشا طالب الشيخ باسترداد حقه؛ فاسترد منه الكثير، وتم الصلح بينه وبين جان بولاد زاده ومضى الشيخ إلى قلعة الإسكندرية ليتوجه منها إلى الأستانة فوصل إليها وفى معيته الجند المصريين الذين كلفوا بفتح «قمانچه» بعد أن عادوا سالمين مظفرين فأصيب بالحمى المحرقة التى أحرقت جسده الرقيق ولم يطفئ نار حرقة هذه الحمى ماء أربعين نبعا فانطوى دفتر عمره واحترق. وانحنت ظهور مريديه حزنًا عليه، ودفن فى ضريح الأمير البخارى خارج باب أدرنه[2].

(١) المدرسة السليمانية: نسبة إلى السلطان سليمان القلنونى، ومقرها إستانبول.

(٢) باب أدرنه: أحد أبواب مدينة إستانبول القديمة.

ـ الطبيب بيلونى زاده:

كان يدرس لطلبة مستشفى قلاوون كتاب «قانون الشفاء» و «تذكرة داود» يومين فى الأسبوع، وكأنه فيثاغورث علم الطب، وكان من أهل التقوى والكرم، من مضى إلى داره وشرف بلقائه جَسَّ نبضه وأعطاه الأدوية والمعاجين من الأطعمة والأشربة كان طبيبًا له البراعة فى الطب، ندر نظيره فى مصر.

ـ الشيخ (   )[2] خطيب الجامع الأزهر:

إنه رجل أهل تقوى وعبادة.

ـ الشيخ شاهين خطيب جامع الدهيشة:

شيخ من أهل التقوى والورع، ولوعظه عميق الأثر فى النفوس.

وهناك **الشيخ «سيد أحمد جزى»**: خادم المحكمة.

و**«سيد تاج الدين»**: خادم المحكمة كذلك.

و **«إسحق زاده»** قاضى العسكر وهو من علماء الترك الذين تضلعوا من شتى العلوم.

و **«خصم عبد الباقى أفندى»**: قاضى العسكر وهو كاتب وصاحب سلوك من فضلاء الدهر بلغ من تقواه أنه لم يصل صلاة فى غير وقتها قط طوال حياته.

وقاضى العسكر **«كبيرى زاده»**: وهو رجل ديِّنٌ واسع العلم بأحكام الشرع الشريف.

و **«تذكرجى أفندى»** قاضى العسكر: وهو واسع المعرفة بالتواريخ وهو نَحْوِىٌّ إمام، وعلى علم بتحصيل المال.

«عشاقى زاده» قاضى العسكر: وهو من السادات الكرام، نزيه، لا يخشى فى الحق لومة لائم ولا يحيد قيد أنملة عن جادة الشرع الحنيف، كان قاضيًا رابط الجأش ثابت القدم.

«حفظى أفندى»، قاضى العسكر وكان حافظا لكلام الله وشاعراً واسع العلم بشتى العلوم الدينية.

---

(١) باب أدرنه: أحد أبواب مدينة إستانبول القديمة.

(٢) بياض فى الأصل.

وبين هؤلاء الذين أسلفنا ذكرهم آلاف ممن كانت لهم قدم راسخة فى شتى العلوم والفنون.

وإذا ما حاولنا أن نعرف بشىء من كرامات وفضائل هؤلاء العلماء لاقتضى ذلك منا تأليف مجلد قائم بذاته، لذا عرضنا لذلك على وجه الإجمال وبقدر ما أتيح لنا من سياحاتنا فى تلك البلاد فالمعذرة متسعة لنا فى هذا الخصوص. ولكن لا شك فى أن لكبار المشياخ كرامات وقدرة على مكاشفة الغيبيات.

ـ كرامات صبيان الغربية ـ

حينما كان كتخدا إبراهيم باشا واليا على مصر نَبَّهَ على جميع معلمى الكتاتيب بالدعاء من أجل حملة «قمانچة» وكانو يجتمعون مرتين فى الأسبوع فى الجامع الأزهر للدعاء، وبعد ذلك ـ بناء على أمر الوزير ـ بدأوا يدعون الله فى جوامع السلاطين ولما طالت مدة فتح «قمانچسه» وتأخرت وصول بشائر الفتح دب دبيب اليأس فى نفوس الناس فتقاعسوا عن الذهاب إلى المساجد للدعاء.

واتفق ذات يوم أن كان إبراهيم باشا يتجاذب أطراف الحديث مع إسحاق زاده قاضى العسكر فى مصر فقال له الباشا: إن معلمى المدارس الابتدائية طوع أمرك فنبه عليهم بأن يداوموا على الدعاء للفتح. فقال قاضى العسكر: لا بأس فلنذهب إلى المحكمة ولنستدع جميع معلمى المدارس ولنضرب كلا منهم أربعين أو خمسين عصا على ركبتهم، إذ إنه لا وجود للفلكة فى البلاد العربية، ولأن جميع الفلاحين لا يلبسون سراويل فإنهم إذا ما ضربوا على أرجلهم انكشفت عورتهم، لذلك يضرب الفلاحون على ركبهم وإليتهم بعصا من شجر الشوحط[1]. فضرب المعلمون الفقراء ضربا مبرحا على إليتهم وركبهم وعادوا إلى مدارسهم وهم يئنون من شدة الألم فجعل هؤلاء يضربون الصبيان بعصا الشوحط على نفس الموضع الحساس من أجسامهم فجزع الصبيان من الألم وبعد العصر خلدوا إلى الراحة فتملأ بعض الصبيان فى موضع وأثناء لعبهم تنامى إلى علمهم أن ضربهم إنما كان بإيعاز من الباشا وقاضى العسكر فجعلوا يدعون الله عليهما، فقال بعض المنصفين منهم: إن الباشا يتصدق علينا فلا ينبغى أن ندعو الله

(١) الشوحط والنَّبعُ والشَّرْيانُ شجرة واحدة، ومنه تصنع القِسىّ والسهام. لسان العرب (شحط).

عليه، أما القاضى فهو رجل خسيس لئيم، كما أنه ضرب معلمينا ضربا مبرحا ولذلك ضربونا، فتعالوا نصلى صلاة الجنازة على قاضى العسكر. وجاءوا بخرق جعلوها على هيئة الجثة ووضعوها على محفة من الخشب ولما رأى مئات الآباء ذلك من أبنائهم منهم من ابتسم ومنهم من ضحك حتى استغرب ومنهم من قال لا إله إلا الله، وبينما كانوا يمرون بالأسواق السلطانية سألهم أهل السوق قائلين:

«اش هذا يا صبيان» فقالوا: إنها جثة قاضى العسكر. فأغلظ لهم القول بعض الأهالى، والبعض الآخر لم يكترث. وعلى هذا النحو اجتمع جميع الصبيان خارج المدينة فى موضع فوق الرمال وصلوا صلاة الجنازة على تلك الخرقة ودفنوها إلى جانب الإمام الشافعى.

ومن ناحية أخرى اشتكى قاضى العسكر ألما فى قلبه وأسلم الروح فى صبيحة اليوم التالى، وبينما كانوا يدفنونه إلى جانب الإمام الشافعى فى نفس الموضع الذى دفن فيه الصبيان خرقتهم ظهرت قطع منها من الأرض فدفنوها ثانية والقاضى عسكر فى ذات الموضع.

سر آخر عجيب

والصبيان الاثنى عشر الذين جعلوا تلك الخرقة على هيئة قاضى العسكر وصلوا عليها صلاة الجنازة وحملوها كانوا نجباء وهم الآن ومنذ ذلك اليوم بُكْمٌ، كما أصبحوا عُرَاةً مجاذيب يهيمون على وجوههم فى صحارى مصر وأراضيها الخَرِبَة. إنه لَسِرٌ إلهى عجيب.

وقد أخذ إبراهيم باشا الخوف مما وقع وأدرك أنه هو السبب فى ضرب هؤلاء الصبيان فتصدق على جميع معلمى وصبيان المدارس حتى أصبح شحاذهم غنيا يعيش فى سعة ورغد.

الفصل الحادى والستون

ذكر أولياء نعمتى من البكوات والأعيان سليلى الأسر العريقة

منهم أمير الحج (اوزبك بك أبو الشوارب) وهو رب أسرة عظيمة وله من الجند خمسمائة. إنه بك.

و(نووه لى بك) وهو رجل شجاع ثرى.

و(قنصوه بك) وهو ابن أحد جند مصر، وهو من أهل التقوى والعلم.

و (على بك الملقب) إنه رجل محبوب، طيب المعشر.

و(رمضان بـك) الذى تولى قيادة الجند فى حـملة «قنـدة» وحارب النصـارى حربًا شعواء بالقرب من «خانيه» ووقع فى الأسر.

(قاسم بـك) أى قاسم باشـا زاده بشيكـطاشلى، وهـو واسع الشهـرة فى البطـولة والشجاعة، وله خمسمائة من الجند الشجعان المدججين بالسلاح.

و(عبد الله بك) تولى منصب الدفتردار مرتين، وهو ذو علم، وهو بوسنوى الأصل.

(ذو الفقار بك) كان من الأبخاز، تولى حكم جرجا فأعاد الأمن والأمان إلى الصعيد.

و (دولاور بك) كان كذلك من الأبخاز، تولى حكـم جرجا فى عهد إبراهيم باشا، وكان رجلا معروفا بكرمه وسخائه وتقواه.

و (عوض بك) بما أنـه تولى رئاسة خزانة «خاصـكى محمد باشا» أصـبح بك وهو جورجى الأصل.

(جان بولاد زاده) الذى كانت له قيادة الجيش فى «قمانجسه».

و (سليمان بك البوسنوى) تولى هو الآخر قيادة الجند فى قمانجسه.

و(حسين بك الدفتردار) وهو من الأناضول، إنه رجل طيب المعشر.

و (قيطاس بك) إنه رجل سديد الراى حسن التدبير، شركسى الأصل.

و (يوسف بك) أمير الحج، وهو شركسى الأصل كذلك.

و (بقلاجى محمد بك) إنه رجل بصير بالأمور وهو بوسنوى الأصل، شجاع بطل.

و (بيقلى محمد بك) بوسنوى الأصل ولكنه ليس كثير الأتباع.

و (جندى محمد بك) تربى فى قصر السلطان، وسجن فى جزيرة «الم» لدخوله فى زمرة المتمردين.

و (كور عـمر بك) أى عمـر بك الأعمى وهـو جورجى الأصـل تربى فى قـصر السلطـان، وفقئـت عينـه وهـو يلعب الجريد، أسندت إليه بكوية القاهرة فى عهد محمد الرابع.

ومن البكوات الجدد (إبراهيم بك) وهو كردى الأصل، بينما كان يشغل منصب كتخدا فرقة العزب أسند إليه جان بولاد زاده حسين باشا جدّة فعمرها.

(موسى بك) وهو من أبناء جند مصر، عندما كان يشغل منصب كتخدا لقاسم بك منحه عبد الرحمن باشا إيالة جرجا بتوصية من أحمد باشا الدفتردار فعمرها.

و (محمد بك الحبشى) وهو جورجى الأصل، بينما كان يشغل منصب كتخدا فرقة الإنكشارية، لم يقبله الجند فمنحه عبد الرحمن باشا حكم أحد الألوية، وظل فى منصبه طويلا ولم تكن له الحنكة فى الحرب، وتقاعد فى المدينة المنورة، وعاد إلى بلاده.

و (چنار مصطفى بك) حينما كان كتخدا الجند الإنكشارية تحالف مع المتمردين لإسقاط أحمد باشا. وفى عهد عبد الرحمن باشا ثار جميع مُسِنّى الإنكشارية، وقالوا: إننا لا نريد فى طائفتنا رجلا يمالئ المتمردين ويعينهم؛ فتجاوز عبد الرحمن باشا عن أخطائه وما بدر منه وأسند إليه بكوية اللواء وأصبح أميرا على جدة، وكان أرمنّى الأصل يبيع الخفاف فى مدينة «إزمير»[1] إلا أنه شرف باعتناق الإسلام وأصبح من ثراة القوم.

و (حسين بك) لأنه تولى منصب كتخدا جاويشية عبد الرحمن باشا أسندت إليه بكوية المنصورة، إنه من الأناضول وهو صاحب فصاحة وإبانة وكرم حاتمى.

وولى نعمتى (قوجه مصطفى أغا رئيس الإنكشارية) وهو من قسطمونى[2]، إنه تقى صالح.

(مظلوم على أغا) قدم من الأستانة بفرمان السلطان وتولى رياسة الإنكشارية مدى حياته، (قونداقجى مصطفى كتخدا وذو الفقار كتخدا وحسن كتخدا وحبشلى كتخدا ومحسرم كتخدا وكنعان كتخدا وقاريغدى على جاووش وسليم جاووش وكمجى جاووش وجلبى جاووش وبكر جاووش وحسين جاووش وشريف جاووش الذى شنقه عبد الرحمن باشا، وسليم أفندى وبكر أفندى ودلى حسين أفندى ورجب افندى وقره

(١ ، ٢) موضعين بالأناضول.

قبوجى زاده عبد اللـه افندى وأبوه قره قبوجى أغا و(عبد الرحمـن أفندى الروزنامجى، وإبراهيم أفندى كاتب الأيتام، عمر أفـندى كاتب الأرزاق، وحسين جاووش زاده جلبى أفندى كـاتب الجاويشـية، وأحمد چـلبى افنـدى دلال القرية، حـسن أغا رئيـس فرقة العزب، وشعـبان أغا رئيس فرقة المـتفرقة ويوسف أغـا الترجمان الرئيـس، وأحمد أغا كتخدا العـزب وسيد حنفى الجاويش الـنقيب، وقوجه حسيـن جاووش ومرزا كاشـف، ومسعود أغا وعبد الـرحمن أغا وقوجه خليل نديم السلـطان مراد وداود أغا شيخ الحرم ومحمد أغا ترجمان العجم ولا لا ياقوت) هؤلاء الأغوات سالفو الذكر كانوا من رجال وزراء سلاطين آل عثمان وكم من آلاف سواهم، إلا أنهم أولياء نعمنا.

وبك الشراكـة سليمان بك وعبد الرحمـن باشا، وسليمان بك ابن الخزينة دار على أغا وأخوه كـوجوك شاهين أغـا وبيوك مصطفـى افندى كاتب الإنـكشارية، وسلـيمان الجورجى كاتـب الإنكشارية كذلك وسـليم كتخدا وإسـماعيل الكاشف وحـموه قوجه حسن أغـا ومحمد الكـاشف كاشف البحـيرة وقره على الـكاشف وأحمد أغـا كاشف الشرقية وجالق مصـطفى أغا. . إلى آخره).

* * *

الفصل الثانى والستون
ذكر أقاليم مصر فى ضوء علم النجوم والهيئة
والاسطرلاب ومساحة البلاد وطول نهارها وطالعها
والمسافة بالميل بين السماء والأرض ومساحة العالم بالميل

تَفَكَّرَ الحكماءُ القدامى فى آلاء الله وكتبوا عن أحوال العالم، فقد قيل «تفكروا فى آلاء الله ولا تفكروا فى ذات الله» لذا تفكروا فى آلائه ـ سبحانه وتعالى ـ ووقفوا على جميع أسرار الكون بقوة العلم وطول العمر؛ فقالوا: إن المسافة بين الأرض والسماء ٣٥٦ ميلا وبناء على هذا الحساب فإن محيط الدنيا ٢٠١٦٠ ميلا تقع فى البحر المحيط، وتقع جزيرة مصر داخل هذه الدنيا. وطول قطر هذه الدنيا من الشمال إلى الجنوب ٦٤٠٠ ميل.

يقول ابن الوردى فى صحفه: إن بطليموس الحكيم قَدَّر محيط الأرض بـ ٢٠١٦٠ ميلاً (أى ٨٠٠٠ فرسخ)، والميل يساوى ٣٠٠٠ ذراع مكى والذراع المكى ٣ أشبار، وكل شبر ١٢ إصبعًا وطول كل إصبع يساوى ٥ حبات شعير ونحن نقدرها بـ ٧٦٣٦ ميلا (أى ٢٥٤٥ فرسخا) وثلث، والمساحة الكلية لسطح الأرض ١٣٢ ألف ألف ميل و ٦٠٠ ألف و ٢٨٨ فرسخا.

وهذه الأقوال المذكورة هى أقوال صحيحة لبقراط وسقراط وفليقوس وبطليموس وهم الذين أحاطوا بعجائب العلوم وغرائبها، وملكوا ناصية شتى العلوم والفنون وكتبوا ما كتبوا بقوة العلم دون أن يتجولوا فى الأرض من أقصاها إلى أقصاها، ودون أن يكون علمهم عنها علم اليقين، وقالوا: إن محيط العالم ٢٠١٦٠ وكان ذلك بناء على أعمال عبقريتهم.

ولفظ «فتحتا» فتاريخ سنة ٨٨٩ حينما ضرب السلطان بايزيد ولى[1] الحصار على قلعة «كرمان» قدم عليه راهبان التقيا به وبـ «قره شمس الدين السيواسى» وزفا إليه البشرى بأنها ستفتح فى يوم كذا وساعة كذا ودقيقة كذا. وهذان الراهبان أحدهما كان

(١) هو السلطان بايزيد الثانى العثمانى، اشتهر بلقب ولى بسبب تصوفه.

يسمى «بادره» والآخر «بطريق قولون»، وقولون هذا من أهل البرتغال أما بادره فمن أهل أسبانيا وقد عين لهما السلطان با يزيد خدما وشاء الله أن تفتح قلعة «كرمان» فى نفس اللحظة التى عينها هذان الراهبان وجاءت البشرى بتسلم مفاتيحها. هذا ما وقع فعلا. وتاريخ فتح هذه القلعة كان لفظ «فتحنا» ومن بعد كرم هذان الراهبان بما لا مزيد عليه من تكريم. ثم سُئل هذان الراهبان كيف عرفا من سيفتح هذه القلعة فأجابا:

أنهما عرفا ذلك بفضل من علم الرهبان والعلماء النصارى، وقالا: لنا أكثر من بشارة نزفها إلى مولانا السلطان. إن ابنك سليم والى طرابزون سوف يكون له ملك مصر، كما سيكون له ملك مكة والمدينة، وسيملك ابنه سليمان «التفاحة الحمراء»[1]. وإن طالع الدولة العثمانية لطالع سعيد وستكون الدنيا بأسرها فى حوزتكم، ولكن لنا بشارة أخرى عظيمة لسلطاننا كذلك وقال «قولون» أنت يا مولاى أعظم السلاطين كافة، يسر الله لك الملك، بينما كنت أطوف فى الآفاق منذ مائة وأربعين عاما وبادره هذا يطوف منذ مائة وخمسة عشر عاما وطيلة هذا العمر المديد طوفنا فى العالم سبع مرات. وعبرنا من خارج مضيق «سبتة» غربا سبعة آلاف ميل بفضل قوة العلم فاكتشفنا ما يسمى «العالم الجديد»: وفيه ما لا وجود له فى عالمنا هذا ، ففيه أنواع من الحيوانات و الجبال والحدائق وأناس لا يعرفون الحشر ولا النشر، والذهب فى كل أنهارهم والمعادن فى كل جبالهم وسهولهم مروج وجو بلادهم لطيف، إنها أرض بكر لم تطأها قدم يسر الله فتحها لسلطاننا. تلك هى البشرى التى أزفها إليك يا مولاى السلطان.

فقال السلطان با يزيد: لابد لنا من فتح مكة والمدينة وإحكام سيطرتنا على هذا العالم وليس من اللازم أن نتجاوز البحر إلى تلك البلاد البعيدة.

وعندما قال السلطان هذا من كلامه ودعه الراهبان بتقبيل يده ثم انطلقا إلى البابا وأطلعاه على أوصاف الدنيا الجديدة فقدمت لهما أسبانيا اثنتى عشرة سفينة وبسطت سيطرتها على هذه الدنيا الجديدة، ثم ملكتها انجلترا بعدها، ثم آل ملكها إلى ملك هولندا وللدنيا الجديدة الآن اثنى عشر ملكا ومنذ تاريخ «فتحنا» (أى عام ٨٨٩) إلى

(١) اسم كان يطلق على روما قديمًا.

يومنا هذا أقيمت ففيها ٣٠٦٠ قلعة ويتناحر الملوك فيها من أجل الاستيلاء على معادنها حتى إننى بعد أن فتحنا «أويوار» وصلت بلاد الألمـان برفقة السفير «محمد قره باشا» فى طريقنا إلى إمبراطور النمسا وصلنا مدينة تسمى «لونجاط» على شاطئ البحر المحيط، وكانت سفن الدنيا الجديدة ترسو على ذلك الشاطئ وفى كل منها ثلاثة آلاف رجل وكان بين من على ظهر هذه السفن أناس من الدنيا الجديدة قصار القامة يلبسون الريش فكلفت تراجمة النمسا بسؤالهم عن الدنيا الجديدة فما كان منهم إلا أنهم سبوا الراهبين «بادره» و «قولون» اللذين أفعما دنياهم الهادئة الآمنة بالطامعين فيها والذين يحاربونهم على الدوام لإبادتهم وقصف أعمارهم.

ومحصلة القول أن الراهبين بادره وقولون ، بفضل العلم وتطوافهما فى الدنيا، بذلا الوسع فى الاطلاع على آلاف من كتب التاريخ وراجعا كتب الأطالس والهيئة وقضيا عمرهما فى السياحة والتطواف وكتبوا عما وقفا عليه من حقائق هيئة العالم.

ووصل هذان الراهبان إلى تلك البلاد التى لم يصل إليها كل من فليقوس وبطليموس فى الزمان القديم على شدة الحر والبرد وما يكتنفها من مهالك ومعاطب بعد أن ساحا فى الأرض مرات ومرات شمالا وجنوبا وشرقا وغربا، وذكرا أن مساحة العالم ٨٧٠٠٠ ميل كما ذكرا أنهما لم يبحرا فى شواطئ البحر الأبيض ولا البحر الأسود بل أبحرا حول هذا العالم الجديد عبر المحيط.

وقد رسم ملاحو العالم كافة خرائطهم فى ضوء ما كتبه الراهبان بادره وقولون ويبحرون فى البحار معتمدين كل الاعتماد على هذه الخرائط، فقد اكتملت لهذين الراهبين آلاف التجارب ونجت السفن فى البحر المحيط بفضل ما كتباه ووصلا إلى جميع موانى الدنيا وحملا من أحجارها ومعادنها وكتبا عن اعتدال جو تلك الموانى كما كتبا عن جبالها وأحجارها وأجوائها ومنبع كل نهر فيها. اتفق جميع علماء الهيئة رأيا على أن مساحة الدنيا القديمة ٨٧٠٠٠ ميل على نحو ما قال بادره وقولون ، وكل ميل يساوى ٤٠٠٠ ذراع أسود، والذراع يساوى ٢٤ اصبعا، وكل ميل يساوى ٤٠٠ قدم، والفرسخ يساوى ١٢ قدما (أى مسيرة (   )[١] ساعة).

---

(١) بياض بالأصل.

وقد قسم حكماء السلف وجه الأرض إلى سبعة أقاليم بعلم الاسطرلاب:

ـ الإقليم الأول:

يقع كذلك فى جزيرة مصر ويمتد إلى منبع النيل عند جبل القمر.

والإقليم ـ بعلم الاسطرلاب ـ عبارة عن خط يمتد من الشرق إلى الغرب فتكون جميع المدن الواقعة على هذا الخط لها نفس الأرض ونفس طول النهار.

وثمة إقليم آخر يقع على حدود بلاد الحبشة جنوب جزيرة مصر وهذا الإقليم الآن فى حوزة البرتغاليين ويسمى فى علم الهيئة «مدار الجدى» ويطلقون على نهاية الإقليم الثانى اسم «خط الاستواء». هذا ما اصطلح عليه العلماء.

أما عرض الإقليم الأول فـ١٢ درجة و ٤٠ دقيقة. ومن خط الاستواء جنوبا يتبقى جزء من العالم وهذا الإقليم بما أنه غير معمور لشدة الحر فيه لم يعده العلماء إقليما. لان هذه الجهات هى البحر المحيط وبه بعض الجزر. وعند بطليموس أنه وراء خط الاستواء بـ ١٦ درجة و ٢٥ دقيقة بعض البلدان المعمورة بالقرب من ولاية الزنوج وأقاليم الحبشة ولكن فى الوقت الذى لا يطيق فيه الإنسان شدة حرها تكثر فيها الفيلة والقردة.

حتى إنه فى شهر يوليو من عام ٨٣ عندما كنت فى سياحتى بفونجستان وحرها جد شديد تجاوزت خط الاستواء جنوبا قاطعا المنازل طاويا المراحل طيلة سبعة وعشرين يوما فارتفعت ربع دائرة فوجدت بالحساب أن طول النهار (   )[1] ساعة و ١٦ درجة و ٢١ دقيقة.

أما وسط الإقليم الأول فمن المتفق عليه أن عرضه ١٦ درجة و ٣٧ دقيقة، وطول نهاره ١٣ ساعة.

ـ الإقليم الثانى:

يبدأ من خط عرض ٢٠ درجة و ٢٧ دقيقة وطول نهاره ١٣ ساعة و ١٥ دقيقة، ووسط هذا الإقليم خط عرض ٢٤ درجة و ٤٠ دقيقة وطول نهاره ١٣ ساعة.

(١) بياض بالأصل.

- الإقليم الثالث:

يبدأ من خط عرض ٢٧ درجة و ٣٠ دقيقة وطول نهاره ١٣ ساعة و ٣٥ دقيقة، ووسطه من خط عرض ٣٢ درجة و ٣٧ دقيقة وطول نهاره ١٣ ساعة وربع.

- الإقليم الرابع:

يبدأ من الإسكندرية ورشيد ودمياط وجزيرة مصر تقع فى الأقاليم الثلاثة.

ولنوضح أوصاف الأقاليم الأخرى على هذا النحو التقريبى:

أما بداية الإقليم الرابع فمن خط عرض ٣٠ درجة و ٤٠ دقيقة، وطول نهاره ١٣ ساعة، ووسطه عند خط عرض ٣٦ درجة و ٢٢ دقيقة، وطول نهاره ١٤ ساعة.

- الإقليم الخامس:

بدايته من خط عرض ٣٨ درجة و ١٥ دقيقة، وطول نهاره ١٥ ساعة، ووسطه من خط عرض ١٤ درجة و ١٥ دقيقة وطول نهاره ١٥ ساعة ونصف.

- الإقليم السادس:

يبدأ من خط عرض ٤٣ درجة و ٢٢ دقيقة وطول نهاره ١٥ ساعة وربع، ووسطه من خط عرض ٤٥ درجة و ١٢ دقيقة وطول نهاره ١٦ ساعة ونصف.

- الإقليم السابع:

يبدأ من خط عرض ٤٨ درجة و ٢٩ دقيقة وطول نهاره ٢١ ساعة ووسطه عند خط عرض ٤٨ درجة و ٢٩ دقيقة وطول نهاره ١٢ ساعة وربع.

حتى إنه فى عام ١٠٧٦ عندما خُلع «محمد كَراى خان»[(١)] وفَرّ إلى داغستان رعيت حق الخبز والملح ومضيت إلى إقليم ملك «قره بوداق»[(٢)] وشاهدت أنهار طرخوى وقوون واندرى وبلغت «دمير قابو»[(٣)] ومن هناك ركبت السفينة ووصلت بسلام إلى قلعة الترك فى موسكو فى ثلاثة أيام بلياليها فى بحر الخزر، ثم سلمنى بكوات الشراكسة فى «رهن» وقادة قلعة الترك فى موسكو أوراقا، ثم توجهت إلى ملك موسكو فمضيت شمالا على ساحل بحر الخزر طوال ستة أيام فى ولاية «قازان» ومنها اتجهت

(١) أحد خانات القرم، أى: حكامها. (٢) موضع فى آسيا الوسطى. (٣) الباب الحديد.

شمالا إلى صحراء «القبجاق» وولاية «الأطر» علـى ساحل بحر الخزر، ثم تابعت السير شمالا حتى اجتزت صـحراء «هيهات» فى واحد وعشرين يومًا فـبلغت ولاية «هشدك» وهى بلاد عظيـمة على ضفاف نهر «أدل» وهـى تتبع موسكو وسكـانها ٧٠٠ ألف من المسلمـين لهم مساجـدهم ومدارسهم ولكن لـيس لجوامعهم مـآذن وهم يؤدون الخراج لموسكو وقـدره دينار ذهبى على كل شـخص فى العام. وجُبْتُ بلادهـم فى برد قارص طيلة سبعة أشهر وعبرت إلى الضفة الأخرى لنهر «أدل» فبلغت القلعة المسماة «يوانجسه» وطول النهار هـناك إحدى وعشرون ساعة ونصـف ساعة، ولم يكن سكان هـذه القلعة يؤدون صلاة العشاء وكنت مثلهم وفيها عـلماء فضلاء، إلا أن لسانهم هو لسان موسكو وهم يتلون القرآن الكـريم ويقرأون معانيه بالروسية وقد ترجـموا كتاب «عماد الإسلام» إلى اللغة الروسية وترجم بعضهم جميع كتب الفرائض والفقه.

وجل الإقلـيم السابـع يمتد فـى مملكة مـوسكو وبلاد فـغفور[1] وبولندا ودانـصقة وقراقووجه وأسفج[2] تقع جميعهـا فى الإقليم السابع. بيد أنه لشـدة البرد فى موسكو يقل العمران فيها وتشكل صحارى هيهات مـعظم مساحة موسكو، كما أن تتار القلموق خرّبوا الكثير من المناطق العامرة وعاثوا فيها فسادا.

وبينما كنت أتجول فى المنطقة بين نـهرى «أدل» و «جالق» اكتشفت أنها تقع عند خط عرض ٣٦ درجة وطول نهارها ٢١ ساعة ونصف.

وعندما كنت أعد حساء الكرنب ظهرت الـشمس فى وسط الفلك ولم يكن لحرارتها تأثير فيها والحاجة فى هذه المنطقة ماسة إلى ارتداء فَرْوَيْنِ فَهِيَ أماكن قارصة البرد.

ومسلمو الهشدك ونصارى الموثق غاية فى البلاهة، ولا شجاعة لهم، ولا وجود قط للحـدائق والبساتيـن فى هذه البلاد، ولكـن الحيوانات والطيـور والمراعى كثيرة فـيها، وأراضيها جد خصـبة وقد تكلمت مع كثير مـن رحالة موسكو وقسيسيهـا وسألتهم عن بلادهم فقالوا:

---

(١) لعله يقصد الصين.
(٢) أسفج: السويد.

نحن من سكان جزيرة تسمى «وقولون» فى البحر المتجمد فى نهاية الإقليم السابع ومياه بحرنا تتجمد ستة أشهر فى السنة ولا تطلع الشمس طيلة ستة أشهر فبلادنا مظلمة وليلنا ساعتان ونهارنا ٢٢ ساعة.

فسألتهم عن المسافة بين بلادهم ونهر «أدل» فقالوا: لقد خرجنا من بلادنا منذ أربعة أشهر ووصلنا لتونا.

وهم بالفعل وصلوا لتوهم ومعهم من سن السمك وفرو السمور ووجوههم قد تمزقت من شدة البرد. ولموسكو وراء الإقليم السابع أرض معمورة كما هو الشأن وراء خط الاستواء.

وقد ذكر القرطبى فى كتابه «المسالك» أن:

الإقليم الأول: يمتد من سواحل بلاد الصين على وجه التقريب إلى داخل الحبشة حتى جزيرة «الوكة»، وينتهى بجزيرة العرب واليمن وساحل المغرب وأشهر مدنه هى عمان وحضرموت وصنعاء اليمن.

ـ الإقليم الثانى:

يمتد من الجانب المذكور إلى بلاد اليمن والهند ثم يمتد إلى بحر الحسا والبصرة وتهامة وجزيرة العرب واليمامة وبحر هجرين والحجاز ومكة والطائف والمدينة والبحرالأحمر ثم إلى بلاد المغرب وبحر المغرب.

ـ الإقليم الثالث:

يمتد فى بلاد الصين والهند وقندهار وبلاد السند من الشمال ويمر من كَابُل وكرمان وجيرون وسجستان وسواحل قصره ثم يقطع مدينة اصطخر وسابور ومهربان وشيراز وسبقير وبور وأهواز والعراق وواسط والكوفة وبغداد وانبار وهيت ثم دمشق وحماة وحمص وسور عكا والرملة وساوه وطبرية وغزة وبيت المقدس وعسقلان والمدائن والقلزم سلمية ثم إلى أسافل أرض مصر ثم يمر بالفرما وتنيش ودمياط ورشيد والإسكندرية والفسطاط والفيوم وبلاد رقية ويجتاز أرض إفريقيا وينتهى عند بحر

المغرب. أما بلاد طرابلس وتونس والجزائر وطنجه وفاس والأندلس وقرطبة ومراكش تقع فى الإقليم الثالث.

- **الإقليم الرابع:**

يمر من بلاد السند وخراسان وسمرقند وبلخ وبخارى وهيران وأصفهان وسرخس وطوس وزابلستان ونيسابور ونهاوند وديلور وحلوان ونصيبين والموصل وخجند وقزغان وقالى وقلا والرقه وتبرجك ثم يمر بعد ذلك بدمشق فملاطيا وحلب وقيصرية وأنطاكيا وطرابلس الشام وطرسوس وأدنه وعمورية وسلفكه وجزيرة قبرص وجزيرة كريت وجزيرة كورسيكا وجزيرة مسنه والبرتغال.

وفى أقصى الغرب أسبانيا وجنوز وفرنسا تقع فى الإقليم الرابع. وعلى بعد ٧٠٠٠ ميل من سواحل فرنسا تقع الدنيا الجديدة إلا أن العلماء لا يعدونها إقليما.

- **الإقليم الخامس:**

يبدأ من بلاد يأجوج ويمر بالصين والختا والختن وبعض مدن بلاد خراسان ويمر بخرشنبه كما يمر بوسط الأناضول ومن قرمان إلى أداليا ومنها إلى البحر الأبيض ويمر برأس قلاوره والبندقية ودور دوشقة وينتهى ببحر الألمان وقبالتها الدنيا الجديدة على بعد ٧٠٠٠ ميل.

- **الإقليم السادس:**

يمر ببلاد ترجانه دون الوصول إلى بحر الخزر وطبرستان وينتهى ببحر المغرب ونهاية هذا الإقليم هو القسطنطينية وأواخر بلاد الإفرنج.

وقال حكماء السلف:

إن اسطنبول تقع فى الإقليم السادس. إلا أنها تقع فى أواخر الإقليم الخامس لأن القسطنطينية تقع عند خط عرض ٤٠ درجة.

والحقيقة الظاهرة ظهور الشمس أن طول نهارها ١٥ ساعة.

ـ الإقليم السابع:

يمتد من الجانب الشرقى وينتهى فى الشمال عند سد «يأجوج» فى بلاد الترك والصقالبة وموسكو وهولندا ودوقانقيز والدنمارك وألمانيا ولونجاط، وعلى بعد (   )[1] ميل قبالتها تقع جزيرة الإنجليز، كما تقع قبالتها الدنيا الجديدة على بعد ٧٠٠٠ ميل.

ـ ذكر الأقاليم السبعة على نحو آخر ـ

الإقليم الأول:

به ٢٠ جبلا، و ٣٠ نهرا عظيما، وسكانه سود البشرة أما أهل السودان فهم بيض البشرة وهذا الإقليم كذلك يمتد فى جزيرة مصر.

ـ الإقليم الثانى:

به ٢٧ جبلا و ٢٧ نهرا عظيما، وسكان هذا الإقليم كذلك سمر البشرة وطائفة منهم دميمة وجوههم، ويمتد هذا الإقليم كذلك بمصر على ضفاف النيل.

ـ الإقليم الثالث:

به ٣٣ جبلا و٢٢ نهرا عظيما. وجميع الأنهار التى تجرى فى جزيرة مصر تنشعب عن النيل ويمر هذا الإقليم كذلك بجزيرة مصر وهى جزيرة متراحبة الأرجاء لها نصيب فى هذه الأقاليم الثلاثة ويحكمها سبعون ملكا ومساحتها ١٨٠٠٠ ميل وينبع النيل من داخل هذه الجزيرة ويصب فى البحر الأبيض شمال مصر عند مينائى دمياط ورشيد، ومن منبعه إلى مصبه مسيرة ثمانية أشهر، ولا وجود لنهر يجرى مثل هذه المسافة الطويلة.

ـ الإقليم الرابع:

به ٢٥ جبلا و٢٢ نهرا وجميع سكانه بيض البشرة.

الإقليم الخامس:

به ٣٠ جبلا، ١٥ نهرا عظيما وجميع سكانه بيض الوجوه.

---

(١) بياض فى الأصل.

الإقليم السادس:

به ١١ جبلا و ٤٠ نهرا، أطول هذه الأنهار نهر «الطونة» ومساحة منبعه ١١٠ مرحلة، وينبع هذا النهر من ألمانيا ويصب فيه ٧٠٠ نهر، وله خمسة فروع تصب فى البحر الأسود منها فرع عند مضيق «كلى» وآخر عند مضيق «طوجله» وآخر عند مضيق «سلونه» وآخر عند سفح التلال الخمسة والأخير عند مضيق «قره خرمن».

وتبحر السفن الشراعية فى هذا النهر حتى بودابست وبراغ وألمانيا. إنه نهر عظيم وحمدا لله فقد تأتى لى أن أطوف خمس مرات على ضفافه من المنبع ببلاد الألمان حتى المصب فى البحر الأسود.

- الإقليم السابع:

به ١٠ من شوامخ الجبال أعظمها «جبال البرز» على مقربة من داغستان ولا وجود لجبل مرتفع كهذا فى الربع المسكون من العالم، ولم يصعد إلى قمته مخلوق من البشر وفيها غيلان وضوار ويستوطن جوانبه الأربعة خمسة سلاطين. إنه جبل عظيم إلى هذا الحد البعيد. وبهذا الإقليم ٤٠ نهرا منها على سبيل المثال نهر «قوبان» العظيم الذى ينبع من جبال البرز ويخترق داغستان وبلاد الشركس والجهة القبلية من صحراء «هيهات» فى بلاد الشركس ويصب فى البحر الأسود أسفل قلعة «تمر» فى الجزيرة المسماه «طمان» وكذلك عند مضيقى «خون» و «يلشكة» وتجرى فيه بوارج عملاقة.

وهناك فى هذا الإقليم كذلك نهر الترك الذى ينبع من الجبل نفسه ويخترق ولاية داغستان ويصب فى بحر الخزر أى بحر كيلان أسفل قلعة الترك بموسكو على مقربة من «دمير قبو» فى الشمال. إنه نهر ماؤه عذب فرات وسكان هذا الإقليم حمر البشرة، شجعان.

والإقليم السابع به ١٠ جبال و ٤٠ نهرا، أطولها نهر «أدل» العظيم. إن ماءه ماء الحياة وعرضه ٤٠ ميلا ويبلغ فى بعض الجهات ٦٧ ميلا، وعمقه ٣٤ باعا وجميع سكان هذا الإقليم بيض البشرة.

وليعلم إخوان الصفاء أنى قضيت فى الترحال إحدى وأربعين سنة ورأيت بأم عينى أن أطول الأنهار هو نهر «إدل» يليه فى الطول نهر «جايق» ثم نهر الطونة ثم نهر شط العرب ثم نهر النيل المبارك فى مصر الذى يصبح كأنه البحر فى شهر يوليو من كل عام بيد أنه فى بقية أوقات السنة يكون فى حجم نهر «دياله» القريب من «بغداد» أما نهر «إدل» هذا هناك العديد من الترع تتفرع منه وتجرى بجانبه.

وفى ضوء علم الهيئة وطبقا لما دونه الرحالة وعلى حد قول العالم الجهبذ «بطليموس» إن على وجه الأرض ٢٠٠ نهر عظيم و ٤٤٠٠٠ نبعا جاريا.

ويروى العوفى عن ابن عباس قوله: إن على وجه الأرض أنهارًا تتفاوت طولا بعدد ما فى جسم الإنسان من شرايين، ولو لم تجر هذه الأنهار على وجه الأرض لتمزقت الدنيا قطعا قطعا، وما كان فى الإمكان أن يسكنها مخلوق. وهذا هو الحق فقد قال عز من قائل ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

ويقول ابن إسحاق: على وجه الأرض ١٤٨ جبلا علاوة على مئات من الجبال الأخرى ولكن ما يعنينا منها شوامخها، والتى قال الله فى شأنها فى كتابة العزيز ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الشورى: ١٢] ومقاليد فى اللغة العربية بمعنى أقفال وإنما لم تتشابك الجبال وتحكم الأرض وكأنها الأقفال لما كان لوجه الأرض من قرار.

وصف الأقاليم السبعة من منظور آخر

الإقليم الأول:

طوله من الشرق إلى الغرب ١٢٥٠ فرسخا، وعرضه ١٩٠ ويضم هذا الإقليم ١٠٠٠ مدينة، ٥٠ منها من كُبْرَيات المدن تقع معظمها فى أقاليم الزنوج ومنها الحبشة واليمن وصنعاء وبحرانة وطغار وحرش وجزيرة سرنديب والهند وميناء الصين ومدينة فارس ومراكش فى المغرب والسودان والفونج وبورنو.

الإقليم الثانى:

يبلغ طوله من الشرق إلى الغرب ٢٤٠٠ فرسخ وعرضه ١٣٦، وبه ٢٧ جبلا من شوامخ الجبال و ٣٦ واديا، و ٢٠٠٠ مدينة ٥٠ منها مدن عظيمة ويمتد من خجند

والهند والسند، والمنصورية والحيرة وكِنْدَة والجزائر ونجد ويثرب إلى الحجاز والبحر الأحمر وأرض البربر وأفريقيا وأرض مصر وأرض بغلبه[1].

- الإقليم الثالث:

طوله ٢٩٢٥ فرسخا وعرضه ٩٠ فرسخًا، وبه ٣٠٠ مدينة منها ٢٠٠ من كبريات المدن ويبدأ من شمال الصين حيث موغان وقندهار ويضم كابُل وزابلستان وسيستان وكرمان وفارس وسواحل بحر عمان والبصرة والإحساء واصطخر وشيراز ونيسابور والأهواز والعراق وبغداد والشام وفرحين والإسكندرية ومرقان وفرنسا وينتهى فى البكرية.

- الإقليم الرابع:

يبلغ طوله ٢٧٠٠ فرسخ وعرضه ١٠٢ فرسخ وفيه ٢٥ جبلاً، و٣٢ واديا وعدد مدنه (   )[2] مدينة ويمتد هذا الإقليم من التبت وخراسان وبلخ وبخارى ويضم ملتان وطبرستان والديلم وقزوين والرى وقم وكاشان وأصفهان وهمذان وحُلوان وشهرزور والموصل ونصيبين وحلب وأنطاكية وطرسوس وعَمورية وجزيرتى قبرص وكريت ومدينة البندقية وينتهى بألمانيا.

- الإقليم الخامس:

يبلغ فى الطول ٢٥٥٠ فرسخا وفى العرض ١٠٢ فرسخ، ويضم ١٠٤٠ مدينة، ٧٠٠ منها موانئ، وفيه ٢٥ جبلا و ٣٣ واديا، والمدن الواقعة فى جانبه الشرقى هى كوره وكانج وكاس وخوارزم والتبت وأرمينيا وبخارى وسمرقند وخجند وطشقند وكولقند ودقند وسنجاب وقرمان وانطاليا وفى الجانب الغربى من بحر الروم النمسا وبها مدن بودين واستورغون وسيدوار واستونلى بلغراد وبابا وقومران وبانيق وسنمارتين وبشتهل وبراغ ولونجاط وأمستردام. وفى الجانب المقابل تقع جزيرة الإنجليز ووراءها بمسافة قدرها ٧٠٠٠ ميل تقع الدنيا الجديدة.

---

(١) لعلها: بعلبك.
(٢) بياض بالأصل.

الإقليم السادس:

يمتد من الشرق إلى الغرب بمسافة طولها ٢٣٨٠ فرسخا وعرضه ٩٠ فرسخا به ٣٠ واديا و ١٠٧٠ مدينة، سبعمائة من هذه المدن مرافئ. ويمتد هذا الإقليم من سد «يأجوج ومأجوج» وشمال خراسان وجزء من خوارزم ونواحى أذربيجان وأرمنيا والأخلاط والرمية الكبرى وينتهى بالأندلس.

ـ الإقليم السابع:

يمتد من المشرق إلى المغرب بمسافة قدرها ٢٢٠٠ فرسخ وعرضه ١٤٠ فرسخا، وفيه ١٠٠٠ مدينة، جلها كان يقع فى ولاية «فغفور»، ويضم هذا الإقليم مدن قزاق ومغول وبوغول وموسكو وصحراء القبجاق والقرم وقزاق لـه، و جه، ودانسقه والسويد وهولندا. وفى الجانب المقابل تقع جزيرة الإنجليز وهى جزيرة عظيمة تمتد أراضيها فى الإقليمين السادس والسابع، ومساحتها ٨٠٠٠ ميل وحاضرة ملوكها مدينة «لندن» وقد زارها والذى الدرويش «محمد ظللى» فى عهد السلطان أحمد أما أنا فما زرتها.

ولقد تأتى لى بلوغ مرفأ «الونجاط» العظيم الذى يقع قبالتها ولم يتيسر لى العبور إليها اللهم يسر بالخير.

أما جزيرة مصر فأكبر من جزيرة الإنكليز. إنها جزيرة متراحبة الأطراف تبلغ مساحتها ١٨٠٠٠ ميل، ولم يخلق الرحمن جزيرة مثلها على وجه الأرض، وفيها خمسة عشر ملكا لهم سكة وخطبة وسبعون أميرا وبها ١٠٧٠ مدينة، ٧٠ منها مرافئ عظيمة.

وتضم السودان دنقلاب وفاس ومراكش وقرطبة وطنجة والجزائر وتونس وطرابلس والإسكندرية ورشيد ودمياط والقاهرة المحروسة، وجزيرة مصر هذه أعظم جزر الدنيا عمرانا عمرها الله.

ـ حاضرة ملك مصر:

وحاضرة مصر تقع وسط الإقليم الثالث عند خط عرض ٢٧ و ـ ٣ دقيقة، وطول نهارها ١٤ ساعة ١٣ درجة و ٤٥ دقيقة وهى بلد حار.

ولأنها بنيت وقت طلوع المريخ فى برجه لا تنقطع فيها الفتن والحروب. إلا أن طالعها غاية فى قوتها والنصر حليفها على الدوام.

سر إلهى فى مصر

ثمة سرٌ إلهى فى مصر هو إذا ما كانت هناك حادثة غير متوقعة على وجه الأرض شاع خبرها على ألسنة الناس فى مصر، وبعد خمسة أيام أو أكثر تقع هذه الحادثة التى كثر فيها القيل والقال.

فعلى سبيل المثال سرت شائعة ذات يوم مؤداها أنه قد تم فتح «قمانجسه» وبعد أربعين يوما جاء أحد أغوات الوزير عام ١٠٨ من قمانجسه حاملا بشرى النصر وتحقق ما قاله الناس فى هذا الشأن.

وفى شهر (   )[1] من عام (   )[2] شاع بين الناس أن الوزير قد مات وبعد اثنين وعشرين يوما ورد نعى الوزير الأعظم «كوپرلى أوغلو».

واتفق ذات يوم أن ظهر درويش من أهل الله وجعل يطوف صائحًا: «وقع الباشا وقع الباشا» وبعد أسبوع أسقطوا أحمد باشا الدفتردار.

وهذا بفضل تأثير نجم (   )[3] على مصر مما جعل كل حادثة تذكر قبل وقوعها بأربعين يوما على وجه الأرض، وهذا أثر ذلك النجم كما أنه من تأثير من فى مصر من دراويش ومجاذيب وأمناء ونُقَبَاء موكلون بمصر.

وبين سكان القرافات الكبرى الاثنتى عشرة الواقعة فى جوانب القاهرة الأربعة دفن مئات الآلاف من كبار أولياء الله، وكثير من أبناء الأنبياء، وربما الأنبياء ومئات الآلاف - غيرهم من أعاظم المشايخ من صلحاء الأمة، وبفضل من روحانياتهم فإن كل ما يقع على وجه الأرض يصبح حديث أهل مصر قبل وقوعه بأربعين يوما.

* * *

(١ : ٣) بياض فى الأصل.

الفصل الثالث والستون

الأضرحة المنورة لسلاطين السلف والعلماء والمشايخ والقضاة وكبار أولياء الله والصحابة الكرام والأئمة المجتهدين فى قرافات مصر

فى الجانب الشرقى من مدينة القاهرة جبل يسمى «المقطم» لما كان هذا الجبل موضع تعبد سيدنا موسى وهارون والمسيح - عليهم السلام - فقد وردت فى شأنه أحاديث صحيحة عن النبى ﷺ وقد رغب أمته فى فتح مصر.

وبعد الفتح فى عهد عمرو بن العاص رضى الله عنه دفن ١٧٠٠٠ صحابى جليل فى ظل هذا الجبل والآن يسمى العوام هذا الجبل «جبل الجوشى».

وعندما تبزغ الشمس فى الآفاق يمتد ظل هذا الجبل على مدينة الفسطاط أى مصر العتيقة على ضفة نهر النيل. وقد دفن فى ظل جبل المقطم هذا الكثير من أمة المصطفى ﷺ الذين وعدوا بالجنة وقد ورد عدد من الأحاديث الصحيحة فى هذا الصدد.

- سبب تسمية جبل المقطم بهذا الاسم:

ولفظ «المقطم» مأخوذ من «القطم» وهو القطع فسمى هذا الجبل بالمقطم لما كان منقطع الشجر والنباتات.

وجاء فى رواية أخرى أن أحد أبناء سيدنا نوح - عليه السلام - كان يسمى «المقطم» سكن هذا الجبل فسمى باسمه. إنه جبل تغمره الأنوار وكل كهف فيه مفعم بالنور بفضل أولياء الله.

ذكر أضرحة أولياء الله والمشايخ والصلحاء الكائنة فى جبل المقطم والتى زرتها أثناء تطوافى فى مصر

فاتح مصر أبو عبد الله عمرو بن العاص بن هشام بن سُعَيد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر رضى الله عنه وقد بشره ﷺ بفتح مصر وقد توفى عام (   )[1] بعد أن فتح مصر ودفن فى سفح جبل المقطم.

---

(١) بياض بالأصل، وقد اختلف فى تاريخ وفاة سيدنا عمرو بن العاص - رضى الله عنه - والذى عليه المحققون أنه مات سنة ثلاث وأربعين. انظر: الإصابة (٥/ ٣).

ضريح «أبى نصرة الغفارى» من الصحابة الكرام، تلقى الإجازة من سيدنا على ـ كرم الله وجهه ـ بين يدى النبى ﷺ، وهو أول من صنع الإكاف وتنتهى به سلالة صانعى الإكاف، عمر أبو نصرة الغفارى هذا مائة وسبعين عاما وقد هبط مصر مع السيدة نفيسة رضوان الله عليها وتوفى فيها وقبره بجوار قبر عمرو بن العاص. إنه أحد صحابة رسول الله ﷺ ولكن وقع الخلاف فى اسمه فهو عند البعض «حميل»، وقال البعض الآخر إن اسمه «ارعره» إلا أنه اشتهر بأبى نصرة الغفارى رحمه الله.

ضريح عبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدى[1] صاحب رسول الله ﷺ، وإن زيارته لأمر عظيم.

سيدنا «يامن» ابن سيدنا يعقوب وأفرايم ابن سيدنا يوسف الذى ولد فى الفيوم وسيدنا صارم بن يهوذا ابن سيدنا يعقوب ـ عليه السلام ـ.

وجاء فى بعض التواريخ أن الصحف أنزلت عليه وأصبح نبيا.

وقبر أمنا هاجر ـ رضى الله عنها ـ وقبر الملك الريان وقبر الحسناء زليخا، وقبر عزيز مصر، كل هذه القبور تقع فى سفح جبل المقطم تحت قبة سيدنا ابن يامن ـ رضى الله عنه ـ، ويزورها خواص الناس وعوامهم.

وقبر عبد الله بن سلامة السلمى وهو من صحابة رسول الله ﷺ، ومزار مسجد سيدنا موسى ـ عليه السلام ـ على جبل المقطم وقد سكن هذا المكان سيدنا عيسى ـ عليه السلام ـ مع أمه السيدة مريم وهذا الموضع يزوره جميع النصارى كل عام. وقد رمم ابن طولون هذا المسجد وضريح ابن يامن أخى يوسف الصديق عليه السلام، والآن كل هذه الأبنية تحمل تاريخ ابن طولون.

«تنور فرعون» فوق جبل المقطم تبدو آثاره للعيان إلى يومنا هذا، وفى عهد القبط كانوا يزورونه ويعظمونه. وعلى مقربة منه وادى المستضعفين ووادى الملك ووادى الليلا ووادى الدجلة وهى وديان تقع جميعا فوق المقطم والمسافة بين هذه الوديان وعين

(١) الإصابة (٤/ ٥٠ ـ ٥١).

موسى مسيرة ست ساعات يتصيد فيها أهالى مصر الظباء والأرانب وهى أماكن نزهة.

«مزار مسجد سيدنا هارون» أخى موسى عليه السلام، أنشأ هذه الزاوية فيما كان وزيرا لموسى، وقد عمرها ملوك السلف، وهى عامرة إلى يومنا هذا وتزار. وعلى عتبتها العالية تاريخها ونصه «أمر بإنشاء هذه الزاوية المباركة وزير ابن جعفر بن العراب».

«مسجد سيدنا الزبير ومسجد الصخرة»: زاوية عظيمة فى غار منحوت فى الصخر إلا أنها لا تحمل أى تاريخ.

مسجد الديلمى، وهو زاوية عتيقة بنيت على الطراز القديم. مسجد الشريف الجرجانى. وكل هذه الزوايا زوايا معمورة فى سفح جبل الجوشى.

ومسجد «المعروف» وهو معجزة سيدنا موسى عليه السلام، لا وجود لمسجد مثله بناه إنسان. إنه معجزة حقا وهو فى سفح جبل الجوشى وهو أحد زوايا القاهرة التى تحير الألباب.

ومسجد محمود وهو دار قديمة للعبادة، ومسجد الولوه وهو يحمل تاريخ ترميمه عام (٤١٦)، وقبر شقيق الراعى، وقبر سيد الراعى، وكانا أخوين من صحابة رسول الله الكرام وكانا يرعيان الغنم التى اغتنماها عند فتح مصر وبينما كانا يرعيان غنمهما وافاهما الأجل فى ليلة القدر، وصلى عمرو بن العاص عليهما صلاة الجنازة ودفنا بجانب مسجد «الولوه» والآن فى كل عام فى ليلة القدر يغمر النور ضريحهما عليهما رحمة الله.

وعلى حد قول الشيخ القعقاعى إن مسجد ولوه ومسجد محمود مسجدان قديمان يستجاب فيهما دعوة الداعى وفيهما روحانية عجيبة ولا ينقطع عنهما المتصوفة وأهل التقوى والصلاح.

وقبر عبد الله بن الحارث الصحابى الجليل، وكانت وفاته بعد أن بلغ المائتين من سنيه وقد دفن فى أطراف جبل المقطم، وقبر عبد الله بن حذافة السهمى بجوار ضريح «هاجر الحبشية» وتوفى فى خلافة سيدنا عثمان رضى الله عنه. وقبر أمير الروم عبد الله بن

حذافة (مات فى زمان عمر بن الخطاب رضى الله عنه)

- ضريح الشيخ عقبة بن عامر الجهنى - رضى الله عنه -:

وكنيته «أبو حاملة» وعند البعض أنه «أبو سيد» وعند البعض «أبو عمر» وعند البعض الآخر «عامر»، استشهد فى فتح مصر عام (٥٨) وكان عالما بالفرائض، فقيها، شاعرا، صاحب فصاحة وإبانة، وما خطه بيده من كلام الله العزيز بأمر الخليفة عثمان - رضى الله عنه - مازال محفوظا بجامع عمرو بن العاص.

وقبره فى القرافة الكبرى فى ظل جبل المقطم، وقد تخرب ضريحه على مر الأيام.

وفى عام ١٠٦٦ رأى كل من أبى النور خاصكى محمد باشا سلاحدار السلطان محمد الرابع وواليه على مصر، وإمامه نوح افندى فى المنام الشيخ عقبة يقول لهما: ارفعا عنى تراب المذلة هذا وعمرا قبرى عمر الله لكما الملك.

فهب محمد باشا وأمامه نوح افندى من نومهما وقص كل منهما على الآخر ما رآه فى منامه، وشرعا يُعمران فى التو ضريحه، فأقاما على ضريحه جامعا عاليا وتكية ومبرة وسبيلا وساقية ومكتبا للصبيان وحوضا ومنازل لخدام هذا الجامع وخمسين غرفة للدراويش، كما أحاطا كل ذلك بسور حجرى كأنه سور القلعة؛ فأصبح ضريح الشيخ عقبة وكأنه سد متين وحصن حصين، ويوزع منه الطعام على الغادى والرائح من السابلة.

كما خصصا له أوقافا كثيرة، ولأن ثلثى هذه الأوقاف لأغا الإنكشارية فهى أوقاف عظيمة العمران. ولقد أُنشِأت قبة جميلة فوق ضريح الشيخ عقبة، وكأنها قبة الفلك، وهى قبة من حجر إلا أنها غير مكسوة بالرصاص ويهبط إليها بسلم من درجتين فى الجانب الأيمن من الجامع، ويتوسط هذه القبة تابوت مغطى بالحرير الأخضر المزركش دفن بداخله الشيخ عقبة، إنه ضريح مزين يعلوه شمعدانات من فضة وثريات من ذهب.

وفوق رأس الشيخ عقبة عمود من الرخام الأبيض كتب عليه بماء الذهب واللازورد ما نصه:

(هذا مقام العارف بالله تعالى الشيخ عقبة بن عامر الجهينى من أصحاب رسول

الله ﷺ ـ رضى الله عنه ـ. جدد هذا المكان المبارك الوزير محمد باشا سلحدار السلطان محمد الرابع دام بقاه فى سنة ست وستين وألف).

وعلى جدران قبلة هذا الضريح المنور كتب بالخط الكوفى على حجر أبيض قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [التوبة: ١٨].

لكم هى خيرات عظيمة.

مشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها:

دفنت في حى منفصل بجنوب القاهرة، إنها مبرة عظيمة وخير عميم، ولها جامع وضريح يغمره النور دفن فيه سائر خلفاء بنى العباس رحمة الله عليهم أجمعين. وعلى عتبة القبة العالية لهذا الضريح كتب بخط جلى بالسليو واللازورد ما نصه:

(هذا مشهد الحسنية للسيدة نفيسة. بسم الله الرحمن الرحيم السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أهل البيت إنه حميد مجيد (وقوله عز من قائل): ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ [الأحزاب: ٣٣] (احتوى هذا المكان على جامع خطبة المسلمين ومشهد السيدة الحسنية البضعة النبوية ابنة السيد الحسن ابن آل زيد ابن السيد الحسن ابن الإمام أمير المؤمنين على بن أبى طالب صلوات الله عليهم أجمعين، مولدها سنة خمسة وأربعون ومائة وقدمت مصر سنة ثلاثة وأربعين بعد المائة وقد انتقلت إلى رحمة الله تعالى فى شهر رمضان المعظم سنة ثمان وثلاثين ومائتين فى أيام مولانا السلطان الملك المنصور أبى النصر عبد العزيز أعز الله أنصاره).

وعلاوة على هذا التاريخ ثمة تاريخ آخر كتب بخط جلى باللازورد على ألواح مقاصير الجامع وهو:

(أمر بإنشاء هذا المكان المبارك مولانا المتوكل على الله أبو العز عبد العزيز أعمر الله به بتاريخ شهر جمادى الأول سنة ست وثمانين ومائة).

والنزول إلى ضريحها الشريف من خلال سلم حجرى من ثلاث درجات، وباب ضريحها باب عال مطلى بالذهب ومزين بالجوهر، وتابوتها مغطى بغطاء من الحرير الأخضر المزركش، وعندما يدخل الزوار المسلمون هذا الضريح يجدونها مدفونة فى

تابوت مربع ذى زخارف يتوسط الضريح، وإذا ما وقعت عليه عين إنسان علت جسمه رعدة، وما اجترأ على النظر إليه فهى العرق الطاهر من سلالة النبى ﷺ.

وزوجها إسحاق بن جعفر الصادق وحول تابوتها مئات القطع من الأوانى والشمعدانات والمباخر والقناديل النفيسة المزدانة بكلمات الله؛ بالإضافة إلى ما لا يدخل تحت حصر من الثريات مما يجعل قبرها وكأنه متحف الصين، وهو مفروش بالبسط الحريرية النفيسة التى طالما كان يهديها ملوك السلف ووزراؤهم ووكلاؤهم تبركا، ويتلو القراء الختم الشريف مرة فى كل وقت من الأوقات الخمس. وداخل الضريح يفغم عبير العود والعنبر وجل زوارها من النساء يقدمن لها النذور فى كل مرة يأتين فيها إلى الضريح.

كما دفن مع السيدة نفيسة ولدان من أبنائها هما القاسم والطيب، ولقد قالت لهما وهى فى النزع الأخير: أتثنيان معى إلى الدار الآخرة؟ فقال الطفلان الصغيران: نعم يا أماه نأتى فقالت لهما: اذهبا وسلما أمانتكما وعندئذ فاضت روحهما وامتثلا إلى قوله تعالى ﴿ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ ﴾ [الفجر:٢٨]، والناس يزورونها ليل نهار ولا ينقطعون عن زيارتها قط، يقام مولدها مرة فى العام فى الليلة الثالثة من شهر ربيع الأول فيتوافد على ضريحها مئات الآلاف.

وثمة قبة أخرى على الجانب القبلى للضريح المنورة للسيدة نفيسة وهذه القبة هى مثوى لأبناء السيدة نفيسة الكرام وخلفاء السلف من بنى العباس وهم:

- سيد يحيى بن زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم أجمعين:

يقول القعقاعى عنه: إنه أخو السيدة نفيسة، وهو مدفون فى هذا الضريح، وقد كتب بخط جلى على جوانب تابوت من الرخام: (قبر أشراف الحجار سيد قاسم بن إبراهيم طباطبا بن إسماعيل واسمه إسماعيل الديباج بن الحسن بن الحسين بن على بن أبى طالب - رضى الله عنه -.

- قبر أبى محمد يحيى بن قاسم بن محمد العلى بن الحسن بن على بن أبى طالب:

قال الكِنْدِى: «قدم راس زيد بن على فى جمادى الآخر سنة اثنين وعشرين ومائتين».

ـ مشهد رأس إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على ـ كرم الله وجهه ـ:

دفن هذا الرأس تحت قبة عالية أمام محراب جامع «النبر» سنة خمس وأربعين ومائة، ويزوره الخواص والعوام ويحمل هذا المشهد تاريخا هو:

(أقام هذا البناء العلامة رضى الله عنه)

ـ مشهد رأس محمد بن أبى بكر رضى الله عنهما:

جاء فى رواية أن محمد الأكبر هذا ولى مصر فى خلافة عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ وبسبب ما كتبه «مروان الحمار» كاتب عثمان خلافا للأمر قتل محمد الأكبر فى مصر مما كان سببا فى مقتل عثمان رضى الله عنه. ومشهد محمد الأكبر هذا يقع فى رملة خارج الجانب الغربى للقاهرة وقد تخرب وعلى الرغم من أن الناس كافة يعلمونه إلا أنه لا يزار كثيراً، والتاريخ المكتوب على بابه هو: (بناء علامة العصر).

ـ مشهد السلطان الإمام زين العابدين ابن الإمام الحسين بن على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ:

يقع هذا المشهد على مقربة من مشهد محمد الأكبر وهو بناء عظيم كأنه القلعة شيده المستكفى بالله من بنى العباس على رملة، إنه بناء عظيم يضم غرفا للبوابين وحراس القبور ومشايخها. وفى غرة كل شهر يقام مولد عظيم فتغص أركان هذا الضريح بما يربو على الأربعين ألف من الناس. إنه قطب عظيم وهو مدفون فى قبر عال تناطح قبته الفلك. ويحيط بالضريح أعمدة من الرخام تحمل مبنى عظيما وإلى جانب الجهة القبلية للقبر الشريف زاوية ذات قبة عظيمة. وعلى أطراف الحرم مصاطب جانبية عليها أعمدة عالية من الرخام تحمل سقفا ذا زخارف. ويتوسط الحرم عدة نخلات وشجرة نبق عظيمة وعلى الجوانب الأربعة لباب الحرم حجر سماقى أخضر مصقول، ومصراع الباب من قطعة واحدة من السماقى الأخضر لا وجود لمثله فى بلد آخر. إنه باب عال من قطعة واحدة وعتبته عالية وله شهرة واسعة لدى رحالة العالم.

وباب الضريح هذا يطل على الجهة الشمالية وعلى عتبته العالية ألواح تحمل تاريخا نصه:

(بسم الله الرحمن الرحيم هذا مشهد الإمام على بن زين العابدين ابن الإمام الحسن ابن الإمام على بن أبى طالب بن عبد المطلب ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ سنة إحدى وعشرين ومائة بعد الهجرة النبوية).

وهذا التاريخ كذلك منقوش بخط كوفى على الرخام الأبيض للتابوت الشريف.

ومن عجب أنى فى عام ١٠٥٦ حينما وصلت إلى بغداد زرت(   )[1] زين العابدين وهو كذلك ضريح عظيم، وبعد ذلك فى عام ١٠٨٢ بلغت البقيع بالمدينة المنورة بعد أداء مناسك الحج وزرت الإمام زين العابدين بجوار سيدنا العباس ـ رضى الله عنه ـ والضريح المدفون فيه جثمانه الشريف حير ألبابنا وتلا كل منا سورة «يس» على روحه الشريفة، واستمد البركة من روحانيته تقبل الله دعاءنا آمين.

وفى مصر أم الدنيا آلاف من أرواح الأنبياء والأولياء وصحابة رسول الله ﷺ ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ إلا أننى سوف أذكرهم حسب زيارتى لأضرحتهم:

ـ مزار يشكر ـ رضى الله عنه ـ:

كان من أهل التقوى والصلاح وهو مدفون فى حرم جامع أحمد بن طولون فى جبل يشكر، وهو موضع عبادة ومزار عتيق.

ـ ضريح الشيخ العلامة الزاهد أبى محمد عبد الله بن وهب بن مسلم:

صاحب مالك بن أنس وضريحه يقع خارج باب الصفا فى الجهة اليمنى على بعد مائة قدم من الباب الجديد فى الجهة القبلية. إنه عالم عظيم من العلماء الأئمة أخذ العلم على مالك بن أنس وابن أبى ذؤيب وحيوة بن شريح والليث بن سعد ـ رضى الله عنهم أجمعين ـ.

(١) بياض بالأصل. لعله فى هذا الموضع توجد كلمة ضريح.

ـ ضريح القاضى بكار رضى الله عنه:

إنه ابن قتيبة بن أسد بن عبد الله بن بشير بن أبى بكر بن الحارث مولى رسول الله ﷺ ، ولى القضاء فى مصر وكان محدثا جليلاً دفن فى ( )[1].

ـ ضريح الشيخ جزعل:

وهو من العلماء المتبحرين.

ـ ضريح الشيخ آتى:

كان أهل تقوى وصلاح، محبوبا بين الناس، رحمة الله عليه.

ـ ضريح الخير بن نعيم بن مرة:

وكنيته أبو إسماعيل وكان من فضلاء المحدثين.

ـ ضريح فاطمة بنت عبد الحميد بن عمر بن حمزة:

توفيت رحمة الله عليها عام تسعة وسبعين ومائة.

ـ ضريح طباطبا أبى محمد عبد الله بن أحمد بن على بن الحسن بن إبراهيم بن الحسن بن على بن أبى طالب ـ رحمة الله عليه ـ، بالقرب من السيدة نفيسة وعلى مقربة منه قبر فرج وهو عبد الشريف طباطبا وقد توفى قبل طباطبا.

ـ قبر الأربعين:

وعلى حجر تابوته كتب بخط جلى : (يحيى بن بكير هو صاحب الموطأ).

ـ قبر نفالة عبد الرحمن:

من أبناء سيدنا عثمان ـ رضى الله عنه ـ فقد تزوج عثمان من أم كلثوم ابنة المصطفى ﷺ فولدت له نفالة هذا وهو مدفون بجانب السيدة نفيسة.

وقبر عبد الله بن رواحة وقبور أشراف مكة كلها فى ساحة جامع «الست» على مقربة من السيدة نفيسة.

---

(١) بياض بالأصل.

وقبر أبي الجيش على بن أحمد بن طولون ومولده سنة ثلاث وعشرين ومائتين واستشهد ـ رحمه الله ـ في جمادى الآخرة سنة ثلاث وثمانين ومائتين، وهو مدفون في قبر عال في رملة بجوار «محمد الأكبر» بن أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ.

وقبور الشريف الجارودي والبكري والمقرى، وهؤلاء كانوا من الوعاظ ذوي الشأن في موضع واحد. وعلى مقربة منهم قبر «صغير الكاتب» وهو مزار عظيم.

وقبر الشريفة فاطمة ابنة محمد بن عيسى بن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسين بن على بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ، وهو مزار لعوام الناس وخواصهم ولوقوعه على الطريق العام لا يخلو من الزوار قط ولا ينقطع النساء عن زيارته البتة.

والشيخ «الجامي» قدس سره مدفون في قبة في صحراء قايتباى، والشيخ «أبو بكر الأدفوى» وهو من أجلة العلماء وشيوخ القراء، وقبره على مقربة من مشهد الحسين، والشيخ الفقيه «أبو القاسم عبد الرحمن ابن الشيخ أبي بكر الأدفوى» من العلماء المحدثين، وكتب على قبره الشريف: (توفي الشيخ أبو القاسم عبد الرحمن في شهر ذي القعدة سنة سبع وعشرين وأربعمائة) وهو مدفون في طرف قبر أبيه وقبرهما معروف لدى الناس بقبر الجولانيين.

والشيخ الإمام أبو إسحاق بن إبراهيم بن سعيد الجبال الحافظ ـ رحمه الله ـ مدفون في سفح جبل المقطم، والشيخ أبو الحسن بن الرفا المصلى مدفون مع أبنائه على مقربة من الجامع العتيق وقبره يزار.

والسيد محمد بن إبراهيم بن محمد ابن الإمام بكر بن زين العابدين ابن الإمام الحسين، مدفون بالقرب من السيدة نفيسة.

وضريح السيدة «زينب بنت يحيى بن الحسن بن على بن أبي طالب» ضريح عال بالقرب من قنطرة السبوع على طريق مدينة بولاق غرب القاهرة، والكثرة الكاثرة من زوارها نساء وعلى باب جامعها تاريخ مرقوم وهو تاريخ وفاتها، إلا أنه كان شديد الارتفاع فتعذر على قراءته ولذلك لم أذكره.

أما المشهد المعروف «بالست آسيا» ابنة مزاحم بن الرضا بن سهسون بن خاقان وكيل ابن طولون أسفل قلعة صلاح الدين بالقاهرة وتزوره النساء وزيارتهن فى يوم الأربعاء حيث تجتمع فيه منهن حشود.

وبالقرب من مقام الست آسيا هذا قبر الشيخ أبى الحسن مالك بن سعد بن مالك الفاروقى قدس سره، وقبر ميمونة العابدة أخت رابعة فى العبادة مدفونان فى ظل جبل المقطم، وقبر أشهب صاحب مالك بن أنس بالقرب من السيدة «أمينة»، وضريح هند بنت عبد الرحمن بن عوف والزهرى وهو ضريح عظيم يقع على طريق الإمام الشافعى وأكثر من يزوره النساء.

وقبر الشيخ محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ـ الذى كان كاتب السلطان ـ على مقربة من بركة الحبش، وكانت وفاته عام ٢١٤، وأبو عبد الله محمد بن عبد الحكم ابن أعين كان قاضى مصر وتوفى عام ٢٦٨ ودفن فى سفح جبل الجوشى.

وضريح السيدة الزاهدة العابدة فاطمة بنت جعفر الصادق فى الجهة القبلية لقايتباى، و «بشرك بن سعد الجوهرى» جد أولاد الجوهرى ومحمد بن إسماعيل المقرى المعروف بالحداد صاحب القراء والمحدثين مدفونان فى القرافة الكبرى.

وقبر الشيخ أبى بكر الدقاق أحمد بن المنصور فى سفح جبل المقطم.

وقبر القاضى عبد الوهاب بن على بن نصر البغدادى المالكى وقبر الإمام أبى عمرو عثمان بن سعيد صاحب الرواية، تولى القضاء فى عهد عبد الحكم بن محمد الأنصارى و «توفى عام ١٩٧» وهذا ما كتب على تابوته فى القرافة الكبرى ـ ضريح كافور الإخشيدى المملوك الأسود الحبشى مولى الإخشيد فى القرافة الكبرى، وقبر الوزير أبى الفضل جعفر الفرات وزير كافور الإخشيدى فى مصر وأبوه المقتدر بالله، والشيخ أبو الحسن الوراق السالم من كل الشبهات بجوار قبر الإخشيدى.

وقبر الشيخ أبى الحسن على بن محمد بن سهيل الدينورى المتوفى عام ٣٣١ بالقرب من أبى الليث.

وقبر الشيخ الفقيه أبى عبد الله بن عبد الرحمن بن القاسم بن خالد رضى الله عنه المتوفى عام ١٩١ بالقرب من القاضى بكار.

«قبر أبى بكر الإصطبلى قدس سره، وصالح المبتلى المتوفى ام ٥٤٠»، ووزير مصر والشام «المتوفى عام ٥٩٦» مدفون فى ضريح عظيم على مقربة من ابن يامن وهذا ما كتب على أطراف تابوته الرخامى المربع: (ولم يأتِ وزير عظيم مثله فى عهود ملوك وسلاطين السلف).

وقبر الفقيه مجلى أبو المعالى لم يأت مؤرخ مثله منذ عهد إدريس ـ عليه السلام ـ، حتى إن «حمزة نامه» أحد المؤلفات التى جاد بها قلمه. وقبره الآن يزار، وإذا ما نسى إنسان شيئا مضى إلى قبره وأكل ما أكل فى يومه سبع حبات من العنب الأسود طيلة أيامه كان لـه عقل أرسطو وأصبح أبا الكلام. وقد توفى عام ٥٥١ ودفن بالقرب من الإمام الشافعى مع سيدى محمد البوصيرى صاحب قصيدة «البُرْدَة».

وقبر جُحَا وكان من حمقى العرب مثل «نصر الدين خوجة» وهو مدفون مع أبى المعالى فى مكان واحد. والشيخ غنايم الشامى وقد ذكرت كراماته الباهرة فى طبقات الشعراوى، وهو مدفون فى قرافة المجاورين.

وأحمد بن طولون المتوفى عام ٢٧١ مدفون فى مدينة الفسطاط وهى مصر القديمة إلى جانب عفان أبى سيدنا عثمان ـ رضى الله عنه ـ، وعلى أطراف تابوته تواريخ مكتوبة بخطوط مختلفة. والدعاء مستجاب عند قبره.

ومشهد زوجة سيدنا أبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ أم محمد الأكبر بن أبى بكر. واسمها «أسماء بنت عميس الخثعمية». كان قد تزوجها جعفر بن أبى طالب المعروف بجعفر الطيار فولدت له عبد الله وعونا ومحمدا، ثم تزوجها سيدنا أبو بكر الصديق بعد قتل جعفر الطيار فولدت له محمد بن أبى بكر، ثم تزوجها بعده سيدنا على بن أبى طالب (رضى الله عنه).

وعندما تزوجت أسماء من سيدنا على صار محمد ابنًا لزوجته. حتى إنه قد جاء فى أحد التواريخ أن محمد بن أبى بكر قاتل بجانب سيدنا على فى موقعة «صفين» أسفل قلعة «جعبر» على ضفة نهر الفرات.

ولما كان فى الجانب المقابل السيدة عائشة بنت الصديق وهى أخت محمد بن أبى بكر بذل كل وسعه فى إصلاح ذات البين ولكن عبثا ونشبت حرب ضروس.

ولا يخفى على إخوان الصفا وخلان الوفا أن الجوانب الأربعة لمصر القاهرة أى الفسطاط وهى مصر القديمة، ومدينة بولاق وما يقرب من الإمام الشافعى ومصيف قايتباى فيها اثنتا عشرة قرافة دفن فى وادى سكونها مئات الألوف من أبناء الأنبياء، وربما الأنبياء وكبار الأولياء والأئمة والصحابة الكرام وملوك السلف.

إلا أنه بتعاقب الأيام منذ هبوط آدم ـ عليه السلام ـ ومنذ طوفان نوح ـ عليه السلام ـ وهو آدم الثانى تعرضت أم الدنيا للعديد من الحوادث فأصبحت حينا عروسا فى شرخ شبابها وفى حين آخر أصبحت خرابا يبابا، وكم من مقابر للأنبياء ومشاهد لأولياء انهدمت وانمحت آثارها.

إلا أنه منذ دخولها فى حوزة الإسلام أصبحت عروسا من جديد وعمرت. ولقد مسحت وجهى على أعتاب تلك الأضرحة وكنت أقرأ على أرواح أبناء الأنبياء وكبار الأولياء الطاهرة سورة يس أو الفاتحة على الأقل، وقد وقعت الهيبة والخشوع فى نفسى عند زيارتها. وقد قرأت كلام الله العزيز الذى تمس إليه حاجة أرواح جميع الموتى واستمددت العون والروحانية منهم، وما زرته من تلك الأضرحة أذكره قدس الله سرهم ونفعنا بسرهم.

وفى الساعة التى دخلت فيها مصر عائدا من الحج للمرة الأولى خرجت من قصر القاهرة وتقدمت جنوبا سيرا على الأقدام وسط المقابر ألفى قدم فى طريق رملى وفى منتصف قصبة واجهت:

مشهد شيخ الشيوخ، الإمام الهمام، العالم العلامة، منهاج السالكين ومطلوب الطالبين الإمام الشافعى ـ رحمه الله ـ.

حمدت الله أنى مسحت وجهى على عتبته ودخلت ضريحه وختمت القرآن الذى كنت قد نذرته ووهبت ثواب ذلك لروحه الشريفة، وتصدقت على الفقراء وسألت الله القبول.

والإمام الشافعى ـ رضى الله عنه ـ مدفون فى قبر ترتفع قبته إلى عنان السماء وهى قبة حجرية زرقاء الداخل، وداخلها مكسو بصنوف من الأحجار القيمة. وهى مزدانة من الداخل كذلك بالعديد من الثريات والقناديل النفيسة، وقد كتب فيها بخطه كثير من الرحالة الصوفية، وقد كتبت أنا على لوح مذهب الفاتحة. وهذه القبة مزينة إلى ذروتها بشتى التحف والبللور والزجاج الفاخر.

وفى الجهة القبلية من هذا الضريح محراب بديع الصنع مذهب ومزدان بالصدف وكأنه السحر الحلال ومفروش بالبسط الحريرية.

وهذه القبة المالية مكسوة بالرصاص. إلا أنه لا يشبه رصاصنا التركى الذى يبلغ طول اللوح منه ثلاثة أذرع. إنها رقائق من الرصاص يضرب لونها إلى الصفرة، ويقال إن بها ذهبا. وعلم هذه القبة من النحاس الأخضر، ويعلو هذا العلم قارب من النحاس الأخضر ويملأ خدام الضريح هذا القارب على الدوام بالقمح والشعير، وتحط الطيور لالتقاط الحب وفى الجوانب الأربعة للقبة شبابيك من النحاس. وقد دفن خارج الضريح مئات الآلاف من العلماء والصلحاء والأئمة والخطباء ومشايخ السادات والوزراء والوكلاء وكبار الأعيان، ولا يعرف عددهم إلا علام الغيوب.

وبما أنها مقبرة عظيمة من أولها إلى آخرها يوصى كل شخص بأن يدفن فيها وبنى له ضريحا هناك.

والإمام الشافعى مدفون فى تابوت فى الجهة الشمالية لنوافذ الضريح، وهذا التابوت مغطى بحرير مزركش أخضر، وأركانه الأربعة مزينة بكرات من الفضة الخالصة.

ويحيط بالتابوت سياج من خشب «الصبا» وذلك لمنع العوام من تقبيل تابوته وما يترتب على ذلك من تأذى روحه.

وعند قدم هذا التابوت وعند رأسه شمعدانات ذهبية فى طول قامة الإنسان، وفى كل منها شمع كافورى. وزين التابوت بأعلام مختلفة الألوان، وعند رأسه الشريف عمود اسطوانى الشكل من الرخام الأبيض، طوله طول قامتى إنسان. كتب على هذا العمود بخط الثلث المذهب على خلفية لازوردية ما نصه:

(بسم الله الرحمن الرحيم). ﴿وأَن لَّيْسَ لِلإنسَانِ إلاَّ مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَىٰ﴾ .[النجم: ٣٩، ٤١] هذا قبر السيد الإمام أبى عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد زيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف جد النبى ﷺ . ولد - رضى الله عنه - فى سنة خمسين ومائة وهى السنة التى مات فيها أبو حنفية وتوفى سنة أربع ومائتين).

ومدة عمره أربع وخمسون سنة، وكان فى كل يوم من أيام حياته يؤلف كتابا.

ولد فى مدينة غزة وظل فى رحم والدته أعوامًا ثلاثة. ولما انتقل النعمان بن ثابت وهو الإمام الأعظم من دار الفناء إلى دار البقاء لم يكن قد ولد الإمام الشافعى وظل فى رحم أمه ثلاثة أعوام وفى الساعة التى حضرت فيها الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان الوفاة ولد الإمام الشافعى. ولما بلغ السابعة تلقى العلم على يد الإمام محمد والإمام مالك - رضى الله عنهما - وجلس منهما مجلس التلميذ.

والآن عند قدمه الشريفة دفن اثنان من زملائه من تلامذة الإمام محمد ولهما روحانية عجيبة واسمهما الشيخ محمد والشيخ سيد عبد العزيز.

وفى الجهة الغربية من هذا الضريح كذلك دفن السلطان محمد الكردى مشيد هذا الضريح والإمام الشافعى كانت بينه وبين هارون الرشيد من بنى العباس صحبة وصدرت له الكثير من المؤلفات فى بغداد.

ووالدته السيدة شمسة ملكة مدفونة فى هذا الضريح كذلك. وعلى باب الضريح ثمانون خادمًا لإرشاد من يقدمون للزيارة. وعلى عقد عتبة الضريح العالية كتبت آية من آيات الذكر الحكيم من سورة الحجر على لوح من خشب الجوز الأسود وهى:

(بسم الله الرحمن الرحيم) ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ آمِنِينَ * وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ...﴾ إلى آخر الآية [الحجر: ٤٦ - ٤٧].

وخارج باب الضريح العالى أضرحة لا يعرف عددها إلا الله - تعالى - إلا أن الأضرحة التى زرتها هى ضريح الشيخ أبى الحسن البكرى وضريح شيخ الإسلام زكريا الأنصارى وضريح الشيخ نجم الدين حب الشالى العجمى، وضريح الشيخ فرحان

الحسنى، والشيخ إسماعيل المؤذن وهو زميل الشافعى، والشيخ شيبان الراعى قدس سره العزيز.

وقد زرت أكثر من هؤلاء إلا أننى لم أذكرهم لعدم علمى بأسمائهم.

والإمام الشافعى حى مستقل يسكنه ٢٠٠٠ نسمة، وبه ٦٠٠ منزل متصل. ومن نافذة كل منزل تتدلى مئات الزنابيل الصغيرة. وإذا مر بعض الزوار حركت نساء المنزل وصبيانه تلك الزنابيل المدلاة طلبا للصدقة فيضع رجل الخير فى الزنابيل باره أو منقر أو رغيفا فتجذب هذه الزنابيل إلى المنزل ويرفع الدعاء للمتصدق. وتلك عادة معهودة.

وفى الطريق العام كذلك يتصدق على الفقراء والمعدمين.

وفى قصبة الإمام الشافعى جامع لأحد سلاطين السلف ومدرسة وحوض وساقية و ٧ تكايا وعدة قاعات ومبرتان و ٧ زوايا و ١٠ دكاكين. وهذه الخيرات والحسنات معظمها للسلطان محمد أكراد والملك الكامل.

وعلى مسافة ساعة فى آخر قرية البساتين على بركة الحبش المتفرعة من النيل أقام ساقية كأنها البرج تجلب الماء إلى حى الإمام الشافعى بأقواس كأنها قوس قزح فما أعظم ما صنع من خير.

وفى كل ليلة سبت يتوجه كل من فى مصر القاهرة من أهل التقوى والصلاح إلى الإمام الشافعى زرافات زرافات قارعين الدفوف، ذاكرين اسم الله ـ تعالى ـ، حاملين آلاف القناديل والفوانيس والمشاعل، منشدين قصائد النفس والقصيدة التائية ونعت الإمام الشافعى وحتى مطلع الفجر يتقاطر على الإمام الشافعى خضم من البشر. ومنهم من لم يتخلفوا عن زيارة الإمام الشافعى منذ أكثر من سبعين عامًا، وهم أناس مستجابة دعواتهم. وفى داخل الضريح المفعم بالأنوار لكل منهم مقر معلوم، يقيم فيه للعبادة وقراءة المولد الشريف. ويتجمع فى هذه الليلة عدة آلاف من العميان حافظى كلام الله ويقرءون الختم الشريف ستمائة مرة وربما ألف مرة. فما فى مصر من حافظى كلام الله لا وجود لمثلهم فى غيرها. وهذا ما يجرى مجرى العادة منذ قديم فى كل ليلة سبت وله الدوام إلى ما شاء الله.

وفى العام يقام مولد عظيم لمرة واحدة ويحتشد مئات الآلاف فى مقابر الإمام الشافعى ورملته ومبراته وتزدان جميع المنائر والقباب والكوات بالقناديل ويدوم احتشادهم يومين وليلتين.

وخارج نوافذ ضريح الإمام الشافعى المطلة على الناحية الغربية دفن الشيخ البكرى رضى الله عنه، أجداده وسبعون من الأقطاب سوف نتحدث عنه فى موضعه ـ رحمة الله عليهم أجمعين ـ.

وعلى مسافة قدرها مائتا قدم جنوب ضريح الإمام الشافعى:

ضريح الشيخ الفقيه، الإمام الزاهد، سيدى الإمام الليث بن سعد بن عبد الرحمن أبى الحارث ـ رضى الله عنه ـ.

كان شيخ إسلام الديار المصرية ومفتى الثقلين، وهذا القطب العظيم مدفون كذلك فى ضريح ذى قبة شاهقة العلو فى القرافة الكبرى، وهناك جامع ومدرسة وتكية وأسبلة ومبرة وزاوية وما يقرب من ٢٠٠ منزل للفقراء وسكانها يطلبون الصدقة بالزنابيل.

وهناك كذلك أضرحة للعلماء، وضريح الإمام الليث لا يبلغ مبلغ ضريح الإمام الشافعى فى اتساعه ورحابة أرجائه إذ إنه لا يتسع إلا لخمسمائة شخص. ويتوسطه تابوت مربع مغطى بالجوخ الأخضر وهو مدفون فيه. والضريح مزين ببعض القناديل والثريات وفيه يجتمع جميع فقهاء القاهرة وعلماؤها لتلاوة القرآن الكريم ولا يأتى غيرهم.

وعلى ضريحه تاريخ مسطور هو : (أمر بإنشاء هذا المرقد المبارك الشريف بفضل الله تعالى سيدنا ومولانا الدنيا والدين السلطان الملك قنصوه الغورى فى سنة عشرين وستمائة).

وعلى الجانب الأيسر من باب الضريح المعلى لوح من الرخام الأبيض طوله طول قامة إنسان كتبت عليه آية من آيات الذكر الحكيم هى: (بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ ﴾ [التوبة: ٢١]، كما كتبت تحت هذه الآية سورة الإخلاص وأسفلها سطر تاريخ هو: (اثنان وسبعون وسبعمائة).

ولقد زرت هذا القطب وتلوت سورة «يس» ابتغاء مرضاة الله ووهبت مثوبتها روحه ورجوت منه الشفاعة وليتقبل الله.

وإلى جوار الإمام الليث قبر داود باشا وهو من وزراء السلطان سليمان، وتاريخه عام ٩٥٦ وفى الجانب الشرقى لهذا الضريح، على بعد ألف قدم، فى منتصف الطريق إلى جبل المقطم، فوق أكمة عالية مرقد القطب الزاهد، صاحب الكرامات، غياث الواصلين، مطلوب الطالبين الشيخ شاهين رضى اله عنه، وكأنه شاهين قنع بصيده، واستقر فى رأس جبل قاف، وضريحه لا يخلو من الزائرين يصيد قلوبهم بالعشق، وأضرحة كل المدفونين فى القرافة الكبرى تبدو وكأنها تحت منقار هذا الشاهين. إنه ضريح طيب النسيم، وله جامع وتكية يسكنها المتصوفة ومبرة وسبيل وهو مدفون فى الجهة اليمنى من جامعه مع أولاده العظام وخلفائه الكرام وأكبر أبنائه الشيخ محمد العنقاء مدفون فى الجانب الأيمن، أما أصغر أبنائه الشيخ عبد الله العقاب فمدفون فى الجانب الأيسر وألقاب خلفائهم كذلك مشتقة من أسماء الطيور ، إنهم متصوفة معتكفون فى ركن العزلة يسمون الطريقة الشاهينية. وجميع نفقاتهم من فضله فلا تجرى عليهم مرتبات من جهة، وهم متوكلون على الله، والله يبسط الرزق لهم وفى التنزيل العزيز: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، وقد وردت هذه الآية الكريمة فى شأن المتوكلين عليه ـ سبحانه وتعالى ـ.

ضريح الشيخ إدريس بن العباس والد الإمام الشافعى ـ رحمه الله ـ:

إنه ضريح صغير فى مصر القاهرة بالقرب من بيت المولوية. وقد رأيت فى أحد التواريخ أن الشيخ إدريس بن العباس مدفون فى غزة لأن الإمام الشافعى ولد فيها ولما توفى والده ـ الشيخ إدريس ـ ارتحلت والدته إلى بغداد ثم إلى المدينة، وهناك تلقى الشافعى العلم على يد الإمام محمد والإمام مالك. وقد أكد مؤرخو مصر بالتواتر أن وفاته كانت فى مصر ولقد زرته ـ رحمة الله عليه ـ.

وفى طريق القصر العينى داخل باب جمال الدين ضريح الشيخ عبد الله العراقى وهو ضريح صغير، وبالقرب من درب الكنيسة ضريح الشيخ أبى بكر معرف القوم وهو مزار عظيم.

وفى الطريق بين جامع الخاتونية والسيدة نفيسة مشهد قبر الطويل وهو مقام لا قبة له ولا تكية، وجوانبه الأربعة فى الطريق العام، ولأنه قبر طويل يصل طوله إلى عشرين قدما سمى بالقبر الطويل، وجاء فى إحدى الروايات أن أربعين من الصحابة الكرام مدفونون فيه لذلك سمى عند البعض بضريح الأربعين.

وعلى مقربة منه قبر الشيخ أبى بكر السليمانى، وعلى مقربة منه مرقد الوزير سلطان ناصر الدين. أدرك هذا الوزير عهد السلطان سليم، وكان عمره مائتا عام، ودخل فى طاعته مع خيره بك، وقد سعى السلطان سليم فى جنازته ودفن بالقرب من القبر الطويل.

مقام سيدنا موسى - عليه السلام -

داخل القاهرة، على مقربة من باب الناصر بجوار جامع جمال الدين، يقع هذا الضريح على الطريق العام، ويهبط إليه بسلم من ست درجات، إنه زاوية ذات ثلاث قباب ومحراب وضريح، وهو موضع يستجاب فيه الدعاء.

وعلى مقربة من قنطرة الدكة شمال بركة الأوزبكية ضريح الشيخ حسن الشاذلى، وهو صاحب «حزب البحر» وهو مدفون فى جامعه. ويقرأ «حزب البحر» لمعظم المصابين بالصرع طيلة أربعين يوما فيتم شفاؤهم بمشيئة الله. وشهرته طبقت الآفاق وتوفى عام ٦٥٦ رحمه الله. وبالقرب منه قبر الشيخ ساكنية وهو مدفون كذلك فى جامعه.

ضريح الشيخ مرزوق كفافى

يقع بالقرب من قصر قاضى العسكر، إنه قطب عظيم على الطريقة الأحمدية. التقى بالسلطان سليم عند فتح مصر، وقد شاد جرجلى على بك جامعا وقبة فوق ضريحه، ولأنه عاصر أبا السعود الجارحى وهما اللذان قالا للسلطان سليم «تعال إلى مصر».

إنه قطب عظيم له كثير الأتباع من المتصوفة، وهم يسمون الطريقة الكفافية، وينسبون إلى الطريقة الأحمدية. وضريحه يزوره الناس خواصهم وعوامهم. وقد دفن معه ثلاثة من خلفائه، وفى الجوانب الأربعة لقبته عدة مئات من الحراب المذهبة والقلانس والطبول والأبواق والشارات.

وبالقرب مـن قنطرة الليمـون ضريح الشيخ محمـد العنانى، وعلى مـقربة من درب الجماميز قبر الشيخ صفى قدس سره. إنه قطب عظيم وأتباعه من المتصوفة لا يحصون كثرة، ويوزع من قبره الأطعمة على الغادى والرائح، وهو مدفون كذلك فى جامعه وفى حرم تكيته شجرة نبق عظيمة.

مزار الشيخ الشعراوى

يوجد بالقـرب من باب الشعرية، وهـو من الأقطاب، ومدفون فى جامعه، ومناقبه لا تقع تحـت حصر، ومؤلـفاته تربـو على ألف مـجلد ومنـزلتها لا تـسامى فى عـلم التصوف. وكتاباه «طبقات الشعراوى» و «ميزان الشعراوى» زينة الدنيا.

وضريحه يزوره العوام والخواص.

مزار السلطان أيبك التركمانى

يوجد فى حى الخلالين بالقرب من سوق الغنم، وهو على الطريق العام، ولا قبة له إلا أن ـ جوانبه الأربعة محاطة بجدران من الرخام الأبيض. وعلى الرخام كتابات بنمط من الخط الكوفى يعجز علماء فاس ومراكش عن قراءتها، وهو خط بديع الزينة.

والسـلطان أيبك هـو زوج شجرة الدر التى أوقفت الكسوة السوداء الحريـرية للكعبة، وكان لها الملـك فترة من الزمن، وكانت ملكـة عظيمة الشأن. واقتضت حـكمة الله أن يكون الملك لأيبك عـلى أثر تفشى الثورة. واتفق ذات يوم أن نقـمت شجرة الدر على أيبك، وبـينما كان أيبـك يغتسل فى الحـمام انتهزت شـجرة الدر هذه الفرصـة فأمرت جواريها بـأن يعملن السيف فـيه فى غفلة منه وقد أثخنته الجراح فى عـدة مواضع من جسمه ولما كانت شجرة الدر سفـاحة تحب رؤية الدماء كـانت تسترق النظـر إليه وهو يضرب بالسيوف من ثقب زجاجى فى أعلى قـبة الحمام، بيد أن أيبك التـركمانى كان شجاعا فـجذب السيف من يـد إحدى الجوارى وكان عارى الجسـم تماما، وما أن رأت شجرة الدر أيبك يثخن القتل فى جواريهـا وينجو بادرت بالفرار بكل ما أوتيت من قوة من فوق قبة الحمـام فهوت بها لفرط بدانتهـا وسقطت أمام أيبك التركمـانى مدرجة فى دمائها وسـرعان ما قتلها أيبـك وهو يصب عليها الـلعنات. ومات أيبك كذلـك متأثرا

بجراحه، وهو مدفون فى هذا المكان ودفنت شجرة الدر مع من قتل أيبك من جواريها داخل الجامع الذى فى ذلك المكان.

إلا أن قبر شجرة الدر معمور وله كثير من الأوقاف، فقد كانت شجرة الدر امرأة تتقلب فى أعطاف النعيم، ولم يحظ أى سلطان من سلاطين السلف بكسوة الكعبة الشريفة بالحرير الأسود، ولكن هذا تيسر لشجرة الدر، وخصص فى كل عام مائة وسبعون كيسا من أوقافها للإنفاق على هذه الكسوة التى ترسل إلى مكة المكرمة. وهذه الكسوة ينسجها ثلاثمائة نساج من الحرير والذهب فى جوسق يوسف وهى جديرة بالمشاهدة.

ومزار القاضى (   )[1] فى القرافة الصغرى، وهو قطب عظيم.

قبر المستنصر بالله

أول من كان له الملك فى مصر من خلفاء بنى العباس. لقد استشهد آل عباس عن آخرهم على يد هولاكو التترى وأعمل السيف فى أهل بغداد جميعًا وعندما سوى أبنية بغداد بالأرض هدما وجعلها خرابا يبابا كان المستنصر بالله فى بادية العرب فكتبت له النجاة، ولما أفضت الخلافة فى مصر إلى الظاهر بيبرس دعا المستنصر بالله إلى مصر وفى عام ٦٥٩ كانت الخطبة والسكة باسمه، ثم رد مصر إلى الظاهر بيبرس وتوجه بيبرس إلى دمشق فى معية الخليفة المستنصر، ومضى الخليفة منها إلى بغداد حاضرة أسلافه واستقل الظاهر بيبرس بمصر ودمشق وحلب، إلا أن السكة والخطبة كانت باسم خلفاء بنى العباس. ولما بلغ المستنصر بغداد تنفس العباسيون الصعداء، وقدم المتوكل على الله إلى مصر، وهو الخليفة العباسى السابع عشر، وسكن القصر الذى بنى للمستنصر فى قلعة الكبش، فكانت الخطبة والسكه باسمه، إلا أن مقاليد الحكم كانت فى يد الظاهر بيبرس، ثم توفى المتوكل عام ٦٦٦ وهو مدفون فى ضريح ذى قبة أمام قبة السيدة نفيسة.

---

(١) بياض بالأصل.

مشهد الحاكم بأمر الله

كان فى طور الطفولة فى البادية على عـهد هولاكو، وفر إلى مصر، وظل فى قلعة الكبش فى مصر خليفة طوال إحدى وأربعين سنة، واشتهر بالسفه فى سلوكه، حتى إنه أنشأ مرصدا فوق الصخرة التى أمام قدم النبى لـيجعل الليل نهاراً والنهار ليلا فإذا خرج أحد فى وضح النهار من داره قتله، فكان النـاس ينامون نهاراً على أن نهارهم ليل وإذا ما حل المساء ازدانت القاهرة بالمصابيح واشتغل الناس بالبيع والشراء وكأنه النهار.

ولقد أمهله الله إحدى وأربعين سنة على هذه الأحوال الغريبة والأطوار العجيبة وفى آخر الأمر قتلته أختـه فى إحدى القرى ودفنوه إلى جوار السيدة نفيســة، واستقر جثمانه هناك إلى يومنا هذا.

وقد أقام الحاكم بأمر الله الجامع الكبير الموجود فى باب الناصر، وملأ الجامع الأزهر بروث الخيل ودعا الناس إلى جامعه وعين لكل منهم رغيفًا وصحنا من الحساء، إلا أنهم صدوا عن جامعه، وتـابعوا دروسهم وصلاتهم وسط الروث الذى كـان موجود بالجامع الأزهر، إلى أن أهلكه الله فطهروا الجامع الأزهر وهو إلى يومنا هذا يغص بطلبة العلم، ولا يؤم جامـع الحاكم الآن إلا قلة من الـناس، لأنه بنى ظـلما ولا تطيب الـصلاة لمن يصلون فيه.

قبر الحاكم بأمر الله أحمد بن المستكفى بالله سليمان

استوى على عرش الخـلافة عام ١٢ وأدركته الوفاة فى عهد الملك الـصالح ابن الملك الناصر بالطاعون عام ٧٥٣ ودفن كذلك بجوار السيدة نفيسة.

مشهد المقتصد بالله بالقرب من السيدة نفيسة

مشهد المتوكل على الله محمد بن المقتصد بالله أبو بكر

تولى الخلافة عام ٧٨٥. آلت الخلافة إلى السلطان برقوق الشركسى وطالب بالسلطنة لذا خلـع المتوكل وحـبسه فى قلـعة الجبل، وبـعد ست سنوات أطـلق سراحه وجـعله خليفة.

وفى عام ٧٩٧ كانت الخلافة لبايزيد فى بلاد الروم (الأناضول) فأرسل رسولا إلى المتوكل تبركا وتيمنا واستأذن منه فى تجديد البيعة، وأرسل المتوكل كذلك إلى السلطان بايزيد يلدريم سجادة ومصحفا وجوادا وشاة ومرسوما. وعندما توثقت الصلة بين المتوكل وبايزيد يلدريم خان استقل الأخير ملكا، وأغار كالصاعقة على بلاد الكفر، وقرأت الخطبة باسمه فى سبعمائة مكان.

ومن ناحية أخرى دام حبس المتوكل على الله وعزله وعودته إلى الخلافة خمسا وأربعين سنة، ثم توفى فى عهد السلطان فرج بن برقوق ودفن كذلك بجوار السيدة نفيسة ـ رحمها الله ـ.

والواثق بأمر الله عمر بن إبراهيم بن المستمسك بالله بن الحاكم بأمر الله دفن فى قبر عظيم بالقرب من السيدة نفيسة عام ٧٨٨.

مشهد المقتصد بالله داود بن المتوكل على الله محمد

أتته الخلافة عام ٣٢، حمل على دمشق مع السلطان جقماق وفتحها، وعندما عاد إلى مصر منصورا مظفرا توفى المقتصد بالله عام ٨٤٥ ، وسعى حقماق فى جنازته حاملاً جثمانه على كتفيه حتى السيدة نفيسة وهو يبكى أحر بكاء، ودفنوه فى ضريح الخلفاء أمام السيدة نفيسة لأن هذا الضريح كان المثوى المبارك لخلفاء بنى العباس العظام، وفى ذلك المقام الشريف دفن مئات من ملوك السلف وآلاف من الأمراء أمحت آثارهم فيه.

مشهد المستكفى بالله سليمان بن المتوكل على الله محمود

آلت إليه الخلافة بعد أخيه المقتصد، ولم يمهله الموت إلا تسعة أشهر وسعى الملك الظاهر جقماق فى جنازته ودفن إلى جوار أخيه المقتصد بالله بالقرب من السيدة نفيسة.

مشهد المستنجد بالله يوسف بن المتوكل على الله محمد

دامت له الخلافة خمسة وعشرون عاما وتوفى عام ٨٨٤ وسعى فى جنازته السلطان قايتباى ودفن كذلك فى السيدة نفيسة، وعندما فتح السلطان محمد اسطنبول بلغه نعى

المستنجد باللـه فأخذه شديد الأسى وأرسل برهان الدين المغولى خـليفة آق شمس الدين ومعه سترا مزركشا من مال الغزو وبه ستر تابوته الشريف وهو مستور إلى يومنا هذا به. إنه ستر بديع الصنع منقطع الشبيه.

مشهد المتوكل على الله عبد العزيز بن يعقوب بن المتوكل على الله

آلت إليه الخلافة عام ٨٨٤، وبقى فيها تسـعة عشر عامًا، وفى عام ٩٠٣ على عهد السلطان قايتباى توفى السلطان الناصر محمد[١] والمتوكل فى اليوم نفسه ودفنوا المتوكل بجوار السيدة نفيسة، أما السلطان محمد فدفنوه فى مصر العتيقة.

إلا أن المتوكل هذا كان خليفة بلغ من الكبر عـتيا حتى إنه أدرك عهد السلطان سليم فاتح مصر وطابت صحبته وانعقدت بينهـما أواصر الألفة واصطحبه إلى اسطنبول ونزل المتوكل ضيفـا على قصر بيرى باشا، وقضى الـله بأن يموت السلطان سلـيم، فانعقدت بينه وبين سليمان مودة وألفة.

نمى إلى المتوكل نعى أبيه من مصر فأذن له سليمان بأن يكون خليفة فى مصر، وقبل يده أمام الشيـخ أبى السعود، وعين بلاق مصطـفى باشا قائد أسطول عظـيم، فقدم مع المتوكـل من اسطنـبول إلى الإسكنـدرية وألقت الـسفينـة مرساتها بـعد سبعـة أيام فى الإسكندرية ودخل القاهرة بعد ذلك بيومين واستقبله داود باشا والى مصر ومضى به إلى قلعة الكبش فى مـوكب عظيم حيث عرش أسلافه واستوى المتوكـل على سرير الخلافة ودامت خلافته ثلاثـة وعشرين عاما وأدركته الوفاة عام ٩٠٥ فـى عهد داود باشا ودفن بجوار السيدة نفيسة.

وبوفاة المتوكـل هذا انقرض من كانوا بمثابـة خلفاء بنى العباس فـى مصر، وعددهم سبعة عشر خليفة ودامت خلافتهم (   )[٢] سنة.

إلا أن خلفـاء مصر من بنى الـعباس كانوا فـى منزلة شيـخ الشيوخ وكانت الخـطبة والسكة باسمهـم إلا أن أزمـة الحكـم كانت فـى يـد سلاطيـن الجراكسة وكانوا يدبرون

(١) مات مقتولاً فى ١٥ ربيع الأول سنة ٩٠٤هـ، والله أعلم.

(٢) بياض فى الأصل.

كل الأمور أما هؤلاء العباسيون فكان لهم القول دون العمل وكانوا يبايعونهم ولهم منزلة رفيعة.

ومشهد المستمسك بالله كذلك بالقرب من السيدة نفيسة

مراقد سلاطين مصر بداية من صلاح الدين يوسف بن شاد الكردى من آل أيوب سبعة سلاطين، وفى عام ٥٧٢ عندما كان صلاح الدين يوسف وزيرا لنور الدين الشهيد فى دمشق استقل بملك مصر، وأوجس خيفة من نور الدين الشهيد فبنى قلعة مصر الداخلية والخارجية وأحاط القاهرة بسور يبلغ طوله تسعة وعشرين ألفا وثلاثمائة ذراع، وأقام بالقرب من الإمام الشافعى مدرسة.

وفى عام ٥٧٥ دارت رحى الحرب بينه وبين الصليبيين فى مرج العيون وألحق الهزيمة بالفرنجة. وفى عام ٥٨٩ دفن بالقرب من جامعه فى القاهرة.

يقول البعض إنه دفن فى دمشق وهذا مجاف للحقيقة وتاريخه مطبوع فى ذاكرتى.

مشهد الملك الكامل

دفن بجوار دار الحديث بمدينة القاهرة، وله كثير من المؤسسات الخيرية فى الإمام الشافعى.

مشهد الملك الأشرف خليل بن قلاوون

ضرب الحصار على عكا أربعة وأربعين يوما وانتزعها من يد الأسبان، وبعد انتصاره قفل راجعا إلى مصر وكانت وفاته فيها، وهو مدفون فى ضريح ذى قبة فى ساحة جامعه.

ومشهد الملك العزيز عثمان ابن الملك الناصر صلاح الدين يوسف فى سقف جامعه، أما أخوه الملك الأفضل فكانت له الخلافة (الملك) قبل الملك العزيز إلا أنه خلع لخيبته ودناءته ونُفى إلى دمياط، وفيها كانت وفاته، وحملوا جثمانه إلى القاهرة حيث دفن إلى جوار أخيه الملك العزيز عثمان.

قبر الأشرف الأيوبى

سماه المصريون العبد الدمشقى، ولأنه كان كَسلا جهولا كثر من يناشبونه العداء من كل جهة، وفى عهده تنازل عن القدس للأسبان والفرنجة صلحا. وفى عام ٩٣٥ توفى فى دمشق وهو فى الستين من عمره وحمل جثمانه إلى مصر ليدفن فى جامعه.

مشهد الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل محمد

أدركته الوفاة فى مدينة المنصورة وهو مدفون فى ساحة جامعه بالقاهرة. وقد أقام مدارس للمذاهب الأربعة فى «بين القصر»، كما أقام قلعة جزيرة الروضة إلا أن فيضان النيل خربها، إلا أن آثار أبراجها ما زالت ماثلة للعيان فى ناحية أم القياس فى الجهة المطلة على الجيزة.

مشهد الملك المعظم طوران شاه ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب

وطوران شاه هذا كان أميرا للجيش فى حصن كيفا عندما توفى والده نجم الدين أيوب فى مدينة المنصورة، وكان طوران شاه فى حرب مع العجم. وطوران شاه ابن شجرة الدر زوجة نجم الدين أيوب، وبعد أن توفى نجم الدين كتمت شجرة الدر خبر وفاته عن الناس بحسن تدبيرها وسداد رأيها، وأبلغت نعيه ابنها الملك المعظم طورانشاه سرًا، فقدم مصر على عجل وبلغ القاهرة فى أربعين يومًا، وعندئذ أميط اللثام عن وفاة والده وبايع جميع الأعيان الملك المعظم، واستقل بملك مصر، وعندئذ سرعان ما استولى الصليبيون على مدينة دمياط.

وفى عام ٦٤٨ أباد طوران شاه الفرنجة عن آخرهم وفتح دمياط ثم عاد إلى القاهرة وشق مماليكه عصا الطاعة وقتلوه فى قصره.

دامت سلطنة طوران شاه سبعين يوما ودفن بجوار أبيه فى القاهرة ودالت به دولة الأيوبيين وأفضى الملك إلى أمه شجرة الدر، ودام حكمها سبعين يوما كذلك، ثم أفضت الخلافة إلى زوجها أيبك التركمانى وقد ذكرنا وقائعهما آنفا.

ثم آل ملك مصر إلى مماليك نجم الدين أيوب وعصره بداية عهد المماليك.

وفى الطريق بين دمشق ومكة المكرمة بـركة الملك المعظم طوران شاه وهى من خيراته ولا نظير لها فى طريق عام. حقا إنه ملك خير معظم.

والملك أسد الديـن شيركوه شاد الكـردى دفن بجوار جامـع الأشرفية فى مـصيف قايتباى، **والسلطان المؤيد من عند الله** مدفون فى ساحة جامعه بالباب الحديد.

وفى الباب الحديد الأضرحة الأربعون وهى أسفل جامع السلطان المؤيد، إنها أضرحة عظيمة خلف الباب الحديدى، وهى الآن مقام شريف لا يخلو من المتصوفة.

وعلى مـقربة من جـامع المؤيد ضـريح الملك المظـفر أبى السـعادة خامس سـلاطين الجراكـة وكان ملكا عادلا.

وفى القرافة المـنحوتة ضريح الملك الظـاهر أبى الفتح التترى، وهـو سادس سلاطين الجراكـة ووفاته كانت عام ٨٢٤، وعلى عتبة ضريحه العالية تاريخ تعلوه عبارة: (فاتح حلب الشهباء) والملكَ العزيز ابن الملـك الأشرف، وكذلك الملك جمال الدين، مدفونان إلى جوار المـلك الأشرف فى جامع الأشـرفية. والملك الـعزيز عماد الدولـة بن صلاح الدين يوسـف مدفون بجوار الإمام الـشافعى. والملك مـعز الدين من ممالـيك آل أيوب مدفون فوق سد على طريق مصيف قايتباى وفاته كانت عام ٣٦٥. وبانى الجامع الأزهر من صلب مال المعـز لدين الله هذا، وفى عام ٣٦١ خرج المعز لديـن الله هذا من بلاد المغرب متعللا بالجـامع الأزهر وانتزع مصر من يد الإخشيديين وقهـر أناسًا من شعبها، ولأن أهل مصر القاهرة عتاة جبابرة أرضىّ المذهب سميت القاهرة المعزية.

وأزهـر مـاى بورنـوى مدفـون بالقـرب من جامع الأزهر، وأخو يـوسف صلاح الدين الذى بنى قصـور الوزراء هو الملك سيف الدين بن أبى بكـر بن أيوب، ولكن بما أنه كان عاشقا ولـهـان دخله الغضب ذات يوم وضرب تحت أذنه بقبضته فجرى الدم من أسفـل أذنـه ومـات، وهو مدفون بجوار عمر بن الفارض وقد انـهدمت بعض جوانب ضريحه.

مشهد طومانباى والسلطان محمد ابن السلطان الغورى

إنه السلطان طومانباى الذى حارب السلطان سليم، ولقد لقى السلطان الغورى حتفه فى حربه مع السلطان سليم، فخلفه ابنه السلطان محمد وهو قاصر، وما كانت له الحنكة والدراية بفنون الحرب، ولذلك تمرد عليه الجند وخلعوه وأحلوا محله السلطان طومانباى.

وقد سبق لطومانباى أن حارب سليما فى اثنين وأربعين معركة إلا أن الهزيمة لحقت به فى النهاية وولى هاربا وقبض عليه فى جبال صعب بالفيوم بعون بعض عرب البحيرة وصلبه سليم على باب زويلة فانتهت الفتنة والفساد ولكن أدركت سليم الرحمة عليه فأمر بغسل جثمانه وشيعه حتى العادلية. وإلى جوار طومانباى دفن السلطان محمد بن الغورى، وفى عام ٩٢٢ كتب تاريخ وآية الكرسى على تابوته الرخامى.

مزار الشيخ ذى النون المصرى

دفن فى ضريح مستقل بالقرب من ضريح الشيخ عقبة الجهينى فى ظل جبل المقطم. ولد ذو النون المصرى فى شرق مدينة أخميم وكان قبطيا من خواص المقوقس ملك مصر، وقد أوفده المقوقس مبعوثا من قبله ومعه جاريتان إحداهما السيدة مارية وهى أم إبراهيم ابن النبى (صلى الله عليه وسلم) وبغلة وسيف.

وقد أهدى النبى (صلى الله عليه وسلم) السيف والبغلة المُسماه «دلدل» وهُما هدية المقوقس إلى سيدنا على كرم الله وجهه، والسيف الذى أهداه هو سيف المقوقس واسمه «ذو الفقار»، وأهدى إحدى الجاريتين إلى الشاعر حسان بن ثابت وقد أنجبت له ولده الأكبر عبد الرحمن بن حسان.

وعندما أوصل ذو النون هذه الهدايا إلى النبى ﷺ لم يَقوَ على كبت محبته للنبى ﷺ فأسلم من أعماق قلبه ودخل فى زمرة الصحابة الكرام وأصبح شيخا لمهرة الأطباء، وبلغ مبلغ فيثاغورث التوحيدى فى علم الطب، وكان عالما شاعرًا، وتلقى تعاليم التصوف على يد على بن أبى طالب، وتضلع من العلم اللدنى، وسلسلة الأطباء تنتهى إليه.

وفى عهد خلافة عمر نازعته نفسه إلى وطنه فمضى مع عمرو بن العاص واستشهد فى فتح مصر، ودفن فى تراب مسقط رأسه فكل شىء يرجع إلى أصله.

ضريح الشيخ أبى السعود الجارحى

يقع خارج الجهة الجنوبية لمصر القاهرة على مسافة ألف وستمائة قدم منها، وهى قصبة بها ما يقرب من ستمائة منزل وجامع وزاوية وتكية وسبيل. والشيخ الجارحى مدفون فى تابوت مغطى بالجوخ الأخضر، وهو داخل ضريح ذى قبة عالية وسط هذه القصبة.

والشيخ أبو السعود الجارحى أحد من نادوا سليم قائلين «تعال يا سليم إلى مصر».

ويحتشد جمع غفير من الناس فى ضريحه كل عام للاحتفال بالمولد النبوى. إنه مزار يؤمه العوام والخواص والنساء. ومن يمسح عتبته بوجهه هم العارفون بالله.

مشهد رأس الإمام الحسين
ابن الإمام على بن أبى طالب. رضى الله عنهما.
بالقرب من خان الخليلى

ولد فى اللحظة التى استشهد فيها سيدنا حمزة ـ رضى الله عنه ـ فى غزوة أحد. ويقول بعض المؤرخين إنه ولد قبل الهجرة النبوية الشريفة وعاش ستة وخمسين عامًا.

تنازل الحسين عن الخلافة ليزيد بن معاوية عن رضاء وطواعية، ولأنه لم يبايع يزيدا وجه إليه قادته عبيد الله بن زياد وعمر بن سعد وغيرهم من دمشق، ونشبت الحرب فى صحراء كربلاء مع مائة ألف بلاء واستشهد أميران من أبنائه وأربعه أخوة وأولاد أحد إخوته وخمسة من أبناء عمومته، وعشرون ألفا من الصحابة الكرام فى يوم عاشوراء من سنة (٦١هـ) للهجرة وهم جياع عطاش، ثم استشهد الإمام الحسين وحملوا رأسه الشريف إلى يزيد فى دمشق فابتهج لذلك كثيرا وأرسل الرأس إلى معاوية بن جريج فى مصر، وقام هذا اللعين بالتمثيل به فى ميدان مصر القاهرة، وكل من ركل هذا الرأس الشريف بقدمه من جبابرة الفراعنة تورمت قدمه وأصبحت وكأنها القربة. والآن تورمت أقدام عدة آلاف فى مصر.

بعد ذلك قضى الله بأن تقطع إحدى النساء رأس أحد أبنائها ووضعته فى الميدان، واحتفظت برأس الإمام الحسين حتى إذا عزل عامل يزيد على مصر وتولى مكانه عامل

مؤمن ورع من محبى أهل البيت فأمر تلك السيدة بإظهار رأس الحسين، ودفنته فى مشهده الموجود الآن، ثم أولاه - المقتدر بالله ومن جاء بعده من خلفاء بنى العباس اهتماما عظيما فأقام عليه بناء عظيما وقبة ودفن الرأس الشريف فى تابوت مكسو بالحرير المزركش وسط هذه القبة. ويزدان هذا الضريح بصنوف المباخر وأوعية ماء الورد والشمعدانات والقناديل، وكأنه الجنة العالية والجامع السلطانى. وبما أن هذا المشهد فى حجم الكعبة الشريفة يلف حول أعمدته كسوة الكعبة الشريفة لقياسها.

إنه مشهد يزار ليل نهار. وفى سفح جبل المقطم المعروف بجبل الجوشى:

مزار سلطان العاشقين

سيدى الشيخ عمر بن الفارض الحموى المصرى

كنيته أبو حفص واسمه الشريف عمر، من قبيلة بنى سعد. وله قصيدة بليغة تسمى «التائية» يعجز فحول الشعراء عن قرض مصراع مثل مصراع فيها. حتى إن محيى الدين بن عربى فى دمشق أرسل إلى عمر بن الفارض يستأذنه فى أن ينظم لها نظيرة. فقال عمر بن الفارض لمحيى الدين بن عربى إن كتابك المسمى «الفتوحات المكية» نظيرة لهذه «التائية». إنها قصيدة بليغة إلى حد جد بعيد، وعندما ينشد المتصوفة بيتا أو بيتين منها كل يوم جمعة فى ضريحه يغيبون عن الوعى فى نشوة الوجد. إنه ضريح عظيم، وتكية عظيمة، ومبرة، وفيه متصوفة وجميع أوقافه من أوقاف الملك الكامل، لأن عمر بن الفارض توفى عام ٦٣٢ فى أواخر عهد الملك الكامل.

وفى كل يوم جمعة يَغُصُّ جامعه بالناس حتى إذا قدم أحد لم يجد له موضعا، ومع ذلك يجد له مكانا بأمر الله، وكرامة له، ويجسو كل منهم على ركب بعضهم خواصهم وعوامهم، ولا يستنكف أحد من ذلك وقد اجتمعت قلوبهم خواصا وعواما. يا لها من حكمة عجيبة. ولا وجود لمثل هذا الجو الروحى فى أى تكية أخرى ويقول جميع علماء مصر إن روح النبى (صلى الله عليه وسلم) تحضر فى كل يوم جمعة فى هذه التكية، كما تحضر أرواح سائر الأنبياء وهذا ما اصطلح عليه جميع مشايخ مصر. - رحمة الله عليه -.

مزار الشيخ الجوشى فوق جبل الجوشى

له جامع وتكية وعدة بيوت وهو مدفون فى ضـريح صغير ذى قبة فى الجهة اليسرى من جامعه وهـو ضريح جد بديع، أعلى جبل المقطم وهو على مسـيـرة يوم من مصر القاهرة فيـما يحيط بها من الصـحارى. وتحت هذا الجبل كهوف تربـو على الآلاف بها عدة آلاف من المتـصوفة وصلحاء الأئـمة ممن لم يهبـطوا القاهرة قط. وهـم أهل حال وأصحاب مجاهدات قوامون ليلاً صوامون نهاراً، منهم:

الشيخ محمد الغمراوى الذى يجاهد نفسه ويفطر يومًا فى الأسبوع، فهو سلطان فى ركن عزلته، وردى البشرة.

والشيخ على المـغربى يسكن كذلك إحدى المغارات وهو نـحيل ضئيل، إلا أن زواره يقدمون له الطعام، والهدايا، ولا يصيبه منـها إلا النذر اليسير، وهو مع ذلك لم يشاهد متبولاً ولا متغوطًا، وتفوح رائحة الزعفران من مغارته على الدوام ـ سلمه الله ـ.

وفى غار آخـر كذلك الشيخ رجـب شاه وانى الذى لم يخـرج من غاره منذ ثمـانية وأربعين عامًا قضاها فى التنسك وتلاوة القرآن، إنه زاهد زائع الصيت بتقواه، فقد جاءه أحد الرهبان وتجرأ قائلاً: «فلنعتكف أربعـين يومًا بلا طعام»، وظلا فى الغار سبعة أيام بلياليهـا أراد الراهب بعدها أن يخرج من الغـار لقضاء حاجة عرضت له فمـنعه الشيخ رجب شاه وانى من الخروج من الغار، وسد خدامه بـاب الغار، فمكثا فى الغار. وفى اليوم الثامن عشر هلك الراهب من الجوع، وأخرجوا جثمانه من الغار، أما الشيخ رجب شاه فقد أكمـل الأربعين يومًا بلياليهـا دون أن يتناول حبة من قمح. كـان الشيخ رجب حافظًا للقرآن الكريم.

وبالقرب من ضـريحه يوجد ضريح الشيـخ معصوم البلغرادى وهـو رجل عاقل من الشعراء البلغاء وله ملكة حسن الخط، كان يتـعيش منها على الكفاف، كان مداومًا على صيام داود، كما يقيم كل من الشيخ محمـد الفرسكورى والشيخ مردمى الطربزونى فى غار واحد، معتكفين عن الناس، ولا يعلم أحدٌ من أين يحصلان على قوتهما، سلمهما الله، ونحمد الله أن شرفـنا بمقابلتهم والحديث مـعهم، ودعائهم لنا بالخيـر. وما عرفناه منهم من كلمات الأسرار لا يمكن البوح بها باللسان.

وهناك المئات من العارفين الذين يسكنون أركان تلك المغارات ونسأل البارى أن يرفع من قدرهم، ولو أننا قمنا بتدوين ما دار بيننا وبين كل واحد منهم لصار كتابًا مفصلاً.

وأسفل هذه المغارات يقع غار الشيخ عبد الله المغاورى، وهو غار عظيم موسوم بعموده الكبير الذى يشبه الجبل لو دخله شخص لتملكته الحيرة والدهشة من اتساعه، إذ يتسع لعشرة آلاف رأس من الغنم، وفى نهايتها ضريح عبد الله المغاورى وكان سلطانًا له قدرة على التسخير، فكان يذهب إلى الحج فى كل عام ويرى الآلام التى تتكبدها أمة محمد ﷺ فى الطريق من شدة الحر، وكان له صاحب من الجن، أمره عبد الله المغاورى بأن يخترق الجبال والكهوف الواقعة على الطريق بين مصر ومكة ويشقها لتخلص عباد الله من شدة الحر، فشق الجنى أولاً مغارة عبد الله المغاورى. حقيقة إن هذا الصنيع ليس من مقدور البشر، ولم ييسر البارى - عز وجل - إتمام هذا العمل، فقد توفى المرحوم الشيخ عبد الله المغاورى ودفن فى فناء هذا الغار، كما أن أربعين من كبار أولياء الله مدفونين معه فى هذا الغار لكننا لا نعرف أسماءهم الشريفة ولهم مريدون، ومكتوب على باب هذا الغار عبارة (أمر بإنشائه مولانا الملك المظفر الظاهر بيبرس) لكنها مكتوبة فى مكان شديد الارتفاع، وفى أركان هذا الغار يقيم المريدون جماعات جماعات.

وعلى مقربة من هذا الضريح توجد أضرحة أخوة يوسف الصديق يامن وابنه إفرايم وصارير بن يهودا وعزيز مصر وزليخة والملك الريان.

وعلى مقربة منها مقام النبى موسى - عليه السلام - وهو مكان للعبادة، وملحق بهذا المقام ضريح الشيخ عيسى أحد أبناء الشيخ عبد القادر الجيلانى، وهو رفيع المقام يسكنه بعض مريدى الطريقة القادرية.

وبحافة جبل المقطم - أى فى نهاية القرافة الكبرى - يوجد مزار الشيخ السادات المغربى، وهو تكية كبرى تضم جامعًا وتكية وعمارة وغرفًا للمريدين، إنها تكية عامرة، ومدفون فى مصر من أحفاد وأبناء الشيخ السادات أربعون شخصًا يقام لهم احتفال مرة كل عام فى النصف من شعبان حيث يفد مائتا ألف شخص بالخيام الصغيرة والكبيرة

ويمكثون هناك اثنا عشر يومًا بلياليها، وفى الليل يضيئون مئات الآلاف من القناديل ويذكرون الله، وقد توسط المكان الشيخ أبو التخصيص «صاحب السجادة» يقدم الخبز للزوار ويعطى لكل واحد منهم كنية أى لقب. ثم يضعون على صدره الشال الكشميرى أو عمامة الرضا البيضاء، ويبايعونه لأن طريقتهم الطريقة الوفائية التى تنتهى برسول الله ﷺ ، إنها تكية عظيمة قُدّس سره.

وبالقرب من هذه التكية مزار أبو السعود العشائر وقد ضم ولاة مصر أوقاف تلك التكية إلى الأموال الأميرية ولهذا خلت من المريدين، وبجوار جامع السلطان حسن يوجد ضريح الشيخ أحمد الرفاعى، والشيخ وكل أبنائه مدفونون فى هذا الضريح، إنها تكية عامرة مريدوها كثير، وهم على الطريقة البرهانية، وخلفاؤهم يعتمّون بعمامة عباسية سوداء، ويحملون راية بيضاء، ولهم مولد عظيم يقام مرة واحدة فى السنة.

وبالقرب من سويقة الدلال يوجد جامع قطب الآفاق وشيخ الشيوخ على الإطلاق الشيخ شمس الدين الحنفى، وهو سلطان عظيم مدفون فى قبة عالية بالجانب الأيمن من الجامع المذكور، وهى تكية عامرة بالمشايخ والمتصوفة. وفى فناء الجامع شجرة سدر، وفى يوم الأربعاء من كل أسبوع يأتى الآلاف لزيارتها، قُدّس سره العزيز.

وفى الناحية الأخرى من النيل المواجهة لمصر القديمة، والجانب الغربى من قصبة الجيزة يوجد ضريح الصحابى الجليل أبو هريرة ـ رضى الله عنه ـ الذى روى الأحاديث الصحيحة عن النبى ﷺ ، كان النبى ﷺ يحبه حبًا شديدًا وقد لقبه النبى بأبو هريرة لفرط حبه للقطط وقد قال النبى ﷺ : «حب الهرة من الإيمان»[1]، وأبو هريرة من قبيلة دوس، وعندما كان خالد بن الوليد قائدًا على غزوة الشام كان أبو هريرة قائدًا على قبيلة دوس المذكورة فى تلك الغزوة، وفتح القُدْس الشريف مع عمر بن الخطاب وعندما كان

(١) ذكره الصغّانى فى كتاب الموضوعات برقم (٨٣) ص٤٧.

وقال الإمام على القارى فى كتاب «الموضوعات الكبرى» ص ١٨٢ ـ ١٨٣ بأن الحديث «موضوع كما قال الصغانى وغيره. وقد بسطت عليه بعض الكلام فى رسالة مستقلة لتحقيق المرام».

ووافقه أيضًا فى الحكم على هذا الحديث بالوضع العجلونى فى كتاب: كشف الخفاء ١/ ٤١٥، والشيخ محمد الحوت البيروتى فى: أسنى المطالب ص ٩٢.

يقاتل فى غزوة مصر مع عمرو بن العاص جرح فى خده وعبر إلى ناحية الجيزة واستشهد هناك، وقد بنى عمرو بن العاص ضريحًا له داخل بستان عامر بالنخيل والأشجار، وفى تكيته الآلاف من القطط والهرر، وفى مصر إذا ما ضاق أحد من هرته فإنه ينقلها إلى تكية أبو هريرة لذا لا يعلم عدد تلك القطط الموجودة هناك إلا الله، وهو الذى يطعمهم.

ذكر أوصاف مولد أبو هريرة

يقام المولد فى تكية أبو هريرة مرة واحدة فى السنة فى شهر يوليو، وحيث يصل كل الدعاة والصلحاء والأشراف بخيامهم وينصبونها فى الأماكن المعشوشبة من صحراء الجيزة ويذكرون الله ثلاثة أيام بلياليها ويشعلون مئات الآلاف من القناديل والفوانيس والمشاعل، ويحضر الزوار بالخيام وتحمل مئات الآلاف من الزوارق والقوارب الزوار بخيامهم، ويصبح الجمع عظيمًا وكأنه عيد خوارزم شاه. ولا يوجد تجمع كهذا فى أى مكان آخر فى شهر يوليو سوى فى هذا المكان، هذا بالإضافة إلى وجود عين فى الجانب الشرقى لنافذة ضريح أبو هريرة تتدفق منها المياه الصافية ويطلقون عليها «عين الهرة» لصفائها كعين الهرة، وقد نبعت تلك العين كرامة لأبى هريرة، ويشرب منها مئات الآلاف من القطط الموجودة فى تكية أبو هريرة ويدفعون بها جوعهم وعطشهم بأمر الله، ويعيشون عليها حيث لا غذاء لهم سواها، وفى شهر يوليو تجرى المياه فى تلك العين حمراء اللون لأنه عندما جُرح أبو هريرة فى غزوة مصر وسقط دمه على الأرض جرى الماء دمًا من تلك العين لمدة أربعين يومًا إلى أن فاضت روحه صار الماء أَبْيَضَ صافيًا مرة أخرى، وإلى الآن تجرى المياه فى هذه العين من شهر يوليو وحتى أيام المولد حمراء، وإذا ما شربت النساء والحائضات منه ينقطع عنهن الحيض، وفى أيام المولد تجرى المياه بيضاء بأمر الله، حيث يجتمع السادة والمتصوفة وحملة المشاعل عند هذه العين ويدعون الله فتجرى المياه بيضاء عذبة. فيشرب شيخ تكية أبو هريرة أولاً ثم يقوم بملئ الأباريق والجرار والأقداح ويقدم إلى وزير مصر وقاضيها ونقيب الأشراف ومشايخ الإسلام

الأربعة وسائر أمراء مصر وتُرسل هدايا لكل أعيان مصر، حيث يشربون منه، ومنهم من يشربها بنيـة الشفاء. كما يحسنون بها علـى المتصوفة والمريدين الذين يجلـبونها إليهم، وتشرب كل أمة محمد من هذا الماء، وبالـرغم من أنه يتم ملئ مئات الآلاف من الجرار والأباريق من مياه تلك العين إلا أنها لا تنقـص قطرة واحدة، وفى اليوم الثالث للمولد تصـير مياه هـذه العين كمـاء الورد ويُرسل مـنها إلـى الشام وحلـب وبغداد والبـصرة وإستانبول تبـركًا، حيث يكون طعم المياه حيـنذاك مثل ماء زمزم وطبيعتـه مسهلة، وهو دواء لسبعين داء مختلف، من يشرب منه مرة لن يـصيبه مرض حتى السنة المقبلة بل إنه لن يحتاج إلى طبيب، ولكن يجب أن يُشرب بنية خالصة، فإنه عندئذ يدفع الدم الفاسد من الجسد والأخلاط الموجودة فى الجسم والرعشة والبرص والجذام، وعادة ما تظل مياه العين المذكورة عذبة لونها أصفر براق حتى السـنة التالية، ثم تتحول إلى اللـون الأحمر فى شهر يوليو وتظل على ذلك أربعين يومًا بليـاليها، حتى يوم المولد حيث تنقطع المياه الحمراء فيه، وتجرى الميـاه البراقة وكأنها ماء الورد، وهى تجرى علـى هذا المنوال إلى ما شاء الله، وفى هـذا المولد الشـريف يتم بيـع ما يقرب مـن عشرة ملايـين جرة وكوب وقصعـة وذلك من أجل العين المـذكورة، ولا يعلم حسـابهاإلا الله ويُباع فى هـذا اليوم أيضًا اللبن الـرايب والـسمن الجيزاوى، ولوجود جـبال الأهرامات فى تلك المنـطقة يقوم خمسـة أو عشرة أشخـاص من زوار تكيـة أبو هريرة بالـتجمع فـى مكان ما ويـذهبون لمشاهدة جبال فرعون إما سيرًا وإما على ظهور الدواب.

عـبرة

فى أيام مولد «أبو هريرة» وعلى مقربة مـن تكيته فى الجيزة تخرج من باطن الأرض مئات الآلاف من عظام الشهداء الذين استشهدوا مـعه وتتحرك تلك العظام، ولكنى لم أرْ ذلك بعينى بل سمـعته من رجال ثقات، وعندما كنتُ أعبر النيـل بالمركب إلى ناحية مصر الـقديمة شاهدت الأهالـى يحملون فى أيـديهم بعض الـعظام وقالوا إنهـا أعضاء الشهداء ونأخذها إلى بيوتنا تبركًا بها، وهذه حكمة إلهية للعبرة والعظة.

وعندما سألت بعض الرجال وعلماء الأزهر عن ذلك قالوا إن العظام تكثر حقيقة فى هذا اليوم ولا يعرف أصحابها، والبعض يقول عن تلك العظام أنها عظام القبط الذين تحاربوا مع الصحابة وقتلوا فى تلك الحرب، ولأن قتلهم كان فى شهر يوليو فإن الأرض تلفظ عظامهم حتى أن بعض القبط يحملون تلك العظام إلى منازلهم، لا يعلم الغيب إلا الله.

وبجانب الخليج فى مصر قبر الشيخ (   )[1] الخلوتى وهو مدفون فى جامعه وله تكية ومشايخ ومريدين وعمارة، وتطل نوافذ الجامع على مياه الخليج الجارية وبفناء الجامع شجرة سدر وحديقة بها أشجار، وقد ذكرت أوصاف الجامع سابقًا.

وبداخل السوق السلطانى على مقربة من باب النصر يقع قبر عين الغزالى قُدِّس سره، وبداخل قصر رئيس الحسبة بالقلعة العلوية يوجد قبر الشيخ عبد الله الأنصارى وهو من الصحابة الكرام وهو مدفون فى تكيته.

ثم ضريح الشيخ (   )[2] ويقع داخل زاوية وزير السلطان الظاهر بيبرس بقصر أغوات الباشا الوالى بالقلعة.

وعلى مقربة منه تقع تكية الشيخ عبد القادر الجيلانى ومدفون بها الشيخ محمد الأنصارى، والشيخ أحمد المفتى، والشيخ عبد الله اليمنى الزيلعى والثلاثة من الصحابة الكرام وبالتكية بعض أتباع الطريقة القادرية، ويهب والى مصر لهذه التكية مع أوقافها أوقتين من اللحم وعشر قطع خبز، كما يقدم الأغوات أيضًا النذور لهذا الضريح.

وبفناء جامع سليمان باشا الخادم المجاور لغرف الانكشارية بالقلعة الداخلية يقع قبر الصحابى سارية الجبل، وسارية من كبار الصحابة الكرام كان قد سار على رأس أربعين ألف جندى لولاية العجم فى خلافة عمر بن الخطاب، وقد انهزم سارية على يد العجم فى قلعة نهاوند، وبينما كان عمر بن الخطاب يخطب الجمعة فى المدينة المنورة رأى بعين الباطن أن القائد سارية انهزم فى بلاد العجم، فنادى وهو على المنبر يا سارية الجبل (ثلاث مرات) ثم أكمل الخطبة، فتبسم بعض الصحابة وتعجبوا مما فعل عمر لأنه ينادى

(١ ، ٢) بياض فى الأصل.

على سارية وبينهما مسيرة ثلاثة أشهر، أما بعضهم فقد ظن أن فى الأمر سرًا لا يعلمه إلا الله، ومن حكمة الله سمع سارية ومن معه نداء عمر عندما نادى عليهم يوم الجمعة فانسحبوا ناحية الجبل وقد جدد جند الإسلام نشاطهم خلف هذا الجبل وقاتلوا العجم وانتصروا عليهم ثم جاءوا إلى المدينة المنورة سالمين غانمين وأخبروا أهل مكة والمدينة بالصوت الذى سمعوه يوم الجمعة فطابقوا بين التاريخين فتطابقا فازداد الناس حبًا لعمر، وكان سارية ضمن الصحابة المرافقين لعمرو بن العاص فى فتح مصر وتوفى بها.

وبتكية الشيخ سارية الجبل سبعين من الصحابة الأنصار مدفونين معه منهم الشيخ داود والشيخ قاسم والشيخ يحيى والشيخ إسماعيل والشيخ ( )[1].

وبجانب ضريح السيدة زليخة يقع ضريح أمنا آسيا امرأة فرعون وبالرغم من أنها كانت امرأة فرعون إلا أنها بأمر الله آمنت بموسى فقتلها فرعون وتوفيت بكرًا، وبعض المفسرين يقولون بأنها ماتت بكرًا لأنها ستتزوج سيدنا موسى فى الجنة، وقد بنى الملك طوطيس أحد ملوك القبط قبة على ضريحها وكتب عليه تاريخه باللغة القبطية، وأكثر زوار هذا الضريح من النساء.

وبالقرب من قبر يامن أخو يوسف فى سفح جبل الجوشى يوجد ضريح عبد الله بن طاهر وهو من أكراد مدينة نصيبين، كان وزيرًا للخليفة المأمون عندما جاء من بغداد إلى مصر، عندما أراد الخليفة المأمون أن ينقب فى جبال الأهرام عام ٢٠٥هـ، لكى يستخرج الكنوز الموجودة بها، سقط حجر من الهرم الأكبر على عبد الرحمن بن طاهر فقتله ودفن بجوار ابن يامان. وقد بنى الخليفة المأمون قبة عظيمة على قبره والعديد من التكايا. وكتب على العتبة العليا للضريح: «أمير المؤمنين مأمون الزمان بن هارون الرشيد سنة ٢٠٥هـ».

(١) بياض فى الأصل.

وبقرية أبو صير الواقعة بالقرب من جبل الهرم الذى هدمه الخليفة المأمون يقع قبر الملك مروان الحمار(١) وهو أحد ملوك بنى أمية، وأنهم بفعل الأعمال غير الشرعية وقد تحارب على ضفاف نهر الفرات وقتل كل جنوده أما هو فقد فر هاربًا إلى الشام مقر حكمه، ولم يستطع الاستقرار بالشام ففر هاربًا إلى مصر وقد ظن أنه قد استقر فى مصر فى مأمن إلا أن أحد الجنود ويدعى عامر بن جرجابى قبض عليه وسلمه لعبد الله المازنى الذى قطع رأسه وعلقها على رأس طريق وقتل كل من كانوا معه وخرج موكب عظيم من مصر برأس مروان الحمار ومر الموكب برأسه من غزة والشام وحلب وعُرفة(٢) حتى وصلوا إلى ملاطية وهناك سلموا رأس مروان الحمار إلى الملك الناصر على طاهر، وأقيمت الاحتفالات وذلك لأن الملك الناصر انتقم من خصمه وحمد الله على ذلك فقد انقطع نسل يزيد الأموى عند مروان الحمار وقد أرسل الرسائل لكل سلاطين الإسلام يذكرهم فيها أنه انتقم لدم الحسين، والآن يرقد نعش مروان الحمار فى قرية أبو صير تعلوه قبة منخفضة ويقوم بزيارته الذاهبون لمشاهدة الأهرام، وبعضهم يسبه ويقولون «مقام مذموم».

وبمصر القديمة يقع قبر الشيخ عبد الله بن عمرو بن العاص، وهو من الصحابة الكرام رواة الحديث، دفن فى منزله بناء على وصيته أثناء فتح مصر.

وبالقرب من قبر الإمام الشافعى والإمام الليث يقع ضريح الشيخ جلال الدين السيوطى قُدّس سره العزيز، وقد ولد جلال الدين السيوطى فى مدينة مزينة هى مجمع

---

(١) هو مروان (الثانى) بن محمد بن مروان بن الحكم كان يكنى أبا عبد الملك، ولى أمور دولة بنى أمية سنة (١٢٧هـ)، وهو آخر ملوكهم، لقب بالحمار لا على سبيل السخرية أو الاستهزاء إنما على سبيل المجاز إشارة لقوة عضلاته وإعجابًا بصلابته، كما أن الحمار يمتاز بالصبر على الشدائد، وقوة الاحتمال.
انظر خبره فى: مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامى لسيد أمير على، ترجمة رياض رأفت ص١٤٥ وما بعدها ط. دار الآفاق العربية القاهرة ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، والمعارف لابن قتيبة الدينورى بتحقيق ثروت عكاشة ط. ٤ ـ دار المعارف ص٣٦٩، والجزء السادس والسابع من تاريخ الطبرى (فى مواضع متفرقة)، وغيرها.

(٢) هى: أورفه.

الفقهاء والمفسرين تسمى أسيوط تقع علـى شاطئ النيل فى صعيد مصر العالى، وللإمام السيوطى مؤلفـات تبلغ ٧٠٠ مجلد، وهو عالم ومؤرخ ومؤلفـاته مشهورة فى الآفاق، وضريحه الآن مزار للعام والخاص.

وعلى مقربة من جامع ابن طولون الواقع فى قلعـة الكبش التى يطلقون عليها «جبل يشكـر» يوجد ضريحـان داخل جامع الـسلطان الجولـى مدفون بهمـا السلطـان الجولى وأقاربه، وفى قبتـى الضريحين نوافذ تطل علـى بركة الفيل، والحوائط الداخلـية لهاتين القبتين مغطاة بالمرمر المصقول، المموج، وقـد كتـب على عتبته العليا تاريخ بنائه والآيـة الكريمة: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦ ـ ٢٧] وعلى أطراف الأضرحـة المرمرية نقش بتاريـخ «سنة ثلاثة وسبع مائـة» على المرمر بخطوط قديمة.

وبالقرافـة الكبرى يوجد قبـر الشيخ سيد حـسين الأخلاطى، وهو سلطـان عظيم، وعندما خلت سجادته جاء ابن قاضى سماونـة أحد علماء السلطان يلدريم با يزيد، من بلاد العجم إلى مصر، علـى زمن السلطان فرج بن برقوق، ليصبح خليـفة للشيخ سيد حسين الأخـلاطى بإذن من السلـطان يلدريم با يـزيد، وكان يتقـاضى راتبًا يوميًـا يقدر بثلاثمائـة قطعة من العملـة المصرية، وابن سماونة هـو الشيخ بدر الدين بن مـحمد بن إسرائيل بن عبد العـزيز، وقد ذاع صيته بن علماء ومشايخ مصـر فى ذلك الوقت، فقد ألف كتاب جامع الفصـولين وكتاب عقود الجواهر، وهما من الكتب المعـتبرة القيمة بين العلماء والطلاب، وقد توفى ابن سماونة فى مصر ودفن فيها وقبره مستور بجوار ضريح أبى الليث بالقرافة الكبرى، وقبره الآن مزار للعام والخاص.

وبجـواره قبر إبراهيـم الكلشنى الصارجانـى، وهـو مـن شعراء السلطان محمد خان أبو الفتح، فقد توفى أثناء قدومه من الحج.

وبجوار قبر عمر بن الفارض يوجد ضريح المنلا عتيقى.

وعلى مقربـة من سويـقـة السباعـين يقـع ضريـح الشيـــخ حمودة، وهو مدفون فى قبة صغيرة.

وضريح الشيخ يوسف العجمى، وهو على مقربة من الجامع الأزهر.

وقبر الشيخ تاج الدين المتصل بسوق الغنم بالقرب من تكية السلطان دك كيز، والشيخ تاج الدين من المشايخ العظام وله آلاف الكرامات.

وعلى مقربة من منزل الشيخ البكرى يقع ضريح أولاد عنان قُدّس سرهم جميعًا، وفى ناحية قنطرة السبوع خارج الباب الجديد ضريح الشيخ أبو البشر ـ رحمة الله عليه ـ، وضريح الشيخ إبراهيم اللقانى، وهما أفضل علماء مصر وقد درسا لعدة سنوات فى الأزهر، وتوفيا فى مصر بعد العودة من الحج عام ١٠٠٣هـ والشيخ بدر الدين القرافى والشيخ صالح البلقينى من أقارب الشيخ إبراهيم اللقانى، وهما مدفونان معه، وهما من كبار مشايخ مصر وضريحهما مزار.

وعلى يمين تكية الإمام الشافعى نجد تكية ابن الشيخ محمد البكرى وهو من نسل أبو بكر الصديق، وقد انتقل هذا الشيخ إلى دار البقاء فى شهر صفر من عام ١٠٩٧هـ عندما كان (   )[1] باشا واليًا على مصر، ودفن بجوار أجداده العظام وقد حضر جنازته مئات الآلاف من البشر، وقد خلفه على سجادته الشيخ أبو المواهب من أولاد مهترى، وقد جدد كل المتصوفة البيعة له، ـ عمره الله ـ وأصبح ناظرًا على كل أوقاف الشيخ زين العابدين كوجك جلبى، وله تكية عظيمة حفظه الله. ويحتفل فى نصف شعبان بمولد أجداده العظام.

وبالقرب من تلك التكايا وبجوار الإمام الشافعى يوجد ضريح الغازى كرتباى، والغازى كرتباى هو أحد الجنود الشراكسة الشجعان الذى أقسم أن يقتل السلطان سليم خان أثناء قتاله مع السلطان طومان باى فى صحراء العادلية، وخاض بجواده بين جند آل عثمان الذين كانوا كموج البحر، فصادف سنان باشا الخادم الوزير الأعظم وكان فى ذلك اليوم وشاء الله أنه كان يرتدى نفس لباس السلطان سليم ويمتطى جوادًا مثل جواده، فضلاً عن أنه كان قريب الشبه بسليم، فقام كرتباى بقتله فاجتمع عليه الجند

(١) بياض فى الأصل.

وقتلوه. ونحمد الله أن كرتباى لم يقتل السلطان سليم، حقيقة كان كرتباى شجاعًا محاربًا رحمة الله عليه ويأتى كل شراكسة مصر لزيارة ضريحه.

وبالقرب من باب الحديد بوسط مصر يقع ضريح الشيخ إبراهيم الكلشنى وقد وصفنا تكيته، وتاريخ وفاته (مات قطب الزمان إبراهيم) سنة ٩٣٠هـ. درس علم التصوف والتوحيد على الشيخ أبى السعود فى زمن السلطان سليمان، ولما جاء مصر بنى تلك التكية بكل أمواله وهو مدفون بها، وقد أخذ الشيخ إبراهيم عن عمر الروشنى وأخذ عمر عن يحيى الشروانى، وهو سلطان عظيم وقطب الآفاق الذى ملك العلم اللدنى والعلوم الأخرى.

ودُفن بضريحه أيضًا ابن أحمد الخيالى المتوفى عام ٩٧٧هـ.

وبجانبه الشيخ ابن على الصفوتى المتوفى عام ١٠٠٥هـ.

وبجانبه ابن الشيخ حسن أفندى الذى توفى فى ١٠١٢هـ.

وقد خلفه فى الطريقة صهره محمد جلبى، المتوفى عام ١٠١٤هـ.

ويوجد أيضًا ضريح الشيخ القرمانى وهو من خلفاء الشيخ الكلشنى حينذاك وقبره ليس معلومًا.

بعده قبر الشيخ صاحب السجادة الشيخ محيى الدين الأدرنوى وقد بايع الشيخ على صفوتى فى مصر وصاهره، ودفن فى التكية الكلشنية، كان غارقًا فى العشق الإلهى، وكان أثناء التوحيد والذكر يردد أشعار العشق، فيشمل العاشقين.

ويقع قبر الشيخ البغدادى خارج مصر القديمة من ناحية الشرق، وهو وسط الرمال، ومغطى بقبة عالية، وبالقرب من كنيسة يطلقون عليها دير سنودة، كان المقوقس قد طلب من عمرو بن العاص حين فتحه لمصر ألا يهدمها، ويقولون لو دخل تلك الكنيسة أى كائن حى غير البشر والطيور يموت فى الحال، وإذا ما دخلها العربان الذين يعانون من الآلام برءوسهم يتخلصون من آلامهم، إنه دير عجيب مطلسم.

وعلى مسافة خمسمائة خطوة من هذا الدير على الطريق العام يقع قبر الشيخ حويدى ومؤلفاته لا تعد ولا تحصى، وله زاوية ومئذنة وقبتين. ويداوم أهل مصر على زيارته، وكراماته مذكورة فى كتاب طبقات الشعراوى قُدّس سره.

ثم قبر المولى على بن غانم المقدّسى بالقرافة الكبرى، وهو من فضلاء الدهر الواصلين إلى القطبية، فكان غواصًا فى بحر العلم اللدنى.

ثم قبر المولى بدر جلبى الواقع بجوار عمر بن الفارض وقد توفى وهو قاضٍ على مصر، وقبره مزار يزار.

ثم قبر المولى معروف أفندى وهو من طربزون، وهو مدفون مع علماء الروم بجوار عمر بن الفارض.

ثم قبر الشيخ الفاضل أمير التيره وى فى قرافة مصر الكبرى، وكانت وفاته فى عام ٩٨٧هـ، كان أمير التيره وى مصنفًا ومؤلفًا وخطاطًا، ترك ٤٢ مجلد بخط يده وتوقيعه وكلها موقعة بإمضائه، وهذه المؤلفات النفيسة موقوفة فى الجامع الأزهر وجامع المؤيد.

ثم قبر الشيخ سنان أفندى وهو من أكراد صوران العلماء، لم يقبل صدقة أو نذرًا أو طعامًا من أحد، قام بتعمير وترميم مسجد محلة الكردى فى مصر وعاش ودفن بها، وقد كان للشيخ الكردى مكانة بين مشايخ مصر، حيث كانوا يزورونه ويحتفلون بمولده مرة كل عام، ويجتمع بمولده أناس كثير.

ثم قبر المولى عبد الله أفندى بن محمود، توفى أثناء توليه قضاء مصر، ومدفنه بجوار الشيخ شاهين.

وبالقرب من جامع المرزبانية قبر الشيخ محمد بن محمد الشهير بـ «آلتى بارمق» افندى (أى الأصابع الستة) رحمة الله عليه، وهو إسكوبى ويعرف بـ «جقرقجى زاده» حتى إنه أثناء قدوم هذا العبد الحقير[1] من البوسنة مع ملك أحمد باشا مر بإسكوب ومكث يومان فى منزل آلتى بارمق افندى، وتحدثنا مع أقاربه وكانوا من أصحاب المعارف، ونحمد الله أن يسر لنا زيارتهم فى مصر أيضًا.

(١) يعنى المؤلف بالعبد الحقير نفسه، تواضعًا منه كعادة من يتكلم عن نفسه من أهل العلم والفضل.

وللشيخ محمد بن محمد مؤلفات كثيرة منها سيرة النبى ﷺ وهى سيرة ممدوحة بين السير، لقد كان شيخًا عزيزاً وبحراً للمعانى وهو النعمان الثانى ومدفنه أمام قبلة جامعه حيث توفى عام ١٠٣٣هـ، كان العزيز المذكور بحراً فى مختلف العلوم، عذب البيان، طلق اللسان.

ثم ضريح المولى ظهير الدين الأردبيلى، الذى جاء من تبريز إلى بلاد الروم فى عصر سليم الأول، وقابله السلطان، ثم ذهب إلى مصر قاصداً حج بيت الله الحرام، وقد قُتل مع أحمد باشا الخائن فى مكان واحد، كان المولى ظهير الدين الأردبيلى له باعٌ فى العلوم وله مائة مجلد من المؤلفات، وهذه هى الدنيا يموت الإنسان ويبقى اسمه، إنه الموت الذى يتساوى فيه الجميع السيد والفقير ولم ينجو أحد منه وليس له دواء.

إن أضرحة ومزارات الأولياء والعلماء والصلحاء فى القاهرة لا تعد ولا تحصى، ولكننا حررنا هنا ما ذهبنا إليه فقط.

ثم قبر المولى حسين باشا زاده افندى وابنه صاحب الحظ السعيد «كورلجة رستم باشا» وزير «بودين»، توفى حسين باشا زاده وهو قاضٍ على مصر، وقبره بجوار الإمام الشافعى، ومكتوب عل العتبة العليا للضريح: «هذا مقام حسين افندى فى دار السلام سنة ١٠٢٣هـ»، كان المذكور من أرباب العلم والمعرفة محبوبًا من الجميع، وكان يجزل العطاء فى منزله.

ثم قبر المولى محمد أهلى افندى أخو عبد الرحمن افندى طبيب زاده، كان صاحب فيض فى كل العلوم تولى منصب قضاء مصر، ومدفنه فى ساحة جامع مسيح باشا ويزوره الذاهبون إلى الإمام الشافعى. وثمة شخص آخر باسم أهلى جلبى ولكنه مدفون فى رودس.

ثم قبر المولى عبد الباقى الشهير بطورسون زاده افندى، توفى وهو قاضٍ عل مصر، وقبره فى القرافة الكبرى على الطريق، وعلى مشهد قبره تاريخ وفاته.

ثم قبر المولى مصطفى بن محمد بن سليمان، وفد من مكة إلى مصر بعد آلام كثيرة وهو مدفون بجوار الإمام أبو الليث، قُدّس سره العزيز.

ثم قبر الشيخ أبو بكر الكفوى الذي كان مصاحبًا للشيخ شاهين بمصر، حيث اتجه إلى طريق الحق، وهو مدفون بجوار الشيخ شاهين، كان شيخًا زاهدًا عابدًا متورعًا اشتهر بالكرامات.

ثم قبر مولانا الفاضل رضاى محمد جلبى، مخدوم المرحوم بيرى افندى قاضى قونيه دار الملك، وتاريخ ميلاد رضاى جلبى ١٠٠١هـ هو لفظ (رضا) لذا تخلص برضاى، تولى قضاء مصر ثم توفى، ورضاى جلبى حسيب نسيب، وأديب كامل ومؤلف ومصنف وشاعر وماهر له نصيب من كل الفنون، حافظ لقاموس النجوم والكواكب، كما كان متصوفًا خلوقًا، ومدفنه فى ساحة مشهد الإمام الحسين وقبره من الحجر. ويقوم الروم بزيارته وهم يقولون عنه إنه قبر فاضل.

ثم قبر مولانا جمالى زاده وهو من علماء الروم كان خادمًا لشيخ الإسلام على جمالى، كما كان صاحب السجادة فى الأناضول ومصر والعديد من الأماكن الأخرى، وتولى متصرفية الشرقية والغربية بمصر، ولكنه استقر فى القاهرة مصداقًا لقوله ـ تعالى ـ: ﴿لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ﴾ [النور: ٣٥] وهو مدفون بجوار الإمام أبو الليث، رحمة الله عليه سنة ٩٦٨هـ.

* * *

فى بيان كرامات المرحوم والمغفور له
السلطان أعلم العلماء وأفضل الفضلاء
شيخ الشيوخ الشيخ على الشمرلسى

عندما دخل الحقير صاحب التقصير قليل البضاعة مصر فى عام ١٠٨٣هـ شرع فى زيارة الأولياء والأنبياء واجتهد فى مقابلة العلماء والمشايخ الكبار وقد تشرفت بمقابلة الشيخ الشمرلسى فى الجامع الأزهر تبركًا وتيمنًا به، فقبلت يده وكان لى نصيب من دعواته لى بالخير، وبدأت فى قراءة كتابه (قوهستان)، كان الشيخ الشمرلسى أعمى منذ ولادته، ولكن الفصاحة والبلاغة وطلاقة اللسان التى يمتلكها لم تكن حتى عند أفصح الشعراء محمد البوصيرى، وقد خدم الحقير الشيخ، حيث تتلمذت على يديه ثلاث سنوات، ولحكمة الخالق لزم الشيخ الشمرلسى الفراش فى السنة التى كان فيها عبد الرحمن باشا واليًا على مصر، ظل الشيخ لمدة شهرين طريح الفراش وكان كل تلاميذه يذهبون إلى بيته فى تلك الفترة، الكل يقبل يديه ويبدأ فى قراءة الدرس عليه، وسبحان الله كانت الدروس حينئذ أكثر من الأوقات الأخرى، فقد كانت كل أعضاء الشيخ نحيفة ضعيفة وكأنه قد وهبها كلها فى سبيل العلم، وكانت له قوة قدسية فكان يرى بمنظار قلبه، وكان الشيخ موصوفًا بالذكاء الحاد والفراسة والفطنة التى لا حد لها، من يراه لا يقول أنه ولد أعمى، حتى أن صهره القاضى منصور الذى كان متزوجًا بابنة الشيخ، وهى سيدة حافظة مثل رابعة العدوية، نقل إلى الحاضرين بالمجلس ما سمعه من زوجته ابنة الشيخ الشمرلسى أنها كانت تسمع والدها فى الليالى المباركة وهو يقرأ العلم فى حضور النبى ﷺ ويقول بلسان فصيح صريح: نعم يا رسول الله ويقول صحيح يا شفيع المذنبين، وفى أحد الأيام وبعد انتهاء الدرس كنا فى حضور الشيخ، فقال فى أى يوم سيخرج حجاج المسلمين إلى بركة الحج.

فأجاب صهره: لقد صدر الفرمان بخروجهم إلى البركة يوم الخميس الموافق ١٨ شوّال المعظم.

فقال الشيخ: يا قاضى منصور كم يومًا بقى على ذلك اليوم؟

فأجاب الشيخ: (   )[1] خطيب جامع القيسونية: بقى يومان فقط يا سلطاننا.

فنهض الشيخ من الفراش بعد أن كان طريحه لمدة شهرين ووقف على قدميه وأخذ يتحرك ويدور بلطف فى البيت مثل طاووس حدائق الجنة، وكأنه فى سماع خانه جلال الدين الرومى[2]، فتحير كل الحاضرين من ذلك، وتحيرت أنا أيضًا لما شاهدت، وقد تصبب الشيخ عرقًا بعد السماع، وقال لنا: أيها الأبناء لقد عادت لى الحياة وشفيت لأنكم بشرتمونى بخبر خروج الحجاج إلى البركة، وبذلك وجدت الدنيا والآخرة، ودعا لنا جميعًا بأن يغفر الله لنا وأن يمنحنا طول العمر، وابتهج بعض الحاضرين من ذلك قائلين الحمد لله لقد شفى الشيخ، وبعضهم انخرط فى البكاء، إلا أن الشيخ تحدث إلينا مرة أخرى وقال: أيها الأبناء لى رجاء عندكم؛ فى اليوم الذى سيخرج فيه أول موكب للحجاج أخرجونى ولا تحرمونى من رؤية موكب الحجاج فهذه الأيام هى أيام الحج الأكبر، ضعونى فى صندوق يحمله أربع حيوانات ثم سيروا بى من الجامع الأزهر

---

(١) بياض فى الأصل.

(٢) هو جلال الدين الرومى المولود فى بلخ عام ١٢٠٧م. كان أبوه بهاء الدين ولد من العلماء الأجلاء، صحبه جلال الدين فى رحلة الحج، وأثناء عودته مرّ بدمشق، واستقر به المقام فى قونيه وبها توفى أبوه عام ١٢٢٣م.

وقد أخذ جلال الدين الرومى التصوف عن الشيخ شمس التبريزى، وأسس طبقته الصوفية المعروفة بالمولوية، وقد بين طبقته هذه فى كتاب منظوم له بالفارسية يسمى (المثنوى). وتحلق حوله المريدون وانتشرت طريقته فى الأناضول، وكان دراويش المولوية موضع توقير رجال الدولة العثمانية حتى جرت العادة بأن يتولى رئيسهم تتويج السلطان العثمانى فى مسجد با يزيد.

وكان من عادة المولوية أنهم بعد صلاة الجمعة يقابلون شيخهم ويجتمعون فيما يعرف بـ «سماع خانه» أى: بيت السماع فيمارسون أذكارهم على أنغام المعارف وهم يرقصون بكيفية خاصة بهم وفى رأيهم أن السماع وما يصحبه من رقص إنما يرقق القلوب، ويسمو بالنفوس، ويثير الخوف عند التائبين، ويلهب قلوب المشتاقين.

انظر: معجم الدولة العثمانية: للدكتور حسين مجيب المصرى ص ١٤٢ ـ ١٤٣ (بتصرف) ط. أولى: الدار الثقافية، القاهرة ٢٠٠٤.

وليكن معكم تلاميذى الأحباء وكل العاشقين المشتاقين من المجاورين وطلاب رواق العراق وضعونى بالقرب من قرافة المجاورين فإنها طريق الأهالى وكل المسلمين المدفونين بها، وبهذا أشاهد موكب الحجاج كل عام وليكن ترابهم غباراً لى، وهذه هى وصيتى لكم لا تحرمونى من موكب الحجاج، فقال كل التلاميذ على الرأس والعين يا سلطاننا، وقد فرح كل الصادقين من كلام الشيخ، ثم قال الشيخ مرة أخرى أيها الأبناء لتخبروا على بك من أمراء مصر والشيخ المتبولى خادم ضريح إبراهيم العراقى بأن يكونوا معى أثناء مشاهدة الموكب، وذهب أحد التلاميذ إلى الاثنين ورجع إلى الشيخ الشمرلسى وقال له إن الاثنين مرضى وفى النزع الأخير، ويقولون أنهما لن يستطيعا الحضور لمشاهدة الموكب، فرد الشيخ قائلاً سيبرأون ويعافون بعد يومين بمشيئة الله وسيأتون معنا لمشاهدة الموكب، ولى رجاء آخر عندكم يا أبنائى أن تقرلوا ختمة شريفة أربعين مرة فى الجامع الأزهر وتهبوا ثوابها للمرحوم عبد الفتاح، وأن تقوموا بطبخ الحلوى يوم الجمعة وتقدموها للفقراء، فقد كان الشيخ عبد الفتاح من أقارب أستاذنا الشيخ الشعراوى وقد استولى على نظارة ميراث السيدة زهرة ابنة الشيخ الشعراوى فدعوت عليه، فقطع أربًا أمام باب العزب فى واقعة خلع الدفتردار أحمد باشا.

ثم جلس الشيخ على الفراش واتكأ على الوسادة، وبدأ تلاميذه يتحدثون عن هذا الشأن، وقد ظهرت له كرامة، ولحكمة الله فاضت روح الشيخ إلى بارئها فى نفس الوقت الذى تأهب فيه كل جنود مصر للخروج لموكب الحج فى اليوم الثامن عشر من شهر شوال، فصلوا عليه فى الجامع الأزهر كما صلى عليه جميع مشايخ مصر فى الجوامع، وبهذا تحققت وصية الشيخ فقد صلى عليه مئات الآلاف من الجنود ومثلهم من العوام والخواص والفقراء وكانت الجنازة تموج كالبحر، وقد حُمل النعش فى صندوق على أربعة حيوانات كما أوصى بذلك وقام مئات الآلاف من العلماء بالذكر والتوحيد، وحُمل الشيخ مع موكل الحجاج إلى قرافة المجاورين، وهناك انتهت رحلته واستقر بدار

لسقرار، وروحه فى أعلى عـليين فقد انتقل من دار لسفناء إلى دار لسبـقاء رحمة الله عليه تاريخ (   )[1] لسفاتحة سروحـه، ولحكمة الله توفى خُلٌ من لسشيـخ المدبوسى خادم ضريح إبراهيم اسعراقى وعلى بك تحقيقًا سكرامة لسشيخ لسشمرسسى.

وفى محـلة (   )[2] علـى باب لسلـوق يقـع ضريح لسـشيخ إسـماعـيل لسصنافيرى وهو من المتصوفة لسكرام، سم يـكن متكلفًا، بل خان عارى لسرأس، لا يتكلم مع أحد وسكنه عندما يـرى المحبين إليه يتحدث معهم ببعض لسكلـمات مبتسمًا، خانت خل خلمة من خلامه رمزًا، وقام لسقاضى جلال لسدين بـبناء زاوية وقبر سلشيخ لسصنافيرى فى حياته وفى عام ١٠٨٩هـ عندما خان عبد لسرحـمن باشا ولسيًا على مصر أشار لسشيخ لسصنافيرى بـبعض لسكلمات لسرمزية قـائلاً: سنموت فى هذا لسشهر»، وقـد خانت تلك لسعبارة إشارة ستاريخ غزوة آل عثمان على موسكو، ولسقبر الآن مزار يزار.

* * *

(١) موضع سطر خالٍ.

(٢) بياض فى الأصل.

الفصل الرابع والستون

فى بيان أسماء المحلات الموجودة على الطريق الرئيسى للسلاطين وكل الأعيان فى مصر

بمصر طريق عام كبير يبدأ من أدنى المدينة ويصل حتى القلعة الداخلية لمصر ( )[1] وتوجد طرق أخرى فى الأسواق السلطانية والمحلات تبلغ ( )[2] الف طريق عام، ويطلقون على الطريق الذى يبدأ من باب السيدة نفيسة وحتى باب النصر درب السلطان، ويطلقون اسم درب السلطان أيضًا على الطريق من سوق الحدادين وسوق أمير الحاجب وسوق الخيام وباب الحديد وحتى باب النصر، وينقسم الطريق عند بين القصرين إلى طريقين الأول ويتجه إلى باب الفتوح ويطلقون عليه درب الحاكم بأمر الله، والثانى ويبدأ من درب باب الشعرية ويتجه حتى خارج المدينة ويطلقون عليه درب الظاهرية، ويطلقون على الطريق الذى يبدأ من سوق الطيور وحتى الداخل درب العباسية، وسمى بهذا الاسم لأن كل خلفاء العباسيين الذين ملكوا مصر كانوا يسكنون فيه، ويطلقون على الطريق الذى يبدأ من درب باب الحديد وحتى باب سلامة قنطرة السبوع وبالقرب منه فى الناحية المواجهة للخليج يوجد درب سويقة الدلال وعلى مقربة منها يوجد درب قنطرة السنقور وسوق محلة عابدين ودرب باب الدباغين ودرب الشواريب ودرب الأوزبكية ودرب قنطرة الليمون ودرب الرطل ودرب باب اللوق ودرب الخراطين ودرب بين القصرين ودرب قاضى العسكر ودرب خان الخليلى ودرب خرطة الجمالية وخرطة الصاغة أى سوق الفضة ودرب الفحامين ودرب الغورى ودرب البندقانى وباب الذحوقة وسوق الشوائين وباب زويلة وخرطة الوالى، وللعبور من هذه الأماكن ينبغى أن يسلك المرء طريقًا مدته ساعة يطلقون عليه الآن طريق خرطة الوالى ويقع عليه سوق قرب السقائين والطلومبات والزجاج، ومن سوق الخياطين أى سوق صناع الخيام وسوق الخضار وخرطة الخليفة وسوق الطليون وسوق المغاربة وسوق الحنا وسوق قبر الطويل وسوق أمير الأخور وخرطة السقائين وخرطة النصارى وخرطة الموسكى وسوق الروملى والدرب الأحمر الواقع بقصر الباشا وحتى جامع الأزهر بطول ثلاثة آلاف وخمسمائة خطوة.

(١ ، ٢) بياض فى الأصل.

أوصاف بقية الطريق الرئيسى لمصر القاهرة وطوله ألفان ومائة خطوة

وهو الطريق الذى يمر من أمام خمام الشباهية بالقرب من مسكن الحقير[1] فى القلعة الداخلية بمصر، والذى يمر أيضًا من أمام قصر عوض بك ومن أمام باب مسعود أغا، حتى قصر برهان افندى النقيب ألفين ومائة خطوة، وطول الطريق من أمام جامع «آلتى بارمق» الذى يدنو من قصرنا وكذا من أمام قصر مسعود أغا وحتى قصر النقيب ألفين وثلاثمائة خطوة، وهذا يعنى أن هذا الطريق أزيد من الطريق الأول بمائتى خطوة والطريق من ميدان الروملى الواقع عند باب العزب أسفل قصرنا وكذا من قنطرة السبوع عند الباب الجديد وحتى منزل قيطاس بك الدفتردار ثلاثة آلاف خطوة بالتمام.

وبهذه الطرق آلاف الحوانيت والأسواق السلطانية، ولو قمنا بذكرها كلها سنكتب مجلدًا آخر.

أما الطريق العام المذكور فهو أشهر الطرق فى مصر وهو مزدحم، ولا شك فى أن لذكره فائدة كبيرة لذا ذكرناه، أما غير المشهور منها قد عزفنا عن ذكره تجنبًا للإطالة والملل واكتفينا بذلك.

* * *

(١) يعنى المؤلف نفسه.

الفصل الخامس والستون

فى بيان ذهابنا إلى مولد أحمد البدوى عام ١٠٨٣هـ وزيارتنا دمياط ورشيد والإسكندرية وغيرها من الطرق والقصبات والمنازل والأضرحة

لقد شاهدت بما تيسر لى جميع الأضرحة الموجودة بمصر القاهرة، وقمنا بزيارة ضريح المشهور فى الآفاق والقطب على الإطلاق حضرة أبو اليتامى السلطان السيد أحمد البدوى، وصلنا إلى السيد أحمد البدوى نطلب منه المدد فى اليوم الثانى عشر من شهر ربيع الآخر عام ١٠٨٣هـ.

خرج موكب مولد أحمد البدوى فى جمع غفير من المشايخ والمتصوفة وهم يذكرون الله واتجهوا إلى صاحب الدولة، وقد ذهب الحقير على الفور إلى ميدان سراى الباشا وانزويت فى زاوية واشتغلت بالمشاهدة، كان متصوفة ومريدو البدوى ـ والعظمة لله ـ ما يزيد على عشرة آلاف شخص يسيرون بالطبول والدفوف ويحملون الأعلام والرايات وبعضهم يحمل آلات الحرب والبعض الآخر يحمل فى يديه النبوت وفى خصورهم التنورة يذكرون الله، ويحملون مئات الآلاف من الرايات والأعلام، فأصبحت القاهرة فى ذلك اليوم مثل الحديقة المثمرة، سار الموكب حتى ميدان القصر وعندما قال الخليفة الأول للمريدين اذكروا الله وكان ذلك فى حضور الباشا، ردد المريدون كلمة التوحيد، ورفعوا الرايات المطلية بالذهب على رءوسهم ودُقت الطبول والدفوف ونفخ فى النفير، وانشغل ما يقرب من ثلاثة آلاف وسبعمائة شيخ وما يقرب من عشرة آلاف مريد حاسرى الرأس بالتوحيد والذكر وأطلق المجاذيب الصيحات ودقت الطبول، حتى أن ميدان القصر أصبح كساحة الذكر، وأقسم برب الكعبة أن صدى أصوات المريدين وهم يرددون الله الله كانت تصل إلى عنان السماء حتى أن الملائكة فى السماء كانت تغبطهم على ذلك، وبعد الذكر قام نقيب المريدين بحمد الله والثناء عليه ثم صلى على النبى ﷺ وأثنى على الكتخدا إبراهيم باشا، ثم تقدم الجميع بعد ذلك إلى الباشا أفواجًا، ثم قام أبو الخير

إبراهيم باشا بمقتضى قانون البدو وفرمان السلطان قايتباى بتحرير رسائل إلى حسن أغا كاشف الغربية وعلى أغا كاشف منوف ورؤساء البلوكات السبعة وبقية الأغوات بأن يتأهبوا بكامل أسلحتهم للمولد الشريف، ويوصيهم بالحفاظ على ميدان المولد دون تقصير، ويوصيهم بمنع انتشار الخمر وأماكن شرب البوظة وخيام البغايا ومنع أشقياء العزبان والأشرار من الخروج إلى ميدان المولد.

وزيادة على المنحة التى يمنحها الباشا للمشايخ يقوم الباشا بإهداء ضريح البدوى قطعتين فن القماش الأخضر وبطمانين عوذ بخور وخمسين فثقالاً فن عنبر وسجادة حرير وأخرى إبريشم واثنان فن شمع العسل، ويعطى لكل رجل فائة بطمان فن الشمع، ويسلم الباشا ذلك كله إلى فصطفى الروفى خليفة البدوى فيقوم كل المشايخ بتقبيل يد الشيخ ويدعون له بالخير، ثم يبدأون فى التوحيد السلطانى فرة أخرى.

ويتعجب المفرطون من ذلك أشد العجب، وبعد الانتهاء من الذكر والدعاء للباشا يحملون كل الأشياء التى منحها الباشا لهم، ويقف رئيس الجلادين بعد ذلك فى ميدان القصر وينادى بصوت مرتفع مولد البدوى فى منتصف جماد الآخر، ويذهب كل المشايخ والشباب والمريدون إلى خلواتهم فى صفوف وترتيب كأنهم أمواج، وقد تحركت عواطفى لكى أشارك فى هذا المولد، ولكنى سألت نفسى بأى طريق سأقوم بتلك الزيارة الواجبة، وبعد المغرب جاءنى أحد الجنود الداخليين وقال لى تفضل يا سيدى إن الباشا صاحب الدولة يريدك، وعلى الفور ذهب الحقير إلى إبراهيم باشا وكان الحديث عن مولد السيد أحمد البدوى، وقد رأى الحقير أن هذه فرصة عظيمة اغتنمتها فقلت: يا سلطانى هلا أذنتم لنا بالمشاركة فى الدعاء بمولد البدوى، فوافق الباشا على مطلبى، وأصدر فرمانًا بخروج على كتخدا معنا، وأتى الكتخدا وأحسن على الحقير بمائة سكة[1]، وقد نزلت ضيفًا بمنزل إبراهيم أغا فى بولاق لمدة ثلاثة أيام بلياليها، وتجمع فى بولاق فى تلك الليلة آلاف العاشقين الموحدين، زينوا صفحة النيل المبارك بمئات الآلاف من القناديل

(١) السكة: العملة المضروبة.

والمصابيح، وانشغلوا بالذكر حتى الصباح، وفى صباح اليوم التالى أقام نقيب الأشراف وليمة عظيمة فى تكية إبراهيم الكلشنى فى بولاق، حضرها كل علماء وصلحاء ومشايخ مصر، خاصة قاضى العسكر، ومشايخ المذاهب الأربعة، وتناولوا الطعام واشتغلوا بذكر الله، وتصير تكية الكلشنى فى تلك الليلة مثل النور، وقد ذكرنا ذلك من قبل عند وصف الموالد، وبعد ذلك ينفض الجمع.

وفى صباح اليوم التالى يركب جميع مريدى البدوى وسائر مريدى الطرق الأخرى والبحارة فى اثنى عشر مركبًا تسمى مراكب العقبة، تتسع كل مركب منها لألفى رجل إنها مراكب تشبه القروانة، الواحدة منها أربعة طوابق الطابق الأسفل عبارة عن المخزن وبه الطعام والشراب وسائر المهمات واللوازم، والطابق الذى يعلوه خاص بالنساء، ثم الطابق الخاص بمشايخ المريدين، والطابق الذى يعلوه للفلاحين ومساعدى الربان والزوار، لقد شُيد المركب طابقًا فوق طابق ومقصورة فوق مقصورة، ويستغرق كل فرد فى وجده وشوقه، وهذه المراكب المذكورة من أوقاف السيد أحمد البدوى وتُحصّل كل مصاريفها من وقف السيد أحمد البدوى، وتُزين صوارى تلك المراكب بالرايات والأعلام كما يقف المشايخ على جوانبها الأربعة يحملون آلاف القناديل والرايات، وبخلاف تلك المراكب المسماة العقبة، يستأجر آلاف الزوار والمشايخ حوالى مائتى قطعة من الزوارق والقوارب والسفن الصغيرة، حيث يزينون صفحة نهر النيل، وفى وقت الضحى يتحرك الموكب من مدينة بولاق باثنتى عشرة سفينة كبيرة تسمى «عقبة» وما يقرب من ستمائة أو سبعمائة مركب صغير تحمل جميعها حوالى أربعين ألف أو خمسين ألف شخص، ثم يُطلق الجنود الموجودون طلقة من البنادق وطلقة من المدافع، ثم تدق طبول خليفة البدوى، ويردد كل المريدين كلمة التوحيد، وتسير المراكب مع اتجاه النيل، ويُنفخ فى النفير.

وعندما يصل المريدون إلى المكان المواجه لإمبابه يقرأون الفاتحة، ويعقدون النية على الذهاب إلى البدوى، وفى هذه الأماكن بخلاف السفن استشعر الحقير الذوق والصفا مع

ثمانية مشايخ فتارة مع الشيخ مصطفى الرومى وتارة مع الشيخ عثمان الكلناسى والشيخ الإمبابى والشيخ أحمد القليوبى.

وشاهدت القصبات والبلدان المعمورة التى تشبه الجنان على ضفتى النيل المبارك، ودَوّنّا أوصافها فمنها:

قصبة شبرا الواقعة على ساحل النيل فى مكان قريب من مصر القاهرة بثمانية أميال وهى قصبة عامرة آهلة بها ألف منزل ومبعة جوامع وأسواق وحمام، وتزينها بساتين النخيل، ويديرها رئيس فرقة من طائفة إنكشارية مصر، وتشتهر شبرا بالبطيخ والشمام والذاهب أو الآتى منها يشترى البطيخ، يحصل منها ألفى قرش سنويًا، وهى مركز الإنكشارية، ولها ملتزم.

ثم تقدمنا مسيرة عشرة أميال فبلغنا جزيرة بطن البقر، وهى عبارة عن رأس فى وسط النيل المبارك يتفرع عندها النيل إلى ذراعين، فقد قام سيف بن ذى اليزن بشق هذين الذراعين بعد عصر نوح ـ عليه السلام ـ، الذراع الأيسر منه يتجه ناحية الغرب، إلى بندر رشيد وطوله (   )[1] ميل أما الذراع الثانى وهو الأيمن فيتجه شمالاً إلى بندر دمياط وطوله (   )[2] ميل، وبين هذين الذراعين جزيرة عظيمة عبارة عن كشوفيتين؛ الأولى كشوفية الغربية والثانية كشوفية المنوفية، وهذه الجزيرة مزينة بآلاف القرى العامرة، بوسطها مقر كشوفية الغربية وعلى أرضها قصبة طنطا المدفون بها السيد أحمد البدوى، وهذه الرأس المسماة بطن البقر تقع فى أرض المنوفية وكل مراعيها أميرية، حيث يقوم رئيس فرقة الجبه جيه[3] بمصر بتجفيف الفروع والأخشاب الموجودة بتلك المراعى وتحويلها إلى فحم حيث يضعونه فى مصر على البارود الأسود، فتزداد قوة البارود، وقد سرنا من هذا المكان بالسفن فى ذراع النيل المتجه إلى دمياط، وعبرنا قنطرة الملك الطاهر الواقعة يمين أرض قليوب، وهى جسر عظيم به ألوان قوس قزح يعبره الذاهبون من مصر إلى قليوب وإلى المنصورة ودمياط، إنه صراط عظيم لم نشاهد مثله،

(١ ، ٢) بياض فى الأصل.

(٣) سلاح الذخيرة.

ثم مررنا بقرية مصرخيم الواقعة على ضفاف النيل، والشيخ عبد الله مصرخيم مدفون بها في ضريح مغطى بقبة صغيرة بيضاء، وقد توقفت كل المراكب أمام هذا الضريح ودُقت الطبول وذكرو الله، ثم لبحرت المراكب مرة لخرى، وهذا المكان هو الحدود بين الغربية والمنوفية، وتلاطم النيل في هذا الموضع شيء ظاهر، وقد تحطمت بعض المراكب من شدة تيار المياه، وعبرنا ذلك المكان والكل يسأل الله أن نعبر طريقنا بسلام، ويصل ماء النيل إلى قمة اندفاعه، وفي وقت الغروب ترسو كل السفن على جانب النيل، حيث يكونوا في مأمن من الإبحار ليلاً، وفي ذلك المكان قرية تسمى قرية العفريت، وهي قرية كبيرة تقع في أراضي الغربية بها مائتي منزل وجامع، ويشتغل معظم الأهالي هناك بصناعة الأكواب، وبها قصر مشهور مثل حدائق إرم، قام ملوك مصر السلف بصرف خزينة على هذا القصر من خزائن مصر، وفي وقت قريب سكن هذا القصر شخص يدعى فضلي أغا، وفي أحد الليالي رأى فضلي أغا شخصًا عظيم الجثة يهجم على القصر، فظن فضلي أغا أنه لص فجمع الحراس وتسلحوا ونادى فيهم أن يهجموا على اللصوص وعندما أطلقوا النار وضربوا بالسيوف، أصيب أحد اللصوص ولكنه لم يمت، أما حراس فضلي أغا فقد أصيب بعضهم بالصرع وأصيب البعض الآخر باعوجاج في يده وفمه وأنفه، وبالرغم من ذلك ظل فضلي أغا وحراسه يحاربون بشجاعة لمدة ساعة، ثم فروا هاربين من القصر، ثم سد أهالي القرية باب القصر بالطوب وظل على حاله حتى الآن، ولا يستطيع أحد أن يدخله، حتى عندما وصلنا هناك سألنا أهل القرية عن هذا القصر فقالوا: «إنهم في بعض الليالي يرون قناديل تضيء فوق سطحه، ويسمعون صوت دق الطبول، وفي صباح تلك الليالي يجدوا على حوائط القصر منسوجات بيضاء وسوداء لا هي من صوف الإبل ولا هي من صوف الأغنام، إنها منسوجات لا مثيل لها في الدنيا، إنه بلاء مسلط على قريتنا، ولكن لا ضرر منه على أولادنا وأهلنا».

أما فضلي أغا وجميع حراسه فإنهم يعيشون الآن بصحة جيدة، ولا يعرف أحد مقدار أمواله التي تركها في القصر عندما فر هاربًا، فقد زادت الضعف وهذا ما نقله

أهل القرية لنا، ويخرج كل الزوار من المراكب وينزلون على شاطئها ويطهون الطعام، وقد أخذ الشيخ مصطفى الرومى عشرة نعاج وطبخها وقدمها للعجوص والمساكين مصداقًا لقوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ [الإنسان: ٨] فمما لا شك فيه أن هذا الجمع الكبير من الناس به المساكين والأيتام والفقراء حيث يتناولون الطعام جميعًا، وبعد الطعام والحمد والثناء يبدأ الذكر، وفى وقت العشاء تسكن الرياح ويطلق الشيخ مصطفى طلقة مدفع من سفينته فيسير الموكب وتُشعل آلاف القناديل فى المراكب وتطلق السفن قذائف المدفعية والبنادق الفشنك.

وقد مررنا فى تلك الليلة ببلدان وقرى عامرة بالحدائق والبساتين وكأنها حدائق إرم، وتزينت صفحة النيل المبارك بالسفن، ويتولى الملاحون توجيه السفن يمينًا ويسارًا حتى يتمكنوا من اجتياز هذا المكان بسلام، بينما الراكبون يذكرون ويرددون يا مولا يا فتاح، وعندما يقول الشيخ مصطفى خليفة البدوى اذكروا الله يا إخوان، يرد كل العاشقين والمشتاقين بكلمة التوحيد لا إله إلا الله ويبدأ المريدون فى التهليل فيصبح وجه النيل المبارك كله ذكرًا لله، ويُغمر ماء النيل فى النور ويُدهش كل الموحدون ويصيحون وقد غابوا عن الوعى من شدة الوجد، وعندما يستمع أهالى القرى الواقعة على ضفاف النيل، وتسير السفن على هذا النحو حتى صلاة الفجر وعند صلاة الصبح ترسو كل السفن على جانب النيل.

منزل قصبة التفاحية وهى قصبة عامرة تقع فى أراضى الغربية بها ثلاثمائة منزل وحدائق وبساتين نخيل وجامعين ذوى مئذنة رشيقة موزونة وما يقرب من أربعين أو خمسين حانوتًا وحمام، ولهذه القصبة ملتزم، بالجهة الجنوبية لها ضريح السيد داود العرب وهو مجاور لجامع باسمه، وللسيد داود العرب مولد كل عام يجتمع فيه أناس كثيرون، إنه شيخ عظيم فى منزلة السيد البدوى وله مناقب فى طبقات الشعراوى، ولو دخل قاتل أو لص أو مدين تكيته لا يستطيع الحاكم أن يقبض عليه، وذلك لأن المتهم الذى يدخل التكية لو ثبت فى حقه أنه مذنب فإنه يتوب بمجرد دخوله التكية، كما أن الدائن إذا دخل التكية يؤدى ما عليه، إنه سلطان عظيم قُدّس سره العزيز، ويقوم كل

الزوار بزيارة تكية الشيخ داود العرب ثم يركبون السفن مرة أخرى ويبحرون مقدار ثلاثين ميلاً حتى يصلوا إلى قرية مبهوم وقرية شبراتين وهما قريتان عامرتان بهما ثلاثمائة منزل وبساتين نخيل وجامع، تقع هاتان القريتان فى أراضى الغربية، ويمر الزوار من عليهما ويبحرون مقدار عشرة أميال.

أوصاف قصبة زفتى وتعنى فى اللغة العربية (   )[1] وترسو كل السفن على جانب النيل المبارك فى الجهة الشمالية لهذه المدينة ويخرج منها كل الزوار وينصبون آلاف الخيام على ضفاف النيل حيث يبيتون بها يومين ويأتى الجمالون والبغّالون وأصحاب الحمير من كل القرى لتأجير الدواب لتحميل أمتعة وأغراض الزوار، والمسافة بين زفتى والسيد أحمد البدوى خمس ساعات تقريبًا.

أوصاف مدينة زفتى

مدينة زفتى عبارة عن قضاء شريف يُحصل مائة وخمسين أقچة، تقع على ضفاف النيل تحت حكم حاكم الغربية ويتبعها سبعون قرية عامرة، يحصل لقاضيها سبعة أكياس من الأموال المصرية، وكل قرى زفتى إلتزام لعباس أغا الذى كان أغا للبنات قبل ذلك، ومدينة زفتى مدينة عامرة، بها خمسمائة منزل للفلاحين كما يوجد بها بساتين للنخيل وغلالها مشهورة وقمحها جيد وبها ثلاثة جوامع؛ الأول منها الجامع الكبير عند الميناء ويبلغ طوله مائة خطوة وعرضه مائة خطوة أيضًا، له مئذنة ذات ثلاثة طوابق وثلاثة أبواب، وبفنائه شجرة سدر، ويوجد جامع آخر بالقرب من الميناء وهو جامع صغير له مئذنة واحدة ذات طابق واحد، ويوجد جامع ثالث صغير بنائه حديث، وبخلاف تلك الجوامع توجد سبعة زوايا بالمدينة ولا يوجد بالمدينة مدرسة أو حمام، وبها خمسة وعشرين حانوتًا وستة مقاهٍ وبها الجاموس والأبقار البلدية، ولعدم وجود حمام بالمدينة يذهب الأهالى إلى حمام عباس أغا بواسطة القوارب، وفى الناحية المقابلة لزفتى

(١) بياض فى الأصل.

فى أراضى المنصورة تقع مدينة ميت غمر، وتعنى فى اللغة العربية (   )[1] وهى قضاء مائة وخمسين أقچة تقع تحت حكم حاكم المنصورة يتبعها (   )[2] قرية، يحصل منها سنويًا ستة أكياس والتزام هذه المدينة للأمير أبو السيف أحمد بك وهو من أمراء مصر، وتشتهر ميت غمر بسكرها ويكثر بها الرُّمان والتمر، وبساتينها ونخيلها ممدوحان، والمدينة تقع فى صحراء واسعة على ساحل النيل بها أربعة آلاف منزل معظمها مغطى بالطوب الجيرى، وتشتهر المدينة بأعيانها وعلمائها وأشرافها، فقد اشتهر العلماء الغمراويون فى كل أقاليم مصر، فبها المئات من المصنفين والعلماء والمؤلفين وبالمدينة تسع نواحٍ تتبعها، وبها خمسة وأربعون محرابًا منها تسعة جوامع جامعة فقط، أما الباقين فهى مساجد صغيرة، وهى على التفصيل؛ الجامع الكبير ويقع فى السوق وهو من بناء حماد بن بقر ويتسع لجماعة كبيرة، يبلغ طوله مائة خطوة وعرضه ثمانين قدمًا، وبه مئذنة رشيقة ذات ثلاث شرفات عند باب الجامع، يبلغ طول تلك المئذنة مائتين وخمسين قدمًا تقريبًا وفى أعلاها مكان للراية كما تعلوها قبة صغيرة تشبه الكوب، يعلو ذلك كله راية خضراء وحاصل القول أنها مئذنة غاية فى براعة البناء لا يمكن التعبير عنها، ومحراب المسجد ومنبره على الطراز القديم، وحول فناء المسجد وبداخله ستة وثلاثين عامودًا من المرمر الملون، وللجامع ثلاثة أبواب لكل منها سلم يبلغ خمسة أقدام لأسفل ينزل من خلالها إلى المسجد، ودائمًا ما يكثر العلماء فى هذا المسجد يدرسون ويتباحثون فى المسائل العلمية، كما يتواجد به أشخاص من أتقياء الأمة، أما الجامع الموجود عند رأس الميناء فهو جامع جديد ويتسع لأناس كثيرون، وبالقرب من المحكمة الجامع المعلق، وقد أسموه المعلق لأنه يصعد إليه بسلم حجرى يبلغ ارتفاعه ثلاثة عشر قدمًا ويدنو من الجامع حوانيت وميضئة للوضوء وحوض شافعى، إنه جامع غاية فى الجمال، وجامع آخر لم نعلم اسمه، أما المحاريب الباقية فهى مساجد صغيرة لا تعد جوامع، وبالمدينة سبعة مدارس، واثنا عشر مكتبًا للصبيان، وأسبلة فى سبعة أماكن بالمدينة وسبع وكالات تجارية وستمائة حانوت، ولا يوجد بها سوق مبنى بالطوب، إلا أن تلك الحوانيت المذكورة بها كل شىء، وتنتشر المقاهى بها

(١ ، ٢) بياض فى الأصل.

على ضفـاف النيل، وكان القرآن يُتلى فى كل دكاكين الحـرفيين، فيوجد هنـاك حَملة القرآن، وبها أيضًـا ما يزيد على ثلاثة آلاف مفسـر ومحدث إنها مقر العلمـاء التى تلى الأزهر الشريـف إنها ميت غمر، وبـها رجال عظام يقولـون عليهم علمـاء الغمراوى، والحمد لله أن ذهبنا إلى هذا العالم وهو يشرح تفسير ابن جرير ودعا لنا بالخير. ويشتهر أهالى ميت غمر بالذكاء، وهى بلدٌ هواءُه لـطيف وماءُه عذب، وعشاقها مشهورون فى الآفاق، حتى أنه فى بعض البلدان عندما يريد أحدهـم مدح محبوبته يصف عينها بأنها عين حوران وعين الغمراوى، والـعجب أن أهل مصر لا يضعون كُحْـلاً فـى أعينهم لذا تجد أعينهم جميعًا مشوشة، أما عين الغمراوى فهى ممدوحة بين الناس، وخلاصة القول إنها مدينة كثيرة الغلال.

فى بيان الأضرحة الموجودة بميت غمر

ضريح الشيخ عبد الله وهو مدفون فى قبة عالية فى المكان المقابل للمحكمة، ووسط بساتين النـخيل الواقعة فى الجانب الشـرقى خارج المدينة توجد أضرحة كُـلٌ من الشيخ محمد المنصورى والشيخ عز الدين الواعظ والشـيخ شجاع الدين الشنلوانى والشيخ سيد خلف والـشيخ سيد محـمد القصرى والشـيخ يونس الأحمدى والـشيخ محيى الـديـن والشيـخ إسماعيـل والسـادات الأربعيـن والشيـخ محمـد الهنـدى والشيخ أحمد الزنفلى ـ رحمة الله عليهم أجمعين ـ.

كما دخلـنا حمام المدينة ويُعَـدّ حمام ميت غمر مـن الحمامات السبعة المـشهورة فى مصر، بناءُه ومياهه وهواه فى غاية اللطف، أدينا صلاة الجمعة فى الجامع الكبير، وكان لنا نصيـب من دعوات أهل الحال، وركبنا المـراكب مرة أخرى ومررنا بقصـبة زفتى من الناحية المواجهة لميت غمر، وتوجهنا صوب ناحية الغرب مع مجموعة من الخيالة العرب وخمسة من الجنـود ومررنا بعشرين قرية عامرة بـحدائق النخيل والبساتـين ودخلنا قرية شرسنة ومكثنـا هناك فترة حيث تناولنا الطـعام، إنها قرية عامرة بها مائتـى منزل معظم أهلها من السادات الكرام، أجدادهم حضرة الشيـخ أبو العز والشيخ على المدنى والشيخ

رمضان الواحدى وكلهم راقدون فى أضرحتهم إلى يوم الدين، تقع هذه القرية فى أراضى منوف، بها جامع وتكية ودار للضيافة كثيرة الخيرات وهى التزام ليوسف آغا إغا الانكشارية من أغوات الكتخدا إبراهيم باشا. ويُحصل منها سنويًا ستة أكياس.

وفى الساعة الثالثة وصلنا مدينة العرش القديم المدينة العظيمة منوف، وكلمة منوف كلمة قبطية تعنى العدد ثلاثين، فقد بُنيت عدة قرى بعد طوفان نوح منها قرية الجودى الواقعة تحت سفح جبل الغورى بالقرب من الموصل، كما تم بناء مدينت بلبيس والعريش ومن بعدهم مدينة منوف فى أرض ساحان، وتقع المدينة فى صحراء تبعد ساعتين عن شرق النيل وساعتين عن غربه، ويقول المفسرون أن منوف مدينة القدماء، وهى المدينة المقصودة فى الآية الكريمة: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [القصص: ١٥] ويذكر المؤرخ المقريزى فى خططه ما نقله عن تواريخ القبط والتواريخ التى كانت موجودة أيام الخليفة المأمون وهى التواريخ الخاصة بإدريس عليه السلام ووجدها المأمون فى جبل الأهرام، أن فرعون موسى خرج من ديار الموصل فى أرض بابل وسكن فى مدينة منوف وترعرع بها، ثم أصبح حاجبًا على مصر ثم حاكمًا عليها، واتخذ منها عاصمة له، وعَمّرها أكثر مما كانت عليه.

وبداية عمران هذه المدينة كانت فى عهد بيظر بن حام بن نوح، فقد استأذن بيظر من جده نوح ـ عليه السلام ـ بعد الطوفان وجاء إلى جبال الأهرام المواجهة لمصر القديمة، وكان معه حماه الحكيم قليمون، فلم يجد بيظر وقليمون أى أثر للأبنية التى كانت عامرة قبل الطوفان إلا جبال الأهرام، وقد رأى بيظر وقليمون أن هذا المكان لا يصلح أن يكون سكنًا لهما، وسارا حتى بلغا الموضع الذى به منوف الآن، وبدأ فى بناء المدينة، وبيظر بن حام بن نوح هو النبى الذى وطئت قدمه مصر بعد الطوفان، وكان معه تسعة وعشرين شخصًا أى أنهم كانوا ثلاثين شخصًا وهذا سبب تسمية المدينة منوف، ومن يقول أن أصل كلمة منوف من ماف فهو غلط، وعمّر بيظر بعد ذلك مائة عام، وقد أنشأ بمدينة منوف الآثار الكثيرة ويعد بيظر بن حام هو أول حاكم على مصر فى التاريخ، وأول بناء له هو مدينة منوف هذه، واستخرج الكنوز الكثيرة من باطن الأرض

بناء على تعاليم حماه الكاهن قليمون، وبنى سبعمائة مدينة محصنة بالأسوار، وبيظر هو أول من شق الخلجان والأذرع من نهر النيل على أرض مصر بحساب الهندسة، وقد توفى بيظر والحكيم قليمون بعد السنة السادسة بعد ثمانمائة وألف بعد الطوفان ودفنا فى الهرم الواقع فى الجهة الغربية لهضبة الأهرام، وهما أيضًا أول من دفنا فى مصر بعد الطوفان، وأصبح ابنه مصرايم حاكمًا مكان أبيه وهو الذى قام ببناء مصر القديمة لذا سموها مصر على اسمه، واتخذ مصرايم مدينة منوف عاصمة له مثل والده وعمرها أكثر مما كانت.

بعد ذلك تولى عرش مصر دلوكه بنت زيباك، وكانت منوف فى عهدها عامرة للغاية حيث بنت قلعة لم يبنى مثلها فى ذلك الوقت، كان لهذه القلعة سبعون بابًا، وقد صُفِّحت كل الآثار بالرصاص والحديد والنحاس، وأصبحت دلوكه هذه ملكة على مصر بعد أن ظلت زوجة لفرعون عشرين عامًا، واتخذت من مدينة منوف عاصمة لها، وقد تزينت المدينة فى عهدها إلى أقصى درجة حتى أن كل الأسطح والأسقف كانت مغطاة بالفضة الخالصة، وكل زجاجها من النجف والزجاج والبللور، وبعد استشهاد يحيى ـ عليه السلام ـ أى قبل ميلاد الإسكندر بمائة وعشرين عامًا خرج بخت النصر[1] من مدينة الموصل، وضرب مدن الشام والقُدس ومصر ومدينة منوف عاصمة مصر وحوّلها إلى تراب، وأحرق بنى إسرائيل وبذلك انتقم بخت النصر لدم يحيى ـ عليه السلام ـ نظم:

خرّب بخت النصر مصر   فلم يَبْقَ بها إيوان أو قصر

وبأرض جزيرة الغربية كشوفية أخرى هى كشوفية منوف، التزامها مائة وسبعون كيسًا، كان حاكمها ميرزا الكاشف يشتهر بالشجاعة والصلاح حيث كان حاكمًا على منوف وخمسمائة ناحية تابعة بها، وتحت إمرته ألف جندى من جنود الفرقة السابعة من جند مصر، كانوا يحصّلون الأموال الأميرية له ويقدمون كل عام مائة كيس من العملات المصرية، وهى أعلى حكومة، كما يتحصل لكل الملتزمين مائة حمل من العملات

(١) هو بختنصر، والخبر فى المعارف لابن قتيبة ٤٦ ـ ٤٧ وغيره.

العثمانية، ويتحصل لكل مشايخ الفلاحين وأصحاب البلاد ألف حِمل من المال، وهذا مدون فى سجلات الأحوال اليومية.

ومنوف قضاء شريف به ثلاثمائة وعشرين قرية عامرة، يُحصّل من كل قرية منها للقاضى عشرة أكياس سنويًا، ويبقى للملتزم طرقجى زاده سبعة أكياس من كل قرية، ولأن منوف كانت مدينة العرش الفرعونى فإن فلاحيها كانوا عصاة وملاعين وبلا حياء ودائمًا ما يجمعون بعضهم لمحاربة الكاشف وقد هزمهم الكاشف وقتل بعضهم وحبس البعض الآخر.

عجيبة وغريبة

لقد ذكرنا أن أهالى منوف قومًا معاندين ملاعين، ولو أصدر الكاشف حكمه بقتل أحد أشخاصها يتجمع أهالى هذا الشخص المحكوم عليه بالقتل ويذهبون للكاشف ويلتمسون منه الرجاء بعدم قتل هذا المجرم وإنهم سوف يدفعون الدية، وقد عُرف عنهم أنهم منهم اللص والنشال وقاطع الطريق وصاحب اللموم أى الذى يشعل الفتنة بين الجند، وهؤلاء جميعًا ينبغى قتالهم.

وبمدينة منوف جند تحت إمرة الكاشف وأسماءهم تختلف عن أسماء الروم فمنهم الأمير أوزبك والأمير تيمور وتيمور طاش وتمرس وقنصوه وغورى ولاجين وقرصفاى وبولاد وكرتباى وشاهين وسيتال وجابة بذرى وجابة الذى وجابة وردى وأسد وسيفى وجانبولاط، ويسير هؤلاء الجنود دائمًا وفى خصورهم السلاح، كما أن لهم منازل عامرة ولم يتبقى بالمدينة من آثار الأوائل إلا سبعة عشر محلة وأربعين جامعًا.

من تلك الجوامع الجامع الكبير وهو جامع فسيح به أربعون عامودًا تحمل السقف، وله مئذنة، وثلاثة أبواب، وبفنائه شجرتى نخيل ارتفاعهما كبير وحجمهما كبير أيضًا، ولا يوجد مثلهما فى إيالة مصر كلها، وقد قيل أن هاتين النخلتين مزروعتان من أيام الملكة طوكه وأنها كانت تعقد الديوان عندهما.

وبالسوق جامع الصوين وبه ثمانية عشر عامودًا تحمل السقف المزين بالنقوش، وأسفل الجامع حوانيت، ولوجود الجامع فى السوق فإن جماعته كثيرة، وللجامع مئذنة

بديعة البناء. ثم جامع الشيخ موسى وهو جامع لطيف، وبخلاف تلك الجوامع توجد المساجد الصغيرة، كما يوجد بالمدينة أربعين مكتب للصبيان وثلاثة مدارس وسبعة وكالات وأربعمائة حانوت وبالرغم من عدم وجود سوق للقماش إلا أن كل وكالة من الوكالات السبع المذكورة بها حانوت لبيع الأقمشة، كما يوجد حمامان قديمان أحدهما من أيام فرعون، والحقيقة لا يوجد بناء يشبهه منذ خمسمائة أو ستمائة سنة، وبالمدينة أربعون سبيلَ مِيَاهٍ، وعند رأس الزاوية فى مواجهة جامع الصوين داخل السوق يوجد سبيل مياه، ماءه هو ماء الحياة، وبالرغم من أنى شاهدت كل هذا العمران بمدينة منوف، إلا أن أطلالها وأخنانها القديمة كثيرة، وهذا دليل على قدم المدينة، فالأخنان الموجودة فى الجهات الأربعة من المدينة لا توجد فى أى مكان آخر فى مصر سوى فى هذا المكان، حتى أن قصر فرعون غاص فى الرمال، ويقوم الأهالى بإلقاء القاذورات فى مكانه، وتراكمت تلك القاذورات فوق بعضها البعض حتى صارت كالجبل، وعندما يفيض النيل تأتى المراكب لمدينة منوف ويشترون البضائع والأمتعة.

يتميز طقس المدينة بأنه طقس لطيف، رغم أنها كانت مدينة الفراعنة، إلا أنه يوجد بها أشخاص من صلحاء الأمة.

مزار منوف

لأن مدينة منوف مدينة مذمومة، لم يستوطنها أحدٌ من كبار الأولياء، إلا بعض المشايخ وذلك للنص القرآنى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، وهم: مقام الأربعين، ومقام الشيخ ليمان البجوى، ومقام الشيخ دالكون، وهو قبة صغيرة بالسوق، وهو سلطان عظيم، يقام له مولد كل عام ويقال إن كل أرواح الأولياء تأتى يوم مولد هذا الشيخ للزيارة، بل إن الأهالى شهدوا على أن يوم مولد هذا الشيخ يجدون دخانًا أخضر ينبعث من الضريح وينتشر فى كل طرقات المدينة وتنتشر الرائحة الطيبة فى كل الطرقات، ويقال إنهم لم يشاهدوا شخصًا رأى العين بل يسمعون صوت طرق نعال داخل الدخان، رحمة الله عليه، وقد قام الحقير بزيارته فأحسن عليه الكاشف بجواد كحيلانى.

وخرجنا من منوف مع عشرين خيالاً من العزب وسرنا فى اتجاه الشمال خمس ساعات حتى وصلنا بلدة طوخ النصاري وكل سكانها من القبط، وقد كانت مدينة عظيمة قديمًا ولا تزال آثارها ظاهرة للعيان، ولم يتبقى من منازلها إلا لمامائة منزل فقط وثلاث أديرة، ولهذه البلدة مكانة عند كل القبط، فهى مسقط رأس الملك القبطى الملك طوطيس وهو مدفون فى أحد الأديرة هناك، وهذا الملك طوطيس هو الذى أهدى سيدنا إبراهيم أمنا هاجر والدة سيدنا إسماعيل، وقد ولد فى تلك المدينة للملك المقوقس الذى كان يحكم مصر أيام فتح عمرو بن العاص، ولهذا فإن كل القبط يعظمونها، ويزورونها مرة كل عام، والملك المقوقس هو الذى أرسل مع ذى النون المصرى البغلة والسيف وفتاتين من القبط إلى سيدنا محمد ﷺ، أهدى الرسول ﷺ فتاة منهما إلى حسان بن ثابت وأنجب منها حسان ابنه عبد الرحمن، أما الثانية وهى مارية فقد أخذها النبى ﷺ لنفسه وأنجبت له ابنه إبراهيم، وأهدى السيف والبغلة إلى على بن أبى طالب وهذا السيف هو ذو الفقار، وقد نظم العجم فى هذا السيف:

لا فتى إلا علىّ، ولا سيف إلا ذو الفقار

أما البغلة فهى دلدل. وبقرية طوخ النصارى مكان منخفض به آثار حوافرها، لأنها مشت فيه، لذا فإن كل القبط يأتون لزيارة هذه القرية، ملتزمها هو على افندى الروزنامجى فى إستانبول ويحصل سنويًا سبعة أكياس، وقد سرنا فى تلك القرية، ثم هرولنا فى المسير حتى نتمكن من الوصول إلى مولد أحمد البدوى قبل المولد بيوم، واجتزنا القرى العامرة فى خمس ساعات.

أوصاف قصبة طنطا

مرقد أبو الفتيان السلطان العلوى

وقطب الأقطاب السيد أحمد البدوى قُدّس سره

مدينة طنطا مدينة مباركة مدفون بها السيد أحمد البدوى، تقع فى مكان مرتفع بالصحراء فى أراضى الغربية، ملتزموها ثلاثة وهم مكلفون بجمع المحاصيل، ويحصّلون منها سنويًا عشرة أكياس ويقدمونها للجانب الميرى، وتعد المدينة بمثابة مركز

كاشف الغربية وهى مدينة آهلة بها ألف وخمسمائة منزل بدون حدائق أو بساتين، ويتبعها ستة محلات وبها ثمانية جوامع هى جامع السلطان قايتباى وهو جامع عظيم مثل القلعة من جوامع السلاطين السابقة، وبه ضريح السيد أحمد البدوى، لذا يعج الجامع بالناس ليل نهار، يبلغ طول فنائه مائة وعشرون خطوة وعرضه مائة خطوة، وللمحراب والمنبر على الطراز القديم، وبالجامع وفنائه ستون عامودًا من المرمر أربعة وعشرون منها داخل الجامع والباقون فى الفناء، على تلك الأعمدة قبوات عظيمة يعلوها السقف المزين بالنقوش والسطح مغطى بالجير وللجامع مئذنتين الأولى فى الناحية اليمنى وبها ثلاث شرفات، ويبلغ ارتفاعها مائتى قدم، وبهذا تكون تلك المئذنة أعلى من مئذنة جامع السلطان حسن فى القاهرة إنها مئذنة بديعة الصنع.

ويقع ضريح البدوى على مقربة من تلك المئذنة، أما المئذنة الواقعة فى الناحية اليسرى فهى مئذنة قديمة مثل البرج بها شرفتين ترتفع لخمسين قدمًا، بين كل قدم وآخر مقدار ذراع وهى منخفضة عن الأخرى، ولا توجد رايات فوق تلك المآذن، ولكن تعلوهما قبتين صغيرتين مثل القلنسوة البكتاشية.

أسفل هذه المئذنة المنخفضة صهريج كبير لسبيل مياه، يُملأ هذا الصهريج خمسة عشر راوية (قربة)، ويكفى ماؤه كل الزوار، وبالقرب منه صنابير مياه مظللة بقبة مثل قبة القصر، مغطاة بالكلس، إنه خيرات عظيمة، وعلى مقربة منه حوض مياه يطلق عليه حوض الشافعى وهو حوض عظيم مثل البركة، تحيط به المراحيض من جوانبه الأربعة، أما أعلى الحوض فتوجد غرف للطلاب والمريدين ولهذا الجامع أربعة أبواب اثنان منها جانبيان الأول للميضأة والثانى باب صغير عند حائط القبلة والباب الثالث باب القبلة وهو الباب الرئيسى وتعلوه لوحة مرمرية بيضاء كتب عليها (جدد هذا الباب المعظم الإمام المعظم مالك المماليك السلطان أبو النصر قنصوه الغورى خلد الله خلافته فى تاريخ ذى الحجة الحرام من إحدى وعشرين وسبعمائة) ولكن الجامع من بناء السلطان قايتباى، وقد اطلع الحقير ذات مرة على أوقاف الجامع، ولكل باب من الأبواب الثلاثة للمسجد سلم حجرى يرتفع ثلاثة أقدام.

أوصاف ضريح أحمد البدوى

يتصل ضريح البدوى بالباب الأيمن للجامع، وتوجد قبة عظيمة مطلية بالكلس الأبيض الذى يشبه اللؤلؤة ذات أعلام خضراء بين القباب الجانبية الواقعة فى الناحية اليمنى للجامع إنها قبة تكية القطب الربانى أحمد البدوى، بوسط هذه التكية ضريح البدوى وهو عبارة عن صندوق من خشب السرو مغطى بقماش من أستار الكعبة المرصعة بالنجوم المذهبة داخل سياج خشبى على شكل مصبعات، وعلى كل زاوية من زوايا الصندوق كرة من الفضة الخالصة، وفى وسطه عمامة خضراء أرسلها والى مصر أبو الخير الكتخدا إبراهيم باشا لتكون علامة على موضع رأسه المباركة.

وذهب الموكب الذى يضم مشايخ الطرق وخلفاء البدوى وعشرين ألف مريد على دق الطبول والتوحيد لإيصال القماش الشريف للضريح، وقام خليفة البدوى بلف القماش على هيئة العمامة عند رأس البدوى وسط التكبير، كما قاموا بلف الضريح بالقماش المنقوش والمشغول بالذهب والفضة، والأقمشة المزينة المطرزة بالذهب والفضة فى ضريح البدوى كثيرة، ولا يستطيع أى شخص من الخدم أو غيرهم أن يمد يده ليأخذ واحدة منها، وقد عمد الكثيرون إلى هذا ولكن أيديهم شُلّت عن الحركة ووضعت الهدايا التى جلبها الوالى وفرشت السجادة وأشعل بخور العنبر فامتلأت القبة بالرائحة الطيبة، وعلى شبكة الضريح توجد معلقات كثيرة قيمة كل واحدة منها تساوى خراج الروم، كما توجد تحف وأشياء ثمينة حول الضريح من جهاته الأربعة مثل الشمعدانات الفضية والذهبية التى يبلغ طول الواحد منها مثل طول الرجل، وشمعدانات نحاسية وأوانى فضية وذهبية ومباخر فضية وذهبية وأكواب فضية، والضريح من الداخل مزين بالخطوط الجميلة وهى من خطوط ياقوت المستعصمى والشيخ قره حصارى، وبالجوانب الأربعة توجد مئات الشموع الكبيرة، التى تزن الواحدة منها ثلاثة أو أربع قناطير، وكلها من هدايا ملوك الكفار وذلك لأنهم يعتقدون فى البدوى أيضًا، ويفرج عن الأسر من الزنزانات وتقطع سلاسلهم ويمنحون الحرية، ويُرسل سلاطين البلدان الإسلامية فى الأقاليم السبعة الهدايا والتحف إلى البدوى تبركًا، منها الجواهر والقناديل المرصعة والأكواب والأباريق الفضية، وكل هذه التحف

والأشياء الثمينة معلقة على زوايا الضريح، وبخلاف هذه الأشياء توجد أيضًا آلاف من الأشياء الملونة المعلقة على الحوائط التى زُينت بالخطوط الجميلة لكبار الخطاطين، حتى أن الحقير كتب آية: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ﴾ [هود: ٨٨] على لوحة خشبية بالخط الجلى ووضعتها بجوار المحراب.

وفى الناحية الموجود بها رأس البدوى يوجد حجر أسود عليه آثار قدم النبى ﷺ، لا يقع بصندوق الضريح بل خارجه، ويقوم الزوار بمسح وجوههم فيه، ويقولون الشفاعة يا رسول الله، وبالجوانب الأربعة للضريح نوافذ ذات سياج نحاسى تطل على الطريق العام، والمحراب صغير، بناؤه غاية فى الجمال، مرصع بالأحجار الكريمة التى تشبه الصدف، وزينت القبة بالزجاج، وبالتكية دواليب محفوظ بها كتاب الله والأوانى مرصعة بالجواهر، وسجلات للأوقاف، ويطل باب التكية على فناء الجامع إلى ناحية الشرق وضلفتى الباب مزينتان بالحلقات والنقوش الفضية، وكلها من آثار أصحاب الخير وإطار الباب من على الجوانب الأربعة مزين بقطع القيشانى المنقوش، وعلى الإطار العلوى له لوحة مرمرية دائرية مذهبة منقوش عليها بالخط الجلى:

(أمر بإنشاء هذا المقام المبارك مولانا السلطان قايتباى عز نصره).

ومن يصلِّ ركعتين فى محراب هذا الضريح يحفظ من كل بلاء الدهر، ولا يستطيع أى خصيم أن يخاصمه أو يعاديه، ولا يرى الفقر وإذا ما التجأ صاحب دين أو لص أو صاحب دم بهذا الضريح فإن الحاكم لا يستطيع أن يتعرض له طالما أنه بداخل الضريح أما إذا بقى هذا الشخص بالداخل أربعين يوم وليلة بلا طعام أو شراب فإنه سيموت بالطبع، وإذا كان الملتجئ إلى الضريح يلوذ به وهو مظلوم فإنه سيجد الخلاص بإذن الله، حتى أنه قد تداين أحد الكاشفين من المال الميرى، وفر هذا الكاشف من جراء هذا الدين والتجأ إلى تكية السيد البدوى واعتكف بها، وقد أرسل الباشا الأغوات مرتين للقبض عليه ولكنهم لم يستطيعوا، وفى أحد الأيام أرسل الباشا أحد الأغوات المتفرقة ويدعى على أغا وكان رجلاً متجبرًا، فأتى على أغا إلى ضريح البدوى وشتم الشيخ سلامة والشيخ أحمد وأخرج الفرمان وضرب به وجوههم وقال: لتخرجا الكاشف من

الضريح وإلا سوف أقبض عليكما وأرسلكما للباشا، فرد المشايخ: نحن؟ حاشا لله لن نستطيع إخراجه، ها هى المفاتيح أمامك خذها وافتح الباب واقبض عليه إن استطعت، فقال على أغا: أنتما اللذان ستفتحان الباب وتسلمانى الكاشف وإلا سأقوم بكسر الباب وإخراجه، وقد نصح الحقير على أغا بعدم كسر الباب قائلاً له: خذ المفاتيح وأخرج أنت الكاشف، وبعد ساعة كاملة من العناء لم يستطع على أغا أن يفتح الباب، فغضب وأمر خدامه بأن يخلعوا الباب وأخرجوا الكاشف من الداخل، فقال كل من فى المجلس حسبى الله وتحيروا لهذا الصنيع، حتى أنا تحيرت جداً، أما الشيخ سلامة فقال: اصبروا قليلاً وذهب إلى بيته، وركب الأغا المذكور وخدامه الخيول وذهبوا وعندما خرجوا من المدينة وهم بقرية طوخ النصارى أخذ على أغا يتأوه من شدة الألم ومات وذهب به خدامه إلى مدينة طنطا وهو ميت ودفن هناك، وقد أخبر الحقير الباشا بهذه الحادثة فعفى الباشا عن الكاشف، وتصدق بعشرة آلاف قطعة من المال على المريدين الموجودين بالتكية.

وتوجد حجرة خارج الناحية اليسرى للتكية، بها صندوق خشبى محفوظ به خرقة البدوى وعمامته الخضراء يحفظها بعض المريدين، ويقام لهذه الحجرة احتفال مرة فى العلم، تكون يوم الجمعة الأخير المتمم لمولد البدوى، حيث يقوم الشيخ عبد العال وهو ابن الشيخ البدوى بارتداء الخرقة والعمامة فى حضور المشايخ وآلاف المريدين وتدق الطبول والنفير والدفوف والنقارات ويخرج موكب عظيم به مئات الآلاف من الرايات ويكون كل جنود كاشف الغربية وكاشف المنوفية فى هذا الموكب ويدخل الشيخ عبد العال مدينة طنطا مع الموكب ممتطيًا جواده ويتجول بالمدينة، ثم يصلى الجمعة فى جامع الشيخ المدبولى بالمدينة ثم يذهب الشيخ مع الموكب إلى التكية حيث يحفظ الخرقة والعمامة ف الغرفة ثم يتفرق كل الزوار حيث يذهب كلٌ إلى بلده.

أوصاف الخرقة الشريفة والشال

الخرقة من القماش الأحمر ولكنها ممزقة إلى قطع صغيرة، أما الدستار فهو شال من صوف الإبل وقد تمزق بمرور الزمن وتم ترقيعه حتى لا يُبلى، ولا يستطيع أى أحد أن

يرتديه سوى أبنـاء المشايخ، والخرقة تفوح منهـا رائحة للعنبر الخام، توضـع الخرقة بعد نهاية المولد فى مكانها وسط تكبير العاشقين المشتاقين ثم يذهبون.

عاش السيد أحمـد البدوى فى عهد (   )[1] مدة عمره (   )[2] سنة وفاته سنة (   )[3] قُدّس سره العزيز، والحـمد لله أنه قد تسنى للحقـير زيارته وصلى عنده الصلوات الخمسة وقد ختم الحقير القرآن ثلاث مرات فى خمسة عشر يومًا بلياليها ووهب ثوابها للبدوى والحمد لله على ذلك.

اوصاف ضريح الشيخ عبد العال

يقع ضريح الشيخ عبد العال بجانب باب القبلة الرئيسى للجامع بمحاذاة ضريح السيد البدوى، ولا يوجـد أحد بالضريح غـيره، ويرقد الشيـخ عبد العال تحت صـندوق من خشب السرو مـغطى بالمخمل الأحمر، وعلى الـصندوق سياج خشبى مصـبع الشكل، والضريح من الداخل غير مزين بدرجة كبيرة.

ظل الشيخ عبد العـال خليفة للبدوى أربعين سنة فى حياته وأربـعين سنة بعد مماته، وكان صاحب سجادة، وله مـا يقرب من مائة وسبعين ألف مريد، عـاش مائة وعشرين سنة، وهو الذى عمّر مدينة طنطا، حيث كانت له قوة خارقة، قُدّس سره العزيز، وهو من مريدى الشيخ أحمد البدوى ولم يكن له نصـيب من العلم الظاهر بل كان له نصيب من علوم الباطن وارتحل عـن الدنيا إلى الآخرة مجردًا نظيفًا، وكان فى حـياته بمثابة ابن البدوى، حيـث فوض له البدوى كل الأمـور، وأبناؤه هم أصحاب الـسجادة الآن وكل الأوقاف تحت حكمهم، إلا أن نـظارتها منذ عهد السلطان قايتـباى فى عهدة ولاة مصر وعندما يحل واليًا جـديدًا يقوم باستدعاء هؤلاء المشايخ ويحاسـبهم عن تلك الأوقاف، حقًا إنها أوقاف عـظيمة بها أموال كثيرة حـيث تأتيها النذور والصدقـات من كل خلفاء ديار المسلمين وغير المـسلمين، ويطل باب ضريح الشيخ عبد الـعال على قناة الجامع أو على قبلته، على عتبته العليا لوحة مربعة كتب عليها بالخط الأبيض آية: ﴿نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ [الصف: ١٣] وبجوار الضـريح مرقد خمسة من أبناء الشـيخ عبد العال لم نعلم أسماءهم، قُدّس سره العزيز.

(١ : ٣) بياض فى الأصل.

فى بيان أولياء الله المدفونين بمدينة طنطا
وهم على طريقة البدوى

أولاً: بيان الموجودين خارج المدينة:

الشيخ نور الدين والشيخ عبد المجيد شمس الدين والشيخ حسن والشيخ عبد الكريم.

ثانيًا: بيان الموجودين داخل المدينة:

الشيخ سالم والشيخ عبد العزيز والشيخ سعد والشيخ السيد على البربرى والشيخ ركيل والشيخ السيد عبد الحق والشيخ السيد ذو النون والشيخ السيد عبد الله.

وبخلاف هؤلاء توجد العديد من الأضرحة التى قمنا بزيارتها ولكنها لمشايخ غير معروفين، ولكل شيخ منهم ضريح، رحمة الله عليهم أجمعين.

وبمدينة طنطا أيضًا جامع الشيخ إبراهيم المدبولى، وقد كان هذا الجامع قديمًا الجامع القديم بالمدينة، وقد تعبد فيه البدوى فترة طويلة ومقامه به الآن متهدم، وأحمد الله أننى قد أبلغت جانبولاط حسين باشا بذلك، فصرح لى بأن أقوم بمراجعة أوقاف هذا المحل، وقد تم ترميم الجامع من المال الفائض من أموال الأوقاف، وارتدى خليفة البدوى الخرقة الشريفة والشال الخاص بالبدوى وأدى صلاة الجمعة الأخيرة فى مقام البدوى الموجود به، إنه جامع قديم تتوسط فنائه شجرة سدر كبيرة، وقد بُنى هذا الجامع على أربعين عامودًا ولا توجد به زينات كثيرة، ومحرابه ومنبره على الطراز القديم، وللجامع بابان جانبيان، وباب لمقام البدوى ومئذنة منخفضة، وتنتهى الزيارات فى هذا المكان، وبذلك نكون قد انتهينا من أوصاف الجامعين أيضًا.

وبخلاف ذلك يوجد ضريح بين تلك الأضرحة وبه حكمة عجيبة، حيث تمتلئ أرضيته بالرمال، وفى أيام مولد البدوى تتحرك تلك الرمال ويخرج منها عظام بشرية، ويلتى آلاف الأهالى لرؤيتها حتى أن بعض الرجال يأخذون من تلك العظام، بعد ذلك تهب رياح قوية تتحرك على أثرها الرمال مرة أخرى فتختفى العظام تحتها، ويقول البعض إن هذه العظام هى عظام مريدى أحمد البدوى، ويقولون إنها تخرج أيام المولد

وتتحرك والبعض الآخر يقول إن تلك العظـام هى عظام الأشخاص الذين كانوا منكرين للبدوى ومنكرين لكرامته ومنكرين للذكـر والتوحيد بالدف والطبل، فدعا علهم البدوى قائلاً بأن لا يـرقد لهم جسد فـى التراب وبالتالـى تلفظهم الأرض فـى كل عام، والله أعلم، وقد شاهد الحقير بنفسه هذه العظام فى أيام المولد.

وبميدان الملعب زاوية كبيرة مثل الجامع لا توجد لها مئذنة ولكنها زاوية عامرة للغاية، ولا يوجد بالمديـنة مسجد يضاهيهـا، والزاوية من خيرات المرحوم عـلى بك الجرجاوى حتى أنها تعرف باسم مصطبة على بك، وأمام محراب الزاوية يوجد بركس عظيم قطره دائر ما دار ثلاثمـائة خطوة به أحواض لسقى الحـيوانات، يشرب منها معـظم الحيوانات كما يشرب منها كل الزوار ويجددون منها وضـوءهم إنها خيرات عظيمة، وبذلك يكون بالمدينـة أربعين محرابًا بـهذه الزاوية، منها اثـنان فقط جوامع جامـعة تقام بهمـا خطبة الجمعة، وقد ذكـرناها آنفًا، وما عدا هذين الجامـعين زوايا، وبمدينة طنطا حـمام صغير ومدرستين إحـداهما مدرسة السيـد البدوى وبها طلاب كـثيرون بها ما يزيـد على ألف شخص أعمى من حَفَظة كتاب الله يختمـون القرآن كل سبع أو ثمانى ساعات، وبجامع البدوى عمارة تقـدم الطعام مرتين فى اليوم للـمريدين والفقراء وعابرى السـبيل، حيث تقدم القمح مع حساء العدس وقطعة خبز وأئمة ومشايخ وخطباء الجامع ثمانمائة شخص يأخذون جرايـتهم ورواتبهم من أوقاف الـبدوى كما يتم طهو ثـلاثة أرادب قمح وأردب عدس وتذبـح بقرة وخمس نعـاج يوميًا فـى عمارة البدوى وتـقدم للفقراء والمـريدين والزوار خلال أيام المولد، وفى الأيام العادية يُطهى المقدار الكافى فقط ويقدم كله للفقراء والمريدين.

وبالمدينة سبـعة مكاتب للصبيان وثـلاثة أسبلة، وماء سبيل البـدوى مثل ماء الحياة، وكل الحوانيـت بالمدينة ثلاثـمائة حانوت ولكن فـى أيام المولد تزيد عـلى آلاف حانوت لكثرة الخيام الصغيرة والكبيرة التى تنصب فى المدينة، ولا يوجد بالمدينة محلات أقمشة، إلا أن بها سبع وكالات بها بضائع لتجار يفدون من اليمن والهند والسند والعجم والروم والعرب، والبـضائع فى تلك الوكـالات تباع بلا قيمـة لا سيما وأن بها كل الـبضائع،

وبالمدينة سبع مقاهٍ تعج بكثير من المداحين والمطربين والقواسين، ومدينة طنطا ليست وقفًا للسيد أحمد البدوى بل هى التزام للملتزمين، أما وقف البدوى فهو عبارة عن حصص من بعض القرى والبلدان الواقعة شمال طنطا مثل قرية قحافة وكفر النور وبها أفدنة وأرزاق بلا حساب، كما أنه لو توفى شخص ولم يكن له ولد فإن كل ثروته تؤول إلى وقف البدوى.

مناقب البدوى

عندما كان جان بولاط حسين باشا واليًا على مصر عام ١٠٨٣هـ كانت هناك طائفة تسمى أبناء العوار أشقياء قاطعون للطريق يقوم كل خمسمائة أو ستمائة خيال ملعون منهم بالنصب والسلب للقرى والقصبات المجاورة لطنطا، وذات يوم هجموا على قرية من أوقاف البدوى وهى قرية قحافة وأخذوا منها الإبل والبقر والغنم وقد علم حسين باشا بذلك وتأثر كثيرًا، وعلى الفور أخرج تجريدة مكونة من ألف رجل من الفرقة السابعة وعين عليهم قوجه مصطفى أغا من أمراء الشراكسة، هجم قوجه مصطفى باشا بقواته فجأة ليلاً على ابن العوار وتحاربت الطائفتان ولم يجد ابن العوار مجالاً فتحول كَرّه إلى فَرّ، والتجأ إلى تكية أحمد البدوى وقال أغثنا يا بدوى وتعقبهم الجند وحاصروا قصبة أحمد البدوى وتحصن ابن العوار في التكية يومًا وليلة وكأنه متحصن فى قلعة، وكان يصعد إلي مئذنة المسجد ويطلق النيران عل الجند، وكان اللصوص الموجودون معه ينادون من داخل التكية عل الجند «يا بدوى يا بدوى» فى تهكم وقد هجم أفراد التجريدة من كل نواحي القصبة بشجاعة فائقة، وفى تلك الأثناء فتحت أبواب الجامع والتكية وخرج العلماء والمجاورون وقالوا لقد اختفى الأشقياء وكانت كل أمتعتهم وخيولهم موجودة، أما الأشقياء فقد اختفوا وهم عارون فقال الجند ربما تكون تلك حيلة من الأشقياء ودخل الجند المدينة، واغتنموا كل أمتعة اللصوص وثلاثمائة جواد وثلاثمائة سيف ورمح ونبوت بخلاف الملابس.

وفى تلك الأثناء دخل رجل بيت الخلاء ليقضى حاجته وفيما هو بمفرده فى بيت الخلاء سمع صوت صدى أقدام تأتى من مجارى المراحاض، وقف الرجل ونظر فإذا بالأشرار المفسدين قد نزلوا إلى مجارى المراحيض فربط الرجل سرواله وهرول إلى القائد وأخبره فقام القائد بسد فتحة المجارى التى تخرج خارج المدينة ببناء خرسانى وأمر بدفع المياه الموجودة فى الحوض الشافعى إلى المجارى وجعل البقر يدور فى السواقى فامتلأت المجارى بالقاذورات وخشى الملاعين أن يغرقوا فى مياه النجاسة، وعلى الفور أظهر كل شخص منهم رأسه من فتحات المراحيض وعندما خرج الملاعين لم يكن هناك إمكانية للقبض عليهم والإمساك بهم لأنهم كانوا ملوثين بالنجاسة، وتم قتلهم بالسيوف والبلط والنبابيت وهم كالخنازير الملوثين وقتل منهم ثلاثمائة وخمسة أشخاص ثم نظفت الجثث من الروث والنجس وقطعت رءوسهم عن أجسامهم وأرسلت رءوسهم جميعًا إلى ديوان مصر فابتهج الوالى وأنعم على هؤلاء الجند وبذلك طهرت تكية البدوى من هؤلاء الأشرار، وهكذا غرق كل الأشقياء الذين نهبوا قرية قحافة من أوقاف السيد البدوى فى الماء النجس بالمهانة وسحبت رءوسهم وكان هذا من تصرف أحمد البدوى قُدّس سره العزيز.

وبقرية قحافة التى نهبها هؤلاء الأشقياء خليفة للبدوى وهو من أصحاب الكشف والكرامات وله فى كل ديار الإسلام أربعة آلاف خليفة ومئات الألوف من المريدين، وكل مكاسبهم وأرزاقهم من أوقاف البدوى، كما يحصل الفقراء العرب والروم والعجم الأموال من هذا الوقف، حيث يأتون مرة واحدة فى المكان الذى يكون فيه المولد، ويضعون تلك الأشياء التى جمعوها أمام الخليفة، وفى الليلة الأخيرة من المولد يصبح مائتين أو ثلاثمائة خليفة من خلفاء البدوى أصحاب سجادة، ويصل هؤلاء الخلفاء إلى ديارهم معززين مكرمين على دقات الطبول والصيحات والدفوف، ويخرج كل أهالى هذه الديار إلى استقبالهم بالتعظيم والتكريم وفى حالة عدم وجود تكية للبدوى فى تلك الديار الذاهب إليها الخلفاء ويبنى بها تكية عل الفور، حيث يسكن بها هذا الخليفة هذا بالإضافة إلى أنها تطيب خواطرهم كما أنها بركات البدوى.

أوصاف مولد السيد أحمد البدوى بصحراء طنطا

يوجد وادى بين قصبة طنطا ومحلة مرحوم يبعد عن المدينة بمقدار ثلاثة آلاف خطوة وقديمًا كان كل التجار وأهل الحرف يذهبون إلى هذا الوادى قبل قطع النيل بعشرين يومًا، وعندما كانوا يصلون إلى منتصف طريق محلة مرحوم ينصبون الخيام على جانبى الطريق وتنصب أيضًا آلاف الحوانيت والمقاهى، ثم يأتى جميع المشايخ البدوية وينصبون خيامهم بجوار تلك الأسواق الواقعة فى الناحية الشمالية للمدينة، حيث يقوم اثنا عشر خليفة من خلفاء البدوى بنصب خيامهم فى هذا الميدان، ويأتى كل المريدين وينصبون خيامهم على الترتيب المفصل الموجود عند البدوية، يكون الشيخ مصطفى الرومى فى المقدمة وهو من طريقة مرزوق كفافى والبدوية تنتهى عنده، ثم يليه الشيخ الإمبابى، ثم الشيخ الكالناسى ثم الشيخ الشناوى ويمكث مع عشرة آلاف مريد من مريديه، ثم الشيخ أحمد القليوبى ثم الشيخ عثمان ثم الشيخ الغمراوى وخلاصة القول أن كل الخلفاء يمكثون فى أماكنهم، وكل المشايخ الذين يأتون بعد ذلك ينصبون خيامهم فى المكان الذى يجدوه خاليًا، وخلف هؤلاء المشايخ يرابط ألف جندى مسلح من جنود كاشف المنوفية، يقومون بحماية الأسواق والمشايخ فيتجول كل الجنود ليلاً وإذا ما وجدوا أى لص أو قاتل قتلوه على الفور.

ثم بعد ذلك يبدأ مريدو اليمن والهند والحبش والعجم فى المجىء أفواجًا وكأنهم البحر، ويمكثون فى خيامهم فى هذا الوادى المعشوشب بخيامهم وسناجقهم وراياتهم، وبعد ذلك اعتبارًا من اليوم السادس يأتى كاشف الغربية بفرمان والى مصر مع ألفين من جنود مصر وألف خيال عربى وخمسمائة صبى من حملة النبوت والقواسين على دقات الطبول، رافعين الرايات، ويستعد كاشف المنوفية بجنوده أيضًا لملاقاة كاشف الغربية وتعزف الأقواس، ولا يوجد لكاشف المنوفية خمس طبقات من الموسيقى العسكرية مثل كاشف الغربية، وذلك لأن كاشف الغربية نال رتبة الباشاوية وبمقتضى قانون الظاهر بيبرس يتصدر كاشف الغربية كل الكاشفين ما عدا والى جرجا وذلك لأن مرتبة والى جرجا أعلى منه، ثم يتوقف كاشف المنوفية للسلام على كاشف الغربية ويمر الموكبان بين

خضم كبير من الناس كأنهم البحر، ويمكث الجميع فى خيامهم، وقد مكث الحقير أيضًا مع رفقته مع الموكب وسلم الحقير فرمانات الوزير إبراهيم باشا للكاشف حيث قُرئت فى الديوان وجاء فيها ما يلى: «إلى حسن أغا كاشف الغربية لتكن على بصيرة ويقظة حتى انتهاء مولد السيد أحمد البدوى الموجود بإيالتكم ولتحفظوا كل الزوار والتجار، ولتمنعوا أشقياء العربان من المجىء بالخيول إلى ميدان الملعب وأن تمنعوا أى شغب يقومون به»، فقال الكاشف سمعنا وأطعنا.

كما قدمت رسائل كتخدا الباشا وقرأت على الملأ وجاء فيها أن يقوم الكاشف بالإحسان على أوليا جلبى بِخَيل مُزين وكيس من النقود المصرية، وقد أحسن الكاشف عل الحقير بجواد فضى السرج مذهب الركاب وكيس من المال وخمسة آلاف عملة حالية كما أمر الكاشف بفرش خيمة لنا بجانب خيمته أقمت فيها ثلاثة أيام بلياليها، كما نزلت ضيفًا بمنزل خليفة البدوى لمدة عشر ليال، وبعد أن جاء الكاشفان إلى ميدان المولد ومكثا فيه واستتب الأمن هناك، قام كل التجار والزوار بإخراج أمتعتهم وبضاعتهم ليعرضوها وحينئذ يتم البيع والشراء بشكل لا يمكن التعبير عنه، ويزين الجميع خيامه بآلاف القناديل والسناجق والأعلام بشكل لا يمكن وصفه، وقد كان بهذا الميدان الذى يقام فيه المولد صُفّة للبدوى يتعبد فيها خارج المدينة فى مكان لا يعرفه أحد يُطلق الأهالى عليها مقام السيد البدوى وهى مكان للتعبد وبها صارى اتفاعه ثمانون ذراعًا به خيوط يعلق بها القناديل التى يبلغ عددها أربعين ألف قنديل فتصبح الصفة وكأنها خيمة عظيمة ذات صارٍ مثل خيام الوزراء، وفى بلاد العرب يقولون على تلك القناديل إشارة، وللصفة أربعون خادمًا يشعلون كل ليلة عشرة قناطير من زيت السمسم، وقد وقف لها صاحب الخيرات فى خمسة عشر يومًا بلياليها عشرين ألف باره، ويضاء الميدان كله بآلاف القناديل الصغيرة والكبيرة، وعندما ذهب المشايخ لحضرة إبراهيم باشا للحصول منه على الإذن بإقامة المولد وذلك فى السنة التى كنا فيها هناك، قال لهم الوزير: أيها المشايخ الكرام لتكونوا على بصيرة فى هذه السنة ولتكن الأفراح والاحتفالات أكثر من العام الماضى، إنه مولد النبى، إنها شعائر الإسلام فقال كل المشايخ على الرأس والعين

يا وزير، وعندما شاع هذا الخبر على أفواه الناس اجتمع أناس كثيرون من أعيان وأشراف مصر والشام وحلب والعرب والعجم للاحتفال بمولد البدوى، وكانت هناك ثلاثة آلاف وسبعمائة خيمة وأوطاق بخلاف الخيام الصغيرة المصنوعة من الكليم وهى الخيام الخاصة بالعربان، وقد قام أصحاب الخير بوضع أسبلة المياه على رأس كل الطرقات لأن المياه فى هذا الميدان قليلة، ولم تكن الأسبلة تكفى هذا الكم الهائل من البشر الذى يقدر عددهم بمئات الآلاف والنيل المبارك يبعد عن هذا المكان بمقدار ساعة عند محلة مرحوم، ويحيط جند الكاشفين بهذا الكم الهائل من البشر ليلاً ونهاراً يقومون بحراستهم، أما أعيان مصر فحرسهم خدامهم، وذلك لأن اللصوص وأبناء الحرام يكثرون فى هذا الجمع ويكون موجوداً فى هذا الميدان كل يوم عشرة أو خمسة عشر ألف من العربان العرايا برماحهم ويكونون مثل الغابة.

فصل فى بيان اللاعبين وأصحاب المهارات فى مولد البدوى

يقوم مئات العارفين من الطريقة البدوية والطريقة السعدية بمسك قطع الحديد التى احمرت من شدة النيران بأيديهم، ويلعقونها بألسنتهم لتسكين نار الشوق التى عندهم، ولإظهار معرفتهم، وبعضهم يأكل قطع النار التى احمرت مثل العقيق الأحمر، والحاصل أنه يجتمع فى ميدان البدوى سبعة وسبعين فرقة من أصحاب الألعاب كلاعبى النار ولاعبى الحبل ولاعبى اليد ولاعبى خيال الظل، ولاعبى الخزف، ولاعبى السحر، ولاعبى القمار، ولاعبى الحمار، ولاعبى الطنبور، ولاعبى الديك، ولاعبى الطاس، ولاعبى القرد، ولاعبى الكلب، ولاعبى القدح، ولاعبى الكبش، ولاعبى المرآة، ولاعبى الثعبان، ولاعبى العين، ولو دونّا كل ما يقوم به كل لاعب سنكتب كتاباً مفصلاً، ويكثر اللصوص والنشالين، ويجب على كل من يكون هناك أن ينتبه ويكون على يقظة دائمًا، فمشهور عن اللصوص أنهم يسرقون الكحل من العين، أما لصوص مصر فعندهم من المهارة ما يجعلهم يستطيعون سرقة العين ويبقى الكحل مكانه.

ومن العجائب التى رأيناها هناك: أن الثعابين الموجودة مع لاعبى الثعبان كبيرة وضخمة للغاية، تخيف الإنسان، والعجب أن لكل ثعبان منها اسم إذا ما قام صاحبه بالنداء عليه، فإنه يأتيه، وإذا نادى على ثعبان ما باسمه وأخطأ ثعبان آخر وأتى بدلا منه، يعاقبه صاحبه، وقد أتى أحد الدراويش البدويين فى الميدان وأخرج ثعبانًا كبيرًا من جعبته، وعندما كان يناديه باسمه يتحرك، كأنه يفهم الكلام، وعندما يشير إليه بالرقص يرقص، وبينما كان هذا الدرويش يقوم بملاعبة الثعبان أمام الناس، جاء أحد مريدى البدوى، ونظر إلى الثعبان وقبض عليه بيده، ووضعه فى فمه وأكله، وعندما رأى الدرويش صاحب الثعبان هذا الأمر، أخذ يصيح ويقول أيها المسلمون، هل يجوز ذلك؟ لقد علّمت ثعبانى هذا طوال عشر سنوات كاملة حتى أصبح يفهم كل شىء، وأتعيّش منه أنا وأبنائى، فهو يغنينا عن السؤال، واحتكم الاثنان إلى القاضى، فقال الدرويش صاحب الثعبان، يا مولانا لقد ظللت أعلم ثعبانى هذا عشر سنوات، أتعيش منه أنا وأبنائى، ثم جاء هذا الرجل وأكله، فماذا أنا فاعل؟

فقال القاضى للرجل: لماذا أكلت الثعبان؟ فقال: يا مولاى وجدته ثعبانًا سمينًا لطيفًا، وكنت جائعًا.

فقال القاضى للدرويش: كم تريد ثمنًا لثعبانك؟

فقال الرجل: أريد عملة ذهبية.

فدفع الرجل العملة الذهبية، وسار وهو يمسح فمه.

عجيبة أخرى

كان يوجد أيضًا أحد الدراويش التابعين للبدوى يرتدى جبة صوف، يلعب بالديك فى هذا الميدان. كان هذا الديك ذا عرف أحمر على رأسه ودائما كان الديك يجلس على رأس هذا البدوى. وإذا ما جاء شخص وأعطى للديك بارة يقوم الديك بضرب جناحيه ويصيح، ولكن لم أستمع إلى صياحه. ثم يقول له يا فرخ وحد الله فيقول الديك بضرب جناحيه ثلاث مرات ويقول بصوت عال لا إله إلا الله محمد رسول الله. والله أعلم.

كان يقول لا إله بأجزاء الحروف ثم يقوم الديك بالرقص على الأرض ثم يستقر مرة أخرى على رأس البدوى، شيء عجيب وغريب. لذا يقولون على هذا البدوى أنه من أصحاب الكرامات ويجمع هذا الديك يوميًا فى هذا التجمع ما يقرب من ألف پاره.

وغير ذلك توجد العديد والعديد من العجائب والعِبَر. منها:

عبرة أخرى

هى: أحد العارفين بالسحر المقبول وقد شاهدناه ومعه شخص يدعى نصر الدين الطنجاوى من بلاد المغرب، قام هذا الشيخ بدعوى الأعيان والكبار الموجودين بالخيام لمشاهدته فى الميدان، واجتمع أناس كثيرون فكانوا فوق بعضهم البعض من كثرتهم. ثم قام هذا الشخص بوضع يده على صدره ثم قام بدق عصا فى الأرض وأخرج من جعبته عدة أشياء مستديرة تشبه الكرة وكانت حمراء وأخذ يلعب بها، ثم أخرج ثلاث كرات أخرى مختلفة من جعبته وظل يلقيها بيده ويمسكها وأظهر مهارة وغرابة فى لعبه.

ثم قام بدحرجة هذه الأشياء الدائرة أمام الحضور فمنهم من يمسكها ومنهم من ينظر إليها ومنهم من يلقيها بقدمه ثم تجول الساحر فى الميدان وأخذ الكرة فى يده وأخذ يلقيها فى الهواء ويمسكها وكان قد ظهر من حافة الكرة حبل فقام الساحر بإعطاء طرف الحبل إلى أحد المشاهدين وقال له شد الحبل وكلما كان الرجل يشد الحبل يخرج معه حتى تجمع على الأرض أحبال كثيرة، والغريب هنا أنه كيف يخرج هذا الحبل من كرة فى حجم رأس إنسان، إن الحبل الذى كان يخرج منها كان بمقدار حِمل بعير. ثم قام الساحر بربط طرف الحبل فى العصى التى ثبتها فى الأرض وقذف الكرة لأعلى فظلت الكرة معلقة فى الهواء وطرف من هذا الحبل مربوط فى العصى والطرف الآخر فى الكرة المعلقة ثم قام الساحر بلصق يده على الحبل وصاح قائلاً إنزلى أيتها الكرة الحمراء فلم تنزل الكرة، كرر ذلك ولم تنزل الكرة فنادى على بعض الرجال الشجعان وخدامه وقال لهم شدوا الحبل حتى تنزل، وحاولوا جاهدين ولكن الكرة لم تنزل، فقام الرجل بمسك الحبل وسحبه رويدًا رويدًا ولم تنزل، فتعجب كل الموجودين وتحدث الساحر إلى الكرة بكلمات غير مفهومة وقال للحاضرين يا أمة محمد إن الكرة تقول لكم «لقد أظهرت

لكم الكثير، فلو قام كل واحد منكم بمنح الساحر پاره سوف أنزل وسأريكم الكثير والكثير إننا نتمنى من كل واحد منكم عملة واحدة فقام كل الأعيان الكبار بمنح الساحر الأموال حتى جمع عشرة آلاف پارة فقام الساحر بلصق يده على الحبل وهزه وقال أيتها الكرة لقد حصل المراد ليبارك الله فيما أعطانا والآن انزلى.

ولكن الكرة لم تنزل أيضًا فقال الساحر يا مسلمين إن الكرة لا تنزل لترجوها كلكم فصاح الصغير والكبير انزلى انزلى. وعلى الفور اتجهت الكرة يمينًا ويسارًا ثم نزلت على الأرض. فقام الساحر بوضع الكرة والخيط الحرير الرقيق فى جعبته بعد أن أظهر معارف كثيرة. يحتار العقل لكل منها. ولكنى قد أستطيع تفسير هذا بعقلى القاصر على أن تلك الكرة تكون مملوءة من الداخل بالندى وعندما يرى الندى الحرارة يتبخر فى الهواء ويقوم الساحر بإلقاء الكرة فى الهواء عندما يكون الحر شديد، وبعد هذا الوقت من الكلام وتحصيل المال يكون الندى الموجود بالكرة قد تبخر فتنزل الكرة، ولم يحط عقلى بغير هذا وقد قبل عقلى هذا، وعندما كنت فى مدينة (   )[1] الألمانية بعد فتح قلعة ليفار عام ١٠٧٣هـ لعب الساحر بالكرة وأظهر فيها براعة كبرى، كما أظهر هذا الساحر أيضًا معرفته فى ميدان البدوى، ولو أننا حورنا كل ما شاهدناه لجاء فى كتاب كبير.

تتزين كل أركان طنطا فى ذلك اليوم بالألعاب التى تتأرجح فى الهواء، ويركبها الصغير والكبير وذلك لأن يوم مولد البدوى يوم عيد. فهو بمثابة الليالى المباركة، كما يوجد فى أركان الميدان خيام العاشقين الصادقين يذكرون الله على دقات الطبول والدفوف والنقارات وبذلك تكون الاحتفالات فى كل ركن من أركان المدينة وتُطْهَى آلاف القدور من الطعام اللذيذ يأكل منه كل الزوار، ولحكمة الله أنه لو قام شخص بجلب الخمر إلى المولد فإنها تتحول إلى خل بسر السيد البدوى. ولكن توجد المشروبات اللذيذة مثل العرقسوس والتمر هندى والديس. وفى تلك الأثناء يقوم كل مشايخ الطرق والمريدون بالدق على الطبول والدفوف ويرفعون الأعلام والرايات ويصيحون بذكر الله فيقوم كل المريدين بالذكر وهم يدورون ويسيرون على هذا المنوال

(١) بياض فى الأصل.

حتى يصلوا إلى ضريح أحمد البدوى يذهبون أفواجًا أفواجًا. وتكون الطرق مزدحمة جدًا حتى أن بعض النساء والصبايا يقعون تحت الأقدام ويموتون وأظن أن هذا الزحام لا يوجد بنفس الدرجة فى زيارة مكة والمدينة وأثناء الطواف. ويستمر هذا الزحام لمدة عشرة أيام بلياليها عند زيارة البدوى ويكون جمعًا عظيمًا كيوم الحشر فتتلاصق الأكتاف فيه وتصبح مدينة طنطا عبارة عن حلقة ذكر ما بين كلمة هو والحى القيوم وذكر الله ويصل صدى ذكر الله إلى عنان السماء.

ويقوم الأثرياء من الأعيان الكبار بفرش خيامهم بالسجاد والأبريشم والقطيفة والأطلس والقماش الهندى ويفرشون أيضًا الأرائك والمقاعد المزينة؛ كما يزينون تلك الخيام بالبساط والأسلحة والأوانى القيمة. ويضعون الأعلام والرايات أمام الخيام. ويشعلون آلاف القناديل والمصابيح ويتسامر أهل تلك الخيام ليلاً ونهاراً، ويدعون للسلطان بدوام دولته.

يزين كل المشايخ أيضًا خيامهم بمئات الآلاف من القناديل والأعلام والرايات ويقيمون فيها مشتغلين بالعبادة والذكر. والحاصل أن كل مرغوب موجود فى مولد البدوى. أما العارفون بالله فيفضلون الانزواء عن هذه الكثرة يأنسون بالوحدة بعيدًا عن أى عالم آخر حيث ينظرون إلى الدنيا بعين الإمعان ويجلون قلوبهم ويتطلعون إلى المتعة الدائمة فالدنيا فانية: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦] ففى نفس الوقت الذى يكون فيه أهل الظاهر نائمون فى غفلتهم يكون أهل الباطن من العارفين بالله مشتغلون بالتوحيد والتمجيد والذكر فى منتصف الليل ويُتلى المولد الشريف فى آلاف الأماكن ويقوم الذاكرون الشاكرون ذوى الصوت العذب بمدح الرسول ﷺ، فيملأ صدى أصواتهم المكان، فيثمل الرجال من شدة الشوق. ولأن آلاف القناديل والمشاعل تضاء فى تلك الصحارى تجعل الليل هناك نهاراً وتكون بمثابة العلامة فى الصحراء. وينشغل كل شخص بشىء فى تلك الليالى: (نظم)

عندما يتجلى الخلاق إلى عالم الأزل   يتسلى كل شخص بحاله

فتطلق آلاف الطلقات النارية فى السماء على أشكال وصور كثيرة فتجعل ليل مدينة

طنطا نـهاراً. ويبدأ إطلاق تلك الأعـيرة لمدة ثلاثة أيام بليـاليها. حيث ينـفق كل واحد منهم ألفى قرش على تلك الأعيرة وتحترق خيام كثيرة من جرائها وتعد تلك الأعيرة من القوانين القديمة، فقد حدث أن أتى السلطان قايتباى إلى مولد البدوى وأنفق أموالاً كثيرة وأقيمت الاحتفالات الكثيرة لذلك.

وخلاصة الكـلام أن الحقير سياح العـالم أوليا ساح فى الأرض واحدًا وأربـعين سنة تجول فى أراضى ثمانِ عشرة سلطنة ولم يتيسر له مشاهدة هذا إلا فى مصر. وقد شاهد احتفالات كثيرة منها احتفالات قطع النيل المبارك بمصر واحتفالات الجيش الهمايونى فى إستانبول واحتفالات الباشا القبطان فى سراى بورنو والاحتفالات عند فتح القلاع ومولد الأمراء وعودة السلـطان من الغزو. واحتفالات شـهر رجب وشعبان احتفـالات مصنع الورق فى إستانبول واحتفالات الفيضان واحتفالات أق بابا واحتفالات مصنع البارود فى إيالة بـودين واحتفالات قونـيه واحتفالات ملاطـية ومسيرة مديـنة البصان فى بـودستان واحتفالات حدائق صوادق بـكفة واحتفالات بندر حسن بالقـرب من العراق واحتفالات كيلانى ببلاد العجم واحتفالات مشهد الإمـام علىّ ويوم عاشوراء فى تبريز والتجمع فى يوم قتـل الحسين واحتفالات سـليمان بك فـى بغداد، يسر الله لـلحقير رؤية كـل تلك الاحتفالات والتجمعـات ولكنها كلها بمثابة الجزء من احتفـال البدوى بل إنها لا تساوى احتفال يوم أو ليلة من احتفال البدوى.

ويأتى عـباد الله من بلاد العـرب والعجم والهـند والسند تـاركين أموالهم وأبـناءهم قائلين: يـا بدوى ويشدون الرحال إلـيه وينفقون كـثيرًا من الأموال ويأتـون إلى البدوى ويمسحون وجوههم بتكيته ويحتفلون به ولو قام شخص وجهه بتكية البدوى بنية خالصة لله فإنه يشفـى من كل الأمراض والآلام واضطراب الأبدان بإذن الله ويكـون ذلك بمثابة الحفظ له من كل الأمراض. وهذا مجرب والتجمـع الكبير الذى يفوق تجمع البدوى هو اجتمـاع الحجاج فى مِنى بـعد نزولهم مـن عرفات، حيث يـكون عددهم سبعـين ألفًا بخلاف الدواب والحيوانات، إنه تجمع كبير لا يُضَـاهَى، وثمة فائدة فى تلك التجمعات الكبـرى لا توجد فيما سـواها زوال الحجاب فيـما بين الله والعبـد، فيتوب العبـد توبة

نصوحًا لله فيعود كما ولدته أمه. والحديث الشريف دليل على ذلك: (التائب من الذنب كمن لا ذنب له)[1] أى أن كل من يستأنس بربه فى هذا التجمع فى مكة والمدينة أو حتى عند البدوى فيجد ربه ويسأله التوبة يتوب عليه.

وقد قيل أن القطب الغوث يحضر كل عام فى مولد البدوى وقد شوهد عدة مرات.

وفى اليوم الثامن من مولد البدوى ينادى المنادون بين كل الزوار بأن مولد الشيخ محمد بن زين يوم الجمعة فى مدينة النهارية. وعندما يسمع الزوار هذا النداء يقوم بعض الزوار والتجار بفك خيامهم ويرحلون إلى مدينة النهارية. وفى تلك الأيام يتم بيع ألف حمل جمل من الحمص فى سوق المولد كما يباع آلاف القناطير من الحلوى وهذا ليس مبالغة وذلك لأنه قد جرت العادة أن يأخذ كل الزوار الحمص لديارهم من مولد السيد البدوى تبركًا، والحمص لذيذ للغاية وليس خاص ببلد معينة.

وفى اليوم التالى وهو يوم الجمعة يقوم الكاشفون والجند بالتجمع عند خيمة الكاشف وتقام لهم مائدة عظيمة يتناولون منها جميعًا ويُمنح كل جندى من الجنود الچورباجيه الموجودون فى محافظة الغربية جوادًا أو ناقة وذلك لأن كل شخص منهم خدم ستة أشهر كاملة ثم يعودون إلى بلدانهم. ثم بعد ذلك تقام مائدة كاشف المنوفية، ويمنح كل جندى من الچورباجيه أيضًا جوادًا وناقة وحجة شرعية بأدائهم الخدمة ثم يعودون إلى ديارهم. بعد ذلك يذهب كاشف الغربية والمنوفية مع جنودهم إلى ضريح البدوى، ويفتحون حجرة الخرقة ويقوم الكاشفان بإلباس خرقة وعمامة البدوى لخليفته ويسيرون به فى موكب عظيم من داخل المدينة إلى جامع المدبولى ويؤدون صلاة الجمعة هناك وعندما يهم الخليفة بالرجوع إلى الضريح يخرج كل الزوار لاستقباله ورؤيته. ويسير الخليفة بينهم حتى يصل إلى الضريح ويعيد الخرقة والعمامة مكانها. ويتسلم الحجة الشرعية التى تفيد أدائهما الخدمة أيضًا، ويقومان بزيارة الوداع ويتجهان إلى مصر، وبذلك يكون قد انتهى مولد البدوى، وفى هذا إعلان مولد البدوى ومن ثم تنتهى

---

(١) رواه الطبرانى بإسناد رجاله رجال الصحيح من حديث ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ.
انظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمى ١٠/ ٢٠٠.

مسئولية الكاشفين فى الحماية والحراسة، وتكون حينئذ فى يد المُسَلَّمين والقائم مقام لذا يبدأ لصوص العربان فى أعمال السرقة.

بعد ذلك يبدأ بقية الزوار فى حل خيامهم الكبيرة والصغيرة وتوضع الأحمال على مئات الآلاف من الجياد والبغال والإبل والحمير، وحينئذ تكون ضجة كبيرة فى صحراء طنطا فالكل يهم بالرحيل ولا يبقى فرد واحد من الزوار هناك ولأن الحاكم قد أذن للكاشفين بالذهاب من هناك فإن الزوار والتجار يخشون على أنفسهم من تسلط العربان، إنه يوم عظيم الدهشة من شدة الاضطراب التى تعترى المكان فى ذلك اليوم ويرحل الجميع من هذا الوادى ولا يبقى به أحد ويتجه هذا الجمع الغفير إلى أماكن متفرقة، كما يرحل خلفاء البدوى إلى مدينة طنطا لأنهم سيقومون بإحياء ليلة السبت فى تكية البدوى حيث يكون المولد الشريف ويقولون أن أرواح كل الأولياء تحضر معهم حينذاك. ويقوم كل المشايخ والمريدين بتلاوة ما يزيد على ألف ختمة شريفة، وفى اليوم التالى يقوم المشايخ والمريدون بزيارة الوداع. ثم يعتزمون العودة إلى منازلهم ثم يقوم كل مشايخ التكية وخدامها وخادم الضريح بغسل التكية والضريح بماء الورد ويقومون بتنظيف كل أحجار الفناء ويفرشونه بالسجاد الإبريشم. وفى اليوم التالى يقوم الأهالى بفتح ترعة خليج القرنين الموجودة على أراضى منوف، فيسير ماء النيل المبارك بعظمة الله إلى تلك الأراضى التى كان بها المولد فتغرقها المياه تمامًا لدرجة تجعل أى شخص لا يستطيع وضع قدمه فيها.

لقد شاهد الحقير آلاف العجائب والغرائب فى مدينة طنطا وقمنا بتوديع الشيخ سلامة والشيخ أحمد خليفة البدوى والشيخ جلبى وكل الأئمة والخطباء والأحباء، وختمنا ختمة شريفة فى تكية البدوى وطلبنا المدد من روحه وزرنا زيارة الوداع وقبلنا عتبته وعقدنا النية على المسير لمدينة النهارية.

أولاً خرجنا من مدينة طنطا وسرنا إلى ناحية الشمال لمسافة أربعة آلاف وخمسمائة خطوة فى مكان فسيح حتى وصلنا محلة مرحوم. وسبب تسميتها بهذا الاسم ما يلى:

بعد دخول هولاكو بغداد وتدميرها هرب أحد أمراء العباسيين إلى مصر واستقبله السلطان (   )[1] من سلاطين مصر وأنعم عليه بتلك المحلة وكانت مدينة كبيرة عامرة. وشاءت حكمة الله أن يموت هذا الأمير ودُفن بفناء جامعه هناك ووصل خبر وفاته إلى سلطان مصر. وفى اليوم الثالث من وفاته كان الأهالى يؤدون صلاة الجمعة فسمعوا فزعًا وجزعًا يأتى من قبر الأمير فذهبوا إلى القبر ليستطلعوا الأمر فإذا بالأمير يصرخ بالداخل وعلى الفور فتحوا القبر فوجدوا الأمير حيًا ووجدوا حيوانًا ينهش فى كتفه والدماء تسيل منه فقاموا بإخراجه وذهبوا به إلى قصره وعاش بعدها سبع سنوات ثم توفى فنقلوا نعشه إلى مصر وتم دفنه بجوار السيدة نفيسة. ومكتوب على الضريح السلطان المرحوم عز الدين بالله. وقد قام المنجمون بتبشير الأمير وهو فى حياته بأنه سوف يموت ويحيى لمدة سبع سنوات سيكون فيها خليفة. وقد أطلقوا على المحلة اسم محلة المرحوم. ومحلة المرحوم قصبة جميلة تتبع منوف بجزيرة الغربية وهى عاصمة كاشف منوف نظرًا لوقوعها فى وسطها ويقيم بها الجند بصفة مستمرة. أما مدينة منوف نفسها فهى العاصمة القديمة، وأحيانًا يقيم الجند بمنوف. ومحلة المرحوم قضاء شريف عبارة عن مائة وخمسين أقچة ويتبعها سبعون قرية. والمكان الذى يقام فيه مولد البدوى يتبع محلة المرحوم. وفى أيام مولد البدوى يذهب حاكم محلة المرحوم وقاضيها إلى هناك ويشرفون على المولد. ويتحصل من ذلك محاصيل كثيرة. ومحلة المرحوم مدينة مزينة بحدائق النخيل والبساتين تقع وسط صحراء فسيحة تبعد عن النيل ساعتين ولكن بحدائقها خليج متفرع من النيل يمر من أمام مدينة النهارية، توجد المياه بصفة مستمرة فى هذا الخليج صيفًا وشتاء. وتبحر به المراكب وينتهى هذا الخليج عند محلة المرحوم وعند فيضان النيل تزيد فيه المياه فيصب فى فرع دمياط. وبمحلة مرحوم ألفا منزل مغطاة بالكلس وخمس محلات وأربعين محرابًا اثنان منهما جوامع جامعة: الأول وهو جامع الخليفة المرحوم ويطلقون عليه جامع بغداد أو جامع المدرسة وهو مرتفع عن الأرض بمقدار ست درجات سُلمية حجرية وللجامع بابان ومئذنة رشيقة لها ثلاث طوابق والجامع بدون فناء أو أعمدة، ولأنه جامع صغير لا توجد زخارف أو

(١) بياض فى الأصل.

زينات إلا تلك الزينات البنفسجية المذهبة على أركانه. والجامع الثانى موجود بالسوق وهو الجامع الكبير ويتسع لأعداد كبيرة من المصلين يبلغ طوله وعرضه مائة وعشرين قدمًا للطول وأخرى للعرض وبه قبوات تستقر على ثمانية وثلاثين عمودًا من المرمر. وسقفه بسيط ولا توجد به أى نقوش. ومنبره من الخشب وعلى الحائط الموجود فى الناحية اليسرى للمحراب يوجد هذا النظم لأحمد الخطيب الشافعى:

(سبح إن ترم تحريرًا عن قدره فاسأل به خبيرًا)

وهذان الجامعان هما جوامع الخطبة فى المدينة فقط والباقى زوايا. وبالمدينة سبع وكالات وثمان مكاتب للصبيان وحمام صغير ببدروم سراى الكاشف. وقد كان هذا الحمام قديمًا حمام قصر الأمير البغدادى ولكنه حاليًا حمام قصر الكاشف وبه نقوش مذهبة غاية فى الجمال، من صنع نقاش أعجمى. وبالمدينة مائتا حانوت وهى حوانيت على جانبى الطريق الرئيسى الذاهب من قصر الكاشف حتى الجامع الكبير، ويبلغ طول هذا الطريق ألف خطوة. والمياه كلها من الآبار ولكن لقربها من النيل يقوم بعض الأشخاص بجلب المياه من النيل إليها على الإبل وتوجد سُبل فى سبعة أماكن من المدينة. وأهلها محبوبون. وطقسها لطيف. وكل أجداد الأهالى بها من بغداد وبعض كتب تاريخ تسجلها على أنها محلة بغداد ومنوف، وبالمدينة حجر غريب ضخم يقع خلف سراى الكاشف ويقف هذا الحجر فى وسط حوض عظيم، ولا تستطيع مائتا جاموسة سحبه إنه حجر طاحونة دائرية، يوجد بوسطه ثقب كانت هذه الطاحونة قديمًا هى مصنع السكر الخاص بالأمير المرحوم. وطواحين السكر حاليًا لا تدار بالحجر بل تدار بعجلات الوابور وكلما تدور العجلة يسيل شربات السكر من فم الوابور ويأخذون هذا السكر ويغلونه ويحولونه إلى سكر بعمل كثير يحتاج إلى تفصيل.

مزار محلة المرحوم

أولاً ضريح الشيخ عبد الوهاب الجوهرى خليفة البدوى. وهو مدفون فى ضريح عالٍ يقع خارج المدينة فى جهتها الشرقية. وضريحه مرتفع عن الأرض بمقدار ست درجات سلميه حجرية، وهو تكية به روحانية. بجانبه زاوية، وكراماته مسجلة بالتفصيل فى مناقب الشعراوى، ولا داعى هنا لذكرها. وعلى مقربة منه يوجد ضريح الشيخ عبد

الله الواسطى وهو من بغداد. وعلى مقربة من مصطبة الجريد الواقعة أمام قصر الكاشف يوجد ضريح مدفون به شيخان هما الشيخ على العجمى والشيخ منصور الأندلسى وهذان الشيخان هما اللذان بشّرا الأمير بأنه سيموت ثم يحيى بعد سبعة أيام ثم يعيش سبع سنوات، وقد قام الأمير ببناء ضريح لهما، وقد تهدم الضريح، ولم يَبْقَ منه حاليًا إلا بعض أطلاله فقط، وهو مزار للعام والخاص، قُدّست أرواحهم.

وفى الجهة الجنوبية المقابلة لضريح الشيخ عبد الوهاب الجوهرى يوجد ضريح أبيض مدفون به السيد عثمان الصيادى، وبالمدينة قبر الإخوة الثلاثة، وهم الشيخ علامة والشيخ ديان والشيخ عمر ولكل منهم ضريح بالقرب من بعضهم البعض، والمشهور عن تلك المحلة أن اللصوص لا يدخلونها، فأبوابها دائمًا مفتوحة، والعجيب فى ذلك أنه لو تجرأ لص على المرور من أمام تلك الأضرحة، فإن قدميه لا تتحرك، ويقع ضريح الشيخ السيد محمد العجمى بزاوية أبو حمزة بالسوق، وفد هذا الشيخ مع ابنه من بلاد العجم، وله مناقب كثيرة مدونة فى مناقب الأولياء، وبالمدينة أيضًا ضريح الشيخ سيدى يوسف وهو من طائفة الجند، وبالسوق ضريح الشيخ السيد عبد الرحمن، وبالقرب من الجامع الكبير يقع ضريح الشيخ السيد عبد الرحمن السويدى، وهو سلطان عظيم وفد مع ابنه أيضًا من كردستان من بلدة سويد، وقرأنا الفاتحة لكل شيخ منهم، وطلبنا المدد من أرواحهم الطاهرة، بعد ذلك حصلنا على البراءة من ميرزا أغا كاشف منوف، ومنحنا خمسة آلاف عملة ذهبية، وخمسة خيالين، ثم سرنا شمالاً من تلك المحلة لمسافة ثلاث آلاف خطوة، فبلغنا قصبة الأبيار، وسبب تسميتها بهذا الاسم، أن تلك المنطقة كانت فى عهد الملكة دلوكة بلا ماء، فقامت الملكة بحفر آلاف من آبار المياه، لذا سميت بمحلة الأبيار، ثم قامت الملكة بتسيير خليج من النيل إلى تلك المحلة، وهى مدينة عامرة، تقع فى أراضى منوف، ولها ملتزم، وقضاء شريف مائة وخمسين أقچة، ولها مائة وخمسين قرية تتبعها، يتحصل منها عشرة أكياس مصرية، وتقع تلك المحلة على ضفاف ترعة النيل، وبها الحدائق والبساتين، وقد أهملت بمرور الأيام، ولكن عندما كان الحقير هناك فى عام ١٠٨٣هـ كان العمران فى أربعين أو خمسين ناحية، عمّرها الله، وبها تسع محلات، وأربعون محرابًا، ثلاثة منها جوامع جامعة، والباقى مساجد صغيرة، تلك الجوامع هى: الجامع الكبير ويقع بالقرافة الكبرى على مقربة من

النيل، فى الجهة الشرقية للمدينة، وجماعته قليلة، وهو جامع كبير طوله وعرضه مائتى خطوة للطول والعرض، وبه ستون عموداً تستقر عليها القبوات التى تحمل السقف، وسقف الجامع مطلى بالكلس، وللجامع ثلاثة أبواب، ومئذنة ذات ثلاثة طوابق، وعلى يمين المنبر توجد لوحة بيضاء مرمرية مكتوب عليها (رسم أيام السلطان الملك الأشرف خلد الله ملكه)، وعلى يسار المنبر لوحة مرمرية أيضًا مكتوب عليها (بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، هذا الجامع إنشاء الفقير إلى الله تعالى وإلى رحمته وغفرانه أبو الحسن بن على بن أحمد الحسينى الحافظ جدد هذا الجامع المبارك العمارت فى شهر شعبان المبارك المكرم سنة تسعين وتسعمائة) وعلى يسار المحراب كتبت عدة آيات من سورة الفتح بالخط الجلى على لوحة مرمرية أيضًا. خلاصة القول أنه جامع يجاب فيه الدعاء.

وبالمدينة جامع صغير آخر بدون فناء هو جامع الشيخ أحمد البجم، وله مئذنة ذات ثلاثة طوابق، لا يوجد مثلها فى المدينة، وقد كتب على منبره ما يلى: (جدد هذا المنبر المبارك قطب الأقطاب أحمد البجم فى ذى القعدة سنة ١٠٣٢)، وبالسوق جامع يسمى جامع الزاوية، كان هذا الجامع قديمًا عبارة عن زاوية، وقد حولوه إلى جامع نظراً لكثرة جماعته، وما عدا تلك الجوامع الثلاثة فمساجد، وبالمدينة مدرستين، وثلاث تكايا؛ هى تكية الشيخ أحمد البجم، وهو مدفون بفنائها، وبها غرف للمريدين، ولها أوقاف عظيمة، والشيخ أحمد البجم من صلحاء الأمة وفد من بغداد إلى هذه المحلة، وبالمدينة ثلاثة أسبلة، وحمام معطل، ومائتى حانوت والطرق الرئيسية لتلك المدينة مرسومة على هيئة لوحة الشطرنج، وهى طرق ضيقة، ولوقوع المدينة على ضفاف ترعة النيل فإن طقسها لطيف، وتشتهر المدينة بشجر الجميز، وزيت البزر، حيث توجد أشجار الجميز على ضفاف النيل، ترعى تحت كل شجرة منها ألف نعجة، ومن الأشياء المشهورة بالمدينة أيضًا الكتان والليمون والأُتْرُجّ، ويقيم أصحاب تلك المدينة على الجورباجى وطويل الجورباجى ونقيب الأشراف الموائد للفقراء، زادهم الله تعالى.

فى بيان أضرحة تلك المدينة

أولاً الواقعة داخل المدينة؛ ضريح الشيخ أحمد البجم وهو مدفون داخل جامعه، وهو سلطان عظيم، ظهرت له كرامات كثيرة، وعندما كان الشيخ السيد على بك واليًا على مصر، رأى كرامات كثيرة لأحمد البجم، فترك العرش والإمارة واستلم الطبل والطوغ من أحمد البجم وأصبح خليفة للمشيخة من بعده، وأنشأ هذا الجامع بالمال الحلال الزلال، وهو مدفون بجوار حضرة أحمد البجم، كان عاشقًا لله عظيمًا.

وقبر الشيخان رضوان وسيدى يوسف وهما من مماليك السيد على بك، أصبحوا مشايخ بعد تحريرهم من الرق، وقد ظهرت لهم كرامات كثيرة وكانوا أئمة للطريق وأضرحتهم بالقرب من قبر أحمد البجم، وبالجامع الكبير أضرحة كلا من الشيخ السيد أحمد العريان والشيخ السيد أبو الفتوح والشيخ على برجانى والشيخ السيد خليفة والشيخ السيد أحمد الحسينى رحمة الله عليهم أجمعين، وقد تجولنا فى تلك المدينة، ثم ودعنا كل الأحباء، وسرنا فى صحراء مستوية حتى وصلنا إلى المدينة القديمة مدينة نهاريّة.

أوصاف مدينة نهاريـة

كانت لمصر ملكة تدعى دلوكه، حكمت مصر قبل عشرين عامًا من فرعون موسى، أسست دلوكة هذه المدينة لروح والدها الملك ريباك ووقفتها له، وأسمتها مدينة ريباك، بعد ذلك تم فتح القُدس الشريف فى خلافة عمر، وجاء عشرون ألفًا من الصحابة الكرام إلى مدينة ريباك وحاصروها عشرين يومًا، ولكنهم هُزموا بأمر الله وقتل منهم سبعة آلاف شخص، بعد ذلك أرسل عمر بن الخطاب عمرو بن العاص لفتح مصر والإسكندرية وريباك، وقدم عمرو بن العاص مع ثمانية آلاف جندى لفتح ريباك، وحاصر الجند المدينة وبعد سبعة أيام فتحها جند الإسلام، وقتلوا عشرين ألفًا من الكفار انتقامًا لروح الشهداء الذين قتلوا قبل ذلك، ولأن الدماء كانت تجرى مثل النهر أطلق على المدينة اسم نهاريّة.

وفى رواية أخرى: أن يوم فتحها كان يوافق يوم النحر بعيد الأضحى فأطلقوا عليها نحرارية، ونهارية ينطق غلط من لفظ نحرارية.

وفى رواية ثالثة: أن الحاكم بأمر الله أحد خلفاء بنى العباس تجول بمدن مصر كلها حتى وصل إلى مدينة ريباك، وأصدر فرمانًا بأن يكون الليل نهارًا والنهار ليلاً. وأنه لو خرج شخص من داره بالنهار سوف يشق بطنه، وامتثل كل أهل مصر لذلك امتثالاً لمعنى حديث شريف مفاده: «وجوب طاعة ولى الأمر أو من ينوب عنه من الأمراء ولو كان عبدًا حبشيًا مجدعًا»[1] فكان الأهالى لا يخرجون من منازلهم بالنهار، وعندما يحل المساء يكون بمثابة الصباح لهم، يخرج الجميع ويوقدون الفوانيس والقناديل ويبيعون ويشترون على أضوائها، وظل هذا الحال عدة أيام فى مدينة ريباك، لهذا أطلق عليها نهارية، وهى كشوفية فى أراضى المنوفية تتبع كاشف منوف، وتُخرج سنويًا أربعين كيسًا من المال وقضاؤها مائة وخمسون أقچه وبها (   )[2] قرية يخرج منها سنويًا ثلاثة أكياس، كان قضاؤها ذا درجة عالية بين القضاء، حيث كانت مدينة عظيمة فى صحراء مستوية على ضفاف إحدى الترع التى انفصلت عن النيل المبارك، وتوجد حاليًا آثار لآلاف المبانى التى كانت موجودة بها، إلا أن المدينة هجرت بمرور الأيام حتى هجرها كل الأهالى وانتقلوا إلى مدينة الأبيار، لذا عُمرت مدينة الأبيار ولحق الخراب بمدينة النهارية منذ خمسين عامًا تقريبًا، وانهارت مدارسها وجوامعها وحدائقها، ولم يتبق بالمدينة سوى سبعمائة منزل أسقفها مغطاة بالتراب، وتبدو المدينة وكأنها كبيرة إلا

---

(١) أخرجه مسلم من طرق عن أبى ذر ـ رضى الله عنه ـ أحدها فى كتاب الصلاة، باب كراهية تأخير الصلاة عن وقتها المختار، حديث رقم (١٤٤٠). وباقى طرقه فى كتاب المغازى حديث رقم (٤٦٧٣ ـ ٤٦٧٥)، باب وجود طاعة الأمراء فى غير معصية ولفظه: «أوصانى خليلى (يعنى النبى ﷺ) أن أسمع وأطيع وإن كان عبدًا حبَشيًا مجدع الأطراف». ورواه من حديث أم الحصين حديث (٤٦٧٦ ـ ٤٦٨٠).
انظر: صحيح مسلم بشرح النووى (٦/٢٦١ ـ ٢٦٣) ط. دار الغد العربى.

(٢) بياض فى الأصل.

أنها خربة، وبها أطلال كثيرة، ويوجد بها حاليًا تسعة محلات وأربعون محرابًا منها ثلاثة عشر مسجدًا جامعًا العديد منها معطل، فقد تعطلت بسبب ضمها للأوقاف الأميرية على يد الكاشفين، وسنذكر الآن الجوامع العامرة بها، أولاً: الجامع الكبير فى الجهة الشرقية للمدينة ويبلغ طوله مائة خطوة وعرضه سبعين خطوة وبناحية المحراب اثنان وثلاثون عمودًا مرمريًا وحول الصحن اثنان وخمسون عمودًا تحمل السقف، وهو سقف خال من الزينة، وسطح الجامع مغطى بالكلس، وبفنائه شجرتان من شجر السدر، وبوسط الفناء سبيل مياه، وفى الزاوية اليمنى للفناء المئذنة وهى من أربعة طوابق، وللجامع سبعة أبواب، ويتم النزول إلى الجامع من الباب الموجود فى الناحية اليمنى بواسطة سلم حجرى من سبع درجات، أما بقية الأبواب الأخرى فسلمها خمس درجات فقط، ومنبر الجامع من الخشب القديم، وعلى الحائط الموجود يسار المحراب لوحة مربعة مرمرية مكتوب عليها بالخط الجلى: (أمر ببناء هذا الجامع الشريف أبا بكر بن عبد الله العساكر المنصورة أعز الله أنصاره سنة سبع وستمائة) وبين المنبر والمحراب لوحة مربعة عليها كتابات لم نستطع قراءتها، ولكن عليها تاريخ سنة ثمانمائة وعلى الإطار العلوى للمنبر كتب ما يلى:

(أمر بتجديد هذا المنبر المبارك مولانا السلطان الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون الصالحى فى شهر ذى القعدة سنة خمس وثمانين وستمائة).

وفى الناحية الشرقية للفناء ميقات شمسى على القبو فى غاية الجمال لا يستطيع أساتذة علم النجوم مثل بهرام وكوان وفيثاغورث وعلى قوشجى صنع ميقات مثله، إنه ميقات مشهور فى ديار مصر كلها، وهو مثل ربع الدائرة القطبية، محرر به القطر والميل، وقد كتب فوق هذا الميقات آية: ﴿ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ﴾ [الفرقان: ٤٥]، خلاصة الكلام إنه ميقات فى مرتبة السحر المبين، إن هذا الجامع جامع أنور يجاب فيه الدعاء.

وبالقرب من هذا الجامع جامع السيد ناصر الدين أبو العمايم، وجامع العجمى ويقع داخل السوق وهو جامع صغير وجامع الحنفى وهو جامع ذو مئذنة، وجامع سيد أحمد

السواح على ضفاف النيل ومئذنته فى وسط الفناء، وجامع الحاج منصور المغربى وهو جامع صغير، وما عدا تلك الجوامع مساجد، ولكن زاويتا الست رقية وبلال الحبشى فى غاية العمران، وبالمدينة وكالتان وسبيلان وثلاثة مكاتب للصبيان، وسبع مقاهى ومائتا دكان، وتنتشر مئات الدكاكين فى أيام المولد، وبالمدينة حمامان ولكنهما معطلان أيضًا.

وكل الأعمدة الحجرية الموجودة بالجوامع والمساجد والوكالات وأحجار العتبات من الأحجار تشبه المسلة الموجودة فى «آت ميدانى»[1] فى إستانبول، وكانت بالمدينة بعض العلامات الحجرية، إلا أن الظاهر منها الآن أساسها فقط، وعندما بنت الملكة دلوكة تلك المدينة قام الكهنة بعمل ثلاث مائة وست وستون طلسمًا بالمدينة، وقام الملك سوريد ببناء جسر عظيم على النيل أمام مدينة زياك، ولكنه هدم على يد بخت النصر وتظهر دعاماته عندما تنخفض المياه فى نهر النيل، وهى عشرين دعامة قوية بين كل دعامة وأخرى خمسين ذراعًا مكية[2] وقد تيسر للحقير رؤية تلك الدعامات ذات مرة، وتعبر السفن الذاهبة إلى رشيد من تلك الدعامات بحيطة وحذر، وهذه المدينة القديمة أبنية غريبة وعجيبة، كما تظهر تصاوير عجيبة وغريبة على الأحجار المختلفة على الحوائط، وطرقها على هيئة لوحة الشطرنج لأنها بُنيت على علوم الحكماء فى الزمن القديم، ولوقوع المدينة على نهر النيل فإن هواءها لطيف للغاية وبها قرى عامرة.

وحول المدينة سبعة آلاف فدان يتم زرعها، ونظرًا لهجرة الأهالى للمدينة فإن النسبة انخفضت حتى وصلت إلى ألفى فدان فقط يحصل منها خمسون كيسًا مصريًا وبقية الأراضى الأخرى خاوية، ويقام المولد بالمدينة مرة كل عام ويكون عشرة أيام بلياليها، يتجمع به رجال كثيرون، يبيعون ويشترون ليلاً نهارًا، حيث يُعمّر كل ركن من أركان

---

(١) اسم ميدان أمام مسجد السلطان أحمد كان الرومان البيزنطيون يستخدمونه ميدانًا لسباق الخيل، عمره بعد خراب السلطان محمد الفاتح وأصبح ميدانًا لسباق الخيل ومباريات أخرى، وكان الإنكشارية يحتشدون فيه معلنين الثورة. وفى القرن التاسع سمّى بـ «ميدان السلطان أحمد».

(٢) الذراع المكى ـ ويقال الهاشمية ـ مقياس، طولها ٦٤ سنتيمترًا.

المدينة فى تلك الأيام، وتصطف الحوانيت على الطرقات، وتشتهر النهارية بكتانها الذى يفوق كتان الفيوم، لذا فالقماش هناك رقيق للغاية، ولهم خبز أبيض خاص بهم وعندهم نوعٌ من السمك يسمى شليه، كما توجد مصانع النشادر على ضفاف النيل فى مدينة النهارية، والنشادر التى تصنع هناك نظيفة خالية من الأوساخ والشوائب، ومن العجائب الموجودة بتلك المدينة أيضًا تلك الترعة التى قامت الملكة دلوكه بحفرها من أمام قرية الفرزدق وهى خاصة بنقباء الأشراف، وهى ترعة شقت من النيل تمر من أمام قرية النهارية، والعجيب فى تلك الترعة أنها حفرت بشكل يجعلها تجرى ناحية الجنوب بالرغم من أن النيل المبارك يجرى صوب الشمال حتى يصب فى البحر الأبيض عند رشيد، وتمر تلك الترعة من مدينة النهارية ثم مدينة الأبيار ثم محلة المرحوم وتنتهى فى بلد شيب، وإذا ما فاض النيل فإن المياه تزيد بها وتجرى نحو الجنوب حتى تصب فى نيل دمياط، أما فى الأوقات العادية فتزيد المياه بها وتقل على حسب المد والجزر، ويقولون هناك أن المياه موجودة بها بصفة مستمرة ولا تجف خمسة أو ستة أشهر مثل بقية الترع الأخرى وذلك لأن الملكة دلوكه دفنت طلسمًا أمام النهارية، ويجرى النيل على عكس تياره من تأثير هذا الطلسم، وهى على هذه الحال إلى ما شاء الله.

أوصاف مزار الأولياء بمدينة النهارية

أولاً الموجودون وسط المدينة: ضريح الشيخ محمد بن زين وهو ضريح ذو قبة منخفضة فى أحد أركان فناء جامعه، والضريح من الداخل لا توجد به زينات وزخارف كثيرة، والجامع أيضًا جامع صغير، ولكن المصلين به كثير، وبابه يطل على ناحية الشرق، وله مئذنة بيضاء ذات طابق واحد، وقبة الضريح مكسوة بالكلس الأبيض، ولهذا الشيخ مناقب مشهورة عند العرب والعجم إحدى تلك المناقب ما يلى؛ عندما أراد الشيخ محمد بن زين التوجه لأداء فريضة الحج، قال بعض خلفائه: فى أى يوم ستخرج إلى الحج؟ وكم ناقة تحتاج يا مولانا؟ فقال لهم أنا يمكننى أن أحضر ناقة، أما

أنتم فدبروا حالكم، وفى الصباح جاء أعرابى بناقة بيضاء جميلة إلى الشيخ وأعطاها له وقام الشيخ بتوديع الحضور فى المجلس وبينما كان الشيخ منشغلاً بالذكر بقوله يا حى يا قيوم يا قوى يا متين أخذته الناقة على ظهرها وهرولت به كريح الصبا حتى خرجت من المدينة، فتعجب المريدون من هذه الحال وأسرعوا خلف الناقة يبحثون عنها، وقد وجدوا الشيخ يؤدى صلاة الظهر والناقة باركة بجواره، وبعد الصلاة أرسل كل أحبائه إلى المدينة أما هو فجلس يذكر الله مع سبعة من الرجال، ثم ركب الناقة وعزم على المسير وعندما رأى كل الحجاج هذا تحيروا، حقًا إنه سلطان صاحب قوة خارقة.

وقد قطع هذا الشيخ المراحل وطوى المنازل حتى وصل المدينة المنورة فى أربعين يومًا، وسارت به الناقة إلى باب السلام، فقام الشيخ بتقبيل ضريح حضرة صاحب الرسالة ومسح وجهه بالروضة المطهرة، ثم قال الرجل وهو يقف أمام روضة النبى ﷺ : (يا رسول الله لقد أحضرت لك جملاً هدية وأتمنى أن تقبلها منى) وعلى الفور ظهر صدى من داخل القبر الشريف يقول: (يا محمد بن زين لقد قبلها الله أيضًا وشفاعتى لك، يا ابن زين إن ناقتك التى أحضرتها قد ماتت الآن لا تطعمها ولا تسقيها امتطيها واذهب إلى مكة وعرفات والمروة وبعد أربعين يوم سوف تذهب بك إلى النهارية لتدفنها هناك)، وعندما استمع ابن زين لهذا الصدى من القبر الشريف حمد الله وقال لقد قُبِلت هديتى، وعندما خرج وجد الدراويش الموجودين بجوار الصفة يصرخون ماتت الناقة، فقال الشيخ محمد أيتها الناقة لقد سرت بى وأنت حية وسوف تسيرين بى وأنت ميتة بإذن الله، فركب الناقة الميتة قائلاً باسم الله وقال: (يا جمل قم بإذن الله) فنهض الجمل على قدميه وسار وهو ميت وذهب فى عشرة أيام إلى مكة وعرفات وأدى الشيخ الحج، وقطع المنازل وطوى المراحل، وفى اليوم الأربعين وصل إلى مدينة النهارية وهناك سكنت الناقة عن الحركة، فقام الشيخ بتغسيلها بيده المباركة ودفنها ثم أُنشئت بعد ذلك قُبة عليها أطلق عليها قبة ناقة الله ويزورها كثير من الناس، وقد شوهد ذلك كثير وشهد الذين ذهبوا إلى هناك بأنهم يسمعون ضجيج الإبل يخرج من القبر، وفى تلك السنة توفى الشيخ ليحشر تحت لواء صاحب الرسالة قُدّس سره العزيز.

وهذه المناقب قريبة العهد وأحمد الله أن الحقير تسنى له زيارة الضريح ومسح وجهه به وقرأ الختمة الشريفة هناك مرتين ووهب ثوابها لروح الشيخ، وقد رجوت شفاعته.

وضريح الشيخ السيد حسن القصرى بالقرب من جامع عطية البيه، وفى قبالته ضريح الشيخ حسين وهو فى زاوية صغيرة، وفى ضريح صغير يبعد عن قبلة باب الجامع بمائة خطوة قبر الشيخ إبراهيم قرانجة وفى مقابلته ضريح الشيخ ناصر الدين أبو العمايم، وهو مدفون بجانب جامعه الذى يشبه حدائق إرم، والضريح مزار للعام والخاص، وقد مُدحت أوصافه فى طبقات الشعراوى، قُدّس سره، وقبر الشيخ سيد على وحيش وهو مدفون فى ضريح صغير داخل جامع صغير يقع بالسوق.

ضريح الشيخ حسين العجمى، وفد هذا الشيخ مع ابنه إلى محلة المرحوم من ديار العجم وهو سلطان عظيم، وقبر الشيخ عثمان الحنفى بفناء جامعه على ضفاف النيل وهو ضريح صغير داخل الجامع، وبالقرب منه ضريح الشيخ بلال الأنصارى وهو من الصحابة الكرام وهو ليس بلالاً الحبشى، فبلال الحبشى مدفون بالشام عند باب النعجة، أما بلال الأنصارى فهو مدفون بزاوية صغيرة بمدينة النهارية، ثم ضريح الست رقية ويقع فى زاويتها، وأكثر زواره من النساء، ثم ضريح الشيخ أحمد السواح وهو ضريح صغير فى الناحية اليسرى من جامعه.

ثانيًا: أما الأضرحة الموجودة خارج المدينة فهى: ضريح الشيخ نصر الدين أبو العلا، وهو شيخٌ كبير له مناقب فى طبقات الشعراوى وضريحه أبيض اللون يقع خارج المدينة فى ناحية القبلة وله جامع فخم مزين، وبالناحية الشمالية للمدينة ضريح الأولياء السبعة ويطلقون عليه مزار الأولياء السبعة لأن سبعة من الأولياء مدفونون به، وكلهم من نسل النبى يوسف، وعلى ضفاف النيل ضريح صغير للشيخ يوسف العجمى.

وعلى ضفاف الترعة الموجودة بمدينة النهارية على مقربة من المقهى ضريح على رفيعى وهو ضريح صغير وقد شاء المولى القدير أنه أثناء زيارة الحقير لهذا الضريح تهدم

جزء منه، وتم ترميمه علـى الفور بواسطة سبعة بنائين وعشرة عمـال وعشرة قناطير من الجبس والكرج، ثم تلى الحقير ختمة شريفة فى ثلاث ليال بالضريح ووهب ثوابها لروح الشيخ لـيتقبل الله، وبفـناء الضريح شجـرة سدر، ويعتقد الـتجار المغاربة الـذين يأتون للنهـارية لشراء الكتان فـى الشيخ لأقصى درجة، ودائـمًا ما يقومون بزيـارته فلا يرون ضررًا فى رحلتهم، إنه سلطان عظيم.

ثم ضريـح الشيخ عـبد الله وهو ضريح صغير تحت شـجرة سدر أمام بـاب وكالة الكاشف الواقعة علـى ضفاف النيل، وبالقرب منه ضريح الشـيخ محمد الحجازى وهو خال الشـيخ أحمد البـدوى، سلطان عظيـم من كبار الأوليـاء، وبمدينة النـهارية آلاف الأضرحة لكبار الأولياء ولكن ما ذكرناه هو ما ذهبنا إليه فقط.

وركبنا مع رفقائنا القارب ومررنا ببلدة قلية المقابلة لمدينة النهارية وهى بلدة عامرة بها مائة منزل على ضفاف الـنيل، وتقع تحت حكم عبد الرحمن أفندى أما قـضاءها فثمانية أكياس، وبهـا جامع كبير بزاوية مـن زوايا فنائه ضريح الـشيخ عبد السلام قلـيبى وهو سلطـان عظيم، وهـو عم الشيـخ محيى الديـن بن العربـى المدفون بالـصالحية بـالشام الشريف، أتـى هذا الشيخ من المـغرب ودفن فى هذه البلـدة؛ وقد قمنا بزيـارته وقرأنا القرآن عنـده، وبالقرب من ضريح الـشيخ السيد عبـد الواحد، ضريح صغيـر فى فناء الجامع الذى أنشـأه الشيخ عبد الواحد من مـاله الخاص، ثم عدنا بالمركب إلـى الناحية الأخرى من النهارية.

فى بيان مولد النهارية

يجتمع فى هذا المولـد خلق كثير مثل مولد الشيخ أحمـد البدوى؛ إلا أنه لا يضاهى ذلك التجمع الموجود بمـدينة طنطا، ويوجد به كل العاشقين والصادقـين ويجتمع التجار والزوار وأهل الصنـاعات والحِرف فى هذا المولد بخيـامهم الكبيرة والصغـيرة، وينصب التجار والصناع الخـيام كحوانيت لهم، ولا شك فى أن وجود تلك الحـوانيت فى مدينة النهارية ينـعشها، وفى أيام هذا المولد تنـشر أيضًا مئات الخيام والحوانيـت والمقاهى على ضفاف النيل تحت ظلال الأشجار حيث يبيعون ويشترون لمدة عشرة أيام بلياليها، ولكون

هذا المولد على ضفاف النيل، فإن كل زواره وتجاره يأتون بالمراكب ويشكلون جمعًا غفيرًا يعجز اللسان عن وصفه، وفى اليوم العاشر اعتزم كاشف منوف العودة إلى مصر مع جنوده ودقت طبول العودة أما كل الزوار والتجار فقد عزموا على التوجه إلى مولد إبراهيم الدسوقى.

وقد ركب الحقير زورقًا مع مجموعة من خدمه، وسرنا أربعين ميلاً فى ترعة النهارية وشاهدنا على جانبى الترعة مئات القرى العامرة ذات حدائق النخيل والورود، ثم دخلنا نهر النيل الرئيسى من عند نهاية تلك الترعة عند بلدة الفرزدق، وقد شقت الملكة دلوكه ترعة النهارية من هذا المكان وبذلك جلبت الملكة مياه النيل إلى النهارية.

تقع بلدة الفرزدق فى أراضى الغربية بها مائتا منزل وجامع، وهى قرية نقيب أشراف مصر برهان الدين أفندى، عبرنا بلدة الفرصدق وسرنا نحو ثلاثين ميلاً فوصلنا إلى قصبة محلة صا ويطلقونا فى تلك النواحى محلة على القصبة، ومحلة صا تقع فى أراضى البحيرة بها مائتا منزل وجامع جديد بمئذنة وزاوية وعشرة دكاكين ومقهى، ودار للضيافة ويقيم الملتزم والأمين فى تلك الدار ويطلقون عليها المسافر خانه، ويقوم كل الأهالى هناك بتقديم بعض محاصيلهم ليتناول منها الضيوف والمسافرون، إنها خيرات عجيبة وقد أقام الحقير ليلة فى هذه الدار.

وفى الصباح ركبنا المراكب وسرنا نحو عشرين ميلاً فوصلنا إلى محلة أبو على وتقع على النيل فى أراضى الغربية ملتزمها هو عمر الجوربجى وهى قصبة عامرة يُحصل منها سبعة أكياس مصرية، قضاءها مائة وخمسون أقچه ويتبعها خمسة وأربعون قرية آهلة يحصل لقاضيها كل سنة ثلاثة أكياس، وهذه القصبة قصبة لطيفة وعامرة على ضفاف النيل تمتد من الشرق إلى الغرب، وبها ثمانمائة منزل أسقفها مغطاة بالتراب وهى للفلاحين، وبها تسعة محاريب من بينها جامعان؛ الأول منهما يقع بالقرب من المحكمة الواقعة على ضفاف النيل وهو جامع قديم به أربعون عمودًا من المرمر، وبفنائه شجرة سدر كبيرة مرتفعة جدًا تتدلى منها الأغصان، أما الجامع الصغير الموجود بالسوق فتقام به جماعات كثيرة، وما عدا تلك المحاريب فهى زوايا، وبالمحلة خمسون حانوتًا ودكان

وثلاثة أسبلة ومكتبان للصبيان ولا يوجد بها حمام، وبها دار لملتزمها عمر الجوربجى وهى مثل القصر المنيف، تمتلئ بالغرف والقاعات.

ومن هناك ركبنا الخيول وذهبنا إلى بلدة المجنون وهى بلدة عامرة على ضفاف النيل بها مائة منزل، فى التزام مصطفى أغا أغا الانكشارية فى مصر، عبرناها ثم اتجهنا ناحية الغرب فى أراضى الغربية، فوصلنا إلى قصبة إبراهيم الدسوقى.

أوصاف قصبة إبراهيم الدسوقى

سُميت هذه القصبة على اسم الشيخ إبراهيم الدسوقى لأنه كان يقيم بها، وهى من أراضى الغربية وتبعد عن النيل بمقدار خمسمائة خطوة، ملتزمها هو قيطاس أغا الشركسى وهى قصبة عامرة بها خمسمائة منزل وبها دار ضيافة ويحكمها شيخ العرب، ويمتلك ألف جواد ويوجد مشايخ من أبناء الشيخ الدسوقى الآن فى تكية الدسوقى، بها حدائق وبساتين كثيرة وستة جوامع وجامع من آثار السلطان قايتباى من سلاطين مصر يبلغ طول هذا الجامع من باب القبلة حتى المحراب مائة وعشرون خطوة، وعرضه مائة وثلاثون خطوة وبالجامع خمسون عمودًا مرمريًا تحمل الكمرات التى تحمل السقف، وهو سقف خالٍ من الزينة، المنبر ومحفل المؤذن من الخشب أيضًا، والمحراب قديم خالٍ من الزينة، نقش فوقه بالخط الجلى عبارة: (أمر بإنشاء هذا الجامع الشريف السلطان قايتباى عز نصره).

والغرفة الموجودة أمام المحراب مدفون بها كبار الأولياء، ودائمًا ما يسطع منها النور، وللجامع أربعة أبواب اثنان منهما يطلان على القبلة والآخران يطلان على ناحية الغرب واحد منها باب للعمارة والثانى باب الميضأة، أما الباب الصغير المكشوف على حوض الشافعى فهو باب صغير ويدخل منه من يريدون تجديد الوضوء، والمكان من منتصف الجامع وحتى المحراب مرتفع يصعد إليه من مكانين بواسطة سلالم حجرية ترتفع لِستّ خطوات، وعند الباب الموجود فى الناحية اليسرى من البابين المطلين على القبلة توجد مئذنة موزونة غاية فى الجمال صُنعت بدقة ومهارة تجعلها لا يوجد مثلها فى مصر وبقية

الديار الأخرى، ترتفع هذه المئذنة لمائة وخمسة أقدام وهى ثلاثة طوابق، إنها مئذنة تثير العجب، وأسفلها باب يتم الدخول منه إلى ضريح قطب الأقطاب الشيخ إبراهيم الدسوقى قُدّس سره العزيز حيث يرقد فى هذا الضريح مستغرقًا فى نور الله مرشد الناس السلطان العارف بالله الشيخ إبراهيم الدسوقى، ولم تكن قبة الشيخ إبراهيم الدسوقى مزينة بنفس الزينة الموجودة فى ضريح السيد أحمد البدوى وتوجد بعض المعلقات فقط بالضريح من الداخل لم يكن بها تكلف.

على أية حال لم يكن لضريح إبراهيم الدسوقى هذا الحظ من الزينة، وعلى الجوانب الأربعة للضريح مجموعة من القناديل ومئات الشموع والأعلام البرهانية، أما أرضية الضريح فهى أرضية من المرمر ليست مفروشة، ويطل باب الضريح على ناحية الشمال ويدخل منه الزوار إلى الضريح ويؤدون ركعتين بجوار المحراب ثم يذهبون، وبوسط تلك القبة قفص خشبى بداخله صندوق الضريح وهو مغطى بالصوف الأخضر كما توجد عمامة خضراء عند رأسه فهو حسيب النسب من العرق الطاهر والسادات الكرام، كان الشيخ إبراهيم الدسوقى معاصراً للبدوى وهم أبناء عمومة والبدوى كان من الدراويش الأميين، أما إبراهيم الدسوقى فكان سلطانًا مصنفًا مؤلفًا وله الآن مئات المجلدات والمؤلفات كلها كتب قيمة عن العلم اللدنى، وله أشعار بليغة وفصيحة وهى أبيات فى التصوف تقرأ بين المتصوفة، وله مئات الكرامات والمناقب المذكورة فى بعض مناقب الأولياء وطبقات الشعراوى، لم يشتغل الدسوقى باللهو واللعب مع الصبيان فى زمن صباه فقد كان يقوم الليل ويصوم النهار وأصبح صاحب سجادة لآلاف المشايخ وأرشد آلاف الرجال، ولا يستمع أى شخص تارك للصلاة أو شارب للخمر من أهل الهوى إلى أبيات الشيخ الدسوقى إلا ويتوب على الفور ويصبح من أهل السلوك، وقبة ضريح الدسوقى مغطاة بالكلس الأبيض يعلوها علم كبير من النحاس الأخضر، لو حدثت أى مصيبة كبرى أو مات أى سلطان فإن هذا العلم النحاس الأخضر يميل ناحية الشرق أو الغرب من ناحية القبلة وبذلك يعلم جميع طوائف العربان الموجودين هناك أنه

قد حدثت مصيبة بتلك الديار التى مال العلم ناحيتها لذا يقول طائفة العربان وهم يصيحون يا دسوقى يا مولى النحاس.

وفى اليوم الذى استشهد فيه السلطان إبراهيم فى الروم مال هذا العلم نحو الغرب ولا يستطيع أحد أن يضع يده على هذا العلم، ودوران هذا العلم هكذا كرامة، وتلك كرامة أخرى حدثت فى ضريح الدسوقى عندما كان الحقير يقوم بزيارة إبراهيم الدسوقى رأى رجلاً يصيح داخل الضريح، إنه رجل من حجاج الروم وضع ألف عملة ذهبية فى حافظته وذهب لزيارة إبراهيم الدسوقى وبينما هو فى هذا الخضم العجيب من البشر قام لص محترف بسرقة الألف عملة ذهبية منه فصاح الرجل يا دسوقى هل هذا يليق بك؟ لقد زرتك وقلت فى نفسى: ﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، ولكن سرقت منى أموالى الذهبية التى أنوى الذهاب بها إلى الحج الشريف، سُرقت منى على أعتابك هل هذا يصح؟ والله سأشتكى منك لله، وعلى الفور تجمع الناس عند باب الضريح حيث كان هناك رجل يرتدى عباءة سوداء وعيونه مكحلة ويمسك فى يده المسبحة، كان الرجل قد أصابته نوبة صرع سقط فى الضريح لا يستطيع التحرك ولكن لسان حاله كان يشير على بنطاله، حاول أحد خدام الضريح وأحد خدام الحقير إخراج جسد الرجل من الضريح ولكنهم لم يستطيعوا ذلك واستخرجوا من جيب بنطاله الألف قطعة ذهبية وردوها لصاحبها، فصعد الرجل على الفور إلى حرم الجامع وأعطى لكل حافظ من الحفاظ العشرة عملة ذهبية وذلك ليقرأوا ختمة شريفة لروح إبراهيم الدسوقى، كما تصدق بمائة عملة ذهبية على الفقراء الموجودين فى حرم الجامع، أما اللص فقد قضى ليلته فى فناء الجامع وهو جريح فقام بعض المشايخ بقراءة حزب البحر وبعض التعازيم عليه حتى شفى إلا أن يديه كانتا فى حكم المشلولتين وذهب الرجل على ذلك، وقد رأينا هذا الشخص فى الإسكندرية عندما ذهبنا إليها بعد ذلك فكانت يداه معوجتين.

خلاصة القول أن إبراهيم الدسوقى سلطان. وقد شاهد تلك الكرامة المارة الذكر مئات البشر عندما حدثت قُدّس سره العزيز.

وفى الناحية اليمنى لهذا الضريح يوجد لوح من المرمر عليه أثر قدم النبى ﷺ على أحد الحجارة، ومكان قدم النبى وضع ماء الورد يقوم كل الزوار بالأخذ منه ويمسحون به وجوههم ثم يقبلون الحجر الموجود عليه أثر قدم النبى ويطلبون الشفاعة وعند رأس الشيخ إبراهيم الدسوقى نقشت عبارة: (أمر بتجديد هذه الشبكة المباركة بهرام أغا ابن شيخ محمد) بالخط الجلى على لوحة مرمرية، وفى الناحية اليسرى لمحراب الضريح باب صغير يتم الدخول منه إلى حجرة صغيرة بها ضريح الشيخ سيد موسى بن الشيخ إبراهيم الدسوقى وليس بها أى زينة تذكر، بالإضافة إلى قبتين صغيرتين فى فناء الجامع، أما القبة الموجودة فى ناحية باب العمارة فمدفون بها بهرام أغا الذى قام بتعمير وترميم ضريح إبراهيم الدسوقى، والصفة الخارجية والسطح والقبة الموجودة على يسار هذه القبة مدفون بها حفيد إبراهيم الدسوقى وهو الشيخ عبد الله أبو الطيور ابن الشيخ موسى كان هذا الشيخ خليفة للدسوقى بعد وفاته.

وأبواب هذه القباب الصغيرة كلها مكشوفة ناحية الشمال، وبكل قبة منها نافذة أو نافذتان تطل على الحرم، وبعمارة هذه التكية أوعية كبيرة للغاية يوضع فى كل واحدة منها أيام المولد ثلاثة أو أربع من الجاموس أو عشر نعاج، ويطبخ فى أحد تلك الأوعية شوربة القمح كما يتم صنع عشرين ألف رغيف خبز وتقدم كل تلك الأطعمة للفقراء والمساكين ويقدم الطعام على هذا المنوال عشرة أيام بلياليها. أما فى الأوقات المعتادة فيتم طهى إناء واحد فقط من شوربة العدس والقمح وثلاثة آلاف رغيف وتقدم للفقراء والمساكين والطلاب، وذلك لأن غرف الطلاب والمريدين وهى تزيد على مائة غرفة تصطف على الجهات الأربعة حول فناء الجامع بها أناس يشتغلون بالعلم والطاعة والذكر وناظر تلك الأوقاف هو السيد يحيى من أبناء إبراهيم الدسوقى وابنه الشيخ سيد شريف الدين ودائمًا ما يقوم بالإنفاق على المريدين والمساكين ومنازل المذكورين تقع فى فناء الجامع.

وبتلك القصبة خانان وعشرة حوانيت ولا يوجد بها حمام أو مدرسة، وبها سبيل للمياه، بفناء الجامع، يشرب منه كل الزوار إنه ماء الحياة، عبارة عن صهريج مثل البحر

لا ينقص قطرة، والحوانيت المذكورة موقوفة على هذا السبيل وفى أيام المولد تُنصب آلاف الحوانيت والدكاكين من الخوص والغاب والكليم والخيام فى مكان المولد وبطول ساحل النيل ولا يعلم عدد تلك الحوانيت سوى الله حيث يأتى تجار الأقمشة من الهند واليمن ويستمر البيع والشراء عشرة أيام بلياليها، ويقدر هذا البيع والشراء بمئات الآلاف من القروش، وبخلاف الحوانيت فإن الطريق الرئيسى قد زين من على جانبيه بالمقاهى وبائعى الخبز وهو ما يضفى الجمال على الطريق بأكمله، وبكل مقهى من تلك المقاهى توجد الراقصات وأهل الغناء ومَنْ يعزف الرباب، كما تنتشر الأسواق فى فناء جامع إبرهيم الدسوقى وخارج الفناء وتباع فيها الأشياء القيمة.

وهذا المكان مكان جيد للبيع والشراء لأنه داخل المدينة ويزيد مولد إبراهيم الدسوقى على مولد البدوى بأنه يأتيه أناس كثيرون وذلك لوجود المدينة على ساحل النيل فيأتى الزوار فى ألفى مركب وسفينة وصندل وزورق من كل المناطق الواقعة على نهر النيل من الإسكندرية وحتى الصعيد وبذلك يجتمع أناس كثيرون فى مولد الدسوقى ويكون هذا الجمع كاليم، وترسو تلك السفن والمراكب على شاطئ النيل وقد تزين كل مركب منها بأربعين أو خمسين أو مائة أو مائتى راية وعلم كما يوجد بها آلاف القناديل، وبكل سفينة من السفن الجريم والعقبة الآلات والأسلحة، ويتم تجهيز المقاعد للضيوف القادمين، ويضاء كل ليلة مئات الآلاف من القناديل حتى وقت السحر وتطلق الأعيرة النارية والفشنك، وتدق الطبول فى كل النواحى، فتكون كل ليلة ونهار من تلك الأيام بمثابة عيد الأضحى.

كما يقوم أصحاب الخيام والحوانيت برش المياه أمام الخيام والحوانيت مما لا يسمح بوجود ذرة غبار واحدة، ويطيب النسيم فيحيى العاشقين، ويخرج العاشقون من المراكب والسفن وينتشرون على ضفاف النيل وينصبون خيامهم تحت أشجار النخيل ويطهون الأطعمة النفيسة، ويعيشون على ذلك ليلاً ونهاراً ويصبح مجلسهم مثل مجلس حسين بيقارا بسبب المطربين والعازفين ففى كل ناحية وزاوية تجد جماعة تجلس مع

بعضها يتسامرون أحيانًا ويذكرون تارة أخرى وبالرغم من ذلك يكون عدد الخيام فى مولد أحمد البدوى أكبر من عدد الخيام فى مولد إبراهيم الدسوقى، وذلك لأن حوالى أربعين أو خمسين ألف من الفلاحين والملاحين يرقدون فى السفن والمراكب، أما بالنسبة لعدد الرجال فمولد الدسوقى أكبر من حيث العدد والجمع به يكون مثل البحر، حيث يختلط الكتف بالكتف من شدة الزحام وتأتى السفن من كل البلدان بالطعام والشراب، وينصب مشايخ الطرق خيامهم فى أحد أطراف تلك المدينة على المراعى والأراضى الخضراء وينشغلون بالذكر فى كل ليلة حتى الصباح، ويصل صدى ذكرهم إلى عنان السماء.

وفرقة أخرى تركب السفن ليلاً وتصل حتى محلة أبو على ويطلقون الأعيرة النارية والفشنك وهم يهتفون باسم السلطان محمد خان، ويدقون الطبول ويسيرون مع النيل ثم يأتون إلى مركزهم ويستقرون به، أما طائفة العربان فإنهم يصفقون ويقولون: (الله ينصر السلطان) وتصبح خيامهم وأسواقهم بذلك أشبه بضجيج الهند كما يبقى فى كل سفينة ومركب ألفى رجل يقومون بالدعاء بالخير للسلطان وكل سفن المشايخ فى مولد الدسوقى مثل سفن المشايخ فى مولد البدوى أربع طبقات.

وفى اليوم الثامن من مولد الدسوقى وهو يوم الأربعاء ينادى الدلالون فى قصبة دمنهور بولاية البحيرة بالمولد الشريف فيذهب موكب عظيم به سبعمائة من المشايخ وعشرين ألف من الدراويش والمريدين بالكسوة الشريفة الخاصة بالشيخ الدسوقى ويضعونها على صندوق ضريحه وفى يوم الجمعة يخرج الموكب العظيم على دقات الطبول والتوحيد بوضع الكسوة على ضريح الشيخ إبراهيم الدسوقى، ويكون بهذا الموكب سبعمائة من المشايخ وأربعين ألف مريد ودرويش من مريدى الطرق البرهانية والرفاعية والجيلانية ويقومون بتجديد الكسوة على الضريح ثم يدعون للسلطان وكل سلاطين آل عثمان ولأصحاب الخيرات بالخير.

وفى ذلك اليوم يؤدى كاشف الغربية خدمة أيضًا، حيث يذهب كل الزوار والتجار

إلى أوطانهم بعد انتهاء المولد، وتفترق كل الجماعات عن بعضها البعض ويصبح ميدان دسوق وهو يضطرب بين ساعة وأخرى ولكن يبقى من هذا الجمع الغفير سبعمائة شيخ من الخلفاء، وبعد رحيل كل الزوار وانتهاء الضوضاء وسكون المكان، يذهب هؤلاء المشايخ ليلة السبت إلى جامع إبراهيم الدسوقى ويجتمع الصلحاء والمشايخ والدراويش فيكون المولد الشريف فى تلك الليلة المباركة ويحرقون العود والعنبر والبخور، وينثرون ماء الورد فى تكية الدسوقى، ويتناولون الأرز باللبن والسكر ويشربون المشروبات الممزوجة بالمسك، وهذه العادة من كل حسنات سيد مصطفى أغا مندلى زاده فى رشيد، ويقوم كل المريدين بإحياء تلك الليلة حتى الصباح فيختم مئات حفاظ القرآن الكريم ويجلسون جماعات جماعات يذكرون الله بذكر لا يخص أى طريقة، وبهذا التجمع روحانية وأسرار شوق لا يشعر بها سوى العاشقين فقط ولو استمع أى جاحد أو صاحب قلب متحجر لهذا الذكر فإنه سيتوب على الفور، إنه الطريق البرهانى وهو مشهور بين طرق أهل التوحيد.

ولا يستطيع أى مريد من أى طريق آخر القيام بهذا التوحيد الخاص بالطريق البرهانى، ويتحمله فقط القادرى والمطاوعى، وتعد تلك الليلة بمثابة ليلة الإسراء، بعد ذلك وفى صباح اليوم التالى يقومون بزيارة الوداع، ويستأذن كل المريدين من الخليفة وبذلك لا يبقى شخص واحد فى ميدان دسوق، حيث يركب كل المشايخ المراكب ويذهبون إلى ديارهم، وقد أدى الحقير زيارة الوداع هذه وختم القرآن وأهدى ثوابه لروح الدسوقى وطلب منه الشفاعة ليتقبل الله، ثم قبلنا يد الشيخ شرف الدين وسرنا لمسافة ثلاثة أميال فى نهر النيل فوصلنا إلى بلد مرقاص وهى فى أراضى البحيرة على ساحل النيل وهى عبارة عن قرية عامرة بها مائة منزل وحدائق النخيل، وينزل كل المشايخ فى تلك القرية حيث يحتفلون بمولد الشيخ أبو المجد بن الشيخ إبراهيم الدسوقى وهو مدفون فى ضريح عالٍ يقع فى حديقة نخيل وورود بجوار الجامع الكبير الموجود بالقرية حيث يحتفلون به ليلة واحدة، وللشيخ أبو المجد مئات المناقب والكرامات منها أنه أدى الحج ماشيًا سبعين مرة.

توفى عام (   )[١] أما الشيخ إبراهيم الدسوقى فقد ولد عام (   )[٢] ومدة عمره (   )[٣] وتوفى فى عهد (   )[٤]، ويجتمع فى تكية الشيخ أبو المجد آلاف العاشقين الصادقين العارفين ويتسامرون يومًا وليلة، يقرأون فيها المولد، وتتلى فى تلك الليلة مئات الختمات الشريفة، ثم يركب الجميع المراكب، ويذهبون إلى بلادهم وقد قام الحقير بتوديع الشيخ الشناوى والشيخ شرف الدين وحصل منهم على الدعوات بالخير وركب المركب وأبحر فى النيل حتى وصلنا إلى بلد الرحمانية المقابلة لمدينة إبراهيم الدسوقى وتقع بلدة الرحمانية فى أراضى البحيرة وهى فى التزام قيطاس أغا الشركسى وهى قرية عامرة بها خمسمائة منزل وستة حوانيت وثلاثة جوامع ومئذنة واحدة ومصنع سكر وستة مقاهٍ ودار الضيافة بها عامرة للغاية وكأنها القصر العالى المنيف، وتشتهر تلك القرية بمزارع قصب السكر ويتحصل للملتزم منها سنويًا من محصول السكر والمحاصيل الأخرى عشرة أكياس، وأحد الجوامع الثلاثة المذكورة من بناء السيد نفيس ويوجد أمام محراب الجامع أربعة أضرحة مدفون بها أربعة من أبناء الشيخ سيد نفيس وهم الابن الأكبر الشيخ سيد محمد يليه الشيخ سيد سليمان يليه الشيخ سيد محمود وكلهم من السادة الكرام وبخلاف تلك الأضرحة توجد أضرحة أخرى لكننا لا نعلم لمن كانت تلك الأضرحة وكلهم خلفاء للطريقة البرهانية، والجامع جديد وعامر قبته مطلية بالكلس الأبيض وبه مئذنة وعلى منبره آية: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [التوبة: ١٨] وقد قرأ الحقير فى هذا الجامع ختمة شريفة لروح كل واحد من المدفونين فى هذا الجامع، ثم ذهبنا إلى قصر قيطاس أغا وركبنا الخيول الكحيلانية مع حضرة الشيخ الشناوى وسرنا على دقات الطبول والدفوف إلى مدينة دمنهور لحضور مولد الشيخ أبو الريش.

(١ : ٤) بياض فى الأصل.

المنازل التى مررنا بها فى طريقنا إلى دمنهور

عبرنا غربًا من بلدة الرحمانية حتى وصلنا إلى بلدة الداودية وهى قرية عامرة بها مائة منزل وجامع وبها ضريح الشيخ عطا الله السنهورى وهو بين الأشجار على الطريق العام وقد قرأنـا الفاتحة لروحـه ثم سرنا ناحـية الغرب فـى صحراء كبيـرة فوصلنا إلـى بلدة السنهـورية وهى قرية تقع فـى أراضى البحيرة فى وسط الـصحراء بها ثلاثمـائة وعشر منازل وجامع علـى هضبة مرتفعة ثم سرنـا غربًا فى الصحراء على ضفـاف ترعة الملك الأشرف فوصلنا إلى دمنهور.

أوصاف المدينة القديمة دمنهور

يطلقون عليها خطأ دمنهور من كلمة دم نـهور وسبب تسميتها بهذا الاسم أنه عندما فتح عمرو بن العاص مصر فى عهد عمر بن الخطاب وبعدها بسبع سنوات أرسل عمرو ثلاثة آلاف جندى للبحيرة لتأمين مسيرة الحجـاج المغاربة فقام الملك قوطيس القبطى أخو الملك المقـوقس بحصار البحـيرة ودارت الحرب بينه وبين جـند المسلمين لمدة سـبعة أيام صارت الدماء فيها مثل الأنهار فأطلق عليها بعد الفتح دم نهور وأصبح يقال عليها خطأ دمنهور، ولا توجد حكومـة تملك إيالات كثيرة أكثر من دمنهور فى أقالـيم مصر فتمتد حدودها حتـى الجنوب إلى الصعيد وإلـى طرابلس وإلى الجبل الأخضـر وإلى الواحات ويلزم لـها كاشفون ذوى جرأة وشـجاعة يعمـلون على الضـبط والربط لشتـى صنوف الأهالى الموجودين فى تلك البقعة الواسعة.

ويحصل منهـا مائتى كيس وبها ثلاثمائة وسـتون قرية تابعة لها ولحاكمهـا خمسمائة جندى من الخـيالة وخمسمـائة مسلح بالـبنادق وهذا أقل ما يـكون بجانب حاكـم إيالة دمنهور والـسبب فى ذلك العربـان العصاة الذين يـأتون من الجبل الأخضر وهـم قبائل الجنذارى وهم يمتـلكون عشرة آلاف جندى وقبائل بـهجة ويمتلكون نفس الـعدد وقبائل البدو ولا يعـلم عددهم إلا الله، وقبائل أولاد رجـعيم ابن سيدنـا سليمان وبها ثـمانية آلاف بدوى، وقبائل بنى عون، وعندهم سبعـة آلاف جندى وقبائل بنى نخمة وعددهم

ثلاثة آلاف، ويتصفون بالشجاعة، وقبائل الضعفا وهم ثلاثة آلاف رجل يقيمون فى أراضى البحيرة والفيوم حيث يتنقلون من مكان إلى مكان وهم قوم مطيعون، وقبائل أفراد وجوابى وربانسه وطرحونه طرفة وأولاد حسن ونداره وسمه لوس وطويلى وسعادى وجلاسى وبنى قمامطة وبنى هداهد وعربان محاريب وعربان زرق وأولاد بنى وفا وهؤلاء وفدوا من المغرب واستقروا هناك وعندهم من الجند خمسة آلاف، وبخلاف هؤلاء يوجد مئات القبائل من العربان ولكن لاختلاطهم اكتفينا بذكر المذكورين فقط وهم عربان غرباء يحتاجون للغلال، وإذا ما جاء موسم الحصاد ينهبون الغلال بالرماح فينهبون القرى ويغيرون عليها ويأخذون ما فيها مجانًا، ثم بعد ذلك يذهبون إلى الصحارى التى يقيمون بها، لذا يجب أن يكون كاشف البحيرة حاكمًا ذا جرأة وشجاعة ومعه من الجند ما يكفيه، ولمدينة البحيرة محافظ على ألف جندى من جنود البلوكات السبعة لجند مصر وقائد للإنكشارية ورئيس لجنود العزب ونقيب للأشراف، ويوجد كاشف آخر تحت الكاشف الرئيسى للإيالة، أولاً كاشف روم بيه ويقيم فى مدينة حوش عيسى وكاشف طرانه وكاشف صيف درج وكاشف مجيلة وكاشف البحيرة المالحة، وقد استطاع أشقياء طرابلس الغرب أن يَغْصِبُوا الذهب بالقوة لمدة ستة وعشرين سنة.

وكل كاشف من الكاشفين المذكورين له خمسمائة أو ستمائة جندى وله راية وكلهم يمنحون الخلعة من كاشف إيالة البحيرة وليس من ديوان مصر، والحاصل أن كشوفية البحيرة عبارة عن حكومة لدى قضاء البحيرة ويحصل سنويًا ثلاثة آلاف قرش، حيث يوجد بقضاء البحيرة ثلاثمائة وست وستين قرية وستة نواحٍ هى نواحى طرانه والرحمانية وحوش بنى عيسى وصيف درج وناحية المدينة ومعظم أهالى تلك النواحى عصاة غير مطيعين، أما مدينة دمنهور فتقع على ضفاف ترعة الملك الأشرف فى وسط صحراء البحيرة على الناحية الشرقية لها وتبعد عن النيل بمقدار أربع ساعات وهى ناحية الرحمانية، أما الناحية الشمالية فتقع على ضفاف بحيرة مالحة يطلقون عليها ترعة الناصرية تبعد نصف ساعة عن النيل وعلى مسافة عشر ساعات بعد عبور عدة قرى عامرة توجد مدينة الإسكندرية، وطول مدينة دمنهور من الشرق إلى الغرب ثلاثة آلاف

خطوة وبها خمسة آلاف وخمسمائة منزل مسقوفة بأسقف بنيت من الطين، كما توجد بها منازل للفقراء، وعشرين محلة وسبع وسبعين مصلى بالتفصيل على ما يلى: جامع الأمير عامر بمحلة المنيل الواقعة بالجهة الشرقية لدمنهور وهو جامع كبير وقديم وتقام به جماعات كثيرة وهو جامع فسيح يبلغ بالخطوة المتوسطة مائة خطوة بالتمام طولاً وعرضًا، وبه اثنان وثلاثون عمودًا من المرمر تحمل السقف المنقوش أما سطح الجامع فهو مغطى بالكلس، وللمسجد ثلاثة أبواب باب القبلة ويُنزل منه للجامع بواسطة أربع درجات سلمية والبابان الجانبيان أيضًا لكل باب منهم سلم يبلغ أربع درجات سلمية وتوجد مئذنة مربعة ذات ثلاث طوابق تقع خارج الجامع وهى بعيدة عن باب القبلة، وهى مئذنة مرتفعة بنيت بمهارة أظهر فيها صانعها مهارته وخبرته.

وبوسط فناء الجامع توجد شجرة سدر قديمة ولكنها تثمر نبقًا عجيبًا، ومحراب الجامع على الطراز القديم أما المنبر فهو من الخشب المحفور وعليه لوحة خطية وعلى باب المنبر توجد لوحة منقوش عليها بالخط الجلى المحفور على الخشب عبارة:

(بسم الله الرحمن الرحيم إنشاء هذا المنبر المبارك والجنابى العالى الأمراء الكبير عامر بن المرحوم الرابى إسماعيل بن عامر غفر الله والديه والمسلمين وكان الفراغ من هذا المكان سنة اثنين وسبعمائة).

وعلى الحائط الأيمن لهذا المنبر توجد لوحة بطول الحائط من المرمر الأبيض نقش عليها بالخط الجلى عبارة:

(تعمر هذا الجامع سنة أربع وخمسين وثمانمائة).

وعلى مقربة من هذا الجامع يوجد جامع صغير ذو مئذنة من طابق واحد هو جامع أبو السعود، وبالسوق جامع به عشرون عمودًا من المرمر يطلقون عليه جامع التوبة وجامع العرب، وهو جامع مزين من على حوائطه بالأحاديث النبوية المكتوبة على الحوائط بين المصابيح والمشاريق وله باب يطل على السوق ومئذنة موزونة ذات ثلاث طوابق، وله باب أيضًا على يسار المحراب وباب آخر للحرم أما محفل المؤذن فهو محفل فى غاية المهارة من حيث الصنع مرفوع على أربعة أعمدة مرمرية محيطة مقدار ذراع أى

أن العمود مثل الذراع لذا يخاف أى شخص يصعد إليه ومحراب الجامع قديم، على جانبيه عمودان مرمريان فى غاية الجمال، وبداخل المحراب نقش خطى بخط الثلث مكتوب على أرضية مرمرية وهو لآية قرآنية: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [النور: ٣٦].

وأمام قصر الكاشف جامع المرحوم وهو جامع عتيق، وقد سمى بجامع المرحوم نظرًا لأن كل صلوات الجنازة تؤدى فيه، طوله وعرضه مائة خطوة، بديع البناء للغاية، وبه اثنين وثلاثين كمره تشبه الأعمدة تحمل السقف، وليس بالجامع قبة، وللجامع ثلاثة أبواب اثنان جانبيان وواحد للقبلة، وبوسط فناء الجامع شجرتى نخيل وشجرة سدر، تحت تلك الأشجار توجد صنابير على حجر أزرق يقوم أصحاب المذهب الحنفى بتجديد وضوئهم منها، ولهذا الحجر قصة وهى أنه كان قديمًا قبرًا لأحد ملوك القبط وعندما استولى العربان عليه ألقوا التابوت خارجًا واستخدموا مكانه كمرحاض (بيت خلاء) وعلى الجوانب الأربعة للحوض توجد نقوش خطية للكهنة القدامى وقد تجولت فى أقاليم مصر ثمانى سنوات ولم أرَ مثل تلك النقوش فى إسنا أو أسوان فهو حجر ملىء بالغرائب والعجائب، ويقول بعض أصحاب الحرف أنهم يعجنون هذا الحجر ويستخدمونه فى بعض الخزف والصناعات، ولا يوجد بهذا الجامع أى طلاءات بالكلس وليس له مئذنة.

وتوجد ثمانية أعمدة مرمرية على الجهة الجانبية على جانبى باب القبلة، أعمدة فى غاية الجمال لا يشبهها أعمدة، ولكن نظرًا لتوقف أوقاف الجامع فقد بقى الجامع معطلاً، وعلى منبره نقوش محفورة على الخشب نقوش عربية ونجوم وقطع القيشانى وأفرع نباتية، إنه منبر عجيب وغريب كاللوحة الفنية حتى أن بعض الرسامين سرقوا الصنعة منه، وعلى باب هذا المنبر لوحة بها نقش خطى مكتوب بالخط المحفور كتب بها عبارة:

(بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين جدد هذا

الجامع المبارك العبد الحقير إلى الله تعالى الأمير الكبير الشريف عيسى بن الجناب العالى المرحوم المخدوم إسماعيل المرحوم الزينى أمير عامر عربان إقليم البحيرة أعز الله أنصاره ورحمه وكان الفراغ من ذلك فى شهر محرم الحرام سنة ٦٣ وسبعمائة بعد الهجرة النبوية).

وعلى مسافة خمسين خطوة من الناحية الشمالية لهذا الجامع جامع السلطان قايتباى ومرقوم عليه أنه جامع سيدى شعبان وهو جامع أنور له روحانية به جماعات كثيرة وله مئذنة ذات طبقة واحدة وبالجامع عشرة أعمدة مرمرية تحمل السقف المزين وعلى باب منبره الخشبى نقش خطى بالخط البنفسجى المذهب عبارة:

(بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذا المنبر المبارك فى أيام مولانا السلطان مالك الممالك الأشرف أبو النصر قايتباى أعز الله أنصاره فى شهر ذى الحجة الحرام سنة أربع وستين وثمانمائة بعد الهجرة).

وبالسوق جامع صغير هو جامع الشيخ أحمد الدواوى وبه مئذنة طويلة ذات ثلاث طوابق، وعلى مسافة سبعمائة خطوة خارج مدينة دمنهور من الناحية الشرقية جامع صغير ذو مئذنة منخفضة هو جامع أبو الريش وبفنائه شجرة سدر كبيرة وبالجبانة التى تقع خارج المدينة جامع العباس وبه مزار خالٍ ولكنه مزار للخاص والعام ويتم الآن بناء الجامع الجديد الذى أمر ببنائه أحمد أغا رئيس جنود العزب فى الميناء الواقع على ترعة الملك الأشرف وهو جامع صغير بنى بمهارة وإبداع ظاهرين وملحق به مئذنة مبهجة للقلوب اللهم يسر إتمامه بالخير.

وبمدينة دمنهور عشرة مآذن وهى العشر مساجد التى ذكرناها آنفًا، وباقى الجوامع الموجودة بالمدينة عبارة عن مساجد صغيرة، وبالمدينة سبع تكايا وأربعين مكتبًا للصبيان وأحد عشر سبيلاً وفى بعض زوايا المدينة توجد قباب لأسبلة صغيرة، وبالمدينة ثلاث مدارس وحمامان، أحدهما يقع فى فناء جامع المولى وهو حمام قديم وبناءُه وهواءُه لطيف أما الحمام الموجود بالسوق فهو حمام منخفض وهو حمام الشيخ أبو السعود وهو حمام صغير وبالمدينة ستمائة وثمانون حانوتًا وبها ثمان خانات وسبع مقاهٍ وسبعة

وأربعون مغزلاً لنسيج الأقمشة ومائتى حانوت لأعمال الطلاء وسبعة مصانع للطلاء أميرية.

هذا السوق السلطانى مغطى من أوله إلى آخره من أعلى والطريق العام بالمدينة واسع، وكل منازلها سواء كانت للفقراء أو الأغنياء منازل عامرة ذات طابقين، وكل مياهها من الآبار وبها نسبة ملوحة وهناك مياه خاصة يستخدمونها للشرب ويوجد بئر على طريق أبو الريش يشرب منه أعيان وكبار المدينة مياهه لذيذة وهى عبارة عن ماء البرد وطقس المدينة ليس مرغوبًا فيه.

ولا يوجد بالمدينة حدائق أو بساتين إلا أن أشجار النخيل تحيط بجوانبها الأربعة وتأتى معظم فاكهة تلك المدينة من بلدة صف درج وبالمدينة نوعٌ من العنب أجود من عنب الفيوم، ولأن أرض تلك المدينة مالحة إلى حد ما فإن محصولها من القمح قليل، ولون بشرة الأهالى هناك قمحية، ويتزاوج عربان بهيجة وضارى من بعضهم البعض وتتزين معظم النساء والفتيات هناك بالوشم الأزرق على أيديهن وأذرعهن وأيضًا بالكردان والخلخال[١] الفضى والذهبى وترتدى النساء الأثرياء هناك البرقع الأسود ويرتدين الأقمصة الحريرية، ويرتدى الأعيان من الرجال الملابس الصوفية، أما فقراءهم فيرتدون الفرجية[٢] المصرية. والقماش فى دمنهور من أكثر الصناعات هناك شهرة خاصة الأزرق والأحمر الفاتح منه والكليم من أشهر صناعات القماش فى دمنهور فهم يصنعون كليمًا بطول أربعين أو خمسين ذراعًا ويمكن أن تستعمل أربعين أو خمسين عامًا، كما تشتهر المدينة بالزيت الحار أى زيت بذر الكتان والخبز الأبيض والباذنجان الكبير التى تبلغ الواحدة منه مثل حجم رأس الإنسان والملح والحصير المتعدد الألوان، كما يوجد ببحيرة المدينة أنواع مختلفة من الأسماك، وبقرية صفد أنواع كثيرة من الثمار والعنب الجيد، والحاصل أنها مدينة كبيرة ولكن لوجود اللصوص بها لا يستطيع

(١) الكردان: حُلى تزين الصدر وتلبس فى الرقبة كالقلائد، والخلخال: تلبسه النساء فوق الكعبين وكلاهما مشهور معروف.

(٢) ثوب واسع من الصوف طويل الكمين.

الأهالى النوم فى راحة خشية اللصوص حيث يقوم الأهالى بحراسة المنازل ليلاً بالتناوب وهم مسلحون.

حتى أنه عندما كان الحقير هناك هجم اللصوص على منزل رئيس جنود العزب ودارت معركة كبيرة وسقط سبعة من اللصوص وفر الباقون ولكن بعد أن سرقت ناقة من النوق الموجودة بالفناء الخارجى للقصر، ويقوم مائتى غفير بحماية وحراسة المدينة كل ليلة حيث يحيطون بأطراف المدينة، ويجمع لهم سنويًا من الأهالى ألفى قرش، والحاصل أنه لو كان هناك حاكم شديد وجرىء فإن هؤلاء اللصوص لن يستطيعوا دخول المدينة، والسلام.

فى بيان الأولياء المدفونين داخل وخارج دمنهور

أولاً: بلدة الشيخ أبو الريش وتقع شرق مدينة دمنهور على مسافة سبعمائة خطوة، وبها مائتا منزل معظم ساكنوها من أبناء وأحفاد الشيخ أبو الريش وهم من السادات الكرام وبالبلدة جامع به منارة منخفضة ذات طبقة واحدة وبفنائه شجرة سدر كبيرة وفى فناء هذا الجامع دُفن بعض أعيان وأشراف البلدة وأحد أبواب الفناء يطل على القبلة والآخر يطل على جهة الشرق والجامع ليس مزينًا وكبيرًا إلا أن جماعته كثيرة لأنه لا يخلو من الزوار فى معظم الأوقات وبالناحية اليمنى للجامع يوجد ضريح متصل به وهو ضريح مقبب قبته متصلة بسطح الجامع مدفون فى هذا الضريح الشيخ القطب والغوث الأعظم على الإطلاق مرشد الطريقة وعين الشريعة الشيخ عطاء الله أبو الريش وهو من سلالة آل عباس قُدّس سره العزيز وهو مدفون فى هذا الضريح وجميع متعلقاته موجودة معه فى هذا الضريح أيضًا حول الفسقية، وقد وصل الحقير إلى هناك فى اليوم السادس من شهر جمادى الآخرة عام ١٠٨٣هـ وكان يوافق يوم مولد الشيخ أبو الريش حيث ذهبنا عند الشيخ الشناوى إلى منزل صاحب السجادة الشيخ شمس الدين الدمنهورى وهو من أبناء الشيخ أبو الريش وكان شيخًا معمرًا يبلغ عمره ١٣٦سنة له وجه منير، فقمنا بتقبيل يديه ونلنا من دعواته بالخير.

والشيخ شمس الدين من الزهاد عاش تلك الفترة كلها يحافظ على صيام داود ولم يتناول خلال المائة وستة وثلاثين سنة أى لحوم قط ولم يأكل خبز القمح بل كان يزرع الشعير فى فدان أرض كان يمتلكه ويحصده بيده ويطحنه بيده على مطحنة يدوية ويأكل منه، كان من أهل الحال قضى عمره كله منزويًا فى ركن من أركان الوحدة منشغلاً بالتعبد والطاعة، وكان الشيخ شمس الدين يمنح كل شخص يأتى إليه رغيف خبز من الشعير تبركًا وتيمنًا وكان الرغيف الواحد بعشرين درهمًا، وعندما ذهب الحقير إليه أعطى له أربعة أرغفة فتناول الحقير واحداً والشيخ الشناوى ثلاثة لبقية الحاضرين بالمجلس لكل شخص واحد أو اثنين، وقال الشيخ للحضور: يا إخوان إن لنا صلاة قضاء دين علينا لم نصلها منذ عهد طفولتنا، إن شاء الله غداً وفى مولد جدنا الشيخ أبو الريش تأخذونى إلى المولد وليصلى معى ثلاثمائة شخص صلاة القضاء وهذه هى كل أموالى وهى حلال وهى ألف أقچة ولتكن عند الشيخ الشناوى لأنه رجل يعتمد عليه.

ثم قام الشيخ بتسليم ألف أقچة إلى الشيخ الشناوى وقال للحضور يا إخوان لتأتوا جميعًا غداً صباحًا ولنتجمع كلنا ثم نذهب إلى مولد جدنا ونحن نذكر الله، فرد عليه كل الحضور بالمجلس: على الرأس والعين السمع والطاعة، ثم ذهبوا إلى منازلهم، وفى صباح اليوم التالى ذهب الحقير والشيخ الشناوى إلى منزل الشيخ شمس الدين ولكن الشيخ لم يخرج من الحرملك، وأرسل لنا مع أهل البيت القهوة وخبز شعير وبينما كنا نتناول الخبز والقهوة سمعنا أصوات نحيب وعويل من الحرملك، يا لهذا الفزع والجزع وقد خرج علينا الشيخ من الحرم بصعوبة بالغة وقد احمرت عيناه وكان العرق يتصبب منه ألقى علينا السلام فرددنا عليه السلام وقال: ليس هذا ما يدعو إلى الانفعال أو الحيرة فإنى لما دخلت الحمام واغتسلت قلت لهم إنى ذاهب إلى جدى ظنوا أننى سوف أتركهم وأرحل عن الدنيا إلى الآخرة لذا فزعوا وجزعوا، أما نحن الآن فسوف نذهب إلى جدنا ونحتفل بمولده وسوف نصلى مع كل الأحباب صلاة القضاء ثم ابتسم

الشيخ، فقال الشيخ الشناوى: يا سلطاننا إن كل مريديكم وأحبائكم ينتظرون بالخارج بالدفوف والطبول، كما ينتظر كاشف البحيرة مع جنوده بالسلاح، فقال لقد استعد الجميع ويجب علىّ أنا أيضًا أن أستعد بالتقوى وأمر بدخول ثلاثمائة درويش إليه ينشغلوا بالتوحيد والذكر، وكان للشيخ شمس الدين ناموسية فى أحد أركان المنزل دخل فيها وبدأ الذكر وبعد ساعة خرج الشيخ من الناموسية، والله أعلم أن الشيخ قد وصل إلى توجر وهو بتلك الناموسية لأنه عندما قال حى سقطت خيوط الناموسية على رأسه وعلى الفور قام الشيخ الشناوى وخليفته يرفعها من عليه فوجدوا الشيخ قد أَسْلَمَ الروح لربه امتثالاً لقوله: ﴿ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ [الفجر: ٢٨] ومن العجب أن الشيخ توفى وهو يبتسم وجبينه ووجنته كحمرة الورد، فصاح كل المريدين وانتقل هذا الصياح إلى الحريم وتجدد المأتم لهم من جديد وأمر بتجهيز ثلاثة مواعين من الماء الساخن والكفن وماء الورد والبخور وجهزوا له كل الأشياء الخاصة بالموتى وقد خرج أهله وعياله وكريمته إلى الخارج، وقام الشيخ الشناوى بإعطاء ألف أقچة التى كانت أمانة عنده من الشيخ شمس الدين إلى ثلاثمائة رجل على حسب الوصية لإسقاط صلاة القضاء عنه، وقام الشيخ الشناوى بتغسيله وكان الحقير يصب الماء عليه وقد أطلق ابن الشيخ الشناوى البخور.

وتم تكفين الشيخ ووضع فى نعشه وسار مع جنازته ما يقرب من ألف شخص من الجنود وهم ينتحبون حتى وصلوا بالجنازة إلى جامع الشيخ أبو الريش وصلى عليه هناك قرابة الأربعين ألف أو الخمسين ألف جندى ووهبوا ثواب الصلاة لروحه، ثم دفن الشيخ الشناوى الشيخ شمس الدين فى فسقية الشيخ أبو الريش، وحتى الآن تفوح الرائحة العطرة من تلك الفسقية فتعطر رءوس العاشقين ولم يذهب كل الزوار إلى أى مكان فى ذلك اليوم بل ظلوا فى الجامع وفنائه وقد قرأوا الختمة الشريفة ثلاثمائة مرة ووهبوا ثوابها لروح شمس الدين كما قام الأهالى وأصحاب الخيرات بطهى الحلوى والفطائر ووزعوها على الزوار وأهل المولد على روح الشيخ شمس الدين، والحمد لله أنه قد ظهرت تلك الكرامات ورآها الحقير وأنه تقابل مع الشيخ قبل وفاته وخدمه، وإنما هذا

من فضل ربى، وفى ذلك اليوم أيضًا شرعت فى قراءة ختمة شريفة على روح الشيخ أبو الريش وانتهيت منها اليوم التالى بعد العصر وكان فى حضور كل الصادقين ووهبنا ثواب الختمة لروحه تقبل الله، رحمة الله عليهم أجمعين.

ولا يوجد حصر ولا حد لمناقب الشيخ أبو الريش، والروح المشتاقة لمعرفة تلك المناقب ترجع إلى طبقات الشعراوى وسترى إلى أى حد كان الشيخ أبو الريش سلطانًا عظيمًا، والشيخ أبو الريش والشيخ إبراهيسم الدسوقى والشيخ أحمد الرفاعى من كبار سلاطين الطريق البرهانى، كان الشيخ أبو الريش عاشقًا لله مثل عمر بن الفارض لم يعمل للدنيا مقدار ذرة واحدة، لذا فإن قبورهم ليست مزينة ويوجد بضريح الشيخ أبو الريش باب يطل على الناحية الشمالية.

وبفناء ضريح أبو الريش يوجد ضريح الشيخ عاصم بن الشيخ أبو الريش وله كرامات كثيرة فقد أصبح خليفة صاحب سجادة بعد وفاة جده وبايعه أربعون ألف رجل وكان الشيخ عاصم مرشدًا للطريق، والشيخ عاصم مثل جده قبره ليس مُزَيَّنًا دائمًا هو عبارة عن صندوق مغطى بقماش أخضر وباب هذا الضريح أيضًا يطل ناحية الشمال.

وعلى مسافة ثلاثمائة خطوة فى الجانب الشمالى خارج ضريح أبو الريش يوجد ضريح الشيخ سيد عطية وهو أيضًا سلطان عظيم على الطريقة البرهانية وهو مدفون فى ضريح عالٍ، حوائطه مثل حوائط القلعة، وله كرامات كثيرة.

وتحت ظلال شجرة النخيل الموجودة بالسوق يوجد قبر الشيخ أبو هواث وهو ضريح صغير ولا توجد أى آثار أخرى بجانبه، ولو قمنا بتحديد كل أضرحة الأولياء والصحابة الكرام كل على حدة سوف نكتب كتابًا مطولاً فيه.

ولكننا سنكتفى بذكر أضرحة الأولياء المشهورين وهم الذين قمنا بزيارتهم: أولاً الشيخ محمد الأديب وهو سلطان كبير، وبجامع الجبانة الموجودة بجوار ضريح الشيخ محمد الأديب يوجد ضريح الشيخ السيد أحمد أبو العباس الشاطر قُدّس سره وهو مدفون فى ضريح مقبب، وبجواره يوجد ضريح صغير للحاج محمد السيوفى وهو من الصحابة الكرام وهو رئيس صناع السيوف للرسول ﷺ، وبضريح متصل به يوجد

الشيخ على السقطى وهو خليفة الشيخ سُرَير السَّقطى، وبالقرب منه ضريح الشيخ على الطَّنجى، مسقط رأسه قلعة طنجة ويقال إنه أخبر الأهالى بطنجة أن كفار الأسبان سوف يستولون على القلعة ويقتلون كل من بها لذا جاء الشيخ إلى مصر. وبعد ذلك بعشرة أيام قام كفار أسبانيا بالهجوم على قلعة طنجة وقتلوا كل من بها.

وعلى مقربة منه يوجد ضريح الشيخ ناصر الدين الفاسى وقد أتى هذا الشيخ إلى قاهرة المعز من مدينة فاس بالمغرب، واشترك فى فتح مصر ضد الإخشيديين، ثم انتقل إلى دمنهور وتوفى بها وهو مدفون بجبانتها فى ضريح صغير.

ثم الشيخ الأمير محيى الدين بن السلطان ناصر الدين سلطان مصر، ترك هذا الأمير العرش والمُلك وارتدى عباءة الفناء فى الله وقد عاش فى الجبل الأخضر حتى ألفته الطيور الجارحة والسباع وكل الوحوش الموجودة فى الجبل الأخضر، حيث سكن فى وادى هامون، بعد ذلك ثم أصبح قطبًا وضريحه الآن مزار للخاص والعام، وعلى مقربة منه ضريح الشيخ العجمى وبجانبه ضريح الشيخة السيدة أم الشيخ إسماعيل فى ضريح متصل بضريحها مدفون الشيخ خضر، وبجوارهم ضريح الشيخ برهان الدين.

وكل الأولياء المذكورين فى أفنية الجوامع: أولاً ضريح الشيخ محمد الأنصارى وهو من الصحابة الكرام وضريحه بجوار الباب الأيسر لجامع المنى وهو ضريح صغير، وقد وفد هذا الصحابى سفيرًا من سيدنا أبى بكر إلى ملوك القبط وتوفى بالمدينة ودفن فيها ويوجد تاريخ على مشهد القبر القديم.

وضريح الشيخ أبو السعود الدمنهورى ويقع داخل المدينة على يسار محراب جامع الشيخ الدمنهورى.

وضريح الشيخ مجاهد.

ثم ضريح الشيخ شعبان الواقع بالقرب من سوق الخشب وهو ضريح صغير فى الزاوية اليمنى لجامع الشيخ شعبان والجامع من آثار السلطان قايتباى، ولأن الشيخ شعبان مدفون به سمى على اسمه، إنه سلطان عظيم.

ثم ضريح الشيخ أحمد الداودى ويقع على يسار محراب جامع المحكمة بجوار سوق الخفاف إنه سلطان عظيم حتى لو كان هناك حق لشخص عند شخص آخر ولا توجد نية للوفاء بهذا الحق فيهب الاثنان إلى ضريح الشيخ داود ويحلف المدين وهو يطرق باب الضريح بيده بأنه ليس فى ذمته أى دين لهذا الشخص، والحقيقة أنه لو كان هناك أى سارق أو مديون لا يستطيع أن يحلف اليمين ويضرب الباب بيده، بل يعترف على الفور بجريمته، ومشهور فى مدينة دمنهور أنه لو حلف شخص ما بالباطل وتجرأ على طرق الباب فإنه يهلك فى لحظتها، وفى كل سنة يتم إحقاق الحق لآلاف الرجال فى هذا الضريح، فيأتى آلاف الرجال من النواحى والقرى المجاورة لإظهار حقوقهم عند هذا الضريح إنه ضريح عظيم، قُدس سره.

ومزار جامع قرقلر وضريح الشيخ أبو شهبة بالمدينة وعلى مقربة منه ضريح الشيخ صاحب الأنوار الشيخ أبو يعقوب وهو على الطريقة البرهانية وخليفة للشيخ الدسوقى وأحمد الله أننى ذهبت إلى كل تلك الأضرحة ومسحت وجهى بها وقرأت الفاتحة أو حزب وختمة شريفة لكل واحد منهم ورجونا البركة منهم، رحمة الله عليهم أجمعين، وقد أتممنا زيارتها.

وفى اليوم الأول من شهر جمادى الآخرة عام ١٠٨٣هـ ذهبنا لمشاهدة مولد الشيخ أبو الريش ولو أننا كتبنا ما شاهدنا كله فلن يكفينا هنا مجلد آخر، وهو مولد عظيم مثل مولد البدوى والدسوقى والشيخ محمد بن زين بالنهارية، والمولد الأقل منه من حيث التجمع فى دمنهور هو مولد الشيخ شمس الدين، ولا تقام فى هذا المولد احتفالات كبيرة مثل الموالد الأخرى نظرًا لقرب المنطقة من الصحراء ولكن يفد إليه رجال لا يحصى عددهم من البلدان المختلفة من فاس ومراكش وطرابلس والجزائر وإدفو وإسنا وأسوان والسودان، وتحضر قبائل بعلجة وسليمانى وحنارى إلى هذا المولد كما تقوم مئات القبائل الأخرى بجلب البضائع من البلدان المذكورة للبيع والشراء فى هذا المولد، ويمكثون فى صحراء دمنهور بخيامهم، ويجتمع أناس كثيرون ويكونون كالبحر لا يعجز اللسان عن وصف تجمعهم، وتباع هناك مئات الآلاف من أحمال الزيوت والنعاج

والماشية والحملان والصبيان السود وكل جنسية من تلك الأجناس المختلفة لها شكل ولون مختلف عن الآخر فقوم ماى بورنو عيونهم حمراء، وأفنو عيونهم صفراء ولكن بشرتهم تميل إلى الحمرة ومعظم هؤلاء يحضرون تبر الذهب ويشترون قماش الأقمصة، أما أقوام نجه نشكى فعيونهم بيضاء وبشرتهم سمراء جدًا، وكان يوجد فى خيامهم رجل كل جسده مغطى بالشعر وقد ذهب الجميع ليشاهدوه، وقد تقدم الحقير وشاهد هذا الرجل، وكانت أسنانه وأنفه مثل أسنان وأنف الكلب كان يبدو وكأنه كلب أصفر اللون، عندما كنا نتكلم كان يبتسم ولم يـر الحقير بنى آدم على تلك الهيئة، فسألت عن أهله وهو يعرف لغتهم حيث كان يوجد رجال من الواحات، فأجابوا قائلين وهم يقسمون على ذلك: أن هذا الرجل ابن أحد القرود ويقولون فى ذلك أن والدة هذا الرجل كانت تقوم بتكسير وتقطيع أشجار السندباد فى الجبل فخرج عليها قرد وجامعها وبعد عام ولد هذا الرجل بإذن الله وقد تحير الحقير جدًا وقال آية: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٩] وسأل الحقير أيضًا مرة أخرى أيها القوم هل يكون هناك قرد بهذا الحجم فقالوا يوجد قرود فى حجم الحمار فينزلون إلى الطريق من على الجبل ويتعاركون معنا، يفعل الله ما يشاء بقدرته ويحكم ما يريد بعزته ولكن كل هؤلاء القوم عرايا ولا توجد عليهم أى سترة سوى سترة بسيطة عند مكان العورة، ولكنهم لو تحركوا تظهر عورتهم إنهم مثل الحيوانات، ومنهم رجال لم يشربوا المياه طوال حياتهم، وكلهم يشربون لبن الإبل ويأكلون خبز الذرة، أما قبائل بهيجة وجنادى والضعفا فيأكلون الخبز الأبيض (القمح) يشتهرون بالجمال فعيونهم مكحلة وكلامهم حسن ولكنهم اللهم عافنا يذهبون إلى سوق البغايا، وتنصب الأسواق فى هذا المولد ويتم البيع والشراء لمدة عشرة أيام بلياليها ثم يقوم الكاشف وكل جنده بالمسير على دقات الدفوف وبذلك يكون قد انتهى المولد ويحل كل الزوار والتجار الخيام ويقومون بزيارة أبو الريش زيارة الوداع ثم يذهب كل شخص إلى قصبته وقريته، وقد قام الحقير أيضًا بزيارة الوداع وأخذ من الكاشف عشرة رجال مسلحين وسرنا بهم إلى اتجاه الغرب لمدة خمس ساعات من دمنهور فى صحراء كبيرة فوصلنا إلى مدينة حوش عيسى القديمة ويطلقون على الحوش

(   )[1] لفظ حديث فى اللغة العربية، كانت هذه المدينة قديمًا مدينة عظيمة ولكنها غرقت تحت بحر الإسكندرية فخربت قراها.

والمدينة حاليًا ليست مدينة وفى أراضى البحيرة كاشف يطلقون عليه روم بيه، يُمنح الخلعة من كاشف البحيرة وعنده خمسمائة جندى من الخيالة وحكم هذا الكاشف يمتد حتى سبعين منزلاً أى حتى خليج كبريت ويتحصل لكاشفها ثمانية عشر كيسًا من الأموال المصرية، وقضاء مائة وخمسين أقچة ولكن نظرًا لعدم تحصيل أى شىء منها فى الوقت الحالى ألحقت بقضاء البحيرة، ويتحصل منها سنويًا ألف قرش، تقع مدينة حوش عيسى فى وسط صحراء مستوية، ففى عام ٧٢١ جاء أحد أمراء العربان ويدعى حوت عيسى إلى تلك المنطقة فأعجبه هواءها ومياهها فأسس تلك المدينة.

وكان هذا الأمير يمتلك عشرة آلاف ناقة ومئات الآلاف من الأغنام والجاموس والثيران ودائمًا ما كان يقوم بالاستيلاء على التبر الموجود بالمنطقة، وكان يحج كل عام بألف ناقة وكان يبذل النعم على الحجاج، ونظرًا لهذا فقد عمرت مدينة حوش عيسى وأقبل الناس عليها نظرًا لكثرة إنعام أميرها عليها ويمكن القول بأن أهل المدينة أصبحوا أثرياء ولم يبق بمنازلها أرض خراب، فقد كانت تلك الأرض أرض الإبل والغنم.

وفى عصر ابن عيسى المذكور قام كفار أسبانيا بهدم طريق ترعة الإسكندرية فلم يصل النيل إلى الإسكندرية، وبالتالى مات أهل المدينة من العطش وقد وجد الكفار فى هذا إعانة لهم على إسقاط المدينة تحت وطأتهم؛ فحاصروها. ولكن مئات الآلاف من عربان حوش عيسى هَبوا لنجدة الإسكندرية ووصل المدد إلى القلعة، وألقوا فريقًا من الكفار فى البحر، أما الباقون فقد ركبوا سفنهم وفروا هاربين وفى أثناء إصلاح الترعة كان ابن عيسى يقدم لأهالى الإسكندرية كل يوم ثلاثة جمال محملة بالمياه وبذلك أنقذ أهالى الإسكندرية من هذا العطش والهلاك المحقق، وبذلك ازدانت مدينة حوش عيسى بالعمران بمرور الأيام لقوة حاكمها الأمير عيسى ولكنها أهملت بعد ذلك نظرًا لظلم الكاشفين وكيد العربان وجورهم على الأهالى، وعندما زرنا هذا المكان كان بالمدينة ألفا

(١) بياض فى الأصل.

منزل بالطوب اللبن تقع بين أشجار النخيل وهى بيوت فلاحين ويسكن بها المغاربة، كما يسكنها بعض من قبائل بهيجة وضارى والحضرى، وقد كان يوجد بها قديمًا ألف وخمسمائة محراب للصلاة لم يَبْقَ منها الآن سوى أحد عشر محرابًا فقط ولكن بوسط المدينة يوجد جامع ابن عيسى لا يوجد فى أقاليم مصر مثله لقد شيد على قدر كبير من المهارة والحرفة وتأسس هذا المسجد من الحجارة المنحوتة فى غاية الإبداع كأنها مصنوعة بأيدى أمهر صناع فى حرفة الحفر، ولا يوجد جامع بخلاف هذا، وللجامع مئذنة عالية من ثلاث طوابق، وبالمدينة حمام هو حمام الأمير عيسى لا يوجد نظيره إلا حمام الأمير عثمان فى مدينة منفلوط، وبها خمسون حانوتًا ولكن كل شخص يقوم بالبيع والشراء فى منزله، لذا فكل الحوانيت الموجودة بها ثلاثمائة وستون حانوتًا وخلاصة الكلام أن معظم عمران مدينة حوش عيسى من خيرات الأمير ابن عيسى المذكور، ولا توجد بمدينة حوش عيسى حدائق أو بساتين إلا أشجار النخيل، وكل مياهها مياه آبار لذيذة الطعم لأن كل تلك الآبار بيضاء وتوجد ثلاثة آلاف منزل مبنية بالخوص والتراب والكليم والخيام بين غابات النخيل، كل أهالى تلك المنازل مسلحين ولا يستطيع أشقياء قبائل بهيجة وضارى التغلب عليهم أبدًا فهم قوم فى غاية الشجاعة ولامتلاكهم إبل وغنم بأعداد كبيرة فإنهم يشتغلون بمهنة نسيج الصوف والوبر، والناحية الجنوبية والغربية لهذه المدينة لا يوجد بها عمران ولم تكن عامرة أساسًا، وامتداد تلك الأماكن حتى طرابلس وفاس ومراكش والمغرب صحراء ولكن بالجبل الأخضر توجد بعض الأراضى الموجود بها أشجار، ومياهها وطقسها لطيف لا يمكن وصفه، ويقيم بتلك المناطق الآلاف من عربان القبائل.

مناقب المجاذيب

من المجاذيب المشهورين فى مدينة حوش عيسى الشيخ على البشبيشى والشيخة مباركة خاتون وهما شخصان لهما كرامات ويقال أنهم كانوا يشاهدون الشيخة مباركة فى الجزائر وتونس وأنه كلما يذهب الشيخ البشبيشى إلى أى مكان كانت تذهب

الشيخة مباركة إليه إن الخيل لا تستطيع أن تلحق بها بل أنها كانت تذهب مع الجند فى الحملات.

فى بيان مدينة العقاب

سرنا خمس أيام بلياليها غرب مدينة حوش عيسى مع تجريدة من جند قبيلتى بهيجة وحنادى فوصلنا إلى مدينة خاوية، إنها مدينة تثير الدهشة والحيرة بها آثار كثيرة لأقبية وقباب لا يعلم عددها إلا الله إنها حقيقة مدينة العقاب فكلها بوم وغربان وفى شدة الشتاء يقيم بها المجاذيب والضعفاء والمغاربة، وهذه المدينة من بناء الملك خربتا بناها بعد الطوفان، ويقال إن معز الدين من ملوك الفاطميين قام بتخريب المغرب عام ٣٤٧هـ ويوجد بأطلالها حاليًا آلاف الأشياء والأحجار الكريمة، وتبتعد مدينة أوجليه التى يستخرج منها تبر الذهب بمقدار خمسة مراحل عن مدينة عقاب، ولكن الحقير لم يصل إليها وذلك لأن عربان الحناوى انهزموا ودخلنا مصر مرة أخرى سالمين غانمين وقد شاهد الحقير هذه المدينة ورجع الحقير مع سبعة أو ثمانية من فصافة إلى دمنهور، فى أربع ساعات، وأقمنا فى قصر الكاشف وفى اليوم التالى اتجهنا صوب الشمال من مدينة دمنهور مع جنود الفرقة السابعة وكل أعيان المدينة وكاشف البحيرة محمد أغا فوصلنا إلى بلد جبل قاسم بك، ومنها إلى بلدة بصطره وهى لمصطفى أغا الدمنهورى ومنها إلى بلد زرقون، ومنها إلى بلد زاوية الغزال، ومنها سرنا ساعتين فى قرى عامرة حتى وصلنا إلى بلد الناصرية، وبها مائتان وخمسين منزلاً وجامع ولها قرية عامرة من أوقاف السلطان الناصر، ومكثنا فى هذا المكان مع كل الجنود، وبدأ الجنود والرجال فى إصلاح ترعة الإسكندرية، وقد ظل الجند وآلاف الرجال يعملون لمدة أسبوع كامل حتى تم إصلاح الترعة وبدأت مياه النيل تصل إلى مدينة الإسكندرية مرة أخرى، وأقام الكاشف لذلك احتفالات عظيمة حيث ذبح أربعين شاة وخمسة من الإبل وذلك لأن وصول مياه النيل إلى الإسكندرية كان يعنى إحياء بندر مدينة الإسكندرية وبندر الإسكندرية يحصل سنويًا ثلاثمائة كيس مصرى وإذا تعطل الجمرك فإنه يؤمر بقتل كاشف البحيرة لذا يؤمر كاشف البحيرة بتعمير تلك الترعة، ويسجل لتلك النفقات أربعين كيسًا مصريًا سنويًا،

ويتم تسجيل ذلك فى محكمة قصبة فُوَّه، وأول من حفر هذه الترعة الناصرية هو الملك القبطى فلبطر فى عهد إبراهيم عليه السلام وقد تعرض هذا الملك للسيدة سارة مرتين فَشُلَّت يده وتاب واستغفر وآمن بسيدنا إبراهيم، وهذه الترعة من إنشاء هذا الملك، وقد شقت تلك الترعة من قرية دراور بأرض البحيرة بالقرب من قصبة فوه الموجودة على ضفاف النيل وتسير الترعة لمسافة منزلين ثم تصل إلى الإسكندرية وهو عمل شاق ليس فى مقدور البشر وتسير السفن فيها منذ ستة أشهر، وبمرور الأيام تعطلت الترعة وردمت فقام السلطان الناصر بجرف ما ردم منها وسير فيها المياه من جديد، لذا يطلقون عليها ترعة الناصرية. وعلى جانبى تلك الترعة يوجد بحر البحيرة، ويجرى النيل المبارك من بينهما وفى بعض الأماكن يزيد تلاطم البحر فتفسد جسور تلك الترعة الأمر الذى يجعلها تحتاج إلى خلق كثيرة لترميمها وتعميرها، عندما قام الملك «فلبطير» بإنشاء تلك الترعة فرشها كلها أولاً عن آخر بالمرمر الخام، ويظهر هذا المرمر حاليًا فى بعض الأماكن. حقًا إن همة الرجال تقلع الجبال، ويوجد خليج يطلقون عليه خليج الإسكندرية، لو لم يتم حفر هذا الخليج كل عام تقوم الأمواج المتلاطمة للبحيرات المرة الموجودة على جانبيه بقطع الجسور وبالتالى تغرق مئات القرى فى ولاية البحيرة، لذا تتم محاسبة كاشف البحيرة عن تطهير هذا الخليج كل عام، وبعد ترميم الترعة قام كاشف البحيرة بمنحنا عشرة آلاف پاره وبراءة نظير خدماتنا، وأرفق معنا عشرة رجال مسلحين، ومنحنا سفينة وجميع اللوازم، وسرنا فى تلك الترعة قاصدين مدينة الإسكندرية. وحاصل القرى والمنازل التى مررنا بها حتى مدينة الإسكندرية، بلد سنتاو وتقع على ضفاف تلك الترعة وبها مائتا منزل وجامع وهى قرى عامرة، ويوجد بها ملتزم فى أراضى البحيرة، وبهذا البلد ضريح الشيخ أبو بكر الشنتاوى وهو ضريح صغير فى فناء الجامع الموجود على ضفاف هذه الترعة، وهو من كبار الأولياء المشهورين، واستكملنا سيرنا فى الترعة فوصلنا إلى بلد برسيق، وهى قرى عامرة بها مائة منزل وجامع وحدائق النخيل ومنها إلى بلد نخل وهى قرى عامرة بها مائتا منزل وبتلك الناحية توجد ترعة الأشرفية. وهى ترعة كبيرة انفصلت عن قرى الرحمانية

الموجودة على ضفاف نهر النيل، وهى من خيرات السلطان الأشرف من سلاطين مصر لذا يطلق عليها الترعة الأشرفية وتروى تلك الترعة مئات القرى فى أراضى البحيرة وتمر بمدينة دمنهور، عبرنا تلك الترعة وسرنا إلى الأمام وتختلط تلك الترعة بترعة الناصرية عند بلد أبو خضر وتسير الترعتان حتى تصلان إلى الإسكندرية، وهما أيضًا من الخيرات العظيمة.

وعلى مقربة من بلد أبو خضر توجد بلد القراوى وهى عامرة للغاية وبها جامع ومن هناك إلى بلد القافلة وهى عبارة عن قرى عامرة بها خمسمائة منزل وجامع وأسفل منها بلد وسوس. وبها أيضاً جامع وثلاثمائة منزل وهى بلدة عامرة وأسفل منها بلد بُركه وهى قرى عامرة تضم خمسمائة منزل وجامع. وبها ضريح يعد مزارًا لم نعلم عنه شيئًا ولكننا قرأنا الفاتحة لروحه وعبرنا تلك البلدة وسرنا مع مياه النيل حتى وصلنا إلى البلدة الكبيرة روهب وتقع فى أراضى البحيرة وبها ألف وسبعمائة منزل وجامع سلطانى ومساجد وخان وأسواق ومقهى، ويقيم على ترعة الناصرية أمين للجمرك يُعين من قبل أمين الخوردة وتكون مدة إقامته ستة أشهر وبعدها تجف الترعة وتظل أعمال الجمرك معطلة ستة أشهر أخرى وتأتى كل سنة ألف مركب وسفينة لشراء البضائع من قرية الرويهب.

أوصاف بضاعة بلدة الرُوَيهب

إنها بضاعة من صنع الله القادر على كل شىء الذى لا نظير لصنعه والتى يبقى العقل حيرانًا أمام صنعته عز وجل، من ذلك نبات الغاسول الذى يُنطق خطأ قاسول وهو نبات قصير أصفر اللون ينبت فى صحارى قرية الرويصب وهو نبات ذو مشرط مثل نبات أم غيلان ينبت فى شهر يوليو فيقوم الأهالى بالخروج إلى هذا الوادى، لهذا النبات أوراق مثل مخالب الطيور الجارحة فيقومون بقطف الغاسول من تلك الأوراق، ويستخدمونه فى الاغتسال كالصابون ويقوم الأهالى بصب هذا الغاسول فى أوانى ثم يقطعونه أجزاء صغيرة، ويوجد تراب خاص بتلك القرية يقوم الأهالى بعجن هذا التراب ويقومون بوضع الغاسول فيه ويجعلونه كالخميرة، ثم يصنعونه على أشكال دائرية ويتركونه فى الشمس حتى يجف ثم بعد ذلك يأتى التجار ويشترون منه آلاف من

أحمال الإبل ويؤخذ منه إلى إسنا وأسوان وبلاد العرب بالسفن حيث يستعمله معظم الأهالى فى الاغتسال فإذا ما وضع هذا الغاسول فى إناء وأضيف إليه الماء يصبح كالصابون لذا يطلقون عليه غاسول من لفظ الاغتسال.

وللغاسول خاصية أخرى كبرى بخلاف الاغتسال وهى تنظيف الثياب.

والميزة الثانية للغاسول هى: أنه يمكن حرقه وأخذ الرماد الذى يخرج منه ويتم بيعه أيضًا حيث يقوم الأهالى بأخذ العشب إلى مكان مثل الجبل وينثرونه عليه ثم يحرقونه بالنار ويأخذون الرماد الذى ينتج منه ويجمعونه على بعضه البعض مثل الكرة ثم يقومون بنثرهِ أكوام إما فى المخازن أو على الأرض ثم يأتى التجار ويشترون منه بالقنطار حيث يباع منه مئات الآلاف من القناطير ويذهبون به إلى كل ديار مصر حيث يقوم التجار بطحنه فى المطاحن ثم يشعلون النار عليه مع وضع مادة النطرون عليه ويصنعون منه الزجاج والقناديل والزجاجات، وزجاج نبات الغاسول من أجود أنواع الزجاج من حيث الشفافية والجودة.

والميزة الثالثة للغاسول هى: استخدامه فى استخراج الذهب حيث يقوم التجار القادمون من بلاد الفرنجة بالذهاب إلى الرويصب ويشترون رماد نبات الغاسول ويذهبون به إلى بلادهم وعندما كان الحقير فى ألمانيا سأل مارجلين أمين دَارِ سَكٌ الذهب بمدينة انكروس عن هذا الغبار فأجاب مارجلين: إنه غبار نبات يسمى الغاسول ينبت فى أراضى البحيرة من ديار مصر نحضره إلى هنا ونستخرج منه المياه الصافية ونستخرج منها الذهب، بعد ذلك نصفيه ونحصل منه على مياه الذهب الخالصة، حقًا إنه غبار ثقيل مثل الذهب.

والميزة الرابعة للغاسول: إنك لو أطعمت تلك النباتات للأغنام فإن أسنانها تصبح مثل الذهب.

والميزة الخامسة: أن تجار الفرنجة يأتون إلى الإسكندرية عندما يكون هذا النبات أخضر ويشترونه ويرسلونه إلى بلاد الفرنجة حيث يبيعونه إلى الساعاتى وصانع الأشياء الثمينة حيث يقومون بغلى الأشياء التى يستخدمونها فى صناعاتهم فى الكوكورد (الكبريت) ونبات الغاسول يطلون به الذهب وتزين به الساعات والتحف التى تصنع من الذهب والفضة.

الميزة السادسة وهى: خاصية تخص قرية الرويصب الموجود بها الشيخ الشاذلى باليمن وقد سمع الشيخ سيد عيسى أن الله قد منح الشيخ الشاذلى باليمن نبات القهوة فدعا الشيخ سيد الله بأن يمنحه هو الآخر نباتاً يدفع عنه الجوع ويقويه على العبادة وقد استجاب الله لدعائه حيث أنبت فى تلك الصحراء نبات الغاسول وملأ النبات كُلَّ الأراضى الصحراوية هناك وكانت رائحته تفوح فتعطر الرأس، وقد عاش الشيخ عيسى بعد ذلك مائة سنة كان يعيش فيها على نبات الغاسول، وكان قد عاش قبل ذلك مائة وخمس سنوات وبذلك يكون الشيخ قد عمّر مائتين وخمس سنوات، وقد فتح الشيخ عيسى طرابلس الشام مع السلطان برقوق ثم عاد إلى الرويصب مسقط رأسه وتوفى بها وقد أنشأ السلطان برقوق على قبره ضريحًا وتكية ويوجد الآن فى تكيته ما يزيد على مائتى مريد، كلهم يتعيشون على نبات الغاسول حيث يقومون بتخفيفه وطحنه ثم يصنعون منه الخبز وقد تناول الحقير منه قطعة خبز تبركًا، إنه خبز لذيذ الطعم يمنع الجوع.

والميزة السابعة: وهى خاصة ببذور الغاسول إذا ما أكلت فإنها تمنع الرشح والدم كما أنها مفيدة لمرض الذخير، ولكن خبزه أسمر وله طعم القصرة، ولم يتناول الشيخ عيسى طوال مائة سنة غير هذا النبات وله العديد من الكرامات إنه سلطان عظيم، كما يأكل أغلب أهالى هذه القرية هذا النبات حين الضرورة.

وحاصل الكلام أنه يتحصل لمصر جمرك كبير من هذا النبات، ولا يوجد هذا النبات فى أى مكان على وجه الأرض سوى فى البحيرة، وقد سرنا فى تلك المنطقة وشاهدنا فيها كل عجيب وغريب، وسرنا مع الترعة فوصلنا إلى لوقون وبركة وهما قرى عامرة بهما مائة منزل وجامع، ومنها إلى كربون ومنها إلى معلق ومنها إلى عكريش البستلقون البيضة وقد كانت هذه البلدة مدينة عظيمة فى عهد القبابطة وآثارهم باقية بها حاليًا لا يمكن التعبير عنها باللسان، خرجنا منها وسرنا مع الترعة فوصلنا إلى الجنان وقد سميت ببلد الجنان لكثرة وجود الحدائق والبساتين بها قديمًا، وحاليًا هى عبارة عن قرى عامرة بها ثلاثمائة منزل وحدائق النخيل تزينها، وكل القرى التى ذكرت تقع فى أراضى البحيرة على ضفتى ترعة الناصرية لمسافة عشر ساعات.

أوصاف البلد القديم دار الكهنة والحصن الحصين
وسد الإسكندر المتين الخاتم المجوهر
قلعة الإسكندرية

مدينة عظيمة وقيمة وقد حرر آلاف المؤرخون أوصاف قلعة الإسكندرية التى تشبه سد يأجوج، ولكن تواريخ القبابطة هى أوثق ما كتب فيها، فقد منح الله العلم لإدريس بعد هبوط آدم إلى الأرض، والقبط من ذلك الوقت وحتى يومنا هذا يحررون الوقائع والأحداث، وبالرغم من أنهم كفار إلا أنهم لم يصدر عنهم أكاذيب أو إرهاصات فى كل الأزمنة لذا فإن كتب تاريخهم هى أوثق التواريخ التى يعتمد عليها، وقد أتى الخليفة المأمون العباسى إلى مصر لشغفه بالتاريخ، ونقب فى جبال الأهرام وأخرج منها آلاف القطع من كتاب إدريس وكتاب دانيال وترجمها إلى العربية، كما قام بترجمة مئات التواريخ القبطية إلى اللغة العربية، وتذكر معظم تلك التواريخ أن مدينة الإسكندرية هذه أول الأمر بنيت بعد الطوفان حيث كان سيدنا نوح يميل إلى بيظر بن حام من أبنائه فدعا له بالكثرة والملك فتقبل الله دعاء نوح وأنعم على بيظر بالذرية الكثيرة وملكه ملك مصر، وقام ببناء مدينة الإسكندرية، واتخذ مدينة منوف عاصمة له، وكانت الإسكندرية فى تلك الأوقات تسمى رقودة، والألمان حتى الآن يقولون على الإسكندرية رقودة أما فى اللغة اليونانية فيطلقون عليها الكساندره ويقولون على بيظر أبو القبابطة لأن معظم القبط من نسله، فقد كان له ثلاثون ولدًا أكبرهم مصرايم، كان مصرايم هذا ملكًا على مصر من العريش وحتى أسوان والسودان، ثم توفى بيظر وهو أول من توفى فى مصر بعد الطوفان ودفنوه فى الهرم بجوار الملك هرمس وهو أيضا أول من دفن فى مصر بعد الطوفان وقد استقل مصرايم بملك مصر بعد وفاة والده وزاد من عمران مدينة الإسكندرية التى كانت من منشآت والده لحبه لطقسها ومائها وعندما أصبحت زلتاسنيث مأموم ملكة على مصر، قدم العمالقة إلى مصر واستولوا عليها والعمالقة من أولاد حام بن نوح ولكنهم نسل بليد، قاموا بتخريب مملكة القبط وعلى النقيض قاموا بتوسعة وإعمار مدينة الإسكندرية، وهم الذين أنشأوا الأحجار الكبيرة فى الإسكندرية

نظراً لأنهم كانوا ضخام الجثة، وقد خلفهم فى بناء الإسكندرية يعمر بن شداد وقد أنشأ يعمر المبانى بالأحجار القوية الكبيرة لذا يقولون بناء شدادى على المبانى القوية، ثم بعد أن أتى جارود المؤتفكى وهو بعد عهد سليمان عليه السلام أنشأ أعمدة كثيرة فى كل طرقات الإسكندرية ولا تزال آثار تلك الأعمدة والمغارات ظاهرة للعيان، وقد حكمت مصر بعد ذلك الملكة دلوكة بنت زيباك وكانت قبل فرعون موسى بعشرين عامًا، وقد اتخذت تلك الملكة منوف عاصمة لها، وقد عمرت مدينة الإسكندرية أيضًا لأنها كانت تنتقل إليها لتغير الجو، وآثارها من على بعد مائة ميل فى البحر.

وطبقًا لما ذكره المؤرخ العالم محمد بن إسحاق فإن الإسكندر الأكبر قام بتعمير مدينة الإسكندرية ووسع فيها وعمرها وزينها بالعلامات والطلاسم قبل ميلاد النبىﷺ بثمانمائة واثنين وثمانين سنة، وقد أصبحت الإسكندرية فى عهده مدينة عظيمة لَمْ يُرَ مثلها على وجه الأرض، ويتفق هذا الرأى مع رأى كل الأمم وأن الإسكندر الأكبر المذكور هو الإسكندر ذو القرنين ونسبه هو الإسكندر بن بنطى بن نعمان بن تارخ بن يافث بن نوح عليه السلام وعلى قول آخر هو الإسكندر بن داراب بن بهمن بن اسفنديار، ويقال والله أعلم أن الخضر عليه السلام كان من جند الإسكندر حتى إنه ذهب معه ليأجوج ومأجوج ثم ذهب معه إلى الإسكندرية والمكان الذى التقى فيه الخضر مع سيدنا موسى هو مكان التقاء النيل المبارك بالبحر المتوسط بالقرب من الإسكندرية والآية الشريفة: ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٨] خير دليل على المكان الذى افترق فيه الخضر عن موسى، ويطلقون على المكان الذى افترق فيه موسى عن الخضر محلة مرج البحرين وهى مضيق بندر رشيد وهو مكان اختلاط النيل بالبحر، والمسافة بين هذا المكان والإسكندرية براً اثنا عشر ساعة وبحراً (   )[1] ميل، أما الإسكندرية فكان ملك على اليونانيين وقد عمر ألف سنة وعلى قول ستمائة سنة وإنه حكم من القاف إلى القاف وأقام سد يأجوج ومأجوج،

---

(١) بياض فى الأصل.

وقيل إنه نبى وهو ابن الملك مرزبا من أبناء يافث اسمه مرزبا ولقبه الإسكندر، وعلى قول آخر أنه بنى الإسكندرية بعد أن قام بخت النصر بتخريب مدينة منوف بمائة وعشرين سنة وكان اسمه الإسكندر بن فيش المخزونى، وقد سميت الإسكندرية على اسمه ونظرًا لوجود أربعة أشخاص باسم الإسكندر فتوجد اختلافات كثيرة بسبب ذلك، كما أن الأربعة عَمروا الإسكندرية ومرقوم على أبراج الإسكندرية تاريخ تعمير كل واحد منهم ويقال أن الإسكندر توفى عام ٨٨١ قبل ميلاد النبى ﷺ وهو عائد من بناء سد يأجوج ومأجوج وكانت وفاته فى ديار العجم، ونقل نعشه إلى الإسكندرية وهو الآن مدفون بدير مرقاب، والتواريخ اليونانية أيضًا من التواريخ المعتمدة، وذلك لأنهم دائمًا ما يهتمون بأمور الدنيا، وعلى قول اليونانيين أن الإسكندر هو بن الحكيم فيقلوس وقد ولد فى مدينة قوله بالقرب من سلانيك قبل هجرة النبى بثلاثمائة وخمس سنوات، وأنه أصبح ملكًا على الروم واستطاع أن يسخر لسلطانه الروم والعجم والعرب والهند والسند وقد استطاع أن يستولى أيضًا على إيران بعد هزيمة شاه العجم دارا على يديه فى منطقة قره دره بالقرب من قلعة نصيبين المجاورة لبغداد، وأمر الإسكندر بإسكان الشاه دارا وأهله وعياله فى سهول داراهيه بسنجق منتشه، وقد توجه الإسكندر بعد ذلك بألفى سفينة إلى الإسكندرية واستطاع الإستيلاء عليها من يد الملك سوريد من ملوك القبابطة وسار إلى مصر واستولى عليها أيضًا، وخضع القبط لطائفة العربان الأشرار لسلطانه وكان العربان يميلون له عن القبط، وقد أوقف الإسكندر مصر لدير ياصومنيه الموجود بالقسطنطينية، فقد كان يتم جمع ستة عشر مليون قطعة ذهبية سنويًا من مصر وذهب إلى الرهبان فى أيا صوفيا فى عهد عمر بن الخطاب كانت القُدس وطرابلس وصيدا وبيروت وعكا والرملة وغزة وتيه ودمياط ورشيد والإسكندرية وكل مصر تحت قبضة كفار الروم الإفرنج، بعد ذلك قام الملك الضال نقلديانوس أوتقيانوس بالقضاء على كل المسيحيين الموجودين فى مصر والشام وحلب وإنطاكية وخرب آلاف الكنائس وهذا الملك الضال الجبار هو آخر شخص من عباد الأصنام من قياصر الروم.

بعد ذلك أتى إلى الإسكندرية بالمال الذى غنمه من النصارى وقتله وزيره ويدعى جيلة وبذلك أصبحت الإسكندرية فى يديه ثم استولى على مصر وسار منها إلى بلاد العجم حيث تحارب مع شاه العجم شابور حربًا عظيمة انهزم فيها شابور وانتقلت كل خزائنه وأمواله إلى تيقانوس الذى نقلها إلى الإسكندرية وعمرها، استمر حكم تيقانوس عشرين عامًا، وقد رأى جزاء ما اقترفه من مظالم، فقد تناثر لحمه وأسنانه بدون سبب، ولما هلك تولى بعده ابنه دانيال، وعندما هلك هو الآخر تولى الملك قسطنطين الأكبر وشاء المولى القدير أن يعلو شأن دين الله فقد فتح النبى مكة سنة ٨ هجرية وقد سير خالد بن الوليد فى عشرين ألف جندى من الصحابة الكرام إلى الشام إبان حكم القيصر حزقيل وبأمر الله استطاع أن يُسخر الشام له، وقد ذهبت البشرى إلى رسول الله فقام بإرسال عشرة آلاف جندى إليهم وساروا إلى القُدس وكانت حينئذ فى يد الكفار والروم، وعندما وصلت الجنود إلى الشام كان عمرو بن العاص فى القُدس يشتغل بالتجارة، وبينما كان عمرو يستريح تحت ظل شجرة ظهر ثعبان فجأة وكان ثعبانًا ضخمًا وكان هناك رجل ينام بجانب عمرو هجم الثعبان عليه فقام عمرو فقتل الثعبان بفرع شجرة، فقال له الرجل لماذا قتلت الثعبان؟ فقال عمرو: لقد كاد أن يقتلك وأنت نائم وعندما رأيته قتلته وأيقظتك من النوم، فَهَمّ الرجل بتقبيل يد وقدم عمرو بن العاص، وسأله الرجل: من أى البلاد أنت؟ فقال له: أنا مكّى أتيت للقُدس للتجارة، وجميع أوقاتى مع ناقتى الصغيرة، فقال له الرجل: أنا أسكن فى الإسكندرية فى ديار مصر وقد أتيت للقُدس للزيارة مع الخواجة شماس والحمد لله أنك أنقذتنى من شر هذا الثعبان سوف أمنحك أموالاً وفيرة لذلك، لتذهب معى إلى الإسكندرية وسوف أمنحك ألفين عملة ذهبية وخيام كبيرة وصغيرة وسوف تعود إلى بلادك من مصر.

وقد ذهب عمرو إلى الإسكندرية بعد عشرة أيام ونزل ضيفًا عند الخواجة شماس ولم يخلف الخواجة وعده مع عمرو فقد منحه عدة لبدات فاخرة، وشاهد عمرو المدينة مع الخواجة شماس وبينما كان يسير فى شوارع المدينة معه كان بعض الأهالى يلعبون لعبة

الكرة وقد جرت حكمة الخالق أن تسقط الكرة على رأس عمرو وتستقر عليه، وقد تعجب كل الحاضرين من ذلك جدًا، فقد كان أهالى الإسكندرية يؤمنون بتقليد قديم عندهم وهو أنه أثناء لعب تلك اللعبة من تستقر على رأسه تلك الكرة يصبح ملكًا على الإسكندرية، فابتسم الأهالى وقالوا: هل يكون هذا العربى المكى ملكًا على الإسكندرية، وعلى الفور قام شماس بأخذ عمرو إلى منزله وبدأ يبحث عن طالع عمرو بعلم الإسطرلاب فوجد أن عمرو سيكون ملكًا على مصر، وفى النهاية أكرمه بأن أعطى له الأموال الكثيرة ومنحه عشرة من الإبل محملة بالمتاع وودعه إلى الحجاز، وصل عمرو إلى مكة بعد أن قطع المنازل وطوى المراحل والتقى بأهله هناك وأعطى رسول الله الهدايا التى معه وأعلن إسلامه وقد ذهب عمرو إلى رسول الله وقد بشره الرسول بأنه سيكون أحد العمرين الذين سيفتحوا مصر والإسكندرية، وأخذ عمرو يذكر للرسول والصحابة مدح مدينة الإسكندرية وجمال مائها وهوائها، وقد ذكر الرسول فى عدة أحاديث له ترغيبًا للصحابة فى فتح مصر والقُدس والإسكندرية، وقد قام الرسول ﷺ بإرسال الرسائل إلى المقوقس ملك مصر مع الصحابى أبو حاطب بن أبى بلتعة وذلك بعد غزوة الحديبية عام ٦ هـ، ودعا الرسول ﷺ المقوقس إلى دين الإسلام، ويُقال إن المقوقس امتثل للدعوة وأعلن إسلامه، وقد أرسل المقوقس رسالة إلى النبى ﷺ مع ذى النون المصرى وأرسل مع الرسالة البغلة دلدل، والسيف ذو الفقار، والجارية مارية، وثلاث جوارٍ من القبط، وعندما ذهب ذو النون إلى مكة وشاهد الرسول ﷺ أعلن إسلامه وأصبح طبيب النبى ﷺ .

فى بيان فتح قلعة الإسكندرية

بناء على قول المؤرخين أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قام بفتح القُدس الشريف من يد الروم الكفار فى سنة ١٨ هجرية، ثم قام بعد ذلك بإرسال أربعة آلاف وخمسمائة فارس وأربعة آلاف جندى مشاة بقيادة عمرو بن العاص لفتح مصر، فقطع ذلك الجيش المنازل وطووا المراحل حتى وصلوا إلى المنطقة الواقعة بين رفح والعريش

فوصلهم هناك رسالة من عمر بن الخطاب يقول لهم فيها: «إذا كنتم قد دخلتم أرض مصر فسيروا على بركة الله وإن لم تكونوا قد وصلتم بعد فعودوا حتى تلاقوا الخوارج فى عمان» وعلى الفور قام عمرو بن العاص بسؤال الأهالى هل هذه المدينة ـ يقصد العريش ـ من أرض مصر، فقالوا نعم، فأرسل عمرو رسالة إلى ابن الخطاب يقول له فيها أنهم وصلوا أرض مصر وأنهم يعتزمون فتحها، وقام عمرو بن العاص بفتح عدة قلاع ثم حاصر قلعة الإسكندرية واستمر الحصار تسعة أشهر كانت حربًا عظيمة، وعندما توفى الملك حزقيل فى عام ١٩هـ وجد الكفار أنفسهم محاصرون فى القلعة من ناحية البحر فأرسلوا الرسائل إلى الروم يستنجدون بهم فى تلك اللحظة كان جنود الإسلام يدخلون القلعة من الأماكن التى تهدمت من أسوارها بفعل المنجنيق، وتم فتح تلك القلعة الحصينة يوم الجمعة من شهر المحرم عام ٢٠هـ وكانت الغنائم تنقل بالإبل فقد كان نصيب كل جندى أربعين ألف عملة ذهبية أما الأسرى وسائر الغنائم الأخرى فلم يكن يعلم حسابها إلا الله، وقد أرسل عمرو بن العاص الرسائل إلى عمر بن الخطاب بالمدينة يبشره بهذا الفتح العظيم، فقام عمر بن الخطاب بإرسال عشرين ألف جندى إلى عمرو مددًا له وقام عمرو بحصار مصر القديمة وقد ذكر ذلك بالتفصيل قبل ذلك.

فى بيان سبب دمار منارة الإسكندرية

دخلت الإسكندرية تحت حكم ملوك كثيرين، ثم دخلت الحكم الإسلامى فى عهد عمر بن الخطاب وآلت من بعد الخلفاء الراشدين إلى الأمويين وكانت الإسكندرية فى عهدهم فى غاية العمران فقد أصبحت كل الأمم المسيحية فى ذلك الوقت ضعيفة لضعف ملوكهم وتكالبهم على الدنيا وحرصهم عليها، لذا فتح الأمويون بلدانًا كثيرة، حتى أنهم أرسلوا الجيوش للقسطنطينية وأسبانيا وتسنى لهم فتح غالاطة فى استانبول وورومانيا وأسبانيا، إلا أن آخر ملوك الكفار سلك طريق الحيلة ضد عبد الملك بن مروان فقد أرسل هذا الملك رسالة إلى الشام إلى عبد الملك مع سفير من سفرائه، وبينما كان

عبد الملك يقرأ الرسالة أعلن هذا السفير إسلامه ورفع يده بالشهادة. وأصبح من المقبولين المحببين لدى عبد الملك وكان لا يترك عبد الملك أبدًا، وذات يوم قال هذا السفير لعبد الملك بن مروان إن مدينة الإسكندرية مدينة عظيمة وبها كنوز كثيرة لا يمكن وصفها فقد حكمها مئات السلاطين وأقام فيها آلاف الكهنة الذين كانوا يعلمون شتى علوم الكهانة ودفنوا الكنوز بالطلاسم، فلو أنك اعتمدت عليّ بما أعلمه فسوف أستخرج تلك الكنوز وقد ذكر له أنه بتلك الكنوز الكثيرة يمكنه فتح البلدان ويصبح أعظم سلاطين الدنيا.

كان عبد الملك بن مروان طماعًا للغاية، كان لا يعلم أنه بهذا يُسلم مدينة الإسكندرية ليد الكفار لأنه لم يكن يعرف شيئًا فى فن الحيلة، فقد اعتمد على إسلام هذا السفير الأسبانى وأعطاه ألف رجل ليذهب إلى الإسكندرية، وعندما ذهب إلى هناك قام بهدم منارة الإسكندرية وأخذ مرآة الإسكندرية التى كانت طلسمًا عظيمًا من آثار الإسكندر موضوعة بالماء إذا ما دخلت أى سفينة من سفن الأعداء إلى ميناء الإسكندرية فإنها تحترق من تلك المرآة، وأساس هذه المرآة لا يزال موجودًا وظاهرًا عند مضيق القليون الذى يطلقون عليه شاطئ القرد الصغير.

ولوقوع هذا الميناء فى مكان معاكس فإن أى سفينة تضل الطريق وتصل إليه تتدمر تمامًا، ولو لزم الذهاب خلف القلعة يجب الاحتراس جدًا، بعد ذلك قام هذا اللعين باستخراج أربعين مليون عملة من المنار والخلاصة أنه خلال أربعين يومًا استخرج مئات الكنوز المدفونة، وملأ سفينته بتلك الخزائن وركب هو وجنوده وتركوا الإسكندرية خرابًا وفروا هاربين إلى ديار أسبانيا.

وقد وصل هذا الخبر إلى عبد الملك بن مروان فى الشام، فحزن حزنًا شديدًا وأخذ يلوم نفسه على ذلك، وأصدر الفرمانات بترميم وتعمير الأماكن التى هُدمت فى مدينة الإسكندرية وأنفق على ذلك الأموال الكثيرة، وبالرغم مما فعله الأعداء جعل عبد الملك بن مروان مدينة الإسكندرية أحسن مما كانت.

ولكن مع الأسف لم يكن موجود بها آثار الإسكندر أو طلاسم دلوكة أو علامات سوريد أو كنوز مصرايم ولم يعد هناك أثر لمرآة الإسكندر، واستمر الحال على ذلك ثلاث سنوات، وفى السنة الرابعة تمكن هذا السفير اللعين من جمع كل الكفار وخرج من أسبانيا بثلاثمائة ألف جندى وسفن لا تحصى قاصداً مدينة الإسكندرية ونزلوا بها واستولوا على قلعة الإسكندرية وأقاموا بها سنة ونهبوا بقية الكنوز التى كانوا قد استولوا عليها قبل ذلك، وملكوا بذلك أموالاً لا تحصى، وعندما تمكن من ذلك أمر بتحميل كل الكنوز والأموال على السفن بعد أن هدم كل الآثار العجيبة والطلاسم الغريبة الموجودة فى الإسكندرية وفر هاربًا بالسفن إلى أسبانيا وقام بنهب كل الأماكن التى كانت فى طريقه إلى أسبانيا.

وقد عمرت أسبانيا بهذا المال، ويطلقون على المدينة الكبيرة هناك المدينة الكبرى ويطلقون اسم قرطبه وطنجه على مدينتين تقعان فى المغرب، وقد عُمرت تلك المدن على أطلال مدينة الإسكندرية أى أن عمرانها كان على حساب خراب مدينة الإسكندرية، أما الآن فتوجد بالإسكندرية آلاف العلامات والآثار الظاهرة التى تدعو للعبرة، وعندما دخل عبد الملك بن مروان مدينة الإسكندرية هذه المرة أعلن أنها ستكون مدينة العرش لمدة سبع سنوات، وأعلن أنه اعتزم الانتقام من الأعداء، وفى غضون سنة جمع جنده وكانوا فى كثرة مثل البحر وسار بهم فى ألفى سفينة شراعية إلى أسبانيا وقام بفتح المدينة الكبرى بها وفتح مدينتى قرطبة وطنجة بالمغرب ومئات المدن الأخرى وغنم من الأموال الذهبية ثلاثة آلاف صندوق وبنى منها جامع بنى أمية فى مدينة الإسكندرية والشام الشريف وهو يشبه الجنة.

والطائفة المسلمة الموجودة بأسبانيا حاليًا هم أبناء جنود عبد الملك، كما فتح عبد الملك مدينة القسطنطينية بهؤلاء الجند وتصالح مع أهلها على أن يدفعوا خراجًا سنويًا يقدر بخمسمائة ألف قطعة ذهبية كل عام، ودخل جند الإسلام مدينة الإسكندرية سالمين غانمين بعد أن انتقموا من الكفار الظالمين، واستقر عبد الملك وسائر جند الإسلام سبع

سنوات كاملة بمدينة الإسكندرية، وبعـد أن آلت الإسكندرية إلى عدد من الملوك استولى عليها الكفار فى خلافة الظاهر بيبرس، لكـنه استخلصها منهم، وكم من مرة وهبها الله لعدد من الملوك ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] فهذا يأخذها وذاك تؤخذ منـه، وذلك ينهزم، والعـقل قاصر وحائر أمام مـا يجرى، الله سبحانـه وتعالى الفاعل المختار، ولا يسأل عما يفعل، هذا ما جرت عليه إرادته الأزلية تعالى شأنه وعم نواله ولا إله غيره:

كم مـن عمل الـتــوى	وكم من معوج استوى
إنـه العجـب العجـاب	والبـنـــاء برهـان ذلك

فى عام ٥٦٢ هجرى حينما كان المتقى خليفة للعباسيين تغلب عضد الدولة الفاطمى على قلعة الإسكندرية، أما الخليفة المتقى فَسَيَّر إليه جندًا تحت إِمرة أسد الدين شيركوه، وأمَّر ابن عم شيركوه وصلاح الدين يوسف بن أيوب على جيوش قصدت الإسكندرية، فاحتـشد جيش مصـر والشام فى موضـع واحد واستردوا الإسـكندرية من يـدى عضد الدولة صـلحًا فزفوا بـذلك البشرى إلـى نور الدين فـى دمشق، وأصبح صـلاح الدين الأيوبى حـاكم الإسكندريـة، وفى العام نفـسه اتحد عضد الـدولة مع الفرنْـجة وضرب الحصار على صلاح الـدين فى الإسكندرية، وشاور وزيره فى الصـلح مع صلاح الدين على أن يدفع لصلاح الدين خمسين ألف دينـار ذهبًا، فأعطى صلاح الدين الإسكندرية لعـضد الـدولة، كمـا أعطـى عضد الـدولة الـفرنجة الـذين قـدَّموا إليـه المدد نـصف الإسكندريـة، وفى هذا العام تم استيلاء الـفرنجة على مصر، وإلى عـام ٥٦٣ هـ ظلت مصر فى حوزة الفرنجة.

واتَّصل السلطان الغورى بالشاه إسماعيل الصفوى فأرسل إليه الغورى مددًا قوامه اثنا عشر ألف جندى من المُشَاة، وفى وادى (جلردر)[1] لاقى السلطان سليم بهذا العسكر فكانت الغلبة فى الوهلة الأولى لعسكر العجم. وبينما كانت الدائرة تدور على العثمانيين، أطلق إيَاس باشا وهو قائد الانكشارية ثلاثمائة مدفع دفعة واحدة وأعمل العثمانيون السيف فى العجم.

وبعد أن حمى وطيس المعركة سبع ساعات تعلق الشاه إسماعيل بأذيال الفرار وفى معيته سبع رجال ونهب العثمانيون ما فى الخزينة من المال، ووقعت تاجلى خاتون زوجة الشاه إسماعيل فى الأسر، وقد قدموها أمانة إلى جعفر چلبى، ولَمَّا رأى السلطان سليم الجند المصريين مجندلين فى سهل جلدر قال: (بسم الله النية على محاربة الغورى)، وعاد منصورًا مظفرًا من جلدر. وانطلاقه إلى قيصرية، بعث جندًا تحت إمرة فرهاد باشا إلى علاء الدولة حاكم مَرْعَش وهو من أولاد ذو القدر، فواجهه فحشد علاء الدولة مائة رجل من التركمان واحتدمت المعركة بين الفريقين سبع ساعات ولحقت الهزيمة بعلاء الدولة، وقدم الغنائم إلى السلطان سليم وقد تدحرجت أمام باب القصر كما تدحرج الكرات إذا ضربت بالصولجان فأرسلوا رءوس أبناء علاء الدولة وغيرهم إلى السلطان الغورى فى مصر مع رسالة جاء فيها: (نحن جند الإسلام نجاهد فى سبيل الله وقد رأينا وجوب القضاء المبرم على علاء الدولة حاكم مرعش الذى كان يقطع الطريق ويسلب وينهب، ولقد عملنا بالآية الكريمة: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥]. ولقد تخلص العباد من شرهم، وأن معونتك للقزل باش[2] لا يليق بمسلم، وعلى ذلك قامت الحجة فى المذاهب الأربعة ولدينا الفتوى وسوف ندخل مصر محاربين فى الربيع).

---

(١) وهو ما يعرف باسم چالديران.

(٣) القزل باش: معناها أحمر الرأس. وهو اسم يطلقه السنيون عمومًا على الشيعة من العثمانيين فى الأناضول هم وطائفة من التركمان والبدو، وكانوا يلبسون حمر القلانس وكانت عشائرهم على المذهب الشيعى. (بتصرف واختصار) معجم الدولة العثمانية ص١١١.

وفى عام ٩٢١ من القسطنطينية البلد الطيب خرج الجيش العثمانى إلى اسكودار بعد طى المنازل والمراحل، بلغ سهل مرج دابق على مقربة من حلب حيث حارب جالوت داود ـ عليه السلام ـ وانهزم جالوت، ونزل قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ [البقرة: ٢٥١]، ولحق السلطان سليم بثمانين ألف مقاتل بجيش الغورى الذى انهزم أمامه وفرّ الغورى إلى حلب ثم إلى دمشق وبعدها إلى مصر، ودخل سليم ظافرًا إلى دمشق، وقضى الشتاء فيها، وفى الربيع انطلق إلى مصر وعبر بجيشه وادى أمّ الحسن وغلب على مدينة بلبيس، وفى كمين أعدّه الغورى وفى جبال عباس انقض الغورى على جيش سليم بغتة فى السحر، ودارت المعركة إلى وقت غروب الشمس، وأسفرت المعركة فى النهاية عن قتل رءوس عسكر الغورى، ووجدت جثة الغورى بلا رأس على سجادة وقالوا إن الغورى زايل دار الغرور إلى دار بوار.

* خلاصة القول أن سليم قد بلغنا به غايته على وجه الإيجاز فيما يختص بفتح السلطان سليم لمصر ولقد تم له الفتح لمصر بعد أن خاض ستين معركة، وعين خيره بك واليًا لمصر وهو الذى استوزره الغورى من قبل، كما عين كمال زاده باشا قاضيًا للعسكر، وأجرى فى النيل ألف سفينة وبهذه السفن بلغ مدينة رشيد وبعد ذلك ضرب الحصار على قلعة الإسكندرية برًا وبحرًا، أما ما كان فى القلعة من جند الشراكسة فطلبوا الأمان وآثروا النجاة وقدموا مفاتيح القلعة إلى السلطان سليم، وتم له هذا الفتح عام ٩٢٣هـ وجعل سليم مصر ولاية ذات إقليمين ومنح إقليمًا لقبطان بحريته حسام باشا، وأمره بأن يحافظ على الموانى المصرية بأربعة سفن حربية وأمر أن تقدم كل قرية كيسين فى كل شهر فى الديوان، وقد حكم القبطان حسام باشا مصر، وفى ميناء الإسكندرية سفينتان حربيتان له، وكان على كل سفينة ترسو فى ميناء الإسكندرية وأبو قير، والإسكندرية القديمة أن تدفع دينارًا ذهبيًا وكان يتحصل من البلاد ثلاثون كيسًا، ولم يكن فى الأقاليم تيمار(١) ولا زعامات(٢) ومن قبل وزير مصر رفيع المنزلة،

(١) أرض زراعية كان سلاطين العثمانيين يمنحونها لمن يتعهدون بتقديم عدد من الفرسان للدولة عند قيام الحرب، وذلك حسب ما تغل هذه الأرض.

(٢) الزعامات: أرض زراعية كانت تقطعها الدولة للمحاربين، هى أكبر من التيمار.

وكان يتولى أمانة الجمارك فى الميناء، وكانت كل سفينة تدفع العشر الشرعى وكانت نتيجة المحاسبة مائة وخمسين كيسًا، وكان كيسان يوزعان على الأئمة والخطباء، ولكن بعض الوزراء كانوا لا يدفعون هذا الجمرك، وكان للجمرك حمالون من اليهود والروم والمسلمين وعددهم سبعون، وكان هؤلاء ينالون مرتباتهم من دخل الجمارك.

وفى قلاع الإسكندرية الخمس ألف جندى، وكانوا ينالون من الجمرك علوفة[1] قدرها أربعون كيسًا وباقيتها للوالى وكانت سفن للفرنجة تأتى إلى الإسكندرية والمتحصل منها مائة كيس، وكان نصيب العلماء فى العام خمسًا وعشرين كيسًا، وكان على شاطئ البحر قلعة أبو حور وكان يتحصل لها من ميناء الإسكندرية ومن سفن الإسكندرية ثلاثمائة أو أربعمائة پاره[2]، وكانت هذه السفن ترسو فى ميناء الإسكندرية، وكانت تثير النزاع والخلاف على الدوام وسكن القلعة سنان باشا.

أوصاف قلعة أبو قير

ويقول العرب إن أبو قير بنيت على صخرة فى البحر ولذلك تسمى بهذا الاسم، وفى إحدى الروايات أن أحد الأولياء هو أبو قير حمد الله مدفون فيها وسميت القلعة باسمه، ولكن يتردد على ألسنة الناس أنها تسمى أبو حور ولا وجود لأثر للقلعة القديمة. إن لها ميناءًا عظيمًا، وكان الكفار يجعلون من هذا المرفأ كمينًا لسفنهم وكانت سفن المسافرين الآتية من رودس تلجأ إلى هذا الميناء، وآخر الأمر تحدث والى مصر الطواشى للسلطان سليمان، فأمر السلطان بأن تنفق الأموال من الخزانة فجدد بها القلعة خادم سليمان باشا، وسليمان باشا هذا هو من جعل ثلاثة قبور فى مصر على طراز جوامع استانبول وكان وزيرًا مدبرًا صنع ثلاث مائة سفينة حربية فى السويس وجعل فيها عشرين ألف جندى مع خيولهم، وغادر السويس إلى بلاد الهند، وحارب مدن أحمد اباد وديو اباد وميناء حيدر اباد، وانتزعها من يد البرتغاليين واستولى على كثير من

---

(١) راتب كانت تدفعه الدولة كل ثلاثة أشهر قمرية.

(٢) پاره: بمعنى قطعة أو جزء فى اللغة الفارسية وهى أقل عملة عثمانية.

الغنائم، وبعد سبعة أشهر وهب هذه الموانى إلى ملك الهند، وأخذ من ملك الهند أموالا كثيرةً، وعادت السفن الحربية الإسلامية من الهند.

ومضى سليمان باشا إلى مكة المكرمة فأدى مناسك الحج، ثم زار قبر النبى ﷺ فى المدينة، وشاع أن سفينة غادرت من جدّة إلى ينبع وبعد ذلك بنى قلعة أبو قير وهى قلعة صغيرة محيط جدرانها الأربعة ستمائة خطوة وهى مستديرة الشكل، ولها باب حديدى، أمامها خندق عليه جسر وهذا الجسر يرفع فى كل ليلة، وعلى باب القلعة كتب بالخط الجلىّ (أمر بإنشاء هذه القلعة المباركة فى أيام مولانا السلطان ابن السلطان سليمان خان ابن سليم خان ابن با يزيد خان ابن محمد خان ابن مراد خان).

وبعد إنشاء القلعة بعام، أقيم فيها جامع صغير، وله منارة غير مرتفعة كما أن فى القلعة مخزنًا للأسلحة ومخازن للغلال وصهاريج للماء، وفيها ثلاث مائة جندى وفى داخل القلعة خمسة دكاكين، ولا وجود بداخلها لخان ولا حمام، وقد دفن فى القلعة أحد خلفاء الشيخ عبد القادر الجيلانى وقد دفن فى غار ينزل إليه بسلم حجرى من عشر درجات، واسمه أبو قير حمد الله، ولذلك يسمون هذه القلعة قلعة أبو قير، وفيها سبعون مدفعًا، وبذلك لا يستطيع الفرنجة دخول الميناء، ويوقد مصباح فى داخل القلعة كل ليلة، وبها فانوس عظيم ويبدو على بعد مائة ميل، وخارج القلعة مائة بيت وعشرون دكانًا ومقهيان وثلاثة طواحين تديرها الخيل، ولكن لا وجود لحمام، وخارجها ميناء عظيم يحوى ألف سفينة وهذا الميناء يأمن عصف الرياح، وعلى بعد ميل من هذا الميناء جزيرة فى البحر وقد وصلتها بأمر إبراهيم باشا، وعلى هذه الجزيرة قلعة لحراستها، وقد بَلَغْتُهَا فى معية أهل رشيد وأهل الإسكندرية، وقد اكتشفنا صخرة كبيرة فى البحر، وبين قلعة أبو حور والنيل أرض واسعة ولا تستطيع سفن الفرنجة أن تقترب وهى ترى جند المسلمين عن بعد، فكانت ترفع الأعلام البيض مستسلمة، ولما أطلقت المدافع من القلعة على سفن الأعداء اشتعلت فيها النار وغرقت بمن فيها وأصبحت مظهرًا للآية الشريفة فى السفينة خرقها: ﴿قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ [الكهف: ٧١]. وأحرقت السفن وغرق كل من عليها، وانتقلوا إلى دار السعير.

واتفق أن أصيبت سفينة بمدفع فتخرقت السفينة وجعلت تميل يمنة ويسرة وأطلق بعض الألبان المدافع ففرح بذلك عمر أغا ورفع صوته قائلا الله الله، وكان اليوم يوم عيد الأضحى، وقال الناس لى إنى أنا كنت سبب هذا النصر، وفى اليوم جاء رئيس الجند وقدم خلعة لحارس القلعة كما منح الخلعة لجنود المدفعية ومنح حارس القلعة عطاء جزيلاً.

وجملة القول أن ميناء أبو حور ميناء عظيم، وقلعة أبو حور تعد من الأقاليم التابعة للإسكندرية ويحكمها صاحب القلعة وهو يحاسب محاسبة صحيحة، والإسكندرية ناحيته وهو نائب التسجيل.

ومن العجب:

أن فى هذه القلعة امرأة لها هيئة المجنونة وهى تبقى شهور الشتاء الست فى البحر وتضع رأسها على الشاطئ وكل جسدها فى الماء وبعض المواضع فتسيل منها الدماء، وبينما كان أحدهم يبحث عن الأسرى فى الشاطئ وجدوا هذه المرأة فقدموا إليها قطعة من خبز لتدفع به جوعها، ولكنها تخرج من البحر فى أيّام الصيف وتنام على الرمال الحارة وقد تفرق شعرها، ومن يشاهدها يذهب عقله، إنها بدينة مفرطة البدانة وقد دامت على هذه الحال ستين عامًا، ويقال إنها لا تكلم أحدًا قط، بل تظل صَمَّاءَ بَكْمَاءَ وقد دعت لى فلما وصلت إليها أخرجت لى من جبتها رغيفًا أبيض وفى داخل هذا الرغيف عشر تمرات وثلاثة دنانير ذهبية فيا لها من امرأة عجيبة، وسمح حاكم القلعة بعشرة من الجند حاملى البنادق وشاهدت الصيادين وهم يصيدون السمك على الشاطئ.

وفى الناحية القبلية للبحر، حتى لا يغرق إقليم البحيرة، أقام إبراهيم باشا سدّاً بين الإسكندرية ورشيد، كما توجد مساكن للعرب، وقد جزتها ولكن شاهدنا ثمانية من الفرسان العرب وجرت دماءهم وقدم أهل الإقليم ونائبه وحملوهم إلى القلعة حيث دفنوا، أما من جرح بالرماح فحملوا أيضًا إلى قلعة أبو حور، ووصلت مع رفقائى إلى:

خان معديّة لَشْتُوم

وركبنا فى سفينة وعبرنا إلى الجانب الآخر، فوجدنا خانًا عظيمًا، وكان ثمة ضابط من قبل حاكم البحيرة يراقب السفن القادمة ويفتش القادمين والعائدين، وكان يقيد اللصوص منهم، وكان يتولى هذه المهمة خمسون أو ستون من الجند، وهناك نزلنا ضيوفًا فى خان من أوقاف محمد باشا فى رشيد وهو خان عظيم وليس بجوار هذا الخان صهريج من الماء العذب.

ويجبى الأغا من أصحاب الجمال والخيول والبغال والحمير ثلاثة أكياس يقدمها إلى كاشف إقليم البحيرة ولا تفضى هذه الطريق إلى الإسكندرية والسفينة هناك ملك لكاشف البحيرة وهو على الدوام يرممها ويعمرها. وثمة نهير إلى إقليم البحيرة حيث ينتهى ببحيرة وهى بحيرة تحيط بها أربعة قصور وماؤها مَالِحٌ، ولذلك سمى إقليم البحيرة بالبحيرة مائة وستين عامًا تغرق البحيرة ثمانين قرية، وفيها ألف قارب تصيد السمك، وقد أقاموا سدًا متينًا أمام الإسكندرية حتى لا تصل مياه هذه البحيرة إليها.

ويروى الإسكندرية الترعة الناصرية، ومن الإسكندرية تمضى إلى هذه الترعة آلاف السفن، واقتضت حكمة الله أن يقبض كاشف البحيرة على المجرمين العرب الذين أغاروا على مساكننا، وفى الصباح وضعوا على الخازوق سبعة منهم، ومضينا أربع ساعات فى أرض رملية حتى وصلنا شاطئ البحر كما تجولنا ساعة فى أرض ذات نخيل.

أوصاف إدكو

يقال لها فى العربية (   )[1]، وتقع فى ناحية ميناء رشيد، تغل مائة أقجه[2]، ومحصولها السنوى ثلاثة أكياس، إنها على ضفة البحيرة فى مكان مرتفع، تضم أربعة آلاف بيتُ، سبعة عشر محلة، وعشرين محرابًا، وستة جوامع إضافة إلى المساجد، وبها ثلاث وكالات، وثلاثمائة دكان، ولكن لا سوق ولا حمام فيها، وشوارعها غاية

(١) بياض فى الأصل.

(٢) عملة كانت تستخدم فى الدولة العثمانية منذ أول نشأتها سُكّت من الفضة.

فى الضيق تتسع لمرور اثنين بصعوبة بالغة وكل بيوتها تطل من الناحية القبلية على البحيرة إنها قصبة جميلة ضيقة، وكل مياهها مياه آبار إلا أن بها بعض الملوحة، وكل أهلها من وجوههم غاية فى الثقل ولون وجوه أهلها يميل للصفرة، وليس بها جمال لنسائها ولا رجالها، والفقراء فيها كثير، وفى الجانب الجنوبى منها تغرق البيوت، ولذلك غادر بعض أصحاب البيوت بيوتهم، كما يغرق الناس آخر الأمر، ومن الحق أن قوم البحر تتفاوت أحوالهم من يوم إلى آخر، والطريق إلى رشيد طوله ساعتان وعرضه ساعة واحدة، وثمة بساتين للنخيل، ومنها نخلات طوال الواحدة منها بطول قامة الإنسان، وكل نخلة تثمر مائة أقة من التمر الأبيض والأصفر والأحمر والأسود، ولها تمر لذيذ مختلف الأنواع، وهى بلد تكرم وفادة الغرباء ولكنهم يملكون جامعًا أبيض جميلا، وتبدو بها سبع منارات.

بيان من دفن فى أدكو من كبار الأولياء

فى غرب المدينة على شاطئ الخليج الشيخ سلامة، وأخوه الشيخ صنع الله والشيخ عبد الرءوف والشيخ عبد الخالق وهم فى ضريح أبيض جميل، وبالقرب منهم على شاطئ الخليج فى ضريح مرتفع الشيخ عبد الله المَغْرِبى، وعلى شاطئ الخليج خمسة أضرحة بيضاء هى مرقد الشيخ سلامة ابن الشيخ مجيب الدين وفى هذه الأضرحة الخمسة دفن أبناءه وفى الناحية الشمالية دفن الشيخ خلف، والشيخ محمد حميدى.

وفى الناحية الشرقية الشيخ سيد محمد چلبى وهو خليفة السلطان أحمد البدوى، وفى الناحية الغربية الشيخ محمود چلبى، والشيخ منصور، وعلى مقربة من جامع كرد بك الشيخ سيد إبراهيم، وجامع سيدى على الجبرتى، وهو مدفون كذلك فى الجامع، وفى ساحة الجامع الشرقى دفن الشيخ هارون نهاوى، وقبره يزار وبعضهم يقرأ على روحه (يس) وبعضهم يقرأ (الفاتحة)، وطلبنا المدد من روحهم الشريفة - رحمة الله عليهم أجمعين -، وعبرنا أرضًا ذات رَمْلٍ إلى الشرق، وبلغنا ساحل البحر

الأبيض، وفى الرمال علامات تدل على طريق رشيد وتابعنا السير. ووصلنا إلى رشيد من إدكو فى أربع ساعات.

أوصاف ميناء رشيد

وسبب تسمية المدينة برشيد أنه بعد الطوفان مَلَك مصر بيظر بن حام وأخوه الأكبر سام وقد دعا نوح بالخير لحفيده، وبعث به إلى مصر، وكانت له فيها ذرية، وأنجب فى مصر ذرية من ثلاثين ولداً، ولذلك سمى بأبى الأقباط، وانتشر كل ولد منهم فى مصر وبنا له مدينة وكان لولد منهم اسم رشيد وبما أنه بنا هذه المدينة، لذلك سميت المدينة باسم رشيد، إن النيل يصب فى البحر الأبيض عندها وهى مدينة عظيمة إنها عروس مصر، ولها حكم الإقليم، وقدره فى كل عام من ديوان مصر اثنا عشر كيساً، ولرشيد قائم مقام يتولى إدارة شئونها، وجميع السفن والحمالين تحت حكمه، وهو يقدم إلى الوالى سنوياً مائة وخمسين كيساً وراتبه عشرة قروش فى اليوم، وتحت رياسته مائة وخمسون من خدم الجمرك، وجميع القرى تخضع للالتزام، وفى المدينة أكثر من الفى سوق، ولا وجود فيها لبيت خرب، وجميع بيوتها ذات أسطح وهى من طابقين أو ثلاثة أو أربعة، وكل بيوتها مخازن للأثاث. ويصعد إلى أبوابها بسلم من الحجر، وفى الطابق الثانى أبواب، وفى هذه المدينة خانات لنزول الضيوف، وفى الطوابق العالية، النوم، وعدد بيوتها تسعة آلاف بيت وستمائة، وهى للمسلمين، وفيها أربعون محلة ومائتى محراب، وسبع محلات لليهود، ولكن لا وجود فيها لمحلات للفرنجة والأرمن والغجر، إلا أن هؤلاء يغدون ويروحون للتجارة.

وثمة محلة للقبط واليهود، وأعيان مصر يعتمدون عليهم ككُتَّاب لهم، مما سبق ذكره نتبين أن البيوت فى رشيد اثنا عشر الف بيت، وفى هذه المدينة تؤدى صلاة الجمعة، وفيها كثير من الجوامع، وفى الميناء جامع كبير يسمى جامع زغلول محمد، طوله مائة وسبعون خطوة، وداخل هذا الجامع مائتان وستون عموداً من المرمر على رءوسها قباب، وفى أطراف حرم هذا الجامع مائة وخمسون قبراً، وفى داخل الجامع أربعة محاريب للمذاهب الأربعة، وثلاثة محاريب كبيرة وواحد منها صغير، كما أن له قبة ومنبر صغير

من خشب، وشرفتان للمؤذن وله حَرَمَان صغيران، وفى وسط الحرم الأيمن سبيل، وللجامع ستة أبواب وله منارتان وهما عاليتان، ومن ثلاثة طوابق، وفيه مقصورة دفن فيها محمد زغلول وأربعة من أوجه رجال الإفْتَاء، إنه جامع واسع كان فى أول الأمر جامعًا صغيرًا، وتاريخه مكتوب على أعلى بابه وهو:

(أمر بإنشاء هذا الجامع الجديد السيد محمود).

وجامع العطار يصعد إليه بسلم حجرى يتألف من خمس درجات، وجامع (تق نهيمه) مبنى على ثمانية أعمدة من الرخام، وهو صغير يتسع لمائتى مُصَلٍّ، وله ثلاثة أبواب ومنارة، ويصعد إليه بسلم حجرى يتألف من خمس درجات.

وجامع عبد الله يتسع لمائة مُصَلٍّ، وهو غاية فى الصغر وله منارة قصيرة، وجامع الخواجة وهو جامع مرتفع، وله منارة وبما أنه على المرفأ يؤمه ناس كثيرون، ويصعد إليه بسلم حجرى يتألف من عشرين درجة.

وجامع الأمير أحمد أغا جامع مرتفع جميل وهو على شاطئ النيل وطرفاه على الطريق العام، ويصعد إليه من ناحيتين بسلم من الحجر، ويقع على شاطئ النيل وبداخله عشرة أعمدة من الرخام، وعلى باب قبلته:

(وعمر هذا الجامع الأمير أحمد أغا سنة اثنين وستين وألف).

وله منارة جميلة ومؤذن وإمام وخطيب، ويزدحم بالمصلين، وفى داخل الميناء جامع جمال الدين أغا، وهو جامع مرتفع ويصعد إليه من جانبين بسلم حجرى وهو جامع مرتفع.

وثمة سبعة مخازن ودكاكين على الطريق العام، وفى داخل الجَامِع اثنا عشر عمودًا من الرخام عليها سقف مزخرف، وله قبتان، وعلى القبتين تاريخ هو:

(أن عين العلا على الفعال، خاتم الجود من سما بالجمال. قلت تاريخ أنشا على الجمال جامع لمن اللطيف محكمًا بالجمالى سنة ١٠٧٤).

وهذا الجامع ليس له حرم ولكنه يزدحم بالمصلين ليلا ونهاراً، وله منارة قصيرة، وفى صُفَّتِهِ الداخلية قيشانى أرض المغرب فى بعض مواضع منها، وهو لصاحب الخيرات أحمد باشا وهو أحد الأثرياء، وقدم إلى رشيد من مسقط.

وجامع الزمين جامع تحتانى يزدحم بالمصلين له سقف منقوش مقام على أحد عشر عمودًا، وله ثلاث قباب، ومنارته قصيرة وهو جامع صغير.

وجامع العراقى يصعد إليه بسلم يتألف من خمس درجات، وبه عشرة أ عمدة تحمل سقفًا مزخرفًا، ومنبره من الخشب وله ثلاثة أبواب، ومنارته قصيرة ولا حرم له والعراقى مدفون على يسار المحراب قدس سره.

وجامع نَسِى يقوم على ثمانية أعمدة، وهو صغير، وثمة مساجد أخرى، وتبدو لها خَمْسٌ وعشرون منارة.

ثمة سبعون من الخانات ومنها خان (قول قران) محمد باشا، وهو يشبه القلعة، ويتألف من طوابق، وخان أحمد باشا، وخان أيبك، وخان قنا خان خواجه أحمد أغا، وخان قاسم بك، وخان مصطفى بك، وخان إسحاق أفندى، وخان سنان باشا، وخان على جمال الدين، وهى خانات مشهورة ويسكن كلا منها خمسين أو مائة أسرة، كما أن لها بابًا من حديد، وبها سبع مدارس، وسبعون مكتبًا للصبيان، وستة سبل وثلاثة آلاف وأربعون دكانًا، وسوقان، لها بابان من حديد، وفيها مائة دكان وكلها أبنية متينة، وفيها تباع الألبسة والأقمشة الفاخرة وفيها سوق لبائعى الجواهر، وسبعون مقهى ومائة طاحونة تديرها الخيل، وأربعون طاحونة زيت، وأربعون مصبغة وثلاثون مضربًا للأرز وستة آلاف وستون مخزنًا، وسبعون حانة، وتمتلئ كل منها بمدمنى الشراب وعشرة حانات للبوظة وخمسة حمامات وحمام الحاج نعمت الله نظيف طيب الهواء يأتى إليه ماء النيل بدولاب فيه، وخدام هذا الحمام ثيابهم نظيفة والدلاكون فيه ثيابهم نظيفة، وكذلك خدامهم، ولكن هذا الحمام جديد، ويقال إن الحمام القديم هو النافع وقد بنا السلطان سليم بها حمامًا، وهو حمام عتيق، وإذا وضع فى حوضه مصاب بالجذام شفى

بإذن الله بعد أربعين يومًا، وحمام البوستانجى حمام كبير، أما حمام خواجه عبيدى وحمام قوبدان باشا فحمّامَان للخواص والعوام، وجو هذه المدينة يشبهه جو بلاد الروم، وفيها يهطل المطر بغزارة، وينزل الجليد والبرد لأن مدينة رشيد فى أول الإقليم الثالث، ولذلك فيه من الفتيات والفتيان من العرب من يتصفون بالجمال، ويتكسب أهل رشيد من التجارة، ونصفهم من أهل الحرف؛ ولذا فإن أهل هذه المدينة فى رَغَدٍ من العيش، ويقيم بعضهم للبعض الولائم فى كل ليلة، ويقيمون المولد الشريف فى الليلة خمس أو عشر مرات وفى الأسبوع يقيمون حفلات العرس أربع أو خمس مرات، ويباع خمسون رغيفًا من الخبز الأبيض ببارة واحدة، والرطل الإسكندرانى من اللحم ببارة، كما يباع قنطار السكر بعشرة قروش، ويباع أردب الشعير بمائة، ويأتى إليها ألف سفينة فى العام، وفى المدينة حدائق ذات بهجة وفيها تين وجميز وخوخ وليمون ونارنج، وعلى ضفتى النيل حدائق وبساتين وكل ما أنعم الله به على الإنسان موجود فى هذه المدينة، ويلبس أعيان المدينة فرو السمور والجوخ والثياب الفاخرة، أما الطبقات المتوسطة من أهل المدينة، وهم أهل حرف، فيلبسون الثياب ذات الألوان. والأغنياء يلبسون حرير دمياط والفرسكور الملون، والفقراء يلفون حولهم ثوب الإحرام وهم يعيشون فى كفاف ويكدحون، وفى الجانب الغربى من هذه المدينة لهم بيوت صغيرة يقيمونها على الرمال، وليس فيها بعوض، أما نصف المدينة إلى شاطئ النيل ففيها بعوض يشرد النوم، ولذلك ينام كل واحد منا فى كِلَّة[1] دفعًا للبعوض، وأهل هذه المدينة يأمنون الذباب، وطول المدينة إلى تكية عبد القادر الجيلانى ألف وخمسمائة وعشرون خطوة، وعلى ضفة النيل قصور شامخة وفى النيل مرافئ يُنزلون فيها البضائع من السفن وجميع المنازل التى على ضفة النيل تطل نوافذها عليه، وشوارعها واسعة نظيفة وهى ستمائة وعشرة، أما أهلها

---

(١) الكِلَّةُ: ستر رقيق ذو ثقوب يرفع فوق السرير ليتوقى به من البعوض وغيره. انظر: المعجم الوجيز، ص٥٤٠.

فهم يحبون ويكـرمون الغرباء ولا يخرج النساء إلى الطريـق إلا إذا اضطرتهن إلى ذلك ضرورة ملحة، والناس يشعلون المصابيح ليلاً ويزورون ذوى قرباهم، وتجول النساء فى السوق يعد عيبًا كبيراً، وقد كتبت أوصاف هذه المدينة على حد علمى، ولو خضت فى التفاصيل لاقتضى ذلك منى مجلدًا فاكتفيت بما ذكرت.

قبور الأولياء داخل وخارج المدينة

فى وسط السوق السلـطانى بالمدينة قبر الشيخ سيد عـلى المحلاوى، وقد تحدث عنه الشيخ الشعراوى فى كـتابه (الطبقات)، إنه مدفون فى موضع بالـقرب من جامع الشيخ منصور، وله ضريحٌ عظيم، وبجواره قبر الشيخ عبد الله الصانت وضريح الشيخ محمد البرى والشيخ أحـمد طوقا وقبر الشيخ أحمد المَـغْرِبى والشيخ سيد عثمـان برهانى وقبر الشيخ سعيد سعد الله وقبر سيد محمد الشندويلى، وفى رشيد القديمة على شاطئ النيل وفى الرمل قبر الشيخ سلطان بالقرب من جامع فى كوم أفراح، وكل السفن التى تمر به يقرأ من بها له الفـاتحة، لأنه قطب عظيم ومناقبه لا تدخل تحـت حصر، وله تكية تزار وفى هذا الموضع كذلك دفن كبار الأولياء، وثمة نحو مائة قبر لم يتيسر لنا معرفة أسماء مَنْ فـيها، وفى هـذه الجهة مقـبرة رشيـد ولله أحمد أنى سـألت عن هؤلاء الأقـطاب فوجدتهم وقد مرغت وجهى على ضرائحهـم وعرفتهم رحمة الله عليهم أجمعين، وفى غرب رشيد حدائق ونخيل، وتجولنا فيها ساعة وامـتطينا خيولنا وكم من حديقة شاهدنا وفى بعض الحقول أكلنا ثماراً يانعة.

أوصاف قلعة رشيد

هى التى بناها الظاهر بيبرس خوفًا من الفـرنجة، وتقع على شاطئ النيل، وبعد بنائه لها بعام واحد وَسَّعها السـلطان قايتباى، وعلى بابها هذا التاريخ:

(بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذا البرج المتين السلطان المالك الممالك الأشرف أبو النصر قايتباى عَزّ نصره سنة ثمانمائة).

وفى داخل القلعة دار للمشرف عليها ومخزن لـلقمح وصهريج يستمد ماءه من النيل وجامع قايتباى وأربعون بيتًا للجند، ومحيطها مائة خطوة، وكـل الأبنية التى فى داخل القلعة أقامـها قايتباى، وأقام على باشا بـناءًا مربعًا خارجها وهو قلـعة من طابق واحد وهذا البناء بناءٌ رصين، وفى كل ركن من أركـانه الأربعة برج وكل برج من هذه البروج قلعة حصينة ومـحيطها أربعمائة خطوة، وفى أرض كثيرة الوحـول لا خندق فيها، ولها باب من حديد يطل على الجنوب، وعلى الباب تاريخ يأخذ منه أن بانى القلعة هو على باشا وزير الرى العادل، وداخل الـقلعة ستون بيتًا للجند، وفى ركـن داخل القلعة دفن حسين كوردى وفى القلعة سبعون مدفعًا، ومخـزن أسلحتها عظيم، ولها مشرف، وفيها جنود، ينالون مرتباتهم من الجمرك.

وثمة قلعة تجاه نهر النيل وهى قلعـة أحمد باشا، وهى فى موضع كثير الرمال، وقد تخربت عـلى مر الأيام، وبعض آثـارها ما زالت ماثلة لـلعيان، ولها مـشرف وجنود، وبيوتها بين الـنخيل، ولكن عشرين منها قـد انْهَدَمَ، وبين النخيل بيت للـمشرف فيها، وعشرون بيت للفقـراء. وكانت قلعة معمورة قديمًا، وكانت مع قلـعة رشيد الواقعة فى مدخل مـيناء رشيد، وضـريح أحمد دده فى قـبر أبيض بـداخلها، وقد شـاهدت هذا الموضع كذلك، والسفن تجرى منحدرة فى النيل.

اوصاف بوغاز رشيد

وهناك يلتقى النيل بالبحر الأبيض، وهذا ما يسمونه موضع «مرج البحرين»، أما إذا عصفت الريح فإن السفن لا تجرى، وتبقى السفن فى البوغاز مدة شهرين أو ثلاثة، وقد أصبح هذا البوغاز بـحمد الله سدًا فى وجه الكفار وتحمل السفن حـمولتها، وإذا كانت حمولتها خـفيفة خرجت من البوغار وتـدفع السفن الجمارك، ثم تنشـر قلوعها وتجرى ويقول من عـليها توكلنـا على الله، وتدخل البحـر ولو كان البوغاز هكـذا على الدوام لخرب الكفـار رشيد، وإذا رأت سفينـة مدينة رشيد فيـنبغى أن تستـأذن فى الخروج من رئيس الميناء إنه ميناء صعب وكم من سفينة تغرق فى كل سنة.

ورئيس الميناء يتقاضى من كل سفينة أربعين أو خمسين قرشًا، وكما يقدم رئيس الميناء للوالى ألف قرش كشوفية، وفى كل سنة يجرد ما لديه ورئيس الميناء من الربّابنة ولا يعرف البوغاز شخص آخر سواه، ففى موضع يكون الماء فيه ضحلا وفى آخر يكون الماء عميقًا، وأما فى وسط البوغاز فطريق عام يحدده القرع العائم، وحينما يفيض النيل ويصبح كالبحر يدخل البحر الأبيض مائة ميل، ويَتَلَوَّن ماء النيل بالحمرة ويعرف من فيها أن مدينة رشيد قريبة والدعاء مستجاب فى هذا البوغاز، ويمضى بعض أهل الحال والسلوك فى قواربهم إلى هذا البوغاز ويتعبدون، ولأن مرج البحرين ورد فى القرآن كما أن موسى ـ عليه السلام ـ فارق الخضر فى هذا الموضع قال: ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً﴾ [الكهف: ٧٨]، وفى البوغاز جزيرة بها ضريح موسى ـ عليه السلام ـ والخضر ولذلك يأتى إليها كثير من الشيوخ لزيارتهما، وفى هذا الموضع تلتقى الرياح، وهذا الموضع يبعد عن النيل بمقدار خمسين ميلا، وتعلم السفن فى النيل أن النيل يختلط بالبحر، وإذا ذاق من فى السفن ماء النيل ليلا ووجدوا ماءه عذبًا أدركوا أن البوغاز قريب، فلا تقترب السفن من الشاطئ، ولم أستطع عبور هذا البوغاز، ثم ركبنا خيولنا وبلغنا الإسكندرية بعد فى عشر ساعات.

وخلاصة القول أنه بحمد الله بلغنا الموضع الذى يختلط فيه ماء النيل بماء البحر وزرنا ضرائح كبار الأولياء وصلينا ركعتين فى القارب ودعوت الله أن يمكننى من زيارة مصر بأسرها لأنها جنة المأوى كما جاء فى الحديث الصحيح[1].

وقلنا آمين يا معين بحق حرمة سيد المرسلين فعدت ثانية إلى ميناء رشيد وودعت جميع رفاقى خصوصًا شيخ زاده عبد الرحمن أفندى والحاج نعمت الله ومندل زاده مصطفى أغا وسائر أرباب الطريقة وركبنا السفينة، وحملنا فيها كل المأكول والمشروب

(١) حدّث نبى الله ﷺ أنه رأى أربعة أنهار تخرج من أصلها (يعنى سدرة المنتهى) نهران ظاهران ونهران باطنان، أما النهران الباطنان فنهران فى الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات». انظر: صحيح مسلم بشرح النووى (٩١٨/١) والبخارى فى المناقب (٣٨٨٧).

وهى سفينة تغدو وتـروح وهى محمَّلة بالعزب والمدافع، كما أن مَنْ فـيها من المسافرين يحملون الأسلـحة، ولأن جزر النيل بها سُفُنًـا للصوص وهم يغيرون بغتـة على السفن فيقتلون كل من فيها وينهبون أموالهم، فلا بد من أخذ الحذر منهم، فتوجهت إلى مصر فى سفينة مسلحة.

* * *

الفصل السادس والستون

أوصاف القصبات والقرى على ضفتى النيل

فى السفر من رشيد إلى أم الدنيا

مضينا فى النيل بريح طيبة تجاه كوم أفراح.

قرية عزبة المعدى

وبها مائة بيت وجامع دفن فيه الشيخ عثمان الطشطوشى، وفى أرض رشيد.

بلدة (حَدَّية)

وبها جامعان وعدة دكاكين ولكن ليس فيها حمام، ولا خان فيها، وفى الجانب المواجه للنيل أرض ذات نخيل بها قبر صغير للشيخ جابر، وبالقرب منها ترعة عظيمة وهى تجاه رشيد وفيها سفن تختلط بمياه بحيرة البرلس ومن هذه البحيرة تمضى السفن إلى قلعة برلس وسوف نتحدث عنها فى موضعها وفى:

محلة الأمير

جامعان وعدة دكاكين ولهما منارتان، وثلاث مقاه عربية، وعبرنا إليها، وفى أرض الغربية:

قصبة شيرين برمبال

بها ألف بيت وأربعة جوامع وعشرون مسجدًا ومقهى وخمسون دكانًا وخانان وحمام، وفيها الكتان والحرير الفاخر، وجَوُّها غاية فى اللطف، وتجاهها:

قصبة دبيى

وفيها ثلاثمائة وستون بيتًا وخان ومقهيان ولكن المقهيين غاية فى القذارة، وهما للفلاحين وليس فيها حمام، وفى إقليم البحيرة على شاطئ النيل:

قصبة أدفينه

وهى التـزام، ولها ألف بيت وهـى مدينة معـمورة، ومنازلهـا عالية ومزينـة، وبها جامعان لهما منارتان جميلتان وخمســون دكانًا وخانان وثلاث مقاه، وليس فيها حمام، وفى قبالتها فى إقليم الغربية:

محلة مطويس

يتحصل منها فى العام ستة أكياس.

وثمة سبعـون قرية، إنها وقف مكة والمدينـة، وليست كشوفية، وهى الـتزام الشيخ البكرى، وبها ثلاثة آلاف بيت وخمسة جوامع وفى السوق جامع كبير يحمل سقفه اثنان وخمسون عمودًا من الرخام وسقفه مزخرف وطوله مائتا خطوة وعرضه مائة وخمسون، كما توجد بها سـبعون زاوية، وخمس منارات تظهر فى الأفـق وحمام وسبع وكالات، وسبل ومقاه، ومائتا دكان وأربعون طاحونة لـلزيت وعشرون طاحونة تديرها الخيل ولا وجود لسوق، وفيها قصر شامخ يسكنه الحاكم وأمامه قصر جميل على ضفة النيل ينزل به الضيوف والمجاورون، ويجمعون ثروة طائلة إنها بـقعة جميلة وعلى ضفة النيل زاوية مثل الجنـة ولأرزها وسكرها ذائع الـشهرة، وهذه البقـعة على مرتفـع من الأرض فهى لطيفة الهواء، وكل بيوتها تطل على النيل، وبعدها:

محلة جمشيره

وهى التزام وبها مائتا بيت وجامع، وعدة دكاكـين، ولكن ليس فيها حمام، وقبالتها فى إقليم البحيرة:

محلة فزاده

وهى تتبع قصبة ديروط، وبها مائتا بـيت، وبها كذلك جامع وعدة دكاكين ومقهى، ولكن ليس فيها حمام، والنيل فيها يجرى متعرجًا.

أوصاف محلة ديروط

كان لفرعون فيها دير كبير لذلك سميت ديروت وهى تابعة لالتزام سنديون، وبها ألف بيت وأربع منارات وأربعون زاوية وحمام ووكالة وأربعة مقاه، وراقصات جميلات، وخمسون دكانًا وحقول غزيرة المحصول، وقبالتها فى إقليم الغربية:

محلة سنديون

وهى قضاء يدر مائة وخمسين أقجه ويتحصل منها فى العام ثمانية أكياس، وفى ناحيتها ثمانون قرية ويسكنها بنى حرام وبنى جزام، وينشب القتال بينهما على الدوام، وفى القرى ثلاثة آلاف بيت، ولها كاشف صاحب خلعة، ولها جامع ذو منارة جميلة وبها مائتا دكان، وخان، وليس فيها حمام وبعدها بميل فى إقليم البحيرة:

محلة عاطف

وهى التزام وبها ألف بيت، وبها جامع وعشرون مسجدًا وعدة أسواق صغيرة، وليس بها حمام، وبالقرب منها بلد داود ومن هذه البلد تجرى ترعة الناصرية إلى الإسكندرية.

أوصاف قصبة فوه

هى قضاء يغل مائة وخمسين أقجه وبها مائة قرية وخمس من القرى العامرة، وهى كاشفيه يلبس كاشفها الخلعة من الغربية وبها أربعة آلاف بيت واثنا عشر جامعًا، وأربعون مسجدًا وأحد عشر جامعًا ذا منارة وحمامان وخمس وكالات وثمانية مكاتب للصبيان وستون دكانًا وأربع مقاه.

إنها مدينة عامرة تزدحم بالسكان وتجاهها جزيرة صغيرة يحيط بها النيل من جوانبها الأربعة، ويسمونها جزيرة الذهب ولأنها كثيرة المحاصيل سميت جزيرة الذهب، وعسلها أبيض لذيذ وكأنها جزيرة تشبه الجنة وفى حدائق نخيلها جامع جميل ذو منارة

وعلى مقربة منه قرية بها أربعون بيت وبعد هذه الجزيرة على مسافة ميل فى إقليم الغربية:

محلة شرف

وتضم نحو ألف بيت وجامع ومقهى وقبالتها فى إقليم البحيرة:

محلة شُرُم بك

وبها نحو ألف بيت وجامعان ومقهيان وهى قصبة كثيرة المحاصيل، وفى تجاهها فى إقليم الغربية:

محلة السالمية

وهى التزام وبها ألف بيت وجامع ذو منارة وعلى بعد ميل وفى إقليم الغربية:

محلة مالك

وبها خمسمائة بيت وهى التزام وبها دار للضيافة عبارة عن قصر عالٍ يسكنها صاحب القرية وفى كل ليلة يكرم صاحب القرية أربعين أو خمسين ضيفًا، ويعلف خيولهم لأنها محلة يمر بها كثير من الناس، وبها جامعان وأسواق صغيرة، ولكن ليس فيها حمامات والشيخ محرم والشيخ كنعان والشيخ رمضان دفنوا فى قبور بيض بها، وقد رسونا فيها بعشرين باره ونزلنا ضيوفًا ليلة وفى الصباح تابعنا سيرنا، وفى هذه المدينة وفى إقليم البحيرة:

محلة شموخذات

إنها قصبة صغيرة ملتزمها رشيدلى مندل زاده وبها ثلاثمائة بيت وجامع وبها قهوة وليس بها حمام ولا دكان، وعلى بعد ثلاثة أميال وفى إقليم البحيرة كذلك:

محلة الرحمانية

وهى فى التزام قيطاس أغا، وقد أوردنا أوصافها على التفصيل فيما كنا ذاهبين إلى البحيرة وتجاهها فى إقليم الغربية:

محلة إبراهيم الدسوقى

وقد أوردنا أوصافها سلفًا وعلى بعد تسعة أميال منها فى إقليم الغربية:

بلدة مرقاص

وقد دفن فيها إبراهيم الدسوقى وقد وصفتها من قبل وعلى بعد ميلين فى إقليم الغربية محلة:

أبى على

وقد ذكرت من قبل وفى قبالتها فى إقليم البحيرة محلة:

دييى كبير

وهى التزام وبها ثلاثة آلاف بيت معمور وبها جامعان لكل منهما منارة، وعشرون مسجدًا وخان وعشرون دكانًا ومقهيان.

وقد تجولت فى النيل، وكنا ضد مهب الريح، فأنزلوا جميع الملاحين جانبًا، وجذبوا السفن بالحبال فبذلوا فى ذلك جهدًا عظيمًا، وتجاه هذه المحلة:

محلة شبراخيت

وتحتوى على ألفى بيت وجامعان وعشرة مساجد، ووكالة، وعشرة دكاكين وثلاث مقاه، وعلى قرابة ميل بإقليم البحيرة:

محلة شبرى ريش

وهى التزام، وبلد معمور جملة دورها خمسمائة بيت، وبها جامعان وسبع زوايا، ووكالة وعدة دكاكين، ولكن ليس فيها حمام، وتجاهها فى إقليم الغربية:

محلة ميت جناح

وهى التزام، وبها ألفا بيت وجامعان وعشرون مسجداً، ولكن ليس بها دكاكين ولا حمام وتجاهها فى إقليم البحيرة:

محلة مجالجسه

وهى التزام، وبها جامع واثنتا عشرة زاوية ووكالة ومقهى، وألف ومائتا بيت ولكن ليس بها حمام ولا دكان، وتجاهها فى إقليم الغربية:

محلة صالح

وهى التزام، ويقال إن بها قبر علىّ ـ كرّم الله وجهه ـ وماؤها عذب وكان فى هذا البلد قديمًا قلعة عظيمة تسمى فى كتب التاريخ (ولاية صالح)، وهى الآن مقبرة فى سجلات المحكمة، وآثارها القديمة ماثلة للعيان، وبها ألفا بيت معمور وجامعان وعشرون زاوية ومقهيان ووكالة، وعلى بعد ميل منها وعلى ضفة النيل وفى إقليم البحيرة:

محلة كفر جديد

وهى التزام وبها مائتا بيت ليس إلا، وجامع ومقهى، وفى شمالها فى إقليم البحيرة:

محلة نَكْلَه

وهى التزام، وبها ألفا بيت معمور جميل، وثلاثة جوامع معمورة جميلة، وعشرون من المساجد، ووكالتان، وقصر شامخ هو دار ضيافة، ولا يقل عدد الضيوف فيه عن مائة ضيف فى كل ليلة كما أن فيها عشرون سوقًا صغيرةً كما أن بها مقهى، ولكن ليس بها حمام، وتجاهها فى كشوفية المنوفية:

محلة فرزدق

وتقع فى التزام نقيب الأشراف، وبذلك سبق وصفها من قبل.

وفى شمالها على بعد ميل وعلى ضفة الترعـة النهارية ولأنها فى إقليم المنوفية سبق لنا وصفها، وهى على حدود إقليم الغربية، وعلى بعد ميل شمالا وفى إقليم البحيرة:

محلة إشليمية

وهى فى التـزام سفر أغا، وبها خمس مـائة بيت وجامع وست زوايا ومـقهى وعدة دكاكين وحمامات، وليس فيها وكالة، وفى إقليم البحيرة على بعد ميل منها:

محلة الطاهرية

وبها جـامع وسبع مائة بـيت، وهى قليـلة العمران، وعـلى بعد ثلاثة أمـيال وتجاه الطاهرية وفى إقليم المنوفية:

محلة كفر زياد

وهى التزام وبها خمـس مائة بيت جميل وجامع وخانان وعدة دكـاكين، وليس فيها حمام، إنها مرفق السيد أحمد البدوى، وعلى بعد ميل شمالا فى إقليم البحيرة:

محلة شابوز

وبـهـا ألـف بيـت وهـى التزام، وبهـا جامع واحد، وعلى بعد ميـلين شمالا وفى إقليم البحيرة:

محلة سلمون

وهى التزام سفر أغا وبها مائة بيت وجامـع وثلاثون مسجداً وخانان ومقهى، وسبع أسواق، وعلى بعد ميلين شمالا وفى إقليم المنوفية:

محلة كفر ناحه

وهى التزام سياوش أغا وبـها مقهى وألف بيت وجامع وليس فـيها حَمَّام ولا وكالة ولا دكاكين، وعلى بعد ميلين من جهة الشمال وفى إقليم البحيرة:

محلة ابو احمد

وهـى التزام وبـهـا خمسمائة وخمســـون بيتـًا وجامع ومقهى وليس فيها حمامات ولا وكالات، وعلى بعد خمس درجات شمالا منها فى إقليم البحيرة:

محلة بحيرة

وهى فى التزام ذو الفقار أغـا وبها جامع ومقهى وأربعة دكاكين، وقبالـتها فى إقليم المنوفية على نهر النيل:

محلة زغيره

وبها جامع ومـقهى، وسبعمائة بـيت ولا وجود لما سوى ذلك، وعلى بـعد ميل فى إقليم المنوفية:

محلة طنوب

وهى فى التزام رضوان أغا وبـها ثلاثمائة بيت، وجامع بلا منـارة، ووكالة ومقهى، وعلى بعد ميلين شمالا وفى إقليم المنوفية:

محلة امروز

وهى التزام مصطفى أفـندى، وبها خمسمائة بيت وجامع ومقهـى، وعلى بعد ميلين شمالا منها وفى إقليم البحيرة:

محلة طَيَرْنَه

وهى التزام، وتروى من تـرعة سلطان شرف التى تروى ولاية أبـو جاموس، وأولها فى هذه المحلة، وبـها خمسمائة بيت معـمور، وبها جامع ولا عمران فيـها بعد ذلك. ومضينا شمالا ميلين، وفى إقليم البحيرة على ضفة النيل وجدنا:

محلة علقمة أبو الجاوى

وليس فيها سوى جامع، وبها ألفا بيت. وتجاهها، وفى إقليم المنوفية:

محلة تمالية

وبها ثمانمائة بيت معمور، وجامع، ومقهـى تجاوزناها بمسافة ميلين شمالا وفى إقليم المنوفية:

محلة جزى

وهى واقعة فى التزام محـمد أغا، وبها دار ضيافة عظيمة، وعلى بـابها مدافع وبها ألف بيت وجامع ومقـهى وليس يوجد شىء سوى ذلك ويجرى النـيل شرق هذه المحلة وهذه المدينة مرفأ، وهى على مسيرة مرحلة[1] من منوف وقبالتها فى إقليم البحيرة على ضفة النيل:

محلة طرَانَه

وصاحبها ذو خلعـة وطبل وجند، وبها قبور من الجص، وليس فـيها حدائق، وبها جامع بلا منارة ومقهى، وفى هذه الناحية قاضى البحيرة ولها ستون قرية تابعة لها.

بيان معادن النطرون الطبيعى

إن ما يسـمونه النـطرون هو محـصول هذه الأرض، وهو يـخرج من صحـراء هذه الأرض إنهم يـحفرون الآبار ويـتعمقـون بمقدار باع أو بـاعين، فيمـتد عرقًا عـرقًا فى

(١) المرحلة: المسافة التى يقطعها السائر ما بين المنزلين.

الأرض، وجميع سكان هذه المحلة مأمورون بأداء هذا العمل، فيستخرجون عدة قناطير من النطرون، وأمام كوخ أمين النطرون يذرون النطرون كأنه ملح، ويأتى من بلاد الفرنجة التجار لشراء النطرون، فيشترون فى العام عدة آلاف من قناطير النطرون، ويتحصل منها فى العام سبعين كيسًا وهى التزام وأكثر علماء مصر يشغلون مناصب فى إدارات خاصة به لأنه مال جذل، وفى جميع الدنيا يذيبونه ويجعلونه كالماء ويضعونه على الصخر فينمحى بإذن الله تلك هى خاصيته، كما يوضع فى مصر غالبًا فى الطعام مثل الملح، وهو ينضج اللحم ولكنه من أكل منه تأذت عيناه وساءت نفسه وشحب وجهه وانتفخت بطنه كبطن الحامل، وفى مصر يضعون ذرة منه فى طعامهم لأنه ذو قيمة كالوقود، ولذلك فإن الطعام فى مصر يطهى سريعًا، أما أصحاب الأُسَر إذا طهوا به الطعام كالحطب طاب طعامهم.

وفى عصر الوالى قره مصطفى باشا ثار البكوات فنشبت الحرب واستشهد كثير من الجند وفى صحرائها دفن بالقرب منهم أتباعهم - رحمهم الله - وعلى بعد ميل شمالا وفى إقليم المنوفية:

محلة زاويه

بها سبعمائة بيت وجامع ومقهى، وفى شمالها فى إقليم البحيرة:

محلة ابو فشانه

وبها جامع ذو مناره وألف بيت جميل، وشمالها فى إقليم البحيرة سكن قبيلة بنى سلامة وبنى رجبان فى أرض رملية وهؤلاء القوم على ضفة النيل ويغيرون على السفن ولا يحاربهم إلا من كانوا يحملون السلاح، وهم شجعان، وقد بلغنا هذه المحلة وسمعنا نساء العرب وهن يضربن بالدفوف على رأس الجيش ويرقصن ويعزفن على الربّاب، وقيل لى إن فى إقليم البحيرة أرض رملية لا أمان فيها، والعرب ينهبون السفن التى ترسو على هذه المنطقة، لأنها أرض خالية موحشة، والمجرمون يركبون السفن على

أنهم صيادون وهم يُغيرون على السفن، ولـذلك يجب التحرز منهم. وقد تجاوزت هذه المنطقة سالمًا والحمد لله، وشمال هذه المنطقة فى إقليم منوف:

محلة اشمون جريس

هى التزام كـبير وبها جامعـان وعشرون مسجدًا ووكـالتان ومقهيان وعـشرون دكانًا وليس فيها حمام، وعلى بعد ميلين شمالا منها وفى إقليم المنوفية:

كفر جركس

وهى ليســت محلة وبها ثـلاثمائة بيت وجـامع واحد ولا يوجد عمـران بعد ذلك، وسرنا أربعـين ميلا فى مهب ريح الجـنوب تجاه كفر جركـس وفى إقليم البحـيرة وعلى شاطئ النيل:

محلة قُطَه

والحق أن القطـط فيها كثيـرة وهى التزام ولم يَبْقَ مـن القرى والقصبـات سواها فى إقليم البحـيرة، وعلى بعد ميل منهـا الجسر الأسود وهو جسر له خندق، وشـمالها فى حكم كاشفية الجيزة وعلى بعد أربعة أميال وفى إقليم الجيزة:

محلة ام دينار

وقـد كشف السلطـان يوسـف صـلاح الديـــن فيها عـن كنزٍ عظيم، ولذلك سميت أم دينار؛ وبهذا المال الذى استـخرجه من هذا الكنز بنى قلعة عظيمـة داخل القلعة كما تصدق بمال كثير فعمر مصر، وبها جامع ومقهى وترعة عظيمة، وهذه الترعة تمتلئ عند فيضان النيل فتـروى هذه الولاية، وتمر فيها سفن تحمل الغلال لأنـها ترعة كبيرة، وفى هذه الترعة مـعدية أميرية، وبها يعـبر أصحاب الحاجات من الجيـزة إلى منوف ويؤدون الأجر وتجاهها فى إقليم المنوفية:

محلة شراوى ومحلة دراوى

وبالقرب منهما مَحلات تقع فى التزام نقيب الأشراف فى مصر برهان الدين أفندى، وهى محلة معمورة لأنها قريبة من مصر وكثيرة المحاصيل فأهلها فى رَغَدٍ من العيش وبها جامعان ولكننا لا نعرف عمائر أخرى سواها وفى حدود منوف على شاطئ النيل بليدات وقصبات تتمم هذه المحلة، وعلى بعد ميل محلة تسمى:

بطن البقر

وهى فى نهاية جزيرة فى النيل، ويجرى النيل حولها، وهى جزيرة كبيرة وعظيمة، والنيل يجرى بين إقليم الغربية وإقليم المنوفية، وهى كشفيتان حكوميتان، وبها ألف وستمائة بيت وقرى وقصبات ومدينة عظيمة تتمها هذه الجزيرة هى محلة بطن البقر والنيل ينعطف يمنة ليجرى إلى ولاية دمياط، وينعطف يسرة ليجرى إلى ولاية رشيد، وعلى ساحل النيل الأيسر محلات وقصبات مررنا بها ولكنها رياض ونخيل وبين رشيد وبطن البقر خمسمائة ميل، وليس فى بطن البقر قرى، إنها أرض خالية سبخة وفيها أشجار ذات أشواك، وهى فى حكم جبه جى باشى، وفى تل يحرق أخشاب هذه الأشجار وتوضع هذه الأخشاب على الفحم والبارود الأسود، ولذلك فإن بارود مصر فى شدة بارود بغداد وانجلترا، وفى بطن البقر أربعون ضريحًا وهناك، يستجاب الدعاء، وفى الجانب الشرقى من بطن البقر فى الضفة المقابلة للنيل كشفية قليوب، وفيها:

بلدة بيت البارود

وهى فى حكم جبه جى باشى وفيها يحفظون أخشاب أشجار الشوك والفحم، وفى منطقة على بعد أربعة أميال فى إقليم القليوبية:

محلة شُبْرَا

وقد ذكرنا أوصافها من قبل، وفى الجهة المقابلة لها فى إقليم الجيزة:

محلة الوراق

وفيها جامع ولا نعرف بيوتها، وعلى بعد أربعة أميال جنوبًا وفى أرض الجيزة مدينة امبابة.

أوصاف مدينة امبابة وهى عاصمة كشوفية الجيزة

ولكاشف امبابة ثلاثمائة جندى، وهو حاكمها، وهو يُحَصِّل مائة كيس وعشرة، وبها قاضى الجيزة ونائبه، وبها بيوت معمورة، كما أن بها ثمان جوامع وستون مسجداً ومائة وثمانون دكانًا ولكن ليس فيها سوق وبها سبع مقاه، وسبل ومدارس وتكايا وتكيتها معمورة، وفى محكمتها منح شيخ الإسلام مصطفى أفندى معاشًا مائة وخمسين أقجه، له ولنائبه الحكم فى هذه المحكمة العامرة، وكل هذه الناحية قرى منها:

اوسيم

إنها بلدة كحديقة إرم، ذات نخيل، ولهذه البلدة حاكم من العرب اسمه شجاع الدين سليل قبيلة خبير وهو خبير العربان، وله ثلاثمائة فارس، وهم يتولون رعاية شئون الأمن فى تلك البلاد، فإذا ما تعلق مجرم بأذيال الفرار جاءوا به مقيداً، وجو هذه المدينة لطيف كما أن فتياتها وفتيانها يتميزون بروعة الحسن، ويجتمع فيها كل يوم سبت ألف إنسان فى سوق عظيمة، وأصحاب الحرف فيها كثير، ويصنعون المآزر والأقمشة ذات الألوان والعمائم والمروط، وفى كل عام يأتى إلى هذه المدينة من يزورون السيد البدوى ويجتمع فيها أربعون أو خمسون ألف إنسان فى ثلاثة ليال، ويقيمون مولداً عظيمًا، ولا يتعلق به الوصف، كما يقيمون الخيام وحلقات الذكر ويزورون الشيخ الامبابى، وهو مدفون فى جامع كبير على شاطئ النيل قدسنا الله بسره العزيز، وحول ضريحه حديقة من نخيل، وتكية فيها مريدون يسمى الواحد منهم الامبابى وينتهى نسبه إلى السيد أحمد البدوى، وهؤلاء المريدون زهاد منقطعون عن الدنيا منزوون فى ركن القناعة يعيشون على الصدقات، ولأن أهل الحرف فيها كثير ففضلا عما فى الأسواق

يعرضون كذلك ما يصنعون فى الدكاكين خارج المدينة فى الخلاء، وسبعون داراً للصباغة أميرية، واثنتا عشرة وكالة وحمام وعشرون مكتباً للصبيان وحدائق كثيرة، وأهلها يكرمون الضيف، ومقابل امبابه:

بـولاق

وهى مرفأ مصر، وقد وصلنا إليها من رشيد فى خمسة أيام، وهى مدينة كثيرة المحاسن، وركبنا خيولنا وجيادنا إلى القلعة الداخلية ومضينا مع نائب نِيْشِلى على كتخدا، وتجولنا فى أرجاء المدينة لقد زرنا رشيد ولكن بقى ميناء دمياط، وفى الصباح سوف نمضى إلى البرلس وقلعتها وقلعة دمياط وقلعة تيمه، وقد طوفنا فى هذه الأجزاء، وفى اليوم التالى فى السحر زرنا جميع القلاع هنالك وصدر أمر من الكتخدا بأن يمنحنى الوالى خمسين ديناراً من ذهب نفقة الرحلة، فقبلت يده، ودعيت له بالخير، ومضيت وودعت الكتخدا، ونلت منه أربعين ديناراً من ذهب وقماش من الجوخ، وفى هذا اليوم مضيت إلى مدينة بولاق، وهيئت لنا حاجتنا من المأكولات والمشروبات مع خمسين فتى فى السفينة، وركبنا السفينة مع هؤلاء الخدم ومضينا فى طريقنا.

* * *

الفصل السابع والستون
بيان ما شاهدنا من قرى ومدن وقصبات
فى طريقنا من مصر إلى قلاع دمياط والبرلس وتينه

خرجنا أول الأمر من بولاق ووصلنا بعد ثلاثة أيام فى طريقنا إلى رشيد، فوجدنا قبالة محلة الأمير ترعة عظيمة وهى ترعة البرلس، فوصلنا:

محلة عزْيه

وفيها سبعون أو ثمانون بيت كما أن فيها قبراً عاليًا دفن فيه الشيخ على الكومى، فتجاوزناها وعلى ضفة الترعة:

عزية الحج

وتتألف من مائة وخمسين قرية، وبالقرب من جامعها مدفن الشيخ قشاشى، فتجاوزناها وفى الترعة سحب السفينة ملاحون من الضفتين فصادفتنا قرى تجاوزناها، وتقدمنا فى طريقنا وكان بحر البرلس علـى يُمْنَتِنَا وسُدَّت الترعة عند هذه المحلة إلا أنها تجرى فى بقعة أخرى فيها منبت للأرز، فخرجنا من السفينة وركبنا سفنا فى بحيرة البرلس، وعدنا إلى السفينة، وهذه الترعة تجرى عشرون ميلا إلى جانب بحيرة البرلس، ودخلنا إلى البحيرة وهى عظيمة طولها خمسون ميلاً وعرضها ثمانون ميلا إلا أنها بَحْرٌ ضَحْلٌ وفيها قارب للصيد، وفى نهاية بحيرة البرلس قلعتها ومن البوغاز يدخل إلى بحر واسع، وفى جنوبها فى إقليم الغربية البحر ليس شديد العمق، إنهم قدروا عمقه بقامة إنسان، وفيه علامات حتى لا تسير فيه السفن لأن فى البحر نخيل فتمر السفن بين هذا النخيل، وفيه السمك أنواع مختلفة، وبين بحيرة البرلس والبحر الأبيض رأس صغيرة، ومضيت فى البحيرة تدفعنا ريح تهب من الشمال الغربى إلى الشرق.

أوصاف قلعة البرلس القديمة

وهى بحيرة تقع فى إقليم دمياط، وتتبع إداريًا لبك دمياط، تؤدى سبعين كيسًا وللقلعة حاكم وذلك طبقًا لقانون السلطان سليم، وحاكم آخر وهو قاضٍ، ويتحصل له فى العام خمسة أكياس وفى ناحية منها سبعون قرية، وفى ناحية أخرى بلدة بلطيم، وقد بنى اسكندر اليونان قلعة البرلس، وفى العام الحادى والعشرين للهجرة، وفى خلافة عمر بن الخطاب كان عمرو بن العاص قائد جيش يتألف من ثمانين ألف رجل، وقد وجد فى الفتح صعوبة وشدة، وبينما وقف عاجزاً اقتضت حكمة الله أن يشرف بالإسلام هاموك أوغلى حاكم البرلس.

وبفضل منه تم الفتح للقلعة، وعلى مر الأيام تخربت القلعة من تأثير تلاطم الأمواج بها وفى عام ٩٢٣هـ جدد بناءها السلطان سليم، وهذه القلعة تحرس البحر إنها قلعة صغيرة مربعة ومحيطها خمسمائة خطوة، وفى كل ركن من أركانها الأربعة قلعة خربة، وبها باب حديدى يشرف على البحر وفى القلعة ثمانون جنديًا، وجامع بناه السلطان سليم ومنارته على باب القلعة وهى منارة صغيرة وتصل رمال البحر إلى القلعة الآن، وهى تغرق من يوم إلى يوم، وقد رأيت مواضع الهدم فى سورها وفيها أربعون مدفعًا وعتادها قليل ورئيس طوبجية القلعة من اللاظ، وفى جهاتها القبلية ثلاثمائة بيت وزاوية، ومقهى ودكان خباز، وليس فيها حمام ولا سوق، إنها أرض رملية تغيب القدم فيها ولكن جوها لطيف إلى أبعد غاية، والناس حولها ينعمون بتنسم النسيم العليل وبطيخ البرلس مشهور فى البلاد بجودته، وفيه نوعٌ يسمى البطيخ الماوى وهو ممتلئ فى جوفه بماء الورد، وثمة نوع آخر من هذا البطيخ إذا شرب المريض ملئ فنجان منه تم الشفاء له من مرضه، ومن يدمنون شرب الخمر يكرهونها وينصرفون عن شربها، ويشربون من مائه، ويخلطون ماء هذا البطيخ بملعقة من العسل ويشربونه شرابًا لذة للشاربين، ومن شرب قدحًا من هذا الماء صاح قائلا آه يا برلس، إنها خمر عجيبة وقد كتب داود الحكيم عن فوائد هذا البطيخ فى تذكرته، كما أن سمك البرلس وثمره المخلل مشهور بالجودة إنه على شاطئ الجزيرة، وفى الجانب الشرقى للقلعة وعلى بعد ثلاثمائة

قدم فى أرض ذات رمل ست آبار ماؤها عذب فرات، وأهل البرلس قاطبة يُحْضِرُونَ ماء هذه الآبار، وبالقرب من هذه الآبار ضريح الشيخ عيسى بن نجم بن إبراهيم الدسوقى، إلا أن هذا الضريح غاص وسط الرمال وهو يزار ويرفع الزوار الرمال عن هذا الضريح، ولكن لما آلت الولاية فى مصر إلى بولاد زاده أمر بنقل جثمانه جميع أهل رشيد ودمياط وسائر القرى والقصبات. وكانوا عدة آلاف كما جاء القاضى والأعيان والأشراف وتجمعوا وحملوا جثمانه وشاهد أولاده نقل جثمانه وسط ارتفاع الأصوات بـ «لا إله إلا الله»، وأطلق المريدون البخور مكبرين مهللين مما يذكر أن كفنه أبيض طاهر بعد مرور ستمائة وستة وثلاثون عامًا عليه فى القبر فأخذ العجب مأخذه من الناس أجمعين، وحمل تابوته إلى مرج مرتفع بالقرب من شاطئ البحيرة حيث دفنوه، والآن بنى له ضريح عظيم وجامع وتكية، وفضلاً عن ذلك فإن للناس فيه عقيدة راسخة فلا يخلو ضريحه ليل نهار من زوار، كما يقام له مولد فى شهر شعبان من كل عام ويحتشد فيه مائة ألف إنسان، ولله أحمد أن تيسرت لى زيارته، وقرأت سورة يس على روحه رحمة الله عليه، وقد نظمنا فيه شعرًا، بيد أن هذه الأشعار ضاعت بين أوراقى المتناثرة، ومن أجل زيارة القلعة تسلمنا من صاحبها مائتا قرش وجوادًا ومعنا أربعون من الرجال يحملون البنادق، وحملنا مأكولاتنا ومشروباتنا، ومضينا إلى ساحل الجانب الشرقى من بحيرة البرلس، واجتزنا بأرض ذات نخيل وقرى معمورة.

أوصاف قصبة بلطيم

محلة تتألف من بيت معمور فى أرض رملية، وهى التزام تتبع إقليم البرلس، ويسمون صاحب البلدة الحاج بلبل، وإنه رجل رفيع الشأن عامر القلب بالإيمان، وفى ناحية البرلس ثلاثة جوامع، وعلى ضفة البحيرة جامع كبير بناه السلطان منصور، ويقال إنه مدفون فى ركن من حرم هذا الجامع، ومساحة هذا الجامع مائة وخمسون خطوة وله منارة تحتانية، وهو مبنى على خمسين عمودًا، وبها عشرة دكاكين ومقهى، وليس فيها حمام ولا مدارس.

ضرائح قصبة بلطيم

فى جامع الشيخ أبى الفتح قبر دفن فيه هذا الشيخ، وفى ركن من أركان حرم هذا الجامع قبر الشيخ فتح بن عبد العزيز ابن الشيخ عيسى بن نجم، وقد سبق ذكر ذلك والشيخ عيسى وهو قطب عظيم له ما له من المناقب، إنه صاحب كشف وكرامات وطريقته وهى الطريقة البرهانية، وفى الجانب الشرقى لبلطيم وفى قبر صغير على ضفة البحيرة دفن الشيخ حسن الرفاعى، وقد ظهرت له الكرامات، وفى داخل المدينة على ربوة قبر الشيخ محمد العجمى وفى جانب البحيرة قبر الشيخ محمد البهلول، وبالقرب منه قبر الشيخ علام الله، وفى وسط المدينة قبر الشيخ أبو رواح الطويل قطب عظيم إلا أنه كان قصير القامة جداً، وهو مدفون فى قبر صغير بالقرب من الشيخ محمد الخشوعى وقبره يزوره الخواص والعوام وجميع أهل البلد يتناقلون ذكر مناقبه إنه كان قطبًا عظيمًا له منزلة السرى السقطى وإذا ما شرب المريض بذات الجنب ماء الورد بجانب قبره شفى هذا الشخص بإذن الله رحمة الله عليهم أجمعين، وتجولنا نشاهد ما فى هذه المدينة، وانعطفنا شرقًا وبلغنا شاطئ البحيرة فى ثلاث ساعات ورأينا غابة من نخيل بين البحيرة وبين البحر الأبيض المتوسط، واقتضت حكمة الله أن يكون لمصر تمر البرلس، والنخلة من هذه النخلات سامقة تحمل عشرين عثكولا وتؤتى عشرين أُقّة من التمر فهى محلة التمر بتمام المعنى.

واجتزنا حتى بلغنا شاطئ البحر الأبيض المتوسط، واتجهنا فى إقليم الغربية فواجهنا صحراء مترامية الأطراف أشبه شىء بمتاهة، وتسكنها فى الصيف قبيلة الحدية، أما فى الشتاء فتسكن هذه القبيلة فى تلك الأرض ذات النخيل إنهم قوم لانت عريكتهم وحسنت طباعهم ولو لم يكونوا على هذه الصفة لما استطاع أحد أن يمر فى أرضهم، ورأينا فى البحر سفينتين، تتبادلان قذف المدافع وإطلاق البنادق فأغارت سفينة الكفار على الشاطئ ونزلوا منها ودخلوا على القرية، ووصلت إليهم بخمسين فارس لمعونتهم وشددنا عليهم فتقهقروا وقد أمطرونا وابلاً من الرصاص، ولله الحمد أننا لم نصب بأذى فتنفس الصعداء كل من كانوا على شاطئ البحر، وأقاموا المتاريس، ولكن الكفار قذفوا

وأطلقوا علينا مدفعًا فرّقنا، وحاول الكفار أن يحرقوا السفينة إلا أنهم أخفقوا، ثم قدم من الصحراء سبعمائة أو ثمانمائة لنهب السفينة، فحملوا ما فى السفينة وانتشروا بما حملوا فى الجبال ودامت تلك الحال إلى وقت الغروب، وبعد المغرب أنار الكفار القناديل فى سفنهم، وأطلقوا المدافع حتى منتصف الليل، كما أطلقوا بنادقهم، وفى نصف الليل أحرق الكفار السفينة، فحزن كل من فى المحلة لذلك حزنًا شديدًا، وبعد ذلك تقهقرت صفوف المغيرين، أما الجرحى من المغيرين فقطعت رءوسهم ووضعت ناحية، وقد هلل المسلمون لذلك وكبروا، ولكن الكفار أطلقوا النار على المسلمين فما أصيب منهم أحد وبعد مطلع الفجر اشتدت الرياح، فبسط الكفار قلوع سفينتهم ونفخوا الأبواق، وعادوا أدراجهم بعد ما خسروا خسائر فادحة وخشينا وأحجمنا عن السير مخافة أن نتعرض لنهب العُربان فبحثنا عمن جاء لنا من دمياط بمدد ولو ثلاثمائة رجل وخمسة وسبعين قاربًا صغيرًا، ولم تصب هذه القوارب بأى ثقب ولله الحمد وقد سر الناس جميعًا بمقدم هذه القوارب، وعبروا عن ذلك بإطلاق المدافع، ومضوا إلى ميناء دمياط، ومضينا إلى دمياط فى حمى من الجند، وعبرنا نهر يمني وهذا النهر يجرى إلى المحلة الكبرى، إن نهر يمنى هذا نهر كبير مثل نهر النيل وهو يروى مئات المدن، وفى هذه المحلة مصب النيل فى البحر الأبيض وتسير السفن فيه إلى حيث يخترق النيل بالقرب من سمنوط ونصف النيل يخلط ببحيرة البرلس بين البرلس ودمياط، ثم يجرى فى الصحراء من هناك وبعد خمس ساعات وباتجاه دمياط بلدة تسمى:

السنانية

وهى تقع على شاطئ النيل، وبها ثلاثمائة بيت معمور وثلاثة جوامع ومقهى، وكان فيها قلعة على عهد الكفار، وآثار ميادينها ظاهرة، وهى من أوقاف سنان باشا، وفيها أقام دلاور بك قصرًا، وجميع أهل دمياط يصطافون فيها.

وركبنا سفينة، كما ركب الجند السفن وأطلقنا على أبراج الكفار بنادقنا وسُرِرنَا سرورًا لا مزيد عليه، وبلغنا الجمرك، ودخلنا دمياط، وكان اليوم عيد الأضحى، وحررنا المحاضر وكتبت رسالة إلى والى مصر إبراهيم باشا.

أوصاف ميناء دمياط القديمة

أكثر المؤرخين الذين وصفوا هذه المدينة، فى أصح الأقوال لهم، أنه بعد طوفان نوح بنى هذه المدينة أحد أبناء أشمون بن مصرايم وكان اسمه دمياط، ولذلك سميت هذه المدينة دمياط، ومعنى دمياط بالسريانية قوة وقدرة، أما فى التوراة فاسم دمياط أرلش، وأما فى الزبور فاسمها الدردميه والبيطه وفراغه، وفى الإنجيل اسمها الخضرة، وفى العربية كذلك الدردميه، وفى القبطية دمياط، وبعد الهجرة بثلاثين عامًا، وبينما كان عمرو بن العاص واليًا على مصر، كان الأسود بن مقداد قائد ثلاثين ألف جندى، فضرب الحصار على الملك هاموكى فى قلعة دمياط، ودامت الحرْب سبعة أشهر بتمامها، إلا أن العرب يئسُوا من فتح القلعة، وكان للملك هاموكى ابن يسمى شيطا رأى النبى ﷺ فى المنام، فهب من نومه فى التو، فنزل من القلعة فى جوف الليل، ومضى إلى الأسود بن مقداد وأعلن إسلامه، ودله على المواضع التى يمكن الدخول منها إلى القلعة، فمضى إليها معسكر الإسلام ففتحت لهم القلعة بأمر الله ـ تعالى ـ، ووضع الملك هاموكى فى الأسر، واعتنق الإسلام أيضًا ابنٌ آخر يسمى كوريجل، وغنم المسلمون كل ما فى القلعة من نفائس، وأصبحت على الدوام مدينة جميلة طاهرة، وأرسلوا من غنائمها إلى عمر بن الخطاب ثلاثمائة صندوق من المال، وبينما كان نور الدين الشهيد خليفة قدم الكفار الأسبان إلى دمياط بألف سفينة واستولوا عليها وسيطروا عليها سبعة أشهر ثم أرسل نور الدين الشهيد وزيره يوسف صلاح الدين على مائة ألف من الجند إلى دمياط وفتح القلعة وأعدم أسرى الكفار جميعًا، ثم عاد إلى دمشق مظفرًا يحمل ما يحمل من غنائم، وفى عام ٩٢١ استولى الفرنجة على دمياط، وكان الظاهر بيبرس خليفة على مصر ففتح القلعة، وأعمل القتل فى الفرنجة، ومن بعده فتحها السلطان سليم الأول، إنها مدينة عظيمة من أقاليم مصر تقع فى الجانب الشرقى من النيل، وهى الآن دار إسلام بيد إياس باشا ويعجز اللسان عن وصفها وهى سنجق لطيف فى إيالة مصر بمثابة الإقطاعية، ويقدم حاكمها إلى ديوان مصر عشرة أكياس فى العام، واثنى عشر كيسًا من الغرامات ورسوم نقل البضائع والأسواق، وفى مينائها

سفينتان حربيتان يسافر بهما رئيس القبطان باشا وقد ألحق هذا الإقليم مدة من الزمان بإقليم رشيد، وحينما يغادرها القبطان باشا مسافرًا يقوم مقامه فى حكمها مائة رجل، كما أن جمركها يحكمه حاكم من طرف الوالى وله أجر يومى قدره عشرة قروش، كما يأخذ من كل سفينة قادمة أو غادية قرش واحد ولكل سفينة عشرة قناطير من الحطب ويتحصل من جمركها فى العام مائتان أو مائتان وخمسون، لأن هذا النخل يتعرض للزيادة والنقصان من عام إلى عام، ولها حاكم شرعى يحصل على ثلاثمائة أقجه كراتب شهريًا، واتفق أن نال عشرين أو ثلاثين كيسًا، وقد قدمت خمسمائة أقجه صدقة فى عدة أحيان، ويحكم المدينة نائبان الأول النائب الخارجى والثانى منوط به قضاء فارسكور، وتحت حكم قاضى دمياط ست عشرة قرية لأن جوانبها الأربعة بحيرة، أما قضاء فرسكور فحواليها قرى، ويتحصل منها فى العام سبعة أكياس ولدمياط شيخ للإسلام على المذاهب الأربعة ونقيب للأشراف وقائد الانكشارية، وعزب وأربعة فرق من الشوربجية، وكثير من الأعيان والأشراف والعلماء والصلحاء والأئمة والخطباء والمشايخ والسادات والتجار، وهم كثرة، كما أن حفاظ القرآن لا يدخلون تحت حصر ولكن لا مكان لضرائح الجند بها. ويحرس هذه البقعة ثلاثمائة حارس فى كل ليلة إنها مدينة ذات مرفأ فيها الأمن وعلى شاطئ النيل فى الناحية القبلية هى جانب ريح الشمال إلى جامع المتبولى ألف ومائة خطوة وهو طول هذه المدينة وعرضها ثمانمائة خطوة، وفى بعض الجوانب ستمائة خطوة ولا وجود لسور محيط بالقلعة من جهاتها الأربعة، والحرس يحرسون فى كل ليلة وعلى شاطئ النيل قلعة صلاح الدين الأيوبى وفى طرفها رباط محاط بسور منخفض، ومحيطه مائة خطوة، وداخلها بيوت خربة وداخلها مخازن للغلال، ومفتاحها فى يد صاحب القلعة وفى هذه المدينة حدائق وبيوت جميلة سطحها من الجص ولكن البيوت فى رشيد أجمل منها وبيوت دمياط مبنية بأحجار مختلفة الألوان، وفيها إدارة شيخ البلد وأربعون محلة ومائة وخمسون محرابًا، وفى يوم الجمعة تتلى الخطبة، وفيها كذلك مساجد، وفيها جامع الفتحية وهو جامع كبير يستجاب فيه الدعاء، وهذا الجامع كان فى الأصل كنيسة فى قديم الزمان، وطوله تسعون خطوة

وعرضه أربعون خطوة، وفيه اثنان وتسعون عموداً، وستة منهم من حجر الصوماق وكأنها من العقيق اليمنى، ولا شبيه لهذه الأعمدة فى البحر كل عمود منها يساوى خزانة مصر، وعلى هذه الأعمدة سقف حديدى مزخرف، وفى أطراف حرمه أربعة وستون عموداً وهى من الرخام الذى يشبه البللور، وفى حرمه سبيل وصهريج ماؤه عذب فرات، وماء المطر يجتمع فيه وفى الحرم كذلك شجرة نبق وهى دوحة عظيمة وللجامع أربعة أبواب تطل على الحرم اثنان منها يفضيان إلى القبلة والآخران مفتوحان على الجهة الغربية، ومحرابه يقع فى ركن منه، لأن هذا الجامع كان فى الأصل ديراً لليونان ولذلك يسمونه جامع الفتحية محرابه قديم الطراز ومنبره من الخشب وعلى باب منبره تاريخ هو آية شريفة هى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [التوبة: ١٨]، أنشأ هذا الجامع الحاج شمس الدين بن محمد الطرابلسى المعروف فى شهر رجب الفرد سنة إحدى وسبعين وسبعمائة، وله منارة من ثلاث طبقات وهى منارة جميلة، وعلى باب قبلته تاريخ تعميره سنة ١٠٨٣، وقد عمَّره دَاوَرْ بك.

وأمام المحكمة فى وسط سوق مزدحم جامع البدرية، وطوله مائة وخمسون خطوة وعرضه خمس وخمسون خطوة، وله سقف يحمله خمسون عموداً من الرخام، وفى وسط حرمه نخلة سامقة، وهى تساوى منارته فى الطول ومنارته من ثلاث طبقات وهى مزخرفة جميلة، وهذا الجامع تحتانى وله أربعة أبواب بابان للقبلة وبابان جانبيان، وفى حرمه حوض ذو صنبور وعليه لوحة مكتوب فيها، وفى أطرافه صنابير كتب على باب منبره: ﴿نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ [الصف: ١٣].

وعلى شاطئ النيل بالقرب من سوق الغلال جامع البحر، وطوله وعرضه مائة وثمانون خطوة، ويعلوه على أربعة وثمانين عموداً سقف ملون مزخرف بألوان مختلفة، وله سبعة أبواب ومنارة من ثلاث طبقات.

وفى سوق الأرز جامع كبير بناه خواجه أمين الدين المعينى، وله قبة عالية ويصعد إليه بسلم حجرى من ثمان درجات، ولا يخلو من المصلين ليل نهار وكأنه جامع السلطان برقوق فى العادلية فى مصر، خالٍ من الأعمدة وعلى جوانبه الأربعة قباب

تشبه طاق كسرى ووسط الجامع مكشوف، مرصوف بالرخام وفي كل ركن من أركانه صفة عظيمة إنه جامع وسيع ومحرابه مزين بالأحجار الملونة، ومنبره أيضًا، وجوامع دمياط فيها من جوامع الأقطاب أكثر مما في رشيد، كما أن فيها كثير من الزوايا.

ومن هذه الزوايا زاوية الأربعين في السوق، كما يوجد مسجد يسمى مسجد القبانى، وقد بنى منذ فتح عمر لمصر، وفى الجانب الأيمن حول هذه الزاوية دفن أربعون من الصحابة وإلى جانب صناديقهم خشب منجور كتب عليه بخط جلى هذا التاريخ: (برسم العبد الفقير إلى الله تعالى القاضى شهاب الدين سنة عشرين وثمانمائة).

وفى هذه المدينة سبع مدارس وإحدى عشرة تكية وثلاثمائة سبيل ومن هذه السبل سبيل رضوان چورباجى، وهو فى الجمرك وقد بنى بالقيشانى، وكواته من النحاس الأصفر، ومشربته مقيدة بالسلاسل، ومشاربه مجلوة ومذهبة ولما كان صاحب هذا السبيل على قيد الحياة كان فى يوم عاشوراء يتصدق على أرواح شهداء كربلاء بالعسل فى ثلاثة أيام وبالسكر فى ثلاثة أيام أخرى، وقد أقيم على هذا السبيل مكتب للصبيان كأنه قصر عظيم وفيه ثلاثمائة صبى يتعلمون القراءة والكتابة، وفى كل سنة يتسلمون راتبًا، وعلى كواته تاريخ هو (حبذا هذا السبيل الذى ماءه كماء الحياة الذى أقامه إسماعيل رضوان سنة ١٠٨٦).

وفى داخل السبيل كتب تاريخ كذلك على القيشانى، وجاء فيه (بارك الله فى هذا السبيل فثمة ثمانون غيره).

كما يوجد أربعة حمامات وهى التى أقامها رضوان الشورباجى فى السوق، وثمة ثمانية عشر خانًا أولها خان مصطفى شورباجى وخان الحرمين، وخان مصطفى چلبى وخان الحويلية وخانان لـ (بيرى چورباجى)، خانان أيضًا للأرناؤط. وخان بن راجح، وخان عنبرى زاده وخانان لتكلى شورباجى، وخان ذو الفقار كتخدا القديم، وخان عباس وخان جعدى وخان بن فار المسمى صجان أوغلى، وخان طيناويه، وخان القفاصين، وخان القاضى، وعبد الرحمن باشا حينما كان متولى مصر بنى خانًا على ضفة النيل كأنه القلعة بإذن من كورجى ذو الفقار كتخدا، وقد جلبت جميع الأحجار

التى بنى منها هذا الخان من مصر ولا يوجـد فى دمياط بناء من حجر ما عدا هذا الخان والجامع الكبير، وله بابان وبه مائة حجرة، كما يوجد اثنان وثلاثون مقهى فيها، أما فى السوق فعدد المـقاهى ست وهو خان كبيـر وفى حرمه حوض ذو نافورة، وعلـى جانبيه مقاه فـيها عازفون ومـداحون وراقصون وفى هذه المـدينة مائتـان وستون شارعًا وكـلها شوارع واسعة نظيفـة، وفى أطرافها أسواق سلطانية، وبها ألفـان من الدكاكين، كما أن بها ثلاثمائة طاحونة تديرها الخيول، كما يـوجد بها طواحين للزيت، كما يوجد ستمائة مصنع، كـما أن فيها محـلة لليهود ومحـلة للقبط وسبـع محلات للكفـار، كما يروح الفرنجة والأرمن ويغدون ولا وجود فيها لسفراء الفرنجة كما أن بها سبع كنائس وأربعون حانة وستمائة بيت وبها مائـة وأربعون مضربًا للأرز لأن دمياط أرْض الأرز، أما الحبوب التى ترد من الصعيد غالية الثمن وبـها ثلاثة آلاف مخزن وبها ثلاثة آلاف صياد يصيدون السمك من دمياط ويصدر السمك المملـوح المكبوس والبطارخ من دمياط إلى بلاد الروم وإلى بلاد الفرنجة، لأن هذه المـدينة فيها أنواع كثيرة من الســمك، وفى إدارة شيخ هذه البلدة آلاف الموظفين وحمدًا لله فليس فيها بيوت للدعارة كما هو الشأن فى باب اللوق، كما أن النساء فى هـذه المدينة لا يخرجن إلى السوق وعندهـن أن الخروج للسوق عيب كبير، وفى اللـيل توضع المصابيح فى المنـازل، والشرطة فى النهار قليـلون وأكثر الناس فلاحـون، وهم كادحون قـادرون على الـكسب مقـتدرون، والأعيـان يلبســون الجوخ والحرير، والفـقراء ومتوسطو الحال منـهم يلبسون الثيـاب الملونة، والنساء يضـعن على رءوسهن قلانس من الذهـب الأحمر والفضة كما أن النساء يضعـن على وجوههن سود البراقع كـما ينتعلن نـعالا زرقًا وإذا ما خرجت امرأة إلى الـشارع نهارًا قتلت كـائنة مَنْ كانت، ولكن يؤذن لهن فى السعى فى جنازة موتاهن من ذوى قرباهن.

إن أهل هذه المدينة أهل ذوق، ويـقام حفل زفاف مرة فى كل ليلة فيـرتفع الضجيج وفى أطراف هذه المدينة الأربعة ستة وستون من البساتين وحدائق رضوان، ونَوْرُ الليمون والسفرجل كثيف بحيث أن أحدًا لو مر من بينها لتنسم شذاها، وفى كل حديقة حوض وشادروان وحقيقـة الأمر أن حدائق رضوان شورباجى وذو الـفقار كتخدا كأنهـا حديقة

إرم، وجو هذه المدينة لطيف للغاية كما أن فتياتها وفتيانها غاية فى الحسن، كما أن أهلها يحبون الغرباء ويكرمون وفادة الضيف، وأهلها يتاجرون فى السمك والأرز والسكر وغير ذلك، ويجرى إلى وسط المدينة خليج عظيم ينشعب من النيل وعلى جانبى المدينة قصور شامخة تطل على الخليج نوافذها، كما أن بعض أصحاب هذه القصور يقفون فى النوافذ ويصيدون السمك كما أنهم يتصدقون على الفقراء كما أن الصبيان فيها يترددون ويسبحون فى هذه الترعة، ويتعانقون فى دعابة، وفى هذا الجانب قصور جميلة شامخة متعددة الطبقات، وأثناء فيضان النيل تتدفق مياهه إلى بعض هذه القصور، وبعض المنازل فيها زوارق لمواجهة ذلك ويركبون فيها ليمضون بها إلى حيث يريدون، وترسو هذه الزوارق عند السّفينة.

وفى الشمال من هذه المدينة على ربوة مقبرة وبرج مربع وهو برج مرتفع وفى زمان الكفار كانت جزيرة قبرص تبدو منه وإن كانت مشاهدة قبرص تمس الحاجة فيها إلى نظر جد حديد والأرز من أطيب المأكولات فى دمياط، ويورد الأرز من دمياط إلى سلاطين آل عثمان، وأرز المنزلة وفرسكور لا وجود لمثله فى العالم كما تشتهر دمياط بالسمك والبطارخ وإلى جانب ذلك الجميز والخبز الأبيض والحرير الملون والموز.

وفى بوغاز دمياط قلعة تشبه قلعة رشيد..

أوصاف قلعة دمياط العتيقة

بناها السلطان سليم الأول حين فتح مصر، وقد فتحها الأسود بن المقداد حينما فتح عمرو بن العاص مصر، ولم يَبْقَ أثر لهذه القلعة، وهى الآن مبنى متين تقع عند التقاء النيل بالبحر الأبيض، ومحيطها خمسمائة خطوة، وعلى جوانبها الأربعة بروج، ولها باب يطل على الجنوب، وفيها جامع السلطان سليم، وفيها رئيس من المتفرقة، وطبقًا للقانون، وفيها مخزن للأسلحة ومدافع وأربعون قذيفة، وخارجها فى الجانب الأيمن مدفع، ولا وجود لمثله والله أعلم. وهذا المدفع يقذف قذيفة تزن أربعون أوقية، ولا خندق حول هذه القلعة لأن الأرض حولها منخفضة وهى قريبة من الشاطئ، وسورها

منهدم فى كثير من المواضع، وقد ركبنا قاربًا ومضينا إلى حيث يلتقى النيل بالبحر، وصليت ركعتين ورفعت إلى الله كف الدعاء، ويقول علماء دمياط إن هذا الموضع هو الذى ذكر فى القرآن بـ ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ (الرحمن ١٩)، هو الذى التقى فيه موسى - عليه السلام - بالخضر، ولكن ثمة جدال محتدم بين علماء رشيد فيما يتعلق بهذا الشأن، ولكن جاء فى تفسير السيوطى أن مرج البحرين المراد بالبحر فيه البحر الأسود، وبحر الخزر هو بحر كيلان، وبعضهم يقول أنه بحر الأبواب، وهو بحر ليس فيه مصب وهو ثلاثة أمثال البحر الأسود وهو بحر عظيم، ومرج البحرين المراد بهذين البحرين: هما البحر الأبيض الذى هو بحر الروم الذى يختلط بالنيل ولذلك يسمى بوغاز دمياط مرج البحرين، وبعضهم يذهب إلى أن بحرًا كبيرًا قد اختلط بنهر عظيم وهذا ما يسمى مرج البحرين، أما لقاء الخضر بموسى - عليه السلام - فكان على شاطئ النيل، وقد قدم الخضر فى سفينة، وفى هذا الشأن وقع الخلاف بين علماء دمياط ورشيد، أما قول علماء دمياط فهو القول الصحيح، وركبت بعد ذلك مع حاكم القلعة قاربًا وفى قبالة القلعة الشرقية القلعة الغربية.

أوصاف القلعة الغربية المقابلة للقلعة الشرقية

بناها فى عهد السلطان أحمد خان طواشى المتفرقة جعفر أغا حسبة لله، أما قلعة عبد الصمد فهى المشهورة إنها قلعة صغيرة، مستديرة، على شاطئ النيل، ومحيطها مائة خطوة وفيها برج متين، وقد ضمت إليها من بعد قلعة طابيه وهى أيضًا متينة الأركان وفيها خمسون مدفعًا، ولكن المدافع الكبيرة فى هذه القلعة، وهى تطل على البوغاز، ولها رئيسها وخمسون جنديًا وعملهم هو صيد السمك والحمام والسَّمَّان، وتقع فى أرض رملية ولها باب على الجهة القبلية، وفيها أربعون أو خمسون حجرة، وليس فيها متزوج وكل من فيها من العزب، وقد زرتها ووجدت أن عشرة من جنودها غير موجودين فسجلت أسماءهم وعرضتها على الباشا ومضيت إلى القلعة الشرقية من القلعة الغربية ودفعت أجرة انتقال عشرة قروش وركبت فى زورق إلى دمياط.

بيان الأولياء الذين عرفناهم فى زيارتنا فى مقبرة دمياط

عندما بعث الملك هاموك ابنه الشيخ لفتح قلعة دمياط وأسلم على يد الشيخ شطا والأسود بن مقداد، وبعد الفتح أمر الأسود بن مقداد الشيخ شطا بعشرة آلاف جندى وفتح قلعة شموم وقلعة البرلس وقلعة الدميره وفى العام نفسه حينما كان يفتح قلعة التينه أصيب بجرح وكلمة شطا شطا بمعنى قطعة قطعة ولذلك سمى الشيخ شطا، جاء فى رواية أن شطا موضع فيه رمل كثير كثير، وذلك لأنه دفن فى أرض ذات رمل وقد مات شهيد حرب، وصعدت روحه الشريفة إلى بارئها، وقد نقل جثمان الأسود بن مقداد إلى دمياط، ودفن فى ضريح على شاطئ بحيرة دمياط على مسيرة نصف ساعة من الجانب الشرقى إلى دمياط، ولأنه استشهد فى الخامس عشر من شهر شعبان يقيمون له مولدًا فى هذا اليوم، ويأتى الناس من دمياط والقرى والقصبات الأخرى أربعون أو خمسون ألف رجل ويقيمون فى الخيام ويمكثون ثلاثة أيام بلياليها يزورون ضريحه، ويأتى كذلك قائم مقام دمياط وأعيانها لزيارة هذا الضريح ويمكثون فى الخيمة ويمد سماط عظيم لمن ينعمون بأطايب الطعام ثلاثة أيام بلياليها، وينفق على ذلك من مال مصر، ويحاسب الوالى على تلك النفقات، وهذا قانون قديم، وضريح الشيخ شطا مربع الشكل وكأنه قلعة ومحيطه ثلاثمائة خطوة.

ويسكن فى هذا الضريح إمام ومؤذن وحارس القبور، وبجانب الضريح زاوية، وفى حرمه صهريج، وفى كل عام يحمل الماء من النيل على ظهور الجمال لملء هذا الصهريج بالماء وإذا ما فاض منه الماء أصيبت الجمال بالجرب وإنها لَحِكْمَةٌ عجيبة.

وجملة القول أن ثمة ضريحًا عظيمًا يزوره الناس خواصهم وعوامهم، وقد دفن فيه الشيخ أبو المداين والشيخ درغام وفى جامع الشيخ متبولى دفن الشيخ متبولى والشيخ سيدى فاتح أبو العطا، وبالقرب من جامع الفتحية ضريح ذى الجناحين، وبالقرب من البوغار ضريح بين الموجتين، وبالقرب من المنظر بين الفرضين، وفى حديقة فى شمال المدينة ضريح للشيخ جمال الدين المولوى وفيه سماع خانه من عدة غرف ومطبخ،

وأرضها كأنها الجنة إنها تكية للقلندرية وفيها المريدون، وجميع أهل دمياط يأتون إلى هذه التكية لينعموا بالأنس والبهجة، وفى ركن من أركان هذه الحديقة قبر لأحد صلحاء خُرَامان وهو مستجاب الدعوة وصاحب سجاده وله آلاف العشاق، وبالقرب منه الشيخ سيد فتح الأسمر، وبجواره الشيخ سيد أحمد ابن الشيخ عبد السلام، وهو مدفون فى ضريح عال وبالقرب من السيد فتح ضريح الميدان الأخضر، وبالقرب منه مقام الشهدا، وبالقرب من خرط القنطرة رائد طريق الناس الشيخ أبو العباس، وهو قطب عظيم، ومزار صاحب الأديان وهو دار ضيافة للغادين والرائحين، وفى داخل التكية وَيَسِمُونَ كل متعلقاته بالأسود وفى زاويته جمع كبير، ولا نِد للشيخ چلبى، إنه شيخ صالح عابد زاهد يلبس العمامة السوداء، وجميع المريدين فيها يلبسون السواد ويرفعون العلم العباسى الأسود، وبالقرب من الشريف عثمان الشربلزى والشيخ عباس والشيخ حسن الطويل وفى جامعه قبر الشيخ على العباسى وبالقرب منه الشيخ سيد محمد النعمانى وبجواره الشيخ كرمانى وبالقرب منه الشيخ على السقا وفى شمال جامع المتبولى على شاطئ النيل تكية فى حديقة كأنها حديقة إرم، وفى وسطها قبر دفن فيه الشيخ على منيبط، وهو قطب عظيم من زاره خمس مرات شفى من مرضه بإذن الله، وعلى شاطئ النيل حدائق كأنها الجنات فى داخلها قصور وأحواض، وأشجار يجلس الأصدقاء فى ظلالها، إنها موضع يزوره أهل دمياط ويتنزهون فيه وبالقرب من هذه الحديقة الشيخ عبد الرحمن زلطى، وبالقرب من مسجد الفتح الشيخ مناوى وبجواره سيد أحمد شناوى، وهو من أقطاب الطريقة البرهانية وبجواره ستى الوالدة التى استشهدت حين الفتح، وهى من النساء الصالحات، ويجتمع عندها حشد من النساء فى كل يوم سبت لزيارتها، وبالقرب منها الشيخة ست شامية، وبالقرب منها الشيخ سيد أصيل، وبالجوار منه سيد عبد الله الشريف، وفى سوق اللبن الشيخ خثعم، وفى سوق السمك الشيخ شانه، وبالقرب من حمام رضوان الچورباجى الشيخ الخيشى وفى حارة المنشى الشيخ عمرو أبو العباس، وبالقرب منه الشيخ العصفراتى والخيشى وبالقرب منه الشيخ أبو عصيبة وفى غيطان الشعراء سيدى محب الدين يقام له مولد عظيم كل عام.

وفى بلدة المنيا دفن الشيخ إبراهيم أكبر المنياوى، وقرية المنيا بها مائتا بيت وحدائق وبساتين ونخيل، وفى شهر رجب من كل عام يقام له مولد عظيم، وفيه يحتشد خلق كثير، والمريدون من جميع الطرق يقولون لا إله إلا الله ويقومون بالذكر فى الحدائق ولا يمنعهم أصحاب الحدائق من ذلك، وبالقرب من الشيخ إبراهيم الشيخ مظلوم، وعلى الطريق العام حديقة فيها تكية صغيرة بها قبر صغير دفن فيه الشيخ مظلوم، ويقام له مولد كذلك فى منتصف شهر رجب، وبالقرب من جامع المتبولى الشيخ مسلمى، وبالقرب من حارة البركة الشيخ أبو الطيب، وبجواره الشيخ على الحداد، وفى حارة سيد أبو الفتح الشيخ أبو يوسف، وجواره سيدى سعيد، وفى قرب القنطرة الشيخ أبو النصر، وعلى مقربة من المرقب السبع بنات وضريح الأربعين وفى السوق فى مسجد العتبانى، وفى حارة المرقب الشيخ سلطان وإلى جواره سيدى على لويفه وفى جوار المنشية قبر الشيخ أبو قريه وبالقرب منه الشيخ حمام وعلى مقربة من خان الشيخ رضوان الشيخ عبد الغنى وبالقرب منه الشيخ شرباصى، وبالقرب منه الشيخ مفتاح وهو مدفون فى ضريح عظيم يقام له مولد عظيم كل عام، وبالقرب منه الشيخ خطاب وبالقرب منه قبر الشيخ زندان وبالقرب منه قبر الشيخ شربازى، وبالقرب منه قبر الشيخ محمد العراقى وقبالة دمياط على شاطئ النيل سيدى الشيخ شديد، وبالقرب منه سيدى عثمان الصياد - رحمة الله عليهم أجمعين - نفعنا الله ببركاتهم، وثمة قبور صغيرة وكبيرة لغيرهم ذلك أن أهل دمياط محبون للأولياء ولا وجود فى رشيد لضرائح مثل ضرائحهم لأن هذه المدينة مدينة قديمة، أما رشيد فأنشأت حديثًا، وقد غرق أهل رشيد القديمة فى كوم أفراح ولله أحمد أنى زرت ضرائح مائة ولى من أولياء الله فى دمياط وقرأت لكل ولى سورة يس وسورة الفاتحة واستمددت من أرواحهم العون لى، ولكنى ذكرت هؤلاء الأقطاب فقط حتى لا يطول بى الكلام، أما إذا شئت أن أعدد مناقب كل منهم لاستوجب ذلك منى مجلدًا ضخمًا.

ثم أرسل لنا الباشا فرقة مِن مَنْ يحملون البنادق وعددهم خمسون، ومضينا مع عشرين ملاحًا نحمل طعامنا وشرابنا من دمياط، ووصلنا إلى حدائق الجانب الشرقى، وتجولنا بها فوق صهوات جيادنا نصف ساعة، ومضينا ثم انطلقنا إلى بحيرة تينة.

أوصاف قلعة تينة

مر بنا أن الشيخ شطا فتح قلعة تينة واستشهد فيها، إنها قرية مربعة الشكل فى كاشفية حاكم العريش. ومُحِيطُهَا خمسمائة خطوة. ولها باب تجاه القبلة، وبها أربعون بيت صغير، وجامع للسلطان سليم، وثلاثون مدفعًا ومخزن للذخيرة، ورئيسها من المتفرقة، كما أن بها مائة جندى، وليس لها حدائق على شاطئ البحر بل أرض رملية، ولا أمان فيها من اللصوص، اللهم عافنا، وقَلّ الماء والخبز اللذان كنا نحتاج إليهما للمضى إلى دمياط وبحيرة المنزلة بحيرة كبيرة يصل طرفها القبلى إلى العريش، وطرفها الغربى بدمياط والتزامها فى العام عشرة أحمال من الأقجة، وبها أسماك جميلة الألوان. وفى هذه الليلة نزلنا ضيوفًا على رئيس القلعة ورأينا جماعة من الناس نحلت أجسامهم يقتاتون بسمك بلا خبز، ودفعنا عشرة قروش لمشاهدة القلعة ومضينا إلى ضريح الشيخ شطا، وركبنا السفينة ووصلنا إلى نهاية البحيرة بعد ساعة، وأرسلنا من قبلنا واحدًا إلى دمياط فأحضر الخيل لنا فشاهدنا على الجانبين الحدائق المزهرة، ودخلنا دمياط، وأرسلنا إلى بيوتنا فى استانبول كثيرًا من الأرز والعدس والفول والحمص، وودعنا خليل شورباجى زاده ومحمد چلبى وأمثالهم. ونلنا من الباشا ثلاثمائة قرش وعشرين ثوبًا منقوشًا من ثياب دمياط ومائة منشفه، وحملنا طعامنا وأسلحتنا فى سفينة وتوكلنا على الله ومضينا إلى الكنانة.

* * *

الفصل الثامن والستون

وفى رحلتنا إلى مصر فى سفينتنا شاهدنا على ضفتى النيل الحدائق المبهجة وخرجنا أولاً من دمياط ومضينا مسافة قدرها ستون ميلاً ومقابل دمياط أرض خالية سبخة، ولا وجود فيها لعمران ولكن فى طرف دمياط حدائق من قصب السكر، وفى هذه الديار يسمونها القرى وبيوتها أكواخ ولا وجود فيها لبيوت فخمة، لأن فى أرضهم ينبت الأرز، وأرضهم أرض مستنقعات ولا تحتمل بناءًا ثقيلا، ولا تروى فيها أرض الأرز ولكن فيها القمح وليس فيها فول ولا حبوب لأنها أرض ذات ماء والأرز ينبت على الدوام فى الماء يا له من مشهد عجيب.

وفى هذه الأرض يفيض ماء النيل ولا ينقص وقد اجتزنا القرى التى فى أرض دمياط إلى فارسكور.

أوصاف منزل فرسكور فى مدينة فارس القديمة

إنه منزل بناه الملك فرسكور بن مصرايم، وقد عمر ألف سنة وملك مائة بلد، وكان له مائة ألف فارس جوادهم أبلق وألف فارس جوادهم أشهب، وهى إقليم التزام دمياط وقضاء يدر مائة وخمسون أقجه إلا أن هذا المبلغ يمنح غالبًا لقضاة دمياط وفى هذه الناحية قرى تزرع الأرز فيها كلها، وعلى ضفة النيل مدينة تبعد عنه مائتى خطوة وتقع على ربوة وبها ألف بيت وسبعة عشر محرابًا وست منارات وثلاثمائة دكان، وثلاث مقاه وحمام، ولكنها تخلو من السوق والعمارات والمبرات والسبل والمدارس، ولكن فيها ثلاثة خانات عظيمة، ويقام فيها سوق مرة كل أسبوع، ويتكسب أهلها من حياكة الثياب المنقوشة ولكل منهم طرز، وبها ثلاثمائة دكان تقدم المال إلى الملتزم إنها مقر لمن يصنعون الثياب المنقوشة وأرز وثياب فرسكور واسعة الشهرة.

وتينه التى زرناها تقع شرق البحيرة المذكورة، وجوها لطيف وبها كثير من النخل والحدائق، وبين دمياط والنيل مدينة جميلة وفى قبالتها:

كفر سليمان أغا

فى إقليم الغربية وبها جامع ذو منارة وثلاثمائة بيت وتجاهها فى إقليم الشرقية:

بلدة شرياز

وبها مائة بيت وجامع ومنارة وقرى معمورة، وفيها قبر دفن فيه الشيخ شرباز، وبهذه المحلة تتم حدود دمياط، وهى تحت حكم حاكم الشرقية وقبالتها فى أرض الغربية:

بلدة ميت ابو غالب

وبها جامع ذو منارة ومائة وخمسون بيتًا ومقهى، وعند هذه المحلة يتعرج النيل تارة ذات اليمين وتارة ذات اليسار وقبالتها فى أرض الشرقية:

بلدة راس الخليج

وهى التزام، وبها ثلاثمائة بيت، وبها جامعان، ووكالتان ومقهى وستة دكاكين، وقد دفن فيها الشيخ غزوان، والشيخ حسن أبو تقى الدين، والشيخ محمد عجمى وعلى بعد عشرين ميلاً جنوبها وفى إقليم الشرقية:

بلدة ميت ابو عبد الله

ويسمون القرية ميت وهى التزام وبها مائة بيت وجامع ذو منارة، وتجاهها فى أرض الغربية:

بلدة طهريه

وبها مائة وخمسون بيتًا وجامع وقبالتها فى أرض الشرقية:

بوشاط

وعدد بيوتها مائتان، وبها جامع ذو منارة. وفى المقابل منها فى أرض الغربية:

بلدة دِنْجِى

وبها جامع وفى جانب المنصورة بلدة أبادان.

اوصاف محلة مشاق

إنها التزام الكتخدا القونداقجى مصطفى وبها ستمائة بيت وجامع ومقهى ووكالة، وفيها أسواق صغيرة، ولا وجود فيها لحمام ولا سبيل، وتجاهها فى أرض الغربية:

مدينة المنصورة

وهى فى الجانب الشرقى، وقد عبرنا إليها، وتجاوزناها خمسين ميلاً وبلغنا مدينة سَرْسَه.

اوصاف محلة شربين

إنها محلـة كبيرة فى إقليم الـغربية وهى قضاء كبـير يدر مائة وخمسين أقـجه ويمنح قاضيها مرتبًا، وفيـها أربعون قرية معمورة، ويتحصل منها أربـعة أكياس وبها ألف بيت وسبعة وبها سـبعة محاريب كما أن بها جامـعًا كبيرًا له منارة تتألـف من ثلاثة طوابق، وبها كذلك خمسون مـسجدًا ومدرسة وخمسون دكانًا، وأربعة مقاه يـجتمع يوم الجمعة خلق كثير فى السوق وبجوارها:

كفر شربين

وبه مائة بيت وهو الـتزام، وتجاهه فى النيل جزيرة صغيرة وفى الجـهة المقابلة حدود كاشفية المـنصورة، وهى كاشفية معمـورة قضاءُها يسمى قضاء مشـاق، وقد سلف ذكر بلدة مـشاق، وتقع هـذه البلدة فـى سهل منحـرف فى شربين اجـتزنا هذه المحـلة إلى شربين، وقبالتها فى إقليم المنصورة:

بلدة بدرى

بها مائة بيت وجامع وهى التزام، وتجاهها فى إقليم الغربية:

بلدة بترا

وبها ثلاثمائة بيت وجامع ومقهى وهى التزام وبعدها وفى جنوبها فى إقليم المنصورة محلة برمبال.

اوصاف محلة برمبال

إنها التزام، وبها مائة بيت وقد سألنا شـيخ البلدة عن مقدار ما تؤدى من مال للدولة فما عرف، وبهـا عدة جوامع ومقاه ومساجـد وخانات ودكاكين، وإنها بلـدة فى مهب الريح ولا أعرف حمامًا بها، وفى تجاهها فى إقليم الغربية.

بلدة دياسط

وفيها دفن الشيخ دياسط، وتجاهها فى إقليم الغربية:

بلدة الخيارية

وقد وجدت بها ثلاثمائة بيت وجامع ذو منارة جميلة وفى جانب الغربية:

بلدة تاش

وبها ثلاثمائة وخمسون بيتًا وجامع ومقهى، وفى شرقها ولاية دقهل.

أوصاف ولاية دقهل

مدينة المنصورة أول من بناها أحد أبناء نوح أبو القبابط بيطر بن حام الأخ الأكبر لسام، وابن بيطر هذا يسمى دقهل، ولذلك تسمى ولاية إقليم المنصورة باسم دقهل، ومن بعد استطاب جوها من سلاطين مصر الصالح أيوب فزاد فى عمرانها فأصبحت كأنها روضة الجنات، ثم قدم إليها الأسبان الملاعين بسفنهم فاستولوا عليها وأقاموا بها ثم أغار عليها الملك الصالح أيوب انطلق نحو غزة، ثم رجع فاستعاد مدينة دمياط، أول الأمر، ثم استولى على مائتى سفينة للكفار، وعسكر فى المنصورة معسكراً للكفار، وطوال سبع ليالٍ لم ينجو الكفار من الهلاك وهذا مسطور فى جميع التواريخ، ولذلك سميت مدينة دقهل بالمنصورة، وفى عام ٩٣٢ غادر الملك الكامل ناصر الدين محمد بن أبى بكر بن أيوب مصر الكنانة واتخذ المنصورة حاضرة لملكه، وعمرها ولم يَبْقَ الآن شيء مما شيده، وفى هذا العصر أقام له قصراً على شاطئ النيل وبقى منه الآن قصر صغير أمام قصر كاشف المنصورة، وقد وافاه الأجل فى المنصورة، ونقل جثمانه إلى مصر ودفن فى جامعه، وبعد ذلك بعام شب حريق فى المنصورة وأتت النار عليها بأكملها حتى صار المعمور منها كذَرَّة فى الشمس أو قطرة فى البحر، والآن يعمرها الناس والمخلوقات.

الحمد لله وحده علم بما فى مدينة الصالح أيوب أى مدينة المنصورة من ولايات مصر المحروسة من المساجد والوكائل والمدرسة والحمامات والأسواق وضرائح الأولياء نفع الله تعالى المسلمين ببركاتهم فى الدنيا والآخرة آمين يا معين، ولهذا ذكرنا ووصفنا مدينة المنصورة، إنها كاشفية أخرى فى مصر لكن مع كونها حكومة كبيرة والعرب يغيرون عليها من وقت إلى آخر لذلك منحت لأمراء مصر، وليس فى قراها زعامة ولا تيمار ولكن فيها سبعمائة وسبع وثمانون من القرى والقصبات والمدن، وكلها التزام، وهذه القرى المذكورة تقدم فى العام ثلاثمائة كيس إلى السلطان إنها قضاء شريف.

وفى هذا الإقليم:

قضاء ميت غمر

قدم مائة وخمسين أقجه، وهى قضاء شريف، وقد ضم هذا القضاء إلى المنصورة، ومنها يتحصل حوالى عشرة أكياس، وحاكم المنصورة يقدم المال الأميرى، وهو ملتزم يقدم فى الصيف والشتاء أربعين كيسًا، ويفيض له عشرة أكياس، وقد يقدم عشرين كيسًا ولهذه البلدة أربعة يفتون على المذاهب الأربعة ولها نقيب أشراف وقائد للانكشارية وعزب، ولكن الجند كثير، وعلى شاطئ النيل حدائق كثيرة وورود وريحان ورياض وتسعمائة بيت جميل وقصور فخمة وهى مدينة جميلة، ومن ظهر عليها على بعد ميل أظهر إعجابه بها، وبها ثلاثمائة محراب وفيها جوامع للسلاطين والعظماء والأعيان وبين السوق السلطانية والمحكمة والجامع الكبير، وهو جامع السلطان الصالح، وطوله مائة وثمانون خطوة وكذلك عرضه، وله سقف منقوش مقام على ثمانين عمودًا من الرخام، ومنارته من ثلاثة طوابق وله قبة، وعلى بابه الأيمن كتب عليه (تعمير رجب شورباجى سنة ١٠٨١)، إنه جامع عتيق، وعلى شاطئ النيل جامع الصغير وجامع المحمودية وجامع آخر على شاطئ النيل أيضًا طوله وعرضه مائة خطوة وعشرة، وله بابان جانبيان وباب للقبلة ومنارة على الطرز الرومى وهى من طابق واحد، وداخل الجامع خمسة عشر عمودًا وليس له حرم، أما على شاطئ النيل فله موضع فى جوانبه الأربعة صفف وهو موضع يستحق المشاهدة، ويجتمع الناس تحت ما به من أشجار الجميز والصفصاف وبعضهم يصيد السمك من إحدى مواضعه، وبعضهم يتوضأ وبعضهم يصلى، وبه دار شفا ومقهى يشرب فيها القهوة اليمنية، إنه مكان للراحة والمتعة وبعد الأذان والصلاة يثنون ويترحمون على محمود بانى هذا الجامع.

وعلى شاطئ النيل في الطريق العام جامع يقال عنه «كاشف النيل»، وهو مرتفع أبيض وهو وقف متين وكان غاية فى العمران فى حياة صاحب الدويرات، وفى السوق جامع رضوانية، وجامع الحيدرية وجامع أمير على الفرحانى وجامع ريحانية وجامع الخطاى وجامع السادة الكنانية يقع على شاطئ النيل، بل فى جنوب المدينة وعلى شاطئ النيل والطريق العام جامع إدريس وجامع ابن قانصو، وجامع جعفر أغا كان فى الأصل

زاوية ثم أعيد بناءها لتكـون جامعًا. وفى نهاية الناحية الشرقية للمـدينة جامع مصطفى أغا الجديد، وهذه الجوامع سالفة الذكر عامرة بالمصلين، ولا نعرف جوامع أخرى.

الزوايـا

أما الزوايا فمنها زاوية الشيخ الملبـاوى وزاوية منية الدولة وزاوية الأمير حسن وزاوية ابن جعفر، وزاوية الغـرابى، وفى السوق زاوية المعلقى وزاوية ابن يـاسين وزاوية الشيخ ابن عامر وزاوية مقدم فرهاد والزاوية الحمرا، وقد صلـينا فى تلك المساجد التى سبق لنا ذكرها، ولا نعـرف غيرها وعلى شاطـئ النيل ست مدارس وسبـعون مكتبًا للـصبيان، وأربعون سبيلاً وحَمَّـامان ولا يوجد سواهما، كما يوجد ثمـانى عشرة وكالة أولاً خان أمير دلاور وخان الأمـير مصطفى وخـان المحمودية وخان الكـنانية وخان الأمـير أحمد وخان عورت وخان مالكى وخان ابن ياسين وخان الشـيخ عبد الوهاب وخان مسلمانى وخان القاضـى أحمد وخان النيـل وخان القفاصين وخـان خشب وخان حطيـبة وهذه الخانـات وكالات معمـورة، ولا وجود لمبـانٍ أخرى واثنـان وأربعون ربْعًـا فيهـا غرف للمريدين المتزوجين، وثمة أربعون أو خمســون خانًا يسمى كُلّ واحدٍ منها الربع، وسبع معاصر أى طواحين زيت، وخـمسة وسبعون طاحونة تديرها الجياد، وفـيها من المقاهى أربعون مقـهى ومائة وخمسون دكانًـا ولكن ليس فيهـا سوق قائمة بذاتها، ولـكن لكل شىء، ويقام سوق عظيمة مرة فى كل أسبوع يحتشد فيها أربعون ألف أو خمسون ألف إنسان، إنهـا سوق القمح وسوق الـسمك، وسوق الخيل وسـوق الغنم وسوق الفـاكهة وسوق الثـيران، وهـذه الأسـواق تـوجـد فـى أمـاكن أخرى وعورت بازارى تقـع على شاطئ الـنيل إنهـا سـوق عجيـبة، وطـرق هــذه الأسواق غير نظـيفة أما بقـية طرق الأسواق فطـرق واسعة نظيفـة، وتظلل جمـيع الأسواق نخلات، فـيتألف منهـا سقف عليها، وبذلك تكون الأسواق طيبة الهواء عند اشتداد الحر وطول هذه المدينة على النيل ألف ومائة خطـوة، ولجـمالـهـا وجـمال جوها يتـميز فتيانها وفتياتهـا بالجمال، وأهلها يكرمـون وفـادة الغـربـاء، وفيهـا عظـمـاء الأعيان، فـهم يبذلون الـقرى للمـجاورين والمسافـرين فأمـام بــاب دلاور الكاشــف يطعـم الفـقـراء لـيــل نهار، كمـا أن قوجه

مصطفى أغا يكرم المسافرين والمساكين، وفى المدينة ما لا يدخل تحت حصر من العلماء والمريدين والصالحين.

بيان بزيارتنا لكبار الأولياء

هذه ضرائح الصالحين الشيخ شرف الدين أقصرى والشيخ الطميهى مدفونان فى زاوية الشيخ ريحان كما دفن الشيخ سيدى علي الأسمر فى الجامع الكبير، وثمة شيخ آخر سألت عنه فما وجدت جوابًا، وخارج المدينة فى جنوبها قبر عظيم للشيخ كنانية، وقد دفن أربعون من الأولياء فى مكان واحد، كانوا قديمًا من اللصوص ولكن الله هداهم وأصبحوا جميعًا أولياء وعلى رأسهم قطب الأقطاب شيخ الطريقة الكنانية، ويقام له مولد مرة فى كل عام، ويجتمع فى مولده حوالى أربعون ألف إنسان، وفى خيامهم يقام عشرة أيام وعشر ليال، وقد أغار لصوص العرب على ميدان ملقه أثناء انعقاد مولده، وقد نهبوا السوق واستشهد كثير من الناس، وفي التو والحال ظهر فى المدينة أربعون على رءوسهم العمامات الخضر يركبون الخيول الشهب ويحملون الرماح، فقتلوا هؤلاء اللصوص عن آخرهم، ثم غابوا عن العيون.

هذه مناقب قريبة العهد لم يَمْضِ عليها سوى سبعين سنة، ومنذ هذا الزمان لم يحضر أحد المولد، هذا ما مر بسمعي هذا ما أمر (طورنا مصطفى بك) كاشف المنصورة واجتمع فى المنصورة حشد كبير من الناس، وقد حضرت معهم ولله الحمد وقد دفن الشيخ عبد الجليل الملباوى فى ضريح عظيم، وبالقرب من ضريح الشيخ الملباوى ضريح الشيخ ربيبه والشيخ الخوّاص وإلى جانب المحكمة السيدة آسيه والشيخ عريان والشيخ كليباني، ومداح رسول الله الشيخ سيدي محمد كميلى والشيخ منية الدولة وقد دفنا بجوار جامع إدريس كما دفن الشيخ طاهر والشيخ نصار والشيخ سند فى الجهة القبلية من المدينة بالقرب من جامع الأمير مصطفى، والشيخ سعد والشيخ حسن دفنا فى جامع الخطائى ودفن بجوار قبر الشيخ بهلول الشيخ الموالى كيرلى محمود أفندى، وهو من علماء الروم المشاهير فهؤلاء العلماء منهم من دفن فى ضريح ومنهم من دفن فى تكية، وقد زرت ضرائحهم ومررت وجهى الأسود على ضرائحهم رحمة الله عليهم أجمعين،

وقد تجولت فى هـذه المدينة وشاهدت كل ما فيـها وعقدت نيتى أن أزور مديـنة المنزلة، فركبت سفينة وانطلقنا إلى المنزلة.

وصف ما مررنا به من منازل فى طريقنا إلى المنزلة

رأينا تـرعة عظيمة فـى جنوب مدينة المـنصورة وبالقـرب من جامع مصطـفى أغا، ومضينا بالـسفينة فى ترعة صلاح الدين، وعـلى جانبيها ست وسبعـون قرية معمورة. ورأينا عزبة نزلنا عليها ضيوفًا.

أوصاف مدينة المنزلة القديمة

نزلنا فى دار الملتزم وتجولنا فيها لمشاهدتها، ويتفرع من هذه الترعة خليج على جانبيه بيوت معـمورة، على جانبى الـترعة حدائق وبساتـين، وعَبرها جسر من الخـشب على الترعة وعلى ضفّتيـها بساتين، وكل حديقة مساحتها عشرة أو خـمسة عشر فدانًا، وفى كل منهـا يطيب الليمـون والتمر والرمان والتـين، ولكن لا وجود فيها لـلقمح، والأرز الذى فى المنزلة لا نظير له فى العالم بأسره، إنه أبيض ولذيذ، والبحيرة على مسيرة ربع ساعة من شمال المديـنة، والترعة التى تروى هذه المدينة تصب فـى هذه البحيرة، وهى التزام تابع لـلمنصورة، ويحكمـها أى من قبل كاشف المـنصورة حينًا والباشا أغـا حينًا ويقدم الباشـا فى كل عام كشوفية قدرهـا ست أكياس، وهى قضاء يدر مـائة وخمسين أقچه ولقاضيها فـى كل عام خمسة أكياس، وفى ناحية منهـا قرى للأرز، ويحصل من جميع القرى ست وخمسون كيسًا، كما أن الصيادين يصيدون كل عام سبعة أحمال من السمك وبها ألف بيـت وعشرة محلات وسبعون محرابًا، وفيها ثـمان خطب وفيما عدا ذلك مساجد، والجامع الكبير فيها يكثـر فيه المصلون، وكان معبدًا قديمًا، وقد أنشأ هذا الجامع وزير صلاح الدين يوسف، وهو القعقاع الـتميمى، عندما فتح هذه المدينة، ولا تعرف جوامع أخرى بهذه المـدينة، وزاوية الشيخ إبراهيم السلمونـــى زاوية معمورة وفى هذه المـدينة ثلاث مـنارات، ومدرسة وسـتة مكاتـب للصـبيان وسبـعة سبل وخـمس وكالات، ومائة دكان منها ثـمانون مفتوحة وبقيتها موصدة، ولا سوق فيـها وبها ثمانية مقاه، وسوق للعطارين فيها جميل، وتقام سوق كل سبعة أيام وهى سوق الخيل والغنم

والجمال، ولا وجود لسوق سواها لأنها ليست مدينة عظيمة، وأهلها فقراء إنهم يأكلون السمك ويتكسبون بصيده، وفيها سمك عجيب، وفى الشتاء تأتى الوحوش والطيور إلى الحدائق فيتصيدها أهل هذه المدينة، وتشتهر المدينة بالقمصان البيض، وأهلها مشهورون بالجمال.

ضرائح المنزلة

دفن الشيخ محمد العقابى فى زاويته، ودفن إبراهيم السلمونى فى زاويته وبالقرب من القرافة الكبرى قبر الشيخ طاهر، وبالقرب منه دفن القعقاع الوزير، وبالقرب من قبر الوزير القعقاع التميمى دفنت الست صالحة رحمة الله عليهم أجمعين ولها مناقب كثيرة كأنها رابعة العدوية، والشيخ شهاب الدين الأنصارى من الصحابة الكرام، وهو مدفون بالقرب من زاوية الخياطين، وقبر الشيخ محمد الشامى بالقرب من سوق العطارين رحمة الله عليهم أجمعين، وما أكثر مناقب الأولياء، ولكننا نزلنا ضيوفًا فى هذه المدينة مدة يوم وليلة.

ثم بعد ذلك ركبنا السفينة، وعدنا إلى الترعة التى جئنا فيها وقد بذل الملاحون الجهد الجهيد فبلغنا مدينة المنصورة، ثم ودعنا الأعيان فى تلك المدينة، وركبنا السفينة وقبالة هذه المدينة:

مدينة طلخا

وبها ثلاثمائة بيت وعلى ضفة النيل جامع ذو منارة، وفيها شيخ انهدمت مقبرته عند فيضان النيل فوضعوه فى تابوت على مرأى من الناس، ومضينا إلى:

بلدة الشيخ رمضان

وبها مائة بيت وهى بلدة صغيرة وناحية المنصورة:

بلدة ميت خميس

وبها مائة بيت وجامع، وتجاهها على حدود إقليم الغربية:

بلدة ميت الفرقا

وبها مائتا بيت وجامع، وفى إقليم المنصورة:

بلدة ميت ويش

وبها ثلاثمائة بيت وجامع، وفى إقليم الغربية:

بلدة ميت عساس

وإلى جانب إقليم المنصورة:

بلدة نَوه سَى

وكذلك فى حدود المنصورة:

بلدة ميت ثعبانيه

وفى جنوبها:

ميت المنية

وتجاهها فى إقليم الغربية:

مدينة لوط.

أوصاف مدينة لوط

إنها مدينة معمورة، وهى مرفأ لسمنوط، وهى على شاطئ النيل وتحوى ثلاثمائة بيت وهى قصبة جميلة والتزام، وكانت فى قديم الزمان مدينة قديمة وفيها آثار لقوم جالوط، وهى قضاء يدر مائة وخمسين أقجه، ولقاضيها مرتب يقدم صدقة، وهو نائب الحاكم، وهذه المدينة تُدِرُّ فى كل عام خمسة أكياس، وقرى نواحيها تحوى اثنين وأربعين بيتًا وفيها ستة محاريب وثلاث خطب وفى مرفأها جامع علوى به أربعة عشر عمودًا عليها سقف، وله ثلاثة أبواب ومنارة منهدمة، وخان وحمام وستة مقاهٍ وخمسون دكانًا وسبعة سبل واثنا عشر مكتبًا للصبيان وعلى ضفة النيل محكمة.

وصف ضرائحها

الشيخ إسماعيل العَدْوِى وسيدى عبد الله الخلف وهما مدفونان فى مسجد الغدوى، ثم امتطينا خيولنا فبلغنا ضريح:

بلدة أبو على

وهى التزام الأمير مُصَـلِّى أغا، وفيها نخيل وحدائق وثلاثمائـة بيت وقرى معمورة، تجاوزناها فبلغنا:

بلدة قيطاس أغا

وبها مائتا بـيت وجامع إنها قرية عامرة ولـكن يسكنها قبيلـة بنى حرام وهم أشرار. وتجاوزناها إلى الـشمال واجتزنا بقرى لا نعرف لـها اسمًا، كما عبرنا مـرورًا ببلاد على شاطئ الترعة، وفى هذه البلاد كثير من البساتين، وعلى مسيرة ساعة من سمنوط:

محلة الكبير

وهى العاصمة الـثانية لإقليم الغربية، وهى مـدينة عظيمة، واسمها باللـسان القبطى زيحان لوقوعـها فى إقليم الغربـية الذى يقع غرب إقليـم الشرقية سماها الـروم الغربية ومحلة الكبير جزيرة تقع فى النيل بين إقليم الشرقية والبحيرة، وهى كنانة الله ابتداء من مصر، ثم المحلة، ثم رشيد، ثم دمياط، ثم منية ومنفلوط وهذه مدن كثيرة، ولكن هذه المحلة ليست معمورة فى يومنا هذا، ولكن فى سبعين موضع من أرضها طلاسم، وعلى حد قول المقريزى إنها من بناء مصرايم بعد طـوفان نوح وبناء على علم النجوم استطاب هذه المدينة مصرايم لطيب هوائها، وهذا ما حفزه على إنشائها، ولقد استولى عليها كثير من الملوك عـلى مر العصور، وبـينما كان الظـاهر بيبرس كاشـفًا لهذه المدينـة استطاب جوها، وفى زمـان ملكه جعل من هـذه المدينة الحاضرة الثانـية لملكه، وكان يسـكنها، وتجرى إلى الآن ترعـة إلى وسطها، وبالـقرب من قصر الكـاشف عليها ثـلاث قناطر، وعند العشاء تعزف فرقة موسيقية عند هذه القناطر وذلك طبق القانون السلطانى للظاهر بيبرس، وينال أفراد هذه الفرقة الموسيقية رواتبهم من الكاشف، إن هذه الفرقة الموسيقية تعزف على الدوام لأن هذه المدينة هى حاضرة البلاد الثانية.

وأمراء مصر الـذين فى درجة ميرمـيران وأتباعهم ألف وسـبع فرق من المستـحفظين وعليهم فى التزامهم أن يقدّموا مائتى كيس، وديوان مصر يختم بها حسابه، كما يُحَصِّلُ مائتين وخمسين كيسًا بعد المصاريـف، وحاكمها صاحب منصب عالٍ وهو يرأس الأمراء

ما عدا أمير الحج والدفتر دار، ويتقدم فى سيره الأمراء والكاشفين لأنه حاكم العاصمة الثانية للبلاد، ويصبحُ بعد ذلك أميرَ الحجٌ.

وفى إقليم الغربية ثلاثمائة وسبعون قرية معمورة وبها قاضٍ شرعى، ولا منصب فى مصر أعلى من منصبه، وقد تصدق مراراً بمبلغ خمسمائة أقجه على رجال الدين، وطبق القانون يجب أن يتصدق بأربعمائة وتسعة وتسعون أقجه، وثمة محكمة فى كل من سمنوط، وشربين وهذه المحاكم داخل هذه المدن وخارجها، إنها مدينة كبيرة، وفيها شيخ الإسلام على المذاهب الأربعة ونقيب الأشراف والأعيان والانكشارية والعزب والسردار والچاوش، وليس فيها قبو قولو سردار ولا سباه كتخدا، ولا آلاى بيكى ولا جرى باشى ولا أصحاب زعامت، إن كل قراها تدر المال السلطانى، إنها مدينة معمورة تجرى من تحتها الأنهار، وهى فى منزلتها بعد مصر، وبها قصور عالية كثيرة الطوابق، وبها بيوت كبيرة وصغيرة قديمة الطراز مُجَصَّصَة، وعلى ضفة الخليج قصور كبار الأعيان تطل نوافذها على الخليج.

وفيها بساتين وفيها سبعون محلة، ومائة وأربعون محرابًا، سبعون منها تؤدى صلاة الجمعة فيها، وبها جوامع للسلاطين والأولياء، وبالقرب من مالك بك جامع بالى بك، وهو جامع على ضفة النيل، أربعة أعمدة له في النيل، وقد بنى على هذه الأعمدة، وهو جامع علوى ويصعد إليه بسلم من اثنتي عشرة درجة، وله ثلاثة أبواب أحدها فى جدار القبلة، وهو يطل على الطريق المواجه لقصر البك، وله باب ينفتح على حوض وليس فى داخل الجامع أعمدة، وجوانب السقف مزخرفة ومذهبة، وهذا الجامع العلوى، تحته ستة دكاكين وله منارة تتألف من ثلاثة طوابق، وقد كتب على باب منبره بالخط الجلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ.....﴾ [الاحزاب: ٥٦].

وبعده على ضفة النيل جامع (الصفا) وهو غاية فى الحسن ومنظره الجميل غاية فى الروعة، وعلى ضفة النيل كذلك تجاه قصر البك جامع خواجه عطار وله سقف منقوش بشتى الألوان ويقوم على ثلاثة وثلاثين عمودًا، ومحرابه من الرخام، ومنبره من الخشب المنقوش، وله ثلاثة أبواب أحدها للقبلة وهو يطل على السوق وله بابان جانبيان يفضيان

إلى السوق وفى جانبه الأيسر منارة من ثلاثة طوابق وفى أعلاه تعتش الطيور وتفرخ بها، وفى السوق بناء جديد هو جامع مراد الشورباجى وسقفه على ثمانية أعمدة من الرخام، وقد دفن فى هذا الجامع من أولاد الصحابة مثل عبد الله بن الزبير، ولهذا الغرض بنى الجامع، ويعتقد أن من يزوره يحقق مراده، وجامع الصمصات مقام على عشرة أعمدة وله منبر صغير من الرخام، ولا وجود لمثله فى البلاد وله منارة عالية طولها مائة وسبع عشرة خطوة، وكل خطوة تعادل ذراعًا، والصعود إليها عسير، وقد صعدت هذه المنارة وأشرفت ببصرى على المدينة فرأيت مدينة إرم ذات العماد، وقد بدت فيها أربعون منارة، وفى سوق العطارين الجامع الكبير، وقد بناه الشيخ أبو بكر طرنجى ووسعه من بعد الملك الظاهر، وبذلك صار جامعًا كبيرًا وطوله وعرضه مائة خطوة، ومنبر هذا الجامع ومحرابه من الطرز القديم، وفى حرمه الكبير قبة وسبيل، وفى داخل الجامع وخارجه مائة عمود رخامى عليها سقف منقوش، وفى الركن الأيسر لحرمه منارتان كأنهما برجان، وعلى باب منبره الخشبى كتب بالخط الكوفى (لا إله إلا الله محمد رسول الله) ومقعد المؤذن على ستة قوائم رقيقة من الرخام، وهو من الخشب يشبه المقصورة.

ولا وجود لجامع أكبر من هذا الجامع فى هذه البلدة ويقام مولد فى كل عام بها يجتمع فيه مائة ألف إنسان، ومساحة الجامع طولا وعرضًا مائة وثمانية وخمسون خطوة، وله سقف على ثلاث وثمانين عمودًا وصحن الجامع غير مسقوف، والشيخ عبد الله مدفون فى ذلك الصحن الواسع، وبما أنه مدفون داخل الجامع فليس ضريحًا، ولكنه فى تابوت وفى هذا المكان شجرة نبق وقد ورفت ظلالها على حرم الجامع وخارجه، وهى تثمر أربع مرات فى العام الواحد منه فى حجم العين، وفى المدينة كذلك جامع الوزير يجتمع فيه جمع غفير من المصلين، وكذلك جامع ابن عباس الغمرى، وطوله وعرضه مائة وخمسون خطوة، ومنبره من خشب، وعلى يسرة محرابه كتابة، ويقول البعض إن هذه الكتابة من الزّبور وتحتها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ ....﴾ [التوبة: ١٨]، وسقفه ذو ألوان يقوم على سبعة وثلاثين عمودًا وله ثلاثة أبواب، ومنارة

من ثلاث طوابق، صحنه بلا سقف، وفى الجانـب الأيسر من جدار محرابه دفن الشيخ عباس غمرى، وجامع (تَعَـبُّرْهَا) جامع صغير، وجامع الشيخ إبراهيـم سقفه مقام على سبعة أعمدة، وهو جامـع صغير مكشوف الصحن، وقد دفن فى حرمـه الشيخ إبراهيم وعلى مقربـة من هذا الجامع جامع الشيخ ديـار وهو جامع صغير منارته قـصيرة، وثمة جوامع كثيرة خلاف مـا ذكرنا. ولقد رأينا كثيراً من الجوامع الجمـيلة، كما أن الزوايا لا تقع تحـت حصر وفى هذا البـلد تسع مدارس وسـبعة دور من دور الحديث، وسـبعون تكية، لأن جميع أصحاب الطرق الصوفية فى هذه البلدة، وجميع أهل هذا الإقْليم من أهل السنة، ومن التكايا تكية الشيخ عبد الرحمن المالكى، وتكية عبد الله درغام وإحدى عشرة تكية من تـكايا السيد البدوى، والتكية الـبرهانية، وتكية صفافى، وتكـية كميلى وهى تكايا معـمورة، ومنها تكايا توزع فيهـا الصدقات ويبذل أصحابها فـيها الصدقات وهم على قـيد الحياة، وفيهـا مائة وعشرون مكـتبًا للصبـيان، وتوزع ثياب العـيد على اليتامى، وبها مائـتا سبيل، وبعض هذه المكاتب تقع فوق هـذه السبل، وهذا هو قانون مصر. وبـها خمسـة حمامات، وبـها صهاريج، ويـوجد حمام لـلنصارى، لا يـدخله المسلمون قط، وحمام بالى بك حمام لطيـف، كما أن سبعة حمامات موصدة أما حمام الوفا فضريح، وبناؤه جميل وجوه معتدل، وحمامات القصور يزيد عددها على الألف، ويخرج المريـدون مع الفجر إلى الخليـج يستحمون فيـه، وفيها سبعون خانًـا، فى سبع عشرة منها يباع القمح والشعير والفول، وفـى هذه البلدة تباع جميع الغلال، وبها ألفان وثلاثمائة وخـمسة وأربعون دكانًا، وجميـع أسواقها مغطاة، وكل الـسلع موجودة فى هذه البلدة. وبها ثمانية وأربعون مقهى وهذه المـقاهى مفتوحة ليلا ونهارًا وفيها المطربون والمداحون وفيها يجلس أهل العلم ليل نهار.

وفى هذه البـلدة مائتا طاحونـة زيت وثلاثمائة وثمانـون طاحونة تديرها الخـيل وبها عشرة مخـابز وكل بيت فى البـلدة مخبز معين لـها. ولا حاجة بأهل هذه الـبيوت إلى الأسواق، ولكـن للغرباء والمسـافرين عشرة مـخابز وشوارع الـسوق السلطانيـة واسعة

نظيفة، لأن النيل يجرى فى وسط هذه البلدة ومعظم قصورها وبيوتها الجميلة على ضفة الخليج، وأعيان الإقليم يلقى بعضهم على بعض السلام من قصورهم ويصيدون السمك من الكوات، ويسبح الفتيان فى النيل، وكل بيوت هذه البلدة مبنية بالحجر، ولها جدران وأبوابها ذات مصراعين، وسطوحها مجصصة وليس فى المدينة أحجار بناء وإذا مست الحاجة إليها فى هذه البلدة حملتها إليهم من مصر السفن عند وقت فيضان النيل، لأن النيل فى فيضانه يغمر أقاليم مصر كلها وتصبح أراضى مصر فى ماء الفيضان جزراً، وثمة فرقة موسيقية تعزف فى دكان على الجسر، ونوافذ هذه الدكاكين تطل على النيل، ففى مصر ثلثمائة جسر بالقرب من سوق الغلال، وثمة دكاكين أخرى تطل نوافذها على الترعة وفى هذه المحلة مرفأ تأتى إليه السفن والقوارب بالغلال وثمة جسر فى جنوب البلدة على ترعة الصابونية يسمى جسر جعفر أغا إنه جسر عظيم من الحجر، وفى وسط صراطه كتب على لوحة مزبعة من الرخام:

تأمل ترى ما شاده الندن جعفر ∴ هو القاسمى مات إلى الخير يقصد

لقنطرة فيها يقول مؤرخ ∴ ثناء له فخر وعز يؤيد

سنة ١٠٧٣.

ولاعتدال جو هذه البلدة اشتهرت نساؤها بروعة جمالهن. كما أن الجند يلبسون فيها ثيابًا فاخرة. ويضع نساءها على رءوسهن قلانص من ذهب وفضة. كما يلبسن الحرير ويَسِرْنَ. وتشتهر هذه المدينة بالخبز الأبيض والطحينة والجبن أما صنعهم للسجاجيد الحريرية لا نظير لها فى العالم. إلا ما يصنع فى أصفهان كما يصنع المناشف وأنواع من الأقمشة الحريرية وفى هذه البلدة محلة لليهود ومحلتان للأقباط وبها ألف بيت وسبع كنائس. وفى سجل شيخ البلد أن تعداد أهل هذه البلدة سبعة آلاف وهى تصدر القطن وهو من أهم حاصلاتها. إن ذكر ما لا قيمة له مَمْلُولٌ. ولذلك اكتفينا بما ذكرنا. فخير الكلام ما قل ودل.

أوصاف ضرائح المحلة الكبرى

وقد ذكرنا من قبل كبار الأولياء الذين دفنوا فى الجوامع وعند باب المحلة عند نهاية الطرف الغربى للمحلة دفن الشيخ عبد المجيد الشامولى وضريحه تطل نوافذة على الطريق العام، وقد كتب على عتبة بالخط الجلى: (أنشأه السيد بن الحسين سيدى عبد الوهاب وسيدى عبد المؤمن أخيه سيد عبد المنعم).

زيارة ضريح المولى عبد الباقى بن محمود بن عطاء الدين حمالى زاده

هو متولى مدينة مصر، وكانت له هذه المحلة الكبرى ومات وهو مدفون عند رأس الجسر الذى على ترعة الصابونية فى ضريح على الطراز الرومى وقد كتب عليه تاريخ؛ ولأنه على الطريق العام يزار ضريحه، وكان فصيحًا ناصع البيان لذلك وردت ترجمته فى تاريخ المقريزى، وعلى مقربة منه على رأس الجسر ضريح المُلا على بن سنان، وفد من مدينة أسبارطه، وكان من علماء السلطان أحمد وعلى ضريحه تاريخ هو فى سنة ١٠٢٩ قدسنا الله بسره العزيز رحمة الله عليهم أجمعين، وعلاوة على ذلك آلاف من الضرائح، وقد مرغت وجهى على عتبته، والضرائح التى زرتها فى هذه البلدة سبعة وأربعون وقد شرفت بزيارتها ولله أحمد أنى نلت من حسن أغا الكاشف عشرة قروش وجودًا، وبعض ما يصنع فى المحلة، وودعت أحبتى وخلانى وبعد ساعتين، بلغنا قصبة سمنوط، وعبرنا النيل إلى إقليم الشرقية فبلغنا:

ميت أبو الحارث

وتجاهها فى إقليم الغربية:

ميت أبو صير

وفى المنصورة:

ميت بورو

وتجاهها بلدة بنيا، وفى المنصورة كذلك بلدة المنظرة، وفى الغربية بلدة ميت بدر وفى المنصورة أيضًا ميت دمسيس، وفى الغربية بلدة شوبران، وفى المنصورة كذلك ميت أشنى.

أوصاف قصبة شنباط[1] الكبيرة

تقع فى إقليم الغربية، وبها مائتا بيت وعدة جوامع ومساجد وأسواق صغيرة ومقاه، وهى مدينة كثيرُ رجالها ونساؤها، وقد نزلت ضيفًا على دار ضيافة فيها ذات ليلة، وفى الصباح مضينا إلى المنصورة فبلغنا بلدة:

شرنجى

وقبالتها فى الغربية بلدة:

دهنور

وفى المنصورة مدينة ميت غمر العَظِيمة وقد أسلفت ذكرها، وتجاهها فى إقليم الغربية قصبة:

زفته

والتى سلف ذكرها وفى جنوبها فى إقليم المنصورة بلدة:

معصره

وفى الغربية قبالتها فى بلدة:

مسيد

وبجوارها بلدة:

وصيد

وفى المنصورة بلدة:

ميت العز

وفى الغربية:

ميت الحارون

وفى المنصورة بلدة:

الصفين

وقبالتها فى الغربية بلدة:

تفهنى

وللشيخ داود العزب فيها ضريح عظيم، والذى ظهرت له كرامات ومعجزات ذكرت فى الكتب وفى كتاب طبقات الشعرانى أنه قطب عظيم له منزلة عبد القادر الجيلانى، وجنيد البغدادى وأحمد البدوى، وإبراهيم الدسوقى. ومضينا إلى هند يمنه، وفى إقليم المنصورة بلدة:

سندى

وقبالتها فى إقليم الغربية بلدة:

ميت برى

وفى المنصورة بلدة:

اشبون

وفى المنصورة كذلك:

كفر مويش

وقبالتها فى إقليم الغربية بلدة:

مِلَلَو

وفى المنصورة بلدة:

بنهى

وتجاهها فى الغربية بلدة بطاى وفى المنصورة بلدة رَمْلى، وتجاهها غربًا:

كفر ابو الطواقى

وفى إقليم القليوبية:

ميت عطار

وهى بلدة عظيمة كأنها قصبة وفيها تجمع حدود أربعة سناجق وهى سنجق الغربية وسنجق المنصورة وسنجق المنوفية وسنجق القليوبية. والسناجق الأربعة تسمع آذان ميت عطار لأن حدود كل منها متقاربة، وفى آخر إقليم الغربية بلدة:

سيدى خضـر

وفى أول حدود المنوفية بلدة:

العطـف

وآخر حدود الشرقية بلدة:

طحلـة

وفى أول حدود إقليم القليوبية بلدة:

دجـوى

وهى التزام أوزبك بك، واقتضت حكمة الله أن تكون قرى الحدود هذه مجتمعة فى أرض واحدة ودخلنا الحـد الأيمن لإقليم المنوفية، ودخـلنا الحد الأيمن لإقليم القـليوبية، وفى إقليم منوف بلدة:

ميت عضيف

وهى تجاهها بلدة دجوى.

وبلدة طنط

تتبع قليوب، وتجاهها فى المنوفية:

بلدة بِرْشمس

وفى إقليم القليوبية بلدة:

برشـوم

وتجاهها فى المنوفية بلدة:

أبو شعـرا

وتجاهها على ضفة النيل بقية القليوبية.

أوصاف قصبة القليوبيـة

وقد كتب عنها المؤرخ أبو المال كثيرًا، وجاء فى تواريخ القبط أن أول من بناها هامان وزير فرعون، وقد تبقـى فيها أساس قصره وبستان، وباب من أبواب بسـتانه، ويسمونه بئر هامان وماؤه عزب والسواقى تدور فى اثنى عشر موضعًا فيها، وهذه السواقى تروى ما فيهـا من مزارع قصب السكـر، ويزعم القبط أن فـى مائها شفاء المريـض، وقليوب

كاشفية، وقد سبق أن قلنا إن مائتى كيس تتحصل منها، ويتبعها مائتان وثمانون قرية ويحصل من هذه القرى بعد المصروفات مائة كيس، إنها قضاء يدر مائة وخمسين أقجه، وكانت تغل مدة من الزمن عشرة أكياس ستة وسبعون من قراها، ولقربها من مصر ليس لها من يتولون الإفتاء على المذاهب الأربعة كما تخلو من نقيب للأشراف، ولكن فيها قائد للانكشارية والعزب، وقديمًا كان يوجد فيها ألف حديقة، والآن فيها ثلاثمائة بستان كما أن فيها ألفى بيت وأربعون محرابًا، وسبع خطب، وبالقرب من السوق السلطانية جامع قديم ويتسع لآلاف المصلين، وله سقف يقوم على أربعين عمودًا، ومنارة تتألف من ثلاث طوابق، ولم نشاهد جامعًا آخر، وفيها عشرون مكتبًا للصبيان وثمانية خانات وسبعة مقاه، ومائتا دكان. وركبنا زورقنا الذى جرى بنا فى النيل، وبعد سبعة أميال بلغنا بلدة شبرا التى سبق ذكرها، وهى فى نهاية حدود إقليم القليوبية، وبعدها حدود مصر وتجاهها فى إقليم المنوفية محلة تسمى بحر، وبها تتم حدود المنوفية، وآخر حدها:

بلدة السروى

وهى على بعد أربعمائة ميل من دمياط وعلى شاطئ النيل تقع مدن صغيرة معمورة وقد شاهدت معظم الجوامع المشهورة والكبيرة، والزوايا والمدارس والوكالات المعمورة والمزينة والحدائق والترع واستمعت إلى ألحان البلابل الجميلة فى البساتين، ووصفت مزارع النخيل والحدائق، واكتفيت بذلك حتى لا يطول بنا الكلام وليس على نيل دمياط قرى مثل ما على نيل رشيد، وعلى نيل رشيد توجد مدن كثيرة ولا وجود لعمران فى إقليم البحيرة وأكثره صحراء. ثم مضينا إلى محلة شبرا. وفى الشهر الثالث دخلنا مصر والتقيت مع الكتخدا إبراهيم باشا. وقدمت إليه ما استطعت تقديمه من هداياى فتقبلها منى. وتجولت وشاهدت الديار وتعرفت أحوال الرعايا والبرايا. وسألت ملتزمى الكاشف. ومضينا إلى صحراء البرلس وطعمنا. ونلنا من خضر بك خلعة حسنة وجوادًا. والله عالم السر والخفيا، وخضر بك وزير منير الضمير وسخى جواد وقد تشرفت بالتحدث معه فى الليل والنهار، وقال ذات ليلة أثناء حديثى معه إنه تجول فى البلاد شبرًا شبرًا وسوف أبعث بك إلى حاكم جرجه فقال لى لا تنسى دعاءنا لك بالخير وأمر رفعت أفندى رئيس الديوان أن يكتب لحاكم جرجه أن أوليا جلبى صديق حميم وأخٌ كريم فإذا وصل إليك وأراد التجول فى البلاد فهيء له السبيل.

وأمام مدينة أسيوط غرقت سفينة أميرية تحمل ألف أردب من الغلال. وقد كتب أمراً بالتحقيق فى هذا وأصدرت الأوامر إلى جميع الكاشفين والملتزمين بذلك. وانتهزت هذه الفرصة وخرجت بعد أن قبلت يده. ورجوت إليه أن يكتب رسائل إلى حاكم الفونج. وسألت من رجال الديوان فى مصر. هل فى الإمكان أن أمضى. فقالوا نعم هذا فى الإمكان ولكن الحَرّ كان شديداً والطريق غير آمنة. وقالوا إن هذه السَّفْرَةَ صعبة شديدة ولكن سوف تمضى فى خير وأمان بمشيئة الله. وكتبت الرسالة لى فكانت أمراً إلى حاكم جرجة.

إن ملك الفونج كان راسخ العقيدة فى الشيخ البكرى، والشيخ محمد، ونلنا منه سبعة رسائل لِنَنَال بها الهدايا، فنلنا جواداً وبساطًا طاهراً، وعشرة كؤوس وثلاثة قسى وكانت ترسل الهدايا ورسائل الصداقة من مصر إلى الجزائر وتونس وفاس ومراكش وبلاد البربر وبلاد الفونج والسودان وبلاد الحبشة واليمن ومكة والمدينة والبادية العربية وكذلك بلاد المغرب.

فقد وصل إلى سفير اليمن فرمان كما أعطى لى رسائل ورسائل مودة، ومنذ عهد السلطان سليم الأول قدم مصر سبعون وزيراً، لأن الحل والعقد كان فى يد الكتخدا لأنه كان وكيلاً يحكم كل شىء برأيه السديد، إلا أنه مع وفور عقله كان يتشاور مع من تقدمت بهم سنهم ليأنس برأيهم، ويعمل به، وكان يكرم كلاً منهم حسب مرتبته، وقد أعطانى أوراقًا لأسلمها لحاكم جرجه وبلاد الفونج، كما أعطانى مصاريف السفر وجواداً، ووصلت إلى الباشا فى اليوم الثالث، فأبلغت حاكم جرجة خبر غرق سفينة الغلال، وبلغت أوامره للكاشفين وغيرهم، ونلت من ملك الفونج رسالة وهدايا، فنلت منه نقوداً وجواداً وتخت شباب وقد أعطيت خدامه عشرة قروش، ودعوت له بالخير وقبلت يده وقلت إلى الملتقى بمشيئة الله، وقرأت الفاتحة، وخرجت وودعت كل الأصدقاء والأحباب ومضينا متوكلين على الله.

* * *

الفصل التاسع والستون

ما أصدر والى مصر إبراهيم باشا وما كتب من رسائل ألف وواحد وثمانون رسالة إلى حاكم الصعيد أوزبك بك والى كاشف الواحات وكاشف ولاية أبريم وحاكم ولاية بربرستان وملك بلاد الفونج وملك قاقان، وما زرنا من قرى وقصبات يسر الله لنا زيارتها

وإذا أراد الله شيئًا يسّر أسبابه فركبنا خيولنا المطهّمة وبدأنا سياحتنا وتحركنا من مصر أم الدنيا، وبعد أن قطعنا فى الصحراء ساعتين جنوبًا بلغنا بلدة البساتين وكانت تابعة لالتزام نقيب الأشراف وفيها سبعمائة بيت، وثمانية محاريب وثلاث خطب، ووكالة وعشرون دكانًا، ويحيطها من جوانبها الأربعة البساتين، ويقدم إليها الأعيان من مصر للنزهة، إنها جميلة بها الورود والرياحين وفى وسطها قصر يوسف، والمتنزهون ينعمون بالمتعة على حانة حوضها.

ومضينا إلى الجنوب مدة نصف ساعة وهناك على النيل مرفأ قديم وبعيد عنه جميع أهل الصعيد، وثمة موظف للدولة يحصل رسوم الجمرك من شاطئ النيل، فبلغنا:

قصبة موخنان

وتقع على مسيرة ربع ساعة من النيل فى الصحراء، وبها حدائق وبساتين وهى تابعة لكاشفية الجيزة وبها خمسمائة بيت وجامع ومقهيان وعشرة دكاكين، ولا يوجد فيها الحَمّام إنها قصبة معمورة، ويحكمها نائب الجيزة منذ عهد السلطان سليم تتبع هذه القصبة شيخ العرب خبير أوغلو وهى أرض ذات بساتين ونخيل: وقصر خبير أوغلو دار ضيافة، ويطعم فيها الغادى والرائح، ومن سلموا قايتباى وكرت باى مقيدين للسلطان سليم من هذا البلد، وقد عبر أحد عشر ألف النيل ومضوا إلى السلطان سليم، وظلوا فى خدمته ولذلك أعفوا من الضرائب، وهم الآن مطيعون منقادون فلما أغار على مدن إقليم البحيرة ألف وأربعون ألفًا من مجرمى عرب بهيجة والهنادى منهم أربعون ألفًا للنهب والسلب، ولما علم بذلك وزير مصر ألف جيشًا من خمسة آلاف فارس وانطلقوا

إلى إقليم البحيرة، وفى أول الأمر واجه كل جندى جنديًا فمزق عرب خبير أغلو، صفوف من واجهوهم، كما أن جنود مصر ألحقوا الهزيمة بعرب الهنادى فتم القضاء على ستين ألفًا منهم، واختلطت جثثهم بالرمال وتدحرجت رءوسهم من ضربات السيوف، وأصيبت منهم غنائم تفوق الحد والحصر، كما أن رجال خبير أوغلوا غنموا ألفى جمل وجاءوا بها فى يوم وليلة من الصحراء، وقدموها هدية إلى إبراهيم باشا فامتلأت مصر بالجمال، ونال خبير أوغلو مكافأة له على ذلك خلعة آصف، وهى رمز للمقاتل الباسل، وقد أكرمه إبراهيم باشا وضيفه ذات ليلة، وفى الصباح، أرسل إلينا خمسين فارسًا، ومضينا سبع ساعات على النيل وبلغنا منزل:

قهوه خانه

وهو أرض واسعة فيها قلعة ذات باب كبير وفى نهاية بابها الكبير مقهى، وهى موضع لاستراحة المسافرين، وبها دكان، إنها دار ضيافة فى الطريق إلى الفيوم وبنى سيف ولا عمران فيها، ومضينا إلى الفيوم بعد سبع عشرة ساعة، وهى أرض ذات رمل كثيرة الأفاعى والحشرات، وليس بها أمان، إنها حدود خبير أوغلو زاده، وهى حد بلدة بنى سيف، ويجتمع أهل القرى فيها كل أسبوع، وهذه القهوة فى سوق عظيمة، وقد اجتزت هذا الموضع، وعلى شاطئ النيل فى الناحية القبلية أرض ذات نخيل وفيها قرى معمورة واجتزنا فى ست ساعات إلى:

منزل بلدة دلى حسين باشا

وتقع على شاطئ النيل على ربوة فى حدود بنى سيف، وبها مائة بيت وجامع وساقية وآبار، فاستقبلنا حسين باشا زاده نوح وضيفنا ليلة فنعمنا بالراحة، وسرنا متجهين جنوبًا نحو النيل، واجتزنا كثيرًا من القرى المعمورة على شاطئ النيل، كما اجتزنا:

بلدة زاوية وبلدة قوما دير

وبعد سبع ساعات بلغنا:

بلدة ميمونة

وهى على حدود بلدة بنى سيف، وفى التزام كاتب تذكرة الوزير الأعظم إسحاق أفندى، وبها جامع وعدة أسواق وقصر عالٍ هو دار ضيافة فاجتزتها نحو الجنوب واجتزنا قرى عامرة.

أوصاف مدينة سيف بن ذى يزن

ولذا سميت المدينة ببنى سيف، وفى نواحيها تسكن قبيلة من عرب بنى سيف إنها كاشفية فى أرض مصر، وهى الآن كشوفية، ويتبع كاشفها خمسمائة فارس وخمسمائة جندى مصرى، وبها مائة وأربعون قرية، ويحصل من هذه القرى مائتا كيس وخمسة، و(   )[1] أردب من الغلال وتودع ديوان مصر، وعين من قبل الباشا آغا للتحصيل، ويوزع الباشا على كل أحد أردبين من القمح كما أن أغا يأتى من طرف الباشا للتحصيل سريعًا وبها قاض شرعى يحصل منها على مائة كيس فى العام، وتحت حكمه مائة وأربعون قرية، وثمة انكشارية وقائد وعزب الشورباجى وشيخ الإسلام ونقيب وأعيان كبار، تقع المدينة فى سهل فى أرض تبعد عن النيل بخمسمائة خطوة وهى ذات بيوت جدرانها مثل جدران القلاع تحيط بها من كل جانب، وبها خمسة آلاف بيت، وهى بيوت ذات طوابق وفيها قصر الكاشف وبه سبعون حجرة وحمام وديوان وميدان، وبجوار بيت الشيخ على بيت الشيخ صالح وبالقرب من القصر قصور طاصلاق زاده أحمد أغا، كما توجد بها قصور شامخة، ولكن هذا ما عرفناه منها وشاهدناه، وفيها محلات للمسلمين وغير المسلمين، وفيها جوامع وزوايا ولكن ستة منها جوامع تؤدى فيها صلاة الجمعة، وفى سوقها جامع قايتباى وجامع عز الدين لكل منهما حرم ومنارة، وبالقرب من قصر طاصلاق زاده أحمد أغا جامع لم يكتمل بناؤه ولكنه بدون حرم وله منارة على الطراز الرومى وله سبعة أعمدة من الرخام، وفوقها سقف لا نقوش فيه، وكان بانيه فى كل يوم يبنى ملحقات تضاف إليه، وللجامع أوقاف عظيمة وغير منارته رومية الطرز له خمس منارات أخرى عربية الطرز، وتوجد مساجد علاوة على هذه

(١) بياض فى الأصل.

الجوامع، وبها كذلك ثلاث مدارس وبها إلى جانب حجرات الدراسة جامع وبها أربعون مكتبًا للصبيان وأربعون سبيلاً وحمام، ولا توجد أبنية بقدر تلك المذكورة، ولجامع طاصلاق زاده أحمد آغا مبَرَّةٌ، وكان متولى الوقف ينفق عليها عشرين كيسًا، وقد قرأت الفاتحة له، وبها عَشْرُ مقاهٍ وعشرة بيوت للصباغة وعشر وكالات مشهورة وجملة ما فيها من الدكاكين خمسمائة دكان، ولكن ليس فيها سوق خاصة، وفيها من كل سلعة، ويسكن هذه البلدة عشرون ألف شخص، وجوّها معتدل وفتيانها وفتياتها يتميزون بالجمال لاعتدال جوها، وبها كثيرون من العسكريين المدنيين، وبها سوق كبيرة تقام كل يوم جمعة، ومأكولاتها ومصوغاتها وغنمها مشهورة كما تصنع سجاجيد صلاة بديعة فيها، وبها سجاجيد وبُسُط بديعة النقش، كما تصنع بها مقاعد عجيبة، وفيها حدائق الليمون والسفرجل والتمر، وفى بساتينها الشمَّام والبطيخ والخيار والعجور والقثاء والكرنب والقرنبيط والقُلْقَاس.

بيان ضرائح الأولياء التى زرتها

ضريح شيخ الملة وقطب الدولة الشيخ على بطح ملت الذى كان من قبائل العرب التى فى وادى بطح بمكة ولذلك سمى بهذا الاسم، ويزور ضريحه الرجال والنساء، وبجانبه منبع الأسرار ومرجع الأبرار الشيخ صالح الطيار، وإلى جانب الحمام من صحابة رسول الله ﷺ الشيخ عبد الله بن عمرو بن العاص الذى جرح فى البهنسية أثناء إغارة عمرو بن العاص عليها، وعلى ضريحه تاريخ إلا أنه كتب بخط غير واضح، لذلك لم أتمكن من ذكره، وعلى مقربة منه ضريح حاضر أسرار الطريقة وناظر أنوار الحقيقة الشيخ محمد الأنورى، وبجانب الوكالة البيضاء ضريح الشيخة الست حورية، وبالقرب منها الشيخ على كِبَارِى، وقد زرت ضرائح هؤلاء الأقطاب جميعًا، ولكن ثمة كثير من الأولياء والأتقياء مدفون فى هذه المدينة قدس الله روحهم. وقد مكثت فى هذه البلدة ثلاثة أيام ثم تجاوزت عشرين قرية على شاطئ النيل جنوبًا، وبعد ست ساعات بلغت:

قصبة فشنه

وهى على حدود بنى سيف وفى التزامها.

أوصاف قصبة فشنه

وهى قضاء يدر مائة وخمسين أقچه، ويتحصل منها فى العام أربعة أكياس، ويتبعها ستون قرية، وهى قصبة صغيرة وجميلة، لكنها معمورة تقع على ربوة بعيدة عن النيل وفى جوانبها الأربعة سبعة أبواب خشبية كأنها أبواب القلعة، وبها ثلاثة آلاف بيت، وفى كل بيت منها برج للحمام ويحيط بها من جوانبها الأربعة نخيل، وفيها سبع محلات وسبعة محاريب وثلاثة منها جوامع، وفى السوق جامع كبير الأمير، مقام على اثنتى عشرة زاوية عليها أعمدة تحمل سقفًا وله قبة ومنارة قصيرة، وبها أربعة خانات وسبعة مكاتب للصبيان وعشرون دكانًا وسبعة سبل وسبع مقاه وليس فيها سوق ولا حمام، وبها دار ضيافة فى أسفل الجامع، وبها يصرف الطعام للغادى والرائح كما يصرف العير والجياد للمسافرين، وتقام فى يوم الجمعة سوق عظيمة بها، ويجتمع فيها خلق كثير وكل إنسان يبيع سلعة.

أوصاف ضرائح فشنة

ضريح الشيخ عبد الله قدوة الرجال ونقطة الكمال ابن الشيخ جلال، وكما أن هناك قبر للشيخ جودى، وبالقرب منها الشيخ الأمين سلطان الدنيا والدين، وبالقرب منه ضريح الشيخ أبو العال صاحب طريق الكمال والمجاهد بلا جدال، وبالقرب منه الشيخ رمضان قدس سره رحمة الله عليهم أجمعين، ولو وصفت سياحتى فى هذه القرى والبلدان والقصبات والضرائح، وبفصاحتى وبلاغتى لتألف منها مجلد ضخم، ولكنى أصفها على وجه الإيجاز وهذا ما يسره الله لى، اللهم يسر لى إتمام ما أنا كاتبه.

ثم غادرت فشنه واجتزت اثنتى عشرة بلدة معمورة، وبلغت:

صفد أبو جرج

وهى أيضًا قرية وبعد سبع ساعات، مكثت فى:

بلدة قيس

لأن الجو كان شديد الحرارة، وهى التزام يتبع بنى سيف بعيدة عن النيل، وبها مائة بيت، وبها آبار عذبٌ ماؤها، ونزلت ضيفًا على شيخ البلد لأن دار الضيافة كانت خربة، وفى شمال هذه البلدة ضريح الشيخ إبراهيم عبد الرحيم، وله مناقب كثيرة ورد ذكرها فى كتاب الطبقات للشعراوى إنه قطب عظيم، وبجانبه شجرة غريبة وعجيبة، إنها شجرة لا نظير لمثلها، ويأتى إليها الغادى والرائح من الزوار والتجار ويندهشون لرؤيتها.

وصف هذه الشجرة الغريبة العجيبة

إنها تبلغ فى الطول طول خمس قامات للإنسان، وثلاث خطوات، إنها دوحة عظيمة وجذعها يتألف من فصوص فى جوانبها الأربعة، ولمن ينظرون إليها من الوسط يبدو لهم أوراقًا وثماراً، وإذا بَخَّروا مريضًا بالصرع بأوراقها شفى من مرضه بمشيئة الله، ولها ثمر حامضى الطعم ذات قشرة إذا أكل منها مرتين فى الشهر مصاب بالإسهال شُفى بأمر الله ويأتيها أرباب الحاجات أول كل شهر، إنها شجرة سنط تَنْبُتُ فى وسط الحديقة، وهى شجرة لا ثمر لها تنبت فى بلاد العرب، وهى تشبه شجرة طوبا التى توجد فى الجنة، وهى تمد غصونها ويجلس تحتها الصبيان والظلال التى تمدها تتسع لألف إنسان، يا لها من حكمة عجيبة إنها منكسة، وجذورها بارزة من الأرض، ويقول الشيوخ الذين طعنوا فى السن إن آباءنا وأجدادنا رأوا هذه الشجرة على هذه الصفات إن غصونها اتجهت إلى أسفل إنها تستحق المشاهدة لأنها خلق عجيب إن الله على كل شىء قدير، ويفعل الله ما يشاء بقدرته ويحكم ما يريد ولا يسئل عما يفعل، ورأى بعض المتقدمين فى السن أنها من الكرامات للشيخ إبراهيم وقد أراد أهل البلدة أن يشاهدوا بها كرامات الشيخ إبراهيم فسجد فى الموضع الذى نبتت فيه الشجرة، فخلقها الله توًا بأمر الله تعالى وإنها لم تنبت ولكن هبطت من السماء، وظلت معلقة فقدم جميع من أنكروا الإيمان، كما جاء فى تواريخ السيوطى عنها، وقد قرأت أنا فى تواريخ المقريزى أن فى جنوب مصر القاهرة بالصعيد العالى شجرة معلقة ولا وجود فى الأرض لمثلها، وفى

عصر بنى إسرائيل عمرت هذه الشجرة ألف سنة وقد عبد الله فى ظلها سبعة أنبياء وأن سبعة من اليهود استشهدوا فى ظلها وحينما دفنوا هناك بأمر الله ظهرت هذه الشجرة ونزلت أغصانها من السماء إلى الأرض، وقتلة اليهود أكلوا منها فهلكوا، وصار ساق الشجرة فصوصًا عندما جاء النبى آه واه، وقد دفن فى ظلها هذا النبى، والآن يزورها الخواص والعوام لذلك فما كتب عنها صحيح، لأن ما جاء فى الخطط يعتمد على مراجع صحيحة ولكنى شاهدت الشجرة فلم أجد فى ظلها دفينًا من الأنبياء، وإنما دفن الشيخ إبراهيم فى ظلها.

وتجولت سبع ساعات، نحو الجنوب على شاطئ النيل ومررت بقرى كثيرة وبلغت:

بلدة سمنوط[1] بالصعيد

وهى تبعُد عن النيل وبها ثلاثمائة بيت كما أنها التزام، وحاكمها الأسبق كان كاشفًا، وبها تتم حدود المنيا وإلى جوار ضريحه شجرة نبق عظيمة ولها نبق لذيذ الطعم، وفى قبالة سمنوط على شاطئ النيل دير قبطى شديد الارتفاع وكنيسة كأنها قلعة عظيمة وفرعون بانيها ويجتمع القبط لزيارتها، والرهبان يجمعون المال لخزينة مصر، وثمة صخرة يجرى النيل من تحتها والرهبان من أعلى هذه الصخرة يغترفون من ماء النيل ويملؤن الصهاريج، ويضيفون المسافرين، ويكرمونهم إكرامًا عظيمًا، ويقدمون إلى الضيوف ثيابًا ويقومون على خدمتهم حتى الصباح، وقد شاهدت هذا كذلك ومضينا إلى سملوط فى الجهة الغربية، وركبنا جيادنا ومررنا بقرى المنيا على شاطئ النيل وبعد ثمان ساعات بلغنا بلدة المنيا.

أوصاف مدينة المنيا

مدينة جرجا عاصمة الصعيد العالى، وهى حكومة تابعة للوزير، وقد أصبح اثنان من بكواتها أميرين للحج مرتين، ويحصل منها سنويًا مائتا كيس (   )[2] الف أردب من الغلال ويحرسها مائة جندى وسبع فرق من جند مصر، ويفيض لها مائة كيس وثمة حاكم من قبل الوزير يكلف أغا فى تحصيل غلالها، ويحصل لمعرفته (   )[3] الف

---

(١) يقال لها: سمالوط.

(٢، ٣) بياض فى الأصل.

أردب من الحنطة والشعير والفول، ويقدم إلى الباشا ستة أكياس، ويفيض له خمسة عشر كيسًا ومركز الأغا أعلى رتبة ويأتى فى كل عام أغـا ليستعجل تحصيل الغلال وينال على ذلك أجرًا قدره كيس واحد على استعجاله للـغلال، وهو ملزم كذلك بتحصيل الغلال، وبها قاضى يحـصل على ثلاثمائة أقجه، وشـريف القضا يتقاضى عشـرين أقجه، وفى نواحيهـا مائتان وعشرون بـيتًا جميلاً، وفيـها أربعة مفتـين يفتون على المـذاهب الأربعة ونقيب لـلأشراف وسبعة من القـواد، وليس فيها عبـيد ولا قائد ولا كتخدا سـباهية ولا زعامت فـى قراها ولا تيمـارات ولا سيد فيها ولا رئـيس للجنـد، أما طائِفَةُ الجـند من المصريين فكثيرة؛ لأنها مدينة مزدحمة بـالسكان، وعلى شاطئ النيل بيوت ذوات طوابق على ربوة يسكنها أسر كريـمة وبهـا مـائـة وخمسـون مـن الزوايا والمحاريب والجوامع، جامع قديم لعمر بن الخطاب لأن عمرو فى خلافة عـمر بن الخطاب فتحها بعد أن تغلب على القبط، لما أقام عمرو هذا الجامع كان معبدًا قديمًا، إلا أنه كان فى عهد الفراعنة ديرًا وهو واضح عـلى سد عال عـلى شاطئ الـنيل وطولـه تسعون خـطوة، وعرضه سـتون خطوة، وبداخله اثنان وخمسون عمودًا مـن الرخام، وحرمه مكشوف، وله ثلاثة أبواب ومنارة قصيرة وسقف مـنقوش، وتطل جميع نوافذه على النيل، ومـحرابه منحرف نحو الركن، وهو من الخشب المنـجور، ويزدحم فى الفجر بالمصلين لكنـه مقر طلاب العِلْم، وتُلْقَى فيه الدروس العامة، وفيه أربعون أو خمسون حلقة تلقى فيها شتى العلوم، ويختم القرآن من مائة إلى مائتى مرة فى اليوم والليلة، وثمة من حفظة القرآن من هم أكمهون، وكأنما هذا الجامع هو جامع الأزهر فى مصر إنها مدينـة طيبة الماء لها الشهرة عند العرب والعجم، وفيهـا يستجاب الدعاء، وبه مبرة أوقافـها عظيمة وبه يُضَيّفُ العـلماء والفقراء والمساكين عمر الله هذا الجامع إلى انقراض الدوران[١].

وعلى ربوة على شاطئ النيل كذلك جامع الـظاهر بيبرس، ويقوم على ستة وثلاثين عمودًا من الرخام، وفى سقفه نقوش مذهبة بـديعة، ومحرابه ومنبره من الطراز القديم، ولكن جـدرانه الأربعة من الحـجر المكسو، وكأن كـل جدار مرآة، ولا وجود لمثـله فى

(١) يعنى: إلى قيام السـاعة.

أرض مصر، وكل الرحالة الذين يقدمون مصر يعجبون لأساس هذا الجامع لأنه كان فى الأصل صومعة قديمة، وفيه نقوش بديعة من كل الأنواع ويعجز عن وصفه الواصفون، وفى مصر كثير من الجوامع التى أقامها السلاطين ولا وجود لمثلها فى سائر أركان الأرض إلا أن جامع المنيا هذا يختلف عنها جميعًا لأنه فى طرزه عجيبٌ غريبٌ منقطع النظير، وعلى قبته كتب هذا التاريخ (بسم الله الرحمن الرحيم أمر بتجديد هذا المسجد المبارك مولانا السلطان الملك الظاهر بيبرس خلد ملكه سنة عشرين وستمائة) وله بابان ومنارة وكل كواته تطل على النيل، ولكن لا وجود لما يشبه جامع عمرو.

ويقع شمال المدينة وفى السوق السلطانية جامع الشيخ مصرى، وهو تحتانى والمصلون فيه كثير، ويوجد كذلك جامعان لا علم لنا بهما فضلاً عن الزوايا.

وثمة ثلاث تكايا وإحدى عشرة وكالة وثلاثمائة دكان وحمامان، وعلى مقربة من جامع عمر بن الخطاب حمام منذ عهد فرعون بقى على ما هو عليه، إنه حمام قديم عجيب، وهو معلوم لدى العرب والعجم وإذا دخله مريض تم له بأمر الله الشفاء وإذا دخله مجزوم أربعون يومًا، فكأنما خرج من بطن أمه بيضة بيضاء حتى أن ابنة على بن أبى طالب العذراء قدمت مصر ودخلته فشفيت من مرضها، وهذا الحمام من بناء الحكماء القدماء وحوضه ذو صنبور مرتفع بقدر قامة إنسان ويكون فيه الوقوف ويستحم واقفًا وإن لم يكن من الجص، وقد طلى بابه وجدرانه بالمسك والعنبر والزعفران، وجدرانه مبنية من الجبس الخالص والعبير ينعم بتنسمه كل من يستحمون فيه، وينبع من جدرانه ماء الورد والمسك والكافور يتنسمه المستحمون، وجوه معتدل لطيف لقربه من النيل وماؤه من النيل، وأرضيته مفروشة بالحجر الأبيض، وفى زمننا لا يستطيع عامل ماهر فينا أن يضع حجراً مثله فى موضعه، وغرفة الثياب فيه صغيرة وغاية فى الصغر، أما الحمام الذى فى قصر أغا الغلال فحمام جديد إلا أن جوه ثقيل، وثمة أكثر من مائة سبيل، وستون مكتبًا للصبيان، ولا وجود لسوق فيها، وجميع أسواقها مغطاة لدفع الرمال والغبار وشدة الحر عنها، وفى الوسط قصورٌ فيها قصر الكاشف، وقصر أغا الغلال على ضفة النيل وهو قصر جميل، وكل قصورها وما فيها من شرفات ونوافذ

تطل على النيل، وهى قصور عالية يمتد منها البصر إلى الدنيا، وفى الجانب الغربى من هذه المدينة ستمائة قرية معمورة، وهى بلاد ذات بساتين كثيرة واسعة وجميلة لاعتدال جوها فأهلها يشتهرون بالجمال، وفتيانها حمر الخدود ومردانها يلبسون الحرير المنقوش، والجند فيها كثير، ويلبس فتيانها ونساؤها على رءوسهن حمر القلانس، ويربطون على خصورهن مناشف بيضاء ويضعون على وجوههن براقع من الشعر ويسمون الخبز المخبوز الأحمرَ بالرغيف وهو أحمر اللون كلون الوردة الحمراء، ومناشفها مشهورة وما أكثر الحدائق فيها، وتجاه النيل فى هذه المدينة آثار فرعونية كأنها أطلال قلعة.

وجاء فى بعض التواريخ أن الشيخ المصرى مدفون فى جامع المصرى، ولم يتيسر لى أن أزور ضريح آخر سوى هذا الضريح فى هذه البلدة.

ومضيت من هناك وسِرْتُ على شاطئ النيل نحو الجنوب، وبعد خمس ساعات بلغت:

مدينة اشمونين القديمة

وقد بناها أشمون بن بيطر أبى القبابط بن نوح، وفيها آثار وأطلال مغمورة فى الرمال، وإذا تعرضنا لوصفها لَمَسَّتِ الحاجَةُ إلى مجلد كامل، وفى هذه البلدة ثلاثمائة بيت وجامعان وعدة دكاكين وهى تابعة لكشفية جرجا، وهى قضاء يدر مائة وخمسين أقجه، وفى نهايتها أربعون قرية، وبها سوق تقام كل أسبوع هى قصبة صغيرة. وتجاوزتها، وبعد ثمان ساعات بلغت:

قصبة بداوى، اى بلدة ملوى

وهى تتبع حكم جرجا، وهى داخلة فى كشفية المنية والحقت بها قضاء المنية، ويتحصل من قضائها مائة وخمسون أقجه فى الأحايين وبها ستون قرية ويحصل غلالها أغا غلال المنيا ولها قائد من طائفة الانكشارية وعدد من الانكشارية والعزب أما نقيبها ففى المنيا وهى على شاطئ النيل على ربوة، وهى بلدة جميلة لأن النيل ينحرف جنوبها وقد عصفت الريح بكثير من بيوتها فهدمت وتخربت، فأقام أهلها بيوتًا لهم فى أرض واسعة بالقرب منها منذ خمسين عامًا، وهى بيوت جميلة وقصور شامخة، وهى أربعة آلاف وخمسمائة بيت ولا وجود فى الصعيد لمدينة جديدة جميلة مثلها، وجميع بيوتها

لها أبواب وجدرانها حمر وسود وبيض وكتب على كل منها اسم صاحب البيت، وتاريخ بنائه وفى هذه المحلة ست عشرة محلة وأربعون محرابًا وخمس خطب، وفى السوق جامع يوسف بك يصعد إليه بسلم من ست درجات، وطوله وعرضه ستون خطوة وفى داخله ثلاثون عمودًا من حجر أبيض تحمل سقفه، ومحرابه ومنبره خاليان من النقوش، وفى أطراف حرمه اثنان وعشرون عمودًا، وله ثلاثة أبواب ومنارة ولا وجود لمنارة أخرى فى تلك البلدة، وفى البلدة جامعان آخران علاوة على زاوية كما أن فيها حمامًا وأربعمائة دكان على الطريق وصاحب هذا الجامع يوسف بك، وهذا الجامع وقف ليوسف بك، ومائة دكان تبرع بهما محمد بك حاكم جرجا، وكل الدكاكين مغطاة سطوحها، وشوارعها الرئيسية نظيفة يسقى به السقاءون ماء النيل وبها ثلاثة خانات وسبعة مكاتب للصبيان وسبع مقاه، وستة سبل وبيوت للعسكر وخمسون طاحونة مائية تديرها الخيول، وسبع طواحين للزيت، ولم أرَ فيها مخابز، إن جميع الأهالى فى هذه البلدة يخبزون خبزهم فى بيوتهم، يسكنها سبعة عشر ألف شخص، ولكنهم يحبون ويضيفون الغرباء، وفى جوانب المدينة الأربعة أبواب كأنها أبواب القلاع، وهى من الخشب، وعليها مزاغل، ومنها تطلق النار على المجرمين من العرب إذا أغاروا على المدينة، وفى كل ليلة يسد الحراس هذه الأبواب ويسلمون المفاتيح التى تخص أبواب المدينة إلى شيخ البلدة، إنها مدينة مستتب فيها الأمن وجوها معتدل، وأهل ملاوى مشهورون بالجمال، ومحصولاتها معروفة ومشهورة وصناعتها أعرقها السكر والسكر النبات، ولا وجود لمثله فى أراضى مصر، ولكنه يأتى من الشام، وفى بساتينها عود قصب السكر يبلغ فى الطول ثلاث قامات إنسان وهو فى غلظ الذراع وكل أنبوبة فيه قدر شبر، وهو لذيذ كثير الماء، وقد قطعت أنبوبة منه وعصرتها فى كوب فكانت مثل ماء الورد فكانت شرابًا يجدد الحياة وهو مفيد للجسم وقشره رقيق، ومجمل القول أنه لا وجود فى أرض مصر لما فى ملاوى من سكر وقصب السكر، وهذه البلدة واسعة الشهرة بذلك وفيها كذلك أشياء أخرى كثيرة، ولكن السكر هو أفضل ما فيها، ولكنى لم أزر ضرائح كبار الأولياء فيها وإن كنت قرأت لهم سورة

يس، وتجاوزت مدينة ملاوى فى أرض ذات نخل، وانطلقت جنوبًا على شاطئ النيل، وبعد ثلاث ساعات بلغت بلدة: دارود الشريف.

أوصاف قصبة دارود شريف

إنها تابعة لحكم جرجا تتألف من ثمانمائة بيت وهى بلدة صغيرة معمورة، وناحية صنبو قضاء وغلالها مما أوقف فى مصر على الحرمين وهى فى التزام السادة الأشراف، وفيها جامعان وست زوايا ومقهيان وثمانية دكاكين وقد حفر فيها يوسف الصديق وأمده جبريل بالمصابيح ترعة، وذلك قبل أن تصبح هذه التى بالفيوم ترعة كانت جرفًا وحوض يوسف وجميع ما فى مصر من ترع ومن خلجان تطهر فى كل عام بالجواميس والثيران ومائة ألف من الرجال، وترعة دارود التى فى مدينة الفيوم لم تكن جرفًا ولكنها شوهدت فى موضعها، وهى تجرى نحو الغرب وتروى مئات القرى وتمر من مدينة بهنيسا كما تسقى بلدانًا أخرى كثيرة، ورأيت فى جانب الفيوم بحر يوسف، وماؤه ملحٌ إنه بحيرة عظيمة، وسوف نكتب عنها فى موضعها ثم عبرنا بلدة ترعة دارود، وتجولت ثلاث ساعات وبلغت قصبة صنبو.

أوصاف قصبة صنبو

إنها فى حكم جرجا، وفى التزام السادات، وفيها صوباشى تابع للوقف وبها مائة وخمسون قضاء، وبها سبع وستون قرية، ويتحصل لقاضيها ثلاثة أو أربعة أكياس فى العام، ونصيب البلدة عشرون ألف أردب من القمح والغلال، وتقع على ضفة النيل، بها ألف بيت وثلاثة جوامع وسبعة دكاكين وليس بها حمام، كما لا يوجد بها خان ولا حدائق إنها قصبة صغيرة، ولكن بها دار ضيافة للغادى والرائح، وفى قصر عظيم يقدم فيها للضيوف فطور وطعام مرتين فى اليوم، وللمسافرين بيت للشعير فقمت منها صباحًا ومضيت مدة أربع ساعات على شاطئ النيل شرقًا، ثم انعطفت على شاطئ النيل جنوبًا أربع ساعات أخرى لأن النيل ينحرف فى هذا الموضع وكأنه رقبة البعير، وهناك فى النيل جزر ذات غابات وتماسيح ولصوص يركبون القوارب، وتجولت فى هذه المدينة ثمانى ساعات وبلغت مدينة منفلوط.

أوصاف بناى لوط اى مدينة منفلوط

وهى من بناء أبناء لوط بن أبى القبابط، ومدينة منفلوط مسطورة فى دفتر خانه جرجا والشائع خطأ على ألسنة العوام أن اسمها منفلوط وذلك سبب تسميتها بهذا الاسم وهى فى حكم جرجا باسم منفلوط، وهى مدينة قديمة ذات حكومة عظيمة، وقد منح وزير مصر حاكمها خلعة فاخرة، حتى فى يومنا هذا مصاحب أحمد بك يقدم هذه الخلعة وبها سبعة فرق مصرية من جنود مصر يحافظون على الأمن فى سبعمائة وعشر من قراها ويحصل منها مائتا كيس من مال السلطان وعدة من الأرادب من الغلال ويتصدق بمائة كيس بعد المصاريف، لأن من الواحات وبلاد الفونج والسودان يأتى النخاسون بمائة ألف جمل وآلاف الخصيان السود والبيض من السودان، ويمنح كل أسير دينارًا ذهبيًا ويمنح كل جمل قرش واحد، ويحصل من ذلك مال كثير، إنها مدينة يمر بها ناس كثيرة وكان قبل الباشا يحصل غلالها أغا الغلال، وكان يحكم البلاد ستة أشهر، وكان يتقاضى من الكاشف كيسين فى العام وحصانين وعدد عشرة من الخصيان المماليك يوميتهم عشرة قروش، وهؤلاء يحصلون الغلال، ويأتى أغا كذلك يستعجل تحصيل الغلال وينال من الكاشف كيسًا أجرًا على مقدمه فيلح على تحصيل الغلال، وعلى كل أردب يحصل يأخذ الباشا أغا بارتين ويورد للوالى سبعة أكياس، ويبقى بعد ذلك فائض قدره سبعة أكياس إنها قضاء يدر ثلاثمائة كيس، ومن ثلاثمائة قرية يحصل القاضى افندى عشرين كيسًا، وثمة قائد ونقيب وأعيان كبار، وعلى بعد ألف خطوة غرب النيل وعلى ضفة ترعة عظيمة ثمانية آلاف وستمائة بيت وهى من طوابق وهى جميلة مزينة، وفيها كثير من الفقراء المساكين وليس الأعيان بهذه الكثرة، ولكن التجار كثير، وفيها ثلاثون محلة وثمانية وثلاثون محرابًا وثمانى خطب منها الجامع الفوقانى للسعيد الشهيد: محمد بك ويصعد إليه بسلم من عشرين درجة إنه جامع لم يتم بناءه، ولكن المصلين فيه كثير وليس له مئذنة ولا حرم، وتحت الجامع دكاكين ولكل سوق بابان، وفى وكالة محمد بك جامعه وقد بنى على زاوية كانت من قبل وقد أقيم هذا الجامع فى وسط السوق المزدحمة، ويصعد إليه بسلم من حجر، وجامع عثمان بك جامع عتيق

كبير، وطوله وعرضه خمسون خطوة وله سقف منقوش وله باب للقبلة وبابان فى ناحيته وله منارة وخطبة ويسمى الشيخ جمال الدين ويقولون إنه من أولياء الله، وقد صام صومًا داوديًا وقد تلقيت منه الدعاء لى، وفى وسط السوق الجامع اليتيم، والجامع العتيق وجامع الكاشف محمد أغا، وهو جامع معلق يصعد إليه بسلم حجرى من ثمان درجات، ولذلك يسمونه الجامع المعلق إنه جامع صغير، وليس به منبر ولا مدرسة ولكن زواياه كثيرة، وله ستون سبيلاً وسبعة وأربعون مكتبًا للصبيان، ودار للحديث وثمانية خانات، وفى داخل السوق حمام إمام خان وفى السوق كذلك حمام ويوجد مثله فى ديار مصر، وعلى نهر النيل فى دمياط حمام، وهو جميل البناء إلى أبعد غاية وفى المدينة ألف دكان، وكلها مغطاة، وهذا خاص بديار العجم ولا وجود لسوق وإنما لخان تباع فيه السلع النادرة، وثمة سوق للغلال وسوق للغنم وخارج المدينة أحد عشر سوقًا، وعلاوة عليها سوق للنساء، وأسواق هذه البلد كلها تقع على ربوة، لأنها مرتفعة مَنْ نظر منها إلى أسفل دار رأسه وقد كتب على معظم الأبواب وأعلاها الآية الكريمة: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ [آل عمران: ٩٧]. وسألت ما أصل هذه النقوش فقيل لى بعد إيتاء الزكاة من يخرجون لأداء فريضة الحج ثم يعودون فينقش النقاشون على بابه هذه النقوش والآيات، وكثير من هذه الأبواب يوضع عليها جلد التمساح خوفًا من اللصوص، وهذه الأبواب مثل أبواب القلعة عجيبة وغريبة، وجو هذه المدينة جميل ويبدو الشبان بوسامتهم هنا وهناك وحدائقها وبساتينها لا تحصى كثرة وعندما يفيض ماء النيل وتجرى مياهه فى الترعة يجتمع على ضفتها جموع من الشباب للهو والمتعة فى العصر حتى مغيب الشمس، ووجوه أهلها وردية اللون، وهم يتاجرون فى الحرير والمناشف كما يباع على شاطئ النيل حرير القمصان وأشياء أخرى ويتعيشون من ذلك، وفيها سبعون طاحونة زيت ومائة وعشرون طاحونة قمح وعشرون مقهى وحانة، وبها محلة لليهود وأخرى للقبط وللمسيحيين واليهود ثلاثمائة بيت، وللأرمن وللأوربيين بيوت فيها وهم يأكلون الخبز فيه الينسون، والجبن القريش والزبد الأبيض والكعك وفطائر البوريك، والعسل الأبيض المصفى والليمون والسفرجل والرمان والنبق وغير ذلك كثير، ولكن ليس هناك جميز ولا موز وهم يكرمون الضيف.

بيان بالضرائح فيها

ضريح الشيخ محمد زعفران، وهو إلى جوار الأسواق السلطانية، وضريح الشيخ محمد أنفاس المغربى، وهو بالقرب من المسجد، وضريح الشيخ محمد القبيح وهو بالقرب من جامع اليتيم، وبالقرب منه ضريح الشيخ عبد الكريم وفى الجانب الغربى ضريح الشيخ عباس وفى الجهة القبلية ضريح الشيخ سليمان سلمانى، وبالقرب من قصر الكاشف مدفن الشيخ عثمان، وفى وسط المدينة الشيخ أبو الحسن، وعلاوة على ذلك توجد آلاف القبور وقد مرغت وجهى على هذه الضرائح وسألتهم البركات والعون، قدسنا الله بسرهم العزيز، ومن صلحاء الأمة أصحاب الكرامات الشيخ على سنارى، والشيخ محمد المنفلوطى كما وجدت قبور للطرارين والعيارين والمضحكين، ولكننا عرفنا الحافظين وأصحاب الكرامات ومن هؤلاء الذى حدد ميقات فتح القلعة بالساعة والدقيقة، وقبل أن تفتح بثمانية وخمسين يومًا، وقد رؤى فى الطريق يبشر به وهو من المجاذيب، وغادرت هذه المدينة بعد ثلاثة أيام، ومضيت جنوبًا ست ساعات حتى بلغت مدينة أسيوط القديمة.

أوصاف مدينة أسيوط القديمة

أسيوط فى اللسان القبطى اسم كاهن عُمِّر طويلا وكان له حَظٌّ من جميع العلوم لأنه أدرك نبى الله إدريس ـ عليه السلام ـ وهذا الاسم فى أفواه العوام هو سيوط وفى الزمان الماضى كانت أسيوط قلعة قديمة ضرب عمرو عليها الحصار سبعة أشهر ثم فتحها فتحطمت أسوارها وبرجها، وآثارها ظاهرة للعيان كأنها شمس الضحى وهى مدينة حول جهاتها الأربعة أرض منخفضة، وهى كاشفية تتبع جرجا، وفيها ثلاثمائة جندى وثلاثمائة جندى مصرى من أربع فرق، ويتحصل من أربعمائة وعشرين قرية خمسة وثمانون كيسًا وألف أردب من الغلال، ويحاسب عليها فى ديوان مصر ولها موظفان لاستعجالها وتحصيلها، وتجمع الغلال فى فترة تتراوح بين ستة وسبعة أشهر، وترسل إلى مصر فى السفن، كما أن الموظفين يحصل كلٌ منهم على ثلاثة أكياس، وما يفيض من ذلك لا يرسل إلى الباشا، وهى قضاء يُدِرُّ مائة وخمسين أقجه، وحواليها مائة قرية

وخمسة، ويحصل منها ثمانية أو تسعة أكياس، وفيها مفتى على المذاهب الأربعة وشيخ إسلام، وسبع طوائف للقواد والأعيان الكبار، وهى مدينة قديمة تقع على بعد ألفى قدم من شاطئ النيل وعلى ربوة عالية فى حدائق ونـخيل وفيها ستة وعشرون محرابًا وتسعة جوامع يـخطب لصَلاة الجمـعة فيها علاوة عـلى المساجد، ولهـا جامع جديد بنـاه مير يوسف بك وطوله وعرضـه خمسون خطوة، وفيه ستة وعشرون عـموداً، وعليه سقف غير منقـوش ومنارته من ثلاثة طوابق، وجامـع أمية وهو جامع عتيق فى جـانبه الأيسر باب ينزل منه بسلم من الحجر وطوله وعرضه ثمانون خطوة، وفى داخل الجامع ثمانون عموداً من الرخام وفى حرمه أربع شجرات نبق وأربع نخلات، ومنبره من الخشب المزين وعلى بابه كتـب عليه بالخط الكوفى البـسملة وآية الكرسى، وصاحب الخـيرات الخليفة عمر وقت الفتح.

وقد عمر عام خمسـمـائة، وهو جامع عتيق ويقول البعض إن عمر لـم يبنيه إن بانيه عمر من الخلفاء الفـاطميين الذى كان له المُلك على مصر عام خمسـمائة، والعهدة على الراوى، وفى الـسوق جامع الحمصى وهو يقوم عـلى ثمانى عشرة قاعدة من الرخام وله سقف منقوش وبابان جانبيان ومنارة جميلة من طابقين وجامع القاضى صدر الدين يقوم على اثنى عشر عموداً وهو جامع جديد مسقوف، وله بابان ومنارة وليس له حرم، وثمة زوايا إضـافة إلى هذه الجـوامع، توجد كـذلك تكـية وست مدارس، وسـبعون سبـيلاً وأربعون مكتبًا للصبيان، ودار للقرآن وداران للحديث، وستة وكالات وحمام وهو حمام جميل مـعتدل الجو كما يوجـد ثلاثمائة وستون دكـانًا، ولا وجود لمحال للقمـاش فيها والصاغة فيـها كثير، وفيها سـبع عشرة مقهى، وأربعـون طاحونة وخمسمائـة طاحونة تديرهـا الخيل ولا وجود لطـواحين فى خارج المديـنة لأن فى هذه المديـنة خلقًا كـثيراً، والقـرى التى خارج المـدينة فى حـاجة إلى الطـواحين، وكل هذه الـطواحين تيـمارات وزعامات، وفى سجلات شيخ البلد أن عدد سكـان هذه المدينة مائة وستة وأربعون ألف شخص، وشوارعها وأزِقَّتِها مزدحمة بالناس، وقديمًا كان بها قلعة ما زالت آثارها باقية، وقبل مجىء العثمـانيين إلى مصر، كان حكام جرجا يحكمـون هذا الإقليم مع وزيرهم

وفى هذا الزمان كان بها سبعة وعشرون ألف بيت وأربعة عشر حمامًا، وقد رأيت زواياها، وحماماتها القديمة، وحول هذه المدينة رأيت سورًا له أبواب كأبواب القلاع، وكان لهذه الأبواب حراس ليلاً ونهارًا لأن حولها فى الجانب الغربى كان يسكن مجرمون من العرب وكان هؤلاء العُربان يسكنون فى المغارات، ولهم حظائر لخيولهم وكان فيها يسكن قوم لوط وفى هذه المدينة كهوف دفن فيها بعض الموتى، وفى هذه المدينة محلة للقبط ولا وجود لأحد من أديان أخرى إن هؤلاء يغدون ويروحون للتجارة ليس إلا، وتوجد فيها كنيستان، وجو هذه المدينة معتدل وفيها فتيان وفَتَيات يتسمون بالجمال، إنهم جميعًا يكرمون الغرباء ويحبونهم وهم من أهل التقوى، والدكاكين فى هذه المدينة تقع فى شارع واسع، ولا وجود لدكاكين فى طريق إلا فى الطريق العام، وفيها سوق سلطانية مغطاة لدفع شدة الحر، ولها الشهرة بالحرير الأبيض والمناشف والبن والغلات ومعظم الحرفيين فيها نساجون، ويأتى إليها كثير من أهل المغرب، ويحملون معهم أحمالاً من الحرير والكتان، ويحملونها إلى بلاد المغرب معهم.

بيان الضرائح التى فى هذه المدينة

فى الناحية الجنوبية لهذه المدينة، مقبرتان كبيرتان منهما ما يسمونها الجبانة الكبرى ويصنع أهل هذه المدينة لموتاهم توابيت من الجص الأبيض، ويكتبون عليها التاريخ، ويزرعون حولها الأشجار ويبيت كثير من الفقراء فى هذه الجبانة ليدفعوا عنها الحيوانات، وعلى الطريق العام يوجد كثير من السبل، وآلاف القبور للصحابة الكرام، ويشهد أهل المدينة على أنه عند محاصرتها استشهد سبعمائة من الصحابة الكرام وأبنائهم ذوى الاحترام وقبورهم معلومة للجميع، وإذا ما كتبنا فى هذا طال بنا الكلام، إنها قبور عظيمة وهى لهم، وفى داخل المدينة قبر الشيخ اسكندر، وجانب الجسر قبر الشيخ محمد المجذوب وبجواره الشيخ رودى، وهم من السادات الكرام رحمة الله عليهم أجمعين، ثم غادرنا أسيوط مع رفقائنا وعبرنا الجسر السلطانى الواقع فى الجهة الجنوبية، ومضينا فى الصحراء.

بلدة شطب

وهى على حد قضاء أسيوط، وفيها ثلاثمائة بيت للمسلمين وقرى للأقباط، إنها بلدة قديمة تقع على جبل أحمر، وكان على قمة هذا الجبل فى ماضى الزمان قلعة وتبدو آثارها، وإلى الجانب الشرقى من الجبل مغارات وأرض خربة إذا بلغها الإنسان اعتراه الخوف الشديد، ويسمون تلك البلدة التى على رأس الجبل وادى طير.

اوصاف جبل الطير

ويسمونه كذلك جبل طيليمون، إنه عجيب وغريب جدير بالمشاهدة إنه جبل عظيم يحار فيه الوصف، ويأتى إليه أنواع من الطيور من الروم فى فصل الربيع، ومكثنا على هذا الجبل، ونزلنا ضيوفًا على أهله ولكن ليس فيه طيور اللقلق والبجع، وتحت الجبل أرض صحراوية، وكانت الطيور تصيح طوال الليل إلى حد أنه يتأذى بأصواتها المستمعون إليها، ويعرف ذلك أهل تلك المدينة، وثمة مقبرة فوق هذا الجبل، وفى كل قبر طيور مدفونة فى كفن، وأكثرها طيور اللقلق المكفنة، وتأتى جميع الطيور إلى هذه المقبرة وهى ترفع أصواتها بالنواح، وتحوم حول هذه المقبرة وتزورها، كما أنها تمكث فى هذا الجبل، ومعظم هذه الطيور التى فى الأكفان تبدو من القبور وأجسامها لا تبلى فى أكفانها، ولا يعرف أحد شيئًا عن هذه الطيور المدفونة، وقد حملت طائرين مكفنين حديثًا إلى الكتخدا إبراهيم باشا فرآهما، وعند الفجر ارتفع صوتهما بالصياح، وكان صياحهما يثير الفزع ويتوهم من يسمعهما أن الوقت وقت السحر.

وفى هذا الجبل غار عظيم، وتصيح الطيور عنده، وبعد أن تصيح سبع صيحات تحوم حول الغار ثم تمكث فى هذا الغار كأنها تتشاور فيما بينها، ثم يدخل طائر من كل جنس من الطيور هذا الغار ولا تخرج من هذا الغار المظلم بل تموت فيه وإذا لم تَمُتْ هذه الطيور فى الغار امتنعت بقية الطيور عن الطيران، وإذا خرجت بعض الطيور من الغار فإنَّ الطيور الأخرى تنقرها وتقتلها، ويضعون غيرها فى الغار، وبعد أن تطلع الشمس، تغادر جميع الطيور هذا الجبل، وتصعد صيحة حزينة وتدور حول قمة هذا الجبل حتى مغيب الشمس، ثم تعبر النيل إلى بلاد الفونج، وتخرج من جزيرة مصر

هـذه وتمضـى نحـــو البحـر المحيـط جنوبـًـا، وقـد رآها البُرتُغَاليون والهنـود فى سفنهم ولا يعلم إلى أيـن تمضى بعد عبورها البـحر المحيط، ولا يخرج من جزيـرة مصر طائر اللقلق، ولكنهـا لا تفرخ على السـاحل، لأن بيضها ينضـج فى الحر، ولقد شهدت فى طريقى إلى مكة بيضة نعامة ذات مرة، وقد ثقـبتها وأفرغت ما فيها لإحضارها إلى بلاد الروم إلا أن هذا الفرخ الذى خرج من البيضة طار من شدة الحر وقد زرت مقبرة الطيور ذات الأكفان، ومضيت إلـى الغار المذكور، وكان غاراً عظيمًا ولم يـكن ظلامه دامسًا، ولكن من جثث الطيور تصاعدت رائحة تفقد الإنسان وعيه، ورأيت جميع أنواع الطيور فى هذا الغار، وفى كل عام تأتى الطيور من جميع الأجناس إلى هذا الغار وتمضى هذه الطيور إلى أسوان والسـودان وتعبر البحر المحـيط، وتعود إلى السـواحل فى الربيع وتحوم حول هذا الجبل سبع مرات وهذه الطيور لا تنام ليلاً بل تمضى وتتهافت على هذا الغار، والله يعلم عدد هذه الطـيور، وفى كل عام تبدى منظراً عجيبًا ويـأتى أهل هذا الإقليم، ويمضون إلى هذا الغار ويذبحون كل طائر وهم يصنعون فى ذلك مثلما كان عليه آباؤهم بحيث لا يبـقى فى الغار طائر، وهم يعلـمون أن الطائر منها إذا وقع فتـلك أمارة على القحط، وكل إنـسان يخزن متاعه على أن قـحطًا عظيمًا سوف يقـع، وإذا صلب طائر سهل صيده وإذا صـلب طائران أخذوا بيضهمـا، وإذا صلب ثلاثة طيور كانـوا غنيمة، وإذا اقتربت من النيـل بمقدار ستة عشر ذراعًا تحصل مال للدولـة وإذا صلب أربعة طيور أثرى جميع الملتزمين، وإذا صلب خمسة طيور أصبحت أفراد الرعية جميعها أمراء، وإذا صلب ستة طيور ارتفع النيل ستة وعشريـن ذراعًا وكان فى كل سنبلة مائة حبة، ويعجز الفلاحون عن حمل محصولاتهم من بيادرهم وهـذا معتقد الفلاحين فى الصعيد ويعجز الرعايـا والأمناء والكاشفـون أيضًا عن حمل مـحصولاتهم مـن البيادر، وتلك حـكمة عجيبـة وطلاسم قديمة وسحـر، والحمد لله أننا رأينـا هذا المنظر العـجيب فى سياحـتنا وتجاوزنا هذه المحلة وانطلقنا جنوبًا وبعد ست ساعات بلغنا قصبة أبو تيج.

أوصاف قصبة أبو تيج

إنها كاشفية تابعة لحكم جرجا، وبها مائتـا قرية يتحصل منها سبعون كيسًا وعشرون ألف أردب من الغلال، ويحاسـب عليها فى ديوان جرجا، ويقيم أغـا استعجال الغلال

فى جرجا، ولـيس فيها عسكـر ولا مفتى ولا نقيـب، وهى قضاء يغل مائـة وخمسين أقجه، وفى ناحيتها ثمانون قرية، وهذه القرى تلحق بقاضيها ويتحصل منها على خمسة أكياس فى العام، وبها ألف بيت وسبعة محاريـب وثلاثة جوامع وستة مكاتب للصبيان وخمسون سـوقًا صغيرة إنها قـصبة صغيرة اقتـضت حكمة الله أن أنزل ضيـفًا على دار ضيافة كاشفـها، وفى الضفة المقابلة للنـيل قبيلة أبى يحيى بهـا ستة آلاف فارس وجند يركبون الجمال وقد حاصروا دار الضيافة التـى كنت بها ونشب القتال وبدأوا فى إطلاق رصاص بنادقـهم وفى دار ضيافتنـا هذه وقف عشرة من الجـند التابعون لإبراهـيم باشا وثلاثة وعشـرون من جند الكاشف وسـبعة جنود ممن مـعنا ووقفوا جميـعًا وراء ثقوب المزاغل وأطلق الرصاص علـيهم فقتل ستة عشر من العرب وسبعـة جياد وقدم فرسانهم إلى قصبتنـا، وكان معنا سبعون فارسًا فـخرجنا من دار الضيافة ووقعـت مناوشات بين الطرفين وقد قتل مـن العرب ستة وعشرون كما قتل فى دار الضيـافة اثنان وأربعون من العرب وقد تدحرجت رءوسهم، وتعلق بقيتهم بأذيال الفرار وكثير منهم غرقوا فى النيل وغنمنا منهم سبـعين جوادًا وسبعة حُجُور[1] وأحد عشر هجينًـا ووقع فى الأسر ثلاثة عشر عربيًا واسـتشهد منا سبعة من الـعرب ونفق جوادان وقتل جندى من جـنود الباشا وثلاثـة من رجال الكـاشف وأمام دار الـضيافة وضـع اثنان مـن العرب علـى الخازوق ووضعت رأسهما على رمح وحشى جلدهما بالقش وبعث بهما فى موكب إلى جرجا، وقد وهبنى الكاشف ثلاثة حجور وهجينًا، وقد مضيت مع الجند إلى جرجا فى الموكب وتجاوزناها إلى:

بلدة شيخ ابن عابد

وهو من المشايخ المطيعـين للسلطان سليم، وتسمى هذه القبيلـة قبيلة الهوارة وخيول مصر فى هذه القـبائل إنهم عشرة عشائر وقـبائل، ورجالها شجعان ولهـم ثمانية آلاف جندى وأرضهم كثيرة المحاصيل ولهم خمـسمائة بيت وجامع ودار ضيافة، وللشيخ عابـد بها قصر عظيم، وثمة ضريح للشيخ ابن منجا وفى كل ليلة جمعة يزور الشيخ ابن عابد ضريح الشيخ ابـن منجا ويقيم له المولد الشـريف، ويضيف الفقراء والمساكـين ومنحتنى

(١) الحِجْرُ: أنثى الخيل، والجمع: حُجُور وأَحْجَار انظر: المعجم الوجيز ص ١٣٦.

قبيلة الهوارة مهراً ومضيت إلى شاطئ النيل ثـانية، والنيل فى تلك الناحية واسع وفيه جزر، وفى كل جزيرة غابة وهناك فى الـنيل تماسيح وأفراس النهر، وإذا فاض النيل انشعب من النيل ترعة فى الرمل وهى ترعة عـظيمة، وفيها تجرى مياه النيل، وبهذا الماء ترتوى آلاف القـرى وفى هذه الترعة عمـود عليه طلسـم ضد التماسيح ولـذلك تخاف التماسيح دخول هذه الترعة. فإذا دخلها تمساح نفق وانقلب على ظهره على وجه الماء، وهناك التماسيح تأكل الجثث التى فى الطين وصغار الأحجار وتصعد من قاع النيل جثث التماسيح بين الجزر بعد أربعين يومًا ويمضى أهل تلك القرى وأولادهم إلى شاطئ النيل وهم آمنون لا يخـافون شيئًا، ويشربون مـن مائه، ويمضى الرجال والنسـاء إلى ساحل النيل، ويضربون ماء النيل بعصىّ غلاظ.

والتماسيح تـخطف خيولهم وجمالهـم وتصعد الجزر وتأكلها، إنه حـيوان لعين ويداه وقدماه ضعيفة وهو يبتلع الرجال والأطفال، أما إذا دخل التمساح ترعة الرمل نفق فى التو من أثر الطلاسم التى فى الترعة، والفلاحون يخـلون جسمه من جلده ويصنعون من جلده قوارب يعبرون بها الترعة ومضينا سبع ساعات جنوبًا وعلى بعد من النيل قصبة تمه.

أوصاف قصبة تمه (طما)

إنها التزام تابع لجرجا، وبها خمسمائة بيت وجامعان ومقهى وبها سوق عظيمة ودار ضيافتها قصرٌ كـبيرٌ، وفيها حدائق هنا وهناك وبها سـاقية وزاوية، وتجاوزناها إلى أرض ذات نخيل وبعد خمس ساعات بلغنا قصبة تحته (طهطا).

أوصاف قصبة تحته (طهطا)

بنيت فـى عهـد العباسيـين إنهـا تابعة لجرجا ويتحصل منها ثلاثون كيسًا وثلاثة آلاف أردب من الغلال وفيها من الجند ثلاثمائة. إنها كـاشفية وليس فيها طوائف عسكرية ولا شيخ إسلام ولا نقيب أشراف ولا قواد، وهى قضاء يدر مائة وخمسين أقجه، وسبق أن تحصل من مائة وخـمسين قرية فيها عشرة أكـياس، وأغا استعجال الغلال بهـا مقيم فى جرجا.

وهى تقع على ربوة بالـقرب من شاطئ النيل، وهى ليست قصبـة كثيرة السكان أما

قديمًا فكانت معمورة وآثار مبانيها ظاهرة، وفيها الآن ألفى بيت وعشرون محلة وسبعون محرابًا وتسع خطب وتكيتان وحمام مظلم قذر ومائة سوق صغيرة وثلاث وكالات وثلاث مقاه، وعشرون سبيلاً، وفيها ثلاث منارات ظاهرة إضافة إلى الزوايا التى ليس لها منارات، وهذه البلدة ثقيل وخمٌ جوها، وأهلها فقراء، وبالقرب من البلدة فى النيل جزر، ويَضِلُّ الإنسان فى شوارعها كما أن فيها كثير من التماسيح، وبعض الفتيان يقتلون هذه التماسيح وينصبون جلودها على الأبواب دفعًا للصوص، وأكثر الأبواب فيها عليها جلود التماسيح، وقد دفن فى أرضها أولياء.

الأولياء المدفونون فى أرض تلك البلدة

فى خارج المدينة قدوة الرجال ونقطة الكمال الشيخ أحمد الفرغل ولقد أظهر من كراماته الكثير، إنه قطب عظيم، كما زرت الضرائح التى فى المقبرة التى تجاوز ضريحه ومضيت فى البستان القريب منه، وهو كثير النخيل، وكان الجو شديد الحرارة.

أوصاف حكومة بلدة الجزيرة

إنها فى جرجا ولها ثلاثمائة تابع، تغل مائتى كيس، ويتحصل من قراها عشرون كيسًا وعشرة آلاف أردب من الغلال، وحسابها فى ديوان جرجا، وهى قضاء يدر مائة وخمسين أقجه فى كل مدة ثلاثمائة كيس يحصلها وليس لها عسكر من سبع فرق، ولا يوجد بها أغا للغلال ولا نقيب ولا مفتى إنها قصبة يسكنها الكاشف، وليس فيها إلا جامع ومقهى ومبرة وسوق ولكن فيها كثير من الضرائح، وأسماء أصحابها لا ترد على خاطرى، ولقد قرأت لأرواحهم سورة يس، ووهبت ثوابها لأرواحهم الطاهرة، تقبلها الله تعالى، ثم ركنت إلى الراحة ساعتين وبعد زوال الحر فى وقت الزوال قمنا ومضينا لمدة ثلاث ساعات وبلغنا سوهاج.

أوصاف قصبة سوهاج

إنها فى حكم جرجا، ويتحصل منها خمسون كيسًا وألف أردب من الغلال، وتضم ثلاثمائة قرية، وهى تمد جرجا بالغلال وأغا غلالها يقيم فى جرجا، ولقراها الستين

قاضٍ شرعى، ويتحصل منها عشرة أكياس فى العام، ولقربها من جرجا ليس لها عسكر من سبع فرق ولا مفتى ولا نقيب إنها قصبة جميلة قائمة على ربوة رملية بها بيوت ذات أسوار كأنها أسوار القلاع، وبيوتها ألفان ومائة وستون بيتًا من كبير وصغير وهى بيوت متعددة الطوابق وبها ست عشرة محلة، وستة جوامع، وخارج هذه البلدة من الناحية القبلية جامع السلطان أكراد وطوله وعرضه خمسون خطوة، وبه اثنان وثلاثون عمودًا وعلى يسرة هذا الجامع على بعد عشرة خُطَى منارة عالية جميلة، وللجامع بابان جانبيان وباب للقبلة، وبالقرب من قصر الكاشف جامع السلطان أيبك التركمانى، وفيه سبعة أعمدة منقوشة تحمل سقفًا منقوشًا ومنارة مُنْهدِمةٌ، إنه جامع قديم، وهى عجيبة الشكل، ولم نشاهد جوامع أخرى، وبها خمسون محرابًا مع الزوايا وثلاث تكايا بدوية وسبعة عَلَوِيَّة وثمانية برهانية، وفى سبع زوايا مدارس، وبها عشرون سبيلاً عذبة الماء واثنا عشر مكتبًا للصبيان وست وكالات وستة خانات منها خان سليم الكاشف وخان كشك أوغلى، كما أن فيها حمام ومائة دكان ولا وجود فيها لسوق للحرير، وبيوتها بهذا القدر وهى قليلة العمران وليس بها قصور عظيمة، والفقراء فيها كثير، ومئات النخيل، والحدائق فيها قليلة وإذا ما اشتدت بها الريح ثار الغبار، وخبزها جيد كما أن شمامها طيب وبساتينها كثيرة وأرضها خصبة وإن الكيلة تغل خمسين كيلة من الغلال وفولها وفير.

بيان زيارتنا لقطبها العظيم

هو الفاضل العالم أبو القاسم، وقبره يزوره الناس ليل نهار، وخرجنا من هذه البلدة وعبرنا النيل ومضينا شرقًا وغربًا وجنوبًا وشمالا، وذلك لأن تخطى التُّرع والخلجان كان مستحيلاً، لذلك اتجهنا فى الطريق يمينًا وشمالا، وتحملنا مشقة شديدة طوال سبع ساعات وبلغنا قصبة المنشية.

أوصاف قصبة المنشية

يحكمها كاشف وبها مائتا قرية ويتحصل منها ستون كيسًا وأحد عشر أردبًا من الغلال، ولها من التوابع مائة، وليس بها عسكر من فرق أربع ولا مفتى ولا نقيب

وأعيان أشراف وأغا الـغلال يسكن جرجا، وهى تـضم سبعًا وستين قريـة، وعلى بعد خمسمائة خطوة من النيل ألفا بيت وسبعة عشر محرابًا وثلاثة خطب إنها قصبة جميلة، وفى سوقهـا جامع السلطـان محمد أكراد وطولـه وعرضه أربعون خطـوة، وفى أركان حرمه الأربعة أعـمدة وفى داخل الجامع اثنان وثـلاثون عمودًا تحمل سقفًـا مزخرفًا وبه ثلاثة محاريـب وعلى بـاب منبره الخشبى كتب تاريخ هو:

(أمـر بإنشاء هـذا المنبر المبارك محمـــد بن أبى بكر فى شهر رجب سنة أربع وثلاثين وسبعمائة)

هذا هو محمد أكراد الذى أقام على قبر الإمام الشافعى فى مصر قُبَّة وهو مدفون إلى جانب الإمام الشافعـى، وليس فى هذه البلدة جامع كبير سـوى هذا الجامع علاوة على المساجد المعمورة فيها كما أن فيها حمامًا وخـانين وسبعة أسبلة، وثلاثة مكاتب للصبيان ومائتى دكان وسبعـة مقاه، وجمال جوها يشبه جو حدائق أرض الـروم، وأهلها يحبون الغرباء ويكرمونهم، وغـادرناها وانطلقنا جنوبًا على ضفة النـيل واجتزنا مزارع وبساتين الشمام، وبعيدًا عـن النيل أرض ذات نخيل، وقرى وحدائق وساقيـة، وعبرنا زوايا بها أشجار وارفة.

أوصاف مدينة عظيمة هى عاصمة الصعيد القديمة وهى مدينة جرجا

اسمها مـدينة دهليز حبش وبـانيها هو طوطش بن أبـى القبابطة بعد الـطوفان وهى مدينة عامرة عظيـمة، ثم آل الحكم بعده إلى ابنه جرجيس وقد أنـشأ مدينة جرجا وكان شداد هو بانـيها لقد كانت حـديقة إرم، ولذلك وقع الخـطأ فى اسم هذه المدينـة فقالوا جرجا والصواب أن يقال جرجيس وهى تغل ستة أحمال من المال للسلطان وهى ملحقة بالخدمة السلطانيـة مع مكة والمدينة وآستانة، ومنها أمير الحاج، ولـه منصب عظيم وكل قرى جرجا عـامرة ولكن ألفًا وخـمسة وسبعين مـن قراها خاصة بغـلال الدولة، وهذه القرى تغل فى العام ثمانين ألف أردب من الغلال، ولكن جرجا تدر مائة وستة وثلاثين ألف أردب من الغـلال، ويفيض لوالى مصـر مائة وثمانون ألف أردب عـلاوة على ما يدخل تحت حكم جرجا، أما من القرى التى فى الإقليم فيحصل منها مائة وأربعون باره

إنها بلدة وفيرة الغلال، ويحصلها ضابط الحاكم وهى وقف، ويجرى منها الرواتب على جامع الأزهر وغيره من السلاطين، وأمير ميران جرجا يضع يده على هذه الأوقاف أما إذا ما ظلم ففى اليوم الثالث يعترض على ظلمه علماء مصر ليمنعوا الظلم. وليس فى إقليم جرجا تيمارات ولا زعامات، إنها قرى سلطانية وأوقاف، ويبقى لحاكم جرجا بعد المصروفات ثلاثمائة كيس ولكن حاكم جرجا المغفور له على بك تحصل لنفسه على مئات الآلاف من القروش لنفسه فرضها على الأهالى، وهذا صحيح لأننا نظرنا فى دفتر خانه جرجا وفى الإيرادات والمصروفات، لأن فى إقليم جرجا سبعة وثلاثون كاشفًا وفى إقليم جرجا واحد وثلاثون قضاء، وبها ستة آلاف ومائة وسبعون قرية عامرة، ولكن حسب حساب قرى الأوقاف، ويأتى مشايخ العرب إلى ديوان جرجا مرة فى العام ويجددون بيعتهم لحاكم جرجا، ويلبسون الخلع والثياب الحريرية، ويحصلون المال السلطانى الخاص بالعسكر، وينال شيوخ العرب هؤلاء من هذه القرى أحد عشر ألف رأس من الغنم ومائة ألف أردب من الشعير وخمسين ألف أردب من القمح وأربعين ألف أردب من البقلة، كما يقدمون إلى الحاكم الهدايا.

وقد تجمع للحاكم عشرون ألف أردب من القمح وأربعون ألف أردب من الشعير وزعها على الجند، أما ما تبقى من هذه الغلال فقد باعها، وطبق قانون السلف يقدم خمسمائة جواد من إقليمه، ويرسل كذلك من الهدايا ألف وخمسمائة جواد وسبعمائة أو ثمانمائة قافلة من الجمال ولتحصيل هذه الغلال يأتى فى كل عام خمسة آلاف حمار، ولجرف الترع والخلجان يأتى ألفا ثور، ومائتان من الخصيان وألف من المماليك غير السود كما ترد هدايا لا حصر لها، ورؤساء القبائل وشيوخ العرب وشيوخ البلدان، وجميع الكاشفين وبقية الأعيان يأخذون هذه الهدايا، وفى كل عام يأتى مالٌ وفير بلا حساب، أما المصروفات فهى خارجة عن الحساب ويتسلم باشا مصر كل عام سبعين كيسًا وأربعين من الخيل ومن هذه الخيول ما هو مُحَلًّى بالذهب وذهبى السلاسل وأربعين مملوكًا أسود وعشرة من الأحباش وهؤلاء المماليك جميعًا فى ثياب فاخرة، ويأتى مع هؤلاء الهدايا من ماء الورد والمسك والعنبر والكافور وسن الفيل وجلد التمساح، وآلة

الحرب، هذا كله ما يأتى على الترتيب لهؤلاء الغلمان السود ولهم كذلك عشرون جارية من بلاد الفونج إنهم يأتون فقراء خالين الوفاض ولكنهم يثرون بتلك الهدايا ومائة جمل بلدى وألف أردب مـن القمح، وألف أردب من عدس وألف أردب مـن قريك، وألف أردب من شعير، ويسلم هذا كله إلـى باشا الغلال، وألف رأس من الغنم، وألف رأس من الحملان تصل إلى وكيل الخراج، ولوكيل الـباشا فى كل عام عشرون كيسًا، وعشرة خيول، وعشرة من العرب، وخمسة من الطواشى، وخمسة جمال، وكلها تحمل السكر والعدس والبُنّ، كـما تصل هدايا لا حصر لـها إلى افندى الديوان ووزير مـصر وسبعة عشر قائدًا، والحكام بـاشى والمشعل باشى، هؤلاء ينالون هدايـا لا تَدْخل تحت حصر، وفضلا عن هذه الـهدايا يتسلمون العيـدية، كما تصرف رواتب وتعييـنات إلى أصحاب المناصب ورجال الديوان والقواد وطوائف الجند المصريين فى جرجا ومن يتبعهم من جند الحراسة والأئمة والخطباء والمشايخ وتصل فـى كل عام إليهم أربعة آلاف رأس من الغنم وعشـرون ألف أردب من حـنطة وأربـعون ألف أردب من شـعير، وفـى كل يوم لـهم عشرون ألف رغـيف، يزن كل رغيف تسعـة دراهم، وألف قنطار من الزيـت وسبعون قنطارًا من العسل ومـائتا حقيبة من البن ومائة سفينة خشـبية، وآلاف من أحمال الجمال وهذه القرى هى التى تقدم هذه التعيينات ويـنال الجندى ثلاثمائة كيس علوفة، والجندى ينال مرتبًا شـهريًا قدره مائة قرش وحامل البـندقية خمسة قروش مرتبًـا شهريًا، ورئيس الفرقة يتـقاضى ألفى قرش وخمسة جـياد فى العام، وعشرون من رؤساء الـفرق ينالون ألف قرش وجوادين، أما الأوده باشية فيصرف لـهم خمسمائة قرش وجواد واحد، كما يبذل العطاء للخـدم وبناء على ذلك فإن نفقات وزير مصر ربما زاد علـيها نفقات حاكم من الحكام، وهـذا مقيد فى دهلـيز جرجا، وهو ديوان عـظيم، وكل ما فى مـصر من أرباب الـديوان قدرهم فـى ديوان جرجا وفـيه أصحاب المـناصب ولكـن جميع كـتاب الديوان من القبط لأن لهم عقل أرسطو، إنهم يشقون الشعرة دقة منهم ويحسبون أصغر الجزئيـات فى الحساب فى قـدرة ومهارة، وخلاصة الـقول طبق قانـون السلطان سـليم فلحاكم جرجا هذه الـكيفية فى تدبير الأمور، ويكون الحساب قيـراطًا قيراطًا ولكن هذا

المال الوفير يحصله الجند بالعنف، لأن الإقليم الكبير قد يكون أهله متمردين، والأموال التى فى ذمة العرب يحصلها منهم جيوش جرجا، والجند يطلعون على شأن كل بيت من بيوت القرى، وهم يحصلون منهم الغلال دون خوف منهم، ولا خشية ولا اكتراث بهم فبين هؤلاء العرب فتيان شجعان أولو بأس شديد ويسمون هؤلاء العرب الصبيان، وفى ديارهم مال كثير لأن بلادهم على حدود بلاد الفونج وعلى الجانب الشرقى من هذه البلاد يكون المسير على شاطئ النيل إلى بلاد الحبشة وعلى مسيرة شهرين جنوبًا بلاد البربر إن آخر قلعة على حدود مصر على مسيرة ثلاثة أشهر فى الصحراء بلاد الفونج، وثمة ولاية قرمانقه ومنها وعلى مسيرة شهر بلاد السودان، وفى الجانب الغربى على مسيرة ثلاثة أشهر بلاد فاس ومرانكوش وهذه البلاد خاضعة لحكم جرجا وأرض ملاصقة لحدود المغرب وطرابلس، والحاصل أن ولاية جرجا فى الإقليم الأول وله علاقة بالإقليم الثانى، إنها واسعة متراخية الأرجاء وغلاتها وفيرة وأهلها محبوبون وخيراتها وبركاتها كثيرة، ونهر النيل فى جرجا يجرى فى ترعها ماؤه عذب فرات، إنها أرض ملكية ما يسميه الغرب دهليز الحبش، ومعناه العرش الصغير لبلاد الحبشة، والعرب يملكون هذه الأرض الصحراوية، وقد حررنا هذا فى قضاء بنى سيف وسنحرر الباقى عند سياحتنا فى بلاد أخرى، ولوزير جرجا أغا عالى المنصب، وهو يأتى لتحصيل الغلال، ويسكن قصرًا شامخًا فى جرجا، وهو يلح فى طلب هذه الغلال، ثم تخزن هذه الغلال بعد تحصيلها فى مخازن على شاطئ النيل، ويأتى من مصر أغا المخزن ليحصلها فى ألف سفينة، وفى مصر العتيقة توضع فى مخزن يسمى مخزن يوسف، وأكوامها كأنها الجبال وينال منها جميع الجند جرايتهم وطوال ثلاثة أشهر، ومخزن يوسف هذا سر إلهى وللأغا محصل الغلال حمام وجوادان والأغا ينال على كل أردب بارتين ويأخذ عشرين كيسًا فى السنة ويسلم الباقى للباشا وهو خمسة أكياس ويمنح الكتخدا ويأخذ الكتخدا ثلاثمائة قرش ويأخذ الكتخدا من الباشا جوادًا على كل ثلاثة جياد وخصيا على كل ثلاثة من الخصيان، وهذا الأغا يأتى كذلك لاستعجال تحصيل الغلال، ويأخذ على ذلك كيسًا من المال وغلامًا أسود؛ وذلك لتحصيله للغلال ولا يأتى

جنود من استانبول إلى جرجا ولكن يأتى إليها من مصر الجند المعروفون بقبوقولو أى جند الباب وقائد الانكشارية وقائد العزب وجند من الخمس فرق لحراستها وتنظيمها، ولا وجود فيها لقائد انكشارية استانبول ولا نائبه، بل يرسلون جنديًا غير مرضىٍّ عنه من استانبول إلى مصر وفيها شيخ الإسلام على المذاهب الأربعة ونقيب الأشراف، ومحصولها فى العام عشرة أكياس ويتبعها مائة وثمانون قرية وفيها كثير من الأعيان والأشراف والتجار والملاحين والتجاريين.

وثمة مرفق يسمونه مرفق القصير خلف الجبال على أنه ميناء مكة والمدينة فى السفن ولذلك كان معظم أهل جرجا من التجار والفلاحين.

وبما أن جرجا تقع فى وسط الإقليم الثانى فأرضها على عشرين درجة وسبعة وعشرين دقيقة وطول نهارها ثلاث عشرة ساعة وخمس عشرة دقيقة، وثمة أرض واسعة خالية بين جرجا وبين قلعة طولها ألف خطوة بعيدة عن غرب النيل وفى جوانبها الأربعة عشرون بابًا من خشب ولا خندق لها وعلى كل باب حارس ويوصد كل باب ليلاً، وبها قصور مكسوة بالجص وحدائق وساقية وحوض وشاذروان وجدران القصور مزينة وبها عشرة آلاف وثمانية وسبعون بيتًا بين كبير وصغير، وبها تسع محلات وثلاثة وخمسون محرابًا وأحد عشر جامعًا تؤدى فيه صلاة الجمعة إضافة إلى جوامع السلاطين جامع الميرميران، وفى السوق جامع طوله وعرضه ستون خطوة وهو يسمى جقور جامع، وبه ثمانية عشر عمودًا فى أطراف حرمه، عليها سقف منقوش وليس له قُبّة وعلى باب منبره وهو من الخشب كتبت الآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ....﴾ [الأحزاب: ٥٦].

وفى السوق جامع السلطان، وطوله وعرضه ستون خطوة ويصعد إليه بسلم من ثلاث درجات، وبه خمسون عمودًا منقوشًا وسقفه منقوش ومزين ومذهب وله ثلاثة محاريب وثلاثة أبواب ويصعد إليه وينزل منه بثلاثة سلالم، وتحته ستون دكانًا، وفى حرمه دكاكين للحرير والأقمشة وفى هذه المدينة تباع سلع قيِّمَة، ومحلات بيع الأقمشة

لها أبواب متينة، وتوصد فى كل ليلة وعلى يمين هذا الجامع منارة ذات ثلاثة طوابق ولا يستطيع أن يصعد المنارة كل أحد لأنّها منحرفة ولوجود هذا الجامع فى السوق، والسوق مزدحمة فإذا انهارت ـ لا قدر الله ـ هذه المنارة هلك خلق كثير، إن الذى بناها ماهر، وحرم هذا الجامع مرصوف بالرخام وجدار القبلة من الرخام ومكسو بأحجار مختلفة جميلة، ومنبره من خشب مزخرف.

وفى السوق أيضًا جامع الأمير عثمان طوله وعرضه أربعون خطوة وليس له حرم، وله بابان جانبيان.

وفى غرب قصر البك وفى ميدان واسع جامع الشهيد سعيد محمد بك وهو جامع فوقانى وله ثلاثة أبواب ويصعد إلى كل باب منها بسلم يتألف من عشرين درجة إنه جامع جميل، إنه يشبه جامع رستم باشا فى استانبول وداخله مكسو بالقيشانى ومنقوش بنقوش مذهبة، وفى جوانبه الأربعة نوافذ من بللور، وله ثلاثة محاريب مزينة ومنبره ودكة مؤذنه من الخشب، وفى داخله أعمدة رقيقة، وفى الجانب الأيمن منه دهليز يفضى إلى دار ضيافة، فيها يستريح البعض كما يشتغل البعض بالعبادة وبما أنه جامع علوى فليس له حرم وصحنه مكشوف وفى داخله ثلاثون عمودًا منقوشًا مصنوعةً من شجر الدلب، فهى ليست حجرية وعلى يمنة المحراب كتب على لوحة من القيشانى:

(إن هذه حجرة الانكشارى محمد أوده باشى والسلطان مراد الرابع وقد صنعه عام ألف وثلاثة وأربعون).

وفى السقف كتب بالخط الجلى آية:

﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ [التوبة: ١٨].

وكتبت أيضًا أربعون آية تحيط بأركان الجامع الأربعة وعلى يسرة الجامع منارة جميلة وفى أسفله حوض وبه صنابير مذهبة وفى الجامع ستة مخازن، يضع فيها التجار سلعهم ودهاليز الجامع الستة تفضى إلى الطريق العام، وإن اللسان ليقصر عن وصف هذا الجامع ولا وجود فى مصر ولا فى الصعيد لمثله، وهناك أيضًا جامع اليوسفية وجامع

الفقـراء وجامع الشيخ عـبد السلام وجامع الـقائم مقام وحـمد بك وجامع المقـدم عبد الرحمـن وهذه الجوامع قـليلة الـزينة إنها لا تـعدو أن تكون عـلى الطرز الـقديم وهذه الجوامع يـؤمها كثـير من المصـلين وفى وسط المديـنة، جامع عـلى بك الجرجـى طوله وعرضه، خـمسة وأربعـون خطوة، وفى داخلـه ثلاثون عمودا مـن الرخام علـى يسرة المحراب المزخرف كتب على لوحة من الورق المقوى تاريخًا هو:

(ولأن حاكم جرجا أسد الله أهل الكرم (   )[1] زلفقار الأمير العالى صاحب الطبل والعلم، وقال كاتبه أن هذا البناء تم فى عام ألف وستمائة).

ومنبره من خـشب مزين، وعلى الباب الأيمن لـلجامع كتب تاريخ بـالخط الجلى هو سنة إحدى وسـتين وألف، وعلى الجامع منـارة من ثلاثة طوابق، وفيه خـمس منارات أخرى وإلى جانب الجوامع المذكورة مدارس وثلاثة دور لـتحفيظ القرآن وداران للحديث وثمانيـة عشر مكتبًـا للصبيان وسـبعة أسبلة وتـسع تكايا وألف ومـائتا ساقية وألـفا بئر وحمامان وأحدهما للفلاحين، وهو وبيل الجو، وضيق، وحمام غير ضيق، وفى السوق حمام على بك الميرميران وهو حمام ينشرح له الصدر لما فيه من مناشف وطاساته المذهبة وكل ما فـيه نظيف وأرضـه مفروشة بالـرخام وفى قبتـه زجاج وخدامه صبـاح الوجوه يخفون لخدمـة كل أحد فيه ولهم نواظر وكـأنها الخناجر، وفى هذه المديـنة عدة خانات وضيفان هذه الخانـات من التجار والمسافرين، وهى خان علـى بك وخان يازجى وخان موسى چاووش، وخان ممى كتـخدا وخان السكرى، وفيها أكثر من عـشرين ربعًا وهذه الربوع مساكن للأسر وفى المدينة ثمانمائة وستون دكانًا ولكن ليس فيها من يبيع الأقمشة بالجمـلة وفيها سـلع هندية وعـجمية وروميـة وكل الدكاكين الـتى أمام قصر عـلى بك الجرجى مزينة وفى سوق عـلى بك طريق رئيسىّ على جانبيه مائة دكـان مبنية بالحجارة ومسقوفة وفـيها سراجون[2] ولا وجود لسراجين فـى غيرها، وللسوق بابـان من حديد كأنهما بابـا قلعة يغلقهما البوابـون فى كل ليلة وليس فيها سوق لـلبز ولأن هذه السوق

---

(١) بياض بالأصل.

(٢) صانعو الـسروج. واحده سَرْج، وهو رَحْلُ الدابة. انظر: المعجم الوجيز، ص٣٠٨.

واسعة ففى سقفها منافذ للهواء، ويرش فيها الماء فى شدة القيظ وفيها استراحات ويستريح فيها الأعيان وهم يزجون الفراغ بلعب النرد والشطرنج، وعلى بك وهو فاعل خير يسقى دواب الرائحين والغادين من التجار والزوار ولذلك أنشأ أربعين ساقية، وهى تدور كما يدور الفلك. كما تروى هذه السواقى الرياض والبساتين، وهذه السواقى تأتى بالماء من الآبار وإلى جانب هذه الآبار فى جوانب المدينة الأربعة ثلاثة آلاف بئر، وفى جوانب المدينة الأربع حدائق وبساتين، كأنها إرم ذات العماد.

وفى أرض جرجا كنوز ودفائن وخبايا كثيرة، وفيها الخبز الأسمر الأُقَّة منه باره واحدة، والأردب من القمح بقرش واحد، وأردب الشعير بعشر بارات وثمن الخروف بخمس بارات وفى رمضان بعشرين باره، وغنم جرجا مشهورة وكل خروف يزن من أربعين إلى خمسين أُقَّة، وثمن العجل مائة بارة، وثمن الحصان مائتا باره وثمن الجمل ثلاثمائة بارة، أما المماليك البيض والأوانى النحاسية فغالية الثمن، أما فى تركيا فثمن العبد الحبشى بخمسة عشر قرشًا أو خمسة وعشرون قرشًا، وكبار أعيان هذه المدينة وأرباب الديوان يلبسون فيها السمور والأقمشة الفاخرة والجُوخ، أما متوسطى الحال فيلبسون ثيابًا قصارًا مبطنة، والفقراء يلبسون بز أسيوط، وأهل هذه المدينة مسنون معمرون، ومنهم من تجاوز مائة وسبعين عامًا وهم فصحاء بلغاء، كما أن شبابها يتميزون برجاحة العقل وفتيانها وفتياتها يتميزون بالجمال لاعْتِدَال جوها ولهم لهجة خاصة بهم، أما النساء يتميزن بصحة العقل ولهن أسنان كأنها الدر وغدائرهن منتشرات وكأن وجوههن بدر التمام، وكل من شاهدهن تعلق قلبه بهن، كما أَنَّهُنَّ رشيقات القوام وإن وجد كذلك عجائز دميمات وساحرات خبيثات يستوجبن القتل وهن يسحرن الغرباء ويؤذينهن بسحرهن، وذلك أن السحر كان شائعا فى هذه الديار منذ عهد الفراعين.

منتجات ومصنوعات هذا الإقليم

يوجد بها الخبز الأبيض كالورد الأبيض وفطائر والكعك واللبن والقشدة، وفريك القمح والسمن والعسل والتمر والليمون والسفرجل والعنب والرُّمان والخوخ، والتين

الأبيض فيها ليس له مثيل فى بلد آخر ولكن إذا ما حملوا التين الطازج فى سلة إلى خارج المدينة فقد لذة طعمه، وهو سريع الهضم وهو مقو، وتنتج ثلاث مرات فى العام، وفيها الغنم والحملان كما أن دجاجها سمين كما تشتهر بخيولها وجِمَالها وسمكها، ومن مصنوعاتها الوسائد المصنوعة من الجلد كما يصنع فيها الأبنوس وسن الفيل والشطرنج ووبر الجمال وصوف الغنم وسجاجيد الصلاة والسفن، وفى جوانبها الأربعة مصاطب السوق تستحق المشاهدة وأمام قصر البك يحتشد جمع غفير من الرعاع والعرب وفى الديوان عديد من القاعات والحجرات وفى حديقة الديوان حوض ونافورات وسبل، كما أن ثمة طيور تصدح بأنغام عذاب.

بيان من دفن فى تراب هذه البلدة من الأولياء

أولا بالقرب من جامع على بك وفى نهاية دهليز بابه الأيمن قبر صغير للشيخ المكى وهو من أهل الطريقة البكرية، وحينما كان يحفر أساس هذا الجامع عثر على حجر مربع كتب عليه بالخط الكوفى:

(هذا قبر الشيخ محمد المكى سنة ١٠٤١، إن هذا العبد العاصى غادر تراب المذلة هذا وانتقل إلى أرض أخرى إنه مقامنا هو بيت الله ونحن نسكن بيت الله إلى أن تفنى هذه الدنيا).

وقد ظهر قبر هذا القطب أثناء بناء جامع على بك فنقل جثمانه من موضعه ودفن إلى جانب أساس الجامع ومنذ وفاته إلى بناء هذا الجامع ثمانمائة وتسعون عامًا وما زال جثمانه غَضًا وقد شهد على ذلك ألف وستون من الناس والكُلُّ يعرف كرامات هذا الولى ويقرأ عنها فى الكتب وهؤلاء المشاهدون كانوا يلتمسون منه البركات، كما دفن هناك الشيخ المَجْذُوب دهيش بن محمد، وخارج البلدة الشيخ عثمان الصنافيرى وبالقرب منه ابن تميم الدارى، والشيخ عبيد وقطب العالم الروحانى وحكمت المعدن الربانى الشيخ عبد السلام المقرى، والعالم النصيح ذو اللسان الفصيح الشيخ صبيح، والشيخ عباس، والشيخ بياض، وكذلك الشيخ عمر الحلوانى، وفى جامع الفقراء الشيخ

منصور العالم، وبجواره الشيخ حسن السعدى ومحمد أغا وفى الزاوية مقام الأربعين والشيخ عبد السلام وبجواره الشيخ عمر الحورانى وبجواره زاوية مقام الأربعين رحمة الله عليهم أجمعين.

ولله أحمد أنى قرأت الفاتحة لهم جميعًا وطلبت البركة من أرواحهم الشريفة وقد قضيت عشرة أيام هناك فى بهجة وسرور وقد حملت فرمان إبراهيم باشا إلى حاكم جرجا وفيه ذكر لغرق سفينة الغلال وحملته إلى الديوان وبناء على شهادة الأهالى أخبرتهم بأن سفينة الغلال غرقت وأثناء أخذنا من ربان السفينة خمسمائة قرش، وقدمنا للباشا خمسة أكياس ونلنا من حاكم جرجا أوزبك بك كيسًا وقماشًا من المخمل وجوادًا وهجينين، وفَرْوَ سمور كما نال كل خادم منا مائتى قرش ومعنا عشرين من حَمَلَة البنادق فودعنا أعيان البلاد جميعًا وأرسلنا إلى الباشا جوادًا وعشرة قروش.

بيان القرى والقصبات من جرجا إلى إسنا وأسوان والشلالات

وقد لقينا مشقة شديدة من شدة القيظ فى رحلتنا من جرجا إلى إسنا وأسوان والشلالات وأبريم وصاى وبربرستان وفونجستان، وقد مررنا فى طريقنا على منازل وقرى وقصبات أولا فى شهر صفر من عام ألف واثنين وثمانين فى اليوم الأول من شهر صفر وفى معيتنا فرسان وعبيد اشتريناهم ومضينا لطياتنا وركبنا سفينة فى النيل ودخلنا ولاية شرقستان وفيها يسمون جرجا غربستان، وإقليم شرقستان فى حكم أبى يحيى، وله عشرة آلاف فارس يحملون الحراب وبلغنا مدينة:

أبو خالد

ونزلنا فيها ضيوفًا ليلة، وهى بلدة صغيرة بها مائة بيت، ومضينا فيها إلى شيخها أبى يحيى وشرفنا بصحبته، وهو من أبناء الشيخ خالد، وإذا لم تضع امرأة حملها وغطت رأسها بسراويل الشيخ وضعت، ويقول بعضهم إن هذه السراويل المذكورة ليس للشيخ إنها خاصة بخالد بن الوليد، وقد آلت إلى الشيخ بالوراثة ـ والعهدة على الراوى ـ لأن هذه السراويل وما لها من خاصية معروفة مجربة أحضرت هذه السراويل من التكية فوجدتها سراويل حمراء ملفوفة، ويقال لقوم الشيخ يحيى بنى خالد إنهم قومٌ فى نعمة

ورغد كما أنهم مطيعون منقادون، وخيولهم عجيبة، وفى الجهة الشمالية من إقليمهم مساحة واسعة من الأرض، وفى الجهة القبلية السويس، وعلى شاطئ بحرها قلعة ميناء القصير وفى الجنوب مدينة مشا والشمال قضاء أخميم، وهى حدود صغيرة إلا أن قراها عامرة كثيرة المحاصيل فيقع هذا الإقليم بين بحر القلزم والنيل وهو إقليم واسع ومن الصباح اتجهنا إلى الشيخ يحيى بكيس كان قد أرسل معنا أمانة من أغا غلال جرجا إلى الشيخ يحيى، ومضينا مسيرة خمس ساعات على شاطئ النيل فبلغنا:

بلدة حمادى

وهى على ضفة النيل وتحوى مائتى بيت وجامعًا، ويسكنها أولاد الشيخ حمادى وهو من ذوى قربا الشيخ يحيى، وهم يسكنون هنالك كذلك وفيها ألف فارس وأبو يحيى من الهوارة واجتزناها وبلغنا:

بلدة مزادى

وبها ستون بيتًا وليس بها جامع ومضينا على ضفة النيل سبع ساعات وبلغنا قصبة بلابش.

اوصاف قصبة بلابش

إنها فى حكم جرجا وكاشفية قوص ويتبعها مائة وسبعون قرية تدر أربعين كيسًا من المال وألف أردب من الغلال، وكلها عسكر وهى قضاء فوه، ويأتيها مرة فى الأسبوع نائب يحكمها، وبها جامع ودار ضيافة وستون بيتًا ولا آثار لعمران سوى ذلك وهى كثيرة المحاصيل، وهم يزرعون نباتًا يشبه شجرة ذات سوق ويعلو حتى يبلغ قامة الإنسان وله نورٌ أصفر مثل النرجس، وله رائحة طيبة، ويجمع فى الربيع ويصدر إلى فرنسا ليصنع منه الصبغة، ويشترى التجار القنطار منه بمبلغ ستين قرشًا، ثم يكتمل نوره ويمتلئ بالبذور وتجمع هذه البذور ويباع الأردب من هذه البذور بثلاث قروش ويستخرجون منها فى مصر وغير مصر الزيت، وزيت السمسم زيت لذيذ المذاق وله رائحة طيبة مثل الكافور والمسك والعنبر وإذا وضع فى القناديل انبثقت منه شعلة مضيئة.

وتجاوزنا هذه القرية، وفى الجنوب على ضفة النيل رأينا جبلاً على ساحله قرى عامرة وفى هذه القرى رأينا نوعًا من الدوم، وفى الطريق إلى الشمال رأينا بلدة تسمى بلد الدوم، وفيها أخشاب ترتفع فى السماء معوجة وغير معوجة لكنها أشجار دوم، ولكن هذا النوع من الدوم كل عذق منه يزن قنطارًا أو قنطارين، وكل دومة فيها تزن أربعين أو خمسين درهمًا، وهو دوم أحمر اللون وحجمها فى حجم القبضة وهم يستأصلون من الدوم شوكها ويضعونها فى حق فيه الفلفل الهندى والتبغ فيصبح هذا الدوم لذيذ المذاق والفلاحون غالبًا ما يأكلونه.

أوصاف قصبة فوه العليا

هى قصبة معمورة بعيدة عن النيل فيها ثلاثمائة بيت وهى تحت حكم جرجا، وهى مع توابع قوص، وبها مائتان من الجند المعروفين، بـ (سكسان) ويتبعها تسعون قرية تدر أربعين كيسًا ويتحصل منها على ثمانمائة أردب من الغلال، وليس فيها جند من الفرق الأربعة ولا قائد وبها دار ضيافة عظيمة، وبها جامعان كبيران وسبع زوايا ومقهيان، وليس فيها حمام ولا خان ولا سبيل ولا سوق، ولكن فيها مكتبين للصبيان، والكاشفون يقيمون بها فى خيام وحتى الخيام التى يقيم فيها الكاشفون تقام فى الرمال، وفيها أعمدة قديمة منقوشة، وعلى حد قول المقريزى كانت هذه آثار قصور يسكنها الفراعين فى الزمان الخالى، أما فى يومنا الحاضر فليست سوى صحراء لا أثر فيها للعمران ولا وجود لروضة ولا بستان، وكثير من أهلها مفاليس، ووجوههم شاحبة أميل إلى الصفرة، وجوها ثقيل وفيها ضريح الشيخ إبراهيم نورى، وله قبر صغير إلى جانب جامع كبير، وله مناقب مذكورة فى كتاب الطبقات للشعراوى وتجولنا بعد ذلك بين قرى وفيرة المحاصيل بالقرب من النيل حتى اقتربنا من السويس وبينهما مسيرة ثمان ساعات ونصف، وكما عبرنا أكواخًا من القصب يسكنها العرب وبعد سبع ساعات بلغنا قنا.

أوصاف مدينة قنا

مدينة قنا فتحها عمرو بن العاص وبعد عمرو وفى خلافة عثمان وحين كان محمد ابن أبى بكر واليًا على مصر قدم قنا، وجعلها عاصمة ثلاثة أعوام، وقد أصبحت هذه المدينة بعمائرها مصر الثانية، وأقيمت بها قلعة بالقرب من ميناء القصير فى تلك الفترة

ومنها كانت ترسل الـغلال إلى جدة، وهى ميناء مكة، وينبع وهى مـيناء المدينة المنورة، ومنذ هذا العصر وأهل قنا يشتغلون بالتجارة، وفيها تجار عظام وأكثرهم من أشراف مكة والمدينة، ولأن قنا ميناء صغير فهى كاشفية تتبع قوص وهى التزام يدر مائة كيس، ليس فيها جنود من الفرق الأربع ولكن فيها انكشارية وعزب من مصر.

ولهذه المدينة مفتـى على المذاهب الأربعة ونقيب للأشراف لأنها مـليئة بأشراف مكة وهى قـضاء يدر مائـة وخمسين أقـجه ليس إلا ولـتجارهـا مخازن علـى شاطئ النـيل وتتكدس فـى هذه المخازن شتى أنواع الـسـلع لأنها ميناء مـكة والمدينة والحبشـة واليمن وعدن، ويأتـى الأشراف من الحجـاج ويقضون فيـها أربعة أو خمـسة أيام، وهم فـيها يسيرون عـلى الأقدام أو يركبون الحُمُـرَ أو الجمال، ومنها يـصلون إلى ميناء الـقصير، وكراء[1] الحمار خمسة قروش، ويركبون منها السفن ليصلوا فى ليلة أو ليلتين إلى ميناء ينبع، وبعد ذلك يبـلغون مكة فى خمسة أو عشرة أيام بإذن الله، ويكـلفهم الحج ديناراً واحداً وهناك يلتقى جموع غفيرة من الناس، ولكن الطريق وعر عسر.

وفى جنوب قنا على ساحل النيل على مـسيرة خمـسمائة خطوة أرض رملية بها قصور شامخة ومـسافة تبعد جـنوبًا عن النيـل قدرها ثلاثة آلاف وسـتمائة خطوة وهى مـدينة جميلة وجوانبها الأربـعة لها أبواب، وعليها حراس، ويغلقونها لـيل نهار وفيها عشرون جامعًا، وسبع منها خطبة علاوة على كثير من الزوايا وفيها الجامع الكبير يَؤُمُّـهُ كثير من المصلين ويسمونه كذلك جامع أمير المؤمنـين لأن عمرو بن العاص حينما فتح هذه المدينة أقام هذا الجامع لـلخليفة عمر بـن الخطاب، وطوله وعرضه ستـون خطوة، وفى داخل الجامع خمسون عمـودًا من الرخام يحمل سقفًا وفى وسط حرمه خـمس نخلات نبتت من جذر واحد، لـقد زرع عمرو هذه النـخلات بيده ومحرابـه ليس خاليًا مـن النقوش ومنبره من خشب وعلى منبره تاريخ هو:

(بسم الله الرحمن الرحيم، أنشأ هذا المعـمارات المباركة والجامع الأمير حسن أغا فى تاريخ السابع عشر محرم.سنة ١٠٧٩).

(١) كراء: أجـرة.

وقد تخرب هذا الجامع على مر الأيام وقد أنفق حسن أغا وهو ملتزم مدينة قنا من صلب ماله عشرة آلاف قرش لتعميره وترميمه ولا وجود لجامع كبير فى تلك المدينة سوى هذا الجامع، وبالمدينة سبع تكايا ومدرستان وعشرة مكاتب للصبيان وعديد من الوكالات وسبع مقاه ومائة وخمسون دكانًا وحمام وسوق للغلال وميدان، ويقام فى كل أسبوع فى هذه المدينة سوق يأتى إليها جمع غفير من الناس من سبعين قرية بجوارها فيبيعون ويشترون.

ولاعتدال جوها نساؤها سمراوات جميلات ولقربها من الحبشة فإنهن من نسل الجوارى الحبشيات، وإنهن يتحلين بالأساور والخلاخيل كما يلبسن القمصان الحريرية، ولهن عيون كعيون الظباء، وهن يلففن قوامهن بالحرير الأسود، وبعضهن خليعات يرقصن فى المقاهى وليس هذا عيبًا عندهن، أما السيدات العفيفات منهن فيختلفن عنهن وهن لا يغادرن من منازلهن إلا إلى المقابر فى يوم الجمعة، والرجال يلبسون العباءة وتشتهر المدينة بكرومها وعنبها المسكى وعناقيده تتدلى من السقوف وعنب قنا ينضج قبل عنب مصر والفيوم بخمسين يومًا، وذلك أنه فى أرض رملية وجوها شديد الحرارة، أما الخوخ فتزن الواحدة منه مائة درهم، وفيها المشمش طيب وحمامها مشهور ويأتى التجار من مكة ويأخذون الحمام من التجار ويضعونه فى أقفاص ليأخذوه، ويطيرونه وهو مقيد الجناحين فيطير ويبلغ فى مدة تتراوح بين ساعة إلى خمس ساعات ثم يعود مرة ثانية إلى قنا ويضرب به التجار للناس المثل فى مَنْ يمضى إلى حيث يريد فى طرفة عين، ويقولون أأنت حمام قنا، وفى قنا يطيب عبد اللاوى، وهو نوع من الشمام وأكل لبه وبذره مدر للبول كما يطيب البطيخ والشمام والخيار والعجور فى هذا البلد.

بيان ما فى هذه المدينة من قبور الأولياء

فى الجهة القبلية من المدينة وفى الحدائق قبر الشيخ عبد الرحيم القناوى وهو الملقب بين الأولياء والصلحاء بشفيع المِلّة وقد ذكرت مناقبه على التفصيل فى كتب تراجم الأولياء وطبقات الشعراوى وله بابٌ يفضى إلى الجهة الغربية وعلى صندوقه الشريف زجاج رقيق وعليه سقف منقوش كما أن صندوقه مستور بستر أحمر وعلى عمود رخامى أمامه تاريخ مكتوب هو: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ....﴾ إلى آخر هذه الآية الكريمة رقم ٢١ من سورة التوبة، وبعدها (انتقل العبد الفقير إلى عفو ربه القدير الشيخ الإمام الحسينى، النسيب علم الأعلام، وبركة الإسلام وغياث الأنام، قطب الدين عبد الرحيم الحسينى، وتوفى يوم الجمعة بعد صلاة الصبح فى يوم (   )[١] من شهر صفر سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة هجرية قدسنا الله بسره العزيز.

وعند قدمه المباركة الشيخ أبو الحسن وبجانبه الشيخ سيد محمد اسكندرانى وبجواره الشيخ عبد الله القريشى وفى ركنى الشيخ عبد الرحيم من خلفاء الغار الشيخ إبراهيم أبو الدنيا أما سبب تسميته بأبى الدنيا أن ابنًا له عندما انتقل إلى رحمة الله، ولم يكن معهم درهم واحد لتجهيزه وتكفينه فانشقت الأرض عن كنز عظيم، وحمل الأهالى ما فى الكنز من مال طوال ثلاثة أيام، فاستغنوا بهذا المال ولذلك لقبوه بأبى الدنيا وقد عمرت قنا بهذا المال المستخرج من ذلك الكنز وبجانب هذا الشيخ العظيم ابنه الشيخ على الصابرى ابن الشيخ إبراهيم أبو الدنيا، وأبوه كذلك قطب عظيم، ولم يضع يده على هذا المال، إنه كان رجلاً نزيهًا، إنه من ذوى قرابة الشيخ الزبيرى وقد توفى أيام الفتح زمن الصحابة الكرام، والشيخ عبد النبى والشيخ سيد محمد والشيخ محمد الحسينى والشيخ سيد يونس، وفى المدينة الشيخ عمر النسيم إنه قطب عارف بالله وله مناقب لا تدخل تحت حصر وخلف جامع عمر فى الركن الأيسر يرقد فى قبر متصل بجوار الجامع الشيخ محمد الأساسى وقد اعتزل أربعين عامًا فى ركن وكان يغادر هذا

(١) بياض فى الأصل.

الركن للتبول والتغوط ليس إلا، وكان ينام ساعة واحدة، ولم يشاهد ماشيًا، وقضى عمره أصم أبكم، وقد شغلته الطاعة والعبادة عن كل شىء فى الدنيا وقد حكى البكوات الذين اختلطت بهم قالوا، إنهم كانوا يزورونه كَسِيفِى البال ولكن المَسرَّةَ كانت تدخل قلوبهم بزيارته وقد دفن فى هذه المدينة آلاف من الصحابة رحمة الله عليهم أجمعين، وفى هذه المدينة يسمون العرب العبابدة، وهم يشكلون قبيلة تسكن تلك المدينة، إنهم قومٌ يعيشون فى نعيم وهم شجعان وعددهم ستة آلاف، وهم على الدوام يحملون الغلال إلى ميناء القصير وهم يمضون فى أرض رملية حيث يقطعون مسافة فى الصحراء والجبال وتحت حرارة الشمس وفى القرى يتناولون الإفطار، وتجاوزناها بعشر ساعات فبلغنا القصير.

أوصاف قلعة ميناء القصير

إنها على البحر الأحمر وهى بناء صغير وحصين، ومحيطها خمسمائة خطوة، وأول من بناها محمد بن أبى بكر، وبعده الظاهر بيبرس والسلطان قايتباى وقد عمرها، وهى قائمة على صخرة وليس لها خندق وبابها يتجه نحو الغرب ولها رئيس ومائتان من الجند وعتاد سبعة عشر مدفعًا صغيرًا وجامع وعشرون غرفة ومخزن للقمح وغرف للضيافة، ولا وجود فيها لحَمَّام وليس فيها خان ولا سوق، ولا أثر فيها لحديقة، إنها أرض جزيرة ولها مرفأ عظيم ومرفأها يأمن الرياح جميعًا، وفى الجهة المقابلة ميناء ينبع، والوصول منها إلى المدينة فى يومين وميناء مكة توجد على مسيرة ثلاثمائة وستين ميل ومن جدة إلى مكة ثمانية أو تسع ساعات، وتأتى السفن من الحجاز على الدوام إلى القصير، وهذه السفن تبحث عن الغلال والعبابدة يبيعون الماء بالقطرة الواحدة وعندما قدمت هذه القلعة شكى لى أهلها من شدة الظمأ، وبالقرب من القلعة دليل على وجود الماء، ثم ركبنا جيادنا وقد بلغنا مكانًا يسمى جيرك وحقيقة الأمر أنه مكان فيه ماء وعرضت شكوتهم على إبراهيم باشا وزير مصر وأوصلت أعيان القلعة إلى إبراهيم باشا فرصد عشرة أكياس، ومع أغا موثوق به فأمر هذا الأغا المعتمد عليه بحفر بئر، وأقام عنده مصطبة وقصرًا فنبع منها ماء عذب، ولله الحمد أن هذا تم بمسعى من هذا الرجل،

وبذلك تخلص من الظمأ الغادون والرائحون والحجاج والمقيمون فى تلك القلعة والدال على الخير كفاعله، وقد جاء فى أحد التواريخ ذكر قلعة القصير والبئر والقصر الذى فى جانبها وتاريخ بناء هذا القصر هو عام ١٠٨٣.

ومضينا تسع ساعات فى طريق دلنا عليه العبابدة وصلينا الصبح على شاطئ النيل وتناولنا طعام الإفطار فى بلدة تسمى:

انبوطه

واسترحنا ثلاث ساعات، وهى بلدة على بعد ثمانى ساعات من قنا بها خمسون بيتًا، واجتزنا على شاطئ النيل قرى بيوتها مبنية بالقصب وفى خيام العبابدة شربنا لبن النوق، وبعد ثلاث ساعات بلغنا مدينة قوص.

أوصاف مدينة قوص القديمة

أقامها شداد بن عديم بن يود فى عهد شيرين قفطريم، ومن أبناء قفط من يسمى قوص وهو الذى بنى المدينة لما آل إليه الملك، وفى عام ١٤١٤ استبحر العمران فى مدينة قوص، ففى هذا الزمان كان بالقرب من قوص مدينة خربة ومنها فر أهلها من خشية مرض الطاعون إلا أنهم لم ينجو من الطاعون وهلكوا مع أهل قوص، ومنذ هذا العصر لم تعمر قوص، ويقول بعض المؤرخين إن شداد بناها وكانت حديقة إرم، وقد اختلف العلماء داخل مصر وخارجها فى بناء هذه المدينة. وعلى حد قول كعب الأحبار لم يجتمع العلماء على رأى فى مَن هو بانى قوص إنها مدينة طيبة الهواء يعجز الوصف عن عظمتها إن جوها هو جوّ حَلَب أو جو مَعَرَّة النعمان، وقبل فتح مصر استولى عليها الأسود بن مقداد من القبط، وبعد الفتح بحثوا فى أرضها عن كنوز ووجدوا عمودًا منهدمًا، ولوجود العقارب بها فَرَّ العسكر وظلت المدينة خربة إلى أيام عبد الملك بن مروان من خلفاء بنى أمية، وسبب خراب هذه المدينة طوال تلك الفترة هو كثرة العقارب ولكن العقارب لا تصيب أهل هذه المدينة بضرر ولقد شاهدت أنا هذا العمود المنهدم، وقد رسم عليه صورة عقرب وقد كتب أسفل العمود سطور، ويراه كل من يمضون فى

الطريق لأنه على الطريق العام، وهذه المدينة فى حكم جرجا ولها كاشف له مائتا جندى، كما تحوى ستين قرية ويتحصل منها اربعون كيسًا وألف أردب من الغلال ولكن ليس بها مستحفظون ومفتى ولا نقيب أشراف وإنها قضاء به ستون قرية ويتحصل منها فى كل عام ثلاثة أكياس وهى مدينة تبعد عن النيل بمسافة بعيدة وبها ثمانمائة بيت واسع ولكن ليس فيها كثير من القصور ولا البيوت الجميلة، وبها ستة محاريب وأربع خطب وبالقرب من السوق جامع بناه المستكفى بالله حين نفى فى هذه المدينة إنه جامع بالغ الغاية فى الكبر وطوله وعرضه مائة خطوة، وبه سقف قديم يقوم على مائتى عمود، كما أن بها جامعين آخرين لا علم لى بهما إضافة إلى الزوايا، وبها وكالتان وخمس مقاه وستة مكاتب للصبيان وثلاثون سوقًا صغيرة وعشرون سبيلاً ولكن ليس فيها حمام ولا مدرسة وأغلب ما فى حدائقها نخيل الدوم، ونتيجة لذلك فإنها ليست مدينة عامرة كما أن جوها ليس مقبولاً ولذلك فأهلها صفر الوجوه.

بيان ضرائح هذه المدينة

لما آلت الخلافة فى مصر للمستكفى بالله سليمان بن الحاكم بأمر الله العباسى بَنَى بها جامعًا كبيرًا كما أن أتباعه من العباسيين سكنوا قلعة الكبش، وكان الحل والعقد فى يد الظاهر بيبرس، ولكن اسم المستكفى كان يضرب على العُمْلة ويذكر اسمه فى الخطبة وقد وقع الصراع والنزاع بين ذوى قرباه كما وقع النفاق بينه وبين الظاهر بيبرس، فنفى الظاهر بيبرس أهل المستكفى وأقاربه إلى تلك القلعة، وأمر المستكفى جميع المغاربة والهنود الخبراء بالكشف عن كنوز، فاستخرجوا مطلسمات مختلفة من عهد شداد بن عاد ولكن المستكفى توفى فى عام ٧٠٣، فدفن فى قبر صغير، ودامت خلافته تسعًا وثلاثين سنة، وعمره خمسون سنة وهذا مسطورٌ على قبره، وأخو الحاكم بأمر الله هو إبراهيم الواثق بالله وبجانبه محمد عطاء الله بن إبراهيم الواثق بالله، قد نفاهما الملك الصالح إلى قوص وهما مدفونان بجانب قبر المستكفى بالله، ولحكمة الله أنهما نفيا إلى قوص معًا، فقد نفاهما الملك الصالح بن الملك الناصر إلى قوص وهؤلاء هم آل عباس

المدفونون فى هـذه المدينة، وهذا ما قيل فى شأنـهم وفى المقبرة التى بجانـب ضرائحهم الشيخ ظاهر والشيخ كاظمى والشيخ نور الدين الشيرازى والشيخ علام الدين البصراوى وهؤلاء الأعيان كانوا من حاشية المستكفى الـذين هاجروا معه من بغداد إلى مصر وبلغ مدينـة قوص، رحمة الله علـيه، وقد عبرنـا على شاطئ الـنيل أراضى رملـية وأراضى صخرية وأراضى خربة لمسيرة ست ساعات، وبلغنا ولاية أشمون.

اوصاف ولاية اشمون (الأقصر)

إن بيطر بن حام بنى مدينة قديمة تـسمـى أقصرين بعد الطوفان وهو الأخ الأكبر لسام ويقال إن بـيطر هذا أبو الـقبط، ومن نسـله ولد توأمـان أحدهما أشمـون ريف، وآخر أشمون جاو وقد ولدا فى مـكان واحد وأرسلهما بيطر أبوهما إلى إقـليم مصر، ولذلك سمى الإقليـم أشمون وقد عمرت هذه المديـنة، وقد بنى الأخوان قصريـن على شاطئ النيل، وبعد بناء هذين القصرين سميت المـدينة القصرين، أى المدينة التى تحوى قصرين والكلام على هذه المدينة أولى به أن يكون وجيزًا، وهـى تتبع كاشفية جرجا، وبها مائتا جندى ويتحصل منها أربعون كيسًا، ولا يوجـد بها مـستحفظان ولا شورباجى ولا مفتى ولا نقيـب أشراف ولا أعيان وقد كـانت مدينة عـظيمة علـى شاطئ النيـل تحوى ألف ومائتى بيتٍ، وبـها كثير من الأبنية العاليـة وكثير من القبور، ولذلك تبقـى منها أعمدة مطمورة فـى الرمال، وهذه الأعمدة بقـايا لعمائر أقـامها سلاطين مصر الـقدامى، وفى جامع السليمانية أعـمدة من هذه المدينة نقلها ربان الإسكندرية إلى جامع السليمانية فى استانبول وقد أنعم عليه بخلعة وألف دينار، وقد نقلت هذه الأعمدة فى سفنٍ فى البحر إلى استانبـول، وقد علمت أن أعمدة جىء بهـا إلى ميدان الوفاء وهذا ما سـمعناه من والدنا رحمة الله عـليه، ولكن هذه المدينة لـيست معمورة وبها عشـرون محرابًا وثلاث خطب، وبها أسواق صغـيرة وجامع فى وسط السوق فيه جمع غفـير من الناس كما أن بها خانًا وحمامًا والعـديد من الزوايا المعمورة ومكتبًا للصبيـان وسبيلاً ومقاهى، وجوّها غاية فى اللطف وأما أهلها ففى غاية الفقر.

زيارة ضريح الشيخ أبى الحجاج

إنه مدفون فى مغارة بالقرب من جامعه، وله كرامات كثيرة، وإنه قطب عظيم وليست لمناقبه نهاية، وهو الأخ الأصغر للشيخ عبد الرحيم القناوى الذى دفن فى مدينة قنا وله ملك خير الدنيا والآخرة، وقد قرأت الفاتحة فى الضريح وقد وهبت ثوابها إلى روح الشيخ أبى الحجاج، إنه قطب ذو مكانة وشهرة واسعة فى تلك المدينة، وهو قريب الشيخ رمضان الفرغلى، وهو كذلك قطب عظيم واسع الشهرة، وغادرت هذه المدينة، ومضيت جنوبًا على شاطئ النيل فى أرض خالية وعلى مسيرة سبع ساعات شاهدت على ضفة النيل تماسيح وبلغت:

بلدة طوت

وهى بلدة معمورة تقع على أكمة فى ناحية من الأقصر وتضم مائة بيت، تجاوزناها ومضينا وعلى يسرتنا النيل وقطعنا طريقًا مدة ست ساعات وهو طريق فى وسط الصخور فبلغنا بلدة:

شحات

تتبع إقليم أقصرين وهى على شاطئ النيل، وبها مائة بيت وجامع، وهى بلدة عامرة، ومضينا على شاطئ النيل مدة ست ساعات، وبلغنا بلدة:

دير أم على

وبها كنيسة عظيمة ولذلك يسمونها الدير، ورهبان هذه الكنيسة جميعًا من القبط ويقولون إن هذا الدير بنى قبل ثلاثة آلاف سنة.

واتجهنا هذه المرة إلى الجانب الشرقى من النيل، فبلغنا مرجًا مخضوضرًا وفيه قبر صغير للشيخ عبد الدايم وهو من أبناء الصحابة الكرام - رضوان الله عليهم - وقرأت الفاتحة لروحه ومضينا ست ساعات على شاطئ النيل، ونزلنا ضيوفًا على خيمة شيخ العرب لقبائل الحجيزة، واسمه الشيخ ناصر الدولة وفى هذه الليلة تناولنا لحم الجمل وشربنا لبن الناقة وأكلنا حلوى التمر كما أعلفت خيولنا ورجال هذه القبيلة من الفرسان

البواسل، وقمنا فى الفجر وعبرنا أراضى حجرية وبعد ست ساعات كان الوقت الغروب فبلغنا:

ديار عشاير رده

وهم كذلك شجعان وهم عيَّارون وشجعان يمضون إلى بلاد الحبشة ومكثنا فى خيمة شيخهم أبو عصيب، وتناولنا لحم الجمل وشربنا لبن الناقة، وحمدنا الله، وأعلفت خيولنا الذرة، وقوم رده هؤلاء لا يدينون بالطاعة إلى والى الحبشة ولا كاشف إبريم فهم جبابرة فى الأرض، ومضينا على شاطئ النيل واجتزنا مدنًا خربة وقطعنا المروج فى ثمانى ساعات فبلغنا قوم:

عربان الشبيكة

وهم ستة آلاف مقاتل من العرب وهم شجعان، وشيخهم يسمى شجاع الدين، وعندهم كثير من الذرة ولحم الغنم وخبز الذرة ولا وجود للقمح عندهم، ولأنهم قوم عصاة متمردون لا يدفعون مال الغلال الذى على ما يزرعون، فقمنا من عندهم ومضينا عنهم وولينا وجهنا قِبَل الجنوب ومضينا على شاطئ النيل، وهو يأتى فى هذه الجهة من بلاد الحبشة، وفى هذه البقاع عرب عصاة وفقراء ليس لهم إيمان كأنهم الحيوان، وليسوا يتبعون ملك الحبشة ولا إبريم ولا بلاد الفونج إنهم رعاع عراة وقدمنا إليهم بعض الهدايا فغادرناهم سالمين، وبعد أربع ساعات وصلنا إلى جبل السلسلة.

أوصاف قلعة السلسلة

إنها جبال شامخة توقع من ينظر إليها فى الخشية، وفى هذه الجبال مئات من المغارات ولا يعلم عددها إلا الله، حفرها قوم عاد وثمود وكانوا يسكنونها، وسخرت لهم صخور الصوان وكأنما طَحَنُوها وبنوا بها قاعاتهم وحجراتهم وكل حجرة ترتفع أربعين أو خمسين ذراعًا، وفيها عجائب وغرائب كأنها حية، وفيها تماثيل وتصاوير غريبة وفى كنهها تحار العقول، وفيها صور تنظر إلى مشاهدها وهى باسّمة كأنها تبتسم، وخلاصة القول أن جبل السلسلة هذا عجيبة من عجايب الزمان، وعلى سطح هذه الصخور حِصنٌ حصين، كما توجد قلعة قبالة النيل هى قلعة أتفود.

قلعة اتفود

وأمامها يجرى النيل، وفى زمان كانوا يجرون هاتين القلعتين إلى النيل بسلسلة ولذلك يسمون هاتين القلعتين قلعة السلسلة وبعدهما شلال بوغازى وشلال الولاية، إنهم سبعة مضايق والنيل بعدهما يمتلئ بالجزر العامرة وليس فى هاتين القلعتين رئيس لهما ولا قواد ولا جنود، ولكن يسكنها فوج من قبائل الجعفرية، وقبالة هذه القلعة فى جزيرة قبر الشيخ كوم صياح.

زيارة قبر الشيخ كوم صياح

حينما يفيض النيل ويغمر هذه الجزيرة يصيح، وهو يصيح موحداً بالله ولذلك يسمونها جزيرة الصياح.

وبلدة كليج

معمورة ويتبعها مائة قرية وجميع أهلها ملاحون ويسمونهم قبيلة بصلى وبها ثلاثة آلاف إنسان وقد أتوا من قوم الهوارة، واستوطنوها، وبعد ذلك مضينا خمس ساعات جنوبًا على ضفة النيل إلى قلومبو

أوصاف قلعة قلومبو

إنها من بناء شداد بن عاد، وهى قلعة كانت للملوك بعد ملوك ثم استولى عليها سيف بن ذى اليزن من القبط ثم اجتزنا صخور شلال بوغازى ويجرى النيل إلى صحراء نصف المغرب وفى مقابل جزيرة كريد يخلط ماؤه بماء البحر الأبيض وطريق جريانه خندق عظيم وفى عهد عثمان بن عفان استولى أبو عبيدة بن الجراح على هذه القلعة من القبط، ولكن بعد أن استشهد عثمان استردها القبط، وكل القلاع التى على النيل تحت حكم إبريم وفى قضاء أسوان، وفى داخل القلعة ثلاثمائة بيت من حصير يسكنها بنو جعفر، إنهم مسلمون ولكنهم على المذهب الجعفرى، وإنهم يسكنون فى القلعة وفى الصحراء خارجها، إنهم ستون ألف إنسان وهم قوم يعيشون فى رغد من العيش، وفى الجانب الشمالى للقلعة ضاحية عظيمة، ومضينا على النيل ثلاث ساعات، ومررنا بأراضى صلبة كالحديد، وفيها كل صخرة فى حجم الفيل وقد أصبحت سداً فى النيل،

ويسمى العرب هـذا السد بخيط العجوز، وفى الجـهة الشرقية للقلعـة مغارات بها ألف تمساح مكفن وقد تراكمت هذه التماسيح بعضها على البعض وأكفانها من قشور الدوم، ومـن الـعجـب أن البلـى لم يصبهـا، ولكن لا تنبـعث رائحة خبيـثة من رممها كسائر الحيوانات، وهـذا أمر عجب، وهذه التمـاسيح يسمونـها جبل التمسـاح، وقد فتح ذو اليزن فى الصخر طريقًا، والسفن تمر فى هـذا المضيق، وهذه السفن سفن صغار وتمضى إلى أسوان، ثم تحمل الجمال أحمال السفن، وفى هذا المكان سبع مضايق وشلالات من بعيد تتدفق مياهها وتمر فى جبال شوامـخ وبين صخور، وثمة بوغاز والنيل ترتمى مياهه فى هوة فى طول المأذنة.

ومن عجب أن بعض السفن تطير فوق هذه الصخور ثم تجرى ويجرى النيل فى هذه المنطقة وبين ضفتين عليهما جبال كأنهـا الجودى ويتشعب النيل فى هذه المنطقة وبين كل شعبة وشعبة جزيرة والجزر المعمورة تقع فى الجانب المقابل، وسوف نتحدث عن هذا فى موضعه بمشيئة الله.

ومن يمضـون من قلومـبو إلى الحبشـة يبدأون السيـر من هذا الموضـع وبعض وزراء الحبشة يـقدمون إلى هذه القـلعة، ومنها يـجمعون الجند ويـحملون المؤن علـى الجمال ويقطعـون الصحراء إلى الحبـشة، وليس لهم طريـق سوى هذا الطريق، وهـذا الطريق طريق حجرى والطريق إلى إبريم على ضفة النـيل ويمضى جنوبًا وطريق إلى الحبشة فى الجهة الجنوبيـة، وقد مضيت مع جماعة من قـلعة قلومبو فى الطريـق إلى إبريم وسرنا ثلاث ساعات حتى وصلنا:

مدينة صين باس

كانت مدينة عـظيمة فى قديم الزمان ومضينـا بين خرائبها يومًا بتمامـه وفيها غرائب وعجائب وأعمدة ومطلسمات، وفيها ما فى (آت ميدانى) فى استانبول من أحجار مربعة وعليها علامات غريبة، إنها كانت قديمًا مدينة قوم عاد، وقد خرج من الحبشة أبرهة فى سبعين ألف فيل ومضـى إلى هذه المدينة فخربها وأهلك أهلهـا، وهى الآن مدينة خربة ليس فيها سوى البوم والأفاعى.

وعلى ضفة النيل مدينة بها مائتا بيت من الحصير وهى بلدة تشبه القرية وفيها جامع بلا مئذنة، وبجانب هذا الجامع ضريح الشيخ رجابى، وهو قطب عظيم، وهذا الضريح فى غابة من أشجار الدوم وثمة ضرائح ثمانية وسبعين قطبًا من الأولياء، ولكن أجهدنا القيظ فلم نستطع زيارتها وإن كنا قرأنا سورة يس ومضينا لطيتنا ومضينا بين الصخور فى طريق ضيق من المرتفعات والمنخفضات ولقينا من سفرنا هذا نصبا حتى وصلنا أسوان.

أوصاف قلعة أسوان

يذهب المؤرخون المحققون إلى أن قلعة أسوان بناها عاد بن شداد بعد الطوفان لأنهم يسمونها دير عرياق وأنها دير عظيم، والملك عرياق مدفون فى هذا الدير فى تابوت من النحاس وعلى الجوانب الأربعة لهذا التابوت كتابات بالعبرية ويسميه القبط عرياق بن عيوام ويقولون إن إدريس ـ عليه السلام ـ رفع إلى السماء فى عهد هذا الملك وفى زمان هذا الملك سجن هاروت وماروت فى بئر بمدينة بابل، وخلف عرياق فى الملك ابنه ألوخيم وكذلك ألوخيم مدفون فى هذا الدير، وخلف ألوخيم فى الملك ابنه خصيليم، وهو أول من بنى المقياس فى النيل عند أسوان وآثاره باقية إلى اليوم.

ثم قدم مصر الخليفة المأمون العباسى من بغداد وبنى المقياس فى مصر وخرّب المقياس الذى فى أسوان حتى لا يكون هناك مقياس بناه أحد سواه، وخصيليم هذا فرع النيل ترعًا، وفرش هذه الترع بالرخام وأمام مدينة أسوان هذه المنطقة من النيل أحجار فى حجم جثة الفيل، وقد سوى هذه الصخور وصنع منها سدًا فى بلاد النوبة اثنتى عشرة قنطرة، ولم تبق من هذه القناطر اليوم سوى واحدة، وقد دمرتها الزلازل، وأُسُسُها ظاهرة فى النيل، وظهر نوح فى عهد خصيليم هذا وقد ركب خصيليم هذا فى سفينة نوح عند الطوفان، وقد عَمّر ثمانمائة سنة، ولذلك قال المؤرخون إن مدينة أسوان كانت قبل الطوفان لأن فيها آثار لخصيليم وأبيه ألوخيم وجده عرياق، وهذا بالعبرية مسطور على الصخور، ثم عمرها عاد ولكن خربها أبرهة بعد الطوفان وقد جاء ذلك على التفصيل فى كتب الخطط ومحمد بن إسحاق وتواريخ الشهابى رحمة الله عليهما،

ولكني أحقق هذا في يقين فأقول ما مجمله أنها بقيت بعد زوال دول ودول وهي مدينة قديمة، وقد فتحها عمرو بن العاص وهي التزام تابع لجرجا، ويتحصل منها أربعون كيسًا كما أنها كاشفية تابعة لكاشف قوص ويتبعها ستون قرية يتحصل منها ومن توابعها المائة والخمسين ستمائة أردب من الغلال ولكن ليس فيها جند مستحفظون من أربع فرق وهي قضاء يدر مائة وخمسون كيسًا وريعها السنوى ثلاثمائة قرش ويبقى لكاشفها بعد المصروفات خمسة أكياس، ولها قلعة عظيمة على ساحل النيل، وهي سامقة مثمنة الشكل بناها شداد ومحيطها ثلاثة آلاف وستمائة خطوة، ولها ثلاثة أبواب وفي داخلها حدائق وخمسمائة بيت صغير للفقراء ولرئيس هذه القلعة مائة وخمسون جنديًا، وفيها فرقة موسيقية ومخزن للأسلحة وعشرون مدفعًا، وهي الآن حد عظيم لأن حولها عرب عصاة، وبها جامع وسبع زوايا وثلاث مقاهٍ، وستمائة بيت وليس فيها حمام ولا خان ولا مكتب للصبيان ولا سبيل ولا أسواق ولا دكاكين ولكن تقام فيها سوق عظيمة كل أسبوع، ويجتمع فيها خلق كثير من جميع الأجناس يبيعون ويشترون ويوجد فيها ما ليس له من وجود، وخارج القلعة ضاحية بها حدائق وبساتين وسبعمائة بيت وبعض هذه البيوت خربة ولكنها رممت وسكنت، كما أن فيها جوامع وزوايا ولكن ليس فيها سوق وبها بعض المقاهي المصنوعة من الخشب والأكواخ والدكاكين، وكانت بها في ماضي الزمان على مسيرة ثلاث ساعات على ضفة النيل أبنية كأنها قصر الخورنق، وأعمدة لا حصر لها وضرائح عالية وخان وحمام وسوق للبزّ وعمائر كتبت عليها طلاسم، وكأن هذه الطلاسم قد كتبت منذ هنيهة، وقد اعتشت في هذه العمائر الغربان والحمام والغربان فيها تنعق، وفي الشتاء تغادرها كل الطيور، ويأتي العرب ويسكنون هذه الخرائب، وجو أسوان لا بأس به، وفيها الأسلحة لا تصدأ وتبقى مصقولة ووجوه أهلها وردية ولاعتدال جوّها كان الجمال في فتياتها وفتيانها، أما شراب البوزه فيها فيبعث القوة في الروح وشراب البوزه هذا مرغوب طيب.

باب الأبواب

إنها جزيرة خربة فى بوغاز الشلالات بأسوان، ويسمونها باب الأبواب وبما أن النيل يتشعب سبع شعب فثمة عدة جزر، وفى كل من هذه الجزر يؤكد الكشفيون على وجود معادن جديدة ففيها النفط والقطران والكبريت والرصاص والكبريت المائى، وفيها حمم ماؤها حار يستشفى به، ولكن ليس فيها أثر للعمران، وعند فيضان النيل تغرق هذه الجزائر جميعًا ولا يبقى أثر لما فيها من معادن وحمم، ولا يستطاع استخراج هذه المعادن منها ويفيض النيل وتخضوضر الأرض فى مصر، وأهل الطب من أهل مصر لا يشربون من ماء النيل وإنما يحضرون الماء من بئر فى المطرية ويشربونه وإذا شرب الناس من النيل فى وقت الفيضان وهو أخضر تورمت أرجلهم مثل الطلومبة وارتعشت أجسامهم نعوذ بالله، وأصل اخضرار ماء النيل واحمراره هو ما تجمع أمام تلك الجزر من النفط والكبريت والقطران ويتلون ماء النيل بألوان مختلفة ومنها تهلك الحشرات ولكنها تأتى ثانية، وتختفى فى الترع وهذا هو سبب اخضرار ماء النيل وجنوب أسوان تسمى:

ولاية علوى

إنها ولاية واسعة تمتد حتى الحبشة ودُمْبِستَان ولاعتدال جوّ هذه الولاية يتصف فتياتها وفتيانها بالجمال فلهم عيون كعيون الغزلان ويتزوج أعيان أسوان من عذارى ولاية علوى، ومن عذارى علوى من لم يبلغن المحيض ولكن يحملن وغالبًا ما يَمُتْنَ عند وضع حملهن، والعهدة على رواية أهل أسوان، ويذهب بعض المؤرخين إلى أن لقمان - عليه السلام - نبى وقيل إنه نبى أسمر اللون، ولد فى أسوان، كما أن ذا النون المصرى من أسوان وأصبح من صحابة الرسول ﷺ كما أن النبى إدريس - عليه السلام - ولد فى هذه المدينة، وقد زرت قبره وهو مدفون فى مغارة وقد مرغت وجهى الشاحب على أثر قدمه فى الأرض حين عرج فى السماء، وكل أثر لقدمه يبلغ ثمانية أشبار طولاً وعرض الأثر ثلاثة أشبار، وكأن هذا الأثر حفرة كالصندوق، وعندما ينزل المطر فإن حفرة أثر قدمه تمتلئ بمطر الرحمة والوحوش والطيور تشرب منه، وبجواره غار لقمان ومنه تفوح رائحة العقاقير، وهى رائحة طيبة ولم تنقطع هذه الرائحة من ألف سنة، فما من ريب

فى أنه نَبِىٌّ، وذا النون المصرى من ذريته وكان طبيب النبى ﷺ ، وأجيال الأطباء تنتهى إليه، وفى جنوب أسوان ولاية النوبة العظيمة ويسمونها باب النوبة.

ولاية النوبة

إنها أرض غنية ومعدن الزمرد فى جبالها، وتستخرج المعادن والزمرد منها ولذلك أهلها أثرياء منعمون وقد أمر حاكم جرجا باستخراج الزمرد، وأمر أن يصنع منه الكؤوس والأقداح وقبضات الخناجر ودبوس من قطعة واحدة، ولكثرة ما استخرج من الزمرد أصبح على بك عريض الثراء واسع الدنيا، وإن كان استخراج الزمرد يتكلف نفقات باهظة، وفى أرض أسوان أربعون نوعًا من المعادن ولكنهم لا يعرفون كيف يستخرجونها، وجنوب النوبه أرض خربة، وبالقرب من أسوان شاة تلد فى السنة ثلاث مرات، وفى كل مرة تلد حملين وهذا بسبب لطافة الجو: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٠].

عجيبة

وفى شمال أسوان شجرة منقطعة النظير وهى قائمة منذ عهد بنى إسرائيل وهى تثمر صيفًا وشتاء ويسقط ورقها كل سبع سنوات ثم تورق من جديد، وتسمى شجرة الخط، وهى شجرة لها الشهرة فى بلاد أسنه وأسوان وسودان وفونجستان ونوبة ودومبية وعلوى وحبش ويحتضن جذعها عشرة رجال ولها أربعون فرع يحتضن كل شعبة منها خمسة رجال، إنها دوحة عظيمة عالية، يمكن أن تظلل أربعين ألفًا من الغنم واتفق ذات مرة أن أحد الزنادقة استظل بها فسقطت عليه ورقة خضراء منها فأخذها الزنديق، فأخذ العجب منه كل مأخذ من ذا الذى أنبت الورق على الشجرة فسقطت من الشجرة عليه ورقة أخرى بأمر الله، وقد كتب على هذه الورقة من أنبت الورق على الشجر هو الذى شق السمع والبصر فى وجه البشر، وفى التو نطق الزنديق بالشهادة ثم زفر زفرة وفاضت روحه وله قبر فى ظل هذه الشجرة ويسمى قبر الشيخ الزنديق، ويزور الشجرة الخواص والعوام والآن أوراقها مخضوضرة، وهى كذلك إلى ما شاء الله، ولكن لا وجود لكتابة على أوراقها، وهى فى الطريق من أسوان إلى النوبة فى مرج واسع الأرجاء وهى تبعد عن أسوان بربع ساعة.

وقدم السلطان قايتباى من مصر فأمر بترميم قبر الشيخ الزنديق وأنشأ صفة ومحرابًا له وكتب على عتبته تاريخ هذا الترميم.

وفى أسوان يستخرج أربعون معدنًا، علاوة على الملح والنطرون وشمع العسل والصابون، والصابون كلمة عربية، وتطلق على ما يصنع من الأعشاب والنباتات، ويوضع فى الأكياس، وإذا غسل به الثياب أصبحت بيضاء، إنهم يأكلون شمع العَسل من شدة الحر، وإن النحل يصنع العسل وإذا ما نزل غيث الرحمة تسد خلايا النحل، وينمحى العسل بالمطر ويخرج شمع العسل ويجمع ليباع، إنه أكثر بياضًا من الكافور وله رائحة كرائحة العنبر ولهذا الشمع أربعون فائدة، وإنه ينفع فى ألم الوسط والصداع والمغص، وإذا تناوله أحد فإن شمع العسل يساعد فى هضم الطعام، ويصلح المعدة ويخلص من غازاتها، وهو مقو ويزيد فى قوة البصر ومن تناوله أربعين يومًا لم يَبْقَ فى جسمه أخلاط، ويتورد وجهه، ويصح بدنه وشمع أسوان كثير فى سوق الفحامين فى مصر تلك هى خواصه.

ومن العجائب

أن عمودًا يوجد على ربوة من الرمل فى شرق أسوان على مسيرة ربع ساعة شرقًا ويرتفع مائة ذراع، وعند قمته صورة إدريس - عليه السلام -، وكأنما يجلس حبشى على قمته وكأنه حى ويبتسم وهو يرفع أصبع الشهادة كأنما يشير إلى السماء، وقد ولد إدريس فى أسوان، وبعث فيها ثم عرج به إلى السماء منها، فدخل أمته الحزن وجعلوا يبكون ويتجولون فى ذهول وحيرة إن إبليس اللعين ظهر لهم فى صورة شيخ، وإنهم يبكون وينتحبون لفراق إدريس وفى التو أمرهم الشيطان بأن يرسموا صورة إدريس، وعلمهم أن يسجدوا وبذلك كفوا عن النواح والنحيب ومرة كل عام يأتى إلى هذا العمود جميع الخلائق ويسجدون عنده، وإن إبليس الشيطان اللعين يمثل تلك الصورة ومن هذه الصورة كان يُتَنَبَّأ لهم عما فى الغيب وكانت هذه حالهم إلى أن ظهر النبى ﷺ، ثم انتهى هذا الأمر، والآن يسمونه رمال الصنم، ويتجه القبط نحو الشرق، ويركعون عند هذه الصورة.

ومن العجب

أنه إذا ما دفن أحد فى هذه الربوة من الرمال أصبحت عظامه حجرًا بعد سبعة أيام، وهذا من عجيب صنع الله يفعل الله ما يشاء بقدرته ويحكم ما يريد بعزته: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]. وقلعة أسوان هذه على شاطئ النيل لها سور عظيم.

حائط العجوز الساحرة

كل حجر فى هذا الحائط حجمه من أربعين إلى خمسين ذراعًا، وكأنه سد الإسكندر، إنه من قطعة واحدة، وفى أسوان علاوة على هذا البناء فى خرائب أسوان آثارٌ لعمائر يحار عقل من يشاهدها وعليها كلام النبى ﷺ عن شهادة على ـ رضى الله عنه، وكرم الله وجهه ـ كما أن كلامًا لعلى فى الجفر.

وقد أخذت ذلك من مختصر كتاب مفتاح الجفر للشيخ العلامة كمال الدين أبو سالم محمد بن طلحة غفر الله له، وقد ذكر على ـ رضى الله عنه ـ: (أن أشراط قيام الساعة عند اقتراب آخر الزمان أن أسوان سوف تتخرب بعد أن عمرت من قبل) وهذا كلام على ـ رضى الله عنه ـ، ومن قوله أيضًا: (إذا عمرت أسوان من قطر مصر فى آخر الزمان بالياء ثم العين يظهر بمصر الخصيان، وتحكم النسوان، وتفسد عليه السلطان، وتكثر الغربان، ويختل نظام صاحب الديوان، وتقوى شوكة الجيم، وذلك إذا حصل القران فى برج الهوا، وبعثر ما فى القبور، وحُصِّل ما فى الصدور، وصار الأمر مأمور) وسبب هذه الإشارات ما نقل فى تاريخ ابن مهدويه أن عمرو بن العاص وهو عامل مصر عند فتوحها كتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ يبشره بفتح مصر وذكر له صفتها وعدة حصونها المشهورة، وأن من جملة حصونها بالوجه الجنوبى قلعة تسمى أسوان على قرب نيلها حصينة مانعة رأينا وجه الصواب فى هدمها حتى تنقطع أطماع الكفار منها فهدمناها حجرًا حجرًا فلما بلغ الكتاب إلى أمير المؤمنين عمر ـ رضى الله عنه ـ فقرأه واستوفاه ثم قال حضرت عَلِىّ ـ رضى الله عنه ـ نعم بذلك أخبرنى رسول الله ﷺ وعندى خبر هذا وستعمر فى آخر الزمان عمارة حصينة على يد

ياء ونكَّرَهُ ثم عين، ولم يصرح باسم أحد غير أنه - رضى الله عنه - أشار إلى حرفين صديقين لا منافرة بينهما وهما الياء والعين فالياء حرف ترابى والعين حرف مائى، ومن المعلوم أن الماء والتراب صديقان، وهما أعظم آلات العمارة، فإنه يفهم من قوله بالياء ثم العين أن مراده تعريف اسم من يتولى أمر عمارتها صدق عَلَى الرَّضِىِّ السَخِىّ.

وفى أسوان كثير من رموز لكنوز، لأن أسوان بلد من سبعة بلاد على وجه الأرض، لقد شاهدت أسوان ولكنى لم أجد فيها وقتًا لِراَحَتى لأن فى أرضها مئات الآلاف من كبار الأولياء والشهداء والصحابة الكرام الذين قدموا من مصر مع الفتح، ولهم قبور لا سبيل إلى حصرها لكثرتها، وقد قرأت سورة يس لأرواحهم الشريفة، وشاهدت فى جنوب أسوان على ضفة النيل ميدوز خيط العجوز ورأيت التماسيح فى جزر الشلالات، وبعد أربع ساعات وصلنا إلى شلال المضيق.

أوصاف شلالات المضيق

إنه لشلال عظيم، وهو مشهور لدى العَرَب والعَجَم والروم، وقد سبق أن وصفناه، وهذا الشلال به صخور يَضْرِبُ لونُها إلى الشُّهبَة. وفى هذه المحلة أعشاش الصقور والنسور والغربان، وهناك جبل مهيب مخسوف، ويعبر التجار هذا المضيق ويذهبون إلى القرى، والصخور فى هذا المضيق متقاربة، وتلاطم مياه النيل يصم الآذان، ورشاش ماء النيل يجعل الجو ممطرًا ويصاب من على مقربة منه بالبَلَلِ، وإذا حل الشتاء وغَاضَ ماء النيل ظهرت أحجار كأنها قباب الحمامات، ويدفع الماء الإنسان من صخرة إلى صخرة ويستطيع أن يعبر بين الضفتين، وفى سالف الدَّهر حينما كان هذا المضيق مسدودًا، كان النيل ينشعبُ إلى رافدين فيجرى فى ترعة إلى إقليم الحبشة وفى الأخرى إلى إقليم علوى واختلط ماؤه بماء البحر الأحمر بواسطة السواقى على الترعة التى تتجه إلى إقليم الحبشة وآثار ذلك اليوم باقية فى موضعها.

وبعد الطوفان أحاط سيف بن ذى يزن بعلم الهندسة وشتى العلوم والفنون، وأنس برأى الكاهنين صفوايم ومحرايم؛ فشق فى الجبال شقًا، أما سبب جريان النيل إلى مصر الآن فهو مردود إلى سيف بن ذى اليزن، وكان جريان النيل إلى مصر سببًا فى

عمرانهـا وخصوبـة أرضـها وأصبـحت الحبشة والمغرب صحراء، وقد اجتمع المؤرخون على القول بهذا، وقد رأيت أثر جريان النيل فى سالف الدهر حفراً فى الأرض، وكانت منطقـة الشلال قديمًا معمـورة فكان فى أسوان حدائق وجـنات ألفافًا، وفيهـا كذلك أثر للعمائر.

وقد دعا موسى ـ عليـه السلام ـ الله على الفراعنة والكهنة والسَّحَرَة فى هذا المكان ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]، فتخربت عليهم مائتا بيت.

وثمة جامعان عظيمان قديمان بها، ولكنهما مع ذلك لا يخلوان من المصلين، وليـس لهـما بهاء سائر الجوامع، ومنهما جامع سيف بن ذى اليزن والآخر جامع عمر ـ رضى الله عنه ـ ولا وجود لسوق ولا خان ولا حمام، وخرير الـنيل هناك من الشدة بحيث لا يمكن السُّكنى إلـى جانبه كما أن الواحد لا يسمع كلام الآخـر، ولكى يمكن لإنسان أن يكلم آخـر كلامًا يسمعه فـينبغى أن يرفع صـوته مثل الچاووش، ويقـال إن سبب هذه الجلبة هو أن للنيـل رعداً، وقد غادر السكان هذه المنطقة لأن رشاش النيـل يهبط عليهم كأنه الرزاز ويصيب ثيابهم بالبلل.

أوصاف قلعة أبواب

بناها ذو اليزن إنها رباط حصين مستدير على المضيق فى الجانب الشرقى من النيل فى أسوان، وفيها يسـكن قبائل القَرْح وفيها خمسـمائة بيت بعضها من الحصـير وبها جامع قديم، وليس للقلعة رئيس ولا جنود، وقديمًا عـلى الصخور التى أمام هذه القلعة كانت تحصى الرسوم من السفن الرائحة والغادية، وتلـك السفن كانت تقف أمام السلسلة التى بين القلعتين حتى تـدفع الرسوم المستحقة عليها، وغادَرْتُ قلعـة أبواب وانطلقتُ جنوبًا على ضفـة النيل، ومضيـت فى طريق كثير الأحـجار وسِرْتُ فيه ست سـاعات، حتى وصلنا:

قبائل كنوزين

نزلنا ضيوفًا فيها على الشيخ علىّ الواسطى، أما أصل تسمية هذه القبائل بهذا الاسم

فهو أنهم عثروا على كنزين فى أراضى أسوان الخربة، وقد قسموا الكنزين بالسويَّة عليهم، وجاءت قبيلة عربية من بَعْد على أثرهم وطلبت نصيبها إلا أنهم لم يعطوها من الكنزين شيئًا؛ فنشبت الحرب بينهم عبوسًا شعواء، إلا أن رجال القبيلة الذين طلبوا نصيبهم أعملت السيوف والرماح فيهم فسميت القبائل المنهزمة بقبائل القَرْح وسكنوا جزيرة الشلال وهم الآن على مذهب الإمام مالك، ويدَّعون أنهم من ذرية ابن ذى اليزن ولهم سبعة آلاف محارب، وفى أول ليلة لنا هناك ضيَّفُونا وقدموا إلينا الذرة ولحم الإبل ولبن النوق فطعمنا وشربنا، وهذه القبائل تمضى إلى الحبشة فى الربيع، لأن منطقة الشلال جبلية متقاربة والزروع بها قليلة نادرة وهؤلاء القوم لديهم كثير من الأنعام فلذلك يمضون إلى الحبشة طلبًا للمرعى، ثم مضينا خمس ساعات وبلغنا قبيلة مِهْرِيَّه.

قبيلة مِهْرِيَّه

وحللنا ضيوفًا على الشيخ حامد مهرى، وبها ألف وخمسمائة فقير من سُمْرِ البشرة وثوبهم لا يعدو أن يكون ما يستر عورتهم، وهم على مذهب المهريه وهم ينكرون الحشر والنشر، ومضينا على ضفة النيل فى طرق ذات أحجار لا تتسع إلا لمرور رجل واحد وسِرنَا بينما يتبعنا الخدام، وقطعنا هذه الطرق سيرًا على الأقدام، وقد شق هذا الطريق بن ذى اليزن ولا طريق سواه وبعد ساعتين بلغنا قبائل كلافيش.

قبائل كلافيش

ومعنى كلافيش: الشىء القليل، وليس لهم خيام، إنهم جميعًا يسكنون الكهوف، وقد دلنا شيخهم على غار فمضينا بخيولنا إليه وانصرفت عنا شدة القيظ، إنه غار بارد النسيم، وفى هذه المنطقة الصخرية ثلاثة آلاف من العرب المتمردين، ولهم كثير من المعز وليس لديهم أنعام أخرى وطعامهم الذرة ولحم الجمل والتيش وهو كباب التماسيح والمعز، وهم يجامعون أنثى التمساح ويقولون إنهم حين يجامعون أنثى التمساح يتحلب ريقهم وأنهم قوم جبابرة أشداء من أكل لحم التمساح ويستخرجون من مرارة التمساح حجرًا، وإذا أمسكوا بهذا الحجر استطاع الواحد منهم أن يجامع زوجته أربعين أو خمسين مرة، وإذا كان هذا الحجر كذلك عند نسائهم فإنهن كذلك لا تهدأ شهوتهن،

وهذه البقعة لا وجود للـترع فيها ولذلك ليس لديهم إلا البرسيـم والتمر، وعندهم من نبات الذرة ما هو أحمـر اللون وهم قوم صيادون يمضون إلى جبال الحـبشة، ليصطادوا الفيلة، وليـجمعوا سن الفيل ووحيد القرن لـيأخذوا قرنه ليبيعوه، ذلك ومضـينا عنهم على ضفة النيل جنوبًا وشاهدنا جبالا شامخة وصخوراً ضخمةً وبعد عشر ساعات بلغنا عشاير أبو حور.

عشاير ابو حور

إنهم قـوم من العرب سـود البشرة وزنـوج وفقراء ولا يعـرفون دينًا ولا حـشرًا ولا نشرًا، وقد تجاوزنا هذه العشائر، ومضينا خمس ساعات وبلغنا قبيلة سنيال.

قبيلة سَنْيَال

لهذه القبيلة فى الصحراء متراخيِة الأرجاء أَخْبِيَةٌ وخيام، وهم ألفا رجل من المسلمين ولأنهم من العرب فإن وجوه نسائهم مكشوفة ومـكثنا فى خيمة شيخ العرب عبد المجيد وقدموا إلـينا الأنفحة، ثـم ذبحوا لنا ثلاثـة خراف، وأكرمونا إكـرامًا عظيمًا، وأعـلفوا خيولنا الذرة البيضاء، ورأيـنا جنديًا مصريًا يلبس حمر السراويل فاطمـأنت قلوبنا لعلـه كان جنديًـا مـن إبريم وقدم إلينا بعض رغفـان فأكلناها لأن ما كان لدينـا من خبز نفد فأكلنـا الزبد بـالخبـز فكأنـمـا ردت عـلينا روحنا، والنـيل فى هذه المحلة ينـقسم إلى مضايق، ثم دخلنا فى إقليم إبريم فى طريق حجرى ومضينا فيه سبع ساعات جنوبًا بين الصخور حتى وصلنا:

بلدة كُوشتَامينه

بها مائتا بيت من قـصب، وأهلها مطيعون منقادون، وبها زاوية ومقـهى وفيها قبيلة من عرب كنوز تسكن الخيام، ومضينا جنوبًا خمس ساعات فوصلنا:

بلدة كورت

وفيها ثمانية وسـبعون بيتًا من قصب وزاوية، وليس بها مقـاه ولا حانة للبوزه، وبها أيضـًا قبيلـة مـن عـرب كنـوز تسكن الخيام، وهذا الموضع هو حد عرب كنوز وهم لا يمضون إلى إبريم لأن النيل فى هذه المحلة على ضفـتيه مروج تزرع بها اللوبياء والبطيخ وبعد خمس ساعات بلغنا بلدة سبوع.

بلدة سَبُوع

نزلنا عن خيولنا لنشاهدها، وسقنا الخيول إلى الصحراء وتجولنا ساعة فيها لنشاهدها وعلى ضفة النيل آثار فيلة من الصخر، وأسود نحتت من الحجر إذا شاهدها الإنسان دخله الخوف الشديد ويظن أن هذه الأسود أسودًا حيّةً، إنها تماثيل متقنة الصنع وعلى ضفة النيل كذلك جِمَالٌ من الحجر الأسود وتنانين لها سبعة رءوس منها المنكس وبعضها ما ساخ فى الرمال إنها تنانين عجيبة وثمة أعاجيب أخرى، ولكن ليس فى الإمكان ذكرها وربما تحارب موسى ـ عليه السلام ـ مع فرعون فى هذه المنطقة، وقد صنع سحرته من سحرهم هذه العجائب، وقد أوحى إلى موسى آية: ﴿ **فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ** ﴾ [الشعراء: ٣٢]، وألقى موسى عصاه المتعددة الرءوس فإذا هى حية تسعى فابتلعت الحية ما صنع السحرة والكهنة بسحرهم من أسود ونمور وتنانين؛ فهزم فرعون وتعلق بأذيال الفرار، ولعل ما رأينا من هذه التماثيل هى بقايا هذه الوحوش التى صنعها سحرة فرعون، وهى التى أصبحت من بعد حجرًا بأمر الله؛ ويسمون هذه البقعة (سَبُوع) لوجود الأسود بها وفى العربية مائة وثمانون اسم للأسد منها (سبُوع) وقد شاهدنا هذه البقعة وتجاوزناها ومضينا أربع ساعات جنوبًا، على شاطئ النيل واجتزنا الصحارى حتى وصلنا:

وادى العرب

اسم محلة واسعة، وهى سَهْلٌ ذو مروج، ويجتمع جميع العرب فيه مرة كل عام، وفيه يدوم البيع والشراء سبعة أيام وسبع ليال، ولذلك يسمى وادى العرب، وعبرنا أراضى خصبة فى الجنوب وبعد أربع ساعات بلغنا تخت أزرق جادو.

أوصاف مدينة تخت أزرق جادو

بناها فرعون أزرق جادو وبعده فتحها ذو النون ثم استولى عليها القبط ودامت فى حوزتهم مئات السنين، ثم فتحها الأسود بن مقداد قائد عمرو بن العاص، ثم استولى عليها أهل بربرستان وفونجستان، وفى عهد السلطان سليمان كان والى مصر الطواشى سليمان باشا فاتح الهند واليمن وأخذ ميناء ديواباد الهندى من البرتغاليين والفرنجة

وقدمها إلى ملك الهند، ومضى إلى الحبشة في أسطول وجعل على رأسه أوزدمر باشا وأمره أن يفتح الحبشة ومنها عاد إلى مصر، ومن مصر خرج أوزدمر باشا في جيش كموج البحر ففتح هذه المدينة، وقلعة إبريم، واستولى عليها ملك الفونجستان، وفي هذا العصر ظلت هذه المدينة في حوزة آل عثمان، وهي تابعة لحكم جرجا وكاشف إبريم الآن مقيم بها، ولكنها كانت تحت حكومة أخرى عند فتحها تحكمها، وكان فيها منذ أربعين عامًا في حكم جرجه ثلاثمائة جندى وخمسمائة جندى من الفرق السبع ويتبعها جميع القرى وهي التزام يدر مالا وغلالا، وكان يقوم بجمع المال والغلال ويقدمه لجنود القلعة والمستحفظين.

وهي قضاء يتحصل منه مائة وخمسون أقجة، وبها مفتى على المذاهب الأربعة ونقيب أشراف، ولكن ليس بها أعيان، وعلى شاطئ النيل ألف ومائة بيت صغير، ولا وجود فيها لقصور وأعلى الأبنية بها بيت قائد الفرق السبع والچورباجى وشكرباره خاتون والمصاحب على أغا وبيوت للحراس هنا وهناك، وبها عشرون محرابًا تؤدى فيها صلاة الجمعة علاوة على الزوايا، وليس في هذه المدينة خان ولا حمام ولا سوق للبز، ولكن فيها ست مكاتب للصبيان وسبعة سبل وخمسة عشر دكانًا وثلاث مقاه وستة حانات للبوزه، لأن جو هذه البلدة مناسب ففى شدة الحر تطرب البوزه الجسم كما تدفع الجوع والعطش لِشُرَّابها ويصنعون فيها بوزة الذرة كأنها ماء الورد ويشرب البوزه الكبار والصغار، ولكن أكثرهم ضيق النفس وهم سمر البشرة لأن الحر فيها شديد، ومأكولات ومشروبات هذه المدينة البوزه والذرة وماء النيل وشراب البلح وما سوى ذلك من مأكولات ومشروبات فيأتى إليها من جرجه، وكانت هذه المدينة مدينة عظيمة فى قديم الأيام، ولذلك فإن بها آثاراً تدل على عظمتها، وداخل وخارج هذه المدينة كثير من الضرائح، لأولياء مشهورين وقد زرنا ضريح الشيخ (هو) ولأن هذه المدينة تابعة لولاية أزرق جادو، فنساؤها يشتغلن بالسحر ويسحرن الرجل حماراً، وقد ابتُلى بهذا كثير من الرجال، وقد سحرن حتى أحد متفرقة الباشا فإذا هو بين الرجال فى المقاهى وحانات البوزه حمار، وقد مكثت فى قصر الكاشف يومين، ثم مضيت لمجىء كاشف أبريم، ومضيت جنوبًا هلى شاطئ النيل فسِرْتُ لمدة ساعتين وبلغت قلعة إبريم القديمة.

أوصاف قلعة ابريم القديمة

بناها المقوقس ملـك القبط، وقد حاصرها وفتحها عمرو بـن العاص وكعب الأحبار وأبو عبيدة بن الجراح وجـابر الأنصارى وأبـو هريرة وساريـة الجبل وأسود بـن مقداد وأمثالهم من الصحابة الكرام، إنها قلعة حصـينة متينة وقد بناها شداد على ربوة مشرفة على النيل وهى صغيـرة وحصينة وخماسية الشكل ومحيطها ثـمالمائة خطوة، ولها باب واحد مفتوح على الجهة الـشرقية، وفى داخلها ثمانون بيتًا صغيـراً وكبيراً، وفى وسطها جامع قديم الطـرز ذو منارة، إنها لسليـمان خان، لأن فى عهد سليـمان تم الاتفاق مع البربر والفونج على حيلة للاستيلاء على هذه القلعة، ودخلت فى حوزته ومن بعد صار الطواشى سليمان باشا واليًا على مصر؛ فجـعل أوزدمر باشا قائداً له، ففتح القلعة قهراً فى عشرة أيام، وقطع رءوس من فيها من البربر والفونج فأصبح لونهم أسود، وفى هذه القلعة أقـيم جامع سليمان خان، وليـس فيها سوق ولا حمّام ولا خان، ولكن لـلقلعة رئيس ومائة جندى وفرقة موسيقية ورئيس القلعة طبق قانون سليمان لا بد أن يكون من طائفـة المتفرقة، ويأتـى من مصر فى كل عـام ثلاثمائة جنـدى كما يأتى إلى الـكاشف ثلاثمائة مستحفظًا، وهـم يحصلون على مال الدولة والغلال ولهم أقلام وأفراد ويأخذون علوفة قدرها أربـعون كيسًا سنويًا من حاكـم جرجه إنهم قوم شجعان، إنهـم يتحاربون ليل نهـار كما يحاربون مجرمـى فونجستان، ومخزن الأسلـحة فى القلعة مخـزن عظيم ولهم أربـعون مدفع وليـس للقلـعة خندق لأنـها قائمة عـلى أرض صخريـة إن جوها لطيف، ولكن فى جنوب هذه المحلة تحرق شدة الحر بيوتًا للفقراء من القصب والحصير، ولكن بحمد الله أن شدة الحر لا تؤثر على الإنـسان، ويجب التحرز من البرد فى وقت السحر، وعلى الرغـم من أن جميع الناس يأكلون من خبـز الذرة إلا أنه فى هذه الديار ينفعـهم كثيراً، ويقيهـم من مرض يصيبهـم بالإسهال ثم الموت، وليس فـى هذه الديار طاعون، وأكل خبز الذرة يشـفى من الإسهال، وأعيانهم يلبسون قمـيصًا عليه شال أما متوسطو الحال فيلفون حول وسطهم مئزراً، وعليه مئزر آخر، أما الفقراء فيلفـون حـول وسطـهم فوطـة زرقاء ويمضـون عراة أما نسـاؤهم فيـأتزرن بإزار أبـيض وأسود وعـلى

رءوسهن خمار أسود وليس فى تلك الديار جميل ولا جميلة لأن بشرة أهلها شديدة السمرة والبعوض كثير إلى حد أنه يقلق راحة النوام ليلا، ولذلك ينامون فى شال رقيق اللهم عافنا، وإذا ما تجاوز أحد حدود ممتلكات الدولة العثمانية استوجب القتل أو نفى إلى إبريم، وصيف هذه المدينة معتدل ولشدة القيظ ينفون إليها المجرمين.

وأبريم تقع فى نهاية حدود ممتلكات الدولة العثمانية، وفى الجانب الشمالى من تلك الحدود قلعة أزاق، أما فى الجهة الشرقية فنهاية حد تلك الممتلكات العراق أما فى الجهة الغربية فحدودها مدينة بلغراد.

وثمة قلعة تسمى:

قلعة جاوغه

ولكنها فى ولاية لطيفة جوها كأنها حديقة إرم فليس فى أبريم حدائق ولا خلائق، ولكن فيها جبالا سودًا، وإن وجد فى هذه الولاية حدائق يكثر فيها الشمام والبطيخ، وكل كيلة من الذرة فيها تنبت مائة وخمسين كيلة، ولذلك لا يزرعون إلا الغلال، إنهم يزرعون الذرة البيضاء وحيواناتهم تعتلف الذرة، وهذه البلدة تقع فى نهاية الإقليم الأول، إنه على حد قول بطليموس على عشرين درجة وسبع وعشرين دقيقة ويطول النهار فيه ثلاث عشرة ساعة وثلاثين دقيقة أما طول الإقليم الثانى من الشرق إلى الغرب على حد قول الجغرافيين فهو ألفان وأربعمائة فرسخ، وعرضه مائة وستة وثلاثون فرسخًا وفى هذا الإقليم سبعة جبال عظام، وهى مقاليد الأرض كما أن فيه ست وثلاثين صحراء لا يسكنها إلا قلة من الناس، وأرضها ممتلئة بالحشرات، وفيها ألفا مدينة، خمسون منها مدنًا عظيمة، وفى جانبها الشرقى أولاً بلاد الهند والسند ومنصورة وهيزة وكندة وجزيرة العرب، ونجد وتهامة ويثرب والحجاز وديار فلزمك، وفى الجانب المقابل من بحر القلزم الحبشة وزيلع وسواكن وفى أرض بربرستان قلعة إبريم ومدينتها ومدينة دونقلا تخت بربره، وبها تنتهى الأرض الأفريقية والمصرية والبقلية ومقابل المغرب كفار البرتغال وهم على شاطئ البحر المحيط، وقد طوفت بكل هذه البلاد قدماء الحكماء طيلة عمرهم واستخدموا علم الإسطرلاب وعرفوا نعم الله وألفوا كتبهم وهى

أطلس، ومينور، وجوغرافية وباريه وقولونيه وكتبوا عن أشكال الدنيا وقد طوفت أنا كذلك فى البلاد والقرى التى فى الممالك المحروسة ووصفت قراها وقصبلتها ومدنها العظيمة وجبالها وأنهارها ومنازلها شمالا وجنوبًا ولم أذكر إلا ما تمس الحاجة لذكره ونقلت المقال إلى الحال، وذكرت أوصافها وأشكالها ونسجت على منوال أستاذنا نَقَّاش حِكَمِى زاده على بك ولم يتيسر لنا زيارة بلاد الفونجستان بعد فما استطعنا الوصف عنها وأقاليم إبريم هذه تميل سبع درجات عن جهة الشمال.

وقد مكثنا فى قصر الكاشف أيامًا ثلاثة، وشاهدنا القلعة والمدينة ومن أجل السفر إلى فونجستان تزودنا بالزاد والنوق وخمسة عشر جوادًا يحملون الشعير وسائر ما هو لازم للسفر، وقد تبادل الكاشف ورئيس القلعة والقائد والأعيان رسائل المودة مع ملك فونجستان وأمراءها وفي هذه المحلة تجار فونجستان وكانوا فى رفقتنا، وركبوا ثلاثمائة حمار، ومن جند القلعة سايرنا كذلك سبعون جنديًا يحملون البنادق، والحق بنا الكاشف أربعين رجلاً، وجملين وهجينًا وفرسًا، وودعنا جميع أحبابنا فى إبريم، وخرجنا من إبريم قاصدين فونجستان مشاة وركبانًا، وبعضنا يركب الجمال والبعض يركب الخيل والبعض الثالث يركب الحمير، وكان معنا من إبريم ثمانمائة رجل يحملون السلاح.

* * *

الفصل الحادى والسبعون

بعد توديع ولاية إبريم توكلنا على الله فتوجهنا صوب فونجستان

بيان بمنازل وقلاع وبلاد وقصبات فونجستان

مضينا على شاطئ النيل فى أول الأمر ولكن النيل فى هذه المحلة يمضى متعرجًا، وبعد ثمانى ساعات بلغنا بلدة وادي حلفه، وقد أقمنا خيامًا هناك مع ثمانمائة رجل، وكنا ضيوفًا تلك الليلة فى هذا الوادى إن وادي حلفه سهل معشوشب، وعلى شاطئ النيل فى ظل شجرة جلست أنعم بالراحة، وعلى ضفتى النيل فيها صخر أملس، ومنها رأينا شلالات لا تمكن السفن من العبور، ثم رأينا فى يوم آخر سفنًا كبيرة وهى تجرى، وغادرنا وادى حلفا هذا وعلى شاطئ النيل فى الشرق والغرب جبال وأدغال وأحراش مخوفة، فطوينا مراحل فى أرض كثيرة الأشجار وكثيرة الوحوش، وقضينا فى ذلك ثمانى عشرة ساعة، ولم نشاهد الشمس ستة أيام، لأننا كنا فى غابة أشجارها مثمرة وبها أشجار متقاربة من السنديان والسنط فهذه الأشجار حجبت عنا الشَّمْسَ ولكن ليس فيها أثر لأشجار بلاد الروم، وفى اليوم السابع بلغنا قلعة صاى.

اوصاف قلعة صاى

هى آخر حدود ممالك آل عثمان، وبناها أبرهة فى جزيرة واسعة بنهر النيل، وقد توارثها ملوكٌ بعد ملوك، وقد فتحها عمرو بن العاص عام ٢٢هـ بقيادة الأسود بن مقداد، ثم إستولى عليها الفونج وفى عام ٩٣٥ وفى عهد سليمان فتحها أوزدمر بك، وهى قلعة حدود بناءً على معاهدة أبرمت مع الفونج، وقد وفا ملك فونجستان بعهده إلى يومنا هذا فما استولى عليها مخالفًا لما تم الاتّفاق عليه، وبما أنها واقعة على نهاية الحدود فإن المتمردين من فونجستان وبربرستان لا يكفوا عن مناوشياتهم، وفى هذه البقعة يبدو النيل كأنه بحيرة واسعة، وهى تبدو حصنًا حصينًا من الحجر الأسود مربع الشكل بناه شداد، وفى البداية بعد طوفان نوح بناها الملك صاى بن مصرايم بن نقراوش وعمرها من بعده كثير من الملوك وبها الآن بابٌ من الحديد يطل على النيل، وقد أحضر أوزدمر باشا

هذا الباب من بلاد الحبشة، وعلى عتبة هذا الباب صورة على الحجر الأسود لأبرهة، وكأنه حى ولما دخلت هذه القلعة حُيِّيتُ بإطلاق طلقة من مدفع، وقد رددت الجبال دوى طلقة ذلك المدفع التى حُيِّيتُ بها، ومضوا بى إلى رئيس القلعة فجلست معه ولله أحمد أنى رأيت رجلاً روميًا، وقال إن أعيان الولاية أكرموك، وبعد ذلك قدمت إلى رئيس القلعة وقائد الفرق المصرية السبع كما قدمت إلى أعيان القلعة رسائل كاشف إبريم، ورسائل حاكم جرجا، وفرمانات الباشا فزادونى تعظيمًا إلى تعظيم، ثم تجولت سيراً على الأقدام لأشاهد القلعة والمدينة، ورئيس هذه القلعة هو من متفرقة مصر.وله مائة وخمسون جنديًا وثلاثمائة مستحفظ من فرق مصر السبع وفرقة موسيقية، وفى كل عام تأتى مؤنتهم ورواتبهم من جرجه، ولهم بارود أسود ومدافع، وليس فى القلعة شيخ إسلام ولا نقيب للأشراف، ولها قضاء يدر ستمائة أقجة. وبعض المحلات ألحقت بقضاء إبريم، ويأتى نائب فى سفينة تحمل المؤن كل خمسة أشهر، وفى القلعة خمسمائة بيت صغير من القصب والحصير، كما أن بها جامع السلطان سليمان خان، ومسجد أوزدمر، وليس بها خان ولا حمام ولا مدارس ولا زوايا ولا مكاتب للصبيان ولا سبيل، وفيها عشرة دكاكين وبها ثلاث مقاه وثمانى حانات للبوزه، ولكن فيها بوزه مصفاة نقية وخارج القلعة مائة وخمسون بيتًا من حصير ليس فيها حدائق، ولكن فيها كثير من البساتين، وفيها لذيذ من الشمام والبطيخ والخيار وعبد اللاوى وفيها نخيل هنا وهناك، وفى هذه الولاية تتشعب من النيل ترع وفى الصحراء يقيم عرب حلفا وهم يزرعون الذرة والكيلة تنبت عندهم مائتى كيلة وتربتها خصبة، وعرب حلفا هؤلاء قوم قبيحة وجوههم عابسون لا مذهب لهم وفى بعض الجهات يعلنون عصيانهم وتمردهم، ويحاربون عسكر قلعة صاى.

وفى كل المواقع صحراء فيها الأسد والنمر والفيل ووحيد القرن والغزال وتيس الجبل والعقاب والثعبان وأنواع الحُمُرِ، إنها مفعمة بالوحوش المخيفة حتى إنه يوجد داخل القلعة ثلاثة أسود وكل منها كان أسداً أسود له جثة الفيل، وأنا لم أشاهد السباع، وأثناء انحسار ماء النيل يعبره العَرَبُ بالجمال، إلا أن ما فى جوانب القلعة الأربعة عميق ولا

يمكن عبوره على الأقدام، إن جو هذه البلدة جميل صيفها وشتاؤها معتدلان، وإذا ما نام الإنسان ليلاً وجد العمر الطويل لأن ريح النسيم لا تأتى إلى هذه البلدة حتى أرض حاسانكه ومدينة بلبيس والعريش ومنها لا يهب نسيم الصبا ولكن تهب ريح تياب وملسي. ولكن لا يؤثر فى هذه القلعة ريح النسيم، وللنباتات والرياحين ريح طيبة تفوح وترد على متنسمها روحه، كان فيها الفتيات والفتيان متميزين بروعة الجمال، وإذا ما وقعت عليهما عين إنسان سَرَتِ الرَّجْفَةُ فى جسده، ولطيب هواء هذه البلدة لا يصدأ فيها الحديد وساحرات صحاريها لهن شهرة تطبق الآفاق، وكم من غريب رومى سحرنه، والساحرات فى إبريم أقل منهن فى بلدة أزرق جادو اللهم عافنا إنهن فى هذه المدينة يسحرن الرجال حميراً وكلابًا ويطيرن الجرار والأوانى فى الهواء وحاكم قلعة صاى تحت حكم فونجستان وليس فيها غلمان من الروم إلا ما يجلبه النخاسون، وودعنا المستحفظون الباقون فى القلعة ولما عقدنا العزم على الرحيل قدم إلينا الشباب والشيوخ وقالوا لنا إذا ذهبتم إلى فونجستان فإن جيادكم سوف تهلك من الحر والجوع ولا تأمنون عادية اللصوص من الزنوج، وبسطوا إلينا الرجاء ألا نمضى فقلت إن الخوف لا يدخلنى مطلقًا، لأن الله ـ تعالى ـ قال: ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١١٢]. وقد حفظت منذ أربعين عامًا وقد ختمت القرآن الكريم فى كل يوم جمعة منذ فجر شبابى، وبذلك كنت أختمه فى كل عام ثمانية وأربعون مرة، وأنا مقتنع بذلك كل الاقتناع وأنا لا أنثنى عن عزمى، وقالوا لى وإذا ما ذهبت إلى إبراهيم باشا وأنت لا تحمل هدية فأنا لا أرد جوابًا، وماذا أصنع بالهدايا التى لملك فونجستان وفى الموضع الذى يصب فيه النيل عند دمياط ورشيد صليت ركعتى الحاجة، ودَعَوتُ الله أن ييسر لى زيارة منابع النيل ومقابر الأولياء هناك فأحمد الله تقبل دعائى، لقد جئت إلى بلدة صاى وعودتى إلى مصر غير محتملة، اللهم هبنى رفيقًا لأرحل، وألححت فى الدعاء فقالوا لى لا تنسانا من دعواتك وكلفت أن أقدم إلى حاكم الفونج رسائل المودة فقالوا لى على الملأ: إذا دخلت القلعة فإن جنودها من الروم سوف يقتلونك، ونحن لن نعطيك رسالة ولا رفاقًا البتة، وقرروا أن ذهابى لغير إياب، فدخلنى من ذلك خوف شديد، وتصورت ما سوف

ينزل بى من شدائد وبلاء ولكن لا بد من الذهاب فحملت خمسين هجينًا بالمتاع ومعى اثنين من حاملى البنادق الشجعان، وحملت أربعة جمال بالمؤن وهبنى أعيان القلعة ذلك كله، وقد أوصى شيخ النخاسين فى بربرستان وتجار الفونج على، وأنى من طرف الباشا أغا وإذا ما أصابنى سوء فسوف يكون ذلك وخيم العاقبة كما أنهم حذرونى من أن أثق فيهم وحذرونى من الغفلة حتى فى وقت أداء الصلاة فلا بد أن يكون حولى جنودٌ للحراسة وأن يحملوا السلاح ليل نهار.

جاء فى جميع التواريخ العربية وتواريخ الصابئة أن مدينة صاى مدينة تقع فى حدود أسوان وبعد الطوفان أنشأها كاهن يسمى رَهْوَان هندى وآثار أبنيتها ما زالت ماثلة للعيان، وهذه الآثار تثير دهشة مشاهدها وكأنها ليست من عمل البشر، وفى هذه المدينة مرآة صنعت من عدة معادن فمن قصد هذه المدينة من الأعداء أحرقتهم، ومن أجل ذلك لم يغر على هذه المدينة أعداء بغاة طغاة.

مدح حديقة إرم رَهوان الهندى

وبالقرب من هذه المدينة بجزيرة فى النيل حديقة تسمى حديقة رَهْوَان هندى، وكأنها جنة رضوان وقد نبت نباتها دون زرع، وبه أشجار غريبة وثمار عجيبة وأطيار تغرد وفى السحر ترفع كل الطيور أصواتها الحزينة فيدخل السرور قلب الإنسان، كما أن فيها حيوانات أليفة لا يعلم عددها إلا الله، فيا عجبًا لهذه الحكمة، وكانت تابعة لأربعة حكماء اثنان منهم من ولاية بربرستان والآخران من ولاية الحبشة وبها أربعة ترع اثنان ماؤهما له مذاق التمر الهندى وماؤهما مفيد ومسهل للهضم: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠]. وفى طرف مدينة صاى أحجار صفراء اللون مستديرة فى الجبال ويسمون الحجر منها عين الصنم وهى أحجار مصقولة مجلوة ويقولون إنها عيون أصنام رَهْوَان الهندى. والعرب يضعون هذه الأحجار فى الماء ويشربونه وفى طرفة العين يسكرون وهؤلاء هم قوم كنوز، ولكن على حد قول أهل هذه الديار فإن حجر عين الصنم موجود فى جبال مدينة تنيس فى الحبشة والبرتغاليون يشوبونه بالماء فيصير شرابًا خاصًا لهم ويقدمونه هدايا فى ولاياتهم، إن شراب الذرة لا يتخمر ولكنه مسكر، وقد

خرجنا من قلعة صاى فى رفقة من أحد عشر رجلاً من الفونج والبربر ورافقنا أهل القلعة ساعتين، ثم ودعناهم وقد حذرونا من مرض يصيبنا هناك ثم عادوا إلى القلعة، ومضينا فى صحراء على شاطئ النيل، فى طريق مستقيم مع الجند وعبرنا بقاعًا لا ماء فيها حتى وصلنا ماغرات:

أوصاف ولاية فونجستان وقلعة ماغرات زاغستان

إن هذه القلعة تحت حكم حسين خان ويسمونه فى هذه الديار الوزير وقد فتح هذه القلعة أوزدمر بك على عهد الطواشى سليمان باشا والى مصر، ثم استولى عليها أهل الفونج بعد أربعين يومًا وما زالت إلى اليوم فى حوزتهم، وحسين بك من عرب كلابش، ومن أتباعه سبعة عشر ألفًا من المحاربين وهم يسكنون خارج هذه القلعة وتحت حكمه سبعة عشر قلعة ويسمى حاكم فونجستان دلكير، وهو يتبع وزير مصر، ولكنها الآن تابعة لمن يسمى پرار بك ويحكم تلك المدينة الآن من قبل حسين بك عطاء الله خان، ولدى حسين بك خان رسائل من قبلنا، وقد قدمنا إليه من طرف حاكم إبريم وصاى هذه الرسائل التى من أعيان إبريم وأعيان قلعة صاى وقد قبلها ووضعها على رأسه، وأرسلنا إلى خان القلعة، وأهدى إلينا سِنَّيْنِ من سن الفيل، وقدم معنا من قلعة صاى مائتان مِنْ مَنْ يركبون الجمال فسلمناهم سن الفيل، وقد عاد هؤلاء إلى القلعة بما يحملون.

وقلعة ماغرات قلعة صغيرة مربعة الشكل تقع على الشاطئ الشرقى للنيل، وفيها أربعون أو خمسون بيتًا من حصير، ولهذه القلعة بابٌ من خشبٍ ينفتح على الجنوب وليس فيها سوق، وفيها سبع أو ثمانى حانات للبوزة، وجامع صغير المئذنة، وقد أدينا صلاة الجمعة فيه، وقد ذكروا فى الخطبة اسم ملك الفونج، وأهل الفونج مسلمون على مذهب مالك وأرسل الحاكم فى الصباح إلى مائة رفيق مسلحين بالحراب ويركبون الجمال، وكثير من خبز الذرة، والخراف المطهوة، وبطيخًا، وتمرًا، ومضينا على شاطئ النيل فى غابات أشجارها السنديان والأبنوس وهى أرض جبلية كثيرة الأحجار حتى تناره:

أوصاف قلعة تِناره

وهى تحت حكم حسين بك حاكم الفونج، ولـها قضاة من الزنوج، وكانت مدينة عظيمة فى سالف الزمان، وقد تركنا جميع رفقائنا عند جزيرة قريبة من الشاطئ الغربى للنيل وهم الذين كانوا على الضفة الشرقية للنيل فعبرنا إلى القلعة فى سفينة، وبلغنا حاكمها وهو رجل صالح أسمر الوجه واسمه صالح كذلك، وسلمنا إليه رسالة رئيس قلعة صاى فسر لذلك وأرسل لنا المؤنة وكذلك العلف لخيولنا، وفيها قلعة حصينة قائمة على الصخور بناها شداد وهى قريبة من الشاطئ الغربى للنيل، وتقدمنا فى سيرنا، وبدت القلعة كأنها جزيرة على الصخور، ولها باب ينفتح على الجهة الشرقية وعليه صورة أسد وحاكم القلعة له ثمانمائة من الرجال المحاربين، أما رعاياه فأربعون أو خمسون ألف من العرب سود الشعر، وهم جميعًا مسلمون من أهل التقوى يؤدون الصلاة ومذهبهم هو المذهب المالكى، وثمة جامعان ومحكمة ومقهى وسبع حانات للبوزه، وهم لشدة الحر عراة ومنهم من يلفون فوطة حول خصورهم أو يضعون إزاراً على ظهورهم، ويلبس حاكمهم قميصًا أبيض البطانة وفى هذه المدينة يكثر من الفيل وقرن وحيد القرن ويصيدهم الصيادون، وفى الجانب الشرقى من النيل زنوج سود يأكلون لحم الجمال ويشربون لبن النوق، وبعد مرور تسع ساعات بلغنا قلعة سه سه.

أوصاف قلعة سَه سَه

هى قلعة حصينة تقع على الشاطئ الغربى للنيل، ومكث رفقائى فى هذا الشاطئ وعبرت النيل فى قارب ووصلت إلى الحاكم وهو أسمر البشرة يسمى حسين بك وقدمت إليه الرسائل، وقد عظمنا وكرمنا، وهذه القلعة قائمة على الصخور وقد بناها شداد وبداخلها مائة بيت من قصب، وليس فيها مدافع ولكن فيها مجانيق وقد رجوت أن يسمح لى بمشاهدة هذه المجانيق، إنها تقذف أحجاراً يزن الواحد منها ثلاثة قناطير فيطير فى الهواء كأنه النسر، ولقد أطلق منجانيق حجراً فسقط الحجر المقذوف فى بستان فى المدينة، وارتفع ثانية فبلغ الجانب الآخر للنيل، ولهذه القلعة قاعدتان عظيمتان، وعليهما نخلتان شامختان وقد علقوا فيها أربعة حبال من جلد الفيل، وفى أعياد الروم يصنعون

الأراجيح للصبيان على هذه الحبال، وبهذه الحجارة فى تلك الحبال يهلك الأعداء، وقد وضعوا على أعمدة المجانيق كثيراً من الحبال وهم يدفعون الحجارة المعلقة فى الحبال فتصدم العدو صدمة عنيفة يكون بها من الهالكين، وفى خارج القلعة أشجار الدوم ويحملون المجانيق على ظهور الجمال إذا خرجوا محاربين وهذا يعدّ مشهداً عجبًا، وفضلاً عن ذلك لهم أسلحة أخرى هى السهم والقوس والسيف والمقلاع والمزراق والحربة متعددة الأسنة، كما يستخدمون التروس من جلد الفيل ولهم خيول قصار وفيلة، ولكن جمالهم كثيرة والرجلان أو الثلاثة يركبان المدفع، وليس لهم بنادق، ويتبع هذه القلعة أربعون أو خمسون ألفًا من الزنوج سود الوجوه والشعور، والرجال عرايا أما النساء فمستورات، ولكنهم يواظبون على أداء الصلوات فى أوقاتها ولهم جامعان وسبع زوايا وستة مقاه وستة حانات للبوزه، ولا أثر فيها للأسواق ولكنهم يقيمون سوقًا عظيمة خارج القلعة فى كل أسبوع، وهذه القلعة قريبة من الحبشة وشرق القلعة أرض جرداء يغمرها ماء النيل وبذلك تبدو فى الماء جُزُر وجزر، كما تبدو فيها قلاع وكلها تحت حكم كور حسين خان ولهذه القلعة من العرب خمسمائة وخمسون جنديًا مسلحين بالحراب وتجاه النيل فى الضفة الأخرى قلعة مستديرة الشكل هى قلعة نازنارنته.

أوصاف قلعة نازنارنته

إنها قلعة منيرة مستديرة فى جزيرة فى النيل بناها شداد وهى كذلك فى حكم حسين خان وهو يملك خمسمائة جندى، وقد تجاوزنا هذه القلعة ومضينا على شاطئ النيل خمس ساعات وتجاوزنا خط الأستواء وسِرنًا فى أرض شديدة الحر ولا وجود فيها للأشجار ومضينا بمقدار سبع درجات.

أوصاف معدية خفير الصغيرة

إنها حصن صغير فى غرب النيل والسفن التى تعبر إليها تدفع رسومًا وفيها مدافع وعندما تنحسر مياه فيضان النيل يمضى العرب إلى جزيرة سه سه على الجِمال ثم يمضون منها إلى قلعة المعدية، ولم نَمْضِ إليها ولكن مضينا على شاطئ النيل واجتزنا بأكواخ من القصب، ومضينا فى الطريق ثمانى ساعات وبلغنا قلعة حفير.

بيان قلعة حفير العاصمة الكبيرة

وأرسلنا طليعة رجالنا إلى رئيسها الخان دائم الدين فخرج إلينا واستقبلنا بألف فارس ثم عبرنا بمائة سفينة إلى الجانب المقابل من الشرق إلى الغرب، فقصفت القلعة بالمدافع، ومكثنا فى قصر صاحب القلعة كور حسين بك، وفى الجانب الغربى من هذه القلعة بناء مثلث الشكل وهذه القلعة منيعة، إنها مقر كور حسين بك، ويقولون إن أول من بناها هو عنترة فعلى بابها المفتوح على النيل صورة زنجى على ظهر فيل ويقول أهل البلدة إنها صورة عنترة، إنها صورة صنعت قديمًا وداخل القلعة بيوت صغيرة وكبيرة من القصب وفيها عشرون محرابًا، وأهلها جميعًا من المسلمين المتقين على المذهب الشافعى، وفى سوقها جامع الملك سيف الدين خاقان، وجامع الملك حارث خاقان وجامع الملك تبع خاقان وجامع حسين بك الذى بُنى حديثًا، إنها جوامع صغيرة، ومنائرها قصار وليست مزخرفة، ويذكر فى الخطبة اسم الملك الخاقان ثم اسم خادم الحرمين ثم قيصر محمد، وفيها خمسون زاوية ومبرة، ووكالتان صغيرتان وستة مكاتب، وعشرون سبيلاً وحمام صغير، ومائة دكان وعشرة مقاه، وعشرون حانة للبوزه، وكل الدكاكين مفتوحة ليلاً ونهارًا، وفيها الأمن والأمان، ولهذه القلعة سبعمائة جندى وخمسون ألف بربرى وأهلها يشتغلون بالزراعة، وقد رأينا فى هذه المدينة خبز القمح، ويوزع علينا الحاكم دائم الدين خان فى كل شهر مائتى رغيف وخروفًا وسمنًا وجرّة من العسل ولحمًا وشعيرًا وأكثر محاصيلها هو الذرة والتمر وفى بساتينها يكثر البطيخ والشمام ولهم خيول صغار الحجم، وقطعان الإبل فى صحاريها لا تقع تحت حصر وغنمها وعنزاتها وعجولها كذلك كثيرة لا تحصى وكان فى القلعة فيل صغير وكان أليفًا للغاية يلاعب كل أحد.

وصف حفير

وخارج المدينة فى المقبرة ضريح القطب الشيخ ناصر الدين ابن الشيخ نصرت وقد زرنا ضريحه، ولاعتدال جو هذه المدينة تكثر فيها الحدائق والنخيل، ولكن ليس فيها جميز ولا نبق، وهذه المدينة تقع على بعد ميل شمالى خط الاستواء وترتفع عن مصر بمقدار ربع دائرة، ولشدة الحر فيها رجالها ونساؤها سود البشرة، وثيابهم فوطة وأعيانهم

يلبسون شال إحرام ورءوسهم عارية وقد مكثنا فى هذه المدينة ثلاثة أيام، واستراحت خيولنا وجمالنا وقدم سبعة من النجباء على الجمال ومضوا إلى المحكمة ثم لحق بهم القائمقام دائم الدين وتليت رسائل النجباء فمضى بأمر كور حسين بك إلى ملك الفونج المتمرد مائة ألف جندى وخمسين منجنيقًا وأربعين ألف جمل مع أسلحتهم وأحمال سبعين فيل من الخيام، ولأن هذا لم يكن كافيًا كتب إلى أعيان المدينة يطلب المزيد من الذخيرة ففى خلال يومين جمع ذخيرة مقدارها ثلاثة آلاف جمل وثلاثة آلاف جندى وقد صعدت بنفسى إلى قلعة حفير.

وصف قلعة قاندى

إنها قلعة صغيرة على الضفة الشرقية للنيل بناها وزراء ملك الفونجستان لذلك سميت قان، ولها ثلاثمائة حمل جمل من الذخيرة وثلاثة آلاف جندى فاختلطوا بعسكرنا وفى الصباح بعد أن مضينا سبع ساعات بلغنا قلعة ناورى.

وصف قلعة ناورى

إنها قلعة على الضفة الشرقية للنيل أقامها حسين بك وهى فى حكمه، وهى فى شكل مستطيل، ومساحتها ألف خطوة، ولها باب ينفتح على الجهة الشرقية ولكن أسوارها منخفضة وبها ثلاثة جوامع وست منائر قصيرة، وأسواقها صغيرة وبها حمام صغير، وداخل القلعة مائة بيت من القصب، وألف عسكرى وأربعون ألف من الأهالى وقد وزع قائم المقام كمال الدين بك على جندنا ألف حمل جمل من الطعام وستة آلاف جندى. ومضينا فى تلك الليلة عشر ساعات على شاطئ النيل وفى الصباح بلغنا قلعة سندى.

وصف قلعة سندى الحصن المتين

إنها فى شرق النيل على شكل مثلث وهى قلعة حصينة، وفى القلعة سبعمائة بيت من قصب وسبعة جوامع، وأما غير ذلك من المبانى فَخَرِبة، وكل أهْلها مسلمون متفقون على المذهب الشافعى، وبها تتم حدود حسين بك، وهى فى حكم دفتر دار ملك الفونج، وثمة سوق ومحاريب وفى السوق سن الفيل وقرن وحيد القرن وجلد الضب

وشجر الأبنوس كأنها جبال مغمورة بالرمال، وهى موجودة ولكن لا قيمة لها، وحاكم هذه القلعة على بك، وقد انطلق فى الطريق ومعه مؤنة يحملها ألف فيل والفان من الجند أما العظمة لله، أصبحنا عددًا كبيرًا وكان الجند من الزنوج يملأون الصحراء والسهل وقد سألنى الحاكم عما إذا كان قيصر الروم لديه هذا العدد من الجند فأجبته ليس لنا من الجمال ولا هذا العدد من الجند العراة ولكن لآل عثمان مدافع كالبحر ولهم عسكر يحملون البنادق وما نسميهم العسكر عراة أكبادهم محترقة يتناولون كسرة من الخبز، وإنهم يمشون كأنهم قطعان من الحمير السود وإنهم غاية فى النحول والضعف، إلى حد أن عظامهم تبدو من جلودهم، ولكن حركتهم خفيفة، وجيرانهم لا يأمنونهم وبلغنا صحراء دانقة.

منزل صحراء دانقه

إنها صحراء مترامية الأطراف وفيها كثير من النباتات، وقد مكثنا فيها وأقاموا خيامهم فيها، وفى وقت العصر ظهرت لنا آلاف من الأعلام فى الغرب واقتربوا من عسكرنا ببطء، ولعلهم من بربرستان ومذهبهم هو المذهب الشافعى، وقد مضى منهم أربعون ألف جندى مع مائة ألف جمل ليكونوا مددًا لحسين خان وبدأوا فى السير من الصباح حتى الليل، وقد مكث عسكرنا عند بحيرة وامتطينا صهوات جيادنا التى قدمها لنا صاحب القلعة، كما استقبلنى ملك البربرستان، وقد أكرمنا الملك بأن أتحفنا بشال أسود، وخمس عشرة وسادة من الجلد وسجاجيد سود ولما استقبلناه وقف وعظمناه فقدموا إلينا لحوم الإبل والتمر وخبز الذرة، وأمام خيمته أحرق النُّفْتَ والقطران، وبعد الطعام لم يغسل يديه إنه رجل مكشوف الرأس وشعره عقائص وله خدام سمر البشرة سبحان الخلاق ثم أحضروا لنا حلوى التمر والشراب وقد شربنا الشراب فى كاسات من الخشب، وقد عظمناه برفع أيدينا وبينما كنا نشرب سألنا عن أحوالنا، فقلنا إننا قد أتينا من قبل وزير مصر إلى ملك فونجستان، فقال لا يأتى من قبل وزير مصر إلى فونجستان، رجل أبيض البشرة، فقلنا لنصل إلى ملك فونجستان، وعدنا إلى خيامنا، وفى السحر قرعت الطبول ونمنا فى الصحراء يومًا وليلة، ومضينا بعيدًا عن النيل، وفى اليوم الثالث بلغنا شاطئ النيل ثانية، وبلغنا قلعة واردان.

فى مدح قلعة واردان

إنها قلعة جميلة حصينة على الضفة الشرقية للنيل إنها تحت حكم ملك فونجستان وعاصمته وهى مدينة معمورة جميلة للغاية، وبها سبعة عشر ألف جندى من سمر البشرة مائتا ألف من الزنوج والبربر والفونج من حملة الرايات، وهم مسلمون مؤمنون على المذهب الشافعى، وبها سبعة جوامع وأربعون زاوية وخان وحمام وسبع وكالات وستمائة دكان ومكتب للصبيان وسبل، ولكن ليس فيها أبنية على طرز أبنية الروم والعرب، وليست هذه المبانى مزينة، وفيها حدائق هنا وهناك وفيها بساتين كثيرة، ومن شدة حرها تشوى الإنسان، وجملة أهلها من التجار، ومتى بلغوا بلدًا حملوا السلع على ظهور الجمال والفيلة وعند السير إلى الجهة القبلية تطلع الشمس من خلف الكتف اليمنى، وتقع هذه المدينة عند خط الاستواء فى الحبشة، وعلى الضفة الغربية للنيل أرض مخوفة؛ ولا يسكنها من أحد، إنها صحراء قاحلة وفيها فيلة، وعقبان ووحيد القرن فَسِرنا بمحاذاة القلعة، وَصِدْنا الفيل ووحيد القرن وبعض الحيوانات الأخرى فى الكمائن بالأوهاق[1] والحراب.

وقد ألحق حاكم واردان حمل ألفى جمل من المؤنة وعشرة آلاف جندى مع جندنا، ولم نتلبث[2] بهذه الصحراء وقد رأينا بشاعة ما فيها وسِرْنا ثلاثة أيام بلياليها وبعد أن أخذ منا التعب مأخذه بلغنا ساحل النيل.

صحراء هانقوج العظيمة

إنها تحت حكم ملك فونجستان، وهناك مكث عسكرنا وسمعنا فى الصباح صوت يقول الله كأن جيش كور حسين خان كان فى انتظارنا، وكأن خيولنا وجمالنا مهيأة للتقدم، وقد جاءنى خطاب يأمرنا بالتقدم سريعًا فمضينا فى الصحراء ثلاث ساعات، فوجدنا أنفسنا وسط كثرة من الرجال والجمال، وهم يحملون الحراب والسهام والقسى، والمزاريق ولا يعلم عددهم إلا الله، وتجاوزناهم، ووجدنا أنفسنا فى جيش تفوح من

(١) الأوهاق: الحِبَال ومفردها: وهق.

(٢) تلبّث بالمكان: توقف فيه وأقام.

رءوسهم رائحة ذكية، وهم قوم سمر البشرة فى وجوههم مسحة من الجمال، وقدم للمدد من ملك قرمانقه مائة ألف جندى وتجاوزنا خيامهم، ثم وجدنا أنفسنا فى جنود، وفيهم من يشبهون جنود المصريين والعثمانيين، ورأينا لهم خياماً تشبه خيام العرب فدخلنا السرور ومضينا إليهم ولهم ألفى خيمة من الحرير الملون وقد انعكست أشعة الشمس على مدافعهم فكان لها بريق يبهر عيوننا، وقد مضيت إليهم غير خائف ولا وجل وتحدثت إليهم بكل أدب وقد استقبلونى عند الباب، وبعد أن تصافحنا وعظّمته وركعت على ركبتى وقال لى بلسان تركى فصيح مرحبًا بك، فاطمأنت روحى، وكأنه كان يعرف التركية الفصحى فبالقرب من أسوان كانت قبيلة من العرب مقيمة ففرحت بذلك، وقلت: إننا قدمنا دون طعام فقدم لنا الشاى فشرب كل منا فنجانًا من الشاى، وقبّل كل من قَدِمَ معنا من القلعة يده.

كما أنه وقر ملك بربرستان كل التوقير فى البداية عند مقدمه، وقبّل يد ملك الفونج الذى كان واقفًا على يمنته، والتقينا به طبق القانون المرعى ومنح من معنا من الجند المؤن، وقال سوف نمضى لمواجهة العدو فى الصباح بإذن الله، وقلت قدموا لنا الطعام كذلك فقال مرحبًا، وقد قدمت رسائل وزير مصر ورسائل أعيان جرجا ودراو، وصاى وإبريم، وقرأها ملك الفونج بلسان عربى بليغ ففهموا ما تضمنته هذه الرسائل، فوقف فى التو واللحظة وأراد أن يقبل يدى، وأمر وكيله بأن يهيىء خيمة بكل ما يلزم فيها فأقمنا بها، كما أنه كان يحمل عنزاً فى يده فقدمه إلينا كما كنت أحمل إزاراً مزركشًا فقدمته إليه، فلفه حول رأسه فقال لله نحمد أننا تسلمنا هدايا الروم فوقفت ومضيت إلى الخيمة واسترحت فيها ساعة، وقدم إلى خيمتنا بعد أن أصلحها العسكر والخدم، فرفعنا من التراب وأكلت بعض الحلوى التى أحضرها وشربت كوبًا من الشراب وسُرَّ كثيراً لما أحضر إلينا من حلوى وشراب، وأهدينا إليه الحلوى والشراب المعطر فسر لذلك سروراً لا غاية بعده، وقدمنا جميع المؤن على الجند، وصاح العسكر طالبين إلىّ أن أتقدم، وفى جوف الليل قرعوا الطبول، وقودوا كل الخيام، وكانوا على تمام الأهبَة، ولما أصبح نفخ فى البوق، وانطلقوا فى طريقهم وطلبوا إلىّ أن أركب فيلاً فصعدت سلمًا لأركب على ظهره

فتلوت المعوذتين، ومضينا فى الطريق وفى طليعتنا ملك البربرستان ودعا ثلاثة عشر منا لركوب الفيل وعلى ظهر الفيل تناولنا فطورنا وطوينا المراحل وبعد الطعام سِرنَا طاوين مراحل بعيدة وقد امتلأ طريقنا بالعرب، وكانوا يمضون أمامنا زرافات زرافات، وعلى ألف فيل حملت الأسلحة والمجانيق، كما حملت المدافع ألف فيل وحملت الأسلحة والعتاد على ظهور مئات من الجمال، كما أن المشاة كانوا لا يحصون كَثْرَةً ومضَيْنَا فى صحراء على النيل سبع ساعات.

أوصاف قلعة طومبو

إنها فى جزيرة عظيمة فى النيل وهى قلعة حصينة مربعة الشكل وفيها ألفان من الجند وعشرون ألف من الرعايا الزنوج، وفى القلعة جامع وقد مكثنا قبالة هذه القلعة وقد قدم إلينا حاكم القلعة حمل خمسمائة جمل من الذخائر، ولما أصبح الصباح ألحق بنا عشرة آلاف جندى من العرب وقد أهدى إلىَّ حسين خان فيلاً لأركبه فى رحلتنا، فركبنا جميعًا، وقد بلغنا القصر واسترحنا من شدة الحر، وصلينا، ومضينا على ضفة النيل تسع ساعات.

فى تعريف قلعة جلته شوكزاوى

بما أن الشيخ شوكزاوى مدفون فى هذه القلعة لذلك سميت القلعة بقلعة شوكزاوى، إنها على الضفة الشرقية للنيل وهى قلعة حصينة وعاهل الفونج له من الرعية خمسون ألفًا وفى القلعة جامع، ومنها يأتى المدد والذخائر، ولما أصبح الصباح سِرنَا على ضفة النيل عشر ساعات.

أوصاف قلعة حفير فونجستان

إنها بناء على الضفة الشرقية للنيل، وفيها جامع وأسواق صغيرة وحانة للبوزه، وللقلعة رئيس ويقيم بها ستون ألف من الرعايا، وقد قدمت إلينا كذلك الأطعمة ومضينا على ضفة النيل جنوبًا وكان الحر غاية فى الشدة وفى الساعة الحادية عشرة بلغنا قلعة مشو.

أوصاف قلعة مشو

إنها قلعة على الضفة الغربية للنيل وهى تحت حكم الفونج، وفيها جامع ولها قاض

وعدة مقاه وحانة للبوزه، وقبالة هذه القلعة قلعة طومبول، وبها جامع بلا مئذنة، وحاكمها هو ناصر بن طومبول، وطومبول اسم قوم عظام وقد شاهدناها، وعبرنا إلى الضفة الغربية، ومكثنا فيها ثلاثة أيام بلياليها، وقد وزعت الأسلحة على جميع الجنود، وأخذوا أهبتهم للحرب، وفى اليوم الرابع مضينا إلى الجانب الغربى فى جنود لا يقعون تحت حصر، وقد مكثنا عند بحيرة فيله، ويحمل من البحيرة فى كل يوم حمل مائة ألف جمل من الماء، وفى الصباح مضينا، وجملة القول أننا طوينا مرحلة بعد مرحلة فى مدة يومين وثلاث ليال.

صحراء ادريسك

فيها أربع قرى وفيها دارت رحى القتال وفى الصباح كانت المجانيق تنطلق من فوق ظهور الفيلة والمدافع أيضًا تنطلق من فوق ظهور الفيلة وزحفنا نحو العدو، وتلوت الفاتحة وأنا إلى جانب حسين بك، ومضينا فى الصحراء أربع ساعات، وهناك رأينا جند من الكفرة هبطوا علينا من الجبال وكانوا جنداً كموج البحر، وواجهوا جنودنا، ولكننا لم نتقهقر حتى تقهقر العدو إلى الجبال، وتفرقوا فى الصحراء، أما جنودنا فصاحوا جميعًا فى صوت واحد قائلين الله الله، وهاجمونا بالخيول والجمال والفيلة، وقد أطلقوا المجانيق وقد اختلط جنودنا بجنودهم فواجه الجندى جنديًا.

وخلاصة القول أن المعركة دامت سبع ساعات وكانت غاية فى شدتها وضراوتها.

وفى وقت العصر عندما قيل انهدم بيره مخاف اطمأنت قلوب جنود الإسلام وقرت عيونهم أخبر حسين بك بقية جند الكفاح بالمجىء فقدموا وقت الغروب فمضيت إلى حسين بك وقدمت إليه التهنئة قائلاً بارك الله فى غزواتك فرد بقوله هذا من فضل ربى، ولفرط سروره بذل الأموال لنا جميعًا، وفى الصباح ارتحل عن هذا المكان وأمر الجند بالإغارة على عبدة النار، أما غير الجند فبقوا تحت:

قلعة فردانية

ومضى الجند أفواجًا لتخريب ديار عبدة النار ووجدوا فى قلعة الفردانية جميع

الأموال والأرزاق، ودخل القائد المعظم حسين خان مع جنوده القلعة، واستولى على كل ما فى القلعة من خزائن وأمر جنده بالرحيل إلى القلعة، وأقام فى قلعة عبدة النار، ومضيت إلى قصر رئيس عبدة النار ولكن هؤلاء القوم حفروا داخل وخارج القلعة وخربوا هذه القلعة، فأخرجوا ما لا يحصى كثرة من الفؤوس، أى أنهم وجدوا أرض الذهب، كما عثروا على سن الفيل وقرن وحيد القرن والمسك والعنبر والذهب والأقمشة الفاخرة فهى نادرة فى هذه الديار، وأموالهم هى الفيل والفرس والجمل والكبش والعجل والجاموسة وهى كثيرة عندهم لا تعد ولا تحصى، أما ما يستحسنه أهل هذه البلاد فهو ما يأتى إليهم من مصر من كتّان ومن حرير، وقسى ورماح وسيوف وقد بناها كنعان بن نوح الذى ارتد عن دين أبيه ولم يركب معه السفينة، وهذا على حد قول عبدة النار، إن هذه القلعة على ربوة تطل على بحيرة وكل حجر فى بنائها يبلغ فى الطول والعرض خمسين أو ستين شبراً، وقد بنيت على شكل مسدس، وتتألف من طابقين ومحيطها ثلاثة آلاف خطوة، ولها باب يفضى إلى الشرق وفى داخلها بيوت مبنية بالحجر، وفيها عدة بيوت تحت الأرض وكأنها غار الجحيم، وفيها قوم ليسوا من عبدة النار، لأنهم من عبدة الشمس وقد أغرنا على هذه البيوت وقد أخرجنا منها كثيراً من الغنائم، وليس فى هذه القلعة أثر يدل على أنها كانت كنيسة من قبل، وفى وسطها ميدان ويجتمع عبدة النار فى هذا الميدان كل صباح فى ظل أشجار السنط والسنديان والأبنوس ويسجدون وفى جوانب هذا الميدان الأربعة أشجار كأنها الجبال ويحضرون منها الحطب يحملونه على ظهور الفيلة والخيول، ولكن فى بيت النار هذا طائفة الفونج والقرمانقى والقفانى أطفئوا النار وتبولوا وتغوطو عليها، وقد رأينا بعض الأسر يصيحون ويبكون وقد عرفنا أن بيت النار هذا لم تنطفئ فيه النار منذ ثلاثمائة عام، وفى زعمهم أن هذه النار هى النور الإلهى ولكنها لا تدوم وتنتهى، وهذه هى حال بيت عبادتهم، وهذا ما أحزنهم، أما عبدة النار الذين يسكنون تحت الأرض، فليس لهم كنيسة ولا بيت للنار، ولكن على غارهم بحيرة واسعة يطل عليها عمود، وقد حفر فى هذا العمود محراب متجهًا إلى الغرب، وجميع عبدة النار يجتمعون ويسجدون للشمس حينما

تشرق الشمس وترسل أشعتها على شرق هذا المحراب، ثم يرقصون وينصرفون ويفعلون مثلما فعلوا عند غروب الشمس، فهم يقيمون شعائرهم هذه كل يوم، وقد أبطل حسين خان هذه الشعائر، وجملة القول أننا مكثنا فى هذه القلعة شهرًا بتمامه، وقد أغرنا ليلاً إلى أسوان على عبدة النار وعبدة العجل وعبدة الفيل وعبدة الشمس وقد غنمنا كثيرًا من الغنائم فى كل يوم، وانطلق جنودنا وعادوا بالغنائم من فيل ووحيد القرن وفرس وجمل وحمار وجاموسة وثور وكبش، وعلى كل فيل عشرون أو ثلاثون أسيرًا وعلى كل جمل خمسة أو ستة أسرى كما جاءوا بخيول وحيوانات ومن كل ولاية جاءوا بفتيات وفتيان وزنوج، وبعد ذلك فى أحد الأيام من عام ألف وثلاثة وثمانين خربوا قلعة فرداني وكان المسير على شاطئ النيل فَسِرْنا نحو الشرق إحدى عشرة ساعة ومكثنا على ضفة البحيرة، ثم قمنا ومضينا شرقًا فَسِرْنَا سبع ساعات على شاطئ النيل وقد سبق لنا أن عرفنا قلعة مشو ومكث الجند مع غنائمهم على ضفة النيل، وبعد إحدى عشرة ساعة أمرنا بالبقاء فى هذه القلعة على ساحل النيل لمدة ثلاثة أيام، والتفت كُلٌّ مِنَّا إلى غنائمه، ثم مضيت إلى حسين خان وقلت له لله أحمد أنك نلت النصيب الأوفى من هذه الغنائم، ووصلنا إلى مملكتنا سالمين غانمين، ونحمد الله على أنك كنت سببًا فى نيل هذه الغنائم ولقد خدمنا شهرين، فأذن لنا أن نمضى إلى ملك فونجستان حتى نسلمه الرسائل والهدايا، وقد تفكر طويلاً فى هذا مما قلنا له؛ فقال لقد سررت كثيرًا لمجالستك ومحادثتك ومصاحبتك ولقد تعشقناك ولكن لنا نصيحة فاقْبلها منا، فأنت من قوم الروم وغريب الديار وأنت الآن ضيف لنا وأنتم مسلمون، ولقد جعلنا ديار عبدة النار خرابًا يبابًا وقد غنمنا من ديارهم الأنعام والأسرى وأخذنا منهم الأسرى ولقد مَنَّ الله علينا بذلك بلا حدود ولا حساب، وقضينا على عبدة النار إلى آخرهم، وسلكنا طريق الفونجستان والبربرستان إنهم قطاع الطريق، وأعداؤنا فى جميع الأرجاء تم لنا قهرهم، فارجعوا إلى ولايتكم وسنرسلكم إلى فونجستان فى الموسم فى السفن، ولتبقى جميع خيولكم وجمالكم عندنا وهذه هى نصيحتى لك وسوف يتيسر أمركم بمشيئة الله ولكن هذه النصيحة لم تصادف رضا وقبولاً، وقد استأت لهذه النصيحة، وصبرت على

تكراره لهذه النصيحة، فقدم رجل ومعه ستار أبيض واضح اللون فألقاه أمام حسين بك وسجد عليه، وقال يا مولاى إن ملك بربرستان قادم فقال له: ليقدم، وسرعان ما فتح باب الحجرة فقدم بربر رءوسهم عارية وقد جلس ملكهم إلى جانب الخان وتعانقا وبعد ذلك حييناهم وقلنا فلنمض إلى ولايتكم، لأننا لا ننسى تسلط العدو علينا، وقد طلبوا من حسين خان المدد لولايتهم فقال لهم على السمع والطاعة ووجهوا الكلام إلىّ قائلين، ولقد يسر الله لك عملك ها هو ذا ملك الفونجستان يمضى فى مائة ألف جندى إلى ولايته، وهو يمضى معهم إلى بربرستان وسوف نسر كثيراً إذا ما أطلعت ملك فونجستان على مطلبه وامدده بما طلب من الجند فقال الملك على السمع والطاعة، وقام من مجلسه وأراد أن يقبل يدى ولكنى لم أمكنه من ذلك فجذبت يدى، وكأنما كان المحبة لهم دأبًا قديمًا، وكانوا يشترطون لتعظيم أضيافهم تقبيل يدهم، ولله أحمد أنى وجدت رفيقًا عظيمًا، فشكرت الله وقد خاطبنى ملك من ملوك الأرض، فقال فى الصباح امضوا إلى طراود، وقد ودع حسين خان ثم مضى، وذهبت إلى خيمتى واسترحت فيها ساعة فرأيت الخان قادمًا، فوثبت قائمًا لأستقبله وصافحته فأتى إلى خيمتنا وخلفه قافلتان من الجمال تحملان ليف النخيل وفى غرائر سن الفيل وعشرون من العذارى الجميلات الحسناوات السمراوات، وعشرة جمال عليها عشرون من غلمان عبدة النار وهم سمر البشرة حمر الوجوه وقد وهبنا هذا كله كما وهبنا أفيالاً وجمالاً، وعدداً من الزنوج الأسرى وقد قيدنا الأسرى حتى لا يفروا وقد نصحنا بأن نحذرهم ونحرسهم فى الليل كما منحنا فأسًا من الذهب وعشرة قرون من قرون الثيران وعشرة أقفاص فيها ببغاوات ناطقة وصندوق من المسك وآخر من العنبر وحمل جمل من الكاكاو وبعد كل هذه الهدايا حيّانا بأحسن تحية وقال وفى عودتكم بخير مروا بقلعتنا، ثم مضى إلى مسكنه، وفى الصباح هيأنا أحمالنا ومضينا إلى جند بربرستان وقد أرسل إلينا حسين خان ألف جندى لتوديعنا ثم مضينا سبع ساعات وبلغنا قلعة دفنا.

قلعة دفنا

إنها قلعة صغيرة مربعة الشكل فى جزيرة عظيمة فى النيل وبها كثير من المدافع والفيلة وبها خندق وسوق ولا عمران فيها سوى ذلك وإن كان فيها جامع صغير بلا

مئذنة وهذه تحت حكم ملك بربرستان ووصلنا بكل هذا القدر من الهدايا التى كانت معنا إلى هذه القلعة التى ليس فيها شىء يذكر، إنها فى الصعيد العالى والقوم هناك هزيلو الأجسام لا يزرعون وعلى ضفة النيل ينبت القطن والكتان والبرسيم والسمسم والفول والأرز والعدس، وفى أرضهم الذهب إلا أنّهم قوم عبيد متمردون، وفى الصباح خصنا رئيس قائم مقام القلعة بخمسمائة جندى لأن فى هذه الليلة فَرَّ مِنَّا زنجيان من عبدة النار ثم بعد ذلك مضينا جنوبًا وسِرْنا على شاطئ النيل وبعد مسيرة عشر ساعات على ضفة النيل بلغنا قلعة أمداج أرقو.

قلعة أمداج أرقو

وهى قلعة واسعة فى جزيرة فى نهر النيل قريبة من الجانب الشرقى وهذه الجزيرة قليلة السكان، وفى الجزيرة غابات أشجار الأبنوس وقدمنا إلى حاكمها الهدايا وسِرنَا جنوبًا تسع ساعات وبلغنا قلعة بنى.

إنها كذلك قلعة فى جزيرة فى النيل تحت حكم البربر، إنها بناء مربع مرتفع، وقلعة جميلة، وقد أتى إليها الإمام مالك فى سياحة له، وقد شرفوا بالإسلام، وبعد أن اعتنقوا الدين الحنيف وبناء على اقتراح الإمام مالك أقاموا هذه القلعة، وعلى باب القلعة كتابات للإمام مالك بالخط الكوفى، ومقدم الإمام مالك إلى هذه القلعة لأن قطب الأقطاب الشيخ عز الدين كان على قيد الحياة فالتقى به فأصبح فريد زمانه، والشيخ عز الدين مدفون فى هذه القلعة، ولخوفهم من هذا القطب سكن جميع سكان الجزيرة خارج هذه القلعة ولا وجود لإنسان داخل القلعة ومن يدخلها من بابها يخلع نعليه، ولا يستطيع أحد أن يتبول أو يتغوط وهو فيها، ولقضاء حاجتهم يخرجون إلى ضفة النيل فقد بقى بداخله ثلاثة بلا تغوط ولا تبول وهم لا يربون من الأنعام إلا الحصان والجمل لأن نجاسة باقى الحيوانات نجاسة غليظة، ولأنه قطب عظيم ولا يجرؤ أحد فى تلك الجزيرة على أن يفعل السوء أو يرتكب إثمًا أو يظلم أحدًا فهو قطب طبق صيته الآفاق، وقومه من الموحدين، ومؤمنون من أهل التقوى، ويقصده المرضى والصغار ليشفوا من مرضهم؛ فيزول عنهم ما بهم قبل أن يصلوا إلى ضفة النيل، وسِرنَا ثمان ساعات على ضفة النيل وبلغنا قلعة أرتد.

فى وصف قلعة أرقد

إنها تقع علـى الضفة الغربيـة للنيل إنها مربـعة الشكل، وحاكمهـا زنجى وهو يقدم الهدايا إلى حاكم بربرستان، وهو من أهل القلعة، وسِرنَا على شاطئ النيل لشدة حرارة الجو فبلغنا قلعة أرنش.

وصف قلعة أرنش

إنها قلعة فيها جامع، وبها من الرعايا خمسون ألف إنسان وألف جندى، وهى قلعة معمورة وحاكـمها فرجون فهو بربرى ولا يـوجد فيها سوق وبعد أن تجاوزنـاها بخمس ساعات بلغنا قلعة جبرية.

قلعة جبرية

إنها قلعة جميلة وبداخلها ثلاثمائة بيـت من قصب، وبها جامع بلا مئذنة كما يسكنها خمسمـائة إنسان، ولكن خارج هذه الـقلعة فى الصحراء وحـولها تسكن الصحـراء قبائل الجبرية، وكلهم عـلى مذهب الجبر، وليسوا على المذهب المـالكى، وهم لا يؤدون الصلاة فى أوقاتها الخمسة، ويؤخرون الأذان عن أوقاته الخمسة وأذان الصلاة عندهم بكيفية خاصة بهم أما نحن فنقول حى على الصلاة مرتين، وحى على الفلاح مرتين أما هم فيقولونها فى أوله وآخره، أما نـحن فنقولهـا مرة واحدة فى الأذان وليسـوا أصحاب سنة إنهـم يصلون خمس مـرات فى أربع وعشريـن ساعة ولكن أى وقـت كان وبعضـهم يجمع الـصلاتين بالقصر، ويصلون الصلوات الخمس بإقامة واحدة، فهم لا يكررون الإقامة، وهم قوم أكثر العدد على المذهب الجبرى، وعلى مسيرة اثنتى عشرة ساعة قلعة حنَّاق.

قلعة حَنَّاق

إنها قلعة كبيرة مخمسة الشكل فى داخلـها سبعمائة بيت من قصب وكل فرد فيها له منزل، وبها جامع وحـول القلعة فى الصحراء بدو على المذهب المـالكى إنهم قوم زنوج على المذهب الجـبرى وعددهم مائة ألف من الـرعايا إنهم فى إقليـم الفونج وهم أشداء شجعـان وليس فيهـم من يركب الخـيل ولا الفيلـة، وخَانُهم الشـيخ عشاب ابـن ملك الخاقان، أمـا القلعة فـحاكمها هـو حسين الفـونجى البربرى فـقد أتى إلى الملـك ومعه الهدايا، وبعد سبع ساعات بلغنا قلعة خندق.

قلعة خندق

إنها قلعة صغيرة على الضفة الغربية للنيل بها جامع ومن بين مدافعها مدفع من الذهب وهى قلعة تشبه الخندق الصغير فى خارجها خندق عميق فى الأرض، ولذلك سميت القلعة بقلعة الخندق، وبداخلها مائتا بيت من قصب ولا يسمح للجبرية بدخولها، ويمشطون شعورهم على جانبين، وهم يحلقون أقفيتهم، وبذلك يعرف أنهم من الجبرية، وأنهم بدو، وقد قدم حسين بك إلى حاكم القلعة هدية من مائة قربة من البوزه وقد أتى علينا عيد الأضحى ونحن فى ضيافة البربر، وبعد اثنتى عشرة ساعة بلغنا قلعة قولى.

قلعة قولى

قلعة على الضفة الغربية للنيل، وبها جامع وثلاثمائة بيت يسكنها البربر ورئيسها سليمان بن بشير، وقد قدم لنا مائة خروف وخمسة جمال صغيرة وسبعون قربة من لبن النوق المجبن وعشرة جمال محملة بخبز الذرة ومنها بلغنا قلعة بقر.

قلعة بقر

إنها قلعة تقع على الضفة الغربية للنيل والجانب الشرقى منها منهدم ويسكنها فقراء من البربر، وحاكمها حسين الفونجى، وقد أهدى إلى ملك البرابرة جواداً وثلاثة جمال وما غنم ملك البرابرة من فيلة وجمال ومما لا يلزم من أنعام أطلقها إلى صحراء قلعة بقر مع الجمالة والفيالة لترعى النباتات والأعشاب وبذلك ردت عليها الروح، وأهالى دونقله خرجوا جميعًا لاستقبال الملك زرافات زرافات قائلين بارك الله لكم فى غزوتكم وقدموا الهدايا كما وزع على العلماء من مال الغنائم لكل فرد منهم خمسة أو عشرة خراف وقد عرفت من ذلك أن ملك البربر شحيح لقلة ما أهدى إلى العلماء ففى هذه الديار يقدمون عشرة خراف ثمنًا للذراع من الحرير أما الحرير فى جرجه فالذراع منه ثمنه منقرتين، وفى خيمته كان يأكل لبن النوق وخبز الذرة، وعلى الدوام يطلب المتعة، فيطعم ويشرب، ويدمن شرب البوزه فما التفت إلىّ إلا أننى كنت أحسن العشرة.

وفى الصباح لبس جميع الجند البربر ثيابهم النظيفة وقد تزينوا بأسلحتهم وللملك بربرستان جنود يحملون الحراب يحيطون به، وهم يؤلفون جناحًا أيمن وآخر أيسر، فى

انتظام كما كان طليعة جنده خمسين ممن يحملون السهام وقد تغنوا بلغتهم وانطلقوا فى طريقهم، وقرع أتباع الملك الطبول وعلى هذه الحال مضينا سبع ساعات على ضفة النيل.

أوصاف بلاد السودان

وصف قلعة دنقله المدينة العظيمة والعاصمة القديمة لبربرستان

على حد ما ورد فى تواريخ القبط أن أول من بنى هذه المدينة هو نقول بن حام بن نوح ـ عليه السلام ـ، ونوح نبى عاش ألف سنة وبعد أن أنجاه الله من الطوفان جعل يتجول وقد استوطن هذه البلاد، ثم زوج ابنه حام فتاة فولدت له ولدًا اسمه فى العربية دنقل وعلى مر الأيام كثر أولاد حام ونزل نوح وأولاده وقومه ذات يوم ضيوفًا على حام ولحكمة يعلمها وجد الراحة عنده، وانكشفت عورة نوح وهو نائم فقدم ابنه حام فرأى عورة أبيه قد انكشفت فجعل يقهقه ومضى بعيدًا ودلّ على ذلك سام ويافث فأخذهما الخجل لما شاهدا عورة أبيهم وخرآ مغشيًا عليهما من فرط الخجل، وبينما كانا يستران عورة أبيهما بإزار أفاق من نومه وجعل حام الغرير يضحك، ونظر حام الغرير إلى أبيه فسأله نوح عمًّا يضحكه؟ فقال: إن يافث وسام حدثاه عن انكشاف عورته.

وطلب نوح من الله الملك، وأن يعمر ابنه سام، كما دعا الله أن تملأ ذريته الدنيا، ودعا الله أن يعمر ابنه يافث وأن يكون ملوك الأرض جميعًا من ذريته، ولا تنقرض ذريته إلى قيام الساعة، كما استجاب الله دعاءه بأن يكونوا مرفوعى الهامة فى الدنيا والآخرة، وأن ينتهى نسب جميع ملوك وسلاطين الأرض إلى نوح، وأن نسب جميع العرب والعجم وجميع المرسلين والأنبياء إلى سام ابنه وأن يعمر ابنه حام فى هذه الأرض الشديد قيظها، وأن يكون أولاده فى جزيرة مصر وأنعامه لا تدخل تحت حصر وقد دعوت الله أن يجعل أبناءك فى هذه الأرض يمشون عراة لأنك ضحكت ولم تستر عورتى، وأن يمشوا عراة سود الوجوه إلى أن تقوم الساعة، كما دعوت الله أن يجعل وجه حام أبيض فى الآخرة فأمر الله أن يستقر حام فى دنقل، وأن من ذكر انكشاف عورة أبيه اسود وجهه، وجميع العرب ينتهى نسبهم إلى حام، وقدم نوح مع غير هؤلاء من أولاده إلى مصر وبقى حام المذكور

فى منطقة خط الاستواء وكان له من الأبناء مائة ألف وكانوا سود الوجوه ثم مات حام الأسود وأفضى حكم دنقل إلى أولاده ولأنه بنى قلعة دنقل أثناء حكمه، سميت هذه القلعة ولاية أسوان باسم دنقل ولتخفيف الكلام حذفت الألف فأصبحت أسودان فى سودان وكانت بلاداً عظيمة فى الزمان الخالى، وأساس عمائرها ما زالت ماثلة، ولقد خربها كذلك أبرهة اللعين ولكن تبقى بعد ذلك جزء من قلاعها وبيوتها وعمائرها وقلعتها مبنية بالآجُرّ الأحمر وتقع على الضفة الشرقية للنيل إنها قلعة قديمة لا خندق لها، ولها ثلاثة أبواب منها بابٌ يطل على النيل، وفى داخلها بيوت من الجص تبلغ ستمائة وخمسين بيتًا وهى من الحجر المحروق يسكنها البربر وفيها سبع جوامع وتسع مساجد وستة مكاتب للصبيان، ولا أبنية فيها غير ذلك، إنها تقع على صخرة قائمة، كما أن قصر الملك قلعة، وليس فى هذا البلد بيوت عامرة، ولكن خارجها ثلاثة آلاف بيت للبربر، وبعضها من اللبن وبعضها الآخر من القصب، وفيها عشرة جوامع يدعى فيها لسلطان العثمانيين ثم يدعى بعد ذلك لملك الفونج لأن السلطان العثمانى خادم الحرمين؛ إنهم قومٌ أتقياء على المذهب المالكى، ولا يعرفون الغيبة ولا النميمة ولا سوء الظن ولاستقامتهم وحسن أخلاقهم فيجمع خدم التجار من البرابرة، ويسمون الجندى بالبربرى، وهم ستون ألف، أما البرابرة فعددهم ثلاثمائة ألف رجل والبرابرة يشتغلون بالزراعة والتجارة فيزرعون الشعير والذرة ويحصدونها وطعامهم خبز الشعير والذرة ولحم الطير ولحم الجمل ولبن النوق، وبوزتهم جيدة للغاية، ويأكلون لحم القطط فهو عندهم مباح فهم يقولون: (جدى قطه) أى: القط اللذيذ، وإنهم يأكلونه عند الضرورة ويشربون ماء النيل، ويصيدون فى الصحراء الفيل والزرافة ووحيد القرن والغزال وأظافرهم كالمخالب وبها يتناولون الطعام.

وصف الزرافة

إن خدام صاحب بيتنا يحترفون صيد الزرافة، ويصنعون منها الكباب ولكن لحمها دسم للغاية، وطلبوا إلى أن آكله وقالوا إنه حلال إن شاء الله فلم نر لها ذكرًا فى القرآن الكريم، ولا وصف لشكلها ولا جسدها فجلدها مثل جلد العجل ولها عنق طويل كعنق الجمل، ورأسها كرأس العنزة إلا أنه أكبر، وهى تفاحية العين، وأذنها كأذنى الجمل

وعلى ظهرها خطوط سوداء وذيلها كذيل العجل وقوائمها طويلة وحوافرها من شطرين، وعنقها كالمئذنة تبلغ به الشجر العالى، فتأكل من الأغصان كما أنها ترعى أنواع شتى من الأعشاب فى الأرض، إنها حيوان جميل ولحمها ألذ طعمًا من لحم العجل، والبربر يصيدونها بالحيلة وللحم الخراف فى هذه الديار رائحة كرائحة المسك لأن الماء عذب فرات ولذلك تنمو به الزروع المختلفة التى ترعاها ولا يشبهها علفٌ فى بلاد أخرى، كما أن طيب الهواء سببٌ فى جمال النساء فى تلك الديار، ولهن عيون الغزال وسمر الوجوه كأن ثغورهن البراعم، إنهم حقًا من نسل نوح، ولكن الناس لا يلبسون ثيابًا، وإنهم يكتفون بإزار عليهم ويتلففون به ويفرقون شعورهم، ولشدة القيظ كأنهم فى جهنم، وأجسامهم نحيلة، ولكنهم يتصفون بالجرأة والشجاعة، ويتصفون بالبخل والطمع والجشع وهم يتجولون وهم جياع، ويطعمون ما يجدون، إنهم حفاة لا يسترون رءوسهم وحاكمهم هو رفيقنا محمد بن حسين، وهو تابع للملك الفونج، وكان معنا فى محاربتنا لعبدة النار، ولكن بلادهم يسود فيها الأمن والأمان، وإذا ظهر فيها قطاع للطريق بادروا إلى قتلهم، ولا وجود للنقود فى هذه الديار، كما لا وجود لسوق ولا خان ولا حمام ولا مِبَرَّة ولا سبيل ولا مدرسة، ولكن يوجد بها حانات للبوزه، ومقهى، ولا وجود لحدائق والقردة كثيرة، ولا وجود للفاكهة، ويكثر الشمام والبطيخ فى البساتين ولا وجود فيها للمآذن، وفى أيام الجمعة يحتشد الرعاع، وتقام سوق فى ميدان وسيع ويشترى كل ما يريد من سلعة ويشاهد النخيل فى جهات متفرقة وبين هذه البلاد وبلاد النوبة مسافة طويلة، وفى غرب هذه البلاد مدينة:

مدينة زغاوه

تقع هذه المدينة فى الإقليم الأول، وقد كانت مدينة عظيمة فى قديم الزمان، وكنت فى دنقل أتحدث مع الملك طيلة ثلاثة أيام وأخذت من الغنائم التى غنمها حسين خان حاكم حفير وهى ما أقدّمه هدية إلى ملك الفونجة، والتى أحضرتها إليه، ومن أمواله قدمت ألف جمل وسبعين فيلاً وألف عجل وستة آلاف خروف وخمسمائة أسير من

عبدة النار، ومضيت إلى ما فى المدينة من المزارات ففى المقبرة ضريح الشيخ بن عيسى وعلى ضريحه يهبط فى ليالى الجمعة نور، وفيها كذلك ضريح الشيخ أعوا كما أن هناك ضريح الشيخ أبو بكر والشيخ أبى القاسم.

وفى نفس المقبرة ضريح الشيخ بلبل والشيخ غلام الله، وقد زرت هذه الضرائح وعندما عدنا إلى بيتنا قدم علينا ملك بربرستان، فشرفنا بزيارته لنا فمنحنا اثنى عشر جملاً وفيلاً أسود، وعشرة من الجمالة، وعشرين عبداً أسود، وست نساء وشمعدان من الفضة، وحقًا كبيرًا فيه حجر سيلان الثمين وكأن كل حجر منه ياقوت بدخشان، كما منح كل خادم من خدامنا ثلاثة جمال، وطلب المعذرة، كما عين جنديًا من جنود القلعة لحراستنا فى مسيرنا إلى فونجستان كما قدم إلينا وسادة مخططة وعمامتين وإزارين وقد رقصوا من فرط السرور لأنهم لم يجدوا مثل هذا فى بلاد الروم وقد تقبلنا هذا، ثم مضى إلى قصره فأرسل لنا بعد ساعة خمس من العذارى الجميلات وحمل جملين من سن الفيل وقد أمر القاضى بأن يحمل هذه الهدايا إلى ملك الفونج، وفى الصباح ودعنا الملك وعزمنا على الرحيل، ومضينا على الضفة الشرقية للنيل ثمانى ساعات حتى بلغنا سور طوشى.

أوصاف سور طوشى

إنها قلعة فى جزيرة فى النيل فى الجانب الغربى من الجزيرة وقد سألت عن بانى هذه القلعة فما عرفوه، وهى كذلك كقلعة دنقل لها ثلاثة أبواب، ولكنها ليست قائمة على صخرة كقلعة دنقل، إنها قلعة عظيمة مربعة الشكل، إنها تحت حكم فونجستان وبداخلها بيوت للبربر وحولها حانة للبوزه، وجوامع ولا عمران فيها غير ذلك، ولحاكمها ثلاثة آلاف من الجند وسبعة آلاف من الرعايا البرابرة، وكان أكثرهم معنا فى حربنا فى الفردانية، وفى هذه الجزيرة كثير من التماسيح، إنها تختطف الخراف والعجول والجمال وتجذبها إلى الماء فتغرقها، إنها تماسيح أسوان اللعينة، وطول الواحد منها من أربعين إلى خمسين ذراعًا، وسرنا على شاطئ النيل فى غاية القيظ لمدة ثمان ساعات.

وادى العفاريت

مكثنا فى صحراء مترامية الأرجاء وفيها من أشكال العفاريت كل عجيب وغريب، إن هذه الأشكال الغريبة على ربوة مرتفعة فى ميدان واسع، وفى جوانب هذا الميدان الأربعة كراسى، وفى الجانب الغربى من هذا الميدان سبعة أعمدة، وعلى ذروة هذه الأعمدة حجر كبير يصل بين هذه الأعمدة ويغطى هذه الأعمدة السبعة، وهو يحمل فوق الأعمدة، ويَقُوم على هذا الحجر تمثال لامرأة من النحاس الأصفر وإذا ما شاهدها إنسان انشقت مرارته وقد ارتفع رأسها ارتفاعًا عظيمًا كما أن غدائرها منتشرة متفرقة، وقد حدقت بعينها فى الشمس فكان لهما بريقٌ شديدٌ، وفى حضنها طفل من النحاس الأصفر كذلك تجلسه على ركبتيها، وكأنها تحتضنه، يا له من تمثال عجيب يلقى الرعب فى القلوب إنها كبيرة الثديين وقد رفعت ذراعها اليمنى وهى تشير بها إلى الجانب الجنوبى من النيل بإحدى أصابعها، والتمثال مصقول، وكأنه من الذهب الخالص، وأمام قدمى التمثال حوض عظيم وقد نحت فى الحجر الصلد مساحته عشرٌ فى عشر، وفى الإمكان أن تجرى فيه سفينة إنه عجيب المنظر، وهذا التمثال الذى يقوم على الأعمدة من عجب أن تسيل دموع من الدم على ركبتيه ويجرى الماء من أظافرها كأنه مذاب منذ ألف عام، وهذه الدموع الدامية إذا سقطت نزلت فى الحوض وأصبحت ماء بعد أن كانت دمًا أحمر، والماء يتغير لونه فى هذا الحوض فى شهر تموز ويصبح طعمه كطعم الكبريت والمرضى يشربون منه مرة فى العام فيتم لهم الشفاء، فيشفون من جميع الأخلاط التحتانية ويحمر وجه من يشربون من هذا الماء، وبعد انقضاء شهر تموز يصبح ماءً عذبًا غيرًا، وقد أكب على هذا الماء مِن مَنْ معنا وشربوا منه لشدة القيظ حتى أفرغوا ما فى الحوض من الماء، وقد شربت منه فنجانا، حقًا إنه ماء زلال وكفار البرتغال يملأون الجرار من هذا الماء فى مدينة زيلع ويقدمنها هدية ويحضرونها إلى الهند وأوربا، ويسقون هذا الماء المصابين بالجذام ومرض الزهرى، وهو نافع من هذين المرضين.

أما الأعمدة التى فى الجنوب فقد كتبت آيات شريفة، والكتابة هى: ﴿يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩]، ولم يكتب تحتها تاريخ، وقد خطت علامة تحت هذه

الآية وفى الصباح شددنا الرحال، وسِرنَا إحدى عشرة ساعة على ضفة النيل إلى الجنوب، وكان القيظ غاية فى شدته.

وصف حصار كنيسه

على الضفة الغربية للنيل قلعة عظيمة كأنها سد يأجوج، وبانيها هو أزرق جادو وليس فى مَبْنَاها جص إنها مبنية على الطراز القديم، ولكنها حصينة إلى أبعد غاية ولها بابان أحدهما غربى والآخر ينفتح على النيل، إنها مربعة الشكل، وبداخلها مائتا بيت وجامع، وخارجها ألف بيت وفيها سبعة جوامع وزاوية وأربعون حانة للبوزه وأسفل أبواب هذه القلعة قناطر عليها جلد تمساح، والقوم هناك سمر البشرة من البربر وسبب تسمية هذه القلعة بالكنيسة أنه غرب هذه القلعة على مسيرة ثلاث ساعات بنى جامع يشبه الكنيسة لسليمان بن داود، ومحرابه فى جهة الرياح الشمالية ويتجه إلى القدس الشريف ولهذا سميت هذه القلعة بهذا الاسم.

فى وصف الجامع القديم

بجانب هذا الجامع بحيرة عذبة الماء، إذا ألقيت فيها جثة الميت سرت فيها الحياة، وقد حكم سليمان الإنس والجن والوحوش والطيور، ولما كانت تطير رأت فى طيرانها هذه البحَيرة فسأل سليمانُ وزيره آصف عن هذه البحيرة فأجابه يا سليمان إن اسمها «قرجلاتقه زيد درسان»، وهى تعنى: بحيرة تخرج من باب الجنة، فأمر نبيّ الله فى التو الريح بأن تنزل جميع مخلوقات الله ومكثوا فى هذا الوادى وتجولوا فى جوانبه الأربعة، وشربوا من مائها العذب، فكأنما ارتدت إليهم روحهم وأمر الشياطين بأن يقيموا له قصراً شامخًا فى ذلك الموضع وجامعًا عظيمًا، فبنوا هذا الجامع الذى يعجز عن وصفه القلم واللسان، وقد شرف هؤلاء القوم باعتناق الإسلام بعد الهجرة، وولوا القبلة شطر المسجد الحرام بعد القدس.

وخلاصة القول أنه جامع منقطع النظير فى جماله، وكأنما أنشأت يد القدرة أعْمِدَتَهُ وجدرانه الأربعة، وفى استانبول آيا صوفيا ذو القبة العالية من طابقين وست قباب

صغيرة، وفى وسطه قبة بيضاء تحيط بها القباب من حولها، وفى الليلة التى ولد فيها النبى ﷺ وكانت ليلة الاثنين انهدم «طاق كسرى» «وقزِل ألْمَا» وهذه القبة العالية، وفى زمان كفاح النبى ﷺ كان هذا الجامع معبد صنم وظل بناء بعيدًا عدة قرون وفى جوانبه الأربعة نزلت صحف كانت فيها إشارات كتبت بالعبرية عن الأنبياء، ونزلت صومعتهم، وفى داخل الجامع عدد ألف وسبعمائة عمود أحمر اللون ومرتفع مصقول إنه مثل ياقوت بدخشان، ولا وجود لثغرة بين عمودٍ وآخر، ولا نظير لهذه الأعمدة فى المقدس ولا دمشق ولا مصر، ولكنها منها كثير فى الإسكندرية واستانبول وأثينا ولأن سليمان أقامها من أجل بلقيس فهى غاية فى الجمال، وكم من عمود راقد فى الرمال، ومساحة هذا الجامع خمسمائة خطوة طولا وعرضًا فهذا الجامع فى السودان أكبر من جامع الغبق فى مكة، وجامع إبراهيم فى جبل عرفات، وجامع المزدلفة أى المشعر الحرام فى جبل مزج بين عرفات ومنى وأكبر من جامع عمرو بن العاص فى مصر وجامع أمية فى دمشق وجامع آيا صوفيا فى استانبول، لأن هذا بناء الإنس والجن ولذا ما شاهد معمار واسع العلم بالهندسة هذا الجامع إلا وأدرك أن سليمان النبى كان بارعًا كل البراعة فاظهر معجزاته ولقد تجولت ما تجولت فى البلاد فلم تقع عينى على مثل هذا الجامع إنه مكسو فى الداخل والخارج بالرخام وفرش بالصدف الهندى وفى بسطه اللؤلؤ واللازورد والعقيق والصدف والفيروز، وجدرانه فيها نقوش ملونة وأحجار الجدران مصقولة كأنها ورق الصين، وعلى الجدران أيضًا كتابات شتى وهذه الأحجار مصقولة وكأنها مراية، وفى أطراف محرابه آيات من الزبور وهى بخط الوزير آصف بن برخيا وهذه الكتابات على الرخام وداخل قبابه الست أحجار منقوشة، أما منبره فهو يشبه كرسى يصعد إليه من مسافة قدرها ثلاثة خطوات، ولا وجود لمنارة له، ويصعد فيه الأذان على الدوام والأحجار التى خارج الجامع كل حجر منها حجمه أربعون أو خمسون ذراعًا، حقًا إنه من عمل الشياطين لأن هذه الأحجار يعجز عن حملها الإنسان لثقلها ولو وجد هذا الجامع فى أرض عامرة لكان جنة ولكن هذا دُرٌّ يَتِيمٌ، ولكن يجتمع على هذه البحيرة من مصر مئات الآلاف من الناس والحيوان، ويقيمون مئات الآلاف من الخيام على

ضفافها ويقيمون سوقًا أربعين يومًا بلياليها، وحول هذه البحيرة يلتف جمع غفير من الناس والكائنات إنهم يتبركون بالشراب من مائها لأن سليمان ـ عليه السلام ـ شرب منها، وإذا شرب منها المرضى تم لهم الشفاء بمشيئة الله وفى اليوم الأربعين لهذه السوق المقامة عند البحيرة يحمل الماء على ظهور الفيلة والإبل والحمير فى قرب لا يعلم عددها إلا الله وتحمل إلى بلاد الكفر وبلاد العرب، ولا يبقى فى البحيرة قطرة من ماء ولكنها تمتلئ فى العام المقبل بأمر الله، إنه جامع عظيم، أما فى داخل الجامع فالخدم والشيوخ على المذهب المالكى.

أما قصر سليمان فقد تخرب ومكانه مِبَرّة، ولكن القوم ليسوا بنى آدم، وقد شاهدت ذلك وصليت فى الجامع ومضيت فى حمله على الكنيسة، وفى مُضِينا على الضفة الغربية للنيل مررنا بضريح الشيخ دليب وتجاوزناه ثم سرنا ثمانى عشرة ساعة فى شدة القيظ ثم استرحنا فى ظلال غابة من أشجار الأبنوس والسنديان، وبعد مغيب الشمس، بلغنا على الضفة الشرقية للنيل حصن اتقور الحصين.

وصف حصن اتقور

إنه قلعة مربعة الشكل على الضفة الشرقية للنيل، وفى داخله مائتا بيت وجامع وحاكم الحصن يسمى كورجه وهو من قبل حاكم فونجستان، وللقلعة بابان ولا وجود فيها لدكاكين ولا حمام ولا وكالة، وهم قوم غلاظ شداد وليس فى قلوبهم رحمة، وهم سمر البشرة حمر الوجوه فتجاوزناها وبعد ثلاث ساعات بلغنا بلدة أرقى.

بلدة أرقى

ليس لها قلعة، ولكن بها بيوت كثيرة وجامع شديد الضيق وثمة ضريح الشيخ كرام الله الركابى على مقربة منه ضريح الشيخ حاجى ماجد وإلى جانبه ضريح الشيخ حاجى محمود وعلى مقربة منه الشيخ حاجى نَقُور إنهم جميعًا يرقدون فى قبورهم الصغيرة، وقد قرأت الفاتحة لأرواحهم الشريفة ومررنا على ضفة النيل بسبع قلاع خربة. ومضينا فى الصحراء إحدى عشرة ساعة فى طريق يخلو من الفيلة والقردة

ووحيد القرن والزراف.

وصف رباط دَفَّاره

إنها قلعة جديدة على الضفة الشرقية للنيل على هيئة الأوزه وقد تظلم أهل فونجستان من حاكمهم إلى سلطان مصر في ذلك الوقت أيبك التركماني فأمر سلطان مصر ببناء هذه القلعة ليتحصن فيها ملك الفونج لما كان بينه وبين ملك الفونج من صداقة ومحيطها ألف خطوة وبداخلها جامع وفيها ثلاثمائة بيت للبربر ولها باب من الخشب يتجه نحو الشمال وعليه جلد تمساح ولا وجود على الباب لتاريخ بناء القلعة، وسِرْنا ست عشرة ساعة حتى بلغنا قلعة الملك إدريس.

أشكال قلعة الملك إدريس

إنها قلعة صغيرة الشكل على الضفة الشرقية للنيل في صحراء واسعة وفيها جامع وسبعمائة بيت وبابها يتجه إلى الشرق وأهلها بربر سمر البشرة وهم على المذهب المالكي، وهم غاية في التقوى ولم تصدر منهم فتنة ولا عصيان ولا كذب أو طغيان ولا بهتان وهم يمضون إلى مصر للخدمة وهم أهل ثقة، وقد تجاوزناها وبعد تسع ساعات بلغنا قلعة غرى.

قلعة غرى

إنها قلعة صغيرة على الضفة الشرقية للنيل وهي خربة ومحيطها ألف خطوة وفيها جامع ولا أبنية سواه فيها، وفي الصباح سِرْنَا على شاطئ النيل ست ساعات وعبرنا سهولاً ذات زروع وبلغنا قلعة خلفاهي.

المدينة العظيمة قلعة خلفاهي

إنها أيضًا على الضفة الشرقية للنيل وبها بيوت وجامع ولا وجود لأبنية أخرى، وجملة أهلها من الزنوج غلاظ الشفاه وهم قوم جبابرة أشداء، ومضينا عنها، وبعد ثمان ساعات، بلغنا ايلغون دنقله.

أوصاف مدينة ايلغون دنقله العظيمة

كانت هذه المدينة في الزمان الخالي تحت حكم ملك بربرستان ثم تولى عليها سلطان الفونج وجميع أبنيتها من عمل البربر، إنها مدينة غاية في الجمال، وعندما فتحها الفونج

تهدمت أماكن فيها، ويقول أهلها إن دنقلة جنتنا فى الدنيا فإن كان لنا جنة فهى جنتنا ولا حاجة لنا بالجنة، إن جوها ليس بحار ولا بارد فكأنها إرم ذات العماد، وفى الزمن الماضى كان مَنْ يشاهد أسواقها وقصورها الشامخة يأخذ منه العجب كل مأخذ، وفيها غرائب وعجائب كأنها أسوان، ولاعتدال هوائها فى بساتينها الليمون والسفرجل والتمر وأنواع شتى من الفاكهة، وأهلها مع ضآلة جسمهم وسواد بشرتهم إلا أنهم فى صحة جيدة، ولاعتدال جوها يلد نساؤهم وأنعامهم التوائم على الدوام ولكن شياههم تلد فى العام ثلاثة حملان إلا أنها غاية فى ضآلتها، وفتياتها يَبْلُغْنَ مَبْلَغَ النساء فى سن العاشرة، وتلد المرأة فى شهرها السابع والثامن، وهم يزرعون الذرة، ولهم كثير من البساتين والإبل والعجول، ولا وجود فى أرضهم للمعادن، ولديهم حمامات المياه الحارة ويأتى إليها أهل الممالك المحروسة، ويدخلونها فتشفى أمراضهم فيصبحون كما ولدوا لذلك فالقوم فى أسوان وفونجستان وايلغون يتّسمون بالجمال، وهذه المدينة تحت حكم ملك بربرستان ولكن زالت دولته فأصبحت تابعة للفونجستان، ومضينا عن هذه المدينة وسِرنَا فى أرضٍ كثيرة الأحجار والصخور جنوبًا، وبعد مضى ثمانى عشرة ساعة بلغنا مدينة قوثراى.

فى مدح مدينة قوثراى العظيمة

كانت هذه المدينة على الضفة الشرقية للنيلْ وقد ذاعت شهرة مبانيها فى الآفاق ولم يَبْقَ منها إلا سبعمائة بيت، وجامع وثلاث شجرات للدوم، وبعد أن سِرنَا إحدى عشرة ساعة بلغنا مدينة عدى.

مدينة عِدَىّ

إنها فى حكم الفونج وركبنا سفينة وعبرنا من الشرق إلى الغرب، وشاهدنا مدينة عظيمة وكانت كذلك فى العصور القديمة، ولقد تبقى من عمائرها القديمة بعض آثار.

ولقد كانت مدينة عدى تزدان بالقصور، وفيها اليوم ألفا بيت للبربر، إن أهلها على المذهب المالكى ومنهم على المذهب الجَبْرى، وقد عمرها ملك الفونج، إنهم قومٌ فيهم

قِحةٌ [١]، وشيخهم هو الشيخ سعيد جبرىٌ، ويتبعه أربعون ألف من الجبرية ومعظمهم من العيارين، وعلى الضفة الغربية للنيل سبعة محاريب، وبعض الدكاكين ولا وجود للخانات، ولا وجود فيها لحدائق ولا بساتين ولا تمر ولا برميم، والناس يأكلون الذرة والتمساح والقطط والثعلب وقط الزباد وسمك النيل ولأكلهم لحم التمساح أصبحوا شجعان، إنهم يحاربون بربرستان فينتصرون، ومضينا على ضفة النيل ثمان ساعات فوصلنا:

قلعة حلت الملك

إنها قلعة خشبية على الضفة الشرقية للنيل وبها جامع وستمائة بيت من القصب، فتجاوزناها وبعد خمس ساعات بلغنا قلعة نوجى.

قلعة نوجى

إنها على حدود الفونج، إنها قلعة عظيمة من خشب السنط ولها باب واحد وجامع ومائة كوخ وفى الصباح مضينا عنها وسِرنَا عشر ساعات.

وصف قلعة مدينة أرياجى

قلعة بنيت على الضفة الشرقية للنيل فى فضاء واسع وفى مساحة واسعة، فيها زروع إنها مدينة جميلة، إنها قلعة متينة الجدران ومرتفعة وارتفاعها ارتفاع الشجر ففى هذه البلدة أشجار عمرها ألفى عام أو ثلاثة آلاف، إنها قلعة خشبية بنيت من خشب الدوم والسنط والسنديان والزقوم إنها مستطيلة الشكل ومحيطها ألف خطوة، وفيها سبعمائة بيت من القصب، وفيها جامع ولها باب يتجه إلى الشرق، وقناطر بابها من خشب شجر الدوم، ولا أثر للحجر فى بناء هذه القلعة، وفى المدينة ثلاثة آلاف بيت من الحصير والقصب وسبعة جوامع وأحد عشر دكانًا للبوزه وليس فيها حدائق ولا حمام ولا خان ولا سبيل ولا مدرسة، ولكن فيها كثير من البساتين، وكان يسكن فيها قديمًا وزير ملك الفونج، والآن يسكن فيها جرجيس خان أخو ملك الفونج إن له أربعين ألف جندى

---

(١) قِحةٌ: وَقُحَ يَوْقُحُ. ووقِحَ يوقحُ وَقَحًا ووقَاحَةً وقِحَةً قَلَّ حياءُه واجترأ على اقتراف القبائح ولم يعبأ بها. ويقال: رجل: وَقِيحٌ وامرأة وَقَاحٌ، وهو وقِحٌ وهى وقِحةٌ أيضًا. والجمع وُقُحٌ.

وستمائـة ألف من الرعايا، وهو مـلك على البرابـرة، وقد شرفت بلقائـه، وقد قدمت الغنائم التـى أرسلها كور حسين وكانت فى مـوقعة فردانية، وبعد السلام عـليه سأل عن حسين خان ولقد نقلـت الأنباء وسجدت شاكرًا، كما حملت له هدايـا ملك البربرستان فَسُرَّ لذلك كما أهدى إلىَّ قارورة من الشراب المـعطر، وقميص وسراويل إلا أنه غاية فى البله، وقد أتينا جرجيس خان فلما شاهدنا قام واختبأ فى ركن ونادى الترجمان فقال لى الترجمان (يقول جرجـيس خان لماذا هؤلاء بيض البشرة هكذا لعلـهم جاءوا يشتكون ممن بيض وجوههم لأنصفـهم منه؟) وقد نقل إلى الترجمان هذه البـلاهة، فوقعت فى حيرة شديدة، فنـدمت على تجولى فـى بلد فيها ثـمانية عشر مـلكًا وقرى لا حصر لـها لأنى سمعت هذا الكـلام، ولكنى بدأت أتكلم فقلت لـلترجمان (نحن من عبيـد سلطان مكة والمدينة وملك ملوك العرب والعجم والروم والقسطنطينية القيصرية السلطان محمد خان، ونحن تحت حكمه ونسـكن فوق ترابه وبأمر الله تعالى نعود إلى بلادنـا ولذلك فوجوهنا بيض أما أنت وأنتم أولاد حـام بن نوح فى بربرستان وفونجستان وسودان وبـغه نسقـتان وجزيرة مصر، إنهم سود الوجوه والشعور والعيون، فالله خلقكم سودًا كما خلقنا بيضًا، وإلا فإن جلد وجوهـنا إن سلخ فإنه سيسيـل منه الدم ثم قلت إن الله تبـارك وتعالى هو الذى بيض وجوهنا إنـه على كل شىء قدير، وقلت ما قلت واعـظًا، وقد أخذ العجب كل مأخذ من ترجمان جرجيس خان واتجه بالخـطاب إلى من بجانبه قائلا: (أرأيت قومًا بهذه الغِرّة، زادك الله عمرًا يا خان جرجيس لقـد رأيت فى مصر كذلك بلهاء، ففى هذه الديار تبدو الشمس فـلا قيظ لديهم) فشرد عنى عقلى، ونحمـد الله على أنه لم يتحرك وهو ذاهب العقل ثم قـام وقدم عَلَىَّ فقمت ووقفت ثابت القدم، ولـكن كنت أنظر إلى الخدم وهم مسلحون، وقال لى «أى ثياب تـلبس؟» وقال لى «حُلَّ سراويلك»، وألح فى ذلك إلحاحًا شديـدًا، وقال: «فلتحل سراويلـك لنشاهد إن كان جسدك مـثل وجهك»؛ فطاش صوابى وحسرت عن ذراعى ليشاهـدهما؛ إلا أنه لم يقنع بذلك وقال: «لا بد أن تحل حزامك»؛ فكـلفنى ما لا يطاق، فامتـلأتُ غضبًا وخفت أن يطهونـى فى الشمس، فجعلت أصيح وأقول أنا من الروم، وقد أتيت من دنـقلة، وكلهم لم يقنعوا بهذا وحلوا

حزامى وعرّونى مــن ثيابى، وقالوا: «سوف نستولى على ما لك من مــال»؛ ثم قالوا: «كنا نظن أنك تحمــل سلاحًا فى حزامك»، ثم لم ينبث أخو الخان ببنت شفة، وجلس فى مكانــه وابتسم ثم ألحَّ فى الـرجاء طالبًا منى أن أبقـى، وتكلم بكلام ونطـق ببعض كلمات، وطلب المغفرة، وقال إننا طيلة عمرنا لم نشاهد رجلاً غريرًا مثلك، وطلب منى أن أقبل يده، وقال فلترفع العمامة عن رأسك لنرى علامة فى رأسك للجنون، فقلت إن عمامتنا هكذا فنحن مجاهدون فى سبيل الله، وفى رأسنا علامة لذلك ندفن بها فنحن لا نحل عمامــتنا، وكان هذا من جوابى، فأخــرج من منطقته عطـرًا وأهداه لى، وقدم إلى عودًا وعقيقتين ومرجـان كما أهدى إلى فتاتين سمراوين، وثمانية من الـعبيد السود كما أهديت إليه فيلاً عظـيمًا فَسُرَّ لذلك سرورًا عظيمًا، أما أنا فكـنت أعظم منه سرورًا، فإن هذه الفيلة تعتـلف كل يوم حمل مائة من الإبل وكأنها تشرب نـصف ماء النيل، ثم فى اليوم الثالث ودَّعته ثم ارتحلنا على شاطئ النيل إلى فونجستان، وسِرنَا اثنتى عشرة ساعة، وبلغنا قلعة عطشان.

وصف قلعة عطشان

إنها تقع على الضفـة الغربية للنيل وهى مستديرة الشكل، وبهـا جامع وستمائة بيت من القصب، أما حاكم هذه القلعة فرومى اســمه قره على جلبى، وهو ولد لأم حبشية وبينما كان يمضى إلى مدينة زيلع من الحبشة وقع أسيرًا لدى الفونج وهو فى صباه، ولم يطـلق سراحــه من الأسر مــنذ خمــسين عـامًا، وهو رب أسـرة، وعلى خـلق عظـيم ومتصوف، ولقد شاهدنا جامع المدينة وأسواقهـا السبع والمغنيات والموسيقيين فى حانات البوزه، وفى البساتين التى فى خارج هذه المدينة، الشمام والبطيخ ثم مضينا بعد ذلك.

لقـد تجولت فـى كل الـبلاد وتجولـت فى بلاد الـزنوج خـصوصًا، وجـزت خلال الطرقات، وبينما كنت فى بستان هذه المدينـة كان الفصل فصل البطيخ ولم نشاهد هناك جيادًا، ولكننا سمعنا زمزمة بكتاشى، ووقفت وقدم على اثنان من البكتاشية لهما سحنة القلندرية وهما كمـا ظهر أمامنا بعض الصوفية، وبالسؤال دللـنا على الطريق، وبعد أن سلمنا أمسك خدامنا من البربر بلجم خيـولنا، وجلسوا، فأمسكت بلجام خيـول هؤلاء الصوفية ثم مضينا.

فى وصف وحيد القرن

للوزراء فى الروم جيادٌ مثل دابة الأرض، وهى جيادٌ ضخمة الجثة كثيرة اللحم والشحم، وأما وحيد القرن فجلده يشبه جلد العجل ولكن من أذنيه إلى ذيله شعر أسود ورأسه كرأس الحصان، وعيناه كالتفاح، ومستديرة وكحيلة، وله أذنان كالحصان، وفى مقدمته قرن وهو غاية فى الغلظ وهو مستدير الطرف، وطول جسمه خمسة أشبار وأذناه واسعتان وأسنانه كأسنان الحصان، ولكن له سنتان على الجانبين بارزتان تبدوان كأنهما سِنَّى رمح، وعنقه قصير للغاية، وعنقه وكتفاه يشكلان كتلة واحدة، وله شعرٌ موفور على كتفيه وقوائمه تشبه قوائم الجاموس، وهى قصار كما أن حوافره مشقوقة وذيله فى غلظ ثلاثة أذيال للفرس، وشعره معقوص، وقرنه قوى وهو من القوة بحيث أنه إذا نطح به الفيل بقى فى جثة الفيل لأنه قرن منحرف أنه ينطح الفيل فى عينيه وقوته تكمن فى قوائمه.

التعريف بدَابَّةِ الأرض

تسمى فى العربية البغل فلا فرق بينها وبين البغل، ولكن فى أعلى أذنيها قرنان أسودان معقدان، وطرفهما كالمبضع وحوافرها مشقوقة وفى المذاهب الأربعة حلال أكلها، وهى سريعة العدو إلى حد بعيد، وكأنها غزال وتلد مرتين فى العام، والمولعون بها يركبونها ويجعلون لها لجامًا، ويضعون الإكاف على ظهورها، فلما رأيناها دخلنا سرور عظيم، ووجدنا لحم الإبل ولحم الدجاج، وقلنا إن خير الطعام ما حضر، وسألنا عن أصل وجودها فقيل لنا: كنا ثلاثة إخوة فى سفينة تسير بنا من الهند إلى الحبشة، وبينما كانت سفينتنا تسير بنا استولى كفار البرتغال على سفينتنا، وأوقعونا فى الأسر وحبسونا فى مخزن السفينة، وجرى القضاء بأن يموت أخٌ لنا فشووا لحم جثته وأطعمونا منه، فأكلنا من لحم أخينا طوال شهر واتفق أن تلاطمت أمواج البحر ودفعت السفينة إلى الشاطئ فتحطمت السفينة وفَرَرْنَا إلى جبل مرتفع، واغتسلنا فى ماء حار وصلينا ركعتين لله شكرًا، وتوبنى أخى من أكل لحم ذى روح، ولما ذَكَرَ هذا السبب أجهشنا بالبكاء، ومن الغد جاء هذا الحيوان إلينا، فأنسنا به، وقال بلسان الحال اركبا، فوصلنا بسلامة الله

على ظهر هذا الحيوان بعد سبع سنوات وبقينا بين الزنوج فسخر منا هؤلاء الحَمْقَى، وأكلنا قليلاً من الخبز وخبز الذرة وشمام وبطيخ، وشكرنا الله ولما دخلنا المدينة لم نأكل من طعامها، وقد فضحونا، فسألتهم فى جرأة، لم نأكل من ثمار حديقتكم ولم تقدموا لنا شرابًا من ماء نهركم، فأى البلاد مسقط رأسكم؟ فقالا: إن بلادنا بلاد الروم، وبالقرب من مدينة قونيه، فقلت لقد رأيت بلدكم، وزرت جامع والدة مولانا، وشاهدت مدرسة يعقوب وإبراهيم بك فسرا لذلك، ثم قلت لهما: يا إخوان الوفاء إذا أردتم الخروج بسلام فاتبعونى واقبلوا رفقتى لأمضى بكم إلى مصر بسلامة الله، يدى فى يدكم، فجددوا البيعة لى وقدموا لخدامنا كِسْرَة خبز، وأصبحنا أخوة فى الدنيا والآخرة، وتكلموا معى كثيرًا، وانشرحت صدورهم بحديثى معهم، وغادرنا البستان وبينما كنا فى سيرنا جاء رجل من قلعة عطشان ودلنا على الطريق وشرفنا بصحبتهم، وسألت عن اسمهما الشريف، فقال أحدهما إن اسمه نعمت الله والآخر سيد جار الله، وقالا: إننا لا نقبل جيفة الدنيا، ولم يقبلوا أى شيء، وقالوا خذ الرفيق قبل الطريق وقطعنا المراحل فى شدة القيظ، وبعد عشر ساعات سِرنَاها بلغنا قلعة بقيث.

قلعة بقيت

هى قلعة على الشاطئ الغربى للنيل، وهى من الخشب كما أن البيوت فيها من خشب، وبها جامع صغير مكثنا به، وسِرنَا فى شدة القيظ وقطعنا المراحل سبع ساعات وبلغنا قلعة حلة الركابى.

قلعة حلة الركابى

تقع على الضفة الشرقية للنيل وهى من الخشب، وليس فيها جامع ولا أبنية، وسِرنَا على ضفة النيل تسع ساعات وبلغنا قلعة حلة الجندى ثور.

قلعة حلة الجندى ثور

يسمى حاكمها جندى ثور، وهى قلعة من الخشب، وبها ألف بيت للبربر من خشب وقصب، وبها جامع، ولا وجود فيها لثمر، وأرضها سبخة، ومن القلعة مضينا برجالنا إلى ملك الفونج، وفى هذه الليلة أحضرنا كل هدايانا ورسائلنا وفى الصباح سِرنَا إلى

سنّار، وقد أعطانا والى مصر كتخدا إبراهيم باشا جوادًا وعبدًا لنقدمه لملك الفونج، وهو جواد من المخمل المزركش وثلاثة قسى ملفوفة وإزار من الحرير، وقدمتها إلى خدمنا وقد تزين جميع الخدام بأحسن ثيابهم كما زينت الجياد والإبل، وقد وضعت الرسائل فى حقيبة مزينة وسِرْنا على ضفة النيل ست ساعات وثار الغبار علينا من عصف الريح، وقد استقبلنا من يركبون الفيلة والإبل والحمير، وجاء ملك الفونج فى جمع وهو على ظهر فيل أبيض، وبعد السلام عزمنا على الرحيل، فبدت لنا ثمانون خيمة على ضفة النيل ومن انعكاس الشمس على المدافع بهرت عيوننا، فقال إن الملك خرج لاستقبالكم، وهو فى انتظاركم وقَدَّمَ له جميع الهدايا، ومضينا إلى قاضى بربرستان، ووقفنا أمامه ويدانا على الصدر تأدبًا، وقلت له السلام عليك يا سلطان السودان فى خشوع فقال لى السلام عليكم يا خادم آل عثمان فسلمت يدًا بيد وبعد ذلك مضينا إلى سماط، فطعمنا طعام الفونج وغسلنا أيدينا بالماء والصابون فى وعاء، وبعد ذلك قدم عبد أسود فى يده حق، فأخذه ومسح به يديه كما مسح وجهه ففاحت رائحة العطر فانتعشنا، وقدم إلينا العبد حقًا وفيه مسحوق أبيض ولكن رائحته ساطعة فواحة، ورائحته لأشد نفاذًا من رائحة المسك والكافور فأخذنى العجب، فناديت ترجمان الفونج، وسألته عن نوع هذا العطر فذكره لى فأسرَّ الترجمان بشىء فى أذن الملك، فرد الملك علينا قائلاً ليقرأ من معكم الرسائل التى أحضرتموها معكم، وفى نفس اللحظة قرعت الطبول فى الجوانب الأربعة، فقال أنا أقدم فيلاً كأنه دابة الأرض وفى القصر كان سبعة فيالين، وعشرون عبدًا، وخرجنا أفواجًا كالجند، ومضينا تسع ساعات على مقربة من مدينة سنار فى الطريق العام ورأينا رجال الملك وهم يسجدون لنا، وبناء على ظهور سنار أطلقت المدافع، وفى دخولنا فى القلعة قرعت الطبول ونفخ فى الأبواق، وحضر جميع أعيان الفونج وكان الملك جالسًا على عرشه فقدمت إليه فى البداية الرسائل، وقرأ رئيس الديوان الرسائل التى بالعربية فجعل يثنى علينا الثناء، ثناء تجاوز فيه كل حد، وقام فيه من عرشه ووضع كفى فى كفه، وطلب إلى أن أجلس على العرش فتقبل الرسائل ووزع الهدايا أمامى ونال كثيرًا من القسى والسهام والكؤوس وأعجب بالسهام والقسى والكؤوس، وقال هل يرشق

أحد عدوه بمثل هذه الأشياء النفيسة فأجبته بقولى يا مولاى إن هذه النفائس تليق بك، ولأنها فى الغزوة تقضى على العدو، ولقد أدركت من ذلك أنه شجيع، فأحضرت بعد ذلك جواداً عليه بساط قَسُرٌ به كثيراً، ولقد فهمت لسان الحال وجعل الملك يتأمل هذا الحصان وعليه البساط مدة ساعتين فخرجنا من عنده ومنحنا داراً وبستاناً فيه الليمون والنارنج على شاطئ النيل ودخل معنا جميع خدامنا مدينة سنار فى العشرين من شهر شعبان عام ألف وثلاثة وثمانين.

وصف ولاية السودان وقلعة سنار

ومن الغد فى الصباح اجتمع المجلس ثانية، وقد سلمت الهدايا التى أرسلها معى كور حسين بك، وتناولنا الطعام بعد المجلس وكان الطعام طعامهم المعتاد والزعتر، ولديهم الكثير من النعم منها الكباب والضأن ولحم الغزال ولحم الإبل ولبن النوق بالذرة وهم لا يعرفون طعاماً غير هذا، والأرز والعدس والفول إذا أتت من مصر وجرجا ولكن حين حل شهر رمضان طبخوا الأرز والقرع والقلقاس والقرنابيط ويقدمون فى كل يوم ألف قدر من الطعام، كما قدموا إلى خدامنا طعاماً خمسة أيام، وفى كل يوم مائتى طبق من الطعام السودانى، كما قدموا أربعمائة رغيف من خبز الذرة، ولخيولنا مائتى ربع من الذرة فى كل يوم، وفى هؤلاء القوم رأينا شاباً فقيهاً حلو الكلام أسمر اللون وجيه المنظر ومعتدل القامة وعلى رأسه عمامة بيضاء، ويرتدى قميصاً أبيض كان دائم العبادة مشغولاً بها يحضر الديوان، ويسمع للشاكين وهو يكمم فمه وأنفه، ثم يأتى وهو يستر فمه وأنفه، ثم يأتى المدعى عليه ويقف إلى جانبه، وهو يسجد ويقدم فروض الطاعة أمام الملك والقضاة، إلا أنهم على المذهب المالكى، لأن جميع أهل بربرستان والسودان على المذهب المالكى وقاضيهم يسمى شفيع الدين، ووزيرهم يسمى فين خان، والدفتر دار يسمى دابر خان والكاتب برابى خان وحاكم المدينة يسمى سرمن، وتسمى طائفة الجند عندهم سلام وهم يملكون ثلاثمائة ألف من الزنوج المحاربين وليست لهم رواتب والله يعلم عدد الرعايا، والبرايا، وفى مصر كثير من العرايا والجياع، ولا يعرفون المرض، وهم معمرون ولهم شيخ إسلام على المذاهب الأربعة، ولهم من أهل

الإفتاء أربعة على المذهب المالكى والحنبلى، ولا وجود لمفتى على المذهب الحنفى، ولهم نقيب أشراف، ولأن بينهم سادات كرام، فإنهم يحضرون على الدوام فى ديوان الملك، ولكنهم لا يبدون رأيًا فى الديوان ولا يلبسون ثياب الحرير، والأعيان يلبسون القمصان والعمائم البيض والفقراء منهم يمشون حفاة الأقدام، وإذا ما استحق شخص ما القتل تشاور الأعيان فى أمره إما قتله وإما تبرئته، وإذا جاء النساء إلى الديوان فللملك حجرة متصلة بالديوان فيقفن وراء حاجز من القصب وهن يعرضن مظلمتهن وفى هذه البلاد يحرم على النساء أن يخرجن من بيوتهن وإذا كُنَّ سبعًا أو ثمانى فلهن دار ضيافة خاصة بهن، ويقدم إليهن الطعام والشراب من قبل الملك ويكرمهن تكريمًا عظيمًا، وولايتهم واسعة الأرجاء، وهى ستمائة وأربعون مدينة وألف وخمسمائة قلعة وأربعون ألف وسبعون جبل كبير وثلاثمائة صحراء وأربعون بحيرة عذبة وخمسون بحيرة أخرى مالحة، وفى أرضهم معادن كثيرة وفى صحاريهم ذهب تحت الأرض، ولديهم طعام يشبه الثعابين وهو سم زعاف، وعندما يجمعون الذهب تقفز جميع الثعابين والحيات، وتبدو الفضة ومعدن النحاس والحديد والرصاص والنفط والقطران وغبار الزجاج والكبريت، ولا وجود لمثل هذه فى بلاد أخرى، كما توجد كنوز لكثير من هذه المعادن وكلها يحصل عليها مجانًا، ولكن لوجودها عند طائفة من الأغبياء، فلا يقتدر على استخراجها، والكلام على هؤلاء القوم يطول ويطول، ولهم كثير من الأحوال تشبه أحوال الخيول، ولا يمكن ذكرها وبعد ذلك بلغنا السودان.

* * *

فى بيان حد السودان

فى الشمال على بُعد أربعين مرحلة من الحبشة، ومن الشرق عشرة مراحل إلى (سلطانه بردو مبيه)، وإلى الجنوب مسيرة شهرين إلى قرمانقه والنيل ينبع من جبل القمر فى قرمانقه. وعلى مسيرة ثلاثة أشهر غربًا إلى بغه نسكى، وفى الشمال على مسيرة ست مراحل إلى حدود بلاد البربر، وأهله يختلطون بالبرابره. وعلى الجانب الشرقى للنيل على مسرى رياح الشمال على حدود مملكة علوى، إن هذه البلاد المتراحبة الأرجاء فيها عجائب وعجائب، وما يلفت إليه النظر، يعجز أقلام البلغاء عن وصفها، إلا أنا نحاول ذلك جهد المستطاع وفى البلاد يهود، وقبط، وروم، ولا وجود فيها للفرنجة والقزل باش وأهل السند والهند، ولكن فيه قومًا من عبدة النار، وهم يذهبون إلى الحبشة ويعودون منها فى تجارتهم، وقد حضرنا فتح ولاية فروانكه، وفيها قوم من المجوس، وهم فى حكم السودان. وهم سمر البشرة وحمرها وصفرها، وأجسامهم نحيلة ما رأيت فيهم أحدًا عليه لحمًا وشحمًا، إن فيهم نشاط كما يحتملون شدة الحر. وهم يمضون عراة الأجسام، ولا وجود فى هذه الديار للجوخ والحرير والمخمل، ولا وجود للعملة الذهبية وقد رأوا آباءهم وأجدادهم على تلك الحال. أما ما يجلبه تجارهم فهو الإبل والغنم والعجول والجاموس وسن الفيل وقرن وحيد القرن، وتروس الفيل وخشب الساج الفونجى والصقنقور والببغاوات، والأبنوس، والسنط، والتجارة عندهم بالمقايضة، إنهم يبيعون ويشترون بلا مال يدفع ثمنًا للسلعة، والذهب عندهم كثير، ولكنهم يصهرونه ولا وجود عندهم لسكّة لأنهم لا يعرفونها، وفى جوامعهم الكثير من الخطباء على المنابر يعظون الناس باللغة العربية، ثم بعد الخطبة يدعون لسلطان البلاد الواسعة سلطان السودان السلطان بن الخاقان بن غلام محمد خاقان ابن إدريس خاقان، ثم يدعون لمولانا السلطان محمد خان صاحب الحرمين أيد الله ملكه إلى انقراض الدوران، ويتلون آيتين وإنّ الله وملائكته يصلون على النبى، ثم يؤذن المؤذن بأذان قيام الصلاة، ثم يصلون ركعتى الجمعة، ويخرجون من الجامع وهم لا يصلون ركعتى السنة، وهذا دأبهم منذ الزمان الطويل، ولا يمكن الزواج إلا بعلم الملك، وهم يُؤذن

لهم بالرحيل إلى جميع البلاد، وهم يعدون ملكهم فى منزلة النبى، وبينما يذهبون إلى الجامع أو يخرجون إلى الصيد يسلمون على الملك ويسجدون له سجود تعظيم وتكريم، ويمضون حاملين نعالهم فى أيديهم عندما يذهبون إلى الجامع مما يدل على تواضعهم الجم.

أوصاف قلعة مدينة سنار عاصمة السودان

إنها مدينة عظيمة وقلعة قديمة على الضفة الغربية للنيل فى السودان وأول مَن بناها الملك خلحا خاقان، إنها قلعة مبنية من الحجر على شكل مربع ولكن ليس لها خندق، وفى خارجها سور من الخشب المحشو، وما شاهدناه فى ولاية إبريم من قلاع صغيرة وكبيرة فما شاهدنا أكبر من هذه القلعة فى شكلها وصفاتها، إنها معمورة، ومزينة لأنها عاصمة فونجستان، ومحيطها ثلاثة آلاف خطوة، ولها ثلاثة أبواب وفى داخلها جامع الخاقان إدريس، وله منارة واحدة، وفى معظم القلاع التى اجتزناها جوامع بلا منائر، وبها قصر الملك وقصور الوزراء، وبها بيوت مبنية من الحجر واللبن المصنوع من طين النيل وعددها ألفا بيت من القصب وبها بيوت ذات حدائق وأخرى بلا حدائق وقصر يطل على النيل وفى القلعة حمام، وقصر الملك فيه بساتين الليمون والنارنج والبلح وحدائق الورد والرياحين وبها يزدان القصر.

ولا وجود فى هذه القلعة لسوق، ولكن فى خارج القلعة جهة الغرب بيوتًا من القصب والحجر والخشب والحصير عددها ستة آلاف بيت، وخارجها كثير من ساكنى الصحراء وهم زنوج عددهم مائة ألف، ويأمرون هؤلاء القوم بترميم القلعة إذا وجب ذلك ويحضرون لما فى جزر النيل من الكرز والسنط وخشب الساج. ويحمل ذلك على ظهور الإبل، ولكن ليس لهذه القلعة حاكم مثل ما لقلاع الروم من حاكم وجنود، ولكنْ فيها مخزن للسلاح والبارود الأسود وخمسون مدفعًا وبعض حملة البنادق، ولكنهم لا يجرأون على استخدامها، إنهم قوم جبناء للغاية، وعلى أبواب القلعة إطارات من الحديد لمدافع فى حجم الفيل، وإذا أخرجوا إلى القتال استخدموا هذه المدافع الضخمة بعد حملها فوق ظهور الإبل، وفى يوم رؤية الهلال ويوم العيد يطلقون هذه المدافع، وتزدان الدنيا بمصابيح النفط ودوى الطبول وهم يصعدون ولولةً كأنهم فى احتفال ملكى.

والزنوج من الحبشة والمنـدبية حينما يقدمون للإغارة على تلك المـدينة تقصف المدافع معلنة بمقدمـهم، وفى القلعة ثمانية وسبـعون ألفًا من الزنوج يبقون فى القـلعة ليكونوا مددًا للجيـش، والمندبية تنخلـع قلوبهـم رعبًا من ذلـك، إنهم ليسوا مسلـمين ينكرون الحشر والـنشر، وخارج القلـعة سبعة جـوامع من الحجر، وأربـعون مسجدًا وثلاثـمائة دكان، وهى مـن الدكاكين الصغـيرة، والمقاهى وحانـات للبوزه لا تحصى كـثرة، وهى معمورة مثل أبنية الروم والعرب والعـجم وحلب، وليس فيها خان ولا حَمّام ولا سوق للبن ولا مبرة ولا سبيل ولا مكتب للصبيان ولا مدارس. ففى هذه المدينة لا يوجد فيها بقلة فى حجم الحجـارة وترابها لطيف إلى حد أنه صنع كاسات للعـين خزفية منه، كما أن تربتها خصـبة حيث الكيلة من الذرة تنتـج خمسمائة كيلة، كما أن مـحصول القمح موفور، ولاعتـدال جوها زرعت حدائق فـيها هنا وهنـاك، وفيها الليـمون والنارنج ولا وجود فيـها للحدائـق ولكن بساتـينها كثيـرة للغاية وجـمال نسائهـا وفتياتهـا فى سواد بشرتهم، ولكنهم ليسـوا غلاظ الشفـاه ولا عابسى الوجوه كالزنوج، وفيهم عذارى لهن من الجمـال والدلال ما يتـيم القلـوب، سبحان الخـلاق الباقى، فـلهن عيـون الغزلان الكحيـلة والكلام الرقيق والـقوام الممشوق مَن رآهن أخـذ منه العجب مأخـذه. وأهلها يتزوجون عـلى المذهب المالكى وهـذا جائز، أما نكاح المـتعة فممنوع إلا أن عـلماءهم يبيحون ذلك فهـم فى كل أسبوع يتزوجرن زواج المتعة، ويدفعـون المهر ذراعًا من البز، وفتيـاتهم يسـرن عراة وإذا أعطوا مرتـبًا قاموا بـالخدمة ثلاثة أو أربـعة أيام، وبعـضهم يخدمون دفعًا للجوع ومعيشتهم ضنك ولكن إذا أخذهم الغضب أصبحوا شرارة من نار وفيهم عناد، وليسـوا بلا أصل فهؤلاء قوم بنقلا ودنقله، وأولئك أفنو وبورنو، وقرمانقه وبغه نسكى وهكذا. إنهم ليسو غلاظ الشفـاه، وليست لهم أرجل الفيلة وجـسم الغول، ولا عمالقة إن كلامهم رقـيق ووجوههم جميلة وسمر البشرة وأفواهـهم صغيرة وأنفهم كالثمرة وأسنانهم مُنَضَّدَة بيضاء بين شفتين حمراوين ولهم نسـاء لهن عيون الغزلان وهذا من جمالهن يوقع الرجال فى غرامهن ويزدانـون بالخرز، والخرز عندهم جميل كما أنهم يلبسون الإزار المصرى والإسكندرى، ويلبسون ذلـك من شدة البرد فى الشتاء، ولكنهم

عراة في غير فصل الشتاء، أما نساؤهم فيلبسن إزار الصعيد العالي والمرط القطني المنقش كما يضعن في أذرعهن الدمالج وفي أرجلهن الخلاخيل، وكلامهم بالعبرية منذ عهد إدريس.

اللغة العبرية

الأعداد في اللغة العبرية:

تلوَ : واحـد	اندى: اثنـان	ياصقى: ثلاثة	داقى : أربعة
اوقو : خمسة	أرصقى : ستة	لقار : سبعـه	طلور : ثمانيه
تافى: تسعـة	راقى: عشرة.		

ومن الشعر الرائع للخاقان:

المصراع الأول:

جيجلقداتى ابله تتانى اجلى قتار قابلى جدان جتام بولاشى

(الجميل سل القوم عنه أنه روح روحى إذا ما رأيته قبلته)

المصراع الثانى وهذا يكون بيت:

قاسقلى جمناج دال بلادى يبله بادى بقبلى مصناح

(وإذا ما احتضنته، وامتصصت شحمة أذنه وعانقت ذراعه الأسود)

البيت الثانى: المصراع الأول:

اجم جى تمناح بملمجى جلطات

(فلا تظن أنى غبى أخذنى النعاس)

المصراع الثانى:

ججلى قلطان للل لتى

(ملكت الدنيا وإذا قال لعبت بها)

البيت الثالث: المصراع الأول:

مزامى لبتى قراجى جبتى صج بولانى قوس جلامى سلحلتى بتى

(تعشقته وهبته فؤادى أكفرت لذلك عشقت منذ زمان بعيد)

المصراع الثانى:

قفان شاهى قليت جاهى خنزيله جاج باتيله حاج تتلتى شاهى

(الملك الخاقان قلت ذلك فى لوم إنه يسكن روحى إنها له قربان إننى بعشقه ثَمِلُ)

وقد لحن هذا فى نغمة البياتى، وغنيت على أصول السماعى وتغنى الرجال والنساء بالأناشيد، وقرعوا الطبول وضربوا الدفوف وملئوا القرع بالحصى ودام سرورهم ليل نهار، وأكلوا البصل والثوم وشربوا البوزه وأنشدوا المربع.

أسماء أهل فونجستان

من أسمائهم إدريس وجرجيس وحمد، وهى أسماء محبوبة ومألوفة وكذلك ناصر وفونقو وأنشومبوا بمعنى سيد، فرما وعدلان بمعنى جندى، وسرهاج وبشير ودانيال ومدللا وحدللا وسلى يعنى سليمان وعبد رى بمعنى عبد الرحمن وفيسبان بمعنى معلم.

أسماء شاه فونجستان

طاغليته، وحجى جى، وقوره وجوضه يعنى حَفَظَه، ونوره حه وارابه وحوشه وغنيه وحليمه وماقنى وأَمَنى ونفيسه وشمامه ومشيقه وآشيه وسبيقه وحجه وباره وشو، وجاره يعنى جاريه وحته ومدينه واسانى وحنفه وسما ولغلم أن هذه الكلمات السابقة بمعنى أمهاتنا وأخواتنا ولكن هؤلاء النساء فقيرات للغاية، وتستر هؤلاء النساء عوراتهن بجلد الغزال والغنم والماعز، وهن يمزقن هذه الجلود قطعة قطعة كما أنهن يزين حلاتهن بالخرز، وبقية أجسامهن عارية وهن لا يلبسن ثيابًا لشدة الحر، وقد جئن من دعاء نوح عليه السلام عليهن، وأنعامهم كثيرة للغاية ولكن لا وجود بينها للبغل إنهم يشربون ماء النيل وبوزه الذرة، وثمة نوع آخر من البوزه مسكر للغاية، أنهم يأكلون الذرة، كما أنهم يربون ويأكلون الغنم والمعز والجاموس والبقر والإبل والفيل ووحيد القرن والغزال وبيض النعام والقطط والنعام والأسد والنمر، وهذه الحيوانات تأتى إلى بيوتهم وبساتينهم ويصنعون من جلود الغزال والحملان وسائد لهم، والنساء يزين بيوتهن ببيض النعام، ويشربون لبن النوق المسكر خمسة أو ستة أيام، وأنه يسكر أكثر مما تسكر البوزه، ولكن

بما أن العنب لا وجود له فى بساتينهم ليس لديهم شراب مسكر كالعرق الذى يصنع من العنب، وليس لديهم من المسكرات غير البوزه واللبن والسبب فى أن لبن النوق لا يسكر إسكارًا شديدًا أنهم يضعون فيه جذر نبات الحلفاء فيزداد اللبن سكرًا، إن هذه المشروبات المسكرة تناسب جوهم الحار ولكن شدة الحر لا تؤثر فيهم وأحمد الله أنى لم أتأثر بها، ونحن نمشى فيها كما نمشى فى أيام الإحرام عراة الرءوس حفاة الأقدام ونحن بذلك نتبع أهل الفونج، ولم نحزن ذات يوم مع أتباعنا لأن نسيم الصبا هب فانعش أرواحنا.

وماء النيل فى هذه البقعة ماء زلال، لأنها تقع على مسيرة شهر جنوبًا وفيها من المعادن فى الأرض السبخة النفط والقطران والكبريت والحديد والزرنيخ وفى القنوات مئات الآلاف من الأفاعى والحيات والحيوانات السامة غارقة فيها ويملئون بماء النيل القِرب من جلد الغزال، فيبرد ويصبح قطعة من الثلج، إلا أنهم إذا أكثروا من شرب الماء أصيبوا بالإسهال، وفى هذه الديار لا وجود للبراغيث ولا القمل ولا البق لأن جميع أهل هذه البلاد يدهنون أجسامهم بالزيت ويرقدون فى الشمس كأنهم الجاموس، والبراغيث والقمل والبق لا تبقى فى الأماكن التى فيها دهن، وهم لا يعرفون المآثم والمحارم والزنا واللواط والنميمة، وأمراضهم الطاعون وذات الجنب والفالج والرعشة الجسمية والجزام والجمرة والبرص، والحاصل أنهم لا يعرفون ما الطاعون، وهم يعدونه مرضًا عارضًا إنه فى أول أمره ضعف يصيب المريض ثم ينقطع عن الطعام والشراب ثم يموت فيدفن، إنهم لا يبكون ولا يتأوهون، ولكنهم يضحكون، وقد سألت عن ذلك لماذا لا يبكون، نحن إذا أصبنا بذلك لم نر عيبًا فى البكاء، فقالوا: إننا نموت جميعًا قضاءً وقدرًا.

وخلاصة القول أنهم قوم يتوكلون على الله إنهم من لم يجد عشاءه ووجد أكله، وإلا فإنه يمضى جائعًا، إنهم يصيدون سمك النيل وبه يسدون جوعتهم، وإذا وصفنا أحوال وأوضاع السودان كلها تطَلَّب منا ذلك كتابًا بذاته.

علم الهيئة والإسطرلاب وربع الدائرة
وبيان ارتفاع البلاد وانخفاضها وطول أنهارها

أولاً خط الاستواء فى الإقليم الأول ويبلغ ولايات بربرستان وعلوستان ودميستان وخط الاستواء عنده يتساوى الليل والنهار، لأنه الإقليم الأول، ولكننا وصلنا إلى السودان وهو على مسيرة ثلاثين مرحلة من منطقة خط الاستواء وإقليم فى حكم مدار الجدى. وقال الحكيم بطليموس إن هذا الإقليم هو الإقليم الأول، وخط الاستواء هو الإقليم الثانى لأن فى فونجستان الليل والنهار يتساويان وإننا على مسيرة ثلاثين مرحلة منها فمضينا إلى وراء خط الاستواء فوجدنا ست عشرة درجة وخمسًا وأربعون دقيقة ومدار يمر فى وسط أسوان، وإلى ما بعد المدار فلم يذكره قدماء العلماء، ولأن هذا الإقليم يخلو من العمران وشدة الحر وأثر السرطان، وقد استولى كفار البرتغال على نهاية جنوب جزيرة مصر، وبنوا القلاع على ضفة النيل كما بنوا المدن ومارسوا البيع والشراء فيها وكانت لهم ولاية بين مدار الجدى والإقليم الأوسط، ولكن لا يستحق هذا الإقليم الكتابة عنه، وعلى طرفى مصر البحر المحيط، والباقى تراب على مسيرة خمسة آلاف ميل من البحر المحيط أرضًا خالية ولكن الطيور تطير فوقه، وتعبره ونرى أناس من طين فيه لأن الأقيونوس والمحيط يحولان دون ذلك.

ذكر الإقليم الأول

على حد قول قدماء العلماء إنه خط على الأرض من الشرق إلى الغرب وسموه الإقليم الأول ولكنه من عند الله، ولقد تجول إدريس ودانيال فى الأرض من الشرق إلى الغرب فأطلقوا على هذا الإقليم الإقليم الأول، ولما مضوا من الشرق إلى الغرب وجدوا أن عرضه اثنتى عشرة درجة وأربعين دقيقة، فقالوا إنه الإقليم الأول، ثم أطلقوا الأسماء على الأقاليم الثانى والثالث والرابع والخامس والسادس والسابع، ولشدة الحر لم يصلا إلى إقليم آخر لنذكره. فبقيا عند الإقليم السابع، ولكن إقليم فونجستان وسط خط الاستواء توجد ولاية عمران وولاية الزنج وديار الحبشة وبعض المدن القريبة، ولشدة الحر

فيها لا يسكنها الإنسان فما سمياه إقليمًا، ولكن كان ولاية عمران وولاية الزنج كانتا معمورتين من قديم الزمان وسنذكرهما فى موضعهما إن شاء الله.

وعلى حد قول سقراط إن الإقليم الأول الذى عبرناه هو ولاية بربرستان وعرضه أربع عشرة درجة وسبع وثلاثون دقيقة، وأطول نهار فيها ثلاث عشرة ساعة وطول الإقليم الأول هذا من الشرق إلى الغرب ألف ومائتا وخمسين فرسخًا، وعرضه مائة وأربعون فرسخًا وفيه ألف مدينة وخمسون منها زنوج أهلها.

أولاً: جزيرة سرنديب وهند وصغانه وطغار وحرش وفرج أباد وأحمد أباد وديوابا وختن فى جزيرة الحبشة زيلع ومدينة مقدشو ومدينة زنج وسودان وبربرستان وفى أرض المغرب فاس، ومرانكوش وطنجه وسبته إنها رأس الأقيونوس.

وعلى حد قول بدر وقولون أن فى هذا الإقليم الأول أربعين جبلاً شامخًا وثلاثين نهرًا عظيمًا، وكل نهر فيها كنهر النيل ومضينا فى الإقليم الثانى وفى نهاية مدينتى دمياط ورشيد اللتان تطلان على بحر الروم.

زيارة ضرائح سنار عاصمة فونجستان

أولاً فى المقبرة ضريح الشيخ عيسى، والشيخ بلال وحاجى فوندان، والشيخ ستوان وحاجى ملابه، والشيخ على وحاجى إدريس، والشيخ فرج عاصم، وعلى كرم الدين عدنى، والشيخ جندى ابن خاقان، وجميع الملوك مدفونون فى هذه المحلة، إلا أن قبورهم ليست مزينة، وهم يزورون قبورهم على أنهم ملوكهم القدامى، وقد قرأت الفاتحة لهم، ورجوت منهم البركات ولله أحمد أن دعاءنا قد كان مستجابًا، ومكثنا فى مدينة فونجستان أربعين يومًا وكان رمضان هذا هو الثالث والثمانون على تولى الملك وقد منحنا فى العيد عيدية ثيابًا مزركشة وثيابًا قطنية ومبخرة من الخزف وغرارة من العود وقارورة من ماء الورد وجاريتين حبشيتين، كما منح هدايا لمن معنا وقد أرسلنا إليه فيلين وجوادًا وزوجين من الأكياس بها قمصان وسراويل ودستين من الصوف وعمامة وثلاثة مآزر مزركشة، ثم جاء الملك إلى بيتنا، وتناول الطعام معنا فقد كان لنا مملوكان يجيدان

طهو الطعام، وكنا نقدم إليه فى كل ليلة من ليالى رمضان عشرات الأصناف من الطعام، وكان يطيب نفسًا بتناولها كما كان يحسن إلى غلماننا وكان يفضل الكباب على غيره من ألوان الطعام، بعد ذلك جالب الطعام للإنكشارية وتُجّار الحبشة وأذن للأحباش فطلبوا المدد من الجند، وقالوا سمعًا وطاعة فجىء بألف فارس وألف راكب إبل وألفان من المشاة يحملون الحراب فتحينت الفرصة وطلبت الإذن لى لأكون رفيقًا لهم فاستجيب لطلبى، فقيل لى عَلَىَّ السمْع والطاعة نحن لا نستغنى عنك لحظة فقد الِفْناك للغاية، وذلك لحميد سجاياك وبمشيئة الله سوف تتجول فى بلادنا مع هؤلاء الجنود، ومن الغد قدمنا الهدايا وهى عشرون زوجًا من قرون وحيد القرن وعشرون حمل جمل من الشعير والذرة وخبز وخمسون حربة من خشب السنديان وعشرون من تروس الفيل وعشرون زوجًا من سن الفيل وغرارة من المسك وعشر فتيات وعشرة غلمان أحباش وفى يد كل منهم صندوق وفى كل صندوق عنبر ومسك وعقيق وزبرجد وأحجار عين السمكة، وطاووس، ودفعنا الرسوم لحاكم القلعة على ذلك وقلنا إن وزير مصر سوف يقدم من الهدايا غير ذلك.

وقد قدمنا إلى كل واحد إزارًا وعمامة وحملاً من القمصان ومن الغد وصلتنا الهدايا وهى عشرون طاووسًا وخمسون من المماليك السود، وخمسون فتاة سمراء، وخمسون حمل جمل من سن الفيل، وقرون وحيد القرن وعشرون ترسًا للفيلة وألف زوج من السهام ومائة زوج من جلد النمر ومائة زوج من جلد الغرانق، وحمل من الذرة، ومائة حمل من مسك جلد قطة الزباد وعشرة أحمال من الأبنوس، وعشرة أحمال من خشب السنديان وحملان من الذهب وصندوق من المسك وستون شمامة من العنبر وصندوق من نبات ذكى الرائحة وصندوق من عطر البنفسج، وصندوق من دهن السكسبان وحُق من دهن الكبريت، وقد تقبلنا هذا كله، وفى الظهيرة وصلت هدايا كُل من الكتخدا والبوابين للكتخدا والخازندار والمهردار والشيخ العزيز بكرى زاده، وقد سلم الملك ذلك كله إلى أحد الرجال وقد استشرت فى ذلك واشترك الملك كذلك فى هذه المشورة وقيل

لنا إننا سنحمل كل هذه الهدايا فى سفـينة سنمضى بها إلى التلال وسوف تلاحظ ذلك لأننا نـثق فيك، وسنكـمل برأيك وتدبيـرك، ومن الغد وصلت مـائة سفينة مـن سفن النيـل، وقد امتلأت فى كـل مرحلة بمأكـولات ومشروبات، فتـوكلنا علـى الله ومضوا لانتظارنا فى قلعة إبريم، وفى يوم سابق على هـذا قَدِم إلينا نحن والباشا كل من حملة الهدايا وراكبو الإبل ورجال الملك وثلاثة رجال من البربر من قبلنا وقد احتفظنا عندنا بما خف حمله وغلا ثمنه، وخرجنا إلى الصيد مـع الملك وفى معيتنا ثلاثة وخمسون رجلاً لخدمة الملك وفى ظهيرة الغد خرج ثمانية آلاف فارس وعشرة آلاف من راكبى الإبل مع الملك من فونجستان للصيد.

* * *

الفصل الثانى والسبعون

بيان عودتنا من مدينة سنار عاصمة فونجستان

فى معية الملـك إلى مدينة رملية الجمال الـتى شاهدناها وذلك فى اليوم الخـامس لعيد الفطر المبارك عام ألف وثلاثة وثمانين.

عرف الأحباش الخـبر فحملوا أمتعـتهم ألف حمل على الـفيلة وقد سبقنـا فرقة من الجيش تتألف من عشرين ألف جندى خرجنا من المدينة واتجهنا شمالا وغادرنا من مدينة سنار ومضينـا على ضفة النيل جنوبًـا ووجّه الملك السؤال قائلاً: إن طريق سـلطاننا فى الروم من الشـمال ونحن نمضى إلـى الجنوب فما الحكـمة فى ذلك فقلـت إن فى ولاية السودان أراضٍ عامرة وطـلاسم تـستحق المشاهدة ولـذلك نمضى إلى هناك وقطـعنا عشر مراحل من فونجـستان جـنوبًا، وقلنا سوف نعود إلى ولايتنا وقطـعنا مراحل ومراحل فى تسع ساعات.

بناء قلعة ابسوقه القديمة

كانت فى سالف الزمان مدينة عظيمة، واسمـها ما زالت ظاهرة للعيان أما التى على الضفة الغـربية للنيل فبنـاء قوىٌ من خشب السنديـان والسنط والصباح ومحيـطها ثلاثة آلاف خطوة، وهى على شكل مربع وقد أقمنا خـيامًا فى مرج إلى جانبها وشاهدنا فى ذلك اليوم عجائب فى ديوان الملك.

أوصاف العجائب فى الديوان

دعانى الملك إلى خيمته، وجلسنا على سـرير هندى فرأينا الديوان الذى فيه كثير من الناس، فـجلسوا ركـبة إلى ركبة، وكـان فى وسطه مـيدان عظيم فـرأيناه ورأينـا فرقة موسيقية تعزف بلهجة وتغنى بلهجة خـاصة أمام ستار الملك كما رأينا سبعة من الغلمان الهنود يرقصون وأمام الملك دار أربعة منهم وأذيـال ثيابهم مزركشة وكانوا يدورون كأنهم الفلـك الدوَّار، ولكن لم يكـن منهم أحد من الـعرب والعجم ولا الروم، وكـانت فى أيديهم سن الفيل وبه يرقصون ويدورون وكان رقصهم ليس فى قدرة البشر.

وجملة القول أن جميع الأوضاع الخاصة بالبربر قد ذكرتها، ولما أتممت الفصل الخاص بهم ظهر لى رجل فيل الجسم وهو حافى القدم ولكنه يستر عورته بكسره وهو فى ثوب بهلوان وعلامة بهلوان وبينما كان يسير فى ميدان المعركة وطأت قدمه نملة فمضى إلى الملك وقال: يا حى ووثب عاليًا وارتفع مقدار خمس خطوات فى الهواء وقال: إن هذه آداب البهلوان، وقَبّل الأرض بين يدى الملك، ودعا للملك ولى وتراجع موليًا لنا وجهه. وقال: يا سلطان السودان عدت من ديار الهند ومضيت إلى ديار البرتغال ولله أشكر أنى شاهدت جمالك ولكنى غريب عن بلادى وعارى الجسد والآن وقت السحر وأشعر بالبرد فقلت للملك مرهم بإيقاد نار لنستدفئ، فأشعلوا النار فى كومة من حطب السنط والصباح حمل عشرة أفيال، وكانت مثل نار النمرود، فاندلعت ألسنة النار عاليًا، وتتطاير شرارها إلى جانب هذا الرجل فاستدفأ فوثب فى التو وقدم إلى الملك وقال له: يا سلطان الإحسان لقد وجدت الدفء من النار بحمد الله، ولكنى جوعان فأحضروا جملاً بدينًا وأمر بذبحه وشى لحمه على النار وقال لآكل من هذا اللحم، ودعا للملك وبعد ذلك أحضروا جملاً جسيمًا آخر، وكأنما هو دابة الأرض وذبح الجمل وشرب البهلوان كل دم الجمل، ثم سلخ جلده، وقطع جسمه قطعة قطعة وقدموا لحم الجمل للملك فقال: الإذن يا سلطان، لقد قطع قطعة من اللحم ووضعها فى النار وشواها ولكن لم يبق شىء من لحم الجمل وحطم بالفأس عظامه وتناولها، وأخذ بعض أتباع الملك رأسه وقدموها له فأكلها وبقى ذلك أسطورة عند الناس وقال: إن هذا تسبب فى نجاسة تمنعه من أن يصلى إمامًا ثم وقف الرجل ومشى، ولما سمع الغناء قَدِم إلى الملك وقال: يا سلطان إن بطنى لم يشبع فأنا أملك اللحم النيئ وانت تملك النار فأرجو أن تمنحنى إياها ولما قال ذلك ابتسم الملك ثم مضى وخلع سترته بجانب النار وجلس وسط النار وهو يقول بسم الله، أما أنا فتأملت النار وألسنتها تلتفح وكانت النار مثل عقيق اليمن، ولكنى ذهلت وجعلت أتأمل، وقال: النار فاكهة الشتاء ثم حَك بيده جسمه وظهر منه دخان ثم خرج من النار وقَبّل الأرض بين يدى الملك،

وقد تصبب عرقًا، وفى ساعة تناول الجمل وهذا القدر من النار فبقيت فى حيرة والناس من حوله مصطفين يتأملون، وهربوا فى سفينة، ومضى البهلوان إلى أهله وعشيرته وقلت أطال الله فى عمرك أيها الملك وجعل رءوس أعدائك رقابًا لك، ومنحنى حصانًا وخمسة أحمال جمال من سن الفيل وإزاراً وخمسًا من صغار المماليك ولما عُدْت لمدينة أبشوقه فقبلت رجاء الملك ونبهت إلى ذلك وزيره؛ فقال الوزير: على الرأس والعين. وجعل البهلوان يعرض ألعابه فى الميدان على قرع الطبول ونفخ المزامير وأحضر حطبًا محمولاً على عشرة من الفيلة وأشعل النار فى الحطب وعلى أرواح شهداء كربلاء ملئت عشر قرب من ماء النيل، فجاء ليشرب منها ناس كثير منهم رجل بدين.

من العجائب والغرائب

ومضى الرجل البدين إلى الملك فقال: يا سلطان السودان أعطِنى خمس قرب من ماء النيل وأعطه خمسًا فلقد ظللت سبعة أيام صائمًا وسبع ليالٍ قائمًا لم أذق فيها قطرة ماء، وأقسم على ذلك وكانت هذه الرياضة التى أزاولها، فقال الملك: لنعد لك فطوراً فإليك هذه القِرب الخمس، فأمر الملك بتقديم هذه القِرب الخمس له، وكان ثمة سماع للمولوية ألقينا السمع إليها نصف ساعة وتعالت ألسنة اللهب كأن شرر النار يتطاير هنا وهناك، فقال: لم أجد ماء طيلة أيام صيامى ولذلك أريد عشرة قِرَب من الماء، وقال: إذا زادت نار فى نارى فإن هذه القِرب العشر تكون من حقى، وكان هذا رأيًا صوابًا، وفى البداية أكل لحم الجمل وقالوا للبهلوان آكل النار: لقد عرفوك جلية الأمر، فوضع البهلوان كلتا يديه على رأسه وبدأ الغناء وأخرج دم الجمل من فيه قطعة قطعة وتحلق حوله جمع غفير، ومضى إلى الملك وأمامه قاء لحم الجمل على عشرين دفقة كما قاء بين ذلك النار مراراً حتى أن غلامًا صغيراً لى أخرج من فم البهلوان قطعة من لحم الجمل ولكن لم يخرج من فيه كثير من النار، هذا الرجل أكل اللحم راجيًا الملك وقال: يا سلطان الفونج لقد غلبت على النار والرغبة فى أن أقيء لحم الجمل تملكتنى فقال الملك ومن معه من المشاهدين: ينبغى أن يجيبه إلى رجائه وحكم الملك بذلك لقد أكل

عظام الجمل ونجاسته، فشرب خمسة قرب من الماء دفعة واحدة فصاح البهلوان أن حرارته سكنت ولكن رغبته فى قىء لحم الجمل لم تسكن، فقالوا: أعطوه شرابًا يجعله يقىء وقال أنا لا أعلم أى سحر فعله بى الماء ولذلك لم أتخلص من ناره، وصاح قائلاً: أنا هالك لا محالة، واعتزل فى ركن وهو يتألم فلم يرحمه أحد فما نال قطرة ماء فشرب ما قدمه إليه السلطان من ماء القِرب وكان راقصًا ثم وقف فعطس وسعل وحمد الله على انخفاض حرارته ثم قَدِم على الملك قائلاً: أيها السلطان العادل لقد منحتنى خمس قرب للماء فى البداية فدفعت بها عطشى والماء لمن طلب.

لقد أشفى البهلوان على الهلاك من آلامه وحرارته وعطشه إنه آدمى ضعيف وعلى كل الأحوال فإن البهلوان كان سيهلك وهذا على حد قولهم فنظر الملك إلىّ وكان مستاء فقد هلك عطشًا لعدم تقديم الماء إليه ولكنه لام البهلوان على أكثر ما أكل من لحم الجمل وما أكل من النار وأردت أن أطيب خاطره فقلت له: إن هؤلاء يلعبون بأرواحهم وهذا دأبهم على الدوام، ولما دخل البهلوان الميدان قال رجل: أيها السلطان إن ما يعمله هذا البهلوان سحر مبين إنه لعين من عبدة النار وإنى أبرئ من ذلك ولله أحمد أنا رجل تقى على المذهب المالكى اسمى أبو الذهب أقوم بصيام وقيام ورياضات ومجاهدات، فقال الملك: ولكنك أنت كنت بهلوان وأخشى أن أكون قد قتلته يا أيها السلطان إذا كنت تحبه كثيرًا فأنا أسلخ جلده فى حضورك فتعهد الملك بأن يهب مائة من الإبل.

من المضحك العجيب

مضيت إلى جثة البهلوان المرحوم وعقدنا حبل من ذيل الحصان وربطنا عنق جثة البهلوان بهذا الحبل، وركبت الحصان وضربت الحصان بالسوط مرارًا إلى حد فانطلق الحصان فى الصحراء والجثة المعلقة فى ذيله اختلطت بالرمال وتسلخ جلد الجثة فى مواضع فظهر لحمها أحمر اللون، وجررت هذه الجثة حتى بلغت بها الملك، وقال الملك: لقد حقرتم هذه الجثة بما فعلت بها فتسلخت وبان لحمها، وأغلظ علىّ اللائمة، فقال البهلوان الثانى: أمانًا أيها السلطان اصبرن قليلاً، وقال: لقد مزقت كل أعضاء

الجثة من أنفه وفمه وغيرهما ومثلت بجثة إنسان، إن أول جرعة شربها كانت خمس قرب فانتفخ بطنه كالقربة. وقال البهلوان للملك: انظر ماذا سأفعل إلى ساحيي عابد النار هذا بيولي، ثم قال بعض اللطائف، فقال السلطان: لا أعرف غيرك يُحيي هذا الرجل فإن لم تحيه قتلتك، فقال: على السمع والطاعة فدق الطبول ونفخ في المزامير فجاء الملك إلى السلطان وقال له: أيها السلطان إن هذا عابد نار إن عابد النار هذا كان بجانب النار التي أوقدتها جثة نحيلة وأصبحت جثة مختلفة الألوان وأصبح الدم ينبجث من جثته كأنه ينبجث من جراح مقاتل.

والحاصل أن هذا الميت بقي في ميدان المحبة وأمره الملك بعرض ألعاب أخرى.

منزل عابد النار

ارتفعت ألسنة النار وتصاعدت رائحة كريهة تأذى بها جميع المشاهدين فأخبروا السلطان هذا الخبر وفرّ خدام البهلوان وأحضروا إلى السلطان ثلاثة من الخدام مقبلين وضرب رأس البهلوان فتدحرج رأسه أمام الملك فوقف البهلوان من وسط النار وجاء ثلاث بهلوانات وقبّلوا الأرض أمام الملك فأخذ من الملك العجب كل مأخذ، ولما قَدِم البهلوانات لتقبيل يد الملك كانت أجسامهم مطلية بالدهن، والحق أن البهلوان أبدى معجزات، وبعد ذلك أمر الملك للبهلوان بمائة من الإبل ومائة من الغنم ومائة من العجول ومائة عنزة وخمسة وستين من سن الفيل وثلاثة جواري حبشيات فدعوا للسلطان بالخير.

الدعاء الهندي

بعد أن دعا البهلوان للسلطان بالهندية قبّل الأرض بين يديه، ولقد تعجبت، ولكن السلطان سر لذلك ولقد تجولت في البلاد اثنين وأربعين عامًا ورأيت ثمانية عشرة مملكة، ورأيت من الألعاب السحرية ما رأيت ويا كم رأيت في فونجستان ونقولستان من عجائب السحر، وتحدثت عن ذلك حديثًا مختصرًا ثم مضيت إلى قلعة أبسوقه مع الملك وفي طريقنا صادفنا خندق عظيم على ضفة النيل عمقه خمسون ذراعًا، وكأنما جرى النيل منه

بعد الطوفان وينصب غربًا فى المحيط، وقد فعله سيف بن ذى اليزن بعد الطوفان وقد حطم صخور الشلالات وجرى إلى مصر فى النيل وقد ظل هذا يابسًا فعبرناه وبعد اثنتى عشرة ساعة بلغنا بلدة أوتمر.

بلدة أوتمر

إنها مدينة عظيمة وإن لم يكن لها قلعة تسمى بلدة ولكن حواليها ما يشبه قلعة خشب ولها خندق ورأينا فى بداية هذه البلدة هذا الخندق وعلى شاطئ النيل بيوت من اللَّبِن وفيها نحو أربعين أو خمسين دكانًا ودار ضيافة وست مقاه وعشر حانات للبوزه وسبعة جوامع والقوم على المذهب المالكى وقد قدموا إلى الهدايا واجتزنا قرى كثيرة هناك على شاطئ النيل وبعد عشر ساعات بلغنا مدينة بوروشش.

مدينة بوروشش

يحكمها وزير السودان وله مائة ألف من الجند وألفان من الفيلة وخمسمائة ألف من الرعايا، وأنعام لا تعد ولا تحصى سبحان الذى لا يُسئل عما يفعل ولكن كيف خلقنى، فلما سمعت المصراع ولما مضينا للقاء الوزير أحضر فيلين عظيمين أحدهما أبيض والآخر أسود، وهما فيلان مسنان يقال أن عمرهما ألف سنة، ويصعد إليهما بسلم مقداره عشرون مرقاة، ولم أرى مثلهما قط، وهما أليفان وفى الروم يسمى الفيل (أكول) والفيل هناك ضخم الجثة جدًا وللفيل خرطوم يتنفس منه وله صوت كصوت عذراء حزينة، ويركب الفيل المماليك وقد جاء الفيلان للملك هدية، ومضينا على ضفة النيل سبع ساعات حتى بلغنا قلعة بوروسته.

أوصاف قلعة بوروسته قلعة مدينة وعدستان

حينما دخلت هذه المدينة قرعت الطبول وفى كل سوق استقبلنا جمع غفير من الناس كما أن النساء السمر رفعن أصواتهن بالتهليل، وكانوا ينظرون إلينا على أننا بيض البشرة، وهم يقولون سبحان الله لما رآنا بعضهم لاذوا بالفرار، وفى القلعة ستة جوامع وألف بيت من القصب، وفيها دكاكين هنا وهناك، وحانات للبوزة، وهم قوم من رعايا

فونجستان وهم سمر الوجوه، وستمائة زنجى، وهم يتحدثون العبرية وهذه هى أعدادهم العبرية:

واحد: زا. اثنان: زى. ثلاثة: زو. أربعة: كا. خمسة: كى.

ستة: كو. سبعة: چا. ثمانية: چى. تسعة: چو. عشرة: چه.

ووجدنا شعراً بالفارسية للنبى قفاح عليه السلام، ويقال أنه كان يعرف العروض الفارسى واللغة الدهلوية تشبه اللغة العبرية. قال رسول الله ﷺ: «من طعن حركة الاظى فهو كافر بالله»، وحروف اللسان العبرى كحروف اللسان العربى، ولكن العربى لسان واضح وهو فصيح بليغ، أما اللسان الفارسى فهو حلو ظريف لطيف فيقال العربى فصاحة والعجمى ظرافة والتركى قباحة، وكل لسان آخر نجاسة وفى ديار فونجستان كثير من الألسنة المختلفة ولكن ذكرنا ما نعرفه منها واللسان الذى يتكلم به أهل بورسته يندهش له من يسمعهم لأنه لسان مغلق أنهم فى بداية كل كلام يعظمون السلطان، وأكثرية القوم يعبدون الشمس، ويؤدون الخراج للملك، ولهم أسواق عظيمة وهم يعبرون النيل بسلعهم، وهم يصلون بها إلى بلاد البرتغال عن طريق البحر ويتم لهم البيع والشراء فى بلاد الفرنجة، ولا يأخذون نقوداً بل بالمقايضة ونزلنا ضيوفًا يومين على هذه القلعة وحابينا وتآلفنا مع أهلها وكتبنا بعض ألفاظهم، إنهم على خلق عظيم، واتفق فى الليلة الثانية أن نجمًا ظهر فى الشرق والآخر فى الغرب، ونزلا على المدينة، وبقيا معلقين، وقد اهتز أحدهما واتصل أحدهما بالآخر وقد تلاقيا فاهتزت الأرض والسماء وانبثقت نجومًا من هذين النجمين، وغادرا مدينة بورروسته، وأتيا الصحراء فأحرقا الزروع، وظهر النجم الأكبر منهم. ومضى إلى الموضع الذى ظهر منه وعاد ثانية إلى المدينة وانبثق منهما الشرر ونفق الحيوانات من فيلة وإبل من ذلك ثم تفرقا.

وخلاصة القول أن هذين النجمين تحاربا فوق المدينة لمدة ست ساعات، ولم يبق شىء أمام خيامنا، إنه عذاب من الله قد نزل وقد تضرع الناس إلى الله على أن هذا كان

من أشراط الساعة، ولمح النجم الشرقى فى وقت السحر ومضيت كواكب نحو الشرق وأخرى نحو الغرب، ثم أفلت ولذلك تلبثنا يومًا، وقد سقنا أنعامنا ناحية وتعوذنا بالله أن هذا كان من علامات القيامة، وفى الصباح سرنا على ضفة النيل وعبرنا مناطق كثيرة العشب والزروع وبعد عشر ساعات بلغنا قلعة دنقده.

قلعة دنقده

أقيمت بناءاً على تعاليم آصف بن برخيا أنها كانت مدينة عظيمة قديمة والآن فيها ستة آلاف بيت وتقع غرب القلعة، وبها جامع عظيم القبة وأسواق صغيرة ولكنها كثيرة السكان، وفيها من الطغاة والبغاة، وحاكمها رحيم الدين خان وقد استقبلنا وزيره فى معية ألف جندى، وقدم إلينا كثيراً من الهدايا، إنهم على المذهب المالكى، وهم يأكلون الغزال والعجل والقرد والفأر والأرنب، ويأكلون فاكهة ذات بذور تشبه الشاه بلوط، ويأكلون كذلك فاكهة تشبه السمكة، وهى ثمرة شجر قصير ولذيذ الطعم والعبرانيون يدهنون رءوسهم بزيت هذه الفاكهة، وبذلك تخلو شعورهم من القمل، ولكن الأكثر منها يذهب البصر وقد حصلت على حُقٍّ منها وهم يزرعون الذرة أكثر ما يزرعون، ولا وجود عندهم لقمح وشعير وعدس وحمص وفول وكتان ولابرسيم وقد أمر الملك برجم رجل اغتصب فتاة، ولا وجود لديهم لنخيل وغادرنا هذه المدينة على ضفة النيل فرأينا تماسيح ضخمة وسرنا فى الرمال والتراب والجبال وبعد تسع ساعات بلغنا جبل سندس.

أوصاف عجائب جبل سندس

إن إدريس عليه السلام أقام فى سفح هذا الجبل، تناولنا الفطور مع الملك وركبنا مع ألف منهم الإبل والخيل، وعلى امتداد البصر رأينا جبلاً شامخًا من الحجر الأحمر المصقول ولهذا الجبل باب يطل على جهة الشرق، ولكن أقيم بناء عظيم سد هذا الباب، وهناك حوض منحوت فى الصخر، وفيه يذبح سبعة جمال وسبعة خراف وسبع عنزات وسبعة ديكة وسبعة من القطط، فيسيل دمها فى منحر الحوض، ويغمس الناس جميعًا

يدهم فى هذا الدم ثم يمسحون بأيديهم الصخر فسألتهم لماذا يفعلون ذلك، فقالوا: إن هذا أصبح لنا طلسمًا وهم يتعرفون من ذلك ما قدر لهم فى الغيب وما لم يقدر، وغمسنا يدنا كذلك فى هذه الدماء ومسحنا الصخر لنرى العجائب، ولكن احذروا من أن يستولى عليكم الخوف ولو قليلاً هذا ما أوصانا به الملك، وقد أعملنا الفؤوس فى هذا الجدار الذى سد الباب فانفتح الباب، فكبّر كل من قاضى سنار والملك والإمام وواعظ دونقده، ودخلوا وبعدهم الوزراء وفعل السلطان ذلك ودخل فرأوا أن المغارة فيها حجر بها دولاب وضع فيها الديك وغاب عن نظر الحاضرين فحمدوا وهللوا وكبروا، وفى جوانب المغارة الأربعة جلس الناس على كراسى وجلسوا على المصطبة مائة إنسان وقد خيم الصمت عليهم جميعًا وزلزل ركن من أركان المغارة فسمعنا صوتًا يغنى بصوت حزين بمصاحبة المزمار والعود والقانون والسنطور والطنبور والرباب وكانت هذه النغمة هى نغمة الرست من فصل الحسينى فأخذت منى الدهشة كل مأخذ ثم سمعنا غناء ولكننا لم نفهم ألفاظه لأنها منقطعة النظير ولكن هذه الأنغام كانت على أصولها فسمعنا أصوات طبول وقدوم ومزامير وكانت هذه الأنغام من مقام الحسينى، وقد ترددت أصداء هذه الأنغام فى الكهف كأنها هزيم الرعد فكان الصمم لآذاننا وخرج شيخ من الغار واتجه نحو الفرقة الموسيقية وأشار إلينا بالوقوف ثم ركب جمله فارتفع صوت من الصخر قائلاً السلام عليك يا سلطان الجان فرد صوت امرأة من الصخر قائلاً: وعليكم السلام يا أولاد حام وقال قاضى سنار: السلام عليكم يا سلطان الجان، وقال الصوت: وعليكم السلام يا قاضى سنار بن طاهر بن يعقوب، وقال للملك: اذكر ما تريد، وجاء وزّراء وعلماء وألقوا السلام ورد كل منهم السلام باسمه، ثم مضى الملك إلى الصخرة فقال: السلام عليكم يا سلطان الجان، وفيما هو يرد التحية قيل له: وعليكم السلام يا ظالم خاقان بن سارند خاقان بن إدريس خاقان بن لاوند خاقان، أقم العدل فى الناس فإن نجومًا أخرى هوت، يأتى إلى بلادك من بلاد الزنج ومن عصاة بغاة من الجند فلا تغفل

وخذ حذرك، وأنت منصور مظفر فعليك أن تقدم إلى هنا فى كل عام وتقدم القرابين وتسجد شاكرًا خمس أو ست سجدات، وكان هذا الكلام بلسان الفونج وولد له ولد فقال لى الملك: قل السلام عليكم يا سلطان الجان فقيل لى بصوت مرتفع بصوت رومى فصيح: وعليكم السلام يا جواب العالم ونديم بنى آدم ومصاحب السلطان وحملة القرآن أوليا چلبى بن درويش محمد ظللى بن قره أحمد بن دمرجى زاده قره مصطفى باشا الشهيد بن دروحان بك بن ياو وزار بن أجه يعقوب بن عبد الله وردى أقاى بن محمد كرمانى بن توركان خواجه أحمد يسوى بن محمد حنفى رضى الله عليهم أجمعين، وإلى شجرة نسبنا وهى أن أجدادنا الإمام الحسين والإمام علىّ وفاطمة الزهراء والنبى ﷺ فذكر أجدادنا قاطبة وبذلك دخل السرور على قلوبنا، وقد تحدث طويلاً فى مصر عن الوزراء والوزارة فى مصر لإبراهيم باشا، ويسود الهرج والمرج فى مصر ويأتى أحمد باشا الدفتردار ويعود وهو ابن كوبرلى والوزارة لقره ويمرض فى مصر وإذا مات فمضى إلى مكة ثم تعود إلى مصر فحزنت لهذا من قوله وأمضى إلى الحبشة فأخذ العجب مأخذه من جميع الحضور فى المجلس وأخذتنى الدهشة، وعندما ألقى عليه السلام كل من رفقائى وهم على خلخالى ودرويش غدى ودرويش لمعى ودرويش نعمت الله رد عليهم السلام بصوت عال ذاكرًا أوصافهم والقرى والقصبات والمدن التى ينتمون إليها وأسماء أفراد أسرهم وذوى قرباهم ولكن قال أن درويش على خلخالى تارك الصلاة جبرى فابتسمنا جميعًا فخجل درويش على ولكنه أدى فريضة الصلاة من بعد ثم جاء خدامنا فأتى بهرام وألقى السلام فرد عليه يا خائن المولى ثم أتى حيدر وألقى السلام فرد قائلاً: يا خائن ولى النعم، وأتى العبد خسرو وألقى السلام فرد عليه عليكم السلام يا مخدم البلاد.

وخلاصة القول أنه أخبر السلطان ومعيته فردًا فردًا عما فى نيته وطيب خاطره ولم يدع سائلاً دون أن يجيبه ثم سمعت ألحان الحرب فى الميدان فطابت بها النفوس، فخرج

الناس جميعًا، ومكثوا فى الصحراء ثلاث ليال وثلاثة أيام، وفى كل يوم يأتى الناس أفواجًا أفواجًا ويسلمون وهم يسألون عما يتطلعون إلى معرفته إلا أن المغيبات الخمسة لم تعرف، وفى اليوم الثالث قدم إلى السلطان وكبار الأعيان فقدموا القرابين وسدوا باب الكهف ورفعوا الدعوات وقدموا الشكر والثناء، وفى شهر يونيه فى كل عام يجتمع فى هذا الموضع أهل فونجستان وأهل بربرستان وغيرهم ويشكلون جمعًا غفيرًا منهم فى ثلاثة أيام وثلاث ليال ويسألون عما يريدون إن هذا الغار غار عظيم منحوت فى الصخر وهو مطلى ولكن الموضع الذى يخرج منه الصوت مفتوح وبقية الصخر مصمت وليس فيه موضع يدخل منه إنسان ويسمع أصوات أنغام وصوت قرع طبول ونفخ المزامير مما يحار العقل فيه، وقد سألت السلطان وبعض ندمائه من الشيوخ فجاءوا بأخبار شتى عن هذا الكهف والذى يسمى خروس بو غازلين ولكن حكى خدام هذا الكهف أن هذا الجبل هو جبل إدريس عليه السلام، وكان إدريس النبى يلقى دروسه على الملائكة فى الكهف لذلك سمى إدريس، وكان الملائكة الكروبيون يأنسونه على الدوام فى الكهف، وانتوى إدريس النبى أن يعرج فى السماء وذلك من الآية: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا * وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ [مريم: ٥٦، ٥٧] وقد دعا الله له الكروبيون وهذه الآية دليل على أن عروج إدريس النبى كان فى أسوان، ومنذ هذا الزمان تصدح الألحان فى هذا الكهف، وهذه الألحان تسمع ليل نهار وسواء قدم أحد أو لم يَقدِم فهذه الألحان تسمع، وقد رأينا آباءً وأجداداً على هذا القول، وكانوا جميعًا يقدمون القرابين وهذا على حد ما قال خدام السلطان، وقد شاهدت هذا الكهف دون أن أتكلم ببنت شفة وتناولت الطعام وتعجب الحاضرون لذلك منى وضحكوا ثم غادرنا هذا المكان ثم انطلقنا على ضفة النيل جنوبًا ستة أيام وست ليال، وكنا نمضى كذلك فى ضوء القمر ونصيد فى الصباح وبلغنا وادى شلجلاه.

وادى شلجلاه

يعنى ذلك صحراء ذو الجلال، وهى واسعة لا حدود لها خصبة، إنها كثيرة الغابات ومياهها جارية وبها بحيرات وذات نخيل وبساتين، وفى جانبها الغربى علي بعد عشرة فراسخ قلعة أقامها البرتغاليون على ساحل البحر المحيط فى مدينة سيختره أنها كانت مدينة عظيمة وفى أرض سنجلاه تصيدنا ثلاثة أيام وبلغ صيدنا سبعين فيلاً وستة عشر من وحيد القرن وكثيراً من النمور وكثيراً من الأرانب والحُمُر الوحشية والزراف وتيوس الجبل، وجملة القول أننا تصيدنا ما لا يحصى كثرة من الحيوانات والطيور فهذه الأرض تمتلئ بالمخلوقات، وليس فى مصر أرض طيبة الهواء مثلها وفى اليوم الرابع ظهراً، ولقد أهدانا حاكم الروم سبعين أو ثمانين ألف من الجند وألف فيل ومائتى عبد وجارية فى موكب عظيم.

أوصاف مدينة رومية الجمال العظيمة

مدينة بناها آصف بن برخيا وزير سليمان عليه السلام وكانت فى أول الأمر على هيئة قرية، وقد ولد آصف فى هذه البلدة، ولأنها مسقط رأسه شيد المدينة وبعد أن أتم بناءها دعا سليمان عليه السلام إليها، وبنى قصوراً عالية ولكل قوم مَلِك ولقد دعاهم سليمان إليها، وجعل لكل منهم قصراً شامخًا ومقصورة على ساحل النيل، كما أقام قصوراً مختلفة في شمال هذه المدينة وبنى قصوراً فى جنوبها تبعد عنها مسيرة سبع ساعات، ورسم على جدران هذه القصور صوراً لهم وزين هذه القصور بتماثيل اثنى عشر ملكًا وكانت لهذه التماثيل صورة مهيبة وكانت من المرمر والرخام، وكانت شعورهم تدلى على جانبهم وأجسامهم هي أجسام الآدميين، وفى أحد القصور أشكال للشياطين ورأسهم كالمرجل وأذانهم كأنفي ثور وعيونهم مستديرة وفى أيديهم وأقدامهم خمسة مخالب كما للأسد، ورأينا عقبان وحمائم تطير وفيه تماثيل للفيل ووحيد القرن والجمال ولها ذيول كثيرة الثنايا وأجسامهم تشهد لصانعها الفنان بالبراعة، وفى القصر أشكال لطائر السمندر وليس كبيراً، ولكنه طائر جميل وكأنه النعام المنقوش فى الصحراء

إلا أن عنقه قصير، وهذه التماثيل مصنوعة من الحجر الصلد وقد مدت جناحيها وفى القصر تمثال لغول الصحراء وهو من الرخام الأبيض وله جسم إنسان ولكن له رأسان أحدهما رأس شيطان والآخر رأس عقاب وأقدامهم كأقدام الإبل وأذانها أذان حمار، إنه مخلوق عجيب، وهناك نقوش صور حشرات مثل النملة وكذلك الضفدعة والحلزون والجرادة والعقرب والحية، والحاصل أن جميع حشرات الأرض هناك، ولكنى أقول حاشا أن يكون الإنسان صنع هذه الأشكال لأن ذلك ليس فى مقدور البشر ولا يمكن أن تكون معجزات لأنها تماثيل عجيبة إنها لم توجد منذ ألف سنة وكأنها ذات بروج وأنها أناس غضب الله عليها فسخطها أحجاراً لأن الإنسان يعجز عن خلقها ولو عاش ألف سنة ولكن فى وسط هذه المخلوقات ومن قصور الملوك كان قصر عرش سليمان الذى ليس له شبيه ولكن ثمة صورة لسليمان النبى إنه قصر يقوم على ألف قاعدة وفيه صورة لغلمان كأنهن الحور بعضهم واقف والبعض الآخر جالس، وبعضهم مستند إلى عصا، وبعضهم راقص وبعضهم يشدو، إنها أشكال عجيبة غريبة وكلها مصنوعة من الحجر الأحمر وإلا فإنها لا يمكن رسمها بالقلم ولا حفرها فى الصخر، ولكن فى داخل قصر سليمان رأيت كثيراً من الأشكال العجيبة، رأيت غلامًا ثائر الشعر وفى يده اليمنى صقر وهذا الصقر مصنوع من الرخام وحاط على خشبة مبنية، وقد جعله الفنان ينظر لفتى وسيم، ولا رسم مانى ولا بهزاد رسم مثل هذا الصقر على الورق، وقد شاهد الملك كل هذه الصور ثم مضينا إلى مدينة رميله الحمال.

أوصاف مدينة رميله

لقد بنى هذه المدينة آصف بن برخيا فى مائتى عام وعَمّرها ثم فاض ماء النيل وبلغ ماءُه جبل القمر، وفى هذه الديار امراءة تسمى رميلة، وقد سكنتها بعد أن بنيت والحكمة يعلمها الله كانت هذه المرأة عاقراً، ولكنها حملت فى هذه المدينة وأطلق أهل المدينة عليها اسم هذه المرأة وهو رميله، وعندما حملت هذه المرأة سميت المدينة باسم رميله الحمال نسبة إلى هذه المرأة، ولكن كان اسمها فى البداية مدينة برخيا وهى مدينة

عظيمة ذات قباب عالية بلغت النجم فى علوها، وفيها آثار وكنوز تستحق المشاهدة ولكن يوجد فى هذه المدينة ألف بيت من الجص وسبع جوامع بلا منارة ومائة دكان وخان وعشرون حانة للبوزه، ولكن ليس بها حَمّام ولا مدرسة، ولقد أعطينا إلى حاكم هذه المدينة الهدايا، وكان طليعتنا عشرة آلاف جندى مع السلطان وسرنا جنوبًا من هذه المدينة على ضفة النيل وبعد خمس ساعات وصلنا جبل دابة الأرض.

جبل دابة الأرض

وبلغنا سفح هذا الجبل ومكثنا هنالك فى أرض معشوشبة وليس فيها أمارة على العمران ولكن فيها صخور قائمة بيضاء.

اشكال اعجوبة الأرض دابة الأرض

وثمة تمثال لفيل له أربعة أرجل ذو جثة ضخمة من الرخام الأبيض وفى عنقه قرن وجلده كجلد النمر وذيله متفرق الشعر وأقدامه شبه خفاف الإبل، وفى ثلاثة من أقدامه أظافر، وعلى كتفه عظام كأنها فأس فرهاد وكأنه هو حيوان تهيأ للطيران، وفى الجانب الشمالى من هذا التمثال تمثال الحمار الدجال اللعين، إنه حمار منحوت من الصخر الأسود، وعلى ظهره رجل بدين وهو له عين واحدة وعلى رأسه عمامة من الرخام الأبيض ومن حوله نساء وصبيان ويهود على رأسهم قبعات، وفى أيدى القوم دفوف ورباب وصنج وكل من فى هذه الأرض يعزف على آلة من آلات الطرب وقد تجمعوا حول رأس الدجال، يا له من منظر عجيب يستحق المشاهدة، ثم مضينا فى تلك الأرض مع الملك ساعة.

تمثال عوج بن عنوق

إنه تمثال من الرخام الأبيض يرتفع إلى أوج السماء وظهره وكتفاه تتصل بالصخر لتكمل صورة عوج إنه واقف، هذا فى الأحوال العادية، أما فى وقت السحر فرأسه فى السحب وشعره متفرق إنه رجل وقدماه تشبهان الرخام، أما عنقه فملتف ويمكن أن يحتضنها خمسون رجلاً إنه فى قدر قبة جامع السليمانية، وذراعاه كأنهما عمودان وفى

يده تمثال لتمساح، وقد شاهدته كذلك، ومضـيت مع الجند فى ريح الجنوب ومكثنا فى أرض معشوشبة نتصيد، ثم ركبنا خيولنا مع الملك وبلغنا جبل ثور الدنيا.

جبل ثور الدنيا

العظمـة لله إنه لشامخ وصعدنا فـى هذا الجبل ساعة فلـقينا من ذلك مشقـة ونصبًا ورأينا فى الصـخر الأحمر تمثالاً لثور «حامـل الدنيا» سبحان صانع الـقدرة إن الله يظهر عجائب صنـعه لعباده، وعلى عمود أحمـر يقدر بثلاثة آلاف عمود فى آيا صـوفيا أقيم تمثال لثـور «حامل الدنيا»، ولـه بطن كأنها جبـل عظيم وعلى رأسـه قرن وله قرون لا تدخل تحت حصر مما أثار دهشتنا ومضينا بخيولنا حوله ساعتين ولكن بمشقة، وفى وقت الغروب عدنـا إلى خياسنا، وعنـد بزوغ الفجر قمنـا مع الجند، ومضينـا ثلاث ساعات ومكثنا فـى أرض معشوشبة وهناك رأينا تمـاثيل الحوت العظيم حامل الـدنيا، وفى هذا الجبل تماثيل كأنها تمـاح البحر المحيط الواحد منها فى طول ألف وستين رجلاً، إنه يشبه جبل دماوند وقد زين جسـده بالقشور، وهو بجانب بحيرة، وقال من صـنعها أنه صنع شيئًا منقطع النظير فى الدنيا بأسرهـا وتجاوزنا هذا الموضع وفى الغرب منه تماثيل الملائكة المقربين.

تماثيل الملائكة المقربين

وفى واديين هناك أربعة تماثيل قد نحتت فى الصخر الأبيض، هذه التماثيل (وهى بلا تشبيه) لجبرائيل على صخرة وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل، إنها أجسام بلا أيد ولا أقدام ولا رءوس، ولا وجود لأعـضاء الحواس ولهـا وجوه مستـديرة، ولهم صـور مختلـفة الألوان، وهى سحر إعجاز وقد شاهدناها، وبالقرب منهم وادى نار الجحيم.

وادى نار الجحيم

على جانبى هذا الوادى تماثيل من الصخر لثعابين وحيات وعقارب وحيوانات عجيبة كما يوجد تمثال لـساحرة إذا رآها الإنسان انخلع قلبه رعبًا، إنـه واد يسمى وادى جهنم وكدنا نهلـك بين صخرتين، والله يعلم عددهـا، وفيها الثعابين والعـقارب وكل جندى

يشاهدها يصيح: ثعبان وبه روح، أما الذين لا روح لهم إذا ما خرجوا من الوادى ردت عليها أرواحها، وبالقرب من هذا الوادى وادى المأوى.

وادى المأوى

إن هذا الوادى هو درة الجنـة وكأنها إرم ذات العماد ولقد ازدانـت بأنواع الأشجار، وفيها أنهار جارية وعلـى جانبيها مقاصير من الرخام سكنهـا غلامان وجوار وليس فيها تماثيل لإنسان، وقد سكن هذا الوادى فى شهر يولـيه حيث فيضان النيل أهل رميله لمدة ثلاثة أشهر وعاشـوا فى نعيم، وبينما السلـطان يتناول طعام الإفطار فيهـا والبلابل تغرد تغريداً تطرب له القلوب، وغادرنا وادى المأوي ومضينا فى الصحراء غربًا.

تماثيل الثعابين العجيبة

هناك تنين له سبعة رءوس، وكل رأس من رءوسه يرتفع فى السماء، ولكن كلا منها متصل بالآخر، وهذا الـتمثال من الحجر وكل قدم من أقدامه يتسـع لعشرة رجال ولكل منها أظافر منفرجة، أما جسـمه فهو بتمامه من الحجر الأحمر، أما قدماه الخلفيتان فيتسع كل منها لعشرة رجـال ولها مخالب متفرقة، وكل مخلب يشـبه سنان رمح وفمه واسع كأنه الغار، إن جـسمه كأنه جبل أما ذيـله فيتصل بظهـره والمسافة بين قدميه الأمـاميتين والخلفيتين بمقدار سبعمائة خطوة، وقد رأي غلام لي فمه من الداخل فقال: إنه مثل غار الجحيم ولكـن قال الملك أن قصة موسى وفرعـون مسطورة فى جميع الـكتب وكان فى مدينة رميله ساحر، فبعث إليه فرعون قـائلا: (وأنت أيضًا أظهر معجزة وأحضر لتكون فى عوننـا وأنت أظهر اليد الـطولى وائتِ بثعبـان ذى سبعة رءوس)، وهذا الثـعبان من الحجر الأحمـر وليكن ذيله مـثل قوس قزح، وليتـحرك إلى موضعه فـى الجبل وإذا ما تجاوزه ومضى إلى المرج أصبح من حجر، وشاهدنـا العجائب والغرائب فى هذا الموضع ففيها آثار لعـاد بن شداد وقوم ثمود ولقوم جان بن جان علامات عجـيبة وإذا ما دونتها فى كتاب فلقـد شاهدناها وعلمناها علـم اليقين وعين اليقين وحق اليقـين وتصيدنا فى الصحراء وبعد خمس ساعات بلغنا جبل شوام.

جبل شوام

فى أسفل هذا الجبل ماء جار وأنه ينبع منه ويجرى شمالا نحو مصر وقد عرفت مقدار ارتفاع هذا الجبل، وسرنا النهار بطوله وقطعنا سبعين مرحلة وبلغنا عند خط الاستواء، ولم نصل فى ذلك الموضع، ومن مصر حتى بلغنا جبل شوام على مدى مائة وثمانين مرحلة على ضفة النيل شاهدنا المدن والقصبات والقلاع، وعدنا إلى مدينة فرانيه ومكثنا مدة شهرين بها وشهر ونصف فى السودان وفى بعض مواضع فى سنار توقفنا، وبلغنا جبل شوام وبعد ثمانية أشهر، وفى الثالث من ذى القعدة عدنا بحمد الله سالمين معافين إلى السودان، ولكن فى هذه المنطقة ينهمر المطر انهماراً بحيث تجرف السيول الفيلة، وستة أشهر أيام الخريف يصبح الجو كأنه جو تركيا فغادرنا جبل شوام وانتقلنا شمالا لمدة خمس ساعات.

أوصاف ولاية مدينة جرسينقه
وبيان منابع النيل

إنها ولاية عظيمة، ولها ملك بربرستان وفى قديم الزمان كان لها ملك مشهور، ولكن دولته دالت، فتبعت فونجستان، إنهم قوم مسلمون على المذهب المالكى واسم ملكها الآن سان الله خان وقد استقبلنا فى معيته مائة ألف جندى ولسلطان الفونج من الهدايا حمل أربعين فيل وحمل مائة بعير، ولقد ضيفنا الملك ثلاثة أيام وقدموا لنا وللخان الهدايا وغاب جنودنا وما أكثرهم فى بلدة جرسينقه لأن جميع البيوت هناك كهوف فى الجبل من الرخام الأبيض، وهم ينشئون الكهوف فى الصحراء والجبال، وليس فى هذه المنطقة زروع ولا نباتات إنها جميعًا جبال وصحارى وطبق الآية الكريمة: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] يتربى فتيانها وهذه الآية تبين حكمة الله عز وجل تلك، وقبل شهر يوليو فى كل عام تحمر السماء وتمطر ترابًا كالعنبر، ولكن ترابها بعد ذلك يصبح صخوراً فى تلك الأرض ويصبح كل اثنين أو ثلاثة صخور أرضًا يملكها الناس ويزرعونها ليل نهار وأكثر ما يزرعون الذرة، لأن

محصول الذرة محصول وافر وينزل من السماء مطر فتصبح الصحراء أرضًا ذات زرع، وتسقى جميع الحدائق بأمر الله، وفى اليوم الأربعين ينضج المحصول ويجمعونه ويضعونه فى مغاراتهم وينال كل منهم نصيبه منها ويستخرجون منه زيت الذرة، ويَزِنونه ثم يضعونه فى المغارات ويسدون عليه الأبواب بحجر واحد ولا يبدو بين الحجرين قطرة ماء، وتسد أبواب الكهوف ولكنها تذوب فى شهر وتنهمر الأمطار ثلاثة أشهر ويجرف السيل أكوام من التراب من هذه الولاية ويصب السيل فى النيل، ولكنه يجرى ويفيض من جديد، ويعود يحمل التراب الأحمر فى ماء النيل ويغمر أرض مصر بهذا الطين مدة ثلاثة أشهر، وإذا ما انحسر ماء النيل زرع الفلاحون أرض مصر، وبذلك يتحينون الفرصة لما يعود بالنفع وتنحسر المياه فى شهر يوليه وتزيد فى النيل والطين الأحمر الآتى من ولاية جرسينقه الممتزج بماء المطر هو سبب حمرة أرض مصر، ويبعد نبع النيل عن ولاية جرسينقه جنوبًا مسافة طويلة وهذا ما مر بسمعى بيد أنى لم أستطع الذهاب إلى هناك، ولله أحمد أنى شاهدت ما على ضفة النيل من عمائر وقلاع ومدن عامرة وآثار غريبة وعجيبة، وبذلك أتممت السياحة، وعند نبع النيل قوم يفدون على مدينة جرسينقه ويحضرون معهم سلع مثل البن ومثل البز الخاص بالقمصان وبطانة الثياب، والقطران، ولقد أخذت بأطراف الأحاديث فحكوا لى ذلك، وقالوا أنهم حين يتوجهون من نبع النيل إلى مصر لا يأتون برًا لأن الطريق جد مخوف، ففى الطريق ثعابين سمها زعاف، كما أن بها الثعابين والحيات والعقارب والفيلة ووحيد القرن والأسود والنمور والفهود والعقاب وغير ذلك من الضوارى، وهى أرض حجرية جبالية، وليست عامرة ولذلك يستحيل السير فيها.

وثمة محلة تسمى سنجره، وأهلها لا يعرفون الدين ما هو، وإذا رأوا إنسانًا غيرهم قبضوا عليه وشووا لحمه وأكلوه. والنيل ينبع من جبل القمر ويبلغ هذه المحلة حتى إذا يختلط بماء البحر الأبيض، وبذلك يختلط النيل بالبحر العظيم ولا وجود لأنهار أخرى هناك، وينشعب من النيل روافد وروافد ويجرى فى ولايات ويرويها، وإذا ما خرج

النيل من جبل القمر جرى شمالا وينشعب فرعين أحد فرعيه يمضى إلى قوم سنجره العصاه ويمضى الفرع الغربى إلى البقاع التى يحكمها البرتغاليون ويقولون نحن نسكن البقاع التى يحكمها البرتغاليون، ونحن على ذلك منذ سبعين عامًا، لقد أتوا بمدافعهم وبنادقهم إلى ولايتنا واستعمروا، ونحن نؤدى الضرائب والخراج إلى الملك.

وخرجنا من هذا الموضع بعد أن استولوا على ديارنا وخوفًا من الحيوانات السامة ركبنا القوارب فى النيل الذى جرى فرعه ومر بمدينة لاجنه وتجمع ماءه فى بحيرة عظيمة عذبة الماء، وفى جوانبها الأربعة قوم من سبع أجناس والبرتغاليون لم يستولوا عليها، ويجرى النيل ثم يلتقى فى مجرى واحد، وقالوا نحن نمضى إلى هذه الديار، فقلت: أنتم تبلغون نبع النيل فسألته عما شاهدوا هناك فقال: ذهبت إلى هناك ثلاث مرات، فقال: الطريق إلى مدينة لاجنه يقطع فى عشرة أيام، وفى البحيرة قوارب تبحر إلى مدينة القمر وقد وقع يرزكجن ابن عمى فى أسر البرتغاليين، وأحضرت لإطلاق سراحه سن الفيل، وأن مدينة القمر مدينة عظيمة، وقد بنى سليمان فى هذه المدينة على جبل القمر عند نبع النيل ضريحين وقصرين وشيد المدينة على سفح الجبل، ويقولون أن آثار ما أقامه من أبنية ماثل للعيان وللآن نبع النيل فى حوزة البرتغاليين وينبع النيل من جنوب جبل القمر، إنه جبل شامخ مخوف وعلى بعد سبع مراحل من جبل القمر جنوب البحر المحيط والبرتغاليون لقربه من البحر استولوا على مدينة وجبل القمر، ولقد أطلقت سراح ابن عمى من أسر البرتغاليين، ومن مدينة لاجنه خرجت فى تجارتى إلى مدينة جرسينقه ورأيت سلطان الفونج كما رأيتكم، ومضى إلى حضرة الملك وقبّل الأرض بين يديه فقال من مع الملك: نعلم أن هذا الرجل من تلك الديار وهو مسلم صدوق القول، وقد سافر إلى تلك البلاد طولا وعرضًا، ويأتى ويذهب فى تجارته كل عام إلى فونجستان، وقالوا: أنه رجل موضع ثقة، وقد استولى البرتغاليون فى غرب مصر من مضيق سبته إلى منبع النيل فى أرض عند زيلع، وكانت سواحل مصر فى حوزتهم وعلاوة على الهند استولوا على ستة آلاف جزيرة، وقد عرفت من هذا الرجل

أن عند منبع النيل مواضع يقيم فيها الكفار ومخاطر كثيرة وأراضى لا عمران فيها ولذلك زهدت فى الذهاب إلى نبع النيل وسوف تكون وجهتنا فى ولاية جرسينقه إلى الشمال، ولأن ما أمكن الوصول إليه من الإقليم الأول تسع وعشرون درجة من الجنوب، وشاهدنا مدينة جرسينقه ورأينا أن فيها العجائب والغرائب وأنها نهاية حدود السودان، وفى الجانب الجنوبى منها ولاية لاجنه، وفى الجانب الشرقى ولاية دونق، وفى الشمال حدود سلطنة دومبيه، والجانب الشمالى أيضًا حدود الحبشة، ويجاورها شمالا بربرستان، وفى الغرب ولاية فردان ويسكنها عبدة النار.

- وعدت من ولاية جرسينقه إلى فونجستان، ورجوت ملكها وقلت إننا كنا نريد أن نبلغ نبع النيل بيد أننا لم نحقق رغبتنا واعترانا اليأس ولله أدعو أن يتيح لنا المضى فى مائة رجل إلى مراكش وإلى فاس ومدينة قرطبة ومدينة طنجه ومنها إلى الجزائر وتونس وولاية طرابلس ومنها إلى مصر، وأن نحمل معنا الهدايا لنزور أرجاء مصر كلها وأظهرنا ملك فونجستان على رغبتنا هذه وطلبنا منه الإذن بتحقيقها، وألححت فى الرجاء، فوقف الملك وقبل يدى وقال قد كتبت لك إلى سلطان مصر رسالة فيها الإذن لكم بمشاهدة كل الولايات، وأن تشاهدوا جميع الآثار ولتبعثوا بأخينا العزيز أوليا معززًا مكرّمًا إلى مصر إن تريدوا الذهاب إلى مراكش وفاس وهذه الأطراف ليس فى حكمى، وهى لا ماء فيها وينعدم فيها الأمان، وسيقولون لكم إن رجلاً أبيض البشرة مثلكم لم يقدم هذه البلاد ولم تقع على مثله عيننا فتقع فى الأسر، وسيعجبون لرؤيتكم وسوف يوجهون إليكم الكثير من الأسئلة فى كل يوم، فذهابكم إلى هناك غير ممكن إن فاس ومراكش هى نهاية حدود جزيرة مصر وطريقكم مسدود وبيننا وبينها مراحل تقطع فى خمسة أشهر وهى طرق صحراوية وكل من فى معيتكم وخدامكم سوف يتأذون من شدة الحر فساءنى ذلك كثيراً، وفى ذلك دعوت الله واستخرته فأخذنى النوم فجأة فرأيت فيما يرى النائم جملاً صغيراً وعليه رجل يلتفت يمنة ويسرة وهو يسير بين فيل ووحيد القرن ورأيت فى غابة عظيمة جملاً كبيراً ففرّ الجمل الصغير فدخلنى فزع شديد، وورد على خاطري قوله تعالى:

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣] فتلوتها ففرّ الجمل من فوقى وعادت إلىّ روحى وأمسكت بالجمل مع رفقائى ثم استيقظت من منامى وبالإلهام فسرت هذا الحلم؛ فعرفت أن من الخير ذهابى إلى مصر، وصرفت فكرة الذهاب إلى مراكش وفاس، وفى الصباح تناولت الفطور مع الملك ودقت الطبول وشد الرحال فغادرنا مدينة جرسينقه واتجهنا شمالا بعيدا عن النيل لمدة ست ساعات، وبلغنا وقت السحر فى صحراء خلامه وشمالها على مسيرة ثلاث عشرة ساعة مدينة جنجفه.

مدينة جنجفه

قد بنيت فى عهد سليمان عليه السلام وآثارها دارسه، وبها بيوت من قصب وثلاثة جوامع ودكاكين وحاكمها سدان لديه عشرة آلاف جندى وغادرناها فى منتصف اليوم بعد عشر ساعات وبلغنا مدينة رميلت الجمال، وهناك مكثنا يومًا ومنها انطلقنا شمالاً على ضفة النيل وانتقلنا من قلعة إلى قلعة ومن مدينة إلى مدينة، ونلنا الهدايا من حكام القلاع والخانات وأعيان الولايات والسلاطين، وخرجنا للصيد وبعد خمسة وأربعين يومًا دخلنا مدينة سنار عاصمة فونجستان وخرج أهلها لاستقبالنا وأطلقت المدافع من القلعة ترحيبًا بمقدمنا، وبقيت فى دارنا أسبوعًا كاملاً ثم طلبنا الإذن بالرحيل إلى مصر، فاحتفى الملك بنا وقال على الرأس والعين، وأمر السلطان لنا بخمسة جياد ومن فونجستان عشرة طواويس وعشرة غلمان وعشر جاريات سود وعشرة أحمال جمال من المؤن وعشرة صناديق من المرجان والعقيق وحجر سيلان الثمين وجوهر عين الهر ومسك وعنبر وحبات سبحة من اللؤلؤ وسيف من سيوف الصحابة وخيمة منقوشة ومائتا صحن من صحون سنار وكؤوس، ودعا لنا بكل خير وأمر بإحضار السيف والوزير فى معية ألف جندى حتى قلعة أرياجى لأخى السلطان وأعطانا الرسائل، وفى الصباح غادرنا سنار ورافقنا الملك مرحلة كاملة وعانقنا الملك وودعنا وعزمنا على متابعة السير شمالا حتى الفونج وتلوت الفاتحة وسرنا ثمان ساعات وبلغنا مدينة بقيث.

مدينة بقيث

سبق وصف هذه المدينة كما سبق ذكر قلعة عطشان كما أسلفنا وصف قلعة مدينة أرباجى، وفى تلك المدينة قال لنا أخو سلطان فونجستان: مَن ذا الذى سلخ جلد وجوهكم وعيونكم، وأنتم ضيوفنا، وقَدّم إلينا رفيقًا وكلّفه بالقيام لخدمتنا وعاد، ومن حكمة الله أنه إذا أراد شيئًا هيأ أسبابه إذن لكل شىء لا بد من سبب ودليل ذلك من الآية: ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا * فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٥] وكأنما شاءت قدرة الله أن نمضى إلى ديار أخرى، وقَدِم على الخان الذى كنا فيه خمسة أو ستة من الزنوج يجيدون التكلم بالتركية فدار بيننا وبينهم كلام طويل، ربما كانوا من جند الحبشة ثلاثة منهم من رجال ملك الحبشة، ومنهم مَنْ كان وكيل محمد أغا وهؤلاء قدموا تلك الديار للتجارة، وقد كرمنا تكريمًا، وسألت كم يومًا يستغرق من الحبشة إلى تلك المدينة فقال: يستغرق الطريق عشرين يومًا، فتحمست لذلك إلا أنى أخفيت عنهم الرغبة فى المضى إلى الحبشة، إلى أن شاء الله لنا أن نرحل إلى الحبشة، وقلت إن شاء الله سيكون ذلك يوم الخميس فقلت: يَسّر الله لنا أمرنا فركبنا فى السفن ومضى ما نحمل من هدايا للملك ومع خمسة من رجالنا فأدرك التعب اثنين منهم، فتلبثنا فى مدينة أرباجى وقد أصيب أحدهم بالسحر، ولم يستطع المضى إلى السفن لركوبها ومضت أربعون يومًا على ذلك، وفى اليوم الثالث سمعنا أنه قادم إلينا وقدم القلعة وهو يزحف زحفًا لضعفه، فبقى وقد اشتد بنا التعب وقلت لآخرين أن يحضروا ومن الغد قَدّم إلينا أخو الملك ثلاثة جياد وعشرة من الإبل ومؤنة وخمس جوارٍ وخمسة عبيد من الزنوج وست أرواج من سن الفيل، وخمسة أزواج من سن وحيد القرن، وخيمة وقط مسك وجلد نمر وتهيأ ذلك فى الغد فارتحلنا إلى الحبشة.

* * *

الفصل الثالث والسبعون

بيان المنازل التى قطعناها

من السودان من مدينة أرياجى إلى الحبشة

من مدينة أرياجى مضينا فى ثمانية آلاف جندى من جند الإسلام فاجتزنا خلال ثمانية أيام، غابات وأرضًا ذات أحجار وغابات شجر الأبنوس وأحيانًا غابات شجر السنط، واتجهنا نحو الشمال الشرقى فبلغنا وادى قوز.

أوصاف وادى قوز

إنه أرض خصبة تقع بين ضفة النيل الشرقية والصحراء، وهذا الجانب من الحبشة يقع تحت حكم ملك السودان ولكن الحبشة ودنقلا ودمبيه وزنجيه لا تقع تحت حكم السودان إنها حدود فونجستان وتقع تحت حكم قوز وزير قوز على الضفة الغربية للنيل يسمونه وزير خان، وعلى الضفة الشرقية للنيل من وزراء قوز الوزير صاغ قول، ويسمونه قوز، وله ثلاثمائة ألف جندى وألف ألف من رعايا قوز وكلهم مؤمنون على المذهب المالكى، وهم يسمون باسم قوز كذلك إنهم قوم قوز وإنهم شجعان بواسل وكلهم من العرب وهم يسترون عورتهم بجلد الغزال والأسد والنمر، وفى هذه البقعة لهم أربعون ألف بيت من القصب أما حاكمهم فيسكن قصراً من الحجر والخشب، إلا أنه متين حصين، وهذا القصر هو قلعته ويزينون ديارهم بريش وبيض النعام، وفى حدائقهم أنواع من الثمار والذرة عندهم وفيرة ولا يزرعون القمح ولا الشعير ولا البرسيم، وفى جبالهم الحجر الصماقى، والرصاص والكبريت والذهب والفضة، ولا يعرفون الماس، وفى جوانب هذه الأرض الأربعة أودية، وفى وادٍ من أودية الجهة الغربية من هذا المضيق فى يوليه يمتلئ بالماء عند فيضان النيل فتغرق تلك الأرض ثلاثة أشهر وتصبح هذه المياه بحيرة، ويشرب من هذه البحيرة الناس جميعًا وفى تلك البحيرة قوارب صيادون ويصيدون منها أنواع السمك ويسكن أهل قوز على جوانب هذا الخليج الأربعة، وقد قدم حاكم قوز هدية، وهى ثلاثة من الإبل وعبد ومائة مرافق، ومن الغد وبينما كنا

نجتاز الصحراء الشمالية ظهر لنا غبار أسود يرتفع إلى عنان السماء وتقدمنا فى سيرنا إليه فكان نسر صاد فيلاً صغيراً وبينما هو يمزقه وينهشه جاءت أم الفيل فنشب الصراع بينهما، وهذا هو سبب الغبار الذى ثار ولكن النسر تغلب على أم الفيل وحطت على رأسها، ومزقت لحم أنثى الفيل وشاءت أن تحمى الفيل الصغير بخرطومها ولكن بلا جدوى، فأشفق رفقائى عليه فارتفع صوتهم بقولهم الله الله، وأطلقوا على النسر بنادقهم فطار وقد أظل بجناحه الأرض فستر شعاع الشمس واكفهر الجو وفرت أنثى الفيل ووصلنا إلى الفيل الصغير، فإذا عيناه قد فقعت من منقار النسر وجعل الفيل يأكل من حوله ومضينا، فإذا بالنسر يطير خلفنا وظل فى موضعه وحط عليه النسر وجعل ينهش لحمه، وتجاوزناهم فى وقت الغروب، وبلغنا جبل ترجاش.

جبل ترجاش

ومضينا فى غابة من شجر الأبنوس وحطمنا أشجار تلك الغابة ومضينا طوال الليل فى نور القمر وخلدنا إلى الراحة فى سهل فى الغابة، وأعلفنا جيادنا وبلغنا حدود دومبيه وطلب إلينا قائد القافلة ونائب الكتخدا أن نحمل أسلحتنا ونمضى متفرقين، وبلغنا أرضًا فيها مجرمو دومبيه وأرض كثيرة القردة وبها وحوش ضارية كما قيل لنا: خذوا حذركم من ذلك الخطر الذى يتهددكم، ولم نضع أحمالنا مدة ستة أيام وست ليال ومضينا شمالا نطوى المراحل واجتزنا بعض قرى دومبيه، وجعلنا نأكل لحم الإبل ووحيد القرن ونشرب لبن النوق والبوزه وبلغنا حدود دومبيه فبلغنا مدينة بورغه الواقعة بين الصخور السود، ورأينا جثث بعض النسور وذيول الأفاعى وقد نشب الصراع بينهما، وقد هلكت النسور من سم الأفاعى وكذلك هلكت الأفاعى من مناقير النسور ولكن لا يمكن الاقتراب من هذه الجثث لخبث رائحتها، إن رائحتها الخبيثة تشبه السم، وكان فى تلك الصخور التى وقفنا بها أوكار للنسور، وكانت ليل نهار تصعد أصداء أصواتها وكل نسر يطير وإذا ما مد جناحيه فكأنه شراع وهذا هو حجم تلك النسور، وكل نسر يصيد فى كل يوم فيلا أو وحيد قرن ويحمل ما يصيد إلى الجو ثم يسقطه على الأرض وينهشه أما إذا وقع ظل

جناحه على طائفة من الجند العثمانيين لم تمس حاجتهم إلى مظلة ولا خيمة، وقد انتظرنا حاكم بورغه ذات ليلة كما قدم إلينا بعض الرعايا هدايا، وكان ذلك من حكمة الله تعالى، ولهم بيوت من الحصير والقصب ولهم جامعان ومئات من البيوت، وقد عين كل منهم فى داره قدر من مسك الهر.

أنواع مسك الهر

هؤلاء القوم فى كل صباح يخرجون القمامة من بيوتهم فلا وجود لديهم من نجاسة ولا قذارة ويعرقون بقدر ما يعرق الهر، ومخالب هذا الهر فى أرجله الأربع فليس مخالب هذا الهر مثل مخالب الكلب وليست لحيوان مفترس، إن هذا الهر صغير الرأس ورأسه وأنفه يشبه أنف كلب الصيد إنه وحشى وليس أليف كالهرة، ويربونه فى قفص على سطح البيت ويقدمون إليه الطعام، وقد أهدى إلى حاكم قوز قفصين من هذا النوع من الهررة أحدهم أبيض والآخر أسود، ولا يحتمل أن يكون هذه الهررة لون آخر غير الأبيض والأسود، ولكن رائحة هذا الهر عطره ولما غادرنا مدينة بورغه فى اليوم التالى وسلكنا واديًا واسعًا فقابلنا أحد عشر فيلاً ومضت الفيلة على يمنتنا ويسرتنا ووقف أمامنا فيل ضخم ولم يتحرك، واقترب مراراً من الجنة وكأنه يحدثهم عن نفسه أنه حيوان وَقّاد الذكاء، وكل رجل من أرجله كأنها مأذنة وكل سن له كانه عمود وخرطومه مثل دخان المجرة وبطنه مثل طبل أصفهان أما أذنه مثل مائدة الخلفاء ورأسه مثل خم الملوك وجلده مثل سماط الغرباء، وفمه فم موقد الحمام، وعينه مثل جسم الغزلان وذيله مثل عصا الشيوخ، وبعد ثمانى ساعات بلغنا ربـده.

منزل ريـده

هذه المحلة فى حكم دومبيه، إنها أرض جبلية سوداء، وإذا ما حفرنا فى أرضها مقدار ثلاثة أو أربعة أشبار انبعث ماء عذب كما توجد آبار، هذه الآبار يشرب منها الفيلة وحركت الفيلة فى هذه الأرض، وفى مدينة بوريد بيوت من القصب وجامع من القصب كذلك وكل أهلها زنوج مثل أهل دومبيه والجميلات بها كثير، وغادرنا هذه

المدينة ومضينا إلى مرج على شاطئ بحيرة فيه قردة ضحكنا منها.

اوصاف قلعة نازدى

إن هذه القلعة كذلك فى حكم دومبيه ولـها حاكم زنجى يسمى جرجاج ولها أربعون ألف جنـدى عراة، وهى قلعـة مرتفعة، إلا أنـنا لم نسـتطع دخولهـا لمشاهدتهـا ولكن حولها، ألفى بيت من القصب وبيوت من الطـين كما أن أمامها جامعان وحانتين للبوزه ودكاكين وأمامها أشجار سنط وسنديان والأبنوس وغادرناها صبحًا.

ومضينا فوجـدنا قطعان من الفيلة ووحـيد القرن والغزال والعجول والحُمُـر الوحشية والخنازير الـوحشية، ولا يعلم عدد تـلك الحيوانات إلا الله، إنها أرض كثـيرة الأشجار والزروع، كما تسمع فيها تغريد الطيور بصوت حزين، وهذا ما يشرح صدر من يشاهد هذه المدينة ولذلك يأتى إلـيها ملك دومبيه ليصيد فيها، وله هنا وهـناك خيمة ومصطبة ومطبخ، وقـد شاهدنا كل ما فـى هذه الأرض، وفيها غابـات بها قردة يركب بـعضها بعض كالحمير أنـها قردة متعددة الألوان منها ما هو أبـيض وأزرق وأحمر وأسود وعلم عددها عند الله، وبعضـها يجرى كأنما يريد أن ينجز أمراً والحاصـل أن القردة كثيرة إلى حد يحار العقل فى كـثرتها، وأنها مخلوقات ممسوخة، وقد وجـدت ثلاثة من صغارها فى طريقى، وقد حملتها فى قفص وبهذه الصحراء تكون حدود دومبيه.

ودخلنا الإقليم الأول فى ولايـة الحبشة، فنحرنا الذبائح ابتهاجًا بـسلامتنا ولكن هذا الحر لا يصيبنا بشـىء بإذن الله وتقدمنا عشرة من رجالنا روادًا وبينما نحن ننظر رأينا أول مـن تقدمنـا فــى سيـرنــا يسقط من على صهوات جـواده، وعاد جواده نحونا كما أن رفيقًا آخـر من رفقائنا سقــط من على عنق جـواده، وإذا نحن بهذا الحيوان الـلعين وفرّ الجواد منا ثم صعد تلاً وهلك وفرت كل جيادنا وقد انفجر الجواد، وهذا الحيوان اللعين الذى سبق ذكره يشبه الغزال وفى طول قامته وفى جثته أما ذيله فينتهى بما يشبه العناقيد، وصعدنا الجبــل، ومضينا فوصلنـا إلــى هـذا الرجل، وقد هلك فتركناه وانـطلقنا فى طريقنا وقال بعض رجالنا إن ذلك الرجل الذى فـاضت روحه كان يحمل سبعمائة دينار

من ذهب فأخذنا الأسف وقلنا الحكم لله ثم سرنا فى أرض فيها أسود ونمور وفيلة ووحيد القرن وجبل أسود وصخور سود ودام سيرنا فى هذه الأرض ستة أيام وست ليال وبلغنا وادى ابرايش.

وادى ابرايش

إنه فى أرض الحبشة، وعلى جوانبه الأربعة آثار العمران وتنبعث منه رائحة طيبة فنزلنا فى هذه البقعة توا، وقد حفرنا الأرض فانبعث منها ماء عذب فمنذ سبعة أيام قَلّ ما نحمل من ماء فشربنا من هذا الماء ولذلك ردت الروح على الجند والدواب وتألقت الحياة فى الوجوه، وقد وجدنا آباراً كثيرة حفرت فربما كان التجار المرتحلين من الحبشة إلى مصر كانوا يسلكون هذا الطريق فحفروا تلك الآبار، ونحمد الله أننا بلغنا الطريق الواسع، وكان العبابدة يأتون من قنا سالكين هذا الطريق، وغادرنا هذه البقعة وسرنا ثلاثة أيام فى أرض حجارتها سود وجبالها سود وأرضها سوداء وقد تأذينا كثيراً من شدة القيظ ولما دخلنا الغابات تنسمنا رائحة كرائحة المسك وكأنما وجدنا من هذه الرائحة حياة الخلود، وقد سألت بعض التجار عن مبعث هذه الرائحة الطيبة التى تنسمناها فى الغابات فقالوا إنها رائحة تنبعث من الجبال التى تمتلئ برائحة المسك وثعابين المسك، واجتزنا هذه الغابات وفى اليوم الثالث وفى نهاية الصحراء بلغنا جبل عزلون.

جبل عزلون

نزلنا سفح هذا الجبل، إنه فى حكم الحبشة وفى يسرة هذا الوادى عرب لهم عشرة آلاف خيمة وهم زنوج، وعلى المذهب الجعفرى، وتجاوزنا هذه الأرض وحفرنا الآبار، فخرج ماء عذب، ومضينا شمالا حتى بلغنا البحر المحيط وطوينا مراحل على ساحل هذا البحر وبلغنا أرض القردة وفى شتى جبالها وأحجارها شتى أنواع القردة والنسانيس وأنواع أخرى من القرود، ولقد شاهدنا هذه القرود من فوق الأشجار التى تسلقتها وكانت تطلق أصواتها كأنها تضحك، وكانت تلعب وبذلك نسينا ما تكبدناه من نصب ومشقة فى سيرنا، وجملة القول أنه لا وجود فى عالم الحيوان كالقردة فى ذكاءها

وإضحاكها، ولـكنها ممسوخة وإن كانت مـشاهدتها تذهب عن الإنســان ما به من حزن ولكن تربيتها وتـعليمها مما يورث الفقر والفيل كذلك حـيوان ذكى، وعبرنا أرض القردة ومضينا ستة أيام فى أرض ذات أحجار وأرض جبلـية وأرض رملية ومضينا على شاطئ البحر ثم بلغنا وادى دنقلاب.

وادى دنقـلاب

وتلبثنا فــى ذلك الوادى، وحفرنا آبارًا فخرج الماء العذب، إن هــذا الوادى فى إقليم الحبشة فى قضاء سواكن سنجاغى وهو قـريب من ساحل البحر، ويسكن عرب فى هذه البقعة إنهم مائة ألف من الزنوج العراة، وعلـى مسافة قدرها مائة وخمسون ميلاً شمال ميناء ينبع وهو ميناء المدينـة المنورة وهو شمال هذه البـقعة على الشاطئ والمـدينة على ثلاث مراحل منـها، ودنقلاب ميناء عظيم ولـكن فى البحر جزيرة تـسـمى لولو، وهى تبدو من الميناء وفـى هذه الجزيرة بيوت من قصب وفيها جامع وحـانات للبوزه، وليس فيها أرض تزرع، وكل سكانها غواصون، وهم يستخرجون اللؤلؤ من البحر، وهو لؤلؤ نادر لا مثيل له، واللـؤلؤة فى حجم البندقة، ويحكم هذه الجـزيرة أغا من فرق الوالى الحبشى، وله عشر ما يـستخرج من اللؤلؤ ويحاسب الباشا، كمـا أن السفن التى ترسو على مـيناء دنقلاب تدفـع جمركًا، وغادرنا دنـقلاب واتجهنا شمـالاً وبينما نحـن على ساحـل البحر رأيـنا جبلاً فـيه دجاج ريشـه مختلـف الألوان والدجاج الحـبشى يشـبه الطواويس ومن الغد بلغنا أتله.

أرض أتـلـه

هى تحت حكـم سواكن وهى أرض رملية ويـسكنها عرب زنوج وهـم أربعون ألف يسكنون فى الخيام، وهم يمنحون الباشا الحـق فى المراعى وفيها ينابيع ماء عذب وتجاوزنا هذه الأرض فشاهدنا قطعان الفيلة فى الجبال الـسوداء وقطعان العجول السوداء ثم بلغنا قوم المرفأ.

قـوم المرفـأ

على بحر القلزم وهو بحر السويس مرفأ عظيم ولكنه ليس معموراً وعلى شاطئ البحر ملأنا القرب من ماء عذب وغادرناها صباحًا وسرنا على شاطئ بحر السويس أيامًا ثلاثة، وشاهدنا أصداف اللؤلؤ وأنواع السمك وسمك له مئات الآلاف من الألوان وهناك عجائب على شاطئ البحر سبحان الخالق وله الحكمة يحار العقل فيها فثمة أشجار لا أوراق لها فى هذا البحر إلا أنها كثيرة الأغصان ولكن جذورها مغمورة فى البحر وبعض السفن تمر بهذه الأشجار فتتحطم أما إذا كانت السفينة ضخمة فإنها تجتاز وتمر بين هذه الأشجار محطمة أغصانها، واللؤلؤ فى هذه الشعاب المرجانية، وهذه الشُعب المرجانية غابة عظيمة وفيها سمك القرش ولا يمكن عادةً من يستخرجون اللؤلؤ ولا من يغرقون مع السفن لأنه يبتلعهم، وفى اليوم الثالث بلغنا جزيرة مدينة سواكن.

أوصاف جزيرة مدينة سواكن

فى قديم الزمان سكنت هذه المدينة والدة لندها واسمها سواكن وقد أقيمت فيها الأبنية، وعلى مر الأيام بينما كانت المدينة تحت سلطان دومبيه، وفى عصر السلطان سليمان وكان وزير مصر طواشى سليمان باشا مضى فى ثلاثمائة سفينة إليها وإلى مدينة ديو آباد وأحمد آباد فى الهند، وانتزعها من البرتغاليين فهابه ملك الهند وعاد منصوراً مظفراً، كما فتح عدن وصفا وموحه وهى موانئ كانت فى حوزة البرتغاليين، ومر الأسطول السلطانى بالحبشة وألقت مراسيها أربعون ألف سفينة بما تحمل من الجند، وأقام فى مدينة سواكن وأصبح أوزدمر باشا وزيراً فهاجم إقليم الحبشة، وكان من أقرباء السلطان الغورى وهو جركسى الأصل ورجل مدبر وشجاع، وكان يبيع ويشترى ومكثنا فيها يومًا وقد بعث أربعين جملاً بخمسمائة قرش كما بعث خمسين سن فيل بخمسمائة قرش، ووقفت على أحوال هذه المدينة وبذلت همتى فى مشاهدتها، ويقابلها على شاطئ البحر الأحمر على بعد ثلاثمائة ميل مدينة جدة، وبينها وبين مكة المكرمة مسيرة اثنتى عشرة ساعة، إن سواكن فى الإقليم الأول وهى تواجه القبلة، وجزيرة سواكن صغيرة تمتد غربًا ثلاثة أميال، وهذه الجزيرة أيضًا تحت حكم الحبشة ولكن الوالى لا يقيم فيها. وينوب عنه من يتولى أمورها، ويقدم للباشا فى العام مائة كيس، ويسمون قصر

الباشا فى الميناء خرده، ومن يستلمون الجمرك يسكنون هناك وأن بانيه هو أوزدمر باشا، إنه قصر عظيم شامخ وإذا ما اقتربت منه السفن القادمة من الهند والسند واليمن والحبشة دفعت عشراً، ولهذه المدينة قضاء قدره مائة وخمسون إنها قضاء عجيب وفى هذه الجزيرة مائتان وستون بيتًا من القصب والحصير كما أن فيها بيوتًا صغيرة جميلة من اللبن ولأوزدمر باشا جامع ذو مأذنة وهو مبنى بالحجارة كما توجد فيها المساجد وعشرون دكانًا من الحصير، وعلى رأس الميناء، مخازن لعبدة النار وهذه المخازن بها شتى السلع ومبرات وحمامات وخانات ومدارس وحدائق ولا يوجد شيء غير ذلك ولكن سواكن ميناء الفونج وزنجستان ودمبستان وفى إحدى جوانبها يسمع دوى الأذان، وفى هذا الجانب من الميناء ثلاث قلاع قديمة، وهى متقاربة ولا وجود للماء فى سواكن لذلك بنيت هذه لحفظ الماء فيها، وتمر بها القوافل القادمة والذاهبة ولولا هذه القلاع لما وجد أهل سواكن قطرة ماء وهلك أهل سواكن عطشًا والسفن القادمة إليها من الأرض المقدسة تسأل الماء وسفن جدة واليمن تطلب الماء من أجل ذلك يحفظ الماء دائمًا فى هذه القلاع، وفى بعض البيوت يوجد صهريج ماء، وهذه القلاع معمورة وهى قلعة باش وقلعة أورنه والثالثة قلعة بوغاز وفيها من الجند خمسون أو ستون، وينالون علوفتهم من الباشا كل شهر، وإذا مضى الباشا مع كثير من الجند إلى الحبشة ناب عنه بعض أتباعه فيها، وفى هذه القلاع مدافع وذخيرة، وهذه القلاع قوية حصينة، وتحتها أبواب ذات مصاريع تطل على البحر وفى جوانبها الأربعة مزاغل ومن فى القلعة على تمام الأهبة دائمًا.

أوصاف مدينة كيف القديمة

إنها فتحت على يد أوزدمر باشا فى عهد السلطان سليم خان الثانى، وكانت فى ماضى الزمان تحت حكم سلطان درمبيه إنها عظيمة ولكن ليست معمورة، وفى جوانبها الأربعة آثار أبنية قديمة، ونائب كاشف فى هذه الديار ورجال حكومتها مائتان والصوباشى يتسلم من السفن القادمة الجمرك، وفيها ثلاثمائة بيت مكسوة بالطين،

وبعضها من الحجر وبعضها من الحصيــر والقصب وليس فيها عمران سوى حمام وخان وسوق للبز ومدرسة ومبرة، ولكن فيها عدة مـقاه وحانات للبوزه، وليس فيها حدائق، وإن كان هناك بساتين جـميلة بعيد عن الساحل، وآبارها عـذب ماءُها، ولاعتدال جوها تحمل المرأة وعمـرها مائة سنة، ولقد شاهـدنا هذه المدينة ثم عدنا إلـى جزيرة سواكن، وركبت مـع نائب الكـتخدا محمـد أغا، ورفقائى سـفينة وتـلونا ﴿ بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾ [هود: ٤١] وتوكلنا على الله وأبحرنا إلى جزيرة دهلك وبلغنا شاطئها ورأيت شراع هذه السفيـنة وقد جلس ربان السفينـة وملاحوها وكانوا ينظرون إلى الـبحر على الدوام، وهناك من ينظر يمنة ومن ينظر يســرة ويبلغ الربان بذلك، وإذا ما اشتغل قبطان السفينة بغير ذلك فإن البحر يتعالى مـوجه، وكل من فى السفينة يقرأ الفاتحة مرارًا، ولو لم تقـرأ الفاتحة فـى السفينـة لا تجرى لأن شراعهـا من حصير ومـرساتها مـن حجر، ومساميرها حبـال من حصير وتحت السفينة دهن الـبعير كما أنها تمتلئ بدقـيق الشعير، ومضت السفينة فى البحر الأحمر وقد لقينا من سفرنا هذا نصبًا، ومررنا بكثير من الجزر وبلغنا جزيرة دهلك.

أوصاف جزيرة دهلك

كانت عاصمة النجاشى، وقد فتحها عثـمان بن عفان بعد أن أرسل من جدة مائة سفينة ثم استولى عليها النجاشى من بعد إلى أن فتحت فى عهد السلطان سليم الثانى إنها جزيرة واسعة، حينما كان القائم مقام أوزدمر باشا فى الحبشة حاصرها ويستخرج اللؤلؤ عند هذه الجزيرة، وكان بها قلعة صغيرة إلا أنها انهدمت وآثـار المبانى فيها ماثلة للعيان، وهى قضاء يدر مائة وخمسين أقجه، وفـيها ستمائة بيت ونصف أساسها من الحجـر ويكسو سطوحها تراب كما يـوجد بها عدة دكاكـين ومخازن وجامع ومسـاجد، إلا أن بيوتها ضـيقة، ولا وجود فيها للحدائق، وعند المرفأ قصر القـائم مقام وفيها أربعون أو خمسون مخزنًا، وهى تمتلئ بـسلع التجار ولا وجود فـيها لأبنية أخرى، وفـى كل خان صهريج للـماء، أما الماء الذى يزيـد على الحاجة فـيبيعه بـعضهم للـسفن، وهواءهـا لطيف معـتدل، ويكثر فـيها

الجميلات من النساء، والفتيان سُمر البشـرة ويزرع فى هذه الجزيرة فى بقع مختلفة الذرة، وفيها بساتين وبهـا كثير من المَعز، ومن عجب أن المعز فى تلك الجـزيرة تأكل اللحم الذى يوجد فى صدف اللـؤلؤ كما تأكل السمك المملـوح ولحمها وشحمها رائحتـه ذكية كرائحة العنبـر، ولما فتح عثمان بـن عفان هذه الجزيرة قَـدِمَها عدة آلاف من المهاجـرين والأنصار وأرباب الصُفّة والصحابة، ودفنوا فيها ولكن ليس لهم قبور تدل عليهم ولا وجود لما يرشد إلى تاريخ موتهم، وقد شاهدنا جزيرة دهلك، ورأينا ما يحازى الشاطئ من صخور، وبعد قطع ستة أميال فى يوم واحد بلغنا جزيرة قلعة موص أووا.

أوصاف جزيرة قلعة مـوص أووا

كانت عاصمة لملوك الحبشة فى قديم الزمان، ولـقد فتحها عثمان بن عفان كذلك ثم فتحها آل عثمان فـى عهد السلطان سليم الثانى على يـد أوزدمر باشا وهى الآن عاصمة والى الحبشـة، وتحت حكمه سبعة سـلاطين، وللخاصة السـلطانية اثنا عشـر حملاً من أقمحة، ولكن لا يوجد فـى هذه الولاية شعار ولا زعامة ولا علوفة ولكـن بها الدفتر دار والروزنامجى، والمحـاسبجى، والمقاطمجى طبـق القانون، ورواتب مائة من جنـد القلعة وعشر خاصــة بإدارة الدفتر دار والمغفـور له الموصدارلى مصـطفى باشا كان يربـى مائتى جندى من حملة البـنادق، وكان يحصل فى كل عام ألف كيس وفى المقـابل كانت تأتيه هدايا عدل ألف كيس وبقـوته القاهرة إذا ما شاء أن يفتح العالم لاستـولى على العالم، وعلى وجه الـعدالة بعد الخراج والمـصاريف يحصـل ألـف كيس، وإذا ظهر بيـض لـود الوجوه مائـة أو مائتا رجل سيطـروا عليهم، وإذا ما أرسـل الهدايا إلى ملك فـونجستان وملك دمبستان وملك الزنج وملك علوى وملك زيـلعستان ويحصل مال وفير من التجار القادمين من اليمن والهند، وكانت الحبشـة مولوية، وهؤلاء القوم لا يعرفون الحقيقة ولا الشريعة، إنهم زنـوج طغاة بغاة وحشو جهنم، ولا مذهب لهم ولا ديـن، إنهم يسكنون الحبشة، إن القيظ غـاية فى الشدة وقد يكون مهلكًا إلا أن شدة الحـر لا تؤثر عندهم فى إنسان ولا حيوان، ولكن الجو يعتدل من بعد العصر إلى الصباح فى اليوم التالى، ويهب

نسيم الصبا، فيهب الإنسان حياة الخلود، وقصر الوالى فى هذه الجزيرة على شاطئ البحر، وقد بنى هذا القصر كذلك أوزدمر باشا إلا أنه ليس واسعًا ولا مزينًا، وهو يتألف من غرف صغيرة وفيه غرف يكسو سطحها الرصاص ويسمون الجمرك هناك خورده، وهو قصر الباشا، وتشترى عشر سلع التجار فى قصر الباشا هذا وتقترب من قصر الباشا هذا السفن القادمة من البرتغال والإنجليز والفلمنك والهند والسند والصين واليمن وعدن وتوم فوطه وموحه ولوحيه وجدة وينبع وطور والسويس، لأنه مرفأ جميل، وتقع فى الإقليم الأول وبينها وبين مرفأ اللوحيه فى اليمن على البحر الأحمر مسافة قدرها مائتا ميل، ومدينة قرشية ويأتى إليه السفن من اليمن فى ثلاثة أيام، إن أبنية هذه المدينة صغيرة ولأنها جزيرة لا تحتمل الأبنية الكبيرة، وأبنيتها تغوص فى الطين، وبيوتها بعضها من الحجر وبعضها من القش، وبعضها من القصب، وأما قصر الباشا فعال وفيه محاريب وفى السوق جامع أقامه أوزدمر باشا، وهو على الطرز القديم وله مئذنة صغيرة، وله بابان أحدهما يفضى إلى الساحل، والآخر يفضى إلى السوق، وابن أوزدمر باشا ومصطفى باشا البوسنوى مدفونان فى ضريح على يمنة الجامع وثمة جامع الشيخ الجمالى، والشيخ الجمالى مدفون فى هذا الجامع كما أن هناك ست زوايا، ومنها مسجد قره بك ولا يوجد آثار أخرى لحمّام ولا خان ولا مدرسة ولا مبرة ولا سبيل، ولا وجود لسوق البز وعند المرفأ مخزن للسلع، وفى هذه المخازن كل شيء ثمين حتى أكياس المسك والعنبر، وهذه المخازن بناءها متين الحجر، ولا يوجد فى الجزيرة حدائق ولا بساتين ولكن الدنانير الذهبية والقروش كثير، وأكياس الجواهر فى أكواب بهذه المخازن والقوم زنوج سود البشرة ومن أهلها الأسمر والأبيض، إنهم جميعًا من عبدة النار وإذا مات منهم أحد أحرقوا جثته، ويلبسون الثياب البيضاء الهندية ويحمون رءوسهم ببيض العمائم وعندهم دفاتر بمصروفات وجمرك الحبشة، وهم يعملون حساباتهم بدقة متناهية وإنهم يقيدون مصروفاتهم تقييدًا دقيقًا، وتعتمد الحبشة عليهم فى الحسابات، ولا يقولون الكذب ولا البهتان، ولا يشربون الخمر ولا يأكلون لحم الخنزير، وإذا أكلوا يأكلونه

فرادى ولا يأكل أحد مع غيره ولا يطعمون إلا إذا نزل عليهم ضيف من سفر ويتاجرون مع الهند والسند ودمبستان وفونجستان، وإنهم قوم على خلق عظيم يحبون الغرباء حبًا جمًا، ولقد ساعدونى فى حمل متاعى الثقيل ولقد جئت من مدينة كيف فى فونجستان فى أربعين يومًا فى حدود دومبستان وعبرت الصحراء، وقد تبينت أن لهم ألف جندى لهم علوفه، كما أن رعاياهم عشرة ملايين وهذا ما قيل لى على لسان قوم بانيان والباشا، وبما أن بلادهم خالية من الطاعون يعمر الإنسان فيهم من مائة إلى مائة وخمسين عامًا، وباشا الحبشة يرسل إلى سلطان دومبيه رسول من قبله يحمل معه اللؤلؤ والعقيق والقسى، والسهام والحراب والبنادق والرصاص والبارود والنفط والقطران والبندق والفستق والجوز الرومى والصحون النحاسية والقمصان والسراويل والكتان والبز، والحرير والخيط وهذه الأشياء سابقة الذكر هناك نادرة، وقد صحبنا هذا الرسول فى طريقنا وأسلم هذه الهدايا التى فى معيته للسلطان، وقد أكرمه السلطان كما أن السلطان بعث مع الرسل إلى والى الحبشة أربعين أو خمسين غلامًا حبشيًا وأربعين أو خمسين جارية والزباد وسن الفيل وقرون وحيد القرن وقط الزباد والعنبر الخام، وترس الفيل والسياط، وقد أرسل جميع التجار إلى الباشا ما لديهم من سلع فأخذ منهم الباشا الجمرك، ويرد من ولاية دومبيه إلى الحبشة القمح والشعير والذرة والسمن والعسل، وشمع العسل والدقيق والزباد وخشب الأبنوس، وما سوى ذلك، وكذلك الغنم والجمال والعجول والغزلان والمعز وجميع الأطعمة والأشربة، وقد شئت أن أمضى إلى السلطان، ولكن فى ذلك الوقت كانت الحبشة تموج بالعصيان والتمرد، وأشفق فورتاجى أحمد باشا من بطش الثوار فركب من الليل فى باخرة أبحرت به إلى اليمن، ولقد بقيت غريبًا، ولم أستطع الرحيل إلى بلاد أخرى، وبذلك كانت هذه الجزيرة وبالاً حط على رءوسنا فركبنا زورقًا وبلغنا جرار باشى.

أوصاف جرار باشى

غادرنا بالزورق مع خيولنا، ودخلنا إلى جرار باشى، وجرار باشى التى دخلناها هى مدينة

قديمة يفد إليها الناس والسلع بالسفن، ولكنها الآن خربة وفيها هنا وهناك أشجار وبساتين وأنعام أهل الجزيرة تربى هناك وثمة آبار ماءها عذب، وليس فى جزيرة موص أووا ماء وامتطينا صهوات جيادنا من جرار باشى وبعد مضى ساعتين دخلنا أرضًا سهلة وبلغنا قلعة خرق.

أوصاف قلعة خرق

عندما دخلنا هذه القلعة رحب بنا رئيسها، ووضع فى يده منشفة ولما أردنا أن نقبل يده قال: عفواً أنتم إخوتنا الأحبة وكنتم رفاقًا لـلبك فى طريقه من فونجستان ولكنكم ركبتم السفينة من دهلك لتبحر بكم إلى موص أووا، والباشا فورطجى قد تمرد وعصى وبغى إنه تمذهب بالمذهب الزيدى وتعلق بأذيال الفرار إلى اليمن وقد وقفت على هذا الأمر، وإذا ما مضيت إلى مصر أظهرت وزيرها على هذا الأمر ثم أمضى إلى الآستانة، واسترحنا بضعة أيام ونزلنا ضيوفًا عليهم، وقال لنا: اعلموا حقيقة الأمر، وأقمت فى حجرة خاصة بى وردّت عَلَىّ روحى، فاستدعى رجاله فى التو واستولى على أموال وخدام وأرزاق أحمد باشا، وشاهدت المدينة، إن قلعة خرق قلعة قديمة سوداء وقد فتحت على يد أوزدمر باشا وإن كانت قلعة قديمة عظيمة من الحجر على ساحل البحر الأحمر لكنها ليست ركينة ولا معمورة، ومحيطها أربعة آلاف خطوة وهى مربعة الشكل ولها سبعة بروج وستة أبواب باب البرج الرئيسى وباب المرفأ وباب جبل جدا وباب الشيخ مظلوم وباب الماء وفى الركن القريب من الشاطئ داخل القلعة وهو الجزء المعمور داخلها ومساحته تبلغ ستمائة خطوة وقد رممه درويش أغا وصار جزءاً معموراً داخلها وتبلغ مساحته ستمائة خطوة أما ما خارج القلعة ففى حاجة إلى الترميم والتعمير، وفى القلعة بضعة مدافع وينوب عن الباشا مع مائتين من رجاله قائم مقام، ويحاسب فى كل عام مائة كيس ويفيض له بعد ذلك خمسون كيسًا، وقضاءه مائة وخمسون أقجه والباشا يحكم الأئمة وللقلعة رئيس وأغاوات، وهم ينالون راتبًا معينًا من الباشا كل شهر، ومعظم أغاوات الباشا يسكنون فيها لأن موص أووا وبرييس أووا جزر لأن السفن تبحر من قلعة خرق أووا وفى جوانب القلعة الأربعة آبار كلها عذب ماءها وقد بنيت هذه

القلاع للحفاظ على هذا الماء ولذلك فتحت هذه الولاية وتم الاستيلاء عليها، وكان السلب والنهب فى أركانها الأربعة، ومن هذه القلعة غنموا ما غنموا وتحصنوا بها وأصبحوا فى عيشة رغدة، وحول القلعة كثير من الزنوج البغاة الطغاة وفى هذه القلعة سبعمائة بيت من القصب والقش، وسطوحها مكسوة بالتراب وفيها عشرون سوقًا صغيرة وسبع مقاه وحانات للبوزه وخان وجامع لأوزدمر وسبع زوايا ولا عمران فيها سوى ذلك ولا حاجة إلى وجود حَمّام فيها لأن أهلها يتجولون عراة ليل نهار وتعرق أجسامهم كأنهم فى حَمّام إنها مدينة غريبة وعجيبة وحاكمهم رجل شديد عنيد وإذا ما قامت الحرب استطاع أن يجمع حوله مائة ألف مقاتل، وهم جميعًا عبيد للوالى إله فورطجى أحمد باشا وزير مستقل وإنه الوزير الأول وقد ضاقت به الأرض بما رحبت ففر إلى إمام اليمن، والنائب قره يسكن قلعة خرق لووا إنه كريم أحمر الوجه واسع العينين وهو على علم بالتركية ويذل لنا الدجاج وحساء القمح وخبز الذرة، ويصدع بما يأمر هذا الرجل قوم الحبشة وفونجستان ودومبستان وعلوستان والعبابدة وسلاطينهم، ولهؤلاء السلاطين جند ولكن إذا ما رموا بحجر هربوا وتفرقوا لأنهم جيوش جياع وضعاف البنية، والنائب قره يحكمهم وتحت رياسته أمين الجمرك، وله خمسة آلاف جندى من حملة البنادق يغذوهم ويكسوهم، وإنهم جنود لهم قوة الإنكشارية ويلفون وسطهم بمنشفة وفى إحدى أيديهم بندقية وفى يدهم الأخرى منشفة مبللة بالعرق، إنهم يتجولون فى الصحراء، وإنهم يغيرون على كثير من البلاد فيقتلوا وينهبوا ويجمعون من ذلك مالاً كثيراً وتأتيهم الهدايا من كل الأرجاء وهى هدايا لا تدخل تحت حصر ويقدم للباشا كل عام هدية قدرها ألف كيس من المال المتحصل وهو يقدم مائة وخمسين كيسًا لأغوات القلعة كعلوفة لأن هذا مطلوب من الباشا، كما أنه يقدم علوفة إلى آخواته، وفى أيالت لا وجود للخدمات كما فى سائر البلاد ولكن فيها عشرون قائم مقام إنه يقدم إليهم كذلك علوفة، كما أن لمن فى القلعة وخدامها علوفة خاصة بهم، ويقدم للنائب ولمسلّم المدينة والقائد وكتخدا الباشا ونائب البوابين والإمام والأمين فى كل شهر

منهم علوفة قدرها ثلاثة وثلاثون قرشًا، كما ينال خمسة قروش كل من رئيس البوابين ورئيس من يسيسون الخيل وغيرهم والجلشنكير وأمير الإسطبل، أما أغوات الداخل خمسة عشر قرشًا، وهم يأخذون علوفة غير علوفة القلعة ومن خدمة الأمانة في الموفا فلهم عوائد وفوائد أكثر من ذلك وإذا ما تعلق الأمر بالتجارة فلا بد من الزيادة.

وركبنا خيولنا من قلعة خرق أووا ومضينا جنوبًا ربع ساعة ففي مضيق زرنا ضريح الشيخ مظلوم القطب العظيم، ولقد ظهرت له كرامات وكرامات أما مناقبه فلا تدخل تحت حصر ولم يقبل أن يقام له ضريح وإنما اكتفى برحمة الله، وقدم إلينا الباشا وأعيان الولاية الخيام والمطبخ، وكنا لم نزل في طريقنا وقد صدنا الغزلان والأرانب وتناولناها.

وفي قول أن أربعين أو خمسين فلاحًا يجتمعون في مكان ويبقون في الجبال خمسة أو عشرة أيام ليصيدوا الفيل ووحيد القرن والنمر فيحضرون جلد الفيل وسنّه وقرن وحيد القرن، ويأخذونها للإتجار فيها.

إنها ولاية عجيبة لقد شاهدت مدينة خرق أووا بتمامها وكان ذلك في عيد الأضحى من عام ألف وثلاثة وثمانين، تم ذلك في يوم واحد وقد تسلمت الإذن مع محمد أغا بمغادرة مدينة خرق أووا وسلكنا طريقًا على الساحل الشرقي للبحر الأحمر، وفي الصحراء أرض ذات أحجار واستغرق ذلك منا يومين، والعرب يسكنون في جبل ووله في الحبشة إنه أرض واسعة خصبة وهؤلاء القوم يسمون القوم القلديسين، إنهم سبعة آلاف من الزنوج إنهم عراة وفيها من الفتيات جميلات سُمر البشرة ومن الفتيان لأن في هذه الأرض مياه وغادرنا هذه الأرض واتجهنا شرقًا.

أوصاف قلعة هنديه

قَدِم هذه الأرض قديمًا ملوك الهند وأقاموا هذه القلعة إلا أنهم لم يبنوها محكمة متينة إنها من الحجر ومربعة الشكل، ومحيطها سبعمائة خطوة ولأنها مقامة على ساحل

البحر الأحمر فمياه البحر تتسرب إلى أساسها ولها باب خشبى يفضى إلى المرفأ وباب آخر يفضى إلى الجنوب ولها حاكم يحكم هذه الآيالة مع مائتين من أتباعه ويقدمون إليه أربعين كيسًا فى كل عام، لها قضاء قدر مائة وخمسين قرشًا ولكن نائب الباشا إمام قاض، وقد تم فتح هذه القلعة على يد أوزدمر باشا وله جامع صغير بلا منارة ومسجدان وبها بيوت، ورئيس القلعة ومن معه أتباع للباشا فيها وبها مخزن للأسلحة وعشرة مدافع ويسكن خارجها عرب وهم يجمعون بعض النباتات العطرية والفاكهة ويربون فى كل خيمة من خيامهم خمسة من هررة المسك ثم غادرنا قلعة هنديه وانطلقنا شرقًا وقطعنا ثلاث مراحل فى أرض ذات أحجار وفى وقت الظهيرة بلغنا برج طوزله.

برج طوزله

إنه برج عظيم على ساحل البحر أقامها أوزدمر باشا، وبها نائب للباشا وبها ثلاث أسواق ومبرة وجامع ولا عمران غير ذلك والملح يرد إلى الحبشة منها، والتزامها فى العام أربعون كيسًا ويتحصل منها فى كل عام حمل مائة ألف جمل من الملح وإذا انحسر ماء البحر بالجزر ظهر الملح الأبيض، وفى هذه البقعة مسكن قبيلة الرونجيه وعدد أفرادها عشرة آلاف، إنهم يجمعون الملح فى التو والساعة ويصفون الملح أسفل البرج، وتجاوزنا هذه البقعة وانطلقنا شرقًا على ساحل البحر وشاهدنا خارج البرية، وفى شدة الحر لمدة ستة أيام شاهدنا الجبل الأسود.

أوصاف مدينة بهلوله الخربة

كانت مدينة عظيمة على ساحل البحر، بينما كان أوزدمر باشا يفتحها استولى عليها البرتغاليون فجعلوها خرابًا يبابًا وآثار أسسها ما زالت ماثلة وكان أهلها يسمون عبيره إنهم مائة وخمسون ألفًا، إنهم فى نظافة تامة ولهم عبير العنبر ولكنهم قوم لا علم لهم بالمذاهب الأربعة وليس لهم ولا يعرفون الحشر والنشر ولا يعرفون الحديث ولا يعرفون ما ينهى عنه الشرع، إنهم يقيمون جميعًا فى خيام بالصحراء ولا يعرف عددهم إلا البارى، ولكنهم على خلق عظيم كما أنهم عراة يسترون عورتهم بجلد، وفى هذه البقعة ميناء

عظيم يتسع لألف سفينة، وليس فيها أثر للرياح ولا أثر فيها لليل، وهؤلاء القوم يطعمون الذرة ولحم الغنم والمعز والغزال والعجل ويشربون لبن النوق والبوزه ولا وجود فى أرضهم للحصان ولا الحمار ولا وحيد القرن، إنها أرض ذات غابات، ولذلك يكثر فيها الأسد والنمر والفهد، إن هؤلاء القوم يشكون كثيراً من القردة، قائلين: هم يقاتلوننا على الدوام، ونحن عاجزون عن قطع شجر السنط والزقوم والأبنوس، وأتت القردة وأسرتنا ومضت بنا إلى الجبال، ولا خلاص من أيديها، فبعضها ينام وبعضها يتولى الحراسة، وقد وجدنا الفرصة لكن لم نستطع الخلاص، ومحاولات رجالنا أهلكت كثيراً من رجالنا فما لدينا أسلحة، وقالوا تقرر أن لا تغادروا هذه الأرض إنهم قردة ضخمة شديدة القوة، وإذا دخل الليل أغاروا على خيامنا وخطفوا الغلمان والبنات والنساء.

وخلاصة القول إننا عاجزون.

ونصحونا بمغادرة هذه الأرض فزايلناها فى السحر، فانطلقنا شرقًا، وإن هذه القردة تركب تيس الجبل وعجل الجبل وتمضى بهم وكأنهم سادة وجميع الحيوانات تهاب وتخضع لهذه القردة، وقد رأينا من القردة ما تحمل هررة الجبل تحت إبطها وتطعمها، وكما رأينا منها ما يحمل صغارها فوق بطنها وتطوف بها فى الجبال، ومنها قردة بيض أشبه بالعنزة البيضاء ذات الزغب تحت ذقنها إنها قردة جميلة وقد شاهدناها ثم مضينا لمدة ستة أيام فى الجبال وفى الخلاء وعلى ساحل البحر وبلغنا زيلع.

أوصاف مدينة زيلع القديمة

أقامها ملوك الهند فى الزمان الخالى، وفى عام ٩٣٨ استولى عليها أوزدمر باشا من البرتغاليين، إنها قلعة عظيمة ومرفأ قديم، وهذه القلعة تقع على صخرة فى الجانب الشرقى للنيل، ومحيطها خمسة آلاف وسبعمائة خطوة إنها قلعة حصينة خماسية الشكل، وأنها مرفأ منقطع النظير ترسو فيه السفن والسفن تأمن عصف الرياح فيها، ولهذه القلعة بابان أحدهما من حديد وأحدهما يفضى إلى البحر والآخر يفضى إلى البر، ولها رئيس وسبعمائة من أتباعه وليس فى الحبشة كثير من مثل هذه القلعة، وبها مخزن

للأسلحة وسبعون مدفعًا لأنها آخر حدود الحبشة وقد تجولنا من الحبشة إلى مدينة زيلع عند البوغاز حتى النيل، وجميع المدن على ساحل البحر فى المغرب حتى مضيق سبته وجزيرة مصر فى حوزة البرتغاليين، وفى القلعة ثلاثمائة تابع، وفى كل عام تقدم إليه أربعون كيسًا، أما إذا دخل مرفأ زيلع خمس أو عشر سفن هندية، وخمس أو عشر سفن برتغالية فيبلغ الجمرك خمسمائة كيس، وإذا انعقدت الصداقة والمودة والألفة مع الباشا قَدّم إليهم اللؤلؤ والزباد والأبنوس وسن الفيل وقرن وحيد القرن وبذلك يدفعون الجمرك عن رضا وطواعية، وعندما وصلت كان نائب الكتخدا القائم مقام محمد أغا، وقدمت إليه سبع سفن برتغالية وألقت مرساتها تحت القلعة، ودفعوا أربعون ألف قرش جمركًا وكانت سفنهم تحمل الحرير والكتان والقطران والقطن، وفى هذه الديار يقدمون الماء المغلى للمريض ويطعمونهم القطران، ويدلكون به أجسادهم مرة فى العام وبذلك يتم لهم الشفاء، ويضعون فى عيونهم التوتيا، ويسمون القلعة جبل قدرى، وقوم قدرى عندهم عظيم إنهم زنوج ولكن وجوههم كوجوه التتار وشعرهم مفرق إنهم بواسل شداد يزرعون أرضهم وحدائقهم كثيرة المحصول وهم يبيعونه كما يصيدون الغنم والغزال والوحوش وتيوس الجبل والجاموس الحبشى وهم يملحون لحم ما يصيدون ويبيعونه للفرنجة فى بواخرهم ولذلك يأتى كثير من البرتغاليين إلى هذه القلعة، وأهل هذه القلعة على المذهب القادرى ونساء ورجال خارج القلعة سبعون أو ثمانون ألف وهم يلبسون الثياب البيض الهندية، إنهم يعبدون النار ويحرقون جثث موتاهم ويعبدون النار ولا يعرفون الخالق ويقولون هذا ما رأينا آباءنا وأجدادنا عليه وهم لا يغشون وهم جنب بل يبادرون إلى الاغتسال، كما يغتسلون إذا طعموا أو قضوا حاجتهم، وأجسامهم وثيابهم لها رائحة العنبر والزباد والمسك، حسانهم حمر الوجوه وبيض وسود الوجوه، وفى الحبشة حسناء زيلع بعيدة الصيت وأسنانهن كاللآلئ ولهن نونه جميلة وغبغب جميله وهم نساء ظريفات لطيفات نظيفات طاهرات الذيول وهؤلاء القوم يتبادلون المبيع والشراء مع تجار الهند واليمن والبرتغال، والمخازن عند المرفأ مفعمة بالنفائس، ولكن الترسانة خربة،

وهذا المرفأ ممتلئ بسفن جدة وسفن ينبع ومويلح وهذه السفن محملة بالبن من اليمن وحجاج المسلمين والسلع الأخرى، ولما شاهدنا هؤلاء الحجاج صاحوا، كأنما ارتدت إليهم أرواحهم كما أننا شعرنا بحياة خالدة تسرى فى أجسامنا وهؤلاء فى هذا المرفأ كانوا جياعًا وحاجتهم إلى حبة واحدة، ولقد استراحوا أول ليلة فى خيامنا ولقد قدمنا لهم ما استطعنا من نعم ومن الغد سار ستمائة رجل معنا لأننا كنا فى صحراء وكانوا معنا لحسن رفاق وقالوا لنمض، وفى يد كل منهم عصا وقد ساروا الهوينا وتبعناهم فى سيرهم، وفى اليوم السادس بلغنا مرفأ جرزه.

مرفأ جرزه

لقد ظلت فيه سفينة ثلاثة أشهر وغرقت، ولقد خرج منها مائتا رجل وأصبحوا رفاقًا لنا، وبقوا من الغد إلى وقت العصر ثم مضوا وأركبونى ومحمد أغا جملين لهم وطوينا المراحل حتى بلغنا منزل وادى حنفطه.

منزل وادى حنفطه

وفى هذه البقعة بالقرب من إبريم يقيم عرب من قبيلة كنوز، فنادى محمد أغا نائب الكتخدا شيخ عرب الكنوز واشترى هؤلاء الحجاج من عرب كنوز ألف جمل ومن الغد طوينا المراحل معهم إلى وقت الغروب معنا ثم مضينا وبلغنا منزل سهريج.

منزل سهريج

إنها مدينة على ساحل البحر الأحمر خربة، وبها بركة عظيمة ولقد نزلنا ضيوفًا عليهم ليلة هطل فيها مطر الرحمة فملأنا قربنا من هذا الماء ومن الغد مضينا فى الصحراء وبلغنا منزل وادى جانيج.

منزل وادى جانيج

كان البحر على يمنتنا ثم اتجهنا غربًا فى صحراء وادى حلفه وفى جانبها الغربى أرض رملية وحجرية، وفى اليوم الخامس بلغنا قلعة إبريم بحمد الله سالمين فنحرنا بعيراً وتصدقنا بلحمه، ولقد وصلنا من الحبشة فى غرة جمادى الآخرة، ونزلنا ضيوفًا على رئيس القلعة بكر أغا وكانت إبريم فى نظرنا جنة الخلد قياسًا ببلاد أخرى كأنها جهنم، ورأينا قومًا بيض الوجوه فشعرنا ببرد الراحة وأكلت خيلنا الشعير وأكلنا خبز القمح وقد حملنا الهدايا من السفن وهى التى أرسلها حاكم فونجستان إلى الباشا، وسلمناها إلى رئيس القلعة بكر أغا وقد أحسن المحافظة عليها ورعت خيولنا فى الحقول، وأتى رفاقنا، ومنذ أتيت من ثمانية أيام، لم أستطع أن أنزل النيل كما أن الآخرين لقوا كل المَشَقَّة فى الطريق ودخلوا مدينة إبريم، ولله نحمد أننا جمعنا كل ما نحمل من أشياء فى مكان واحد، واسترحنا فى مدينة إبريم ثلاثة أيام، ووضعنا ما ثقل من أحمالنا فى السفن وأرسلناها إلى جرجا ولقد كتبت مسودات رحلتى وليعلم من يطلعون عليها أن العلم الذى يشمل العالم لذوى النهى ليس مخفيًا وليعلموا أن ما فى رحلتنا هذه من أخبار وأحداث مستمدة من خرائط علوم الهيئة والأطلس والجغرافيا، وتواريخ القبط وتواريخ اليونان وعلم النجوم وبعض العلماء ذوى العقول الراجحة، إن سياحتنا فى فونجستان والسودان وبربرستان وسودان كانت شاقة، ولكن عناية الله عمتنا، فما أُبَرِّئُ نفسى من تقصير، إنها موهبة إلهية، وفى عام ثلاثة وسبعين خرجت فى حرب أويوار وبعد الفتح بعام تيسر فتح قلعتين، وبعد ذلك كانت هزيمة نهر راب ثم مضيت مع السفير قره محمد باشا إلى ألمانيا ثم إلى النمسا ومنها إلى ملك دونقارقير ومنها إلى ملك الدنمارك، ومنها إلى ملك هولندا فى أمستردام، ومنها إلى ملك بوهميا ومنها إلى ملك دانصقه ده له، ومنها إلى ملك قراقو، وبعد عامين ونصف بلغت السلطان محمد كراى سلطان القرم، ومكثت عنده شهراً، وقد عزله آل عثمان عن خانية القرم وأحل محله ابنه جوبان كراى، وقد عبرت مع محمد كراى جركرستانه فبقى محمد كراى خان فى ديار ملك داغستان،

وبناء على أمر أصدره السلطان محمود ركبت من دَمْرِ قَبُو فى سفينة فارسية، ومضيت إلى قلعة ترك فى ولاية موسكو وشاهدت فى ولاية موسكو ستّا وسبعين قلعة، وصل محمد باشا إلى قلعة أزاق فى اليوم الأربعين من شدة زمهرير الشتاء، وقد عزل كذلك عن قلعة أزاق فى هذا الأسبوع فدخل القرم، ومع آق محمد باشا فتح أدرنة، ومعى دخل مورية، ومع قبلان باشا دخلنا قلعة نبولى، ومضينا فى جزيرة كريت إلى قلعة خانيه ومع الوزير فاضل أحمد باشا فتحنا قلعة قنديه فى ثلاث سنوات، وتيسر لى فتح أزاق ثم فتحت ولاية ممانيه على يد قبودان كوسه على باشا، ثم مضينا إلى سبوط ثم استانبول ومنها إلى مكة المكرمة ثم مصر وبرسالة وزير مصر إلى فونجستان ثم إلى الحبشة ثم دخلت البريمه، ووالله أنى طوفت فى ممالك تسع ملوك فى أحد عشر عامًا، وهذا من فضل ربى رب العزة أنى وصلت إلى فونجستان وبربرستان وما ضقت ذرعًا لحظة بهذه الرحلة، وكنت فى صحة وعافية، ومن مدينة إبريم ثم ودعت خِلانى وأحبابى وركبت السفينة فى النيل إلى الجانب المواجه لأن فى ذهابى إلى فونجستان شاهدت الضفة الشرقية للنيل ولذلك شئت أن أشاهد الضفة الغربية.

بيان بالقرى والقصبات والمدن التى شاهدتها فى رحلتى من إبريم إلى مصر

وبينما سِرنا على ضفة النيل الغربية فشاهدنا سبع قلاع خربة فتجاوزناها فرأينا على شاطئ النيل بلدة سبوع وقد بناها كهنة فرعون بالسحر وفيها تماثيل من حجر أسود، وهى تحت حكم إبريم وفيها مائتا بيت من قصب وجامع، وعلى ضفة النيل طوينا ست مراحل وفى قبائل كنوز العربية كنا نشرب ماء النيل ونأكل لحم الجمل ونشرب لبن النوق ونطعم خبز الذرة، فطوينا المراحل وإن قبيلة كنوز تتألف من عشرة آلاف مسلم عربى أبيض البشرة، وهم يتحدثون بالعربية وهؤلاء القوم على علم بالحشر والنشر وعلوم الشرع والحديث الشريف، ومنهم قبيلة أخرى تسكن الضفة الشرقية للنيل وعددهم قليل ومرعاهم ضيق ولكن من يسكنون الضفة الغربية منهم بلادهم نهايتها المغرب وهم كثير

ولهذه القبيلة علـى ضفة النيل على ستة مراحل خمس وعشرون قلـعة خربة ولكنها لو رممت لكانـت قلاعًا عظيمـة، وهذه القلاع لكهنـة فرعون ولهم أيضًـا قلاع ولاية الى، وبينما كان هارون أخو موسى ـ عليه السـلام ـ وزيرًا له قدم إليها مع جند الإسلام[1]، وفتح كل تلك القلاع وهزم الفراعـين وسوى قلاعهم بالأرض هدمًا، وفى هذه الأرض عجائب وغـرائب الآثار، ولو كتبنـا عنها لاقتضى ذلـك منا طومارًا كبيـرًا، وفى اليوم السـابع شاهدنا قلعة طومانس.

قلعة طومانس

ليس لها رئيس ولا أتباع وقد أقامها عرب كنوز وبما أنهم لا يستطيعون الهجرة فإنهم يسكنونها، وهذه البقعة هى حد لكاشفية إبريم وهى قضاء إسنا وبعد تسع ساعات بلغنا بلدة رقبة.

بلدة رقبـة

تقع على الضفة الغربية للنيل، وبهـا ستمائة بيت من حصير وجامع قديم بلا منارة، وغادرناها شمالا على ضفة النيل، وبلغنا قـبيلة عربية هى قبيلة قارح وهم ستة آلاف من العرب بيض البشرة، إنهم رُحَّلٌ يقيمون الخيام، وكلهم مسلمون موحدون، ومضينا عنهم وبعد ست ساعات بلغـنا بلدة حمام فرعون على ضفة النيل، وهـى فى حكم إسنا وبها ستمائة بيت من الحصير وجامع، ولها حمام كان فرعون بداخله على الدوام ثم ابتلى من بعد ملك القبط بمرض الجذام، ولما كان يـداوم على دخول هذا الحمام شفى من مرضه، إن هذا الحمام يشبه طاق كسرى، وهو حمام مشهور فى جميع الآفاق ومن جدرانه تفوح رائحة المسك والعنبر، ومضينا عنها وبعد ست ساعات بلغنا جزيرة باجه.

جزيرة باجـه

إنها جزيرة عظيمـة فى النيل وهى كثيرة الأشجار، وفيها جمـاعة من العرب هم بنو حمام كما أن فى الجزيرة مـعادن مختلفة، ولكن لا يعرفون كيف يـستخرجونها، وهذه

الجزيرة تسمى جزيـرة الشلالات، وقد سبق التعريف بها، وسِرنَـا أربع ساعات من بعد على ضفة النيل.

بيان قلعة أتفو

إنها فى حكم إسنا وهى بناء قديم على ضفة النيل وليس لها رئيس ولا أتباع له وهى بناء محكم ركين، ولها باب، وهى مربعة الشكل ومحيطها ألفى خطوة فيها مائتا جندى وثلاثمائـة بيت من قصب وجامعـان وثلاثة مساجد إنهـا تقع فى التزام إسنا ولـيس بها سوق ولا حمام ولا خان، ولكن حدائقها كثيرة، وغادرناها وبلغنا قبائل هجيزة العربية.

قبائل هجيزة العربية

إنها ثلاثمائة من العـرب على المذهب الشافعى وهم يقيمون خيامـهم فى هذه البقعة ويرتحلون، وهم قـبائل مشهورة وقدم لنـا شيخها ناصر علـى طعامًا ومضينا عـنها وفى وقت العصر بلغنا قبيلة العرب الجعفرية.

إن عدد أفرادها تسعة آلاف وهم يقيمون فى تلك البـقعة وشيخهم يسمى شمير الدين وفى عينه فتيل وعندما يخرجونه يضعـون فتيلاً آخر فى موضعه ويقولون إن عينه أخرجت من قفاه فهى مثقوبـة إنها جرح من رمح، يا له من شيخ عظيم بعيـد الصيت باسل، لقد نزلنا عليه ضيوفًا ذات ليلة، ثم انطلقنا ست ساعات على ضفة النيل وبلغنا بلدة كلح.

بلـدة كلـح

بها مائة وخمسـون بيـتًا وجامع، ومضينا تسع مراحل شمالاً على ضفـة النيل فبلغنا قبيلة بـصلى العربية، عدد أفرادها ثـلاثة آلاف وكل عملهم أن يزرعوا الـبصل، لذلك أطلق عليهم هذا الاسم، إنهم مسلمون عيونهم تدمع على الدوام لأنهم يكثرون من أكل البصل ويضعونه فى غابات النخيل ويرحـلون، وقبيلة هوارة على عداء معهم، ولهؤلاء القوم طائفـة فى جزيرة الشلالات، والشيخ صَـيَّاح يسكن عندهم، وهو قـطب عظيم، وغادرناها وسِرنَا ست ساعات فبلغنا أسنا.

أوصاف قلعة أسنا

إنها كاشفية أخرى لجرجا وتقدم إليها فى كل عام أكياس المال والغلال ومحاسبتها فى ديوان جرجا ولكاشفها مائة تابع، وله سبع فرق ولهم غلال من الباشا فى كل عام، وقضاؤها مائة وخمسون أقجه وتتبعها ست وسبعون قرية يتحصل منها كل عام ألف قرش ولها قلعة مربعة عظيمة على شاطئ النيل، كما أن بها خمسمائة بيت وأحد عشر مسجدًا، وقد أقام هذه القلعة عمرو بن العاص عندما فتح مصر، ثم أقام جامع عُمَر، وهى على غرار جامع عمر فى قنا، وليس بها خان ولا مدرسة ولكن بها بضعة دكاكين وحانة للبوزه، ومقهى، ويقع فى غرب أسنا أرض خصبة وهناك يسكن قبائل الهجيزة، وقبائل الجعفرية وقبائل مطحنة، وإذا ما اشتد زمهرير الشتاء رحلوا إلى جبل الزمرد، وأهلها يتميزون بالجمال لاعْتدال جوها، وفيها ضريح يزار منذ قديم الزمان، وقد ضرب الحصار عليها عمرو بن العاص بخمسين ألف جندى حين فَتْحِهِ مِصْرَ ودام هذا الحصار سبعة شهور وقد تم فتحها بعد حرب ضروس، والخطيب فى جامعها يعتلى درجات المنبر ومعه سيف، وقد استشهد فى تلك الحرب ستمائة من الصحابة الكرام وقبورهم معروفة وعليها أسماؤهم، ولكن ليس فى الإمكان أن نذكرها لأن ذلك شرحه يطول، ومضينا على ضفة النيل وبلغنا ضريح الشيخ صنيع.

هذا الضريح يتردد الناس عليه لزيارته، وفى غرب مدينة أسنا على مسيرة نصف ساعة ضريح حمزة وفيه ثلاثة قبور، ومَن فى هذه القبور من أبناء حمزة، ولا نعرف أسماءهم، وعلى مسيرة ثلاث ساعات شمالاً بلغنا بلدة أسفون.

بلدة أسفون

إنها بلدة فى أرض أسنا وفيها مائتا بيت وحدائق ونخيل وجامع، وعليها أوقاف للسادات فى مصر، ومضينا شمالا ومررنا بقبيلة مطعه، بعد أربع ساعات بلغنا:

بلدة زيقت

وبها مائة وخمسون بيتًا وفيها حدائق ونخيل، وبها ركن من وقف الإسكندرية وبها جامع معمور، ومضينا خمس ساعات شمالا وبلغنا بلدة أرمن.

بلدة أرمن

إنها قرية من النيل بها مائة بيت وجامع، وأهالى هذه البلدة مواظبون على الصلاة وهم على المذهب الشافعى، وكانت مدينة غاية فى العظمة وقد كتب عنها كثير من المؤرخين، وفيها ولد موسى ـ عليه السلام ـ، وخوفًا من بطش فرعون ثبت موسى فى لوح وألقى فى اليم، وكان من حكمة الله عندما مرّ موسى أمام قصر فرعون أن اتخذت آسيا زوجة فرعون موسى ولدًا، وربته، ورأى فرعون موسى وأعجبه من موسى حركته؛ فصمت. ولذلك تواريخ وقصص كثيرة، فى تفاسير الطبرى وغيره فلا حاجة بنا هنا إلى ذكر ذلك، وسبب تسمية هذه المدينة أرمن أن جد موسى لأبيه اسمه أرمن ويسكن هذه المنطقة الآن اليهود والقبط، ويزورون ضريحه فى الكهف وبذلك سميت المدينة بأرمن، وكان لأرمن ابن يسمى هرم ولابنه ولد يسمى حنام فمضى حنام هذا إلى ديار ماهان، وهناك أصبح له الملك فيها وولد له ابن فسمى ولده أرمن على اسم جده، وأصبح أرمن هذا ملكًا مستقلاً للأرمن ولذلك نسب الأرمن إلى موسى وأرمن، ثم جاوزناها ومضينا على ضفة النيل نطوى المراحل بين القرى المعمورة على جانبى النيل لمسيرة ثمانى ساعات، وبلغنا بلدة قورنا.

بلدة قورنا

هذه البلدة هى حدود أسنا كما أنها حد جرجا، وأهلها جميعًا يسكنون الكهوف إنهم قوم بيض الوجوه، وهؤلاء القوم استشهدوا على يدى هولاكو فى زمن المستنصر، وبعد أن خرب هولاكو مدينة بغداد، ولما استولى هولاكو على المدينة فر المستكفى بالله منها إلى مصر، فجعل له الظاهر بيبرس بالقرب من أسنا موطنًا له؛ ولذلك تسمى البلدة قورنا، وقد قدم أهل قورنا إلى المدينة الجديدة وسكنوها وقد قدموا بأموالهم وأرزاقهم، وزرعوا الأرض وعمروا البلدة، وكل مغاراتها من بناء سيف بن ذى اليزن، ومن دخل هذه الكهوف أخذه كل العجب، إنها من حجر، وفيها مقرنصات بديعة، إنها من عجائب الدهر، وفيها قصور وقاعات ومطابخ واسطبلات من شاهدها أخذه كل

العجب، لقد كانت جميع الأحجار طوع هؤلاء القوم منذ الزمان الخالى، وبعض هذه الكهوف يسكنها العرب كما أن أغنامهم وعجولهم تأوى إلى هذه الكهوف، ثم مضينا على ساحل النيل خمس مراحل، وبعد ست ساعات بلغنا بلدة نقاده.

بلدة نقاده

بناها مصرايم، من فراعنة مصر ويسمونه أبا القبط وهو حفيد نوح، وهو الذى بناها بعد الطوفان، وأصبحت مدينة متراحبة الأرجاء، وآثار أبنيتها للآن، بها من الخراب ما يتجاوز ثلاثة أمثال ما فى مصر، وبهذه الأرض خمسمائة بيت هى وقف وجامع وزاويتان وهذه المدينة نصف مسلمون والنصف الآخر قبط، وشددنا رحالنا على شاطئ النيل لنجتاز فى صحراء متراحبة الأرجاء، وبعد ثمانى ساعات بلغنا بلدة دندره.

بلدة دندره

إنها فى حكم جرجا وفى ناحية فرشوط، وهى بلدة معمورة كأنها إرم ذات العماد، بها ألف بيت وجامع وتجاوزناها فى أرض رملية حجرية وبعد سبع ساعات بلغنا قصبة به هو.

أوصاف قصبة به هو

إنها كاشفية أخرى لجرجا وليس فيها جند ولا قائد ولكن كاشفها يحصل فى كل عام للسلطان عشرين كيسًا من المال و (   )[1] أردب من الغلال، وبها باشا لاستعجال الغلال، إنها قضاء فرشوط، ولها حدائق جميلة تشبه حديقة إرم، كما أن بها ألف بيت وسبعة مساجد وجامع ذو منارة وسوق ومقهى وحانة للبوزة وداران للضيافة، وليس فيها حمّام ولا سوق للبز، والتمر فيها وفير من عجائب هذه المدينة أن فيها شجرة فى غرب المدينة هى شجرة سنط وقد تحطم جذع هذه الشجرة، وسقطت بعض أغصانها على الأرض، ولكن بنيت من جديد هذه الأغصان، فأورقت هذه الأغصان وأثمرت ما ليس له مثيل، وإذا جاء الخريف وهطل المطر سقطت هذه الأغصان على الأرض وإذا جاء الربيع تبدأ تورق غصونها ثانية وما وجد على ظهر الأرض شجرة لها مثل صفاتها

(١) بياض فى الأصل.

ويقول الشيوخ من أهل تلك المدينة إن هذه الشجرة وجدت منذ ألف عام إن رجلاً جنبًا حمل فأسًا وأراد أن يقطع هذه الشجرة، وأصبحت أوراقها مثل أوراق الخريف وتسقط بعض أوراقها من الخوف، وفى التو تبقى أغصانها على حالها، وأهل الصعيد لا خبر لهم عن هذه الشجرة، بيد أن الأقباط يعرفون هذا من أخبارها، بل إن بعضهم هم الذين مضوا معى كى أشاهدها، إنها دليل على بديع وغريب صُنْعِهِ عز وجل، ولقد شاهدتها فإنها تستحق المشاهدة، وغادرنا هذا الموضع وسِرْنَا خمس ساعات على شاطئ النيل وبلغنا قصبة فرشوط.

أوصاف قصبة فرشوط

إنها فى حكم جرجا إنها كاشفية أخرى تؤدى مالاً وأكياسًا أخرى ويحصل مائتان من سكانها الأموال، ولهذا جند من الطوائف السبع وقضاؤها مائة وخمسون أقجه وتؤدى فى العام خمسمائة قرش، لأن أهلها من عرب الهوارة المطيعين، ولشيخهم ولد واحد اسمه على، وله ثلاثة آلاف من الفرسان من الهوارة، وعلى شاطئ النيل ثمانمائة بيت بين الحدائق والنخيل، ولها أحد عشر مسجدًا، وجامع كما أن فيها بضع أسواق صغيرة ومقاه، وحانات للبوزه، ولكن ليس فيها مدارس ولا حَمّام، أما علماء فرشوط فهم كثرة، ومنهم المفسرون والمحدثون وأكثر من ألف مصنف كما أن منهم مؤلفون من صالحى الأمة، وفى مصر شهرة واسعة للعلماء الغمراويين والفرشوطيين والأسيوطيين، ولاعتدال الجو فإن الشيوخ والشبان راجحة عقولهم كما أن الصبيان الذين يتعلمون فى المكاتب أذكياء مجتهدون، وأصل تسمية فرشوط أن نوحًا ـ عليه السلام ـ قدمها بعد الطوفان، وقد وهب هذه الأرض إلى فرشوط بن مصرايم بن بيطار بن حام بن نوح، وقد عُمِّرَ فرشوط هذا ألفًا ومائة سنة وعندما مضى إلى بلاد فونجستان، بنى مائة وأربعين مدينة ومن هذه المدن مدينة فرشوط وكانت قديمًا مدينة جميلة، وما زالت آثار أبنيتها ماثلة للعيان، وغادرنا هذه المدينة ومضينا على ساحل النيل خمس ساعات وبلغنا قصبة بسمتهوط.

أوصاف قصبة سمنهوط

إنها مدينة عظيمة بناها سمنهوط وهو حفيد نوح لابنه بيطر، إلا أن هذه المدينة على مر الأيام تلاعب بالاستيلاء عليها أبناءه فأصبحت مقراً لأعشاش البوم، والحمام، إنها كاشفية تابعة لالتزام جرجا وتقدم عشرة أكياس من المال وستمائة أردب من الغلال ولها أغا لاستعجال الغلال، ولكن ليس لها جند من سبع طوائف إلا أن كاشفًا يحكمها مع مائة من رجاله، ويحصل المال، ولها قضاء فى ناحيتها، والمدينة على ضفة النيل إن فيها حدائق ونخيلاً وكأنها جنة عدن، وفيها ألفا بيت وسبع محلات وعشرون مسجداً وثلاث جوامع كما أن فيها كثيراً من الأسواق الصغيرة ومقهى وحانة للبوزه، وليس فيها مدرسة ولا حمام، وكلهم من الهواره، ونواحى هذه المدينة الثلاث أرض كثيرة الزرع ففيها القمح والفول والشعير لأن جوها لطيف، وبها خيول فارّة والمغارات التى فى جانبها الشرقى بينها مغارة عظيمة.

أوصاف هذه المغارة

ومن عجب أن فى تلك المغارة بذر كتان تكوم من ألف عام وحجم هذه البذور كحجم حبة الفول فى يومنا هذا، إنها بذور كبيرة للكتان، ولم يوجد من مضى على هذه المغارة من أجل بذور الكتان، وإذا ما رآها خرج سالمًا، أما إذا قصد أن يأخذ بذرة من هذه البذور جاءته حشرات فأكلت جسده، ولم يَبْقَ منه إلا العظام، ولما كنا فى هذه المغارة أتت جاموسة إلى الغار فلما بدأت تأكل بذور الكتان قدم صاحب هذه الجاموسة، فرأى أجناسًا من المخلوقات قد دنت عليها والتهمتها بتمامها، فخرج من الجاموسة إنسان وسد باب المغارة عدة مرات ثم بنى جداراً كأنه ترس، يا له من منظر عجب وما أكثر العجائب والغرائب فى هذه المدينة لقد شاهدت هذا فمضيت أربع ساعات فى أرض مستوية على ضفة النيل مع نائب الكتخدا محمد أغا، وبلغنا قصبة برديس.

أوصاف قصبة برديس

إنها نيابة جرجا يحصل غلالها أغا جرجا، وهى كاشفية يحكمها كاشف مع خمسين من رجاله، ويجمعون الغلال من أربعين قرية ويبقى منها عشرة أكياس، وليس فيها

جنود مستحفظون، إنها قصبة على شاطئ النيل كثيرة الحدائق والبساتين وبها جوامع ومساجد وأسواق صغيرة، ولكن ليس فيها خان ولا حَمّام، وجميع أهلها من قبيلة الهوارة وشيخها ابن أبى مؤذن بينما كنا عنده تحارب ابن الشيخ على ابن المؤذن مع أخيه حربًا ضروسًا أمام أعيننا، فقتل سبعمائة رجل وفى التو واللحظة تعانق أهل القبيلتين، وتصالحوا وانصرف عن القبيلة الفزع والجزع فحملوا القتلى على الخيل والإبل، يا له من منظر عجيب، ولا سُئِلَ عن هذا الحاكم، وكأنما هذه الحرب كانت قانونًا قديما، ولم يتشاوروا فيه وغادرنا قصبة برديس وعبرنا حوالى مائة بلد من قبيلة الهوارة، وفى الساعة الخامسة بلغنا مدينة جرجا.

اوصاف جرجا المدينة العظيمة

نزلنا فى قصر البك، والتقينا بأصدقائنا وأحبابنا، وأحضرنا الهدايا على الجمال والخيول، وقدمناها إلى العرب لتربيتها وبسطنا إلى بك جرجا رجاءنا بالسماح لنا بالمضى إلى ولاية الواحة، فقال على الرأس والعين وكان معنا خمسون جملاً تحمل المؤن.

طوينا المنازل من جرجا إلى ولاية الواحات، فغادرنا جرجا واخترقنا الصحراء غربًا وسِرنَا فى أرض غير ذات زرع، ولا ماء فيها، وطوينا منازل وسِرنْا فى خمسة أيام بلياليها وبلغنا ألواح.

أوصاف (الواح) تلك المدينة القديمة

يقال إن أول من بنى هذه المدينة قبل طوفان نوح حاكم مصر نقراوش، وأنه كاهن عظيم بنى سبع مدن تسمى أمسوس، وقد عمر مائة وثمانين عامًا، وبعد وفاته خلفه ولده انتراش وكان كأبيه ساحرًا ماهرًا، وعمر ثلاثمائة عام، إنه أول من بنى مدينة ألواح وتولى الملك من بعده أخوه مصرايم، وكان كاهنًا عظيمًا حكيمًا وقد عمر مدينة ألواح حتى أصبحت أعظم من مدينة أمسوس، وبعد الطوفان أصبحت خرابًا يبابًا، وبعد الطوفان وجد ابن كنعان بن نوح جثة أبيه كنعان فى مدينة ألواح فدفنه فى أرضها، وقد

عمرها بوبلجان بن كنعان بن نوح، وفى غرب مدينة ألواح جِبَالٌ حمر، ويسمونها جبل كنعان، وكنعان مدفون فى صخرة بها، ويتردد كثير من القبط على قبره لزيارته، أما المسلمون فيمتنعون من زيارة قبره لأن كنعان الابن الرابع لنوح إلا أنه لم يركب السفينة مع أبيه نوح النجى وارتد، وغرق فى الطوفان ومات كافرًا، إنه مدفون فى مدينة ألواح ولذلك منعت زيارة قبره، إن مدينة ألواح تقع فى صحراء مترامية الأطراف إنها لطيفة الجو وفيها ماء وفير ونخيل وحدائق، وفيها ألف بيت صغير كما أن فيها جامعين وستة مساجد، ومقهى وحانات للبوزه ولكن ليس فيها خان ولا حمام وسوق كبيرة، ولكن يجتمع خلق كثير فى ألواح كل أسبوع ويبيعون ويشترون بالعملة الذهبية والقروش، إنهم يؤلفون جماعة عظيمة وحاكم ألواح هو الكاشف الكبير، وله قائم مقام، ولألواح قاضى ونائبه يحكم، وليس لهذه المدينة قلعة ولكن حولها خندق يحميها كما أن لها سورًا فيه سبعة أبواب، يوصد البوابون هذه الأبواب ليلاً، وأبوابها من خشب النخيل، والبوابون والحراس يغلقون هذه الأبواب، لأنهم يخشون عادية عرب الصحراء غير أن بوابى هذه الأبواب حراس مهرة، وبلغ الأمر من شهرتهم وبراعتهم أنهم يختارون كذلك بوابين وحراسًا فى مصر لقصور مصر وقصر الكتخدا والديوان والقلعة، حتى أن عمرو بن العاص حين فتح مصر أحسن إلى هؤلاء البوابين بل إن السلطان سليم حين فتح مصر اختار بوابى ألواح حراسًا لأبواب مطبخ القلعة وباب ساقية القصر، وقد تولوا حراسة القلعة، ولما دخل العثمانيون مصر كان ذلك وقت المغرب رفع الأذان ورفعت الأعلام البيض على سبعة وسبعين برجًا من أبراج القلعة وقرعت طبول آل عثمان هنا وهناك، وبعد أن وضعت الحرب أوزارها امتلأت القلعة، لذلك تم فتح قلعة مصر وثَمَّة فرمانات لسليم خاصة بهؤلاء البوابين لأنهم منذ قديم كانوا بوابين وكانوا يتولون ذلك كابرًا عن كابر، وكان هؤلاء البوابون يتقاضون رواتب من الحكام والكاشفين، وكان ذلك طبق قانون سليم، وتقاريره تشهد بأن خمسين ألفًا منهم كانوا يقومون بالخدمة وكان يأتى البوابون من ألواح مرة كل ستة لشهر ويمضى القدماء منهم، وهم إلى يومنا

هذا يؤدون خدمتهم، إنهم معروفون باستقامتهم وتقواهم وحميد سجاياهم، وسبعة من الواحات فى حكم جرجا إلا أنهم كانوا قبل ذلك فى حكم منفلوط وكانوا يلبسون الخلعه من قبله ومنهم من كان يصبح كاشفًا لأنه كان فى منفلوط جمرك عظيم، وفى كل عام كانت مئات الآلاف من الإبل والغنم والبقر تأتى من الواحات ويحملها العرب ويعلم بذلك كاشف الواحة، فمع ألف من العرب وحاملى البنادق يقابلون القوافل القادمة من الولايات، يقبضون عليها ويأخذون كل شىء من أمتعتهم ويسجلونه فى دفتر ويقدمون هذا الدفتر إلى كاشف منفلوط ويعلنون ذلك فينال التجار بناء على ما جاء فى دفتر كاشف ألواح ينالون العشر، فيجمع المال ولذلك كانوا تحت حكم كاشف منفلوط، ولكن ذلك كان فى إيالة جرجا وكان لحاكم جرجا العشر من القوافل الآتية إلى جرجا وذلك طبق القانون القديم، لقد شاهدت مدينة ألواح وتناولت الغداء مع قائم مقام الكاشف فأرسلت خمسمائة قِربَة ماء إلى الغرب من ألواح، وفى اليوم الأول ونحن نعبر الصحراء عصفت ريح السَموم فغطينا طعامنا بقرب الماء فحفظناها فرأينا بعد أن تمضى فنظرنا فلم نجد قطرة ماء فى قِرَبِنَا، وقال رفاقنا شكرًا لله أن مدينة ألواح الكبرى قريبة ولو أن ريح السموم هبت علينا عند خروجنا من مدينة جرجا وقطعنا المراحل ستة أيام لما بقى شىء من الماء لدينا ووردنا موارد الهلاك جميعًا، فقالوا الحمد لله أن مدينة ألواح الكبرى قريبة وفى وقت العصر بلغنا مدينة قليمون.

أوصاف مدينة قليمون

بانيها هو كاهن من كهان قليمون؛ ولذلك يسمون هذه المدينة باسم قليمون الحكيم، هذا وبعد الطوفان كان لبيطر بن حام أبو القبابط ثلاثون ولدًا كان أكبرهم مصر، وأبو مصر وهو بيطر بن حام مات فى الطوفان فدفنوه فى جبل بجانب الهرم فاستقل ابنه مصر بمصر ملكًا، وكان له تسعة وعشرون من الأخوة فوزعهم على أقاليم مصر فعمروها، وبعد الطوفان بألفين وستمائة سنة هلك ملكهم مصر وأدرك مصر الموت، ودفن إلى جانب أبيه بيطر فى جبال الهرم، وكانت جبال الأهرام هذه إلى عهد إبراهيم -

عليه السلام ـ مزاراً للخاص والعام، وبعده ملك مصر الملك قفط ولم يكن من ذريته، فظهرت لغة القبط، وقدم هود ـ عليه السلام ـ فى عهد قفط هذا وبناء على تعاليم هود ـ عليه السلام ـ بنى قفط مدينة ألواح وجعلها مدينة مثل إرم ذات العماد وقد حكم الملك قفط أربعمائة وثمانين عاماً ثم مات فدفنه هود فى الهرم وبنى كذلك فى وادى القرى بالقرب من المدينة بالقرب من صخرة ناقة صالح مدينة سكنها، ولذلك فإن حجاج الشام يسمون هذه المدينة مدينة هود ثم نقل الملك قفط ملكه إلى أشمون، وقد بنى أخوه مدينتى ألواح الكبرى وأشمون وعمرها وما زالت فى خرائب ألواح الكبرى أبنية للملك قفط والملك أشمون وهناك تواريخ لها بالخط القبطى.

إن هذا الشيخ الفانى رأى عديداً من عرس الدنيا.

وبعد أن فتح مصر عمرو بن العاص واستولى العثمانيون على مصر من يد الشراكسة والآن يوجد من قبل خيره بك لمنفلوط كاشف آخر وهو يؤدى فى كل عام سبعين كيساً، ولكن ليس ثمة أغا للغلال ولهذا الكاشف من مستحفظى الطوائف السبع مائة فارس وألف فارس من العرب وله سبع مدن فى الواحات، وذكر هذا فى موضعه، وغير هذه الواحات السبع لا وجود لقرى ولا قصبات وفيها أرض زراعية وحدائق كثيرة ويفيض للكاشف فى العام مائة كيس وإذا قدم التجار وكان الطالع طالع نحس ولم يأتِ الجلابه يتحصل من جميع الحدائق عشرة أكياس، وهذه الواحات قضاءها مائة وخمسين أقجه، ولها شيخ إسلام ونقيب أشراف وشيوخ على المذاهب الأربعة، ولكن ليس فيها أعيان ولا أشراف والفقراء فيها كثير، فى داخل هذه المدينة وخارجها فى الصحراء آثار كثيرة، وبها آلاف الطلاسم كما دفنت فيها كنوز وكنوز، وعلى الأحجار والصخور علامات متعددة وإلى يومنا هذا يستخرج المغاربة هذه الكنوز الدفينة وليس ثمة من يمنع ذلك وعلى كل كنز يهلك آلاف مؤلفة من أهل الهند والسند يهلكون وترقد جثثهم تحت الرمال، إن المعادن فى تلك الأرض لا يعلم كثرتها إلا الله ـ سبحانه وتعالى ـ ومن هذه المعادن حجر الشب الأحمر والتراب الأحمر والزاج والزرنيخ وحجر الكلس وحجر

الفرح وحجر اليرقان، والحجر البلغمى وحجر البلاط وهو حجر لين، وينشر بالمنشار قطعًا قطعًا وهم ينضدون به أرض البيوت والحمامات وبعد أن يمر عليه الهواء يصبح صلبًا وكذلك معدن الرصاص والذهب والفضة والكبريت والنفط والقطران غير أن القوم لا يعرفون كيف يستخرجون المعادن ولكن لهم محاصيل أخرى كثيرة، ولا وجود للحديد ولا النحاس فيها ولكن لديهم مياه كثيرة، وإذا ما طلب أحد ماء حفر الأرض فيخرج منها ماء عذب ويسقط الماء من فم الغنم، وإذا حفرت الأرض وظهر الماء حمل إلى الحدائق ليرويها، إن الماء العذب غزيرٌ وفير، وبعض هذه المياه مسهل وبعضها قابض وبعض هذه المياه مثل الخل يضعونه فى الحساء، وهو حامض فى غاية الحموضة، ومن المياه ما هو ماء ملح وهم يضيفونه إلى الطعام، ومنها ماء أحمر اللون ومنه يخرج سمك النيل وإذا مسحت الجراح ببعض المياه اندملت وشفيت، ومن حكمة الله أن هذه المياه متغايرة فلكل ماء طعم ولون وخاصية (يفعل الله ما يشاء بقدرته ويحكم ما يريد بعزته)، وأهل الفرنج يصنعون من هذه المياه، الزجاج والصفيح والنحاس الغليظ وهم يضعون كل ماء بما له من خاصية فى جرار يرسلونها إلى مختلف البلاد وهذه المياه لا تصيبها الكدرة ولا يلحق بها تغير فى يوم من الأيام، وكان معنا رفيق يركب وحيد القرن وهو درويش ولما مسح وجهه بالماء ابيض وجهه ولحيته ولما سألته عن سبب بياض لحيته، وكنت أنظر إلى اللحى لأرى، وقد توضأت، وتسائلت عن أثر الوضوء فقال إن مسح لحيتك بهذا الماء منظر عجب فإذا سرق اللصوص خيولاً أو أنعامًا وكان لونها أسود أو أحمر غسلوها بهذا الماء فأصبح لونها أبيض، وبذلك تمكنوا من بيعها دون ما خشية أن يفتضح أمر سرقتهم، وتلك خاصية لهذا الماء وكان عندى فلو غيرت لونه إلى الأبيض بهذا الماء فغسلته به فصار لونه كلون اللبن، وفى ولاية الواحات سبع مدن بين كل مدينة وأخرى مسيرة يوم واحد وفيها حدائق وبساتين ومزارع، ولكن ولاية الواح الكبرى معمورة لأنها عاصمة الحاكم، وفيها قاض وأعيان، وسبب تسمية هذه الديار بالواحات أنه قد بناها كنعان بن نوح وله بنتان إحداهما تسمى كنسه والأخرى تسمى

حديه وقد وجدتا مع نوح فـى السفينة عند الطوفان، وكانت لهـما النجاة إلا أن أباهما هلك فانـطلقتا إلى الجـبال فنقلتـا جثة أبيهمـا على ألواح ودفنتـا جثه فى غلو فـشَعَبَ السُّلْوَانُ قلبهما ولكن داما على حزنهما عليه ليل نهار وذهب بصرهما وتمثل لهما إبليس فى هيئـة شاب وسألهما قائلاً أنـتما من بعد فراق أبـيكما فى بكاء ونحـيب أتريدان أن تشاهدا أبـاكما فى التو؟ وأخذ إبـليس لوحًا من ألواح أبـيهما وصور على تـلك اللوح صورة لكنعان أبيهما، وكأن كنعان حى وحمـلت البنتان هذه الصورة إلى دارهما وكانتا إذا نظرتـا إليه وجدتـا الصبر والـسلوان، ودامت حالـهما علـى ذلك مدة مديـدة حتى أدركهما المـوت، أما أولادهما فقد عـبدوا هذه الصورة التـى على اللوح فأصـبحوا من عبدة الصنم، ولـذلك سميت عبدة الأصنام، بالـلوحية نسبة إلى عبادتـهم هذا اللوح، ولذلك سميت هذه المدينة بألواح، وهذه اللوحة فـى كنيسة على شاطئ النيل فى الضفّة المقابلـة فى كنيسة لـرهبان من القبط، وتـسمى الكنيـسة دير أم على وهم يـعبدون هذه الصورة وأقاموا أصنامًـا مثل ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر وعبدوها فـعبد الكفرة هذا اللوح إلى الآن، وقد رأينا إبـان سياحتنا أن الكفار يعبدون الـصورة وإذا ما سب الكفار سب بأنه يؤمن باللوح، ولقد كانت عـبادة الألواح هذه بإغْوَاءٍ من إبليس، وفى جوانب مدينة ألـواح الكبرى الأربعة قـلاع، ولهم رؤساء وجنود ومـدافع، إنها مدينـة تقع فى صحراء مستوية وبيوتها جميعًا مكسـوة سطوحها بالتراب والكلس وبها مـساجد وجامعان لهمـا مئذنة، وليـس فيها حَمَّام ولا مـدرسة ولا تكية ولا خـان ولا مبرة، ولكن فـيها أسواق صغيرة ومقهى وحانة للبوزه، وليس فيهـا سوق للبَزّ ولقلاعها أبواب متينة وليس فيهـا أبنية مكســوة بالرصاص ولكـن بها آثار لعـمران قديم لا يعلم حـصرها إلا الله؛ ولطيب جوها كان جمـال أهلها، وأهلها يكرمون ويحبون الغربـاء، وفى حدائقها طيور ذات تغريد يثيـر الطرب فى النفوس، وفى بساتـينها بطيخ أصفر وأخضـر لذة للآكلين، إنها كثيرة الخـيرات ومتكاثرة الكائنات، وأنهـارها جارية، أما التمر فيهـا فمن مائة نوع وعشرة وإذا ما نضـج التمر الأحمر كان فى حـلاوة التين وإذا ما اصفرت التمـرة بلغت

التمرة طول الساعد وطولها طول التمر المعروف بالخصطاوى فى بغداد وهو لذيذ الطعم، وما فى هـذه الديار من رطـب لا وجود لمثلـه فى البصـرة ولا بغداد ولا الطـائف ولا الحجاز ولا الإحساء ولكن فى المدينة المنورة التمر المعروف بجلبى فهو تمر لذيذ المذاق إلا أنه قليل وفى كل عام يـحمل التمر من ألواح إلى الأقاليم السبعة حـمل خمسمائة ألف بعير من الـتمر كما أن بها الخوخ والمشمـش والكمثرى والعنب والتفـاح والرمان والتين والتوت كثير طيب، كما أن الجميلات فيها كثير ولكن الفقراء فيها أكثر ولذلك لا عدالة فى هذه الديار كما أنه يكثر فيها ذوى البشـرة السمراء، وأهلها يتجرون فى الغنم والمعز والعجول والبساتين والتمر وهم بذلك يعيشون فى كفاف.

* * *



الخاتمـة

ولله نحمد أن كتابنا هذا بـلغ نهايته هنا، كما نحمد الله ونثنى علـيه الثناء كله على أننا أقمنا فى ديار مصر القاهرة نادرة العصر وجعلنا أوراق كتاب رحلتنا هذه المتفرقة مثل خرقة الدرويش ذات ألوان.

وكانت ألفاظها من بدايـتها إلى نهايتها فى عصر والى مصر الباشـا وأتممنا كتابنا فى ظل خيره ورعايـته وإن كان هذا الكتاب فى رأى الـعقلاء والحكماء لا يخلـو من نقص وعيب وذلك لكـثرة تنقلنا بين الـبلاد ولم يهتم بكتـابته بألفاظ جذلة والمـرجو منهم أن يغضوا النظر عن السهو والغلط، ولعلهم يسترون عيبه وأن يمحوا مواضع هذا الخطأ وأن يصلحوا ما فيه الحاجة إلى إصلاحه فى عبـارته، فلقد حملت مسودات هذا الكتاب وأنا أسيح فى البلاد خمسين عامًا ولكثرة سياحـتى انزويت فى ركن العزلة ولم يتيسر لى أن أتتبع كل ما جاء فـى التواريخ، ورأيت نهاية حادث من الأحداث، ولم أقـيد فى كتابى نهاية حدث بالذات، ولكن أستاذنا فى ديار مصر الشيخ على شمرلى ألقيت إليه الـسمع وأخذت عنه التفاسير الشريفة والأحاديث النبـوية والآيات الكريمة فأثبتها فى مواضعها، وبذلك تجرأت على كتابة هذه الأوراق (والعـذر عند كرام الناس مقبول)، وأنا أدعو الله له بالخير ولم أورد المثنويات فى خاتمة الكتاب وذكرت.

هذا التاريـخ كتبه أضعف الـكتّاب الحاج محمد المـعروف بحافظ القـرآن المجيد من تلاميذ محمد راسم كاتب السراير العامرة لسنة خمس وستين ومائة وألف من هجرة من له السعادة والمجد والشرف.

وإذا سأل من ينظر فى هـذا الكتاب حين يفتح صفحات هذا الـكتاب وجد وصفًا لما يريد من القرى والقصبـات والمدن، ففى الصفحة الأولى من هذا الكتـاب ديباجة خطبة باللغة العـبرية بوزن مفتعلين مفتعـلين، وذكر أوصاف البلاد القديمة والعظـيمة التى فى مصر المحروسة نـادرة العصر أى أم الدنيا وأسمـاء كتب التاريخ وعرفت بـالملوك الذين قدموا وحكموا مصر قبل وبعد الطوفان ومن بنوا مدن مصر بعد الطوفان، وعرفت بمائة

وخمسين خليفة، وعرفت بالعمالقة والملك طوطيس وإبراهيم ـ عليه السلام ـ وزوجته ساره، كما ذكرت حكاية اعتناق سارة للإسلام وبينت أن يوست الصديق نبى مدينة الفيوم كما عينت تاريخ وفاته وذكرت آل ريان والأنبياء الذين قدموا مصر وذكرت كذلك حكاية الإسكندر ذو القرنين، وعرفت بشط العرب وعرفت بموسى عليه السلام ورفيقه الخضر، أما الذين قدموا مصر من آل الرسول ﷺ والذين دخلوها من الحكماء آل الأشكانيين وآل الكيانيين وآل الساسانيين وعمرو بن العاص الذى فتح مصر فى عهد عمر بن الخطاب هؤلاء ذكرتهم الآيات الشريفة صريحة وكناية، وكذلك الآيات الكريمة والأحاديث كما ورد ذكر عن الحرب التى نشبت بين عمرو بن العاص وكفار الروم، وكذلك ما وقع بين المقوقس وجميع الملوك الذين ملكوا مصر من عهد عمرو بن العاص إلى عهد السلطان العثمانى محمد الرابع أولئك عرف بهم هذا الكتاب، كما تضمن الكتاب تاريخًا للعباسيين والفاطميين والطاهريين والصفاريين والسامانيين والزياريين والبويهيين وآل سبكتكين، وكذلك الغوريين والخوارزميين والسلاجقة والقرامانيين، ودولة تاج الدولة والأتابكة، وآل العمرية وآل البكيان كبير وآل الصالحيين والأيوبيين وشاد الكردى وآل البحرية، ودولة الشراكسة ومماليك البحرية، والتركمان والأكراد والقراخطائيين وآل الأيوبيين اليمنيين، وآل الملاح وآل بنى أرتق ودولة آل مروان وآل مرداس الكلابى وآل بنى أسد وآل بنى همذان وآل بنى عقيل بن أبى طالب وأمراء آل التركمانيين وآل ماهان الدانشمنديه وآل قره يوسف وآل آق قيونليين وآل دانشمند سيواس وآل ملوك أصفهان وآل دربنديان وآل شامخاليان وآل الأوزبك وآل جنكيز وكلهم اثنتا عشرة فرقة وكذلك آل جنكيز القرم وآل جنكيز ما وراء النهر وآل جنكيز إيران وتوران والتيموريين من آل جنكيز صاحب خروج وأولاد تيمور خان توركان، وممالك إيران وتوران وهمدان وآل تيمور خاقان الهند ودولة ملوك السند ودولة ملوك مولتان وذكر أحوال خاقان الصين وأحوال ملك الصين الفغفور وأحوال ملك الديلم وأحوال ملك بلخ وبخارى ودولة الأنجوليين ودولة المظفريين ودولة آل جوبانيين وآل الإيلخانيين ودولة

آل كرتباى ودولة السربداريين وآل العباسيين الأكراد وحاكم الجزيرة وسيد خان وصوران وأردلان والجزيرة وبنبانش وحاكم محمودى وحاكم حكارى وحاكم هيزان وحاكم بتليس وحاكم خرو وحاكم بالو وآل الكيانيين والعجم وآل الإشكانيين وآل القروانيين وآل المامانيين وآل الماهاتيان الذين هم أسلاف آل عثمان وآل بنى رسول الله وآل الهاشميين فى مكة وآل بنى قتادة.

ذكر سلاطين مصر القاهرة

وبعد أمير المؤمنين جاء الأمويون والعباسيون والإخشيديون والفاطميون وبينهما آل البحرية وبعدهم دولة نور الدين الشهيد فى الشام، ودولة الشراكسة ودولة آل عثمان الذين فتحوا مصر القاهرة، وأبو الفتح السلطان محمد خان والسلطان با يزيد خان وسليم خان الأول وأبو الفتح ومحاصر استانبول، وفاتح قليون فى فرنسا وما أحدث الإمام الشافعى فى مصر من الصوباشية وأسماء ثمانية وأربعين سلطانًا فى جزيرة مصر وكذلك ذكر أعيان مصر ووجهائها من سلاطين مصر الأوائل آل الأدارسة وآل حمودة وسلاطين الموحدين وآل بنى طاس والملثمين وآل بنى حرين والشرفاء وآل الكماليين وآل بنى الأغلب وآل بنى كلب، وآل بادنيش وآل بنى حفص وسلاطين قاش ودولة مراكش وسلاطين السودان وسلاطين فونجستان والملك قفان وملك بربرستان وملك قرمانقه وملك بغه نسكى وملك حردقان وهم من عبدة النار وملوك ذى اليزن وآل بنى هلال وآل الأفاريقه وملك ماوى بورنوا وملك أفنو ودولة ديار الجزائر ودولة طونسى ودولة طرابلس والمغرب.

ملوك الجانب الشرقى فى جزيرة مصر

أولاً ملك دومبيه وآل حابيه وسلاطين الحبش فى إقليم الحبشة وفيها ثلاثمائة ملك وفى الفصل الثانى عشر بيان عدد ما على الأرض من قرى المشركين، أولاد كيومرث وذريته من آل دادانيان أربع طبقات، ودولة كسرى وآل الدادانيين فى جورجيا، والجورجيين، وآل آجق باش وآل كوربل وآل شوشواد وآل مكرل وآل تاجدار وملك دار

موسكـو وملك له وملـك جه وملك أردك المجرى وأورتـه المجر والملك أسفـاج وملك هولندا ودولة الداغارك ودولة دوتقارقيزه وملك جاسار انيره طورغسه ودولة ملك انجلترا ودولة المجر الصـغيرة والهرسك ومـنها زرين أوغلو وبـكان أوغلو ونداز أوغلـو وكبان أوغلو وشوار أغلـو ودودوشقه أوغلو ودولة بلاى البـندقية ودولة دوبره البنـدقية وولاية قزل الما ودولة اريم بابا وهى رأس الـدولة المسيحية هذا كله ما ذكر بيـانه، وملك فرنسا ودولة جنوه العتيقة ودولة العزاندوق ودولة البرتغال الضالة ودولة الأفلاق ودولة بوغدان والدولة الأوربية التى دانت لآل عثمـان وهى اسلون وقورول وطوت وكروات والصرب والبلغار واللاتين والهرسك ونيبق ولاز وحيلاز والقزاق العاق والروس المنحوسين والبانيا والموره وجقـونه الموره ومانـيه أورومى واللاز الأورومـيه وفى جزيـرة كريد الأصفـاقيه الروميـة، وفى جزيرة الـقرم طاط إلى الـرومية، هذه الـدول كلها تـدين بالطـاعة لآل عثمان. أما فى الأناضول ولاية جركستان وفيها:

أولاً جزيرة طـمان الشركسيـة وشغاكه الشـركسية، وزانا الـشركسية، وزانا الـكبرى الشركـسية، وحاتوتاى الـشركسية، والأدمى الـشركسية وبولـتقاى الشركسـية وبوزدوق الشركسية ومـامشوخ الشركسية وولاية بـنى الـشركسية وتقفو الشركسـية وولاية قبارتى الشركسية وولاية طاوسطان الشركسية لقد كتب عن كل هذه الدول على وجه التفصيل.

بيان من سكن القبيجاق والقلمان

الذين سكنوا فى بقاع أخرى من الكفار

أولاً دولة طايسـى شاه وموينجاق شاه وقوبـه قلماخ شاه وجاقان قـلماخ وكوك دان قلماح وأورميت قـالمق والقرى التابعة لها كـما فيه ذكر قوم أبازه الساكنـين على ساحل البحـر الأسود وفى الجبال والحـدائق منهم أبازه جـاجلر، وأبازه وارلان وأبازه جـاندالر وأبازه جاندالر الـكبرى وأبازه كجلر وأبازه أرتـلر وقوم صدشه الذين ليـسوا من الأبازه والشراكـه، وأبازه قامش، وأبازه سوجه لر ومـن يشبهون الشراكسة وهم أبازه بوزودق وعشيرة فوتا الأبازيه، وعشيرة بوسوخو وعشيـرة أج جى وعشيرة بسلب وعشيرة ملكية

وعشيرة ايبغا وعشيرة الافريش وعشيرة حجاقورش وعشيرة ماجا وعشيرة بانجارس، وجميع الأباره يسكنون هذه الديار.

بيان عن الروس المنحوسين

أولاً: خطمان قرداش قزاق وخطمان دورور ونقا وخطمان سركه وخطمان أخملينج ويرأباش واندريا وشره مست وزابوروشقه وخرستنا وأومان وكورلو وجهرك وكلها أتباع ملك له وبالقرب من قلعة مز الخطمان وهم التابعون لملك موسكو:

أولاً: تن صويى خطمانى وشركس القرمان الخطمانيين وخروس كرمان الخطمانيين وكرمن منجه وكرمن سو وكرمن أسود وكرمن نورق وقرمن توقاى وكرمن براص والى قلعة ازاعه على مسيرة ثلاثة أشهر مساكن سبعين من الخطمانيين.

أما دولة قياصرة الروم ودولة القبط فى مصر وإحدى وعشرون قرية وعشيرة وخطمان ذكرت فى هذه المحلة. كما ذكرت دولة اليزنان ودولة البطالسة وثلاثة وعشرون فصلاً تعرف بنشأة الدولة العثمانية:

أولاً: جد آل عثمان أرطغرل خان وآل ذو القدرية وآل رمضانية وآل دانشمنديه وآل أماسيه فى قسطمونى وآل فرهاد وآل كوتاهيه وآل كرميان وفى انكرو آل سنجان وفى صاروخان آل صارخان وآل عماد وفى صونقور صنقورباى وفى بلاد كسكن آل كسكن باى وفى بلاد تكه آل تكه باى وفى بلاد حميد كذلك أية باى وفى منتشا آل منتش باى وفى بلاد ايدين آل ايدين باى وفى بلاد لارنده آل قرمان باى وفى يلق آباد وأرطغرل باى وأسماء سلاطين هذه الدول السالف ذكرها.

كان علاء الدين بوى بكلرى، وأرطغول بك وعثمان بك وأورخان بك وشهيد مراد بك ويلدرم بك وجلبى محمد بك ومراد بك الثانى والسلطان محمد الفاتح، وبا يزيد خان وسليم خان الأول، وسليمان خان وسليم خان الثانى ومراد الثالث ومحمد الثالث وأحمد خان ومصطفى خان وعثمان الثانى ومصطفى خان ومراد الرابع وإبراهيم خان والى محمد خان الرابع ذكرت أسباب فتح السلطان سليم الأول لمصر، وسيرة سليم

الأول وكيف أنه مضى إلى بغداد ومنها إلى الكعبة والمدينة ومصر والشام وحلب ثم مضى إلى القرم ثم رأس عسكره إلى أبيه وسلم ثانية فى عام ٩١٨ واستقل بالسلطنة، وقد قتل أخوته وأبناءهم وحارب الشاه إسماعيل الصفوى وقد وصفت حربه معه تفصيلاً، كما ذكرت زيارته فى بورصه لأمير سلطان فلما قال السلام عليكم رد من القبر قائلا السلام عليكم يا فاتح مصر، وقد حارب سليم فى زحفه على مصر السلطان الغورى فى مرج دابق، وألحق به هزيمة ساحقة فى مرج دابق ومكث فى الشام عامًا واحدًا وفتح من البلاد مرعش وعين تاب وحلب وعزز وكلس وانطاكية وفتح مائة وسبعين قلعة وكم قبرًا وجامعًا وحمَّامًا وخان ومساجد فى الشام، وفى الكتاب كلام عن سليم خان وقول الحق جل وعلا، ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ...﴾ [الأنبياء:١٠٥] إلى آخر الآية الكريمة، وفتح قلعة غزة الهاشم وفيها أسماء جميع مشايخ العرب كما أنه فى أرض حاسان فى مدينة بلبيس حارب سليم خان الغورى حربًا ضروسًا وقد هلك الغورى فيها كما أن كل جنود مصر حصدتهم السيوف، وأصبح محمد شاه خليفة للغورى لكنه خلع وخلفه السلطان طومان باى واستشهد سنان باشا فى أرض الخانكة.

فتح قلعة مصر

ذكر فى الكتاب حرب سليم العظمى وتاريخ فتح نامه الذى كتبه كمال باشا زاده ووقوع السلطان طومان باى فى الأسر وعاقبت أمر طومان باى، والأسطول العثمانى المكون من سبعمائة سفينة فى الإسكندرية بقيادة مصطفى باشا ومضى السلطان سليم إلى قصر أم القياس، كما ذكر مضى السلطان سليم إلى رشيد والإسكندرية وعثوره على خزانة السلطان الغورى فى الإسكندرية، وبيان ما سَنَّ السلطان سليم من قانون فى مصر، ووصول السلطان سليم إلى استانبول، وذكر وفاته، وكذلك بيان ما ذكر كمال باشا زاده من تقسيم مصر إلى تسع أقاليم وذكر أسماء جميع القائمين بالأمر فى مصر ورؤساء الأقاليم، كما ذكرت أسماء جميع الكاشفين فى مصر وقانون نامه سليم خان، وكذلك مراسم ديوان مصر وقوانين الملتزمين وما يجبا من ضرائب، وعدد الأكياس فى

مصر وما ضرب من مسكوكات كما ذكر عـدد ضباط الوجقات، وعدد ثلاثة وستين من كتاب الدواوين وغيرهم من الكتاب وذكر ما يجبى ويرسل إلى الخزانة فى مصر، وما قد يترتب مـن خسارة فى الأموال، كما ذكرت أنـواع الحيوانات وكثرة النـاس، وعدد جند الفرق الـسبع فى مصـر وغيرهم من الجنـد وبيان الرواتب الـصغيرة فى أول كـل شهر والرواتب الكبرى كل ثلاثة أشهر وجميع القوانين التى يفرضها الديوان. وفى مصر بيان أن فى مصر سـتة وسبعين قضـاء كما ذكر كل ما فـى مصر من أسماء الـعلوم وما دون كتخدا إبـراهيم باشا من أسمـاء الكاشفين والأمراء والكـتاب والملتزمين وما يـجبى من ضرائب من المقـاطعات وسبع بنادر وما ينـفق من مصروفات ويجبـى من إيرادات وبيان الإصلاحات ولغة أهل مصر وأوصاف علمـاء مصر وساداتها ونقيب الأشراف وذكر أول من بنى القـلاع فى مصر ومن ملك مصر مـن القبط واليونان والروم والـفرنجة سنة ٣١ وذكر حكايات لطيفة وبيان حدود مصر واسم جبابرة مصر وأوصاف بلدان مصر وما فى القلاع من كنوز والقلاع التى بنيت بعد الهجرة ٥٧٣.

والتعرف بخير باشـا أول حاكم لمصر من قبل العثمانيين كما ذكـرت قلعة تتألف من ثلاث طوابق وغرف الانكشاريـة وقلعة قره ميدان وحديقتها وقصر قـره ميدان مع تعيين طوله وعرضـه، وما فى داخل القلاع مـن طلاسم وبيان بالقـصور الشوامخ التـى بناها الأسلاف وورد وصف لقـصر الوالى ومائة وسـتين بيتًا وتاريـخ القصور والقلاع المـزينة وميدان السراى وديوان قايتباى وديوان الغورى مع تـعيين طوله و عرضه وتاريخها وبيان ما فيها من خطوط عجيبة وغريبة وفى الهوامـش تعيين محيط كل قلعة وفى داخل القلعة بئـر يوسف الـعجيب وغـيرها مـن الآبار فى المـدينة وعـدد من قناطـر الماء فى الـبلاد والتعريـف بمنشئيها وبنـاتها كما ورد ذكر لعـدد ما فى مصر من طرق وقصـور ومحيط القلعة الذى هو بضعة آلاف من الخطـوات وعدد الأبواب فى كل محلة، وكم فى مصر من عدد الجوامع التى أقامها أقطاب الدين والسلاطين منها جامع عمرو بن العاص فضلاً عن الجوامع التـى أقامها الـسلاطين فى ماضـى الزمان وأقام كل منهم جامـعًا على طراز

خاص مع ذكر تاريخ وأبواب ومحيط وزخارف هذه الجوامع وقد جاءت مواصفات هذه الجوامع على وجه التفصيل وورد ذكر ووصف جميع المساجد ودور العلم والمدارس ودور الحديث ودور القرآن ودور القراءة، وجميع مكاتب الصبيان وجميع تكايا الدراويش وطرق مشايخ الطرق وأسمائهم وتفاصيل هذه التكايا كما ذكرت المبرات ودور الضيافة والحمامات والخانات والربوع والمستشفيات، وذكر من يصطادون الأفاعى لعمل الترياق وذكر ما لحساء فاروق من فوائد طبية كما أنى ذكرت فيه سيرة أوليا جلبى الفقير الحقير كما سردت حكايات عجيبة وغريبة، كما ذكرت أنواع ترياق فاروق، كما ذكرت شتى أنواع الأدوية وخواصها كما وصفت السيول وتواريخها، وكذلك الآبار والسواقى والأحواض وأسماء ثمانية آلاف وتسعمائة طريق عام ومن شقوا الخلجان التى تجرى وسط المدينة وأسماء ما عليها من جسور، وكذلك البرك واسم من أنشأها وذكر جوامع ومخازن ومبرات بولاق وترسانتها وحى قايتباى وقدم النبى ورؤيا السلطان أحمد خان فيما يتعلق بأثر قدم النبى وجوامع حى قايتباى وأوصاف مدينة الفسطاط وهى مصر القديمة وذكر حكامها وبناتها ومن فيها من الصوفية وسبب تسميتها وما حولها من مدن وأسماء من بنوها والجوامع فى مصر القديمة ومخازن السيد يوسف الصديق ـ عليه السلام ـ وسواقى السلطان الغورى فى مصر القديمة وذكر كسر الخليج ومقياسه ومناقب الشيخ السادات وشيوخ جزيرة أم القياس وحكاية عمر الخاصة بالمقياس وأوصاف جزيرة أم القياس وحوضها وحضور السلطان سليم والولاة بما يعرف بكسر النيل أو كسر الخليج والموكب العظيم الذى كان يمضى فيه السلطان إلى جزيرة أم القياس وذكر موكب الوالى العظيم عند ركوبه النيل فى بولاق وما كان يطلق من ألعاب نارية فى ليلة كسر النيل احتفالاً به، وما كان يقيم الوالى من ولائم مرتين فى اليوم الواحد، كما أنه يعرف بمناسيب النيل وما جاء عنه فى كتاب الله المبين وما يمر به من بلدان كما يشير إلى أنه سبعة آلاف خليج وإحدى عشرة ترعة وجاء ذكر جبابرة مصر وكلمات باللغة القبطية تجرى على الألسنة وفيه وصف لما ترتب على فيضان النيل فى بعض البلاد من أضرار

وما فى النيل من حيوانات وما لها من خصائص كالتمساح وغيره من عجائب المخلوقات، وورد ذكر للطلاسم التى فى المقياس بجزيرة أم القياس وما حكى من حكايات عجيبة عن التمساح وما فى النيل من سمك رعاش وما يحدثه من أذى وخواص التمساح ومما فى مدينة قليوب من بئر ماهان، وقد أحصيت كل من فى مصر من أهل الحرف كما أحصيت عدد الدكاكين فيها ووصفت موكب مشاهدة رؤية هلال رمضان كما وصفت العيد فى مصر، وما فيه من مواكب عظيمة والمواكب التى كان يمر فيها والى مصر، وديوان العادلية وما كان يقيم من ولائم عظيمة، وقد ورد وصف لثلاث ليالى بالقناديل وإطلاق بنادق كما تتبعت نصائح وأوامر وزراء مصر وبينت كيف كان يحبس الأعيان وفى سجونهم يرقدون على الحصير، وبينت ما يتحصل فى إحدى وثمانين خزانة فى مصر وبينت مقادير العملات من دراهم ودوانق والمحاصيل الزراعية بأنواعها كما ذكرت المقابل والمثاقيل التى يوزن ويكال بها القمح ووصفت موكب الوالى والموكب الذى كانت تحمل فيه الخزانة لترسل إلى السلطان.

وذكرت أسماء مشايخ الطرق وعرفت المحمل الشريف وعدد المواكب التى حملت فيها أربع خزائن وأحصيت عدد الخزائن، وتصديت للموالد التى تقام فى مصر، وذكرت مناقب الشيخ اللبان ومناقب السادات أبو التخصيص وأشرت إلى ما فى مصر من طلاسم ومن عجائب وغرائب وبينت أنواع الحرف التى يتكسب بها، والنباتات والفواكه التى توجد فى مصر ولا توجد فى بلاد الترك، وعرفت بالصناعات والأطعمة والمعادن على اختلافها فى مصر، وذكرت الفلاحين وأسماء النسوة، ووصفت تاج فرعون وعادات الختان فى مصر وحفلات ختان الصبيان وذكر الملاماتية والمجازيب والمشايخ ومن تستجاب دعوتهم من الصالحين وذكرت الشيخ البكرى زاده ومحمد افندى، ونقيب الأشراف برهان افندى كما ذكرت مناقب كرامات الصبيان وعرفت بطول الليل والنهار فى مصر وكافة أقاليمها وتحدثت عن بلدانها العظيمة وأقاليمها المختلفة وضرائحها، وعرفت بمناقب الشيخ محمد البكرى ومناقب الشيخ على الشمرلى ومناقب

الكلشنى زاده جلبى، وذكرت ما فى مصر من طرق كما وصفت مولد الشيخ أحمد البدوى وذكرت سفرى إلى مدينة دمياط وإلى مدينة رشيد، وذكرت قصبة التفاحية وقصبة زفته وقصبة ميت غمر ووصفت عاصمة مصر القديمة مدينة المنوفية ووصفت قصبة طنطا ووصفت تفصيلاً مولد السيد أحمد البدوى، وأوصاف ميدان السيد أحمد البدوى كما وصفت محلة مرحوم وقصبة ابيار ومدينة النهارية القديمة، ومحلة أبو على وقصبة إبراهيم الدسوقى ومولده ومدينة دمنهور القديمة، ومدينة حوش عيسى، وذكرت مدينة العقاب وقلعة الإسكندرية وقلعة أبو قير والعجائب فى أبو قير وقصبة إتفو ووصفت ميناء رشيد وقلعة رشيد ومرج البحرين، وذكرت محلة الأمير وقصبة برمبال وقصبة دييى وقصبة ادفينه وقصبة مطوبس ومحلة جمشير وقصبة فزاره ومحلة ديروط وقصبة سنديون ومحلة عاطف وقصبة فووه ومحلة شرفا وقصبة شوروم بك ومحلة ساليه، وقصبة مالك ومحلة سومخرات، ومحلة الرحمانية ومحلة دسوق ومحلة أبو على وبلدة مرقاص ومحلة دييى الكبرى ومحلة شبراخيت ومحلة شبرريش ومحلة ميت جناح ومحلة مالجسق ومحلة صاح ومحلة الكفر الجديد ومحلة نقل.

وذكرت محلة فرزدق ومحلة اثليميه ومحلة طاهرية ومحلة كفر زياد ومحلة شابور ومحلة سليمون ومحلة كفر ناحه ومحلة الكفر الجديد الكبرى، ومحلة أبو أحمد ومحلة بحيرة ومحلة زعيره ومحلة طنوب ومحلة أمروز ومحلة طرّانه ومحلة علقمه أبو الجاوى ومحلة تماليه. ومحلة جزى وأوصاف محلة طرانه والنطرون ومحلة الزاوية ومحلة أبو فشانه ومحلة أشمون جريس وكفر شركس ومحلة قطه ومحلة أم دينار ومحلة شراوى ومحلة وراق، ومدينة بطن البقر ومحلة شبرا ومدينة امبابه وقلعة البرلس وقصبة بلطيم ومدينة الغافية ومدينة دمياط، وقلعة التينه ومدينة فرسكور وبلدة شرباز وميت غالب وبلد رأس الخيلج وميت أبو عبد الله وبلدة طهريه، وبلد بوشاط وبلد دنجى ومحلة موشاق ومحلة مدينة شربين، وأوصاف محلة برمبال وبلد دياسط وبلدة الخيارية وبلد شيرين قاش وولاية دقهل أى المنصورة، وجاء فى كتابى ذكر لمدينة المنزلة، ووصف

مدينة سمنوط والعاصمة الثانية للغربية كما ذكرت قصبة شنباط الكبرى ومدينة القليوبية.

بيان فى منازل فونجستان

أولاً: قصبة ومدينة بنى سيف العظيمة وقصبة فشنه ووصفت شجرة عجيبة ومدينة المنيا المعمورة، ومدينة أشمونيين، ومدينة ملوى وقصبة صنبو ومدينة منفلوط العظيمة ومدينة أسيوط القديمة وجبل الطيليمون (جبل الطير) العجيب وقصبة أبو تيج وقصبة تيمه وقصبة تحته وسكوته الجزيرة وقصبة سوهاج وقصبة المنشية وتخت الصعيد العالى ودهليز جسر جد.

بيان مدن وقلاع فونجستان

أولاً: بيان حدود آل عثمان:

أولاً: قلعة ماغراق الواقعة على حدود فونجستان وقلعة تنارة وقلعة سه سه ووصف منجنيق نمل ودلعين، وقلعة نارنارنته وقلعة سندى وصحراء دانقة وقلعة واردان وصحراء هانقوج وقلعة طومبو وقلعة جلته شوكزاوى، وقلعة حفير فونجستان وقلعة مشو وقلعة طومبول وولاية خردقان وقلعة فردانية وقلعة دفنا وقلعة أرقو وقلعة بنى وقلعة أرند وقلعة أرش وقلعة جريه وقلعة حناق القديمة وقلعة الخندق وقلعة قولى وقلعة بقر وبلاد السودان وقلعة دنقلة وحيوان الزرافة ومدينة الزغاوة، وقلعة سورطوش وأشكال العفاريت العجيبة وحصن الكنيسة وجامع سليمان وقلعة أتقور ورباط دفاره وقلعة الملك إدريس وقلعة غرى وقلعة مدينة خلفاهى العظيمة ومدينة ايلغون القديمة ومدينة قوثراى العظيمة ومدينة عدى وقلعة حلت الملك وقلعة نوجى وقلعة أرباجى وقلعة عطشان وذكر أوصاف وحيد القرن ودابة الأرض وقلعة بقيت وقلعة حلة الركاب، وقلعة حلة الجندى وقلعة سناره عاصمة فونجستان ومقابلة ملك فونجستان، وذكر اللغة العبرية وإقليم السودان وذكر خط وفيه ولاية رميليت الجمال وقلعة أبسوقه بالسودان وعجائب وأضاحيك والدعاء الهندى ومدينة أبو تمر ومدينة بروشش وقلعة بروشته وقلعة دنقده وجبل سندس العجيب ووادى سلجلاه وبيان العجائب فى مدينة رميليت الجمال وولاية

جرسينقه، وبيان ومنابع النيل وبيان منازل الحبش فى فونجستان ومدينة جلامه ومدينة جنجفه ومدينة سنارة عاصمة فونجستان ومدينة بقيت وأوطاف وادى قوز العريب وولاية دومبيه ومدينة بورغه وأشكال هررة المسك وقلعة ناردى ووادى ابرايش وولاية ميمونستان ومنزل دنقلاب، وجزيرة لولو ومنزل أتله ومنزل أهل الميناء وجزيرة سواكن عاصمة الحبشة ومدينة ليف وجزيرة دهلك ومن العجائب والغرائب وقلعة موص أووا وقلعة خرق أووا وقلعة هندية وبرج طورله ومدينة خراب بهلوله ومدينة زيلع أووا القديمة وزيارت بابا مندوب وقصبة سحرتا وقلعة أوقات ومدينة هدية ومدينة رازداق ومدينة مقدسوا العظيمة ومنزل قبيلة جنقله وعرضنا بالمنازل من الحبشة إلى مصر.

وتعرفت بألفاظ الحبشية ولغة عبدة النار ومنزل حاتند أووا واللغة السريانية الفصحى ومنزل قبيلة أوقوت، واللغة العبرية ومنزل شاجه ومنزل وادى جنفطة وقلعة ابريم.

تلك سياحتى أنا الحقير ومن إبريم قبائل كنوز وقلعة طومانس وبلدة حمام فرعون وقلعة ادفو وقبائل هجيزة وقبيلة جعفرى وقلعة إسنا ومدينة أرمن الكبرى ومدينة نقاده وقصبة به هو وقصبة فرشوط وقصبة سمنهوط ومن عجائب سمنهوط مغارة بذر الكتان، وقصبة برديس ومدينة جرجا وبيان بالواحات وألواح الكبرى ومدينة قليمون.

وتمت كتابة فهرس هذا الكتاب فى هذه المدينة.

* * *

محتوى المجلد الثانى